



30.3.2016

ليون تولستوي
الأعمال الأدبية الكاملة

٤

الحرب والسلام

١

ترجمة: د. سامي الدروبي

ليون تولستوي

الحرب والسلام

١

ترجمة : د. سامي الدروبي

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٧٦

ليون تولستوي

أعمال تولستوي الأدبية الكاملة

٤

يضم هذا المجلد الرابع :
الحرب^٧ والسلام
الكتاب الأول



ليون تولستوي سنة ١٨٦٢

تصدير

إن مجموع الأدب النقدي الذي أوحى به رواية تولستوي « الحرب والسلام » يبلغ من الكثرة والضخامة أننا رأينا من المناسب أن لا نقدّم هذا الأثر الى قرائنا ، على عادتنا ، بمقدمة لن تكون في أحسن الظن الا « نظرة » تضاف الى نظرات كثيرة ، بل بنص كتبه المؤلف نفسه ، وفيه حدّد أغراضه تحديداً واضحاً ، وعيّن المشكلات التي فرضت نفسها عليه ، أي وضع كتابه في موضعه من نظراته العامة وشعوره بالحياة وتفكيره آنذاك . ففي هذه الصفحات يقول لنا تولستوي على وجه الدقة ما يهم القارئ في هذه الأيام أن يعرفه عن نشأة هذا الاثر الأدبي ، وعن اتساع ينايع وحيه على قدر إيغال المؤلف في كتابته ، وعن النتائج الفلسفية التي توصل اليها في كبريات المسائل : الحرب ؛ دور الأشخاص في مجرى التاريخ ؛ دور الشعب والجماهير ، أي المصير الانساني منظوراً اليه من جهتين ، جهة الجماعة وجهة الفرد ، المصير الانساني على طريق الحياة والموت . ولكل قارئ بعد ذلك أن يقيس المسافة بين الأغراض التي حددها المؤلف ويين الكتاب على نحو ما قدّمه إلينا صاحبه .

أما فيما يتصل بالايضاحات التاريخية ، أي بالعلاقة بين الأحداث والشخص التي يصفها المؤلف وبين الواقع الذي استوحاه على نطاق واسع ، فإن الحواش المتعمقة التي وضعها الكسندر ف • سولوفييف ، تعطينا فكرة عن العمل الذي قام به الكاتب على صعيد تعريفنا بالتاريخ، وعمّا كان هناك من تواطؤ في هذه الحالة ، بين الوثيقة التاريخية والخلق الأدبي • لقد وصف كتاب « الحرب والسلام » بأنه الياذة الروسية • وهذا حق بمعنى من المعاني ، بل يجب أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول : ان هذا الكتاب الذي ليس رواية ولا قصيدة ، ولا سجلا لوقائع التاريخ ، كما يعترف بذلك تولستوي نفسه ، هذا الكتاب الذي يصفو على كل تصنيف في فئة من فئات التأليف الادبي ، هذا الكتاب الذي هو « مخلوق عجيب » ، على حدّ تعبير بيير باسكال ، والذي هو حدث لا شك أنه فريد بين أحداث الأدب العالمي على مرّ السنين ، هذا الكتاب لا يشهد لانسان من الناس بأن له قدرات فذة خارقة فحسب ، وانما يشهد أيضا بأن ما نسميه عامة باسم « النفس الروسية » ولا نعرف — بعد — قدراته الحقيقية ووظيفته الا معرفة ناقصة ، يملك طاقة روحية ، فذة خارقة هي الاخرى •

جورج هالداس

مقدمة المؤلف

في الوقت الذي أطبع فيه كتابا وقفت عليه خمس سنين من عمل متصل انقطعت له ولم أشرك به عملا آخر ، وهيات لنفسي أثناء انصرافي إليه أحسن ظروف المعيشة وأفضل شروط الحياة ، أود أن أمهد لهذا الكتاب بمقدمة أبسط فيها رأيي بصده ، فأتقي بذلك الظنون الخاطئة التي قد يثيرها لدى قرائي • إني أود أن لا يروا في كتابي وأن لا يشدوا فيه ما لم أشأ ومالم أستطع أن أودعه إياه ، وانما أود أن يلتفتوا باتباههم الى ما أردت أن أضعه فيه ، وان تكن ظروف نشر الكتاب جعلتني لا أستحسن أن ألح عليه ، فلا الوقت الذي كنت أملكه ولا حسن الحيلة الذي أوتيته ، أتاحا لي أن أحقق نيأتي تحقيقا كاملا • وإني لأستفيد من سماحة مجلة خاصة فأعرض للقراء الذين قد يهمهم الأمر ، رأي المؤلف في كتابه ، ولو عرضا ناقصا غير كامل ، موجزا غير مسهب •

١ - ما كتاب « الحرب والسلام » ؟ برواية ، ولا هو بقصيدة ، ولا هو بسجل وقائع تاريخية • ان كتاب « الحرب والسلام » هو ما أراد المؤلف وما استطاع أن يعبر عنه في هذا الشكل الذي عبر

به عنه • إن تصريحاً كهذا التصريح عن عدم الاكتراث بالأشكال المتواضع عليها والمتعارف عليها في الإنتاج الفني الثري يمكن أن يبدو غروراً لو كان مقصوداً ولم يكن له نظائر وأشباه • إن تاريخ الأدب الروسي ، منذ بوشكين ، حافل بأمثلة كثيرة على هذه المخالفات للأشكال المأخوذة عن أوروبا ، بل إنه خالٍ من مثال واحد على نقيض ذلك • فمن كتاب جوجول ، « النفوس الميتة » ، إلى كتاب دوستوفسكي ، « ذكريات من منزل الأموات » ، لا تقع في هذا العهد الحديث من عهود الأدب الروسي على أي أثر فني ثري ذي شأن تقيّد تقيداً تاماً بشكل الرواية أو القصيدة أو القصة •

٢ - قال لي بعض القراء حين نشر الجزء الأول من كتابي هذا ، إنني لم أبرز فيه طابع العصر ابرازاً كافياً • فأقول في الرد على هذا اللوم ما يلي : اتني أعرف ماذا يعنون بقولهم « طابع العصر » هذا الذي لا يجدونه في روايتي : إنه أهوال الرق ، وجبس النساء وضرب الأبناء وقد بلغوا سن الرشد ، والسالتيشيخا وما إلى ذلك • ولكنني لا أعدّ هذه الخصائص التي تعيش في خيالنا أمينة صادقة ، ولا اعتقدت أن عليّ أن أعرضها • إنني بعد أن درست كثيراً من الرسائل والمذكرات والروايات والعادات ، لم أجد تلك الأهوال كلها أكبر من الأهوال التي يمكن أن أقع عليها في عصرنا هذا وفي أي عصر آخر • ففي ذلك العصر ، كما في عصرنا نحن ، كان الناس يحبون ، وكانوا يغارون ، وكانوا يبحثون عن الحقيقة ويبحثون عن الفضيلة ؛ وكانوا

ينقادون للأهواء ، وكانت الحياة العقلية والاخلاقية معقدة كتعقدها في عصرنا نحن ، بل كانت أحيانا في الدوائر العليا أكثر رهافة . وإذا كنا في خيالنا نسبغ على ذلك العصر طابع التحكم الأعمى والعنف اللفظ ، فما ذلك إلا لأن ما يرويه الرواة وتشتمل عليه المذكرات وما كتبه الكتاب من روايات وقصص لم ينقل اليها الا حالات نموذجية تمثل العنف والقسوة الوحشية . فما مثل الذي يستتج من ذلك أن الطابع المسيطر في ذلك العصر انما هو القسوة الوحشية الا كمثل الذي يقف وراء قمة فلا يرى إلا رؤوس أشجار فيستتج من ذلك أن المنطقة كلها ليس فيها الا أشجار . ان لذلك العصر طابعه الخاص ، شأنه في هذا شأن كل عصر . وهو طابع مرده الى أن الطبقة الارستقراطية بقيت غريبة عن الطبقات الاخرى ، والى الفلسفة التي كانت سائدة في ذلك الاوان ، والى نوع خاص من التربية ، والى عادة استعمال اللغة الفرنسية ، وهلمّ جرا . فذلك الطابع هو ما حاولت أن أصفه في حدود قدرتي .

٣ - ان استعمال اللغة الفرنسية في كتاب روسي يحتاج الى إيضاح . لماذا نرى الروس والفرنسيين على السواء ، في كتابي هذا ، يتكلمون بالروسية تارة وبالفرنسية تارة أخرى ؟ ان لومي على أنني أنطقت الشخصيات الروسية وأكتبها باللغة الفرنسية يشبه اللوم الذي قد يوجهه شخص ينظر الى لوحة يأخذ عليها أن فيها بقعا سوداء وظلالا لا وجود لها في الواقع . ليس الذنب ذنب الرسام اذا كان الظل في صورة شخصية من الشخصيات التي تشتمل عليها لوحته

يبدو لبعض الناس بقعة سوداء لا وجود لها في الأصل • ان الرسام لا يمكن أن يلام إلا اذا جعل ظلاله في غير محلها ورسما بغير فن •
 اني حين اهتمت بالعصر الذي يقع في بداية هذا القرن ، وصوَّرت الشخصيات الروسية التي تنتمي الى مجتمع ما ، وصوَّرت نابوليون والفرنسين الذين شاركوا مشاركة مباشرة في حياة ذلك العصر ، قد اضطرت اضطرارا الى أن أخلع على لغتي وعلى فكري طابعا فرنسيا •
 لذلك فأنا رغم اعترافي بأنني لعنني وضعت الظلال على لوحتي في غير محلها ، أو وضعتها وضعا لا حذق فيه ، أود من الذين يجدون أن إنطاق نابوليون بالروسية تارة وبالفرنسية تارة أخرى أمر مضحك ، أود منهم أن يعترفوا بأن هذا الشيء اذا بدا لهم على هذا النحو ، فانما مرد ذلك الى أنهم — كالرجل الذي ينظر في لوحة — لا يرون الوجه جملة واحدة بما يتداخل فيه من نور وظل ، بل ينظرون الى البقعة السوداء وحدها تحت الأنف •

٤ — ان أسماء شخصيات روايتي ، مثل أسماء بولكونسكي ودروبتسكوي وييليين وكوراجين وغيرها ، تذكر بأسماء معروفة جدا في روسيا • وحين أدخلت في روايتي شخصيات غير تاريخية الى جانب شخصيات تاريخية ، كنت أشعر بضيق في أذني متى أنطقت الكونت روستوئين مع أمير أسميته الامير برونسكي أو رجل أسميته ستيرلسكي أو مع أمراء أو كوتات لفقت لهم أسماء بسيطة أو مركبة • إن بولكونسكي ودروبتسكوي ليسا فولكونسكي وتروبتسكوي ،

ولكن لهذه الاسمين رينا مألوفاً طبيعياً في المجتمع الأرستقراطي .
ثم انني ماكنت أستطيع أن أجد لجميع شخصياتي أسماء لا تقع في
السمع موقعا مستهجنا ، مثل اسم ييزوخوف أو روستوف ، ولم أحتل
على هذه الصعوبة إلا بأن آخذ ، على غير هدى وبدون ألتقاء ،
الأسماء التي ألفتها الأذن الروسية أكثر من سائر الاسماء ، مبدئاً
بعض أحرفها . ولسوف يؤسفني كثيراً أن يكون التشابه بين هذه
الأسماء الوهمية وبين أسماء واقعية مدعاة الى أن يفترض القارئ
أنني أصور هذا الشخص أو ذاك من الأشخاص الذين وجدوا في
الواقع ، لا سيما وأن النوع الأدبي الذي يصف أشخاصاً موجودين
الآن أو كانوا موجودين في الماضي لا شأن له بالنوع الأدبي الذي
أمارسه .

إن ماريا دمترينا آخروسيموفا ودينيسوف هما الشخصيتان
الوحيدتان اللتان أسميتهما باسمين قريين من اسمى شخصين واقعيين
من أشخاص المجتمع في ذلك العصر ، دون أن أريد هذا ودون أن أفكر
فيه . وكانت تلك خطيئة ارتكبتها . ولكن الخطيئة اقتضت على
أنني وضعت في روايتي هاتين الشخصيتين اللتين تمتازان بسمات من
سمات الطبع خاصة جداً ، ولا شك في أن القارئ سيوافق على أن
دورهما لا شأن له بالواقع . أما الشخصيات الأخرى فقد ابتكرتها
ابتكاراً تاماً ، حتى انها ليس لها نماذج محددة فيما يرويه الرواة أو
فيما اشتمل عليه الواقع .

• - أريد أن أقول الآن كلمة في أمر الاختلاف بين وصفي لأحداث التاريخ وبين ما يذكره المؤرخون . ان هذا الاختلاف ليس طارئاً عارضا ، وانما هو أمر لا مفر منه ولا معدى عنه . فالمؤرخ والفنان حين يرسمان صورة لعصر من العصور يستهدفان أمرين مختلفين كل الاختلاف . ان المؤرخ ليخطيء اذا هو أراد أن يصور شخصا من أشخاص التاريخ تصويرا تاما يتناوله كله ويرسم مجموع علاقاته المعقدة بجميع جوانب الحياة . وكذلك لا يقوم الفنان بمهته اذا هو عرض شخصيته في وضعها التاريخي دائما . ان كوتوزوف ليس في كل لحظة راكبا حصانه الأبيض ، ممسكا منظاره المقرَّب ، مشيرا الى العدو . وان روستوبشين ليس في كل لحظة حاملا المشعل بيده يحرق منزله في فورونزوفو (وذلك ما لم يفعله أبدا) . وان الامبراطورة ماريا فيدوروفنا ليست في كل لحظة واقفة بمعطفها المصنوع من فرو القاقم ، مستندة بيدها الى سفر القوانين . ومع ذلك ففي هذه الصورة انما يتمثل خيال الشعب هؤلاء الأشخاص .

إن للمؤرخ الذي يدرس الدور التاريخي الذي قام به شخص في تحقيق هدف واحد من الأهداف ، يقع على أبطال . أما الفنان الذي يدرس أفعال فرد من الأفراد في جميع ظروف الحياة ، فانه لا يمكنه ولا يجب عليه أن يرى أبطالا وانما هو يرى بشرا .

المؤرخ مضطر في بعض الأحيان من أجل تشويه الحقيقة أن يرد جميع أفعال شخص تاريخي الى فكرة وحيدة أضفاها على هذا الشخص .

أما الفنان فانه يرى في كون هذه الفكرة وحيدة أمرا لا يتفق والمهمة التي يريد أن ينهض بها ، وهو يحاول أن يفهم وأن يصوّر لا صانعا شهيرا من صانعي التاريخ بل انسانا من بني البشر •

والاختلاف بين المؤرخ والفنان يكون في وصف الأحداث أشد وأعمق •

فأما المؤرخ فانه يهتم بنتائج حادث من الأحداث ، وأما الفنان فانه يعنى بالحادث نفسه • اذا وصف المؤرخ معركة قال : « ان الجناح الأيسر من جيش كذا قد هجم على قرية كذا ، فهزم العدو ، لكنه اضطر الى التراجع ، فاندفع سلاح الفرسان في المعركة فدحر العدو » • إن المؤرخ لا يستطيع أن يعبر بغير هذا الاسلوب • ومع ذلك فان هذه الكلمات كلها ليس لها في نظر الفنان أي معنى ، حتى انها لا تبدو له ذات صلة بالواقعة نفسها • ذلك أن الصورة التي يرسمها الفنان للحادث الذي وقع انما يستمدّها الفنان من تجربته مثلما يستمدّها من الرسائل أو المذكرات أو الروايات التي رجع اليها واعتمد عليها ، سواء بسواء • وكثيرا ما تجيء النتيجة التي سمح المؤرخ لنفسه أن يستخلصها (عن معركة من المعارك) مما قامت به هذه الجيوش أو تلك من أعمال مخالفة للنتيجة التي ينتهي إليها الفنان • والاختلاف بين المؤرخ والفنان فيما يخلصان اليه من نتائج انما يرجع الى اختلاف الينايع التي متح منها هذا وذاك • فالينايع الرئيسية التي يستقي منها المؤرخ فيما يتعلق بالمعركة مثلا انما هي تقارير مختلف الضباط والقائد العام •

أما الفنان فانه لا يستطيع أن يستقي من مثل هذه الينابيع شيئا ، لأنها لا تقول له شيئا ، حتى ان الفنان يعرض عنها لأنه يقع فيها على كذب لم يكن منه مفر . لا داعي أن نكرر ما هو معلوم من أن كل معركة انما يصف كل خصم من الخصمين أحداثها وصفا مختلفا عن وصف الآخر لها في جميع الأحوال تقريبا . فكل وصف لمعركة من المعارك يشتمل على كذب حتما ، وهو كذب مرده الى ضرورة الاختصار على بضع كلمات لوصف الأعمال التي قام بها آلاف من الناس منتشرون على عدة كيلومترات ، يعانون كلهم حالة عنيفة من فرط الاحتياج تحت تأثير الخوف والشعور بالعار والاحساس بالموت .

يقال لنا عادة في أوصاف المعارك ان قطعة من قطعات الجيش هي قطعة كذا ، قد أرسلت للهجوم على موقع كذا ، ثم صدر إليها أمر بالانسحاب ، الخ ، فكأنهم يسلمون بأن ذلك النظام نفسه الذي يخضع ألوف الأفراد لارادة قائد واحد على أرض المناورات ، سيفعل هذا الفعل نفسه على أرض أخرى يكون الأمر فيها أمر حياة أو موت . ان كل رجل ذهب الى الحرب ليعلم مدى الخطأ في هذا التصور . ومع ذلك فعلى افتراض من هذا النوع انما تبنى التقارير الرسمية التي تستعمل بعد ذلك أساسا للأوصاف التي يكتبها المؤرخون^(١) .

(١) بعد طبع الجزء الاول من هذا الكتاب ووصف معركة شونجراين ، نقل بعضهم الي رأي نيقولا نيقولايفتش موارفييف كارسكي في هذا الوصف للمعركة ، فكان من شأن اقواله ان عززت اقتناعي . لقد صرح ن ن موارفييف ، وهو قائد عام ، بأنه لم يقرأ في حياته وصفا لمعركة من المعارك اكثر امانة ، وبأن تجربته الشخصية قد اقنعتة بأن تنفيذ أوامر القائد العام تنفيذا حرفيا أمر مستحيل .

طف° على جميع القطعات بعد انتهاء معركة على الفور، أو بعد انتهائها يوم أو يومين ، قبل أن يكون أي تقرير قد كتب ، واسأل أي جندي أو أي ضابط صف أو أي ضابط كيف جرى الأمر • لسوف تشعر ، بعد أن يقصوا عليك ما يقصون ، شعورا شاقا بهما غامضا بشيء ضخم معقد متنوع الى غير نهاية • ولكنك لن تعلم من أحد ، ولا من القائد الأعلى ، كيف جرى الامر في جملته • ثم تبدأ التقارير بالوصول بعد يومين أو ثلاثة أيام ، ويأخذ المهدارون يروون للناس كيف جرى هذا الذي لم يروه ، ثم يتم تلفيق التقرير العام ، ووفقاً لهذا التقرير العام إنما يتكون رأي الجيش • ان كل واحد من المشتركين في المعركة ليواسيه ويعزيه أن يبادل الآخرين شبهاته وما يدور في ذهنه من شكوك في صدق هذه الصورة التي هي صورة زائفة لكنها واضحة عدا أنها تتملق النفس بما تشتمل عليه من فخار • فاسأل بعد انقضاء شهر أو شهرين واحدا من أولئك الذين شاركوا في المعركة • إنك لن تحس فيما يرويه لك عندئذ شيئاً من تلك البساطة وتلك الحياة الفؤارة التي أحسستها فيما رواه لك من قبل ، لأن ما يرويه لك الآن مستمد من التقرير الذي اطلع عليه • لقد أصبح منذ الآن لا يتكلم إلا وفقاً للنص المكتوب • هكذا كانت الأقاصيص التي حكاها لي عن معركة بورودينو كثير من رجال أذكاء شاركوا في تلك المعركة • لقد قصوا عليّ جميعاً شيئاً واحداً ، وكان قصص الجميع مستمداً من الوصف الخاطيء الذي أورده ميخائيلوفسكي — داينلوفسكي ،

وأورده جلنكا ، وآخرون • حتى التفاصيل التي ذكروها لي كانت واحدة ، رغم أنهم كانت تفصل بعضهم عن بعض في ساحة القتال فراسخ •

بعد الاستيلاء على سياستوبول أرسل إليّ قائد المدفعية كريانوفسكي ، تقارير ضباط المدفعية في جميع المواقع المحصنة ، ورجاني أن أكثف في تقرير واحد ، تلك التقارير التي يبلغ عددها زهاء عشرين تقريراً • يؤسفني أنني لم أنسخ تلك التقارير • انها أجمل نماذج لذلك النوع الساذج من الكذب العسكري الذي لا بد منه ، والذي عليه يعتمد كل وصف • اني لعلى يقين بأن كثيراً من رفاقي الذين كتبوا تلك التقارير سيضحكون مخلصين حين يقرأون هذه الأسطر فيتذكرون ذلك الذي كتبوه تنفيذا للأوامر عن أمور كان يستحيل عليهم أن يعرفوها • إن جميع الذين خاضوا حرباً يعرفون مدى قدرة الروسي على حسن البلاء في القتال ، ومدى عجزه كذلك عن وصف أعماله مع ما يوجبه ذلك الوصف من فخار وكذب • وجميع الناس يعلمون على كل حال أن مهمة كتابة التقارير في جيوشنا إنما يعهد بها خاصة الى رجال أجانب •

هذا كله إنما أقوله لأبيّن أن الكذب شيء محتوم في الأوصاف الحرية التي يستعملها المؤرخون الحريون مواد حربية ، ولأبيّن إذن أن الاختلاف بين الفنان والمؤرخ في فهم أحداث التاريخ كثيراً ما يكون أمراً محتوماً • ولكن عدا هذا الاضطرار الى الكذب في عرض الأحداث

للتاريخية ، رأيت لدى مؤرخي العصر الذي اهتمت به - وربما كان مرد ذلك الى عادة جمع الوقائع وعرضها موجزة وجعلها مطابقة لما تصف به الأحداث من طابع المأساة - رأيت طريقة خاصة في القصص لا يفسد فيها الكذب والتشويه الوقائع ذاتها فحسب ، وإنما يفسدان كذلك دلالة الوقائع ومعناها . كثيرا ما تساءلت وأنا أدرس كتابي المؤرخين الرئيسيين اللذين أرخا ذلك العصر ، وهما تير وميخائيلوفسكي - داينلوفسكي ، كثيرا ما تساءلت متحيراً كيف أمكن أن تطبع أمثال هذه الكتب وأن تجد قراء يقرأونها . دعك من أنهما يعرضان أحداثاً واحدة عرضين متناقضين تناقضاً كاملاً بلهجة تشتمل على أكبر الجذ وتوهم بأعظم النفاذ مع الاستناد الى مراجع كثيرة والاعتماد على مصادر غزيرة ، لقد وجدت لدى هذين المؤرخين عدا ذلك أوصافاً للأحداث لا أدري هل يجب عليّ أن أضحك أو أن أبكي حين أتذكر أن هذين الكتائين هما أعظم الكتب التي تورخ ذلك العصر ، وأن لهما من القراء آلافاً . سأروي لكم مثلاً واحداً مستمداً من كتاب المؤرخ الشهير تير . إنه بعد أن يحكى أن نابوليون جاء الى روسيا بأوراق مالية مزيفة ، يقول : « لقد عدل نابوليون عن استعمال هذه الوسائل مدفوعاً الى ذلك بدافع البر الذي يجدر به ويجدر بالجيش الفرنسي ، وأخذ يوزع معونات على المصابين بأضرار الحرائق . ولكن لما كانت المؤنات أثمن من أن تظل توهب زمناً طويلاً لأجانب أكثرهم أعداء ، فقد أثار نابوليون أن يقدم إليهم أموالاً ، فوزع عليهم روبلات ورقية ^(١) » .

(١) بالفرنسية في الاصل .

إنك اذا نظرت الى هذه الفقرة معزولة عن مجموع الكتاب بدت لك سخيفة سخفا رهيبا ، ولا أقول بدت لك منافية للأخلاق منافاة شديدة . ولكنها اذا وضعت في مكانها من مجموع الكتاب لم تفاجئك ولم تدهشك لأنها تتفق كل الاتفاق مع النسق العام في سرد الأحداث ، يمتليء تنفخا وأبهة ويخلو من المعنى الدقيق والدلالة المحددة .

هكذا تكون مهمة المؤرخ ومهمة الفنان مختلفتين كل الاختلاف ، فما ينبغي أن يندهش أحد مما يراه في كتابي من خلاف بيني وبين المؤرخين في وصف الأحداث ورسم صور الاشخاص .

ولكن الفنان يجب أن لا يغيب عن باله أن الفكرة التي يكوّنها الشعب لنفسه عن الشخصيات والأحداث ليست من نتاج الخيال ، وانما هي مستمدة من طريقة المؤرخين في تجميع الوثائق . لذلك يجب على الفنان أن يستهدي الوثائق التاريخية كما يستهديها المؤرخ سواء بسواء وان كان يفهم هذه الشخصيات وهذه الاحداث فهما مختلفا عن فهم المؤرخ كل الاختلاف . فحيثما تروا في كتابي أشخاصا من التاريخ يتكلمون ويعملون فاعلموا أنني هنا لم اخترع شيئا من الأشياء اختراعا وانما اعتمدت على المواد التي وقعت عليها والتي تشكلت منها أثناء عملي مكتبة كاملة . واذا كنت لا أستحسن أن أذكر هنا عناوين الكتب التي رجعت إليها ، فأن في إمكاني أن أذكرها في كل حين .

٦ - هناك أمر أخير أعده أخطر الامور شأننا ، هو اعتقادي بأن من

يسمّون عظماء الرجال ليس لهم كبير شأن في الأحداث التاريخية .

ان دراسة عصر يبلغ ذلك المبلغ من المساوية ، ويبلغ ذلك المبلغ من الغنى بضخامة الأحداث ، ويبلغ ذلك المبلغ من قربه منا ، ويبلغ ذلك المبلغ من بقاء ما يروى عنه حيا هذه الحياة كلها ومتنوعا ذلك التنوع كله ، أقول إن دراسة عصر كهذا العصر قد رسّخت في نفسي قناعة تصل الى حد البدهة ، هي أن عقلنا عاجز عن معرفة أسباب الأحداث التي تجري . فأن ندّعي ، وذلك أمر يبدو بسيطا جدا لجميع الناس ، أن أحداث سنة ١٨١٢ انما سببها حب الغزو عند نابوليون وصلابة الوطنية عند الاسكندر بافلوفتش ، فذلك في نظري رأي سخيف كسخافة قول من قد يقول إن سقوط الامبراطورية الرومانية انما يرجع الى أن فلانا الهمجي قاد شعوبه ضدّ الغرب ، أو الى أن هذا الامبراطور الروماني أو ذاك قد أساء تصريف شئون الحكم في ولاياته ، أو كسخافة قول من قد يقول ان الجبل الضخم الذي كان ينقب انما انهيار لأن العامل الأخير قد هوى عليه بضربة من فأسه .

إن حادثا احترب فيه ملايين البشر ، وقتل فيه نصف مليون من الرجال ، لا يمكن ان تكون ارادة فرد هي سببه . فكما لا يستطيع عامل من العمال أن يقوِّض وحده جبلا ، كذلك لا يستطيع رجل وحده أن يجبر خمسمائة ألف شخص على أن يموتوا . ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فأين هي الأسباب ؟ إن بعض المؤرخين يذهبون الى أن الاسباب هي روح الغزو لدى الفرنسيين ، وحب الوطن لدى الروس . ويتكلم

مؤرخون آخرون عن الأفكار الديمقراطية التي نشرتها جيوش نابوليون وعن اضطراب روسيا الى الدخول في الاتفاق الأوروبي ، وما الى ذلك . ولكن لماذا تحارب ملايين البشر وقتل بعضهم بعضا ، على حين أن كل واحد منهم كان لا يأمل أن تؤدي به الحرب الى حال أحسن من الحال التي هو عليها ، وكانوا جميعا مهتدين من الحرب بالوصول الى حال أسوأ من الحال التي كانوا فيها ؟ من ذا الذي أمرهم بهذا ؟ لماذا فعلوا هذا الذي فعلوه ؟ ذلكم هو السؤال الذي يبدو أنه يطرح نفسه على كل فرد طرحا واضحا . وفي وسع المرء أن يفترض افتراضات لا نهاية لها عن أسباب هذا الحدث العجيب السخيف ، بنظرة الى وراء ، ولقد افترضت افتراضات لا نهاية لها فعلا ، ولكن ضخامة عدد هذه الافتراضات أو هذه الاستنتاجات التي تهدف الى غاية واحدة تدل هي نفسها على أن ثمة أسبابا لا نهاية لها ، وأنه ما من سبب من هذه الأسباب يمكن أن يعدّ هو السبب الحقيقي .

لماذا اقتتل ملايين البشر وقتل بعضهم بعضا بينما يعلم كل واحد منهم ، منذ أن كان العالم عالما ، أن هذا الاقتتال وهذا القتل شر روحا وجسما ؟

لقد اقتتلوا وقتلوا لأن الاقتتال والقتل أمران لا مفرّ منهما ، فكأنوا حين يقتتلون ويقتلون انما يخضعون لذلك القانون الأولي ، القانون الذي يخضع له عالم الحيوان ، القانون الذي يخضع له النحل حين يقتل بعضه بعضا في الخريف ، ويخضع له ذكور الحيوان حين

يفني بعضهم بعضا . ليس هناك جواب آخر نجيب به عن ذلك السؤال
الرهيب .

تلك حقيقة ليست بديهية فحسب ، بل هي فطرة أيضا في كل فرد ؛
وما كنا لنحتاج الى البرهان عليها لولا أن في الانسان شعورا آخر هو
إحساسه بأنه حر في كل لحظة يقوم فيها بعمل من الأعمال .

إننا اذا ألقينا على التاريخ نظرة عامة شاملة اقتنعنا بأن هناك قانونا
أبديا يحكم الأحداث . ولكننا حين ننظر الى التاريخ نظرة شخصية
نقتنع بنقيض ذلك .

ان الانسان الذي يقتل شبيهه الانسان ، و نابوليون الذي يصدر
أمره بعبور نيمن ، وأنت وأنا اللذين نقدم طلبا للحصول على وظيفة ،
واللذين نرفع ذراعنا ونخفضها ، نحن جميعا موقنون يقينا مطلقا بأن كل
فعل من أفعالنا هذه قائم على أسباب معقولة ، وقائم على حرية الارادة ،
أي أن تصرفنا على هذا النحو أو على ذلك النحو الآخر انما هو
رهن بنا ومتوقف علينا وخاضع لمشيئتنا . وهذا اليقين أمر طبيعي فينا
عزيز على نفوسنا ، فلا تستطيع براهين التاريخ ولا احصاءات الجريمة
التي تقنعنا بأن غيرنا محروم من حرية الارادة ، أن تحول بيننا وبين
الشعور بأن حرية ارادتنا نحن تشمل جميع ما نقوم به من أعمال .

ذلك تناقض يبدو أن حله مستحيل . إنني حين أقوم بعمل من
الأعمال أكون موقنا باتي حر الارادة ، وبأتي سيد نفسي . ولكن لو

نظرت الى عملي على أنه مشاركة في مجموع حياة الانسانية (في دلالاته التاريخية) خلصت من ذلك الى أنه مقدّر من قبل ، وأنه لا يمكن تحاشيه . فما مصدر الخطأ ؟

إن الملاحظات السيكلوجية التي تتناول قدرة الانسان على أن ينسب بنظرة الى الخلف في الحال الى كل فعل تمّ القيام به سلسلة من الدواعي يزعم أنها حرة (وسوف أفصّل القول مزيدا من التفصيل حول هذا الأمر في موضع آخر) تؤكد أن الافتراض الذي يذهب الى أن شعور الانسان بأنه حر عند قيامه ببعض الاعمال انما هو شعور كاذب . على أن هناك ملاحظات سيكلوجية أخرى تبرهن على أن ثمة أفعالا لا يكون فيها الشعور بالحرية ناشئا عن نظرة الى وراء ، وانما هو شعور يصاحب الفعل حال القيام به ، ولا مجال فيه لجدل ، ولا سبيل الى ججوده . فمهما يقل أصحاب النظرية المادية فاتي أستطيع حتما أن أفعل أو أن أمسك عن الفعل متى كان الأمر امري انا وحدي . انني أستطيع في هذه اللحظة نفسها ، وبارادتي وحدها ، ان ارفع يدي او أن أخفضها . واستطيع ان اتوقف عن الكتابة . وتستطيعون اتم ايضا أن تتوقفوا فوراً عن قراءة هذا الذي تقرأونه من كتابتي . وما من شك في أنني أستطيع بارادتي وحدها ورغم جميع العوائق أن أتقل بفكري الآن الى أمريكا ، أو أن اتقل به الى مسألة رياضية تهمني . انني أستطيع ، لأجربّ حريتي ، أن أرفع ذراعي في الهواء ، أو أن أخفضها خفضاً قويا الى تحت . ولكن هذا طفل يقف بقربي . وهأنذا أرفع

يدي فوقه ، وأهم أن أخفضها ذلك الخفض القوي نفسه . انني لا أستطيع أن أفعل ذلك . وهذا كلب يهجم على الطفل . إنني لا أستطيع أن لا أرفع يدي فأزجر الكلب . وهبني جنديا في الرتل : انني لا أستطيع إلا أن أساير حركة الرتل . ولا أستطيع أثناء المعركة أن لا أهجم مع فوجي الهاجم ، وان لا أفر حين يفر جميع من حولي . انني لا أستطيع ، اذا كنت محاميا يدافع عن متهم أمام محكمة ، ان لا أتكلم ، وأن لا أعلم سلفا ما ينبغي لي أن أقوله . وانني لا أستطيع أن لا أطرف جفني حين أرى ضربة موجهة الى عيني .

هناك أذن نوعان من الأفعال . فبعض الأفعال رهن بإرادتي ، وبعضها مستقل عن إرادتي . والخطأ الذي يولّد التناقض إنما هو ناشيء عن أن الشعور بالحرية (وهو هنا شعور مشروع) الذي يصاحب كل فعل متصل بذاتي وبأعلى جزء مجرد من كياني ، أنقله أنا بغير حق الى تلك الأفعال التي أقوم بها وتكون متصلة بإرادات أخرى وتكون رهنا بمساهمة ارادات أخرى غير ارادتي . انه لمن العسير جدا أن نعيّن حدود مجال الارادة ومجال الضرورة ، وإن تعيين هذه الحدود لهو المشكلة الأساسية في علم النفس . ولكن اذا نحن لاحظنا الحالات التي يظهر فيها أكبر قدر من حريتنا وأكبر قدر من خضوعنا للضرورة ، فلا يمكن إلا أن نرى أن عملنا كلما كان أقرب الى التجريد كان أملا بالحرية ، وأن عكس هذا صحيح ، أي ان عملنا كلما كان مرتبطا بالآخرين كان حظه من الحرية أضال .

هناك رابطة تشدنا الى أقراننا البشر هي أقوى الروابط وأعصرها
 زوالا وأثقلها وأبقاها ، انها رابطة السلطة ، والسلطة بمعناها الحقيقي
 ليست إلا خضوع يخضعه المرء لغيره .

ولقد اقتنعت أثناء عملي اقتناعا عاما بهذه الحقيقة ، سواء أكان
 هذا الاقتناع خطأ أم كان صوابا . لذلك فأنني حين وضعت الاحداث
 التاريخية التي وقعت سنة ١٨٠٥ وسنة ١٨٠٧ وسنة ١٨١٢ خاصة ، وهي
 المسنين التي تظهر فيها الحتمية بارزة أكبر بروز ، لم أستطع أن أنسب
 شأننا كبيرا الى الأعمال والاشاوات التي قام بها رجال ظنوا أنهم
 يوجهون هذه الأحداث ويتحكمون بها ، ولكنهم في حقيقة الامكانوا
 أقل سائر العاملين تدخلا فيها بنشاط انساني حر . ان نشاطهم لم يهمني
 إلا من حيث هو مثال على قانون الحتمية ذاك الذي يحكم التاريخ في
 نظري ، ومن حيث هو مثال على ذلك القانون السيكلوجي الذي يدفع
 الانسان حين يقوم بعمل هو أقل الاعمال اتصافا بالحرية ، الى أن
 يتخيل بعد قيامه بهذا العمل سلسلة من الاستدلالات هدفها أن تبرهن
 له هو نفسه على أنه حر .

ليون تولستوي

الحرب والسلام

الكتاب الأول

كل ما هو مطبوع في هذا الكتاب بحرف
أسود فقد ورد في الأصل الروسي باللغة
الفرنسية .

نشر الكتاب الاول من رواية « الحرب
والسلم » في مجلة « الرسول الروسي »
اول مرة سنتي ١٨٦٥ - ١٨٦٦ بعنوان
« سنة ١٨٠٥ »

— الجزء الأول —

الفصل الأول

ليست جنوه ولوكا الآن ، يا عزيزي الأمير ، إلا إقطاعات لأسرة بونابرت^(١) . ما هما الآن الا أملاك لها . فاذا زعمت لي أننا لسنا في حرب ، واذا ظلت تبيح لنفسك أن تموّ هذه الأعمال الشائنة كلها ، وأن تطفّف من أمر هذه الفظائع التي يرتكبها عدو المسيح هذا (ويمينا إني لأومن بذلك) فاعلم أنني أنكرك عندئذ ولا أعرفك ، فلا أنت صديقي ، ولا أنت خادمي الأمين ، كما تقول طيب طيب . يومك سعيد . أرى أنني أخفتك . اجلس وحدّث .

كذلك قالت في شهر تموز (يولييه) من عام ١٨٠٥ ، أنا بافلوفنا شيرر ، وهي آنسة نبيلة مرموقة من خدينات الامبراطورة ماريا

(١) في شهر حزيران من سنة ١٨٠٥ ، بعد ان نصب نابوليون ملكا على ايطاليا وميلانو ، ضم « الجمهورية الليجورية » (جمهورية جنوه) الى الامبراطورية الفرنسية ، وازال جمهورية لوكا الصغيرة في توسكانيا ، التي كانت منذ سنة ١٧٩٦ تحت السيطرة الفرنسية أيضا . ووهب الجمهورية الثانية لاخته ايليز باكتشيوشي التي أصبحت دوقة لوكا وبيومبينو .

فيدوروفنا^(١) ، بل هي صديقة حميمة لها . قالت هذا الكلام مخاطبة الأمير فاسيلي ، وهو شخص خطير الشأن يحتل في الدولة منصبا عاليا ، وذلك حين وصل الى سهرتها أول الواصلين . وكانت آنا بافلوفنا تسعل منذ بضعة أيام ، وتقول إنها مصابة بانفلونزة (تلك كلمة كانت في ذلك الأوان جديدة لا تستعملها إلا قلة نادرة من الناس) . وفي بطاقات الدعوة التي حملتها في الصباح خادما يرتدي كسوة رسمية حمراء ، كتبت تقول للجميع بغير استثناء :

إذا لم يكن لديك ما هو أهم من ذلك يا عزيزي الكونت (أو يا عزيزي الأمير) ، ولذا كان لا يروى لك كثيرا قضاء المسهرة في منزل مريضة مسكينة ، فلسوف يسرني أعظم السرور أن أراك عتدي بين الساعة السابعة والساعة العاشرة .

آقيت شيرر

أجاب الأمير من غير أن يضطرب أي اضطراب لهذا الاستقبال الذي استقبلته به :

— رباه ! يالها من فورة شديدة !

(١). هي أنملة بولس الأول، وأم الاسكندر الأول ؛ والامبراطورة ماريـا (١٧٥٩ - ١٨٢٨) كانت أميرة فورتنبرج ، وقد وصلت إلى روسيا سنة ١٧٧٦ وتزوجت فيها . وكانت ترفع وتحمي بيوتا للأطفال ، ومدارس داخلية للبنات .

وكان الأمير فاسيلي يرتدي البزة للزركشة التي يرتديها رجال البلاط مزدانة بأوسمة ، وكان يلبس جوربين من حرير وينتعل خفّين أنيقين ، وكان وجهه المفلطح متألقا .

وكلّما يتكلم بتلك اللغة الفرنسية المتأنقة التي كان يتكلم بها أجدادنا ، بل كانوا بها يفكّرون ، « هذا الى نبوات متعاذبة تم عن معاني الرعاية والحماية التي تمهد في رجل خطر الشأن دلف الى الشيخوخة في وسط المجتمع الراقي وفي كنف البلاط الامبراطوري .

دنا الأمير فاسيلي من آنا بافلوفنا ، وقبل يديها عارضا صلّته المعطرة الملتمة ، ثم جلس على أويكة من الأرائك جلسة مريحة موقال بذلك الصوت نفسه ، وبلهجة تخفي وراء الادب واللطف والمودة ، شيئا من عدم الاكتراث بل شيئا من السخرية :

— قبل كل شيء ، قولي لي كيف صحتك يا صديقتي ؟

وأضاف يقول :

— طمّني صديقك عنك !

فقلت آنا بافلوفنا :

— كيف تحسن صحة المرء وهو معذب النفس ؟ هل يستطيع

الانسان في هذه الأيام أن يحتفظ بهدوئه وطمأنينته اذا كان ذا قلب ؟

سوف تبقى طوال السهرة ، فيما أكمل ...

— وحفلة سفير انجلترا ؟ نحن في يوم الاربعاء . ولا مناص لي

- من إثبات وجودي في الحفلة • وستجيء ابنتي لتصبحني الى هناك •
- كنت أظن أن هذه الحفلة قد ألفت • لا أكتفك ان هذه الحفلات جميعها وهذه الاسهم النارية كلها قد غدت تافهة •
- أجاب الأمير الذي ألف ان يقول أشياء لا يريد حتى ان يصدقها سامعه ، وانما هو يفعل ذلك بحكم العادة كنوأس أحسنت تعبته :
- لو عرف أنك ترغبين في إلغاء الحفلة لألفت •
- لا ترهقني • قل لي : ماذا تقرر بشأن برقية نوفوسلتسوف ؟^(١)
- إنك مطلع على كل شيء •
- أجاب الأمير بلهجة باردة تفيض ضجرا :
- ما عسى أقول لك ؟ ماذا تقرر ؟ تقرر أن بونا بارت أحرق سفنه ، وأظن أننا بسبيل إحراق سفننا •

(١) نيقولا نوفوسلتسوف (١٧٦١ - ١٨٣٦) . قضى عدة سنين من شبابه في إنجلترا ، فلما عاد الى روسيا ، أصبح عضوا في « لجنة الخلاص العام » ، أي انتمى الى تلك الحلقة من اصدقاء الاسكندر الشاب التي كانت تهيم معه مشاريع الاصلاحات الليبرالية . وقد عين وزيرا مساعدا لوزارة العدل سنة ١٨٠٣ ، وأرسل عام ١٨٠٤ الى إنجلترا ليفاوض في مشروع اقامة تحالف ، بل وليبحث كذلك مشروعه الذي تخيله عن تحقيق سلام عام في أوروبا ، وهو مشروع لم يثمر ، كما لم يثمر أيضا مشروعه الخاص بوضع دستور لروسيا تصوره سنة ١٨١٧ ، وقد شغل منصبا بارزا في بولنده ، وبدا هنالك سياسة معادية لبولنده ، وصار رجعيًا شيئًا بعد شيء ، وعين رئيسا لمجلس الوزراء في عهد نيقولا الاول .

كان الأمير فاسيلي يتكلم دائما بتراخ وتوان ، كممثل يردد دورا طالت معرفته به ، وطال تكراره له • ولا كذلك آنا بافلوفنا شيرر، فقد كانت رغم أنها في الأربعين من عمرها تزخر حرارة وجيشانا واندفاعا •

وقد أصبحت الحماسة وظيفية اجتماعية لها ، وبلغت من ذلك أنها حتى حين لا تحرص على هذه الحماسة أحيانا ، لا تملك الا أن تصطنعها ، من أجل أن لا تخيَّب ظنَّ من يعرفونها فيما يتوقعونه منها • وكانت الابتسامة المتحفظة التي لا تبرح تت موج على وجهها ، رغم أنها لا تناسب قسماتها الذابلة الزاوية ، تدل كما تدل لدى الاطفال المدكَّلين، على شعورها الدائم بهذه الشائبة الحلوة التي لا تريد اصلاحها في نفسها ، ولا تستطيعه ، ولا ترى له ضرورة •

وقد اتقدت حرارة آنا بافلوفنا أثناء الحديث عن الوضع السياسي •

— آ ••• لا تكلمني عن النمسا ! قد أكون جاهلة بهذه الامور ، ولكنني على يقين من أن النمسا لم تشأ الحرب أبدا ولا تشاؤها • انها تخوننا • ان على روسيا وحدها أن تنقذ أوروبا • إن مولانا يعرف رسالته السامية ، وسيكون وفيا لها أمينا عليها^(١) • ذلك هو الشيء

(١) هو الامبراطور الاسكندر (١٨٠١ - ١٨٢٥) ، ولد سنة ١٧٧٧ ، وتعلم على الجمهوري السويسري فريدريك دو لاهارب ، وزخرت نفسه بميول ليبرالية في بداية حكمه •

الوحيد الذي أوّمن به • إن امبراطورنا الطيب الرائع يقع على عاتقه القيام بأنبيل دور في هذا العالم ، وهو يبلغ من سمو الفضائل وروعة الخصال أن الله لن يتخلى عنه ، فلا بد أن يحقق رسالته ، فيحطّم أفعوان الثورة الذي يتجلى اليوم أفضع ما يكون في شخص هذا السفاح ، هذا الوجد • وعلينا ، علينا وحدنا ، إنما يقع عبء الفداء • انني لأسألك : على من نستطيع أن نعتمد ؟ • • • • ان انجلترا ، بروحها التجارية ، لن تفهم ولا تستطيع أن تفهم كل ما تتصف به نفس الامبراطور الاسكندر من عظمة • لقد رفضت الجلاء عن مالطة^(١) • إنها تراوغ ، وتتصور وراء أعمالنا نياتٍ مبيتة • ماذا قالوا لنوفوسلتسوف ؟ • • • لا شيء • إنهم لم يفهموا ولا يريدون ان يفهموا تقاني امبراطورنا الذي لا يشد لنفسه شيئا ، وانما ينشد كل شيء لخير العالم • وبماذا وعدوا ؟ لم يعدوا بشيء • وحتى الوعود التي قطعوها على أنفسهم لن يفوا بها • وقد أعلنت بروسيا ان بونا بارت لا يغلب وأن أوروبا كلها لا تقدر عليه ولا تستطيع أن تقف في وجهه • ولست أصدق كلمة واحدة مما يقوله هاردنبرج وهو جفتس^(٢) • ليس هذا الحياذ البروسي

(١) ان معاهدة آميانس المعقودة بين انجلترا وفرنسا كانت توجب على انجلترا بأن تسلم مالطة الى « نظام القرسان » ، ولكنها لم تفعل ذلك قط .

(٢) وزيران بروسيا • ان الكونت شارل أو جوست هاردنبرج (١٧٥٠ - ١٨٢٢) ، وهو خصم لنابوليون ، كان وزيرا للشئون الخارجية من سنة ١٨٠٤ الى سنة ١٨٠٦ ، ثم أصبح مستشارا • وكان الكونت كرستيان أو جوست هو جفتس (١٧٥٢ - ١٨٣١) وزيرا للشئون الخارجية من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٤ ، وكان يحاول التقارب مع فرنسا ، فهو الذي عقد معاهدة صلح مع نابوليون بمدينة شونبرون في شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٨٠٥

المزعوم إلا فخلاً (١) . أنا لا أومن إلا بالله ، وبالمصير العظيم للذي كتب
لامبراطورنا العزيز . لسوف ينقذ أوروبا ! ...

قالت آنا بافلوفنا هذا كله ثم أمسكت عن الكلام فجأة وهي
تبتسم ابتسامة تسخر بها من حماسيتها نفسها . وقال للأمير مبتسما :

— أعتقد أنك لو أرسلت أنت بدلا من صاحبنا فنتسنجرود (٢)
لاقتزعت انضمام ملك بروسيا فورا بما تملكين من قوة الحجة وبلاغة
القول . هلا قدمت إليّ فنجان شاي ؟

— حالا .

ثم أضافت وقد عادت الى الهدوء :

— بالمناسبة ، سيشهد حفلتي الليلة شخصان مهمان جدا ، أولهما
الفيكونت مورتمار (٣) وهو نسب آل مونمورنسي عن طريق آل
روهان . إنه من ألمع الاسماء بفرنسا . فهو من المهاجرين الاخيار ،
المهاجرين الصادقين . والثاني هو القس موريو (٤) ، هل تعرف هذا

(١) كانت بروسيا ، التي يحكمها الملك فريدريك غليوم الثالث (١٧٩٧ — ١٨٤٠) تتردد في محاربة نابوليون ، فكانت خلال سنتي ١٨٠٤ و ١٨٠٥ تتبع سياسة مراوغة .

(٢) هو البارون فرديناند دو فنتسنجرود (١٧٧٠ — ١٨١٨) ، أصله من هسن ، وقد دخل في خدمة روسيا منذ سنة ١٧٩٧ ، وفي عام ١٨٠٥ أوفد بمهمة الى ملك بروسيا .

(٣) شخصية تخيلها تولستوي تخيلا ، واستوحى ملامحها من شخص الكونت جوزيف دو ميستر الذي عاش في بطرسبرج من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨١٧ ، سفيرا لملك ساردينيا .

(٤) شخصية ايطالية من صنع خيال المؤلف .

الرجل الذي يملك ذكاء حادا وفكرا عميقا ؟ لقد استقبله الامبراطور •
أتعلم ذلك ؟

قال الأمير :

— آ ••• سوف يسرني هذا أعظم السرور •

ثم أضاف يقول بطلاقة خاصة وكأنه لم يتذكر إلا في هذه اللحظة
ذلك الامر الذي سيسألها عنه ، مع أن هذا الامر هو الغرض الأساسي •
من زيارته :

— هل صحيح أن الامبراطورة الوالدة ترغب في تعيين البارون
فونكه سكرتيرا أول في فيينا ؟ ان هذا البارون سيد لا قيمة له فيما
يظهر •

كان الأمير فاسيلي يريد أن يعيّن ابنه لهذا المنصب الذي كان
بعضهم يوسّط الامبراطورة ماريا فيدوروفنا من أجل الحصول عليه
للبارون •

فأغمضت آنا بافلوفنا عينيها تقريبا ، لتشير بذلك الى أن أحدا من
الناس ، لا هي ولا غيرها ، يمكن أن يحكم على رغبات الامبراطورة
أو على ارادتها • ولم تزد على أن قالت بلهجة حزينة جافة :

— ان أخت البارون فونكه هي التي أوصت به الامبراطورة •

وحين نظقت آنا بافلوفنا باسم الامبراطورة عبر وجهها فجأة عن
تفان صادق واحترام عظيم يمازجها شيء من حزن ، وهو تعبير يكسو
وجهها كلما جاء ذكر امبراطورتها السامية في أثناء الحديث • وقالت ان

صاحبة الجلالة قد تفضلت فأولت البارون فونكه كثيرا من الاعتبار • وعادت تغشى نظرتها سحابة من حزن •

سكت الأمير غير مكترث • فارادت آنا بافلوفنا بما تملكه من براعة وحذق ، وما تتصف به من حضور البديهة وسرعة الخاطر كامرأة وكإنسانة ألفت حياة البلاط ، أن ترميه بسهم لأنه تجرأ فقال ذلك القول عن شخص زكّى للامبراطورة ، ومن أجل أن تعزّيه وتواسيه في الوقت نفسه ، فقالت :

— بمناسبة الحديث عن أسرتك ، هل تعلم أن ابنتك ، منذ أصبحت تظهر في المجتمع ، قد غدت بهجة ومسرة لجميع الناس ؟ إنهم يرونها جميلة كالنهار •

فانحنى الأمير احتراما وشكرا • وتابعت آنا بافلوفنا حديثها بعد لحظة صمت ، فقالت وهي تقترب من الأمير مبتسمة ابتسامة لطيفة ، كأنما لتعبر له بذلك عن أن الكلام في شئون السياسة وأخبار المجتمع قد انتهت وأن حديثا حميما يبدأ بينهما الآن :

— كثيرا ما يخطر ببالي أن الحظ في هذه الحياة موزع توزيعا فيه كثير من الظلم أحيانا •

وأضافت تقول بلهجة جازمة وهي ترفع حاجبيها :

— لماذا وهب الله لك ولدين يبلغان هذا المبلغ كله من اللطف والرفقة والزوعة (باستثناء صغيرك آنا تول ، فانتني لا أحبه) • إنك آخر من يقدرهما حق قدرهما في الواقع ، فأنت اذن لا تستحقهما •

وابتسمت ابتسامة فيها حماسة • فلجأ الأمير قائلا :

— ماذا تريدون ؟ لو رأي لافاتر^(١) لقال اني محروم من موهبة الأبوة !

— كفى مزاحاً • فلما أردت أن أكلمك جلدة كل الجد • إتني مستاءة من ابنك للأصغر كما تعلم • وهما لذا للآن أبوح لك بسر (هنا اكتسى وجهها تعبيراً عن حزن) : لقد تحدثوا عنه لدى صاحبة الجلالة الامبراطورة ، فرثوا لحالك ...

فلم يجب الأمير ، ولكنها كانت تنتظر جوابه صامتة وهي ترمقه بنظرة ذات دلالة • قال أخيراً :

— ما حيلتي ؟ تعرفين اني فعلت من أجل تريتهم كل ما يستطيع أب أن يفعله ، وهما كلاهما أبلهان ، لا يختلفان إلا في أن هيبوليت ولدع هاديء أما آفاتول فصاحب ورش •

وأضاف يقول وهو يتسم ابتسامة يجبر نفسه عليها مزيداً من الاجبار ، ويحرص على أن يودعها مزيداً من التعبير ، بينما كانت الغضون التي تتكون حول فمه تكشف بمزيد من الوضوح عن شيء فظ منقّر •

— هذا هو الفرق الوحيد •

(١) جلن جاسبار لافاتر (١٧٤١ - ١٨٠٦) ، كاتب ولاهوتي سويسري ، نشر سنة ١٧٢٢ كتاباً بعنوان « فن دراسة الهيئة » ، وفيه عرض مذهبه في العلاقة بين ملامح الوجه وخصائص النفس ، وهو مذهب كسب معجبين متحمسين ، ولكن لم تكن له قيمة علمية •

قالت آنا بافلوفنا وهي ترفع عينيها حاملة مفكرة :

— لماذا يكون لرجال مثلك أولاد ؟ لو لم تكن أباً لما كان لي عليك أي مأخذ .

— أنا خادمك الوفي ، ولك وحدك أستطيع أن أعترف بما في نفسي . أن أولادي هم عراقيل حياتي . إنهم صليبي . هكذا أرى الأمر . ماذا تريدون ؟

قال ذلك وصمت لحظة ، وعبرَ بحركة من يده عن إذعانه لقدره القاسي .

شرد فكر آنا بافلوفنا . ثم قالت تسأله :

— ألم تفكر يوماً في تزويج ابنك المبذر المتلاف أناطول ؟ يقال ان العوانس مصابات بداء التزويج . ولست أعتقد أن هذا الداء قد أصابني بعد . ولكنني أعرف انسانة لطيفة تشقى في حياتها مع أيها ، وهي قرية لنا ، أميرة من أسرة بولكونسكي .

لم يجب الأمير فاسيلي ، ولكنه بما يملك من فطنة أبناء المجتمع الراقي ، عبرَ بحركة من رأسه عن أنه استوعب هذا الاقتراح . ثم قال وقد بان عليه العجز عن كبح مجرى خواطره الحزينة الاسيفة :

— هل تعلمين أن أناطول هذا يكلفني أربعين ألف روبل في السنة؟ هذه ميزة أن يكون الرجل أباً . هل الأميرة التي ذكرتها غنية ؟

— الأب واسع الغنى شديد البخل . وهو يعيش في الريف . إنه

ذلك الأمير بولكونسكي^(١) الذي ترك خدمة الجيش في عهد المرحوم الامبراطور ، والذي خلع عليه لقب « ملك بروسيا » . إنه رجل ذكي جدا ، ولكن له أطوارا شاذة وطبعا صعبا . وابنته شقية شقاء شديدا فكأنها صخرة لا انسانية . ولها أخ هو الذي تزوج ليزا مائين في الآونة الأخيرة ، انه مرافق كوتوزوف^(٢) . وسوف يجيء هذا المساء .

قال الأمير وهو يتناول يد محدثته فجأة ويشدها الى تحت ، لا يدري إلا الله لماذا :

— اسمعي يا عزيزتي آنيث ، دبّري هذا الأمر فأكون خادمك الوفي الأمين أبد الدهر . انها من أسرة كريمة المحتد ثرية . وهذا كل ما أنا في حاجة إليه .

وبحركات طليقة تفيض رشاقة ولطفا ، ومودة وألفة ، وهي حركات يتميز بها ، تناول يد خدينة الامبراطورة فقبلتها ، وهزّها قليلا وهو يسترخي في أريكته وينظر الى جانب .

قالت أنا بافلوفنا وهي تتفكر :

— انتظر ، سأكلم الليلة ليزا (زوجة بولكونسكي الشاب) ، فقد نفلح في تدير الأمر حالا . في أسرتك إنما سأتعلم دور العانس .

(١) هنا يستوحى تولستوي شخصية جده لأمه ، الأمير نيقولا بولكونسكي الذي ترك الجيش في عهد بطرس الاول .

(٢) ان الشاب آندره بولكونسكي الذي سيضعه المؤلف هو شخصية من صنع الخيال ، وقد جعله تولستوي مرافقا للجنرال ميشيل الياريونوفتش جولنستشيف كوتوزوف (١٧٥٣ — ١٨١٣) . وهذا الجنرال قد تميز في حروبه ضد الاتراك ، ولا سيما في الاستيلاء على اسماعيل سنة ١٧٩٠ . وقد كان قائدا للجيش الروسي سنة ١٨٠٥ في النمسا ، وبعد ذلك في تركيا من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨١٢ ، ثم في روسيا سنة ١٨١٢ .

الفصل الثاني

امتلاً صالون آنا بافلوفنا شيئاً بعد شيء ، فإذا هو يضم كل أبناء المجتمع الراقي بيطرسبرج • انهم يتباينون أشد التباين أعماراً وطباعاً ، ولكنهم يتشابهون جميعاً في انتمائهم الى مجتمع واحد • وقد وصلت كذلك بنت الأمير فاسيلي ، هيلين الجميلة ، التي جاءت ليصطحبها أبوها الى حفلة السفير • كانت ترفل في فستان من فساتين حفلات الرقص ، يزدان بالأحرف الأولى من اسم الامبراطورة • وجاءت الاميرة بولكونسكي الصغيرة أيضاً ، وهي التي اشتهرت بأنها أفتن امرأة بيطرسبرج ، وقد تزوجت في الشتاء الماضي فكان حبلها يحجبها الآن عن المجتمع ، ولكنها ما تزال تحضر الحفلات الحميمة • وجاء أخيراً الأمير هيبوليت ، ابن الأمير فاسيلي ، في صحبة مورتمار ، فقدّمه الى الحضور معرّفاً به • وكذلك جاء القس موريو ، وجاء آخرون كثيرون •

وكانت آنا بافلوفنا تقول لكل قادم من ضيوفها وهي تقوده في كثير من الجد صوب سيدة قصيرة مسنة مزدانة بأشرطة كثيرة قد أقبلت من الغرفة المجاورة منذ أخذ الناس يتوافدون :

— ألم تر عمتي بعد ؟

أو تقول له :

— هل تعرف عمتي ؟

وتنقل عينها ببطء بين الضيف و « عمتي » ، ثم تمضي •

فكان كل ضيف يقوم بواجب تحية هذه العمة التي لم يكن يعرفها أحد ، ولا يهم أمرها أحدا ، ولا يحتاج إليها أحد • وكانت آنا بافلوفنا تشهد هذه التحيات باتتباه فيه حزن وأبهة معا ، وتشجعها وتؤيدها صامته بغير كلام • وكانت عمتي تحدث الجميع ، بألفاظ واحدة ، عن صحتهم ، وعن صحتها هي ، وعن صحة صاحبة الجلالة الامبراطورة التي تحسنت اليوم والحمد لله • وكان جميع الذين يغادرونها عقب ذلك دون أن يظهروا تعجلا ، وذلك من باب التأدب ، يحسون بشعور التخفف والارتياح الذي يحسه المرء بعد فراغه من القيام بواجب ثقيل ، ثم لا يهتمون بها ولا يكثرثون لها طوال السهرة •

وكانت الأميرة بولكونسكي الشابة قد جاءت بشغلها في كيس صغير من القطيفة مطرز بذهب • وكانت شقتها العليا الجميلة التي يغشاها ظل لطيف من زغب خفيف ، قصيرة بعض القصر في الواقع ، ولكنها تنفرج بكثير من اللطف والركة ، حتى إنها حين تنخفض فتطبق على الشفة السفلى ينعم الفم من ذلك ببرطمة تبلغ غاية الروعة • ومهما يكن من أمر فإن هذه الشائبة ، اعني قصر الشفة وانفراج الفم ، كان يضفي عليها جاذبية خاصة ، ويسبغ على جمالها طابعا فريدا ، كما يحدث هذا لجميع النساء اللواتي يحظين بحسن فتان حقا • وكان جميع الناس يمثلون بهجة وفرحا حين يرون هذه الشابة التي ستكون أما بعد حين ، هذه الشابة الجميلة ، التي تفيض صحة وحياة ، وتحتمل

حبها بهذا اليسر كله . حتى ان الشيوخ والشبان الذين تكون نفوسهم كالحة زاخزة بالضرر ، ما ان يقضوا في صحبتها بعض الوقت حتى يحسوا أنهم صاروا مثلها . وكان الذين يحادثونها ، فيرون عند كل كلمة من كلماتها بسمتها الواضحة ولمعة أسنانها البيض التي تنكشف في كل لحظة ، يعتقدون في ذلك المساء أنهم لطاف محببون الى النفس أكثر من أي وقت مضى . كان ذلك احساسا عاما لا يستثنى منه أحد .

دارت الأميرة الشابة حول المائدة بخطى قصيرة سريعة وهي تتمايل، ثم جلست على أريكة بقرب السماور الفضي وهي تعدل ثوبها جذلي مرحة ، فعلت ذلك وكأن الامر كله لا يعدو أن يكون حفلة مسرة وبهجة لها ولكافة من يحيطون بها ، وقالت وهي تفتح حقيبة يدها متجهة بكلامها الى الجميع :

— لقد جئت بشغلي !

واستطردت تقول مخاطبة ربة المنزل :

— حذار يا آيت . لا تغدري بي . لقد كتبت إليّ تقولين إنها سهرة صغيرة جداً . وأنت ترين مدى ما أنا فيه من تبرج !

قالت ذلك وباعدت ذراعيها لتبرز ثوبها الرمادي البسيط الانيق المزدان بالدانتيل والمحزوم بشريط طويل تحت الثديين قليلاً . فأجابتها آنا بافلوفنا قائلة :

— اطمئني ، ليز ، فسوف تبقين أجمل امرأة .

وعادت الاميرة الشابة تتكلم فقالت تخاطب جنرالاً ، بتلك اللهجة نفسها :

— ان زوجي سيتركني • هل تعلم ؟ انه ذاهب الى الحرب ليقتل •
وأضافت تسأل الأمير فاسيلي :

— قل لي ، علام هذه الحرب الكريهة ؟
وبدون أن تنتظر جواباً ، التفتت الى ابنة الامير ، الجميلة هيلين •
قال الأمير لآنا بافلوفنا بصوت خافت :

— ما أعذبها إنساناً ، هذه الاميرة الصغيرة !

ودخل بعد الاميرة بمدة قصيرة شاب ضخم الجسم ، قصير شعر
الرأس ، على أنفيه نظارتان ، لباسه بنطلون فاتح على موضة ذلك
الزمان ، وصدرة عالية ، وجاكته بنية • ان هذا الشاب هو ابن غير شرعي
لسيد كبير شهير من رجال عهد كاترين ، أعني الكونت بيزوخوف^(١)
الذي كان يشارف على الموت بموسكو • والشاب لكما يمارس بعد أي
نشاط ، وقد وصل من الخارج منذ مدة قصيرة ، وفي الخارج انما
نشأ وتربى ، فهو يظهر الليلة في المجتمع لأول مرة • وقد وجّهت إليه
آنا بافلوفنا التحية التي تخص بها أفراداً يحتلون أدنى الدرجات في
سلم مجتمعها • ولكنها رغم أنها استقبلته هذا الاستقبال الفاتر ، قد
ظهر في وجهها ذلك النوع من القلق أو الفزع الذي يحس به امرؤ يرى
شيئاً مسرفاً في الضخامة قد نزل في غير محله وداهم بيئة ليست هي
البيئة التي تناسبه ويناسبها • والحق أن هذا الفزع ، رغم أن بطرس

(١) ان اسم بيزوخوف : (ومعناه : بلا اذنين) قد وضعه المؤلف على
غرار اسم الكونت بيزورودكو (ومعناه : بلا ذقن) ، الذي كان
نائب مستشار في امبراطورية كاترين الثانية •

أضخم قليلا من سائر الحضور ، لا يمكن ان يكون سببه الا نظرته التي تشع ذكاء وخجلا في آن واحد ، وتتصف بأنها قوية الملاحظة يقضى طبيعية معاً ، وهي نظرة يتميز بها عن سائر من كانوا في الصالون .
قالت آنا بافلوفنا وهي تبادل عمتها نظرة قلقة حين كانت تقوده إليها :

— انه للطف منك يا سيد بطرس ان تزور امرأة مريضة مسكينة !

فغمغم بطرس ببضع كلمات لا تفهم ، واستمر في تسريح بصره باحثاً عن شيء • وابتسم فرحاً حين حيّا الاميرة الصغيرة كما يحيي المرء صديقة ، وأقبل على العمة • ولم تكن مخاوف آنا بافلوفنا في غير محلها ، لأنه ترك عمتها دون أن يصغي الى نهاية كلامها عن صحة صاحبة الجلالة • وأستوقفته آنا بافلوفنا مرتاعة قائلة له :

— ألا تعرف الأب موريو ؟ انه رجل شائق جداً •••
فأجابها بقوله :

— سمعت عن مشروعه في إقامة سلام دائم ، وهو مشروع شائق جداً ، ولكنه لا يمكن تحقيقه •

قالت آنا بافلوفنا ، لتقول شيئاً ما ، ولتستطع أن تعود الى القيام بواجبات ربة المنزل :

— أظن ذلك ؟

ولكن بطرس ارتكب غلطة منافية للكياسة هي نقيض الغلطة التي

ارتكبها منذ هنية • فمئذ هنية كانت تحدته سيدة فانصرف عنها قبل أن تتم كلامها ، وهاهوذا الآن يحتجز أخرى هي في حاجة الى أن تنصرف عنه ، فيأخذ يشرح لآنا بافلوفنا ، وقد حنى رأسه وباعد ساقيه الطويلتين ، الاسباب التي تدعوه الى الاعتقاد بأن مشروع الاب موريو وهم وخيال !

قالت آنا بافلوفنا متبسمة :

— سنتكلم في هذا بعد قليل •

حتى اذا تخلصت من الفتى الذي لا يعرف كيف يعيش ، رجعت الى النهوض بواجباتها كربة منزل ، منتبهة ببصرها وسمعتها الى كل شيء ، متأهة لايقاظ الحديث أتى يصبه خمود • فكما يتجول صاحب مصنع من مصانع النسيج في أرجاء مصنعه بعد أن يضع كل عامل من العمال في مكانه ، حتى اذا لاحظ توقف أحد الانوال عن العمل ، أو سمع صوتاً غير مألوف ، صوتاً فيه صرير أو فيه فرط شدة ، هرع الى النول فأصلح من شأنه أو أوقفه ، كذلك كانت آنا بافلوفنا تتجول في صالونها ذاهبة آية ، فتقبل على جمع صمت عن الكلام أو جمع أسرف في الصخب ، فاذا هي تعيد الى ماكينة الكلام حسن سيرها وانتظام عملها ، وذلك بكلمة تقولها أو بشخص تنقله من مكان الى مكان • ولكن كان واضحاً أن تخوفها من بطرس لم يبارحها في غمرة هذه المشاغل • وقد تابعتها بنظرة قلقه حين أقبل على الحلقة التي تحيط بمورتمار لينست الى ما يقال هناك ، ثم اتجه الى جمع آخر كان يتكلم فيه الأب موريو • ان هذه السهرة عند آنا بافلوفنا هي بالنسبة

الى بطرس الذي نشأ وتربى في الخارج أول سهرة يشهدها في روسيا •
كان يعلم أن المجتمع المثقف ببيطرسبرج محتشد كله هنا ، فكانت عيناه
تنتقلان من شخص الى شخص ، كعيني طفل في متجر لبيع الشعب •
وكان يخشى دائماً أن يفوته حديث شائق يمكنه أن يصغي اليه • كان
وقد رأى ما في وجوه هؤلاء الاشخاص الذين اجتمعوا هنا من مهابة
وثقة يتوقع في كل لحظة أن يسمع شيئاً فيه ذكاء لامع • وقد بدا
له الحديث شائقاً ، فتوقف ينتظر فرصة يتاح له فيها ان يعرض وجهة
نظره ، كما يحب الشبان ان يفعلوا ذلك •



الفصل الثالث

انطلقت سهرة آنا بافلوفنا نشطة حية • الانوال تتحرك هادرة هديرأ متصلا مطردا • وباستثناء عمتي التي لم يجالسها أحد سوى سيدة مسنة ذات وجه مهزول أضنته الدموع ، والتي تبدو غريبة بعض الشيء عن هذا المجتمع المتألق ، كان الضيوف قد انقسموا ثلاث جماعات ؛ أحداها كان أكثرها رجالا ، وكان الاب موريو مركزها • والثانية كانت شباباً وكانت تتألق فيها الاميرة الجميلة هيلين ، ابنة الامير فاسيلي ، والاميرة الصغيرة بولكونسكي ، المتوردة ، الحلوة ، على بدانتها بالقياس الى سنها • والثالثة جماعة مورتمار وآنا بافلوفنا •

ان الفيكونت مورتمار شاب لطيف ناعم القسما رقيق الاشارات والحركات ، يعتقد بأنه من مشاهير الرجال ، ولكنه لحسن أدبه وشدة تواضعه يتيح لهذا المجتمع الذي ساقته اليه الظروف ، أن ينتفع بوجوده ويستفيد من حضوره • وكان واضحا ان آنا بافلوفنا إنما تولمه لضيوفها بهجة ومسرة • وكما يعتمد مدير المطعم البارع الى تقديم شريحة من شرائح اللحم على أنها طبق شهى لا يضاهى ، مع أن النفس تعافها لو رأتها في مطبخ قدر ، فكذلك كانت آنا بافلوفنا في ذلك المساء تقدم الى ضيوفها الفيكونت مورتمار فالاب موريو على

أنهما ذروة الفكر المرفف • وسرعان ما جرى الحديث في جماعة مورتمار على حادثة اغتيال دوق إنجهين^(١) • فقال الفيكونت مورتمار ان الدوق قد هلك ضحية لشهامته ونبل نفسه ، وان حقد بونا بارت له أسباب خاصة •

قالت آنا بافلوفنا :

— آ ••• اقصص علينا هذا يا فيكونت !

وما كان أعظم فرحها اذ شمت في جملتها عطراً يذكر بلويس الخامس عشر : اقصص علينا هذا يا فيكونت !

فانحنى الفيكونت ملبياً ، وابتسم في رقة ولطف • فأهابت آنا بافلوفنا بالجميع أن يصغوا الى ما سيقصه ، وقامت من حوله حلقة تحديق به احداقاً •

ودمدمت آنا بافلوفنا تقول لأحدهم :

— كان مونسينور يعرف الفيكونت معرفة شخصية •

وقالت لآخر :

— ان الفيكونت قصاص رائع !

(١) ان الشاب لويس انطوان دو بوربون كونديه ، دوق انجهين ، الذي ولد سنة ١٧٧٢ وهاجر منذ ١٧٨٩ ، قد اختطفه رجال شرطة نابليون في مدينة اثنهايم من دوقية بادن ، ثم اقتيد الى فنان ، وقتل رمياً بالرصاص في ٢١ اذار (مارس) سنة ١٨٠٤ ، فثار هذا الاغتيال استياء كبيراً في روسيا وفي بروسيا التي عزفت عندئذ عن التحالف الذي كانت تنوي اقامته بينها وبين فرنسا •

وقالت لثالث :

— تعرف قيمة المرء بمعرفة قيمة صحبه •

وهكذا قدّمت الفيكونت الى ضيوفها في أبهى صورة ، كما تقدّم شريحة اللحم في طبق ساخن مزدانة بقدونس •

وتأهب الفيكونت لسرد قصته وهو يتسم ابتسامة رقيقة • فقالت آنا بافلوفنا منادية الاميرة الجميلة التي كانت تنتحي جانبا بقرب جماعة أخرى :

— تعالي الى هنا يا عزيزتي هيلين •

وكانت هيلين تبتسم ، فنهضت وعلى ثغرها تلك الابتسامة نفسها التي لا تتغير ، ابتسامة المرأة التي أوتيت جمالا بارعا ، وهي الابتسامة التي كانت تتألق على ثغرها حين دخلت الصالون • وبين حفيف ثوبها الابيض المزدان بلبلاب وطحلب ، وتألق كتفيها البضاوين ، والتماع شعرها ولألاء ماسها ، أقبلت على حلقة الرجال الذين تقهقروا أمامها ، وجاءت تنضم الى آنا بافلوفنا منتصبة القامة دون أن تنظر الى أحد ، ولكنها تبتسم للجميع وكأنها تهب لكل واحد حق الإعجاب بقدرها الجميل وكتفيها البضتين ونحرها وظهرها المتعريين في سخاء على موضة ذلك الزمان ، وكأنها تحمل الى السهرة كل ما تحتاج اليه حفلة راقصة من بهاء وسناء • إن هيلين تبلغ من الجمال ان المرء لا يرى فيها ظللا من دل وغنج ، حتى انه يحس انها متضايقة من جمالها هذا الذي لا يمكن جحوده ، ومن سلطانها هذا المفرط في القوة والانتصار ، حتى

لكأنها تريد أن تخفف من تأثير هذا الجمال وهذا السلطان فلا تفلح .

قال أحدهم وهو يراها :

— ما أجملها !

ورفع الفيكونت كتفيه وخفض عينيه كالمبهور ، بينما كانت تجلس أمامه ، فتضيئه هو أيضاً بلألاء بسمتها التي لا تفارق ثغرها . قال وهو يتسهم وينحني :

— انني أخشى أن يرتج عليّ ويسقط في يدي أمام مستمعين من هذا النوع !

وأسندت الأميرة ذراعها العارية البضة الى منضدة ، ورأت ان لا داعي الى إجابته بشيء . وجعلت تنتظر مبتسمة . ولقد ظلت طوال استرساله في كلامه منتصبّة الجذع ، تنظر بين الفينة والفينة تارة الى ذراعها الجميلة البضة التي تستند الى المنضدة استناداً رقيقاً ، وتارة الى نحرها الذي يفوق ذراعها جمالاً ويزينه نهر من جواهر الماس . وقد عدلت ثيئات فستانها عدة مرات . فاذا احدثت القصة في نفوس المستمعين أثراً التفتت هي الى آنا بافلوفنا فأسرعت تصطنع ما يعبر عنه وجه خدينة الامبراطورة ، ثم عادت تجمد على ابتسامتها المتألقة .

وفي إثر هيلين تركت الاميرة الصغيرة مائدة الشاي وهي تقول :

— انتظريني ، سأخذ شغلي .

ثم أضافت تقول مهيبة بالامير هيبوليت :

— في أي شيء تفكر ؟ ألا جئتني بحقيقة يدي !

وأبدلت الاميرة مكانها بهمة ونشاط وهي تبتسم للجميع وتكلم الجميع ، حتى اذا جلست راحت تعدل فستانها في فرح • وقالت :

— حسناً • تستطيعون أن تبدأوا •

واستأنفت شغلها •

مما يخطف البصر أن هيوليت هذا يشبه أخته الرائعة شهباً خارقاً، ولكنه رغم هذا الشبه شديد الدمامة • ان له قسمات أخته ، ولكن كل شيء في أخته تضيئه ابتسامتها الدائمة الراضية النظرة الفتية التي يشع منها الفرح بالحياة ، ويزيد سناؤه وبهائه هذا القدّ الجميل الذي يشبه قدود تماثيل اليونان القدامى • أما أخوها فان وجهه الذي يشبه وجهها فقد أسدلت عليه غشاوة من بلادة وغباء ، فهو يعبرّ في كل وقت عن مزاج معاند وطبع شرس وغرور طافح ، هذا الى جسم نحيل مهزول ؛ إن عينيه وأنفه وفمه وكل قسمة من قسمات وجهه تتقبض جميعا في جعدة غامضة تنضح تدمراً وضجراً ، وان ذراعيه وساقيه تتخذ في جميع الاحيان أوضاعاً مصطنعة متكلفة ليس فيها شيء من الانطلاق على السجية •

قال وهو يجلس بقرب الاميرة ، ويسارع الى وضع نظارة على احدى عينيه ، فكأنه لا يستطيع أن يتكلم مستغنياً عن هذه الأداة :

— أهى قصة عن اشباح موتى عائدين ؟

فقال القصّاص وهو يرفع منكبيه مدهوشاً :

— لا يا عزيزي ، لا يا عزيزي ...

فقال الامير هيوليت بلهجة يتضح للسامع منها أنه تكلم قبل أن يفهم معنى ما يقول :

— ذلك أنني أكره قصص أشباح الموتى العائدين ؟

ولكنه أطلق قوله بثقة تبلغ من القوة أن أحداً لم يدرك هل مايقوله يشتمل على ذكاء كبير ، أم هو يشتمل على غباء شديد •

وكان يكسوه فراك أخضر قاتم ، فوق سروال كان يسميّه سروال « فخذ الحورية المذعورة » ، وجوربان من حرير ، وحذاءان خفيفان •

أخيراً حكى الفيكونت ، ببراعة وظرف ، تلك القصة التي كانت تروج عن رحلة سرية قام بها دوق إنجهين الى باريس ليرى الآنسة جورج^(١) ، فاذا هو يرى عندها بونابرت الذي كان يحظى أيضاً بالنعم والآلاء التي تجود بها تلك الممثلة الكوميديّة الشهيرة • وشاءت المصادفة أن يغمى على بونابرت حين رأى الدوق ، كما كان يحدث له هذا الاغماء أحيانا ، فأصبح بونابرت تحت رحمة خصمه ، ولكن الدوق أبى أن ينتهز هذه الفرصة • وبسبب هذا الكرم من الدوق انما حمل له بونابرت حقدا شديدا ، وثأر لنفسه بعد ذلك بتدبير اغتيال الدوق •

كانت القصة جميلة جدا شائقة جدا ، ولا سيما في الموضع الذي

(١) هي الآنسة مارجريت فايمار ، الملقبة جورج ، (١٧٨٧ - ١٨٦٧)
فنانة شهيرة في فرقة الكوميدي فرانسيز منذ سنة ١٨٠٣ ، وقد
تركت « مذكرات » حكّت فيها قصة علاقتها بنابوليون •

تعرف فيه كل من الخصمين خصمه ، وقد انفعلت السيدات عندئذ
انفعالا ظاهرا •

قالت آنا بافلوفنا وهي تلقي على الاميرة الصغيرة نظرة سائلة :
- رائع ، هه ؟

فدمدمت الاميرة الصغيرة قائلة وهي تفرز ابرتها في شغلها ، كأنما
لتعبر عن شعورها بأن ما في القصة من فتنة وروعة قد شغلها عن متابعة
شغلها :

- رائع !

فسرّ الفيكونت من هذا التقدير الصامت ، وعاد يكمل سرد قصته
وهو يتسم ابتسامة شكر • ولكن آنا بافلوفنا لم تنقطع عن رصد
الشاب الذي كان يوقظ في نفسها مخاوف • وقد لمحت في تلك اللحظة
أنه كان يكلم الاب موريو بصوت عال وحدة عنيفة ، فهبت تطير الى
موضع الخطر منجدة مغيثة • كان بطرس قد ورط الاب موريو في حديث
عن التوازن السياسي ، وكان الاب موريو الذي أعجب اعجابا واضحا
بما يراه في الفتى من حرارة ساذجة قد أخذ يشرح له فكرته الاثيرة •
وكان الاثنان كلاهما يصغيان ، ويتكلمان بحماسة شديدة ، وانطلاق
طبيعي ، وذلك بعينه ما لم يرض آنا بافلوفنا •

كان الاب موريو يقول :

- ان الوسيلة الوحيدة هي التوازن الاوروبي وحق البشر • يكفي
أن تسير دولة قوية ، مثل روسيا الموصوفة بأنها همجية ، على رأس

عصبة من الدول بهدف تحقيق التوازن في أوروبا دون سعي الى منفعة خاصة ، حتى تنقذ العالم !

وأراد بطرس أن يتكلم فبدأ يقول :

— وكيف تتصور هذا التوازن ؟

لكن آنا بافلوفنا وصلت في تلك اللحظة ، ونظرت الى بطرس نظرة قاسية ، وسألت الايطالي عن رأيه في المناخ هنا • فتغير وجه الايطالي فجأة ، واكتسى على الفور تعبيراً عن رقة وعذوبة تبلغان حد المداهنة والنفاق ، ويظهر أنه ألفها في مخاطبة السيدات • وقال يجيبها :

— لقد بلغت من فرط الافتتان بمفاتيح الفكر والثقافة في المجتمع ، ولا سيما المجتمع النسائي الذي سعدت بوجودي فيه أن وقتي لمّا يتسع للتفكير في المناخ •

ولم ترض آنا بافلوفنا بعد ذلك أن تترك الأب موريو ولا بطرس ، وانما قادتهما الى حلقتها لتستطيع أن تلاحظهما بسهولة أكبر •

وفي تلك اللحظة دخل الصالون شخص جديد هو الامير الشاب آندره بولكونسكي ، زوج الاميرة الصغيرة • ان الامير بولكونسكي فتى بارع الجمال ، ربع القامة ، واضح القسمات ، جاف الهيئة • وكل شيء فيه — من نظراته المكدودة الضجرة الى مشيته البطيئة الموزونة — يناقض كل المناقضة ما تتصف به زوجته الصغيرة من نشاط وحيوية وحرارة • وكان واضحاً أنه يعرف جميع من في الصالون

معرفة تامة ، وأن رؤيتهم والاستماع اليهم يورثانه ضجرا قاتلا •
ولكن يبدو أنه كان يضيق بامراته أكثر من ضيقه بسائر هؤلاء الذين
يضيق بهم ضيقاً شديدا • حتى لقد أشاح عنها وقد جعد وجهه تجعيدا
أفسد بعض جماله • وقبل يد آنا بافلوفنا ، ثم غضن عينيه وراح
يتفرس في الحضور •

قالت آنا بافلوفنا تسأله :

— هل تطوعت للحرب يا أمير ؟

فأجابها ، وهو يمد المقطع الاخير من اسم كوتوزوف على طريقة
النطق الفرنسي :

— الجنرال كوتوزوف أرادني مرافقا له •

— وامراتك ليز ؟

— تمضي تقيم في الريف •

— كيف لا تستحي أن تحرمننا من زوجتك الفتاة ؟

وانبرت زوجته تكلمه فقالت له بتلك اللهجة نفسها التي تكلم بها
الأجانب ، أعني لهجة الغنج والدلال ،

— آندره ! ما كان أحلى تلك القصة التي رواها لنا الفيكونت عن
الآنسة جورج ، وعن بونايرت !

فأغمض الأمير آندره عينيه وأشاح وجهه • وكان بطرس يلقي

عليه منذ وصوله نظرة تفيض بالفرح والصدقة ، فها هو ذا الآن
يجيء إليه ويمسك يده • ولم يلتفت الأمير آندره ، وجعّد سخته
ضيّقاً بذلك الذي أمسك ذراعه ، ولكنه حين رأى وجه بطرس المبتسم،
طالعه بابتسامة غير متوقعة ، ابتسامة لطيفة حلوة طيبة • وهتف
يقول له :

— هه ! أأنت أيضاً في المجتمع الراقي ؟

فأجابه بطرس بقوله :

— كنت أعرف أنني سألقاك •

ثم أضاف يقول بصوت مهموس حتى لا يزعج الفيكونت الذي
كان يواصل سرد قصته :

— سأجيبك عليك فأتعشى عندك • هل أستطيع ذلك ؟

فقال الأمير آندره ضاحكاً وهو يضغط يد بطرس ضغطاً معناه
أن هذا السؤال نافل لا داعي إليه :

— لا ، لا تستطيع !

وأراد أن يضيف كلاماً آخر • ولكن الأمير فاسيلي وابنته هيلين
قاما في تلك اللحظة ، فقام الآخرون يفسحون لهما طريقاً •

قال الأمير فاسيلي للرجل الفرنسي وهو يمسك كُمّه إمساك مودة
وصداقة ليمنعه من القيام :

— معذرة عزيزي الفيكونت • ان تلك الحفلة التي يقيمها السفير تحرمني من مسرة ، وتقطع عليك حديثاً • يؤسفني أنني مضطر الى ترك هذه السهرة الجميلة •

قال الأمير فاسيلي هذه الجملة الاخيرة مخاطباً آنا بافلوفنا •

ومرّت ابنته هيلين بين الكراسي ممسكة ثنيات ثوبها إمساكاً خفيفاً ، وكانت الابتسامة تضيء مزيداً من الاضاءة على وجهها الجميل • ونظر بطرس الى هذا الجمال الساحر بعينين مأخوذتين ، بل مروّعتين، حين مرت الفتاة أمامه •

قال الأمير آندره :

— إنها جميلة جداً •

فأجابه بطرس :

— نعم • جميلة جداً •

وقد تناول الأمير فاسيلي يد بطرس حين مرّ به ، والتفت صوب آنا بافلوفنا قائلاً لها :

— روّضي لي هذا الدب • إنه يقيم عندي منذ شهر ، ثم ألقاه اليوم في المجتمع أول مرة • لا شيء يحتاج اليه الفنى كحاجته الى مجتمع النساء الذكيات •

الفصل الرابع

ابتسمت آنا بافلوفنا ووعدت بأن تهتم ببطرس الذي تعرف أنه
يمتث بقراءة من جهة أبيه الى الامير فاسيلي •

وأسرت السيدة المسنة التي كانت جالسة بقرب « عمتي » ،
أسرت تنهض ، وتجري وراء الامير فاسيلي فادرسته في الدهليز •
امسحى من وجهها كل ما كانت تصطنعه من مظهر اللياقة الاجتماعية ،
وأصبح وجهها الذي أضنته الدموع لا يعبر الا عن القلق والخشية •
قالت للأمير وهي تدركه في الدهليز :

— ماذا تستطيع أن تقوله لي عن ابني بوريس يا أمير ؟

وقد أطالت حرف الواو من ابن اسمها إطالة خاصة ، وأردفت
تقول :

— لا يمكنني أن أمكث ببطرس برج مدة طويلة • فقل لي :

ما هي الأنباء التي أستطيع أن أنقلها الى ولدي المسكين ؟

رغم أن الأمير فاسيلي قد أصغى إليها على مضض ، وبغير أدب
تقريباً ، حتى لقد أظهر شيئاً من التملل والتذمر ، فانها ظلت بتسم

له إبتسامة فيها لطف مؤثر ، وأمسكت يده لتمنعه من الانصراف عنها .
وقالت له :

— ماذا يكلفك من عناء أن تقول للامبراطور كلمة واحدة ، فإذا
هو ينقله الى الحرس رأساً ؟

أجاب الأمير فاسيلي قائلاً :

— ثقي أنني سأفعل كل ما أستطيع أن أفعله يا أميرة ، ولكن
يصعب عليّ أن اتشفع لدى الامبراطور . واني لأنصحك بأن تلتصي
المعونة من روميانتسيف^(١) لا مني ، بواسطة الأمير جولتزين^(٢)، فذلك
أجدي .

إن السيدة المسنة تحمل اسم الاميرة دروبتسكوي^(٣) ، وان

(١) الكونت نيقولا روميانتسيف (١٧٥٤ - ١٨٢٦) : كان وزيراً للتجارة
من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٨ ، ثم أصبح وزيراً للخارجية سنة
١٨٠٨ ، وغدا بعد ذلك مستشار الامبراطورية . هو شخص قوي
النفوذ ، كان يرعى الادباء والعلماء ، وقد أنشأ في موسكو « المكتبة
العامة » التي سميت باسمه في ذلك الحين ، واسمها الآن « مكتبة
لينين » .

(٢) الامير الكسندر ن جولتزين (١٧٧٣ - ١٨٤٤) : كان عضواً في
« لجنة الخلاص العام » . التي أنشأها الاسكندر الاول ، وأصبح
منذ سنة ١٨٠٥ وكيل المجمع الكنسي ، ثم غدا وزيراً للتعليم العام ،
واتصف بميوله الرجعية .

(٣) شخصية من صنع خيال المؤلف ، صنع لها اسماً على غرار اسم
أسرة الامراء نروبوتزكوي .

اسم دروبتسكوي لهو من أكبر الاسماء في روسيا ، ولكنها كانت فقيرة جدا ، وقد انقطعت عن الاختلاف الى المجتمع الراقي منذ مدة طويلة ، وفقدت ما كان لها من صلات بعلية القوم . وقد جاءت الى بطرسبرج محاولة أن تظفر بنقل ابنها الوحيد الى الحرس الامبراطوري . ومن أجل أن ترى الامير فاسيلي إنما طلبت من آنا بافلوفنا أن تدعوها الى هذه السهرة ، ثم جاءت وأصغت الى قصة الفيكونت لا لشيء ، إلا لهذا الغرض . وقد روعتها كلمات الامير فاسيلي ، حتى أن وجهها الذي كان في الماضي جميلا قد عبّر الآن عن شيء من الغيظ والحقن ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة ، ثم اذا هي تبسم من جديد ، وتشبث بذراع الامير فاسيلي تشبثاً أقوى ، وتقول :

— اسمع يا أمير ، انني لم أطلب منك شيئاً في يوم من الأيام قط ، ولن اطلب منك شيئاً في يوم من الايام أبداً ؛ وانني لم أذكرك يوماً بالصدقة التي كانت بينك وبين أبي . ولكنني الآن استحلفك بالله أن تصنع لابني هذا الجميل ، فاذا فعلت ، عددتك محسناً إليّ ومنعماً عليّ مدى الحياة .

قالت ذلك متعجلة . وأضافت :

— لا ، لا تزعل بل عدني بأنك ستفعل . لقد طلبت هذا من جولتزين ولكنه رفض . كن ذلك الطفل الطيب الذي كنته في الماضي .

قالت ذلك وهي تحاول أن تبسم ، غير أن دموعاً كانت تترقق في عينيها .

وكانت الأميرة هيلين واقفة بقرب الباب ، فالتفت نحو أبيها برأسها فوق كتفين كأنهما كتفا تمثال من تماثيل اليونان القدامى ، ونادته قائلة له :

— بابا ، سوف تتأخر عن الحفلة •

غير أن ما للمرء من نفوذ وتأثير في المجتمع العالي ثروة يجب عليه أن يداريها ويحافظ عليها ، وإلا تبددت شيئاً بعد شيء ؛ والأمير فاسيلي يعرف هذه الحقيقة ، وقد أدرك أنه اذا توسَّط لجميع الذين يلتصقون وساطته فلن يستطيع بعد ذلك ان يطلب شيئاً لنفسه ، فذلك كان لا يستعمل رصيده هذا إلا في القليل النادر • ولكنه فيما يتعلق بالأميرة دروبتسكوي قد أحس مع ذلك بشيء من عذاب الضمير بعد رجائها الجديد هذا • لقد ذكرته بالحقيقة ، وهي أنه مدين لأبيها بخطواته الاولى على درب النجاح • وكان عدا ذلك يرى من أسلوبها في التصرف أنها واحدة من تلك السيدات ، ومن تلك الامهات خاصة، اللواتي متى عزم على شيء فلن يتركك قبل أن يظفرن بما يرونه منك ، وإلا جئن يصدعن رأسك كل يوم وكل لحظة ، حتى لقد يشاجرنك ؛ وقد هزته هذه الصورة الأخيرة هزاً شديداً •

قال بصوته الذي يشتمل على الالفة والضجر المعهودين فيه :

— عزيزتي آنا ميخائيلوفنا • انه ليكاد يستحيل عليّ أن أفعل ما ترغبين أن أفعله • ولكنني من أجل ان اظهرك على كل ما احمله لك من

عاطفة المحبة ، ومن أجل أن أظهرك على مدى احترامي لأبيك المرحوم ،
فلأفعل المستحيل : لسوف ينقل ابنك الى الحرس ، هذا عهد أقطعه
لك على نفسي • هل رضيت ؟

— يا عزيزي ، إنك أنت المحسن اليّ ! وما كنت أتوقع منك
أقلّ من هذا • كنت أعرف مدى ما تتصف به نفسك من أريحية
وشهامة •

وأراد الامير فاسيلي أن ينصرف • ولكن الأميرة دروبتسكوي
استوقفته قائلة له :

— انتظر • كلمة أخرى • متى تمّ نقل ابني الى الحرس ...
وترددت عن إكمال جملتها ، ولكنها لم تلبث أن أردفت تقول :
— انك تعرف ميشيل إيلياريونوفتش كوتوزوف معرفة طيبة ،
فذكّ له بوريس فيتخذه مرافقاً له ، فأطمئنّ أنا ، و ...

فابتسم الامير فاسيلي وقال لها :

— هذا لا أعدك به • انك لا تعلمين مدى ملاحقة الناس لكوتوزوف
منذ أن عيّن قائدا عاما للحرس • لقد قال لي هو نفسه ان سيدات
موسكو كافة قد آلين على أنفسهن أن يفرضن عليه جميع أولادهن
مرافقين له •

— بل عدني أيها المحسن إليّ • لن أتركك ما لم تعدني •

وارتفع صوت هيلين تقول لأبيها مرة أخرى :

— بابا ، سوف نصل الى الحفلة متأخرين •

— طيب • الى اللقاء • استودعك الله • أرايت ؟

— ستكلم الامبراطور اذن في الغد ؟

— حتماً • ولكنني لا أعدك بشيء عن تعيين ابنك مرافقاً

لكوتوزوف •

— بل عدني ، عدني بذلك يا باصيل !

بهذا أجابته أنا ميخائيلوفنا مبتسمة ابتسامة فتاة مغناج ، وهي

ابتسامة لا بد أنها كانت مألوفة لها معهودة فيها أيام الصبا ، ولكنها

أصبحت الآن لا تناسب وجهها الذابل الذاوي ، بل هي فيه دمية

بشعة •

كان واضحاً أنها نسيت سنّها ، فاستعملت بحكم العادة ما كانت

تستعمله في صباها من قوى الأنوثة • ولكن وجهها عاد الى ما كان عليه

عن برودة وانقباض منذ خرج الامير فاسيلي • ورجعت تنضم الى الحشد

الذي كان الفيكونت ما يزال يروي له قصصه ، وتظاهرت بالاصغاء من

جديد ، منتظرة أن تنصرف من لحظة الى لحظة ، لأن المهمة التي جاءت

من أجلها قد تمت •

قالت أنا بافلوفنا :

— ولكن ما رأيك في تلك المهزلة الاخيرة ، مهزلة التتويج في ميلانو؟
وفي تلك المهزلة الجديدة التي مثلها أهل جنوه ولوكا اذ جاءوا يعربون
لمسيو بونايرت عن تمنيات الشعوب ؟ عظيم ! هه ؟ لا ، لا ، ان هذا
ليفقد الانسان عقله ! لكأن العالم كله قد جن !

ابتسم الامير آندره وهو يحدّق الى عيني آنا بافلوفنا • وقال
مردداً العبارة التي نطق بها بونايرت أثناء وضع التاج على رأسه :

— « الرب وهبه لي ، فويل لمن يمسّه » ^(١) •

وأردف الامير آندره يقول معلقاً :

— يقال انه كان جميلاً جداً حين نطق بهذه الكلمات •

وكرر الامير آندره هذه الكلمات باللغة الايطالية •

واستأنفت آنا بافلوفنا كلامها فقالت :

— أمل أخيراً أن يكون هذا هو القطرة الاخيرة التي تجعل الكيل

يطفح • ان الملوك أصبحوا لا يطيقون احتمال هذا الرجل الذي يهدد
كل شيء •

قال الفيكونت وقد لاحت في وجهه معاني الملاحظة وعبرت أساريره
عن تبدد أوهامه وغلبة اليأس على نفسه :

(١) جملة قالها نابوليون بمدينة ميلانو يوم ٢٣ أيار (مايو) ١٨٠٥
حين كان يتوشع بتاج ملوك بومبارديا الثلاثة •

— الملوك ؟ لست أتكلم عن روسيا ياسيديتي • ولكن ماذا فعل الملوك للويس السابع عشر ، وماذا فعلوا للملكة ، وماذا فعلوا لمدام إليزابت ؟^(١)

وتابع كلامه يقول وقد ازدادت حرارة حديثه :

— لا شيء ! وصدّقي أنهم ينالون عقابهم على خيانتهم لقضية آل بوربون • الملوك ؟ أنهم يرسلون سفراء لمجاملة المعتصب وخطب ودّه •

قال هذه الكلمات وغيره جلسته وهو يتنهد تنهدا فيه معنى الاحتقار • فلما سمع الامير هيبوليت هذه الاقوال ، وكان قد تأمل الفيكونت ملياً من خلال نظارته ، التفت نحو الاميرة الصغيرة بجسمه كله على حين فجأة ، وطلب منها ابرة ، وأخذ يرسم لها على الطاولة شعار النبالة الذي يحمله آل كوندية^(١) • وطفق يشرح لها هذا الشعار

(١) من المعروف أن ابن لويس السادس عشر الذي ولد سنة ١٧٨٥ قد أعلنه المهاجرون ملكا سنة ١٧٩٣ ، وسموه لويس السابع عشر ، ثم سجن في « الهيكل » ، وعهد به بعد ذلك الى حذاء ، ومات مجهولا سنة ١٧٩٥ ؛ اما الملكة ماري انطوانيت فقد أعدمت بالمقصلة سنة ١٧٩٣ ؛ وأما مدام اليزابت ، اخت لويس السادس عشر ، فقد أعدمت بالمقصلة سنة ١٧٩٤ •

(١) كان الامير لويس جوزيف دو كوندية (١٧٣٦ - ١٨١٨) قائد جيش المهاجرين الذي قاتل الثورة منذ سنة ١٧٩٢ ؛ وقد قضى مع هذا الجيش أربع سنين في روسيا حتى سنة ١٨٠١ ؛ وكان دوق إنجهين حفيده الوحيد •

مهماً أشد الاهتمام ، كأنها هي التي طلبت منه ذلك •

— عصا من ميناء أحمر مرصعة بزنبقات من ميناء بلون اللازورد :

آل كوندية •

فكانت الاميرة تصغي اليه مبتسمة •

قال الفيكونت مواصلاً حديثه الذي بدأه ، كما يفعل شخص لا يسمع ما يقوله الآخرون ، ولكنه في مسألة يعرفها أكثر من غيره لا يتابع الا مجرى أفكاره :

— اذا بقي بونابرت متربعا على عرش فرنسا سنة أخرى ، فان المجتمع الفرنسي ، أعني المجتمع الفرنسي الراقى ، سوف يباد الى الأبد ، بالتآمر والعنف والنفي والاعدام ، وعندئذ ...

قال الفيكونت ذلك وباعد ذراعيه معبرا عن الحزن والأسى • وأراد بطرس أن يقول كلمته ، فقد كان الحديث يهمه ويشوقه ، ولكن آنا بافلوفنا التي كانت ترصده وترقب حركاته وسكناته لم تهب له فرصة الكلام ، اذ بادرت تقول بلهجة الحزن تلك التي لا تفارقها أبدا حين تتكلم عن الأسرة الامبراطورية :

— لقد أعلن الامبراطور الاسكندر أنه سترك للفرنسيين حرية اختيار شكل حكمهم بأنفسهم • وأظن أنه مما لا شك فيه أن الأمة كلها متى تخلصت من المغتصب ، سوف ترمي في أحضان ملكها الشرعي ...

بذلك ختمت أنا بافلوفنا كلامها ملاطفة لهذا المهاجر من أنصار الملكية .

فقال الامير آندره :

— هذا أمر مشكوك فيه . لقد صدق السيد الفيكونت حين قال ان الامور قد أوغلت في المضي بعيدا ، فصارت العودة الى الورااء صعبة فيما أظن .

وتدخل بطرس مرة أخرى فقال وقد أحمر وجهه :

— اذا صدق ما سمعته فان جميع النبلاء تقريبا قد انضموا الى بونابرت وتحالفوا معه .

فردّ الفيكونت على بطرس دون أن ينظر اليه ، قائلاً :

— انصار بونابرت هم الذين يزعمون هذا الزعم . ومن الصعب أن نعرف حقيقة الرأي العام في فرنسا الآن .

فعمّق الامير آندره على هذا الكلام وهو يتسم (وكان واضحاً أن الامير آندره لا يجب الفيكونت ، وأن ما يقوله انما كان ردا على كلام الفيكونت رغم أنه لا ينظر إليه) :

— لقد قالها بونابرت ...

وصمت لحظة ، ثم عاد يستشهد بكلام بونابرت مرة أخرى :

— « دللتهم على طريق المجد ، فرفضوه ! ثم فتحت لهم حجرات
الانتظار في قصري ، فهرعوا إليّ زرافات ! » ... لا أدري هل حق
ما قاله .

فردّ الفيكونت قائلاً :

— لم يهرع اليه أحد . ومنذ مقتل الدوق ، أصبح أنصاره
المتحمسون أنفسهم لا يرون فيه بطلا .

قال ذلك متجهاً بكلامه الى آنا بافلوفنا . وأضاف :

— منذ مصرع الدوق ازداد عدد الشهداء في السماء واحداً ، ونقص
عدد الابطال في الأرض واحداً .

وما كادت آنا بافلوفنا تؤيد هي والآخرين أقوال الفيكونت
بابتسامة استحسان حتى انبرى بطرس يتكلم مرة أخرى ، فلم تستطع
آنا بافلوفنا هذه المرة أن تمنعه من الكلام ، على احساسها بأنه سيقول
أموراً غير لائقة .

قال بطرس :

— إن إعدام دوق انجيين كان للدولة ضرورة لازمة ، واني لأرى
العظمة كلها في أن نابوليون لم يخش أن يتحمل وحده تبعه هذا
العمل .

فدمدمت آنا بافلوفنا تقول مرتاعة :

— رباه ! رباه !

وقالت الأميرة الصغيرة وهي تبتسم وتشد إليها شغلها :

— كيف يمكن ، يا سيد بطرس ، أن ترى في القتل عظمة ؟
وارتفعت أصوات تقول :

— أوه ! أوه !

وقال الأمير هيوليت باللغة الانجليزية :

— كلام هام !

واكتفى الفيكونت بأن هزء كتفيه •

وألقى بطرس على محدثيه من خلال نظارتيه نظرة فيها أبهة
وجلال • وتابع كمن يلقي بنفسه في الماء :

— إنما أقول هذا الكلام لأن آل بوربون قد فروا أمام الثورة
تاركين الشعب للفوضى • واستطاع نابوليون وحده أن يفهم الثورة ،
وأن ينتصر عليها ، فكان لا يسعه أن يتراجع عن التضحية بحياة فرد في
سبيل الخير العام •

قالت آنا بافلوفنا :

— ألا تريد أن تنتقل الى الطاولة الاخرى ؟

ولكن بطرس تابع كلامه دون أن ينظر إليها فقال وهو يزداد حماساً
واندفاعاً :

— نعم ، ان نابوليون عظيم ، لأنه علا فوق الثورة ، فقمع غلواءها

محتفظاً بكل ما كان فيها من خير : كالمساواة بين المواطنين ، • وحرية الكلام والصحافة ، ومن أجل هذا انما استلم السلطة •

— نعم ، لو أنه حين استلم السلطة قد ردها الى الملك الشرعي دون أن يستغلها للقتل ، لعدته رجلاً عظيماً •

— لو أراد أن يفعل ذلك لما استطاع • ان البلاد لم تترك له السلطة إلا ليخلصها من آل بوربون ، ولأنها كانت ترى فيه رجلاً عظيماً •

وتابع بطرس كلامه قائلاً :

— لقد كانت الثورة شيئاً عظيماً !

وبهذه الجملة الجسور الزاخرة بالتحدي ، كشف بطرس عن روح الشباب التي تتأجج في نفسه ، وعن رغبته في عرض فكره كله بأقصى سرعة •

قالت آنا بافلوفنا :

— الثورة وقتل الملك شيء عظيم ؟

وكررت تسأله :

— ألا تريد أن تنتقل الى الطاولة الاخرى ؟

قال الفيكونت وهو يتسم ابتسامة فيها تسامح :

— « العقد الاجتماعي » ^(١) •

(١) المقصود هو كتاب « العقد الاجتماعي » الشهير الذي كتبه جان جاك روسو سنة ١٧٦٢ وكان له اثر كبير في الثورة الفرنسية .
والاشارة الى آراء بطرس •

— لست أتكلم عن قتل الملك • وانما أنا أبدي أفكارا •

— نعم ، كفكرة النهب والسلب ، وفكرة سفك الدماء ، وفكرة قتل الملك •

بذلك قاطعه صوت ساخر ، مرة أخرى • فقال :

— لا شك أن هذا كله كان غلوأ • والشيء الاساسي ليس هذا بل هو حقوق الانسان والتحرر من الاوهام ، والمساواة بين المواطنين • وهذه الافكار كلها انما دعمها نابوليون أكبر الدعم ، ووهب لها أعظم قوة •

قال الفيكونت باحتقار وقد قرر أخيراً فيما يبدو أن يبين لهذا الفتى الغر حماقة آرائه وسخافة أقواله :

— الحرية ، المساواة ، تلك كلمات كبيرة طالما استغلت • من ذا الذي لا يحب الحرية والمساواة ؟ ان مخلصنا يسوع المسيح قد بشر بالحرية والمساواة • هل ازدادت سعادة الناس بعد الثورة ؟ بالعكس • نحن الذين كنا نريد الحرية • وبونا برت هو الذي هدمها •

وكان الامير آندره يتسم وهو ينظر تارة الى بطرس ، وتارة الى الفيكونت ، وتارة الى ربة المنزل • وقد ارتاعت آنا بافلوفنا في أول الأمر من اندفاعه بطرس رغم كل ما ألقته من حياة المجتمع ، ولكنها حين لاحظت أن الفيكونت لم تثر ثائرتة من أقوال بطرس ، على انتهاكها

حرمة المقدسات ، وحين أيقنت أنه لا سبيل الى خنق المناقشة، استجمعت قواها ، وانحازت الى الفيكونت تهاجم الخطيب ، فقالت :

— ولكن يا عزيزي السيد بطرس ، بماذا تسوغ أن يعمد رجل عظيم الى إعدام الدوق ، أو فنقل الى اعدام انسان من الناس ، بدون أن يصدر في حقه حكم ، وبدون ذنب جنت يده ؟
وقال الفيكونت :

— وأنا أسأل أيضا بماذا يسوغ السيد ما فعله بونابرت في اليوم الثامن عشر من شهر « برومر »^(١) ؟ ألم يكن ذلك خداعا ؟ هذه شعبذة لا يعمد الى مثلها رجل عظيم .

وقالت الاميرة الصغيرة :

— والذين قتلهم أسرى في أفريقيا ؟^(٢) شيء فظيع !

قالت الاميرة الصغيرة ذلك ، وحركت يدها بإشارة تعبر عن الهول والرعب .

وقال الامير هيبوليت :

(١) هو يوم الانقلاب الذي قام به نابليون في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ ، واعلن نفسه قنصلا اول .

(٢) تخطيء الاميرة الصغيرة هنا ، ففي مدينة يافا من فلسطين ، وليس في افريقيا ، انما امر بونابرت بقتل اربعة آلاف اسير من الترك ، وذلك سنة ١٧٩٩

— إنه رجل من السوق مهما تقل فيه !

لم يعرف بطرس على من يرد ومن ذا يجب • فطاف ببصره على الجميع مبتسماً • كانت ابتسامته لا تشبه ابتسامة الآخرين الذين لا تخرجهم ابتسامتهم عما هم فيه من جد ، على حين أن ابتسامة بطرس ما كادت تظهر في وجهه حتى زال عن ذلك الوجه ما يعبر عنه من رصانة تبلغ حدّ التجهم ، وحل محله تعبير عن طفولة بريئة ، طيبة ، ساذجة كأنها تطلب العفو والصفح •

واتضح للفيكونت الذي كان يراه الليلة أول مرة ، أن هذا اليعقوبي ليس رهيباً كأقواله • وصمت الجميع •

قال الامير آندره :

— كيف تريدون أن يردّ على الجميع في آن واحد ؟ ثم اتني أعتقد أن علينا أن نفرّق في أفعال رجل الدولة بين أفعال الفرد البسيط ، وأفعال قائد الجيش ، وأفعال الامبراطور • ذلك ما يبدو لي •

فعمّق بطرس وقد أسعده هذا الدعم :

— نعم ، نعم ، طبعاً !

وتابع الامير آندره كلامه فقال :

— لا يمكننا أن لا نعترف بهذا • ان نابوليون ، من حيث هو انسان ، كان عظيماً على جسر آركول ، وفي مستشفى يافا حيث مدّ

يده الى المصايين بالطاعون ، ولكن ... ولكن هناك أفعال أخرى يصعب تسويتها •

كان واضحاً أن الامير آندره انما أراد أن يخفف ما اشتملت عليه أقوال بطرس من خراقة ، وها هو ذا ينهض الآن لينصرف ، مومناً لزوجه أن تقوم •

ولكن الأمير هيبوليت وقف على حين فجأة ، وأشار بيده غالباً من الجميع أن يبقوا جالسين ، وأخذ يتكلم •

— رويت لي اليوم حكاية موسكوبية رائعة • فيجب أن أولمها لكم • معذرة يا فيكونت ، فلا بد لي من الكلام بالروسية • والا نم يشعر السامعون بحلاوة الحكاية •

وجعل الامير هيبوليت يتكلم الروسية باللهجة التي يكتسبها الفرنسيون بعد إقامتهم في روسيا مدة سنة • واتجهت جميع الابصار اليه من فرط الحماسة والالاحاح للذين كانت تزخر بها مطالبته بالانتباه الى قصته • قال :

— توجد بموسكو سيدة • سيدة بخيلة جداً • كانت في حاجة الى خادمين يسيرون وراء عربتها على الاقدام ، وتكون قامتها طويلة • ذلك كان ذوقها • وكان لها خادمة قامتها أطول من ذلك أيضا • قالت ...

هنا فكر الامير محاولاً أن يستجمع شتات فكره في مشقة ظاهرة • ثم أردف :

— قالت ... نعم قالت لخادمتها ؛ إلبسي كسوة خادم وتعالني معي وراء العربة لأقوم ببعض الزيارات •

قال الأمير هيوليت ذلك وانفجر ضاحكاً قبل أن يضحك سامعوه ، فكان لضحكه هذا أثر في سامعيه غير مستحب • ومع ذلك ابتسم عدد كبير من هؤلاء السامعين ، وكانت السيدة المسنة وأنا بافلوفنا بين المتبسمين • وأكمل الأمير هيوليت قصته فقال :

— ومضت السيدة • وفجأة هبَّت ريح شديدة • فطارت قبة الفتاة وانحل شعرها •

وهنا أصبح لا يستطيع أن يكظم ضحكه ، فانطلق يقهقه قهقهة مقطعة وهو يقول :

— وعرف جميع الناس ...

بهذا انتهت الحكاية • ورغم أن السامعين لم يعرفوا لماذا روى الأمير هيوليت هذه النكتة ، ولماذا كان لا بد أن يحكيها باللغة الروسية ، فإن أنا بافلوفنا وغيرها قدّمروا في الأمير هيوليت هذه الكياسة الاجتماعية التي أنهت بالدعابة الظريفة تلك الاندفاعات التي نددت عن السيد بطرس ، وكانت مزعجة غير محبة • وبعد هذه النكتة التي رواها الأمير هيوليت تبعر الحديث ، فصار أقوالاً طفيفة تافهة عن حفلات الرقص ، الماضية والمقبلة ، وعن المسرحيات ، وعن فرص اللقاء القادمة •

الفصل الخامس

وبعد أن شكر الضيوف لآنا بافلوفنا سهرتها الجميلة الرائعة ،
أخذوا ينصرفون •

وكان بطرس أخرق لا يحسن التصرف • هو شاب جسيم عريض
أطول قامته من متوسط قامات الرجال ، له يدان ضخمتان حمراوان
يجهل كيف يجب على المرء أن يدخل الى صالون كما يقال ، ويجهل
أكثر من ذلك كيف يخرج المرء من صالون ، أي كيف يقول بضع كلمات
لطيفة لطفاً خاصاً قبل أن ينصرف • فاهيك عن أنه كان شديد الذهول •
فحين قام لم يتناول قبعته ، بل تناول بدلاً منها قلنسوة جنرال مثله
القرون مزدانة بريش ، وأخذ يشد ريشها الى أن رجاء الجنرال أن
يردّ إليه قلنسوته • ولكن كل ما يتصف به من ذهول ، وكل ما
يلاحظ فيه من عجز عن حسن الدخول الى صالون ، كان يكفرّ عنهما
ما يعبر عنه وجهه من طيبة وبساطة وتواضع • وقد التفتت إليه آنا
بافلوفنا ، فقالت له بحلم مسيحي انها تعفو عن اندفاعته ، وحيته بحركة
من رأسها قائلة :

— آمل أن أراك ، ولكنني آمل أيضا أن تغير ما في رأسك من أفكار
يا عزيزي السيد بطرس •

لم يجبها بطرس بشيء ، واكتفى بالانحناء لها ، وابتسم للجميع مرة أخرى ابتسامته تلك التي لا تقول شيئاً ، اللهم الا أن تقول : « الأفكار هي الأفكار ، ولكنكم ترون حق الرؤية أنني فتى طيب شهم » • وقد شعر الجميع بذلك على رغمهم ، وشعرت به أنا بافلوفنا •

مضى الامير آندره الى الدهليز ، وفيما كان يقدم كتفيه الى الخادم الذي يلبسه معطفه ، أصغى بدون اكتراث الى ثرثرة امرأته مع الأمير هيبوليت الذي تبعهما • كان الامير هيبوليت يقف قريباً من الأميرة الجميلة الجبلى وكان يتفرس فيها من خلال نظارته تفرساً ملحاً •

قالت الاميرة الصغيرة وهي تودّع أنا بافلوفنا :

— ادخلي ، يا آني ، فأني أخشى أن يصيبك برد •

ثم أضافت تقول بصوت خافت :

— اتفقنا •

كانت أنا بافلوفنا قد أتيح لها أن تكلم ليزا في أمر الزواج التي ترجو أن يتم بين آنا تول وأخت زوج ليزا • فقالت أنا بافلوفنا بصوت خافت أيضاً :

— انني أعتمد عليك يا صديقتي العزيزة • اكتبي ليها ، ثم حدثيني

عن استقبال الاب للأمر • الى اللقاء •

وتركت آنا بافلوفنا الدهليز عائدة الى الصالون •

اقترب الأمير هيوليت من الاميرة الصغيرة ، وأدنى وجهه من وجهها كثيراً وكلمها هامسا •

وكان خادمان ، أحدهما خادم الاميرة والثاني خادمه هو ، ينتظران نهاية الحديث ، وقد حمل الاول شال الاميرة وحمل الثاني ردنجات الأمير ، وكان يصغيان الى كلامهما باللغة الفرنسية التي لا يفهماها ، ولكنهما يصغيان إصغاء من يفهم ما يقال ولا يريد أن يلاحظ أحد أنه يصغي ويفهم •

وكانت الأميرة تتكلم مبتسمة على عاداتها ، وتصغي متضحكة •
قال الامير هيوليت :

— ما أسعدني بأنتي لم أذهب الى حفلة السفير • إنها تضجر إضجارا لا يطاق ... كانت السهرة هنا لطيفة ، أليس كذلك ؟ ألم تكن لطيفة حقاً ؟

فأجابت الاميرة تقول وهي تقلب شفتها الصغيرة التي يظلها زغب :

— يقال ان حفلة الرقص ستكون جميلة جداً • سوف تحضرها جميع نساء المجتمع الجميلات •

فقال الامير وهو يضحك فرحاً :

— لا جميعهن ، ما دمت لن تحضرها أنت •

قال ذلك وتناول الشال من يدي الخادم ، حتى انه صدمه ، وأخذ يلفح به الاميرة الصغيرة . وحين انتهى من تليق الاميرة بالشال ترك يديه على كتفيها مدة طويلة ، لا تدري أكان ذلك من خراقة منه أم كان شيئاً مقصوداً (لا أحد يستطيع أن يقطع برأي في هذا) ، وانما المهم أنه كان كمن يحتضن المرأة الشابة .

فأسرعت تتحنى بخفة ورشاقة ، ولكنها ظلت مبتسمة ، والتفتت تنظر الى زوجها . فكانت عينا الامير مغمضتين : فالى هذا الحد كان يبدو متعباً ونعساً .

وسأل امرأته وهو يلفحها بنظرة :

— أنت مستعدة ؟

فأسرع الامير هيبوليت يرتدي ردنجوته الذي كان على آخر موضحة ، فهو طويل يبلغ الكعبين ، وهرع يجري على درج الباب متعثر الساقين بطول ردنجوته ، الى أن بلغ الاميرة التي كان الخادم يساعدها في ركوب العربة . وصرخ يقول :

— الى اللقاء يا أميرة !

فكان لسانه متعثراً كتعثر ساقيه .

وكانت الاميرة قد رفعت ذيل فستانها قليلا واستقرت في ظلمة العربة . وكان زوجها يعدل سيفه استعدادا للركوب . ولكن الامير هيبوليت كان يضايق الجميع بحجة أنه يريد خدمتهم . فقال الامير آندره

باللغة الروسية ، وبلهجة جافة شرسة ، قال لهيبوليت الذي كان يقف في طريقه فيحول بينه وبين الركوب :

— اسمح لي ، يا سيد •

ثم سمع صوت الامير آندره نفسه يقول مخاطباً بطرس بلهجة فيها عاطفة رقيقة ومودة :

— اني منتظرك يا بطرس •

وسار الحوذي بالعربة ، فأخذت عجلاتها تقرقع على أرض الشارع • وكان الامير هيبوليت قد وقف على درج الباب يضحك ضحكاً متقطعاً، وينتظر الفيكونت اذ كان قد وعده بأن يوصله الى بيته •

قال الفيكونت بعد أن ركب العربة مع هيبوليت :

— هيه يا عزيزي ، ان أميرتك الصغيرة حلوة جداً • حلوة جداً •
قال ذلك وأرسل قبلة من طرف أصابعه • ثم أردف :
— وهي فرنسية تماماً !

فضحك هيبوليت ضحكاً مخنوقاً • وتابع الفيكونت كلامه فقال :

— هل تعلم أنك رهيب بهيئتك البريئة هذه ؟ انتي أرثي لحال الزوج المسكين ، هذا الضابط الصغير الذي يصطنع هيئة أمير حاكم •

فضحك هيبوليت ضحكا مخنوقا مرة أخرى ، وقال من خلال ضحكته :

— وكنت تزعم أن السيدات الروسيات لا يضارعن السيدات الفرنسيات • يجب على المرء أن يعرف كيف يتصرف •

وصل بطرس الى منزل الامير آندره قبل وصول الامير ، وكان يرتاد هذا المنزل كثيرا حتى لكأنه من أهله ، فمضى الى مكتب الامير آندره ، ولم يلبث أن استلقى على الديوان كما اعتاد أن يفعل ، وتناول من على الرف أول كتاب وقعت عليه يده فكان الكتاب هو « التعليقات »^(١) ، واتكأ على كوعه وأخذ يقرأ ما يقع عليه بصره • ودخل الامير آندره وهو يفرك يديه الصغيرتين البضاوين ، وقال له :

— ما هذا الذي فعلته عند الآنسة شيرر ؟ لسوف تمرض من ذلك فعلا !

فالتفت إليه بطرس بجسمه كله ، حتى ان الديوان قد أنّ تحته من غف التفاتته ، فرأى الامير آندره وجهه المنتعش ، وابتسم بطرس ، وحرك يده بإشارة تعني عدم الاكتراث •

وقال :

— كان ذلك الاب موريو شائقا جدا في الواقع ••• ولكن تفكيره

(١) « التعليقات » ، كتاب يوليوس قيصر عن حرب بلاد الفول •

لم يكن صحيحاً ••• ففي رأيي أن السلام الدائم ممكن ، ولكن •••
لا أدري ! ••• على كل حال لن يتحقق هذا السلام الدائم بالتوازن
السياسي •••

وكان واضحاً أن هذه المناقشات المجردة لا تهم الامير آندره .
فقال لصاحبه :

— يا عزيزي ، لا يستطيع المرء أن يعلن في كل مكان كل ما يعتقد
به . قل لي : هل اتخذت قراراً ؟ هل اخترت بين أن تكون فارساً في
الحرس وبين أن تكون دبلوماسياً ؟

فجلس بطرس على الديوان جاعلاً ساقيه تحته . وقال :

— تصوّر أنني ما زلت لا أعرف ما عساني أقرر . والحق أنني
لا يعرفني أن أكون لا هذا ولا ذاك .

— ولكن لا بد من اتخاذ قرار . ان أبالك ينتظر .

كان بطرس قد أرسل الى الخارج في العاشرة من عمره مع قس كان
مربيّة . وقد أقام في الخارج حتى بلغ العشرين ، فلما عاد الى موسكو
سرف ابوه القس ، وقال للفتى : « اذهب الآن الى بطرسبرج ، فانظر
واختر . وأنا موافق على أي شيء . إليك هذه الرسالة للأمير فاسيلي ،
واليك ما تحتاج اليه من مال . واكتب إليّ لتطلعني على ما يحدث ،
وسوف اساعدك في كل شيء . » . وهذا هو بطرس يقضي في

بطرسبرج ثلاثة أشهر يحاول أن يختار طريقاً ، ثم هو لا يفعل شيئاً •
وعن هذا الاختيار انما كان يكلمه الامير آندره الآن •

حكّ بطرس جبينه ، ثم قال وهو يفكر في الاب موريو الذي لقيه
في السهرة :

— ولكن لا بد أنه من الماسونيين الأحرار •

فقاطعه الامير آندره مرة أخرى قائلاً له :

— هذا كله ترهات • ألا تحدثنا في أمور جدية ! هل ذهبت ترى
الحرس الفرسان ... ؟

— لا ، لم أذهب • ولكن إليك ما يساور فكري • كنت أريد
أن احدثك في هذا الامر • نحن الآن في حرب مع نابوليون • فلو كانت
هذه الحرب حرباً في سبيل الحرية لفهمت ولكنك أول من يتطوع
للقاتل • أما أن تنصر انجلترا والنمسا على أعظم رجل في العالم ...
فليس في هذا خير ...

لم يزد الامير آندره على أن هزّ كتفيه حين سمع أقوال بطرس
هذه التي كانت في نظره أقوال طفل • فعل ذلك كما لو كانت الاجابة
على هذه الحماقات مستحيلة • ولكن الواقع أنه لو أراد أن يجيب
عن ذلك السؤال الساذج إجابة أخرى لعجز عن ذلك • وها هو ذا
يقول :

— لو كان جميع الناس لا يحاربون إلا على حسب اقتناعاتهم ،
لا تفتت الحروب •

فأجاب بطرس قائلاً :

— وانتفاء الحروب خير شيء •

فابتسم الأمير آندره ، وقال :

— قد يكون ما تقوله صحيحاً ، ولكنه لن يتحقق أبداً ...

سأله بطرس :

— قل لي ، لماذا تحارب ؟

— لماذا ؟ لا أعرف • ولكن يجب أن أحارب • وعدا ذلك ،

فأنتي ...

وأمسك الأمير آندره عن اتمام جملته ، ولكنه لم يلبث أن أردف

قائلاً :

— انني اذهب الى الحرب لأن الحياة التي أحيانا هنا لا

تناسبني !

الفصل السادس

سمع حفيف فستان امرأة في الغرفة المجاورة • فانتفض الامير
آندره انتفاضة من ثاب الى وعيه ، وعاد وجهه يكتسي التعبير الذي
كان يعيشه في صالون آنا بافلوفنا • وأنزل بطرس رجله الى الارض •
ودخلت الاميرة •

كانت قد غيرت زينتها ، فلبست فستاناً للمنزل ، ولكنه كان لا يقل
عن الأول أناقة ولا نضارة وزهاء • ونهض الامير آندره يقدم إليها
مقعداً •

قالت متكلمة بالفرنسية على عادتها دائماً ، وهي تجلس على المقعد
مسرعة مضطربة :

— إني أتساءل في أكثر الاحيان لماذا لم تتزوج آيت ؟ ما أغباكُم ،
أيها السادة ، لأنكم لم تزوجوها ! معذرة ، ولكنكم لا تفهمون من
أمر النساء شيئاً ! يا لك من مشاجر مشاكس يا سيد بطرس !

— حتى مع زوجك أتناقش طول الوقت • انتي لا أفهم لماذا يريد أن
يذهب الى الحرب •

كذلك قال بطرس متجهاً بكلامه الى الاميرة دون أن يشعر بشيء من

ذلك الارتباك الذي يشيع كثيراً في الصلات بين فتى وامرأة شابة .

فاتتعثت الاميرة ، وكان واضحاً أن أقوال بطرس قد أصابت من نفسها نقطة حساسة . وقالت :

— هذا بعينه ما أقوله أنا . إنني لا أفهم ، لا أفهم إطلاقاً ، لماذا لا يستطيع الرجال أن يستغنوا عن الحرب ! لماذا لا نريد نحن النساء شيئاً ، ولا نحتاج الى شيء ؟ كن حكماً بيننا . انني لا أفتأ أقول له انه هنا مرافق عمه ، وهذا مركز من ألمع المراكز المرموقة ، وهو هنا يعرفه جميع الناس ، ويقدرونه قدراً كبيراً . لقد كنا منذ مدة عند آل أبراكسين^(١) ، فسمعت سيدة تسأل : « أهذا هو الامير الشهير آندره ؟ » . يميناً لقد سمعت هذا السؤال . وهو يستقبل في كل مكان . ومن السهل جداً أن يعيّن مرافقاً للامبراطور . انك تعلم أن الامبراطور قد كلمه بكثير من اللطف . وقد تحدثنا في هذا الامر أنا وآنيت ، فرأينا أن تدير تعيينه مرافقاً للامبراطور سهل جداً . ما رأيك ؟

نظر بطرس الى الامير آندره ، فلما رأى أن الحديث يضايق صديقه لم يجب بشيء . وسأل صديقه :

. — متى تسافر ؟

(١) آل براكسين أسرة روسية كبيرة من افرادها الجنرال اميرال فيدور الذي خلع بطرس الاكبر عليه لقب كونت سنة ١٧١٠

فانبرت الاميرة تقول بتلك اللهجة التي كانت تصطنع لها المرح في الصالون حين كانت تكلم الامير هيبوليت ، والتي كان واضحاً أنها لا تناسب حلقة عائلية يعد بطرس واحداً من أعضائها :

— آه ... لا تذكر لي أمر هذا السفر ! لا تذكره لي ! لا أريد أن أسمع عنه شيئاً ! ما كان أشد حزني حين تصورت اليوم أنني سأقطع جميع تلك العلاقات العزيزة على نفسي ...

ثم التفتت الى زوجها فقالت له وهي تغمز بعينيها غمزة ذات دلالة :

— وهل تعرف عدا ذلك يا آندره ... أنني خائفة ... نعم ، أنا خائفة ...

دمدمت بذلك دممة وهي ترتجف .

فنظر إليها زوجها كالمندهش من اكتشافه ان الصالون لا يضمه وحده ، بل يضم كذلك امرأته وبطرس . ومع ذلك سأل امرأته بكياسة فاترة :

— ممّ خوفك يا ليز ؟ أنني لا أتوصل الى ادراك سبب هذا الخوف .

— هذه أناية الرجال كافة . إنهم جميعاً أنانيون ، جميعاً ! لنزوة لا يعلمها الا الله ، يتركني ويحبسني في الريف وحيدة ! قال الامير آندره بصوت خافت :

— بل تكونين مع أمي وأختي • لا تنسي هذا !

— هذا لا ينفي أنني سأكون وحيدة ••• بغير اصدقاء « لي » •••

ويريد مني بعد ذلك أن لا اخاف •

كانت لهجتها في هذه المرة تنم عن استياء ، وارتفعت شفتها العليا ، فلم يكتس وجهها تعبيراً عن فرح كالمعهود فيه ، وانما اكتسب هيئة حيوان من الحيوانات القاضمة • وصمتت كأنها رأت أنه ليس من اللائق أن تجيء على ذكر حبلها بحضور بطرس ، مع أن المسألة كلها هي هذا الجبل •

قال الامير آندره ببطء دون أن يحول بصره عن امرأته :

— لم أفهم مع ذلك مم أنت خائفة !

فاحمرت الاميرة وحركت يديها بحدة وعنف • وقالت :

— لا ، يا آندره ، أنا اقول انك تغيرت كثيراً ، كثيراً جداً •••

قال الامير :

طبييك يأمرك بأن ترقدي في ساعة مبكرة • فهلمي الى السرير !•••

فلم تقل الاميرة شيئاً ، لكن شفتها القصيرة المظلمة بالزغب قد أخذت تختلج على حين فجأة • فنهض الامير آندره وهو يهز منكبيه ، ومشى في الغرفة بضع خطوات •

اضطرب بطرس الذي كان من خلال نظارتيه ينظر تارة الى الامير

وتارة الى الاميرة وقد ظهرت على وجهه الدهشة والسذاجة ، وهمّ
أن يقوم هو أيضا ، ولكنه غير رأيه •

وقالت الاميرة الصغيرة فجأة :

— لا يهمني أن يكون السيد بطرس معنا ...

وأردفت تقول وقد تقبض وجهها الجميل باكية :

— أريد منذ مدة طويلة أن أسألك يا آندره ، لماذا تغيرت هذا
التغير كله تجاهي ؟ ما ذا صنعت بك ؟ هل أسأت اليك ؟ تتركني ذاهباً
الى الجيش دون ان تأخذك بي شفقة • لماذا ؟

— ليز !

اقتصر الامير آندره على مناداتها باسمها • ولكن اللهجة التي نطق
بها هذا الاسم كانت تشتمل على رجاء وتهديد في آن واحد ، وكانت
تعني خاصة أنها ستندم هي نفسها على الاقوال التي تفلت منها
الآن •

ومع ذلك أردفت الاميرة الصغيرة تقول بسرعة :

— انك تعاملني كما تعامل مريضة أو كما تعامل طفلة • أنا أرى
كل شيء • فهل كنت هكذا قبل ستة أشهر ؟

فقال الامير آندره بلهجة فيها مزيد من الصرامة والحزم :

— ليز ! أرجوك أن تكفّي •

وكان بطرس في أثناء تلك المناقشة يزداد اضطراباً وتزداد أعصابه توتراً ، فنهض واقترب من الاميرة • كان يبدو عليه أنه لا يستطيع أن يحتمل منظر الدموع ، وأنه يوشك ان يبكي هو نفسه • قال :

— هدي روعك يا أميرة • هذه فكرة ساورتك ، لانك •••أؤكد لك ••• لقد شعرت أنا نفسي ••• لماذا ••• ذلك أن ••• معذرة ••• ان وجود شخص ثالث شيء زائد ••• هدي نفسك ••• استودعكما الله •••

ولكن الامير آندره أمسك ذراعه وقال :

— بل انتظر يا بطرس • فان الاميرة أطيّب من أن تحرمني لذة قضاء السهرة معك •

فدمدمت الاميرة تقول من خلال دموع الغضب التي لم تستطع أن تحبسها :

— لا فائدة ! انه لا يفكر الا في نفسه !

فقال الامير آندره بخشونة ، رافعا صوته الى الحد الذي يعني أنه قد نفذ صبره :

— ليزا

فاضطربت الاميرة اضطراباً شديداً ، واذا بهيئتها التي كانت أشبه بهيئة سنجاب غاضب قد أصبحت تعبر عن فزع وهلع يجتذبان المحبة ويوقطان الشعور بالشفقة • ونظرت الى زوجها من تحت عينيها

الجميلتين ، واكتسب وجهها ذلك التعبير عن الخجل والشعور بالذنب ،
الذي نراه في كلب خفض ذيله وجعل يهزه بحركات سريعة قصيرة •
وقالت وهي تلم يديها ثنيات ثوبها ، وتدنو من زوجها فتقبل جبينه :
— رباه ! رباه !

فقال لها الامير وهو ينهض ويلثم يدها بأدب كأنه يلثم يد سيدة
غريبة عنه :
— نعمت مساء ، ليز !

صمت الصديقان • فلا هذا يقول شيئاً ، ولا ذاك ينطق بكلمة
وكان بطرس يلقي نظرات على الامير آندره ، وكان الامير آندره يحك
بيده الصغيرة جبينه • ثم قال أخيراً وهو ينهض ويتجه نحو الباب :
— هلم بنا الى العشاء •

ودخلا غرفة الطعام الانيقة التي أعدت اعدادا فيه كثير من البذخ
وجددت تجديدا تاما • ان كل شيء في غرفة الطعام هذه ، من الأطباق
الى الفضيّات ، ومن الاواني الى الكريستاليات ، تحمل ذلك الطابع
الخاص من الجودة ، الذي يراه المرء في بيوت العرائس • وفيما الصديقان
يصيبان عشاءهما وضع الامير آندره كوعيه على المائدة ، وأخذ يتكلم
كما يتكلم امرؤ طال سكوته عن شيء يعتل في قلبه ، فقرر فجأة
أن يتخفف منه ويفصح عنه ، فقال بعصبية لم يسبق لبطرس أن رأى
فيه مثلها من قبل قط :

— لا تتزوج أبداً يا صديقي ، أبدا . هذه نصيحتي اليك .
لا تتزوج قبل أن تقول لنفسك انك فعلت كل ما استطعت ، وقبل أن تكون قد كفت عن حب المرأة التي اخترتها ، وأصبحت تراها رؤية واضحة . والا وقعت في خدعة لا خلاص منها ولا دواء لها . تزوج متى صرت شيخاً ، تزوج حين تصبح غير صالح لشيء من الأشياء . وإلا فان كل ما تضمه نفسك من خير وسمو سوف يتبدد ويضيع . سوف يتبعثر كل شيء في ترهات وسفاسف . نعم ! نعم ! لا تنتظر إليّ مدهوشا هذا الدهش . اذا كنت تتوقع من نفسك شيئا في المستقبل ، فسوف تحس في كل لحظة أن كل شيء بالنسبة اليك قد انتهى ، وأن كل باب من دونك قد أغلق ، الا الصالون الذي لن تكون فيه أكثر من مداهن مستعبد ، أو غبي أبله ... طبعاً !

قال ذلك ورفع يده بحركة قوية عنيفة .

نزع بطرس نظارتيه ، فأضفى ذلك على وجهه مظهرا جديدا أبرز طبيته بمزيد من الوضوح ، ونظر الى صديقه مشدوها .

وتابع الامير آندره كلامه فقال :

— ان امرأتي امرأة ممتازة . انها واحدة من النساء النادرات اللواتي يستطيع المرء أن يطمئن الى سعادته مع احداهن . ولكن ... ليتني لم أتزوج ! إنك الانسان الاول ، الوحيد ، الذي أبوح له بهذا ، لأنني أحبك كثيرا .

كان الأمير آندره ، وهو يسوق هذه الاقوال ، يقل شبهه ، شيئاً بعد شيء ، بالامير بولكونسكي الذي كان مسترخياً على أريكة في صالون آنا بافلوفنا ، يساقط من طرف فمه جملاً فرنسية وهو يعضّ عينيّه • ان ارتعاشات عصبية تهز الآن كل عضلة من عضلات وجهه الجاف ، وان عينيّه اللتين كانت شعلة الحياة بالمنطقة فيهما منذ حين ، تلمعان الآن ببريق متقد ساطع • واضح أنه على قدر خمود عاطفته في الاحوال العادية ، يكون غليان نفسه في لحظات الاهتياج العصبي •

وتابع الامير آندره كلامه فقال :

— انك لا تدرك لماذا أقول هذا الكلام • فأعلم ان هذه مأساة حياتي •

ثم أضاف يقول ، رغم أن بطرس لم يجيء على ذكر بونابرت :

— تتحدث عن بونابرت ورسالته • تتحدث عن بونابرت • ولكن حين كان بونابرت يعمل ، وكان يمضي الى غايته خطوة بعد خطوة ، كان حراً طليقاً ، ولم يكن يشغل باله شيء غير غايته ، فوصل اليها • ولكن يكفي أن يرتبط الانسان بامرأة حتى يفقد كل حرية ، ويصبح شأنه كشأن رجل مكبل بالاغلال من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة • ثم اذا كل ما كانت تزخر به نفسه من آمال وقوى يصبح شيئاً يجثم على صدره ، ويملاً ضميره عذاباً • الصالونات ، والاقاويل ، وحفلات الرقص ، وحب الظهور ، وأنواع الاسفاف ، تلك هي الدور الفاسد

الذي لا أستطيع منه خروجاً • اتى مسافر الى الحرب ، الى أكبر حرب عرفت حتى الآن ، وأنا لا أعرف شيئاً ولا أصلح لشيء • أنا مجبّب الى النفوس جداً ، ولاذع اللسان جداً • ولذلك يطيب للناس أن ينصتوا الى كلامي عند آنا بافلوفنا ! آه من هذا المجتمع الذي لا تستطيع امرأتي أن تستغني عنه ••• آه من هاته النساء اللواتي ••• ليتك تعرف على الاقل قيمة جميع هؤلاء النسوة الممتازات ، وقيمة النساء عامة ! ان أبي على حق • ليست النساء الا أنانية ، وحماقة ، وحب ظهور ، وتفاهة في كل شيء ، اذا هنّ ظهرن على حقيقتهن • حين يراهنّ المرء في المجتمع يحسب أن فيهن شيئاً ، ولكن الحقيقة غير ذلك • ليس فيهن شيء البتة ، البتة ، البتة ! لا ، لا تتزوج يا عزيزي ، لا تتزوج •

بذلك ختم الامير آندره كلامه •

قال بطرس :

— من المضحك أن أراك « أنت » ، « أنت » ، تحكم على نفسك بأنك عاجز ، وتحسب حياتك حياة فاشلة • ان أمامك كل شيء ، كل شيء • وأنت •••

ولم يكمل بطرس التعبير عن فكرته ، ولكن لهجته وحدها كانت تدل على مدى ما يحمله لصديقه من تقدير واعتبار ، وتدلل على أنه يتوقع منه في المستقبل أشياء كثيرة •

قال بطرس مسأئلاً نفسه : « كيف يمكنه أن يقول هذا الكلام ؟ » .
 كان الامير آندره في نظره نموذجاً لجميع أنواع الكمال ، لان جميع
 المزايا التي كان يفتقر اليها بطرس قد تجمعت في الامير آندره على
 أعلى مستوى ، ولأن خير ما يوصف به هو أنه قوي الارادة . كان
 بطرس يعجب دائماً بما وهب للأمر آندره من قدرة على الاحتفاظ بهدوئه
 في علاقاته بشتى أنواع الناس ، وبما أوتى من ذاكرة خارقة ، وما حصل
 من ثقافة عامة (كان الامير آندره يقرأ كل شيء ، ويعرف كل شيء ،
 وكان له المام بكل أمر من الامور) ، وكان بطرس يعجب خاصة وفوق
 كل شيء بقدرته على العمل الدائب والدرس المتصل . واذا كان
 بطرس قد دهش من أن الامير آندره لا يميل الى الاسترسال في الاحلام
 الفلسفية (وذلك ميل كان قويا عند بطرس) ، فانه لم ير في هذا
 نقصاً بل رآه قوة .

ان الثناء والمديح أمران لا غنى عنهما في العلاقات بين الناس ، مهما
 تكن هذه العلاقات قوية ومهما تكن قائمة على الصداقة ، ومهما تكن
 بسيطة . انهما لا غنى عنهما ، كما لا غنى عن التشجيع لحسن سير
 العجلات .

قال الامير آندره :

— أنا انتهيت . فما فائدة الكلام عني .

ثم أضاف يقول بعد صمت وهو يتسم لخواطر أبعث على شد
 الأزر وتقوية العزيمة :

— الاولى أن تتكلم عنك أنت •

فسرعان ما انعكست هذه الابتسامة نفسها على وجه بطرس •

قال بطرس وهو يفرج فمه عن ابتسامة فرحة غير مبالية :

— علام تتكلم عني أنا ؟ ما أنا ؟ أنا ابن زنا !

قال ذلك واحمر وجهه احمراراً شديداً على حين فجأة • وكان

واضحاً أن هذه الكلمة قد كلفته جهداً كبيراً • وأردف يقول :

— أنا ليس لي اسم ••• وليس لي ثروة ••• في الحقيقة •

ولم يفصح عمّا يعنيه بقوله : « في الحقيقة » • وتابع كلامه

فقال :

— اني الآن حر ومسرور • ولكنني لا أفلح في اتخاذ قرار بصدد

الدرب الذي يجب عليّ أن اختاره ، والعمل الذي ينبغي لي أن أشرع

فيه • وكنت أريد ان استشيرك جادا فعسى ان تنصحي •

كان الامير آندره ينظر اليه بعينين طيبتين • ولكن شعوره بتفوقه

كان مع ذلك يبين في نظراته المفعمة صداقة ومحبة • قال :

— انني حريص عليك ، لا سيما وأنت الكائن الحي الوحيد في

مجتمعنا هذا كله • اختر ما يطلو لك • يستوي أن تختار من الدروب

هذا أو ذاك • سوف تصلح لكل شيء تختاره • هناك أمر واحد أجب

أن أنهاك عنه : انقطع عن معاشرة آل كوراجين ، وعن استرسالك في

هذا الطراز من الحياة ... ذلك كله لا يناسبك ولا يليق بك ؛ هل خلقت أنت لهذه الانواع من الفجور ، وهذه الاوضاع التي يصطنعها الفرسان ، وسائر تلك ال ...

فقال بطرس وهو يرفع منكبيه :

— ماذا تريد يا عزيزي ؟ هي النساء يا عزيزي ، النساء !

فأجاب الامير آندره قائلاً :

— لست أفهم . كان يمكن أن أغضّ البصر ، لو كنّ نساء محترمات . أما نساء كوراجين ، النساء والخمرة ، فذلك لا أفهمه !

كان بطرس يسكن عند الامير فاسيلي كوراجين^(١) ، ويشارك في حياة الفسق والانحلال التي يعيشها ابنه آناطول ، أي ذلك الشاب نفسه الذي يراد تزويجه من أخت الامير آندره إصلاحاً لشأنه .

قال بطرس وكأن فكرة مؤففة قد واثته فجأة :

— هل تعلم ؟ انني اقول لنفسي هذا الكلام جادا منذ مدة طويلة . وما دمت أعيش هذا الطراز من الحياة ، فلن أستطيع أن أقرر شيئاً ولا أن أفكر في شيء . الصداق لا يفارقني ، وجيبي خاو . لقد دعاني اليوم فلن ألبى الدعوة . لن أذهب .

(١) الامير فاسيلي كوراجين : شخصيته من صنع خيال المؤلف جعل لها اسماً على غرار اسم اسرة الامراء كوراكين .

— عاهدني عهد الشرف أنك لن تذهب إليه بعد الآن •

— أعاهدك •

لم يترك بطرس صديقه الا بعد تمام الساعة الواحدة • كانت الليلة ليلة بيضاء من ليالي حزيران ، ليلة من ليالي بطرسبرج • ركب بطرس عربة وهو ينتوي أن يرجع الى بيته • ولكنه كان كلما اقترب من البيت مزيداً من الاقتراب أحس مزيداً من الاحساس بأنه يستحيل عليه أن ينام في هذا الليل الذي هو أشبه بالغسق أو بالسكر • كان بصره يصل الى بعيد في الشوارع المقفرة • وتذكر في الطريق أن عصابة المقامرین المألوفة مجتمعة هذا المساء عند آنا تول كوراجين ، وأن أفرادها يعكفون بعد اللعب على الشراب والسكر ، ثم يختمون ليلتهم بتسليية من تلك التسليلات التي يحبها •

قال يحدث نفسه : « انها لمتعة أن أذهب الى كوراجين » • ولكنه سرعان ما تذكر عهد الشرف الذي قطعه على نفسه للامير آندره بأن لا يعاشر كوراجين بعد اليوم •

غير أنه في الوقت نفسه — كما يحدث هذا كثيرا للأشخاص الذين يوصفون بضعف الارادة — قد بلغ من فرط اشتهاه التمتع مرة أخرى بهذه الحياة الفاجرة التي يعرفها حق معرفتها ، أنه لم يلبث أن قرر الالتحاق بالعصابة • وخطر بباله فوراً أن العهد الذي قطعه على نفسه للامير آندره لا قيمة له ، لأنه قبل أن يعد الامير آندره ، كان وعد

آفاتول بان يجيء اليه • وقال لنفسه أخيرا إن جميع هذه العهود التي يقطعها المرء على نفسه هي أمور اصطلاحية خالية من أي معنى محدد ، لا سيما اذا تصوّر المرء أنه قد يموت غدا ، أو قد يقع له حادث خارق لا مجال معه للحديث عن الوفاء بعهد الشرف أو الاخلال به • إن هذا النوع من الاستدلالات الفكرية والبراهين العقلية التي تهدّم قرارات بطرس وتعديل به عن مشاريعه ، كان يتكرر في ذهن بطرس كثيرا • وذهب الى كوراجين •

فلما صار أمام المنزل الكبير الذي يسكنه آفاتول بقرب ثكنات الحرس الفرسان ، صعد درج المدخل المضاء ، ثم ارتقى السلم واجتاز الباب المفتوح • لم يكن في الدهليز أحد • وانما كانت ملقاةً على أرضه قناني فارغة ومعاطف وواقيات أحذية • وكانت تفوح رائحة الخمر • وكانت تسمع جلبه أصوات وصرخات من بعيد •

لقد فرغ المدعوون من القمار والعشاء ، ولكنهم لم ينصرفوا بعد • خلع بطرس معطفه ، ودخل الحجرة الاولى ، فرأى فيها بقايا العشاء ، ورأى خادما يفرغ ثملات الاقداح في جوفه خلصة وهو لا يعرف أن أحدا يلاحظه ؛ وكانت تصل من الحجرة الثالثة ضوضاء وضحكات ، وصرخات أصوات يعرفها بطرس ، وقبعات دب • كان سبعة أو ثمانية من الشبان قد ازدحموا حول نافذة مفتوحة وقد لاحت في وجوههم شدة الاهتمام ، وكان ثلاثة آخرون يلهون بدب صغير يجره أحدهم بسلسلة ويتظاهر بالقائه على آخر •

قال واحد من المزدحمين حول النافذة :

— أراهن على ستقفس بمائة روبل •

وصرخ آخر يقول :

— حذار أن تسنده !

وصاح ثالث قائلاً :

— أما أنا فأراهن على دولوخوف^(١) • كن أنت الحكم يا كوراجين •

— اتركوا الدب ميشكا • ههنا رهان •

وهتف رابع يقول :

— دفعة واحدة ، والا خسرت •

وصرخ المضيف نفسه من وسط الجمع يقول :

— ياكوف ، هات قينة ، يا ياكوف !

إنه فتى طويل القامة جميل الوجه ، كان واقفاً في وسط الغرفة ، لا يستر صدره الا قميص رقيق محلول الازرار • قال وهو يتجه الى بطرس :

— انتظروا يا سادة • هذا بتروشكا ، الصديق العزيز •

فصاح صوت آخر هو صوت رجل ليس فارع القامة ، له عينان زرقاوان صافيتان ، يلفت الانتباه خاصة بلهجته الصاحية بين تلك

(١) شخصية نموذجية ولكنها خيالية جعل لها المؤلف اسما مشابها لاسم الجنرال ايفان دوروخوف •

الاصوات المخمورة جميعها ، صاح يقول من النافذة : « تعال هنا ،
وكن حكما على الرهان ! » انه دولوخوف ، الضابط في فوج
سيمينوفسكي^(١) ، وهو مقامر شهير ومسايف ذائع الصيت . كان يسكن
عند آنا تول . نظر بطرس فيما حوله فرحا وهو يتسهم . وقال يسأل :

— لم أفهم شيئا . ما الامر ؟

فقال آنا تول وهو يتناول كأسا من المائدة ويتقدم الى بطرس :

— انتظروا . ما هو بسكران .

ثم قال مخاطبا بطرس :

— اشرب أولا .

فأخذ بطرس يفرغ كأسا بعد كأس وهو ينظر الى الضيوف السكارى
الذين أخذوا يتزاحمون حول النافذة من جديد ، ويصيخ بسمعه الى
أقوالهم وأحاديثهم . وكان آنا تول يسكب له الخمر ويشرح له أن
دولوخوف قد راهن الانجليزي ستفنس ، وهو ضابط بحار كان حاضرا ،
على أن يشرب قنينة من خمرة الروم وهو جالس على حافة النافذة
متدل بساقيه الى خارج .

وقال آنا تول وهو يناول بطرس آخر كأس :

— هيا اشرب القنينة كلها ، لن أتركك ما لم تشربها كلها .

(١) هو الفوج الثاني من مدفعية الحرس ، انشأه بطرس الاكبر سنة
١٦٨٧ في قرية سيمينوفسكويه بقرب موسكو .

فقال بطرس وهو يدفعه عنه وبقترب من النافذة :

— لا ، لا أريد أن أشرب أكثر مما شربت •

كان دولوخوف ممسكا يد الانجليزي بيده ، وكان يحدد شروط الرهان بوضوح ودقة ، متجها بكلامه الى آنا تول وبطرس خاصة

إن دولوخوف فتى ربع القامة ، أعقف الشعر ، فاتح زرقة العينين ، لعله في الخامسة والعشرين من عمره • وعلى ما جرت به عادة الضباط في سلاح المشاة ، لم يكن له شاربان ، وكان فمه — وهو أبرز ملامح وجهه — منفرجا انفراجا تاما • ان حواش هذا الفم ترسم منحنيا رائع الدقة ، والشفة العليا تهبط في الوسط على الشفة السفلى الثابتة هبوطا قويا بزاوية حادة ؛ وعند الطرفين لا ينفك يرتسم شيء يشبه أن يكون ضحكتين ، واحدة في هذا الطرف وأخرى في ذاك • وجملة الوجه ، ولا سيما اذا أضفتها الى النظرة الثابتة الجريئة الوقحة الذكية ، تحدث في النفس أثرا يبلغ من القوة أن المرء لا يمكن الا أن يلاحظ هذا الوجه • ولم يكن دولوخوف غنيا ، ولا كانت له علاقات بعلية القوم • ورغم أن آنا تول كان ينفق عشرات الالوف من الروبلات ، فقد شاطره دولوخوف مسكنه ، وعرف كيف يفرض نفسه فرضا قويا ، حتى كان آنا تول نفسه وسائر الذين عرفوه ، يحترمونه أكثر مما يحترمون آنا تول ذاته • كان دولوخوف يتقن المقامرة في جميع أنواع اللعب بالورق ، وكان يربح في جميع الاوقات تقريبا • وكان لا يفقد صحوه مهما يشرب • وكان

كوراجين و دولوخوف في ذلك الزمان من المشاهير في عالم الرؤوس
الملتبهة والشباب القاصف بيطرسبرج •

جيء بقينة الروم • وكان خادمان قد انكبا على الاطار الذي يعرقل
الجلوس على الحافة الخارجية من النافذة ، وأخذوا يخلعانه مسرعين في
عملهما مروءعين من النصائح والصرخات التي تنهال عليهما ممن يحدقون
بهما •

وأقبل آناطول بهيئة الفاتح الغازي ، وقد اشتعلت نفسه رغبة في
تحطيم شيء ما ، فأقصى الخادمين عن النافذة ، وشد الاطار محاولا أن
يخلعه ، فلما لم يعن له الاطار ، حطم لوحا من الزجاج ، وهتف يقول
لبطرس :

— هلم يا هرقل • حاول أنت !

فأمسك بطرس قوائم النافذة ، وشدها شدا قويا ، فاذا بالاطار
ينخلع مقرقا •

قال دولوخوف :

— اسجبه كله ، والاظن أنني أتمسك به أو أستند اليه •

قال آناطول :

— الانجليزي يفاخر ويباهي ، هه ؟ أنت راضٍ ؟

— راضٍ •

بهذا أجاب بطرس وهو ينظر الى دولوخوف الذي كان ممسكا

بيده قنينة الروم ، مقبلا على النافذة التي يثرى منها ضياء السماء ، الذي اختلط فيه الغسق والفجر •

ووثب دولوخوف الى النافذة ممسكا بالقنينة ، وصاح يقول واقفا على حافة النافذة متجها الى داخل الغرفة :

— اسمعوا !

فصمت الجميع • فقال يخاطب الانجليزي بالفرنسية ليفهم الانجليزي قوله (وكان هو لا يجيد الفرنسية اعادة كبيرة) :

— انني أراهن بخمسين دينارا ذهباً^(١) • فهل تحب أن يكون الرهان بمائة ؟

فأجابه الانجليزي :

— بل بخمسين •

— طيب • أراهن بخمسين دينارا ذهباً على أن أشرب قنينة الروم كلها دفعة واحدة وأنا جالس على حافة النافذة في هذا الموضع (وانحنى مشيراً الى الحافة المنحدرة نحو الخارج) ، ودون أن أتمسك بأي شيء • • • مفهوم ؟

فقال الانجليزي :

(١) الدينار الذهبي الذي كان متداولاً في ذلك الزمان تساوي قيمته عشرة روبلات ، فالرهان اذن بخمسمائة روبل .

— حسن جدا •

التفت آنا تول الى الانجليزي ، فأمسك زر رداؤه ونظر اليه من أعلى الى أسفل (كان الانجليزي قصير القامة) وردّد على مسمعه شروط الرهان باللغة الانجليزية •

وصاح دولوخوف قائلاً وهو يضرب النافذة بالقنينة للفت الانتباه :

— اسمع يا كوراجين • اصغوا اليّ • اذا استطاع أحد أن يفعل ما أفعله أنا ، فسوف أعطيه مائة ديناراً ذهباً • هل فهمتم ؟

فأوماً الانجليزي بحركة من رأسه تعني أنه فهم ، ولكنه لم يوضح هل هو ينوي أن يقبل هذا الرهان الجديد • ولم يتركه آنا تول • فرغم أن الانجليزي أعلمه بالاشارة أنه فهم كل شيء ، كان آنا تول يترجم له أقوال دولوخوف الى الانجليزية • وكان في الغرفة فتى نحيل الجسم ينتمي الى فرسان الحرس ، وقد خسر في القمار أثناء تلك السهرة ، فصعد الى حافة النافذة ، ومال برأسه الى خارج ، ونظر الى تحت ، فصرخ وهو يرى حجارة الرصيف :

— هوه ! هوه ! هوه !

صاح دولوخوف يقول :

— صمت !

وأمر ضابط الفرسان بالنزول عن النافذة ، فوثب الفتى الى الغرفة وثبة خرقاء متعثراً بمهمازيه •

ووضع دولوخوف القنينة على متكأ النافذة لتكون في متناول يده ،
وتسلق الى النافذة بطيئا محاذرا ، ودلّجى ساقيه الى الخارج مستندا بكلتا
يديه الى كفافها ، وتزحزح على الحافة فاختر له مكانا ، ثم ترك كفاف
النافذة ، ونظر يمنة ويسرة وتناول القنينة • وجاء آنا تول بشمعتين
فوضعهما على متكأ النافذة رغم أن الصبح طلع • فكان ظهر دولوخوف
الذي يستره قميص أبيض وكان رأسه الاعمك الشعر ، مضامين من
الجهتين • واحتشد الجميع حول النافذة • وكان الانجليزي في الصف
الاول بينهم • وكان بطرس يتسم ولا يقول شيئا • وكان بين الحضور
رجل أكبر سنا من الآخرين ، قد ظهر في وجهه الرعب والاستياء ، فاندفع
الى الامام يريد أن يمسك دولوخوف من قميصه ، هاتفا بقوله :

— هذا غباء يا سادة • لسوف يموت !

فأوقفه آنا تول • وقال إنها عن امساكه :

— لا تلمسه ، والا أرعبته • سوف يموت ، هه ؟ ماذا لو مات !

والتفت دولوخوف ، وعدل جلسته مستندا الى كفاف النافذة ، وقال
من بين شفتيه الملزوتين الدقيقتين :

— اذا تدخل أحد في شئوني مرة أخرى ، فلألقينته من هذه النافذة
في الفضاء ! هيا !

قال « هيا » ، والتفت من جديد ، وترك كفاف النافذة وتناول
القنينة وحملها الى شفتيه ، مرتدا برأسه الى وراء ، رافعا يده في الهواء

حفاظا على التوازن • وكان أحد الخدم قد أخذ يلم من الارض حطام الزجاج المكسور ، فظل مقعيا ينظر الى النافذة والى ظهر دولوخوف ولا يحوّل بصره عنهما • وكان آنا تول منتصب الجذع محمق العينين • وكان الانجليزي ينظر الى جانب مبرطم الشفتين • أما الرجل المتعقل الذي أراد أن ينهى دولوخوف عن مجازفته ، فقد هرب الى ركن من الغرفة ، واستلقى على ديوان متجها بوجهه الى الحائط •

وأخفى بطرس وجهه ، وكانت ابتسامة خفيفة منسيّة تطوف بقسماته معبّرة في هذه المرة عن الرعب والفرع • وكان الجميع صامتين • وأزاح بطرس يديه عن عينيه ، فرأى دولوخوف ما يزال جالسا جلسته تلك نفسها ، ولكن رأسه قد بلغ من الارتداد الى وراء أن شعره المعكوف في قذاله كان يلمس ياقة قميصه ، وكانت يده والقنينة ترتفعان مزيدا من الارتفاع لحظة بعد لحظة ، وترتعثان من فرط الجهد • وكانت القنينة تفرغ ، وتعلو بمقدار فراغها ، فيزداد ارتداد رأس الى وراء • قال بطرس لنفسه : « لماذا طال الامر هذا الطول كله ؟ » • لقد بدا له أنه انقضى من الوقت أكثر من نصف ساعة • وفجأة ردّ دولوخوف ظهره الى الوراء بحركة قوية ؛ لقد ارتعشت يده ارتعاشة عصبية ، فكان هذا الارتعاش كافيا لزحزة الجسم كله عن مجلسه على الحافة المائلة • وترجح جسمه كله فعلا ، وارتعش الرأس والذراع ارتعاشا أشد وأقوى من فرط الجهد • وارتفعت احدى يدي دولوخوف تريد التشبث بمتكأ النافذة ، ولكنها لم تلبث أن عادت تنخفض قبل أن تلمس المتكأ •

وأغمض بطرس عينيه ، قائلاً لنفسه انه لن يفتحهما بعد الآن • وأحس بالجميع يتحركون حوله • فنظر • فإذا هو يرى دولوخوف واقفاً على متكأ النافذة شاحب اللون فرح الهيئة ، يقول :

— ها هي ذي فارغة !

ورمى القنينة الى الانجليزي ، فتلقاها الانجليزي بحركة بارعة • ووثب دولوخوف من النافذة الى الارض • وكانت تفوح منه رائحة الروم قوية •

وارتفعت الصيحات من كل جهة :

— عظيم ! يا للشجاعة ! ما هذا الرهان ؟ تباً لكم !

واستل الانجليزي كيسه ، وأخذ يعدد المال المطلوب • وكان دولوخوف مقطباً عابساً لا يقول شيئاً • وقفز بطرس الى متكأ النافذة ، وصاح ينادي فجأة :

— يا سادة ! من يريد أن يراهنني ؟ سأفعل ما فعله دولوخوف • بل لا داعي الى رهان ! هاتوا قنينة • سأفعل ما فعل دولوخوف • مروا لي بقنينة •

قال دولوخوف مبتسماً :

— هلم هلم !

وارتفعت أصوات في كل جهة تقول :

— أ أنت مجنون ؟ من ذا الذي يدع لك أن تفعل هذا ؟ انك تدوخ حتى حين تصعد سلما !

فصرخ بطرس قائلاً وهو يضرب المائدة ضربة سكران :

— سأفرغها ! ائتوني بقينة روم !

وصعد الى النافذة •

فأمسك بعضهم ذراعيه ، ولكنه كان من القوة بحيث استطاع أن يدفع الذين اقتربوا منه فيلقئهم بعيدا عنه •
قال آنا تول :

— لا ، يستحيل رده الى الصواب بهذا الاسلوب • انتظروا •
سأقترح عليه ما يرضيه •

ثم التفت الى بطرس وقال له :

— اسمع • أنا أقبل مراهنتك ، ولكن غدا ، أما الآن فتذهب الى

س •••

فهتف بطرس يقول موافقا :

— حسن ، هلموا بنا الى هناك ! ••• ولناخذ معنا ميشكا^(١) •••

قال ذلك وأمسك الدب من وسط جسمه ، فحمله وأخذ يدور به في الغرفة •

(١) تصغير ميشيل ، ومن المؤلف في روسيا أن تسمى الدببة ميشكا •

الفصل السابع

بره الامير فاسيلي بالوعد الذي قطعه على نفسه ، في سهرة آنا بافلوفنا ، للاميرة دروبتزكوي التي توسّلت اليه في أمر ابنها الوحيد بوريس . فقد حدثّ الامير في أمر الفتى ، فتمّ نقله الى الحرس استثناءً ، وسمّي ملازما في فوج سيمينوفسكي . ولكنه لم يُعيّن مرافقا لكتوزوف ، ولا ملحقا به ، رغم جميع ما قامت به آنا ميخائيلوفنا من مساعٍ ومكائد . وقد رجعت آنا ميخائيلوفنا الى موسكو بعد سهرة آنا بافلوفنا ، ومضت رأسا الى أقربائها الاثرياء آل روستوف^(١) الذين تنزل عندهم دائما ، والذين نشأت في منزلهم منذ طفولتها ، وأسكنت عندهم ابنها المعبود بوريس سنين طويلة ، حتى عُيّن ملازما في المدة الاخيرة ، ثم لم يلبث أن ثقل الى سلاح الحرس . وقد غادر الحرس بطرسبرج في اليوم العاشر من شهر آب (أغسطس) ، وكان على ابنها ، الذي بقي في موسكو لتجهيز نفسه ، أن يلتحق بالحرس أثناء الطريق في رادزييفلوف^(٢) .

(١) تمثل هذه الاسرة اسلاف المؤلف بعض الشيء ، وقد وضع لها هذا الاسم على غرار اسم تولستوي الذي يلفظ تولستوفا في حالة الاضافة . وقد استعمل لها تولستوي في احدى المخطوطات المسودات اسم الكونت بروتوي (ومعناه : البسيط) .

(٢) هي قرية فولهينيا ، الواقعة على حدود جاليسيا ، وقد سميت رادزييفلوف لانها كانت تنتمي الى الامراء اللتوانيين رادزييفيل .

كان منزل آل روستوف يحتفل بعيد القديسة ناتاليا ، التي تسمى باسمها الام وابنتها الصغرى^(١) . فكانت مركبات الزائرين الذين يجيئون للاعراب عن تمنياتهم تتوالى منذ الصباح بغير انقطاع أمام قصر الكونتيسة روستوف الذي تعرفه موسكو كلها في شارع بوفارسكايا^(٢) . وكانت الكونتيسة وابنتها الكبرى ، وهي فتاة بارعة الجمال ، واقفتين في الصالون تحيان الزائرين الذين يتلاحق وصولهم وانصرافهم أفواجا متتابعة .

ان الكونتيسة امرأة في نحو الخامسة والاربعين من العمر ، لها وجه نحيل شرقي الطابع ، كان واضحاً أن ولادتها اثنتي عشرة مرة قد أرهقتها وأضنتها . وكان بطء حركاتها وكلامها ، وهو بطء ناشيء عن ضعفها ، يضيف عليها مهابة ، ويفرض لها احتراماً . وكانت الاميرة آنا ميخائيلوفنا تحضر الحفلة كواحدة من أهل البيت ، وتساعد في استقبال الزائرين والاحتفاء بهم وتسليتهم . وكانت الشبيبة قد مضت الى الحجرات البعيدة معتقدة بأن مشاركتها في استقبال الزائرين ليست

(١) يقع عيد القديسة ناتاليا في ٢٦ آب (أغسطس) حسب التقويم الروسي ، وهو يوافق ٧ ايلول (سبتمبر) . ومن العادات المألوفة كثيراً في روسيا ان يسمى الابن باسم أبيه وأن تسمى البنت باسم أمها .

(٢) يقال ان تولستوي يتصور هنا ذلك القصر الجميل الذي كانت تملكه أسرة الكونتات سولوجوب في نهاية شارع بوفارسكايا (وهو يسمى اليوم شارع فوروسكي) من حي آربات . وهذا القصر يشغله اليوم اتحاد الكتاب السوفيات .

بذات فائدة • وكان الكونت يلاقي الضيوف ويشيعهم ، ويدعوهم جميعا الى العودة في المساء للعشاء ، قائلاً لكل واحد منهم :

— إني يا عزيزي أو يا عزيزتي (كان يخاطب بقوله عزيزي أو عزيزتي جميع الناس ، دون استثناء ، ودون أي تفریق ، سواء أكانوا أعلى منه مقاماً أو أدنى) ، ممتن أعظم الامتنان ، شاكراً أجزل الشكر ، باسمي واسم من نحتفل بعيديهما • لا تتخلف عن المجيء في المساء للعشاء • وإلا أزعلتني يا عزيزي • أرجوك يا عزيزتي رجاءً مفعماً بخالص المودة أن لا تتخلفي عن المجيء في المساء للعشاء ، أرجوك هذا الرجاء باسمي وباسم الاسرة كلها •

كان يكرر هذه الكلمات نفسها دون تفریق بين الناس ودون تحويل في الالفاظ ، يكررها وقد ارتسم على وجهه الممتليء الذي أحسن حلقة تعبير " فرح جذل ، ويشفعها بشدٍ قوي على الايدي وانحناءات صغيرة كثيرة • حتى اذا فرغ من تشييع أحد الزائرين رجع الى من بقي (أو بقيت) في الصالون ، فقرَّب منه مقعداً بطلاقة رجل يحب الحياة ويعرف الحياة ، مباعداً ساقيه في جسارة ، واضعاً يديه على ركبتيه ، مترجماً بجسمه في وقار ومهابة ، وطلق يحدثه (أو يحدثها) عن الجو متنبئاً بما سيطرأ عليه من أحوال وتقلبات ، وأخذ يسأل محدثه النصيح في أمور صحته ، وهو يتكلم تارة بالروسية وتارة بفرنسية ركيكة لكنها ملأى بالثقة ، ثم اذا هو يقوم ثانية قومة رجل متعب مكدود لكنه ثابت جلد حين يكون عليه أن يقوم بواجب ، ليشيع زائرين آخرين ، فيسير معهم

الى الباب وهو يصفّف شعراته القليلة على رأسه الاصلع ، ويكرّر دعوته الى العشاء • وربما عرّج على صالة المرمر الكبرى حين عودته من الدهليز ، ماراً اليها من حديقة الشتاء وحجرة الخدمة فيلقي نظرةً على المائدة التي تتسع لاربعة وعشرين مدعواً ، ويلاحظ الخدم المنهمكين في نقل الفضيّات والخزفيات وترتيب المائدة ونشر الاغطية الدمقسية ، وينادي دم تري فإسيلفتش ، وهو نبيل يُعنى بجميع شئونه فيقول له :

— هيه ! هيه ! ميتنكا ، احرص على أن يكون كل شيء مرتباً •

ثم يتأمل المائدة الواسعة ذات الالواح التي تضم اليها فتريدها طولاً ، فيردف قائلاً :

— عظيم ! عظيم ! أدوات المائدة هي الشيء الاساسي •

ثم يعود الى الصالون وهو يتنهد تنهد الرضى والسرور •

علا صوت خادم الكوتيسية يقول جهيراً وهو يظهر في باب الصالون:

— ماريا لفوفنا كاراجين وابنتها^(١) •

ففكرت الكوتيسية لحظة، ثم تناولت نشقة من علبة صعوط مصنوعة

من ذهب ومزدانة بصورة زوجها ، وقالت :

— أرهقتني هذه الزيارات • هذه آخر من أستقبل • ما أشدّ

تعاطفها !

(١) ان هذه الاميرة ماريا لفوفنا كاراجين وابنتها لا علاقة لهما بأسرة كاروجين • فهذان اسمان مختلفان وان تشابها كثيراً •

ثم قالت للخادم بصوت حزين :

— أدخلها •

وكانت نبرة صوتها الحزين كأنها تعني : « هيا • خلّصني ! »

ودخلت الى الصالون بين حفيف الاثواب سيدة طويلة القامة ،
متعجرفة الهيئة ، تصحبها ابنتها ذات الوجه المدوّر المبتسم •

— عزيزتي الكوتتيسة ، مضى زمن طويل ••• كانت طريحة الفراش
••• الطفلة المسكينة ••• في حفلة الرقص التي أقامها آل رازوموفسكي^(١)
••• والكوتتيسة أبراسكين ••• كنت سعيدة كل السعادة •••

هكذا قالت أصوات نساء اندفعن يتكلمن ويقاطعن بعضهن بعضاً ،
وتختلط كلماتهم بحفيف الاثواب وجلبة تحريك الكراسي • وجرى
حديث هو الحديث الذي لا يبدأ الا لتتمكن المتحدثة عند أول هدأة
أن تنهض قائلة بين حفيف الثوب : « ما أسعدني بهذا اللقاء ••• صحة
ماما ••• والكوتتيسة أبراسكين ••• » ثم تخرج الى الدهليز بين
حفيف ثوبها مرة أخرى ، فترتدي فراءها أو معطفها وتنصرف • وقد

(١) رازوموفسكي أسرة طائلة الثراء ، كان أول رجالها ، وهو قوزاقي
بسيط ، مرتلاً في البلاط ، ثم أصبح زوج كاترين الاولى دون التمتع
بما يترتب على هذا الزواج من حقوق سياسية ، وذلك سنة ١٧٧٢ ؛
وكان ابن أخيه ، الكونت الكسي كيريلوفتش ، يعيش حياة بذخ في
موسكو ، وكان له ابن أخ ثان هو آندره الذي كان سفيرا في فيينا
وكان يحمي بتهوفن وبرعاه •

تطرق الحديث في نهايته الى النبأ الكبير الذي ذاع في ذلك اليوم . وهو مرض الكونت الشيخ ييزوخوف ، الزائع الصيت ، الطائل الثراء ، الذي كان واحداً من أجمل الرجال في عهد كاترين ؛ وتطرق الحديث كذلك الى ابنه غير الشرعي بطرس الذي تصرف تصرفاً خالياً من اللياقة كل الخلو في سهرة آنا بافلوفنا شيرر .

قالت الزائرة :

— انني أرثي لحال الكونت المسكين . صحته متدهورة تدهوراً شديداً ، ثم هو يعاني هذا الالم الذي يسببه له ابنه . لسوف يقتله هذا قتلاً .

قالت الكونتيسة مستفسرةً كأنها تجهل الامر الذي تشير اليه الزائرة ، مع أنها سمعت الناس يتحدثون عن حزن الكونت ييزوخوف خمس عشرة مرة :

— ما الذي حدث ؟

قالت الزائرة مجيبة عن السؤال :

— هذه هي التربية في هذا الزمان . ان هذا الفتى قد أرخى له الزمام منذ كان في الخارج ، والآن يقال انه ارتكب في بطرسبرج من الاعمال المشينة ما اضطر الشرطة الى طرده .

قالت الكونتيسة :

— أحق ما تقولين ؟

وتدخلت أنا ميخائيلوفنا قائلة :

— انه يعاشر رفاق السوء ! يقال انه هو وابن الامير فاسيلي ،
وشاباً من آل دولوخوف ، قد ارتكبوا أعمالاً لا يعلم الا الله ما هي !
وقد نال اثنان منهم جزاءهما ، فردّ دولوخوف جندياً ، ونفي ابن
بيزوخوف الى موسكو . أما آنا تول كوراجين ، فقد خنق أبوه القضية
بطريقة من الطرق . ولكن الولد أقصى مع ذلك من بطرسبرج .

سألت الكوتيسة :

— ولكن ماذا فعلوا ؟

قالت الزائرة :

— فعلوا ما يفعله قطاع الطرق . وكان أفضعهم دولوخوف . انه
ابن ماريّا ايفانوفنا دولوخوف ، وهي انسانة محترمة . فهل تتصورين
ماذا فعلوا ؟ حصلوا هم الثلاثة من مكان ما على دب ، فأركبوه عربة ،
ومضوا به الى عند ممثلات . فلما هرعت الشرطة تريد أن تردهم الى
الصواب ، أمسكوا مفوض شرطة الحي ، وشدوه الى الدب ظهراً لظهر ،
ورموا الدب في قناة مويكا^(١) ، فسبح الدب وعلى ظهره مفوض الشرطة .

صرخ الكونت يقول وهو يكاد يختنق من شدة الضحك :

— لا بد أن هيئة مفوض الشرطة كانت جميلة وهو على ظهر الدب

يا عزيزتي !

(١) قناة مويكا إحدى الاقنية التي تجتاز بطرسبرج .

— آه ... يا للهول ! هل ثمة ما يبعث على الضحك يا كونت ؟

ولكن السيدات أخذن يضحكن هنَّ أيضاً رغم ارادتهن •

واستطردت الزائرة تقول :

— ولم يمكن انقاذ مفوض الشرطة الشقي الا بعد كثير من العناء •

ثم أضافت قولها :

— ان ابن الكونت كيريل فلاديميروفتش ييزوخوف هو الذي

يتسلَّى هذه التسلية البالغة هذا المبلغ من الذكاء ! كان يقال عنه انه

حسن التنشئة ذكي • فانظروا الى أين وصلت به تلك التربية التي ربَّيها

في الخارج ! آمل أن لا يستقبله هنا أحد رغم ثرائه الطائل • لقد أراد

بعضهم أن يقدمه اليَّ ، فرفضت رفضاً قاطعاً • ان لي بنات •

— ما الذي يجعلك تقولين أنه طائل الثراء ؟

كذلك سألتها الكونتيسة وهي تميل الى جانب لتحجب البنات

وتمنعهن من الاصغاء • فسرعان ما تظاهرن بأنهن لا ينصتن الى ما يجري

من حديث • وأردفت الكونتيسة تقول :

— ان الكونت كيريل ليس له الا أولاد غير شرعيين • وأظن أن ...

بطرس واحد منهم •

قالت الزائرة وهي تحرك يدها بإشارة ساخرة :

— أتخيل أن له عشرين ولداً غير شرعي •

وتدخلت أنا ميخائيلوفنا في الحديث ، وكان واضحاً أنها تحب أن تباهي بعلاقاتها ، وأن تظهر علمها بمسائل المجتمع الراقي • قالت بصوت خافت ، وهيئة تنم عن أنها على معرفة بخفايا الامور :

— إليكم المسألة ! إن سمعة الكونت كيريل فلاديميروفتش معروفة • حتى أنه لا يستطيع أن يحصى عدد أولاده • ولكن بطرس هذا هو الاثير عنده •

قالت الكونتيسة :

— ما كان اجمل هذا الشيخ ، حتى في السنة الماضية ! لم ارَ في حياتي رجلاً أجمل منه •

قالت أنا ميخائيلوفنا :

— تغير كثيراً •

ثم تابعت كلامها الاول فقالت :

— كنت اريد ان اقول ان الامير فاسيلي هو الذي يجب ان يكون ، من جهة امرأته ، وريث الثروة كلها رأساً ، ولكن الاب يحب بطرس كثيراً ، وقد عني بتثنيته ، وكتب الى الامبراطور في أمره ••• فاذا مات (وهذا امر متوقع من لحظة الى اخرى ، لان حالته سيئة وقد استدعى لوران^(١) من بطرسبرج) ، فليس يدري أحد الى من تؤول هذه الثروة

(١) طبيب فرنسي واسع الشهرة ذائع الصيت اقام ببطرسبرج •

الطائفة : أتوول الى بطرس ام الى الامير فاسيلي • ان ثروته تبلغ أربعين ألف نفس^(١) وملايين • انا على معرفة تامة بالامر ، فالامير فاسيلي نفسه هو الذي حدثني به وذكره لي • ثم ان كيريل فلاديميروفتش هو من جهة أمي خال" لي على طريقة أهل بروتانيا. هذا عدا أنه عراب ابني بوريس • وقد ذكرت هذا الامر الاخير دون أن يظهر عليها أنها توليه أي اهتمام •

قالت الزائرة :

— ان الامير فاسيلي هو الآن هنا منذ أمس ، جاء الى موسكو ، في رحلة تفتيشية كما يقال •
فقالت الاميرة :

— ولكن الواقع أن التفتيش عذر انتحله انتحالا ، وهو لم يجيء في الحقيقة الا ليرى الكونت كيريل فلاديميروفتش حين علم بتدهور صحته •

قال الكونت روستوف فجأة :

— مهما تقولي يا عزيزتي فهذه مهزلة لطيفة !

لكنه وقد رأى أن الزائرة لا تصغي اليه ، التفت الى البنات ، وقال :

— لا بد أن مفوض الشرطة كانت هيئته جميلة !

(١) أي اراضي مع من عليها من اقلان يبلغ عددهم أربعين ألف فن •

وأخذ يقلّد كيف كان مفوّض الشرطة يحرك ذراعيه ، وانفجر
يضحك مرةً أخرى ضحكاً مجلجلاً عميقاً يهزّ جسمه البدين كله ،
وهو ضحك أولئك الذين ظلّوا طوال حياتهم يأكلون كثيراً ، ويشربون
كثيراً على وجه الخصوص •

— اتفقنا اذن • ننتظركم في العشاء •

الفصل الثامن

ساد صمت • ونظرت الكوتيسة الى الزائرة وهي تبتسم لها ابتسامة مودة ، دون أن تخفي مع ذلك أنها لن يسوءها الآن أن تراها تنهض وتنصرف • وقد أخذت بنت الزائرة ترتب فستانها وتنظر الى أمها مستفهمة • وانهم لذلك اذا بهم يسمعون ضجة خطوات سريعة في الغرفة المجاورة ، خطوات أناث وخطوات ذكور ، ويسمعون قرعقة كرسي تقلبه على الارض صدمة مرور سريع ، ثم اذا بفتاة في الثالثة عشرة من العمر تدخل الصالون كالسهم فتقف في وسطه وهي تخفي تحت تنورتها القصيرة شيئاً ، ويدهشها ادهاشاً واضحاً أن سرعة جريها قد وصلت بها الى هنا على غير ارادة منها • وفي تلك اللحظة نفسها ظهر في الباب طالب له ياقة بلون توت العليق ، وضابط من الحرس ، وفتاة في الخامسة عشرة ، وصبي سمين متورد الوجه يلبس سترة طفل •

نهض الكونت بحركة سريعة قوية ، وباعد ذراعيه أمام الصبية مترنحا ، وهتف يقول ضاحكا !

— آ ••• هي ذي بطلة الحفلة ! عزيزتي ! هذه من نحتفل بعيدها !
فقال الكوتيسة للصبية متظاهرة بالقسوة :

— لكل شيء وقته يا عزيزتي !

ثم أضافت تقول مخاطبة زوجها :

— انك تسرف في تدليلها يا ايلي !

قالت الزائرة :

— يومك سعيد يا عزيزتي • أهنتك !

واستطردت متجهة بكلامها الى الام :

— يالها من طفلة لذيدة !

ان هذه الصبية ، ذات العينين السوداوين ، والنم الكبير الذي ليس جميلا ولكنه يفيض حياة ، والكتفين اللتين عرّاهما ركضها السريع ، وضافائر الشعر المتداخلة المرتدة الى وراء ، والذراعين النحلتين العاريتين ، والساقين الصغيرتين اللتين يكسوهما بنطلون مصنوع من داتيليا كشف عن قدميها المنتعلتين حذاءين خفيفين ، أقول ان هذه الصبية كانت في تلك السن الجميلة التي تشب فيها البنت عن طور الطفولة ، ولكن الطفلة لما تصبح فيها فتاة بعد •

وقد تجنبت أباها وأسرت الى أمها تخفي وجهها الجميل المحمر في داتيليات خمارها دون أن تلقي بالاء الى هيئتها المعبرة عن القسوة ، وانفجرت تضحك • كانت تضحك من شيء ما متكلمة بصوت متقطع عن عروسة استلتها من تنورتها الصغيرة •

— هل ترين ؟ ••• العروسة ••• ميمي ••• انظري •••

لم تستطع ناتاشا أن تقول أكثر من هذا • فلقد كان كل شيء يضحكها
اضحكا شديدا • ثم ها هي ذي تتهالك على أمها وتنطلق في ضحكة
مجنونة بلغت من الجلجلة أن الجميع أخذوا يضحكون مثلها رغم ارادتهم
ومنهم الزائرة المتعاطفة •

قالت الام وهي تدفعها بغضب مصطنع :

— طيب ••• طيب ••• اذهبي أنت وهذه العروسة الكريهة !

ثم قالت تشرح لزائرتها السيدة كاراجين :

— هذه ابنتي الصغرى •

فأخرجت ناتاشا رأسها لحظة من دانتيل خمار أمها ونظرت من خلال
دموع الضحك الى السيدة كاراجين من أدنى الى أعلى، وعادت تخفي وجهها
من جديد •

ولاضطرار السيدة كاراجين الى اظهار الاعجاب بهذا المشهد العائلي،
رأت أن عليها أن تشارك فيه ، فقالت تسأل ناتاشا :

— قولي لي يا عزيزتي الغالية ، ما القرابة التي بينك وبين ميمي ؟
هي ابنتك طبعاً ، أليس كذلك ؟

ولكن ناتاشا لم تعجبها هذه اللهجة المتنازلة التي اصطنعها السيدة
كاراجين للمهبط الى مستوى الصبية ، فلم تجب الزائرة بشيء ، ونظرت
اليها عابسة •

وفي أثناء ذلك كان هذا الجيل الجديد كله : بوريس الضابط ، ابن الاميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي ، ونيقولا الطالب ، أكبر أبناء الكونت ، وصونيا ، الفتاة التي تبلغ الخامسة عشرة من العمر ، وهي بنت أخت الامير فاسيلي ، وبتروشا^(١) اصغر اخوتها ، كانوا جميعا قد استقروا في الصالون ، يحاولون أن يتقيدوا بالمواصفات الاجتماعية ، فيكبحوا ما هم فيه من مرح شديد يشع من قسّمات كل وجه من وجوههم . واضح أن الحديث الذي كان يجري بينهم هناك ، في الحجرات البعيدة التي جاءوا منها مسرعين هذا الاسراع الكبير ، كان أدعى الى التسلية وأبعث على الضحك من الحديث الذي يدور هنا عن أقاويل المدينة ، وحالة الجو ، والكوتيسة أبراكسين . فكانوا يتراشقون النظرات بين الفينة والفينة ، فلا يستطيعون ان يكظموا ضحكهم الا بكثير من العناء .

ان الشابين ، أعني الطالب والضابط ، صديقان من الطفولة، وهما في سن واحدة ، وكلاهما جميل ، ولكنهما لا يتشابهان . فأما بوريس فهو طويل أشقر متسق القسّمات دقيق الملامح ، في وجهه الجميل هدوء . وأما نيقولا فليس طويل القامة ، وهو أعقف الشعر ، منبسط أسارير الوجه ، يظل شفته العليا زغب قليل منذ الآن ، ويعبر عن عنف وحماسة . وقد احمر وجهه منذ أن دخل الصالون . وكان واضحا أنه يحاول أن يبحث عن شيء يقوله . ولا كذلك بوريس ، فانه سرعان ما برهن على

(١) بتروشا تفسير اسم بطرس .

حضور بديته ، اذ قال بوقار ولهجة جذلى انه عرف هذه العروسة ميمي وهي فتاة لم يمسس أنفها أذى ، وانها شاخت ودب اليها الهرم أمام بصره في غضون خمس سنين ، وأن رأسها قد انشق على طول الجمجمة كلها . قال بوريس ذلك ونظر الى ناتاشا . فأشاحت ناتاشا وجهها . ونظرت الى أخيها فرأته مغمض العينين تهزه ضحكة خرساء ، فلم تطق أن تسيطر على نفسها أكثر من ذلك ، فاذا هي تقفز واقفة على قدميها ، ثم تركض هاربة بالسرعة التي تمكنها منها ساقاها الخفيفتان الرشيقتان ، ولم يضحك بوريس . وقال مخاطبا أمه مبتسما :

— أظن أنك كنت تريدني أن تخرجي أيضا يا ماما ، أليس كذلك ؟ هل أنت في حاجة الى العربة ؟

فقالت الام تجيبه مبتسمة :

— نعم . نعم ، اذهب ! مر بكدن الخيل .

فخرج بوريس برصانة يتبع ناتاشا . وأسرع الصبي السمين يلحق بها حائق الهيئة ، كأنه غاضب من صرفه عن مشاغله أو مضايقته فيها .

الفصل التاسع

لم يبق في الصالون من الشبيبة، عدا الآنسة كاراجين وابنة الكونتيسة،
(ابتها الكبرى التي تكبر أختها بأربع سنين ، وتصطنع منذ الآن سلوك
شابة كبيرة) الا نيقولا وقرينته صونيا • ان صونيا فتاة سمراء ، نحيلة
الجسم ضعيفة ، لها نظرة رقيقة تظللها أهداب طويلة وشعر كثيف ضفر
جديلة ثقيلة تلتف على رأسها مرتين ، ولون كامد ولا سيما في العنق وفي
الذراعين البارزة عضلاتهما ، الهزيلتين دون أن تخلوا من جمال وفتنة. وهي
بانسجام حركاتها ، وبالرشاقة والمرونة في أعضائها الصغيرة ، وبأساليبها
التي تدل على شيء من دهاء وتشتمل على تحفظ ، أشبه بقطيطة صغيرة
لم تستكمل نموها بعد ، ولكنها تعد بأن تصبح قطرة لذيذة • وكان
واضحا أنها رأت أن من المناسب أن تبين بابتسامة على ثغرها أنها مهتمة
بالحديث العام • ولكن عينيها كانتا تلتفتان تحت أهدابها الكثيفة الى
قريبها رغم ارادتها ، أعني الى نيقولا الذي سيلتحق بالجيش ، فتتظاليه
بعاطفة الفتاة التي تحب حب العباداة ، وبابتسامة لا يمكن أن يخدع بها
أحد يوما • وكان واضحا أن القطيطة لم تجلس الا من أجل أن تثب بمزيد
من القوة ، فتلعب مع قريبها متى أتيح لهما أن يخرجوا من الصالون ،
كما فعل بوريس وناتاشا •

قال الكونت الشيخ للزائرة السيدة كاراجين ، وهو يوميء الى ابنه
 نيقولا :

— نعم يا عزيزتي • عين صديقه بوريس ضابطا ، فأصبح يريد أن
 يكون ضابطا من باب صداقته له ، فترك الجامعة ، وتركني أنا الشيخ
 العجوز ، واختار العسكرية يا عزيزتي ، مع أن هناك وظيفة شاغرة له
 في ديوان المحفوظات • أهذه صداقة ؟

بذلك ختم الكونت حديثه سائلا ؟

قالت الزائرة السيدة كاراجين :

— هل صحيح أن الحرب أعلنت كما يقال ؟

قال الكونت :

— يتحدث الناس عن هذا منذ مدة طويلة ، وسوف يتحدثون عنه
 هذه المرة ، ثم تبقى الامور عند هذا الحد • ثم كرر سؤاله :

— أهذه صداقة يا عزيزتي ؟ انه يدخل سلاح الفرسان • فلم تجد
 الزائرة ما تجيب به عن سؤال الكونت ، فاكثفت بأن هزت رأسها •

واحمر وجه نيقولا احمرارا شديدا ، ورد يقول مدافعا عن نفسه
 كأن الامر أمر نسيمة مشينة :

— أنا لا أفعل هذا بدافع الصداقة • لا أفعله أبدا بدافع الصداقة •
 وانما أفعله لاحساس بأنني خلقت للسلاح •

قال ذلك ونظر الى قريته والى الزائرة الشابة • ونظرت الفتاتان
كلتاهما بابتسامة تأييد •

قال الكونت وهو يرفع منكبيه ، متكلما بلهجة المزاح عن مسألة
كان واضحا أنها تسبب له حزنا كبيرا :

— علينا أن نعشي شوبرت ، الكولونيل في فرسان بافلوجراد^(١) •
انه في اجازة هنا • فمتى انتهت اجازته اصطحب ابني المشاغب معه •
تدخل الابن قائلا :

— سبق أن أعلنت لك يا بابا أنني مستعد للبقاء اذا كنت لا تريد لي
أن أسافر • ولكنني أعرف أنني لا أصلح لشيء غير مهنة الحرب • انني
لم أخلق لآكون دبلوماسيا أو موظفا •

وواصل كلامه بما في شبابه الغض الجميل من غنج ، وهو يلقي
نظرات على صونيا والزائرة الشابة :
— أنا لا أستطيع اخفاء عواطفني •

وكانت القطة الصغيرة شاخصة البصر اليه ، متأهبة في كل لحظة
لان تلعب ولان تظهر كل ما تضمه نفسها من طبيعة الهرة •
قال الكونت :

(١) من فوج الفرسان الثاني ، وقد تميز بعد ذلك في الحروب التي
خاضتها روسيا ضد نابوليون •

— طيب طيب ! حسن ! انه يتحمس دائما ... ذلك كله انما سببه نابوليون الذي ذهب بعقولهم جميعا • فهم لا ينفكون يقولون لانفسهم ان نابوليون كان ملازما فأصبح امبراطورا • طيب • ليكن • على بركة الله !

أضاف هذه الجملة الاخيرة دون أن يلاحظ الابتسامة الساخرة التي طافت بشعر الزائرة •

وأخذ الكبار يتكلمون عن نابليون بونابرت • واتجهت جوليا ، ابنة السيدة كاراجين ، اتجهت الى الفتى روستوف قائلة له وهي تبسم ابتسامة فيها رقة وعاطفة :

— خسارة أنك لم تجيء يوم الخميس الى آل آرخاروف^(١) •

سر الفتى بما قالته الفتاة، فابتسم ابتسامة الشباب التي تشتمل على دلال، وقام من مكانه وجاء يجلس قريبا من جوليا، وشرع يحدثها على انفراد ، دون أن يلاحظ أن هذه الابتسامة التي انفرج عنها ثغره على غير ارادة منه كانت تطعن قلب صونيا بخنجر الغيرة ، وأن صونيا قد احمرت احمرارا شديدا ، لكنها تصطنع التبسم مكرهة عليه نفسها اكرها • وفيما كان يقولون منهمكا في الحديث ألقي نظرة على صونيا ، فاذا هي ترشقه بنظرة تفيض حقدا متقدا ، واذا هي لا تستطيع أن تحبس

(١) نيقولا آرخاروف (١٧٤٢ — ١٨١٤) كان حاكم موسكو من سنة ١٧٨٢ الى سنة ١٨٠٠ ؛ وقد أقام فيها بعد احالته على التقاعد •

الدموع في عينيها الا بكثير من المشقة ، وتقر نفسها على التسم
قسرا ، ثم اذا هي تقوم وتخرج • فما كان من نيقولا الا أن ذهبت
حماسته كلها ، وأخذ ينتظر لحظة صمت ، حتى اذا سنحت هذه اللحظة،
خرج يسعى الى صونيا منقلب الوجه •

قالت آنا ميخائيلوفنا :

— ان أسرار هذه الشبية مخيطة بخيوط بيضاء • ثم أضافت
تضرب مثلا فرنسيا فتقول :

— « مجاورة القريب للقريب تشعل النار في القلوب » •

قالت الكوتيسة منذ غاب شعاع الشمس الذي دخل الصالون
مع دخول هذا الجيل الجديد اليه ، وكأنها تجيب عن سؤال لا يلقيه عليها
أحد ولكنه يشغل بالها دائما :

— ما أكثر ما يقاسي المرء الآن من ألوان العذاب والقلق حتى
يكونوا قرة نفسه وفرحة قلبه ! ومع ذلك فان هذه الفرحة مشوبة
دائما بالخوف والخشية • فيظل المرء في عذاب مقيم ! هذه هي السن
التي تكثر فيها المخاطر كثرة كبيرة على البنات والبنين على حد سواء •

• قالت الزائرة السيدة كاراجين :

— كل شيء رهن بالتربية •

— نعم ، انك على حق • الحمد لله على أنني كنت حتى الآن

صديقة لاولادي ، وانتي أحظى بثقتهم كاملة ...

كذلك أضافت الكوتيسة مكررة ذلك الخطأ الذي يرتكبه كثير من الآباء والامهات اذ يتصورون أن أولادهم ليس لهم أسرار خاصة بهم • وأردفت تقول :

— أنا أعلم أنني سأكون أول من تفضي اليه بناتي بأسرارهن ، وأعلم أن نيقولا اذا دفعه طبعه المندفع العارم الى ارتكاب حماقات (وما من شاب يستطيع أن ينجو من ارتكاب حماقات) فان حماقاته لن تكون أبدا كحماقات أولئك السادة الذين ربطوا مفوض الشرطة بالدب في بطرسبرج !

قال الكونت مؤيدا ، وهو يحل جميع المسائل الشائكة بأن يصفها بأنها لطيفة :

— نعم ، هم أولاد طيبون لطاف • تصوري ! يريد أن يلتحق بسلاح الفرسان ! ولكن ما حيلتنا يا عزيزتي ؟

قالت الزائرة :

— ما أبدع وما أفتن ابنتك الصغرى ! انها شديدة الحيوية متوقدة النشاط •

— نعم ، متوقدة النشاط ! تشبهنني ! وما أروع صوتها يا عزيزتي ! سوف أقول الحقيقة وان تكن ابنتي : لسوف تكون مغنية أوبرا ،

لسوف تكون سالوموني جديدة ! وقد عينا لها ايطاليا يعطيها دروسا
في الغناء •

— أليس هذا سابقا لاوانه ؟ يقال ان دراسة الغناء في هذه السن
تسيء الى الصوت •

فأجاب الكونت :

— لا • كيف يكون سابقا لاوانه ؟ ألم تتزوج أمهاتنا في الثانية
عشرة أو الثالثة عشرة من العمر ؟

قالت الكوتتيسة وهي تبتسم ابتسامة رفيقة وتنظر الى أم بوريس :

— أرى أنها مولهه منذ الآن بحب بوريس • ثم تابعت كلامها تجيب
عن الفكرة التي تشغل بالها بغير انقطاع :

— اذا قسوت عليها ، فزجرتها ... فلا يعلم الا الله ماذا قد
يفعلان خفية (كانت الكوتتيسة تعني أنهما قد يتبادلان قبلة) ، أما
بالطريقة التي أتبعها فأنني أعرف كل كلمة يقولانها • انها تهرع الي
في المساء من تلقاء نفسها فتقص علي كل شيء • جائز أنني أدللها ،
ولكنني أعتقد أن هذا الاسلوب هو الافضل حقا • لقد قسوت على
الكبرى قسوة شديدة •

قالت ابنتها الكبرى ، الكوتتيسة الجميلة فيرا ، مبتسمة :

— نعم ، لقد ربيت أنا تربية أخرى •

ولكن هذه الابتسامة لم تجمل وجه فيرا كما تجمله عادة ، وانما هو اكتسب صورة بعيدة عن طبيعته فهي صورة منفرة • ان الكبرى فيرا فتاة جميلة ، ذكية ، حسنة التربية ، ولقد كانت في المدرسة تلميذة ممتازة، وكان لها صوت حلو عذب، وما قالته كان صدقا وكان في محله • ولكن الشيء الغريب أن الجميع ، حتى الزائرة والكوتيسية ، نظروا اليها نظرة من يتساءل لماذا قالت هذا الكلام ، وشعروا من ذلك بضيق وخرج •

قالت الزائرة :

— ان المرء يتشدد دائما في معاملة ابنته الاولى ، لانه يريد أن يجعل منها شيئا رائعا لا مثيل له •
قال الكونت :

— يجب أن أعترف يا عزيزتي ، بأن الكوتيسية الغالية قد تشددت كثيرا مع فيرا •

ولكنه استدرك يقول وهو يغمز ابنته متحبا متوددا :

— ولكن التجربة نجحت نجاحا باهرا • فابنتي فيرا لطيفة غاية اللطف •

نهضت الزائرتان وانصرفتا وهما تعدان بأن تجيئا في المساء للعشاء • وقالت الكوتيسية وهي عائدة من تشييعهما :

— ما هذا السلوك ؟ هل يجوز لاحد أن يمكث هذه المدة الطويلة كلها ؟ كادتا أن تقيما هنا •

الفصل العاشر

حين غادرت ناتاشا الصالون راكضة فانها لم تذهب الى أبعد من الغرفة الزجاجة (حديقة الزجاج) ، فتوقفت هنالك ، وأصاحت بسمعها الى ضجة الاصوات الصادرة عن الصالون ، منتظرة أن يجيء بوريس . فلما أخذ ينفذ صبرها ، وأخذت تفرع الارض بقدمها غضبا وأوشكت أن تبكي لانه لم يجيء فوراً ، سمعت وقع خطوات الشاب لا بطيئة ولا سريعة ، بل متتدة محتشمة . فارتمت ناتاشا بحركة قوية بين صناديق الازهار فاخبتأت .

وقف بوريس في وسط الغرفة ، ونظر فيما حوله ، ونفض الغبار بيده عن كم بزته الرسمية ، ومضى الى المرأة فوقف أمامها يتأمل وجهه الجميل . فظلت ناتاشا لا بدة متربصة في مخبئها، تنتظر أن ترى ما سيفعله . فلبث بوريس أمام المرأة بعض الوقت ثم ابتسم واتجه الى باب الخروج . فأرادت ناتاشا أن تناديه ، ولكنها لم تلبث أن عدلت عن هذا الرأي ، قائلة لنفسها : « فليبحث » . فما كاد بوريس يخرج حتى دخلت صونيا من باب آخر وقد احمر وجهها احمرارا شديدا وأخذت تدمدم من خلال دموعها غاضبة حانقة ، فكبحت ناتاشا الحركة الاولى التي همّت بها ، وهي أن تهرع الى صونيا ، وبقيت في مكمنها تتجسس

على ما يحدث في هذا العالم ،وشعرت من ذلك بلذة خاصة ، جديدة كل الجدة • كانت صونيا تدمدم ببعض الكلام ، وتلقى نظرات على باب الصالون • فاذا بنيقولا يخرج من الصالون ، ويركض الى صونيا قائلاً لها :

— صونيا ؟ ما بك ؟ هل هذا جائز ؟

— ليس بي شيء ، ليس بي شيء • دعني ! وانفجرت تبكي •
— بل أنا أعلم ...

— اذا كنت تعلم فهذا عظيم • فاذهب اذن اليها ! ...

— صو ... نيا ! كلمة واحدة ! هل يجوز أن تعذبي نفسك وأن تعذيني هذا التعذيب بسبب سفاسف ؟

كذلك قال لها نيقولا وهو يتناول يدها •

ولبت ناتاشا في مخبئها ساكنة لا تتحرك ، حابسة أنفاسها ، تنظر بعينين ملتئميتين ، وتساءل : « ما عسى يحدث ؟ » •

قال نيقولا :

— صونيا ! لست في حاجة الى أحد في العالم سواك • أنت وحدك كل شيء عندي • وسوف أبرهن لك على ذلك •

— انتي أكره أن أسمعك تقول هذا الكلام •

— طيب • لن أقوله بعد الآن • ألا سامحتني يا صونيا ؟

قال نيقولا ذلك ، وجذب صونيا اليه ، وقبلها • فقالت ناتاشا تحدث
نفسها : « آه ... ما أحلى هذا ! » • فلما خرج نيقولا وصونيا ،
تبعتهما ونادت بوريس ، فلما جاءها قالت له بلهجة رصينة متعازمة :
— بوريس ، تعال الى هنا • أريد أن أقول لك شيئا •

وأضافت تقول له :

— من هنا • من هنا •

وقادته الى حديقة الشتاء ، الى المكان الذي كانت مختبئة فيه بين
صناديق الازهار • فكان بوريس يتبعها مبتسما • وسألها :
— ما الامر ؟

فاضطربت ، وألقت نظرة على ما حولها ، فلما لمحت العروسة ملقاة
على أحد الصناديق ، تناولتها بيديها • وقالت لبوريس :
— قبل العروسة !

فكان بوريس ينظر الى وجهها المتقد بعينه المنتبھتين الزاخرتين
بمعاني الصداقة ، ولا يجب بشيء • فقالت مدممة وهي ترمي
العروسة ، وتوغل مزيدا من الايغال بين صناديق الازهار :
— لا تريد ؟ اذن تعال الى هنا • اقترب أكثر ، أكثر •

وأمسكت الضابط من ظهر كفه ، وكان في وجهها تعبير عن أبهة
وارتياع • ودمدمت تقول له بصوت خافت لا يكاد يسمع ، ناظرة اليه

وهي خافضة رأسها ، مبتسمة شبه باكية في آن واحد :

— وهل تريد أن تقبلني أنا ؟

فابتسم بوريس • وقال لها وقد ازداد احمرارا ومال عليها ، ولكنه ظل منتظرا لا يفعل شيئا :

— انك تضحكيني !

فوئبت فجأة على كرسي ، فصارت أعلى منه ، فطوقته بذراعيها النحيلتين العاريتين حتى انضمتا عند قذاله ، وردت شعرها بحركة من رأسها الى وراء ، وقبلته مطبقة شفيتها على شفتيه • ثم اسرعت تتسلل بين أصص الازهار الى الطرف الآخر من الغرفة ، ووقفت هنالك خافضة رأسها • قال بوريس :

— ناتاشا ! أنت تعلمين أنني أحبك ، ولكن ... فقاطعت ناتاشا سائلة :

— موله بحبي ؟

— نعم ، موله بحبك • ولكن لا نفعلن هذا بعد الآن أرجوك ...
بعد أربع سنين ، أطلب يدك خاطبا •

فأطرقت ناتاشا تفكر • ثم أخذت تعدّ على أصابعها الصغيرة :

— ثلاث عشرة سنة ، أربع عشرة ، خمس عشرة ، ست عشرة •
طيب • اتفقنا ؟

وأشرقت في وجهها الحي ابتسامة جذلى هادئة •

قال بوريس :

— اتفقنا !

— الى الابد ! حتى الموت ؟

وتناولت ذراعه متهللة الاسارير سعيدة ، وسارت معه بخطوات

وثيدة نحو غرفة التدخين المجاورة •

الفصل الحادي عشر

بلغت الكوتيسة من التعب من الزيارات أنها أصدرت أمرها الى البواب السويسري بأن لا يستقبل أحدا بعد الآن ، وأن يكتفي بأن يلح في دعوة الذين يجيئون للتهنئة الى العشاء في المساء • كانت الكوتيسة تريد أن تخلو الى صديقة طفولتها الاميرة آنا ميخائيلوفنا التي لم تكذ تراها منذ عودتها من بطرسبرج • وها هي ذي آنا ميخائيلوفنا التي أضنت الدموع وجهها اللطيف ، تقرب مقعدها من مقعد الكوتيسة •

قالت الاميرة آنا ميخائيلوفنا :

— سأكون صريحة معك كل الصراحة • لم يبق عددنا كبيرا نحن معشر الصديقات القديمات ! لذلك أحرص على صداقتك أشد الحرص • ونظرت آنا ميخائيلوفنا الى جهة فيرا ، فأمسكت عن الكلام ، وأسرت الكوتيسة تضغط يد صديقتها • وقالت لابنتها الكبرى التي كان واضحا أنها ليست منتعشة النفس •

— فيرا ! ما بالك لا تفهمون شيئا ! ألا تحسبن أن وجودك هنا زائد • هيا انضمي الى أخواتك أو ...

فابتسمت فيرا الجميلة باستخفاف دون استياء ، وقالت :

— لو أمرتني بهذا قبل الآن يا ماما لانصرفت حالا •

ومضت الى غرفتها •

ولكنها حين مرت أمام غرفة التدخين لمحت زوجين وزوجين قد جلسوا بقرب النافذة متناظرين • فوققت ، وابتسمت ابتسامة احتقار • كانت صونيا جالسة الى جانب نيقولا الذي كان ينسخ لها الاشعار الاولى التي نظمها • وكان بوريس وناتاشا جالسين بقرب النافذة الاخرى ، وقد صمتا حين دخلت فيرا • ونظرت صونيا وناتاشا الى فيرا وقد لاح في وجهيهما الشعور بالذنب والاحساس بالسعادة في آن واحد •

كان منظر الصبيتين المولهتين منظرًا يبعث على الضحك ويؤثر في النفس معا ، ولكنه لم يوقظ في فيرا أي بهجة •

قالت :

— كم مرة طلبت منكم أن لا تأخذوا أشياءي • ان لكم غرفكم الخاصة بكم •

واتترعت المحبرة من نيقولا • فقال لها نيقولا وهو يغمس ريشته :

— حالا ، حالا •

فقالت فيرا :

— انكم لا تفعلون شيئا الا في غير محله • فمند قليل دخلتم الصالون
دخولا جعل الجميع ينجلون عنكم •

فلم يجبها أحد بشيء رغم صواب رأيها ، أو ربما بسبب صواب
حكمها ، ولم يزد الاربعة على أن أخذوا يتبادلون النظرات • وتلبثت فيرا
في الغرفة ممسكة بالمجبرة ، ثم قالت تسأل :

— ثم ما هي الاسرار التي يمكن أن تقوم في هذه السن بين ناتاشا
وبوريس ، وبينكما أنتما • ما هذه كلها الا سخافات !

قالت ناتاشا بصوت نحيل عذب فيه معنى الاسترضاء والمصالحة :
— أي أذى تنالك به يا فيرا ؟

وكان واضحا أنها اليوم أكثر بشاشة ولطافة مع الجميع منها في أي
يوم مضى •
قالت فيرا :

— هذا كله حق وغباء • انتي أخجل عنكم • ما هذه الاسرار ؟...؟
فقالت ناتاشا وقد تحمست :

— لكل امريء أسرار • نحن لا نضايقكما أنت وبرج !
قالت فيرا :

— أظن انكم لا تضايقوننا ، لان ما أفعله لا يمكن أن يكون فيه
سوء ! ولكنني سأحكي لاما كيف تعاملين بوريس •

قال بوريس :

— ان ناتاليا ايلينشنا تعاملني أحسن معاملة وليس في معاملتها ما أشكو منه •

فقلت ناتاشا وقد أخذ صوتها يرتعش الآن حنقا :

— اسكت يا بوريس • حقا انك لمسرف في الدبلوماسية • وقد صرت أضيق ذرعا بهذا • (كانت كلمة الدبلوماسية رائجة الاستعمال بين الاطفال ، وكانوا يصفون عليها معنى خاصا) • ما الذي تأخذه علي فيرا ؟ ولماذا تهاجمني دائما ؟

وأضافت تقول مخاطبة فيرا :

— انك لن تفهمي هذا أبدا ، لانك لم تحبي أحدا في يوم من الايام • أنت ليس لك قلب • ما أنت الا مدام دو جنلي^(١) (كان نيقولا هو الذي خلع على فيرا هذا اللقب الذي كان يعد جارحا) ، وأكبر لذة تشعرين بها هي لذة مضايقة الآخرين • امضى الى برج فتدلي ما شئت أن تتدلي ...

قالت ناتاشا هذه الجملة الاخيرة بسرعة • فأجابت فيرا :

— على كل حال ، لن أركض حتما وراء شاب أمام زائرين

(١) ستيفاني فيليسيستي دو جنلي (١٧٤٦ - ١٨٣٠) . اديبة فرنسية الفت منذ ١٧٧٩ كتبا في التربية وروايات وعظية كثيرة ؛ وكانت تشغل وظيفة مفتش المدارس الابتدائية في عهد نابوليون •

تدخل نيقولا فقال :

— ها قد حققت غاياتك ، فقلت كلاماً يسوء كلَّ واحد منا ،
وأفسدت علينا مسرتنا • هلموا بنا الى غرفة الاولاد •

وقام الاربعة قومة عصافير مروّعة ، واتجهوا نحو الباب •
وأجابت فيرا بقولها :

— أنا التي قيل لي كلام يسوءني ، ولم أقل لاحد شيئاً •
وأخذت أصوات ضاحكة تقول وراء الباب :
— مدام دو جنلي ! مدام دو جنلي !

فابتسمت فيرا الجميلة التي تحدث هذا الازعاج لجميع الناس ،
واقتربت من المرأة دون أن يبدو عليها أنها متأثرة مما قيل لها ، فرتّبت
شالها وشعرها ، وغدت أكثر برودة وأشدّ هدوءاً حين نظرت في المرأة
الى جمال وجهها •

وكان الحديث في الصالون يتتابع أثناء ذلك كله •
قالت الكوتنيسة :

— آه يا عزيزتي ، في حياتي أنا أيضاً ، ليس كل شيء وردا • ألسنت
أرى أننا بالسيرة التي نسيرها ستنفد ثروتنا بعد مدة غير طويلة !
والذنب في هذا كله هو ذنب النادي وذنب قلبه الطيب • حتى في الريف
لا نستريح • فهناك المسرحيات ، والصيد ، وما لا يعلمه الا الله أيضا •

ولكن علام أنكلم عن نفسي ؟ قولي : كيف دبرت أمرك • اني لادهش في كثير من الاحيان حين أراك يا آنت • كيف تستطيعين ، وأنت في هذه السن ، أن تجري هذا الجري وحيدة الى موسكو والى بطرسبرج ، بعربة البريد ، فتذهبي الى جميع الوزراء ، وتقابلي جميع الاشخاص البارزين ، وتتصرفي مع كل واحد بما يناسبه ؟ انني لمعجبة بك • قولي : كيف دبرت الامر ؟ يجب أن أعترف بأنني لا أحسن ما تحسنين •

فأجابت الاميرة آنا ميخائيلوفنا قائلة :

— آه يا عزيزتي ! أسأل الله ان لاتذوقي أبدا قسوة ترمل المرأة بغير سند ، مع ابن تحبه حب العبادة !

وتابعت كلامها تقول بشيء من الاعتزاز :

— ان الانسان مضطر أن يتعلم كل شيء • ولقد علمتني دعواي أمورا كثيرة • فحين احتاج الى لقاء أحد من أصحاب المراكز الخطيرة ، أكتب كلمة أقول فيها : « الاميرة فلانة تحب مقابلة فلان » ، ثم أركب عربة ، وأمضي اليه ، وأعيد الكرة مرتين أو ثلاثا أو أربعا الى أنه أنال ما أريد ، ولا يهمني ما قد يراه فيّ من رأي •

سألتها الكونتيسة :

— وكيف توسطت لابنك بوريس ، ومن ذا توسط له ؟ لقد أصبح ابنك ضابطا في الحرس ، على حين أن ابني نيقولا ما يزال مرشحا • ليس

له أحد يقوم بمساع من أجله • الى من توجهت بالرجاء ؟

— الى الامير فاسيلي • وقد كان لطيفا غاية اللطف ، فسرعان ماوافق على كل شيء ، وكلم الامبراطور في الامر •

بذلك أجابت الاميرة آنا ميخائيلوفنا في حماسة ، ناسية كل النسيان ألوان المذلة والهوان التي اضطرت أن تتجرعها لتحقيق غايتها • سألتها الكوتيسة :

— هل شاخ الامير فاسيلي ؟ انتي لم أره منذ أيام مسرحياتنا عند آل رومياتزيف • ويخيل اليّ أنه نسيني •

ثم أضافت تقول وهي تستحضر هذه الذكرى مبتسمة :

— كان يغازلني •

أجابت آنا ميخائيلوفنا قائلة :

— ما يزال على عهدك به لطيفا ودودا لم تذهب الامجاد بصوابه • لقد قال لي : « يؤسفني أنني لا أستطيع أن أفعل لك الا القليل القليل يا أميرتي العزيزة • ولكن مثيرني ! » • حقا انه لرجل شهيم وقريب ممتاز • لعلك تعرفين مدى حبي لابني ياناتاليا ، انني مستعدة لان أضحي بكل شيء في سبيل سعادته •

• ثم أضافت آنا ميخائيلوفنا تقول بحزن خافضة صوتها :

— ولكن أحوالي سيئة جدا ، حتى لقد بلغت من السوء أنني أصبحت

الآن في وضع رهيب حقاً . ان دعواي التعيسة تبتلع كل ما أملك ثم لا تتقدم خطوة واحدة . أصبحت لا أملك قرشاً ... أقول هذا وأنا أغنيه كلمة كلمة . فتخيّلي . لا أدري كيف يمكنني أن أجهز بوريس ! قالت ذلك واستلت منديلها وطفقت تبكي ، وتابعت حديثها قائلة :

— انني في حاجة الى خمسمائة روبل لا أملك منها الا ورقة بخمسة وعشرين . فأنا في وضع ... ان أُملي الوحيد الآن معقود على الكونت كيريل فلاديميروفتش بيزوخوف . فاذا لم يشأ أن يساعد ابنه بالمعمودية (ذلك أنه عرّاب بوريس) فيخصه بمرتب فان جميع المساعي التي قمت بها تكون قد ذهبت سدى : لانني لا أملك مايمكنني من تجهيز بوريس .

ذرفت الكونتيسة دموعاً وفكرت صامته .

واستطردت الاميرة تقول :

— أنتي أقول لنفسي في كثير من الاحيان ، ولعل ذلك ان يكون دائماً : هذا هو الكونت كيريل فلاديميروفتش يعيش وحيداً ... ويملك هذه الثروة الطائلة .. فلماذا يعيش ؟ لقد أصبحت الحياة عبئاً عليه ... في حين أن بوريس يستقبل الحياة ويبدؤها .

قالت الكونتيسة :

— لا بد أن يوصى له بشيء !

— لا يعلم هذا الا الله يا صديقتي العزيزة ! ان هؤلاء الاغنياء الذين يملكون ما كان يملكه قارون من أموال ، وهؤلاء السادة الكبار ،

أناس أنايون جدا • ولكنني سأذهب اليه الآن مع بوريس ، وسأحدثه
بحالنا حديثا صريحا • ليقولوا عني ما يشاءون ! حقا انني لا أكثرث لشيء
حين يكون الامر أمر مستقبل ابني •

ونهضت الاميرة وهي تقول :

— الساعة الآن هي الثانية ، وأنتم تتعشون في الرابعة • ففي وقتي
متسع للذهاب اليه •

وبسرعة امرأة بطرسبرجية عملية تعرف قيمة الوقت ، أرسلت
تستدعي ابنها بوريس ، فلما جاء خرجت الى الدهليز في صحبته ، وقالت
للكوتيسة التي شيعتها حتى الباب :

— أستودعك الله يا عزيزتي •

وأضافت تقول بدمدمة حتى لا يسمعها ابنها :

— ادعى لي بالتوفيق •

ووصل صوت الكونت من صالة الطعام يسألها :

— أأنت ذاهبة الى الكونت كيريل فلاديميروفتش يا عزيزتي ؟ ثم

لم يلبث أن جاء ينضم اليهم ، وأضاف يقول للاميرة :

— اذا كانت صحته قد تحسنت فادعى بطرس الى العشاء باسمي •

كان في الماضي يجيء الينا ، ويرقص مع الاولاد • ادعيه • حتما يا عزيزتي •

لقد وعدني تاراس بأن يتفوق اليوم على نفسه ، فسرى • قال ان

الكونت أورلوف نفسه لم يولم في حياته وليمة كوليمتنا في هذا المساء •

الفصل الثاني عشر

قالت الاميرة آنا ميخائيلوفنا لابنها حين قطعت عربة الكوتيسة روستوف التي ركبها الشارع المغطى بالقش ، وولجت الفناء الكبير من قصر الكونت كيريل فلاديميروفتش بيزوخوف ، قالت لابنها وهي تضع يدها على يده بحركة فيها خجل وعاطفة :

— عزيزي بوريس ، عزيزي بوريس ، كن لطيفا ، كن بشوشا ، كن مداريا ، ان الكونت كيريل فلاديميروفتش هو عرابك على كل حال ، وان مستقبلك مرهون به . تذكر هذا يا عزيزي ، وكن لطيفا كما تحسن ذلك .

فأجاب الابن ببرودة :

— لو كنت أعرف أن هذا كله سيثمر شيئا غير المذلة ... ولكنني وعدتك ، وسوف أفي بوعدتي طاعة لك . ورغم أن البواب السويسري رأهما ينزلان من عربة أسياذ ، فقد أخذ يتفرس في الام والابن (الذين لم يذكر له من هما ، ولم يطلب اليه أن يبلغ عنهما ، وانما دخلا رأسا الى الدهليز المغطى بالزجاج بين صفين من التماثيل القائمة في كواها) وألقى نظرة على ثياب الام العتيقة ، فسأل من يقصدان : الاميرات أم

الكونت • فلما عرف أنهما آتيان لزيارة الكونت قال ان صاحب السعادة قد ساءت اليوم صحته مزيدا من السوء ، وان صاحب السعادة لا يستقبل أحدا •

قال الابن بالفرنسية :

— يمكننا أن نتصرف •

فقات الام بصوت ضارع وهي تلمس يده مرة أخرى كأن هذا اللمس يستطيع أن يهدئه أو أن يحضه على طاعتها :

— صديقي !

فصمت بوريس ، وألقى على أمه نظرة استفهام ، ولم يخلع معطفه •
قالت آنا ميخائيلوفنا للسويسري بصوت رقيق :

— أنا أعلم يا صديقي الطيب أن الكونت كيريل فلاديميروفتش مريض جدا ••• ومن أجل هذا انما جئت ••• اتني قريته ••• لنأحدث أي ازعاج يا صديقي الطيب ••• كل ما أريده هو أن أرى الامير فاسيلي سرجيفتش : اتني أعلم أنه نزل هنا • فأبلغ عنا ، من فضلك •

فشد السويسري حبل الجرس عابسا وأشاح وجهه عنهما ، وصاح يقول لخدام يرتدي سترة رسمية وسروالا قصيرا ويتنعل خفين ، وكان هذا الخدام قد هرع الى فسحة السلم العليا حين سمع رنين الجرس ، ومال ينظر الى تحت :

— الاميرة دروبتسكوي ، لزيارة الامير فاسيلي سرجينتش •

رَبَّتْ الام ثنيات ثوبها المصنوع من حرير مصبوغ ، ونظرت في المرأة الكبيرة المعلقة بالحائط (وهي من المرايا التي تصنع في مدينة البندقية بايطاليا) ، وأخذت تصعد بحذاءيها المهترئين السلم المفروش بسجادة •

وعادت تقول لابنها مرة أخرى ، مشجعة اياه بلمسة من يدها :
— وعدتني يا عزيزي !

فكان الابن يتبعها هادئاً خافضاً عينيه •

ودخلا صالونا كبيرا يفضي باب منه الى الغرف المحجوزة للامير فاسيلي • وحين وصلت الام وابنها الى وسط الصالون ، وهرع انيهما خادم عجوز ، فهمت أن تسأله الام عن الطريق الذي يجب سلوكه ، تحركت قبضة البرونز في أحد الابواب ، ثم اذا بالباب ينفتح فيظهر الامير فاسيلي مرتديا ثيابا من الثياب التي تتردى في المنزل (سترة من مخمل محشو ، يزينها وسام واحد) ، ومعه فتى أسمر جميل كان الامير فاسيلي يشيِّعه • انه لوران ، طبيب بطرسبرج الشهير •

قال الامير فاسيلي يسأل الطبيب :

— التشخيص اذن ايجابي ؟

فأجابه الطبيب بمثل لاتيني مأثور ، لاثغا بالراء ، ناطقا الكلمات اللاتينية بالنبرة الفرنسية :

— من طبيعة الانسان أن يخطيء ، يا أمير (باللاتينية) •

— حسن ، حسن ...

فلما التفت الامير فاسيلي فلمح آنا ميخائيلوفنا وابنها ، ودع
الطبيب بانحناء ، وتقدم من الزائرين صامتا ، ولكن هيئته كانت تعبّر
عن معنى التساؤل والاستغراب •

ولاحظ الابن حزنا عميقا ينعكس في عيني أمه ، فابتسم ابتسامة
خفيفة • قالت الام تخاطب الامير فاسيلي ، وكأنها لم تلاحظ النظرة
الباردة الجارحة التي يلقيها عليها :

— يالها من ظروف حزينة هذه الظروف التي يتاح لنا أن نلتقي فيها
ثانية يا أمير ... كيف حال مريضنا الغالي ؟

فألقي عليها الامير فاسيلي نظرة تساؤل تشبه أن تكون نظرة دهشة
وحيرة ، ثم نقل بصره الى بوريس • فانحنى بوريس يحيه في أدب •
ولكن الامير لم يردّ على التحية ، وعاد يلتفت الى آنا بافلوفنا ، فيجيب
عن سؤالها بحركة من الرأس والشففتين تعني أن لا أمل للمريض في شفاء •
هتفت آنا ميخائيلوفنا تقول :

— أهذا ممكن ؟ آه ... شيء رهيب ... شيء فظيع !

ثم أضافت تقول وهي تشير الى ابنها :

— هذا ابني • لقد حرص على أن يشكر لك جميلك بنفسه •

وانحنى بوريس مرة أخرى يحيي الامير في أدب • وقالت أنا
ميخائيلوفنا :

— صدّق يا أمير أنه ما من قلب أم يمكن أن ينسى ما صنعت له •
— يسعدني أنني سررتك •

بذلك أجابها فاسيلي وهو يعدل صدرته ، ويصطنع ، أمام السيدة
التي هو حاميتها وراعيها ، يصطنع من المهابة وخطورة الشأن ، بالحركة
والصوت ، هنا بموسكو ، أكثر مما اصطنع من مثلها بيطرسبرج في
حفلة آنيث شيرر • وأضاف يخاطب بوريس ، قائلًا له بقسوة :

— حاول أن تقوم بواجبك خير قيام ، وأن تبرهن على جدارتك بما
وهب لك • سعيد بمعرفتك •

ثم قال يسأله بلهجة خشنة :

— أ أنت هنا في اجازة ؟

— بل انتظر الاوامر ، يا صاحب السعادة ، لالتحق بوظيفتي
الجديدة •

كذلك أجاب بوريس دون أن يظهر عليه أي غضب من لهجة الامير
الخشنة ، ولا أية رغبة في الحديث ، وانما قال ما قاله بهدوء كبير
واحترام عظيم ، فلم يسع الامير الا أن ينظر اليه باتباه واهتمام •

— هل تقيم عند أمك ؟

— بل عند الكوتيسة روستوف ...

وأضاف بوريس نداء التعظيم مرة أخرى : يا صاحب السعادة !

قالت آنا ميخائيلوفنا :

— يعني ايليا روستوف^(١) الذي تزوج ناتاليا شنشين •

فقال الامير فاسيلي بصوته الرتيب :

— أعرف ، أعرف • انني لم أستطع في يوم من الايام أن أتصور

كيف ارتضت أن تتزوج هذا الدب • انه شخص غبي كل الغباء ،

مضحك الى أبعد حد ، وهو فوق ذلك مقامر فيما يقال •

فعقبت آنا ميخائيلوفنا وهي تبتسم ابتسامة تحمل معنى العطف ،

وكأنها على علمها هي أيضا بأن الكونت روستوف يستحق ما وصف

به ، تلتبس الرأفة بالشيخ المسكين ، والعطف عليه ، ومراعاته :

— لكنه طيب جدا ، يا أمير •

وبعد لحظة صمت ، قالت الاميرة سائلة وقد ظهر في وجهها الذي

أضنته الدموع حزن عميق مرة أخرى :

— ماذا يقول الاطباء ؟

أجاب الامير بقوله :

— الامل ضعيف •

(١) تعكس هذه الشخصية صفات إيليا تولستوي ، جد الكاتب •

— كنت أحرص أشد الحرص على أن أشكر لعمي مرة أخيرة كل ما شملنا به أنا وبوريس من عطف •

وأضافت تقول :

— ان بوريس هو ابنه بالمعمودية •

كأنها كانت تظن أن هذا النبأ لا بد أن يبهج الامير فاسيلي أعظم البهجة •

ولكن الامير فاسيلي أطرق مفكرا ، وقطب حاجبيه • فأدركت أنا ميخائيلوفنا أنه يخشى أن يكون لها مطعم في ارث الكونت بيزوخوف • فأسرت تطمئنه • وقالت :

— اني لم أجيء الى هنا الا بدافع العاطفة والاخلاص «لعمي»...

قالت ذلك مشددة على كلمة «عمي» ، مسترسلة في الكلام بثقة وطلاقة واهمال • وتابعت كلامها تقول :

— انني أعرف طبعه الذي يتصف بالنبل والاستقامة ، وليس بقربه أحد الا الاميرات ، وهنَّ ما زلن صغيرات ...

ومالت برأسها وأضافت تقول بدمدمة خافتة :

. — هل قام بآخر واجباته يا أمير ؟ ما أثنى هذه اللحظات الاخيرة في حياة الانسان ؟ ليس شيء أخطر منها شأنًا • فيجب اعداده لها اذا كانت صحته متدهورة الى هذا الحد •

ثم أردفت تقول وهي تبتسم ابتسامة عذبة :

— نحن النساء نعرف دائما كيف نحسن التصرف في مثل هذه الحالة • فلا بد أن أراه ، مهما يكن هذا مؤلما لي • لقد تعودت الالم •

كان واضحا أن الامير أدرك ، كما أدرك ذلك في سهرة آنيت شيرر ، أن التخلص من آنا ميخائيلوفنا ليس أمرا سهلا • قال :

— أخاف أن يؤلمه هذا اللقاء يا آنا ميخائيلوفنا العزيزة • لنتنظر حتى المساء ، فان الاطباء يتوقعون حدوث نوبة •

— ولكن لا يجوز الانتظار حتى تلك اللحظات يا أمير • فكّر في الامر • ان خلاص نفسه رهن بهذا • آه ••• شيء رهيب ، واجبات انسان مسيحي •••

وانفتح باب احدى الغرف الخاصة ، وخرجت منه احدى الاميرات بنات أخت الكونت ، وهي فتاة عابسة الوجه متجهمة ، لها جذع يخطف البصر بفرط طوله قياسا الى ساقها •

التفت الامير فاسيلي صوبها ، وقال يسألها :

— هيه ، كيف حاله ؟

— لم يحدث أي تغير •

بذلك أجابت الاميرة ثم أردفت تقول وهي تنظر الى آنا ميخائيلوفنا نظرتها الى شخص تجهله :

— وكيف تريد أن تتحسن حاله مع هذه الضجة التي ...

فما كان من آنا ميخائيلوفنا الا أن هتفت تقول وهي تقبل على ابنة
أخت الكونت بإبتسامة سعيدة وخطو خفيف من :

— آ ... عزيزتي ... لم أتعرفك في الوهلة الاولى • لقد
وصلت منذ هنيهة ، وأنا أضع نفسي تحت تصرفكم لمساعدتكم في
العناية بعمي •

وأضافت تقول وهي تحرك عينيها مشفقة :

— انتي أتخيل مدى ما قاسيت من ألم •

لم تجب الاميرة بشيء ، حتى انها لم تبسم ، ولم تلبث أن خرجت •
ولكن آنا ميخائيلوفنا نضت قفازيها عن يديها ، وجلست على أحد
المقاعد جلستها في مكان تغزوه غزوا وتحتله احتلالا ، وأهابت بالامير
فاسيلي أن يجلس بقربها • وقالت لابنها وهي تبسم :

— بوريس ! أنا داخلة على الكونت ، عمي ، فاذهب أنت في أثناء
ذلك الى بطرس ، صديقي ، ولا تنس أن تبلغه الدعوة التي حملك
اياها روستوف • انهم يدعونه الى العشاء •

ثم قالت تسأل الامير :

— أظن أنه لن يذهب ، أليس كذلك ؟

فأجاب الامير فاسيلي ، وكان واضحا أنه الآن معتكر المزاج :

- بالعكس • سيسعدني كثيرا أن تخلصوني من هذا الفتى •
- انه لا يتحرك من هنا • ولم يطلبه الكونت مرة واحدة •
- قال ذلك وهو يرفع منكبيه • وتولى أحد الخدم انزال بوريس ،
- وقاده على سلم آخر الى بطرس كيريلوفتش^(١) •

(١) هو بطرس بيزوخوف ، ابن كيريل •

الفصل الثالث عشر

لم يتوصل بطرس الى اختيار طريق له في هذه الحياة ببطرسبرج ، وقد نفي فعلا الى موسكو بسبب سلوكه المعربد . ان القصة التي رويت عنه في منزل الكونت روستوف صحيحة ، فلقد شارك في ربط مفوض الشرطة بظهر الدب . وهو قد وصل الى موسكو منذ بضعة أيام ، ونزل في قصر أبيه على عادته دائما . ورغم افتراضه أن قصة بطرسبرج لا بد أن تكون قد عرفت في موسكو ، وأن البيئة النسوية التي تحيط بأبيه والتي لا تحمل له عاطفة طيبة لا بد أن تستغل هذه القصة لتستعدي أباه عليه ، فقد جاء الى جناح أبيه في المنزل يحاول أن يراه ، فدخل الصالون الذي اعتادت الاميرات أن تجلس فيه ، فرأى اثنتين منهن عاكفتين على نوليها تظرزان ، ورأى الثالثة مسترسلة في القراءة بصوت عال ، فحياهن . انهن ثلاث . فأما الكبرى فهي فتاة قاسية ، شديدة العناية بنفسها ، طويلة الجذع بالقياس الى الساقين . انها تلك الفتاة نفسها التي رأتها آنا ميخائيلوفنا . فهذه هي التي كانت تقرأ . وأما الاخريان الاصغر منها سنا ، فانهما لا تمتاز احدهما من الاخرى الا بشامة حسن فوق شفتها تجملها كثيرا ، فهاتان كانتا تظرزان . فلما دخل عليهن بطرس استقبل كما يستقبل شبح ميت أو كما يستقبل

رجل مصاب بالطاعون : قطعت كبرى الاميرات قراءتها ، وشخصت اليه صامته بعينين مرتاعتين ، وعبر وجه الثانية التي ليس لها شامة حسن فوق شفقتها ، عبر عن هذا الارتياح نفسه • وأما الصغرى ، التي كانت تجملها شامة الحسن ، وكانت ذا طبع ضاحك مرح ، فقد مالت على نولها لتخفي الابتسامة التي ارتسمت على شفقتها حين تصورت المشهد الذي سيلبي ذلك ، والذي لا بد أن يكون باعثا على الضحك ، وشدت خيطا من الصوف الذي تطرز به ، وانحنت كمن تريد أن تتحقق من صحة التطريز ، كابتحة ضحكها بكثير من المشقة والعناء •

قال بطرس :

— يومك سعيد يا ابنة خالتي • ألم تتعرفيني ؟

— تعرفتك جدا ، جدا جدا !

فسأل بطرس بخراقة ، على عادته ، ولكن بدون أن يضطرب :

— كيف حال الكونت ؟ هل أستطيع أن أراه ؟

— الكونت يعاني آلاما جسمية ونفسية • وأظن أنك مكلف بأن

تورثه مزيدا من الآلام النفسية !

فكرر بطرس سؤاله :

— هل أستطيع أن أرى الكونت ؟

— اذا أردت أن تقتله ، اذا أردت أن تجهز عليه اجهزا ، ففي وسعك

أن تراه • يا أولجا ، اذهبي الى المطبخ فانظري هل حساء خالنا مهيا !

قالت ذلك ثم أضافت تقول لتفهم بطرس أنهن منشغلات جدا ، وأنهن منشغلات بالتخفيف عن أبيه ، على حين أنه ، هو ، لا يهمه الا أن يزيد أباه تألما :

— ذلك أن على الكونت أن يشرب حساءه بعد قليل .

فخرجت أولجا . ولبث بطرس بضع لحظات ينظر الى الاخوات ، ثم قال وهو ينحني :

— اذن أذهب الى غرفتي . حتى اذا غدا في امكاني أن أراه أبلغتني ذلك .

وخرج ، فما كاد يغيب حتى انطلقت ضحكة البنت التي لها شامة حسن ، انطلقت مجلجلة رغم أنها مخنوقة .

ووصل الامير فاسيلي في الغد ، ونزل قصر الكونت . واستدعى بطرس وقال له :

— يا عزيزي ، اذا كانت سيرتك هنا كسيرتك بيطرسبرج فسوف تنتهي الى مصير سيء جدا . هذا كل ما أقوله لك .

وان الكونت مريض جدا ، فلا حاجة بك الى رؤيته اطلاقا .

ومنذ ذلك الحين ، ترك بطرس وشأنه ، فكان يقضي جميع أيامه وحيدا في غرفته فوق .

فلما دخل عليه بوريس ، كان يسير في الغرفة طولا وعرضا ، ويقف

في ركن من الاركان بين الفينة والفينة ، فيأخذ يحرك باشارات تهديد صوب الحائط ، كأنه يهاجم عدوا لا يرى ، ويلقي نظرات قاسية من تحت نظارتيه ثم يستأنف تجواله في الغرفة ناطقا بكلمات مبهمة ، رافعا منكبيه، مباعدا ذراعيه • قال وهو يقطب حاجبيه ويشير باصبعه الى أحد ما :

— لقد عاشت انجلترا • وحكم على مستر بيت^(١) ، من حيث هو خائن للامة ، متكرر لحقوق البشر ب •••

ولم يتسع وقته لاتمام النطق بالحكم الصادر على بيت ، معتقدا في تلك اللحظة بأنه هو نابوليون نفسه ، متخيلا أنه قد أتم مع بطله عبور مضيق كاليه ذلك العبور الخطر ، واحتلال لندن^(٢) ، بذلك أنه رأى ضابطا شابا ممشوق القامة يدخل عليه ، فأمسك عن الكلام ، ووقف حيث كان •

حين رى بطرس صاحبنا بوريس آخر مرة ، كان فتي في الرابعة عشرة من العمر ، فهو الآن لا يتذكره اطلاقا • ولكنه بما فطر عليه من

(١) وليم بيت الاصفر (١٧٥٩ - ١٨٠٦) ، رئيس وزراء انجلترا ، أنشأ ثلاث تكتلات ضد فرنسا ، وعقد في ٨ نيسان (ابريل) سنة ١٨٠٥ معاهدة تحالف مع روسيا التي اضطرت ان تدخل الحرب ضد نابوليون مقابل اعانة مالية قدرها خمسون مليون روبل •

(٢) فكر نابوليون ، سنة ١٨٠٤ وسنة ١٨٠٥ ، في غزو انجلترا جديا ، فحشد لذلك جيشا كبيرا في « بولوني على البحر » • ولكن اعلان روسيا الحرب اضطره الى توجيه ذلك الجيش الى النمسا ، وجاء الانتصار الذي حققه نلسون على الاسطول الفرنسي في ترافالجار يوم ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٨٠٥ ، فأودى بمشروع غزو انجلترا الى الابد •

بشاشة مد اليه يده مصافحا ، وابتسم له ابتسامة فيها مودة •

قال بوريس بهدوء وهو يبتسم ابتسامة لطيفة :

— هل تتذكرني ؟ لقد جئنا ، أنا وأمي ، لنرى الكونت ، ولكن أظن

أن صحته سيئة •

فأجاب بطرس وهو يحاول أن يتذكر من هو هذا الفتى :

— نعم ، أظن •

وشعر بوريس أن بطرس لم يتعرفه ، ولكنه لم يستحسن أن يذكر

له اسمه ، وكان ينظر اليه محققا في عينيه بدون أي ارتباك • ثم قال بعد

صمت طويل أربك بطرس :

— ان الكونت روستوف يرجو أن تأتي الى منزله للعشاء هذا اليوم •

فقال بطرس فرحا جذلا :

— آ آ •• الكونت روستوف ! أنت اذن ابنه ايليا ! تصور أنني لم

أعرفك في الوهلة الاولى • هل تتذكر روحاتنا الى « جبال العصافير »^(١)

مع مدام جاكو ••• منذ مدة طويلة ؟

فقال بوريس بدون تعجل وهو يبتسم ابتسامة جسورا لا تخلو من

بعض السخرية :

(١) تلال في جنوب غرب موسكو ، كانت متنزها للمتزهين وتسمى الآن

« جبال لينين » .

— انك تخطيء • أنا بوريس ابن الاميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي •
وروستوف الاب هو الذي يسمى ايليا ، أما ابنه فاسمه نيقولا • وأنا
لم أعرف مدام جاكو •••

فحرك بطرس يديه، وهز رأسه ، كمن هاجمته أسراب بعوض ونحل •
— أوه ! ماذا دهاني ؟ انني أخلط الامور بعضها ببعض : أقربائي في
موسكو كثيرون ! أنت اذن بوريس • حسن • اتفقنا • قل لي : ما رأيك
في حملة بولوني ؟ ستسوء حال الانجليز اذا قطع نابوليون بحر المانش ؟
انني اعتقد بأن هذه الحملة ممكنة جدا • اللهم الا أن يرتكب فيلنوف^(١)
حماقة من الحماقات ! •••

كان بوريس يجهل كل شيء عن حملة بولوني ، فهو لا يقرأ الصحف ،
وهو يسمع الآن عن فيلنوف لأول مرة • قال بلهجته الهادئة الساخرة :

— نحن هنا في موسكو نهتم بحفلات العشاء وبالنمائم والاقاويل أكثر
من اهتمامنا بالسياسة • فلست أعرف شيئا عن هذا كله ، وليس لي فيه
رأي • ان الشائعات هي ما يهم موسكو خاصة • وفي هذا الوقت يتكلم
الناس عنك وعن الكوفت •

ابتسم بطرس ابتسامته الطيبة المعهودة فيه ، وكان كمن يخشى أن

(٢) الاميرال بير دو فيلنوف (١٧٦٣-١٨٠٦) قائد الاسطول الفرنسي •
انتحر بعد هزيمة ترافالجار •

يقول محدثه شيئا قد يندم عليه بعد ذلك • ولكن بوريس كان يطلق كلماته واضحة متميزة جافة وهو يحرق الى عيني بطرس • وتابع كلامه يقول :

— نعم ، ان اهل موسكو لا يحسنون شيئا غير النائم والاقاويل • جميع الناس يتساءلون الآن عن ستمول اليهم ثروة الكونت ، رغم أن من الجائز أن يدفننا جميعا ، وهذا ما أتمناه له بكل قلبي • وعاد بطرس يتكلم فقال :

— نعم ، ذلك كله مؤلم ، مؤلم جدا • كان لا يزال يخشى أن يندفع هذا الضابط في حديث شائك • قال بوريس وقد احمر وجهه قليلا ، ولكن دون أن يتغير صوته أو أن تتغير هيئته :

— ثق أنهم جميعا لا يفكرون الا في الحصول على شيء من قارون • قال بطرس لنفسه : « ها قد وصلنا » • وتابع بوريس كلامه فقال : — أنتي أحرص حرصا شديدا على أن أقول لك ، دفعا لكل التباس ، انك تخطيء أكبر الخطأ اذا أنت جعلتنا أنا وأمي في عداد هؤلاء الناس • صحيح أننا فقراء جدا ، ولكنني أعلن لك ، فيما يتعلق بي أنا على الاقل ، اني لا أعد نفسي واحدا من أقربائه ، وأنا لن نسأله شيئا بحال من الاحوال ، لا أنا ولا أمي ، ولن نقبل منه شيئا •

لبث بطرس مدة طويلة لا يفهم ، ولكنه حين فهم وثب عن الديوان

فجأة ، وأمسك ذراع بوريس بما عهد فيه من انطلاق على السجية ومن خراقة ، واصطبغ وجهه بحمرة أشد كثيرا من حمرة وجه بوريس ، وقال بعاطفة هي مزيج من الخجل والغضب :

— شيء غريب ! هل أنا ... ومن ذا الذي أمكن أن يظن أن ...
انتي أعرف حق المعرفة ...

ولكن بوريس قاطعه مرة أخرى قائلا :

— يسه ني أنني قلت لك كل شيء •

وأضاف يقول ليطمئن بطرس بدلا من أن يطمئنه بطرس :

— لعل ما قلته لك قد ساءك قليلا ، فمعدرة • ولكنني أرجو أن ألا أكون جرحتك • ان المبدأ الذي ألتزمه هو أن أقول كل شيء بصراحة •
والآن قل لي : بماذا يجب أن أجيب ؟ هل تأتي الى روستوف للعشاء ؟
وبعد أن تخفف بوريس هذا التخفف من عبء ثقيل ، وتخلص من موقف حرج بوضع غيره في هذا الموقف الحرج ، استرد طلاقته وحلاوة سلوكه •

قال بطرس وقد أخذ يهدأ شيئا بعد شيء :

— اسمع • انك مذهش • ان ما قلته الآن حسن جدا ، حسن جدا •
أنت لا تعرفني طبعا • فنحن لم نلتق منذ مدة طويلة ... وكنا في ذلك
الاولان أطفالا • فمن حقك أن تظن أنني ... أنا أفهمك ، أفهمك كل الفهم •

ما كنت لأستطيع أنا أن أتصرف هذا التصرف ، ما كنت لاجرؤ أن
أتصرف هذا التصرف • ولكن ما فعلته حسن جدا • انني لسعيد جدا
بمعرفتك •

وأضاف يقول بعد صمت وهو يتسم :

— شيء غريب هذا الذي تصورت أنني افترضه !

ثم أضاف يقول وقد أخذ يضحك :

— ولكن لا بأس • سنتعارف تعارفا أكمل • أرجوك أن تتيح لي
هذه الفرصة •

وشد على يد بوريس • وتابع كلامه فقال :

— هل تعلم أنني لم أر الكونت حتى الآن ؟ انه لم يستدعني •••

وأنا حزين عليه حزنا شديدا • ولكن ما حيلتنا ؟

سأله بوريس مبتسما :

— أعتقد اذن ان نابليون سيستطيع أن يقطع بجيشه بحر المانش ؟

فأدرك بطرس أن بوريس يريد تغيير الحديث ، وارتضى ذلك ،
وأخذ يشرح ما في مشروع بولوني من حسنات وسيئات ، من مزايا
وعيوب •

وجاء خادم يدعو بوريس الى الاميرة أمه التي تطلبه • ووعد بطرس
بأن يجيء الى العشاء ليزداد معرفة ببوريس ، وصافحه مفاعحة قوية وهو
يحدق الى عينيه من خلال نظارتيه بنظرة تفيض مودة وصداقة •

وبعد أن انصرف بورييس ظل بطرس يتجول في الغرفة مدة طويلة ،
ولكنه لا يهاجم الآن عدوا لا يرى ، وانما هو يتسمم لذكرى هذا الشاب
الفاتن الذكي الصلب •

وكما يحدث للمرء في عهد شبابه الاول ، ولا سيما حين يعيش حياة
منعزلة ، شعر بطرس نحو هذا الشاب بعاطفة ليس لها سبب ظاهر ، وآلى
على نفسه أن لا يفوته عقد أواصر الصداقة بينه وبينه •

شيّع الأمير فاسيلي الاميرة آنا ميخائيلوفنا • وكانت الاميرة مسكة
منديلها أمام عينيها ، وكان وجهها مبللا بالدموع •

قالت :

— شيء رهيب ! شيء رهيب ! ولكن سوف أقوم بواجبي مهما
يكلفني ذلك من مشقة • سوف أجيء فأسهر عليه • لا يمكن تركه
وهو على هذه الحال • ان كل لحظة لهي ثمينة • لا أدري ماذا تنتظر
الاميرات • عسى الله أن يعينني في إيجاد السبيل الى تهيته ! استودعك
الله يا أمير ، كان الله في عونك ...

وقالت الام لابنها وهما يركبان العربى :

— انه في حالة رهيب ، فظيعة • انه لا يكاد يتعرف أحدا • فسألها
الابن :

— انني لا أعرف ما علاقته بابنه يا أمي •

فأجابت الام :

— ستطلعنا الوصية على كل شيء يا صديقي • وان مصيرنا نحن
رهن بها أيضا •••

— ولكن لماذا تعتقدن أنه سيوصي لنا بشيء ؟ •••

— يا صديقي ، انه ثري ثراء طائلا ، ونحن فقراء فقرا مدقعا •••

— ليس هذا سببا كافيا يا أمي •

— آه ••• رباه ! ما أشد تدهور صحته !

الفصل الرابع عشر

بعد أن ذهبت أنا ميخائيلوفنا مع ابنها الى الكونت كيريل فلاديميروفتش بيزوخوف ، خلت الكونتيسة روستوف الى نفسها مدة طويلة ، واضعة منديلها على عينيها • وأخيرا رتت الجرس ، فلما جاءتها الخادمة متأخرة بعض التأخر ، قالت لها في حنق وسخط مخاطبة اياها بصيغة الجمع

— أين أنت يا عزيزتي ؟ ألا تريدين أن عملي ؟ اذا كنت لا تريدين أن عملي ففي وسعي أن أجد لك مكانا آخر •

وانما خاطبت الكونتيسة خادمتها بقولها « يا عزيزتي » ، واستعملت في مخاطبتها صيغة الجمع ، لأنها كانت معتكرة المزاج • أما اعتكار مزاجها فمرده الى ما عرفته عن صديقتها أنا ميخائيلوفنا من حالة الحزن الشديد والفقر المذل التي تعانينا •

قالت الخادمة :

— أعتذر لسيدتي •

— اذهبي الى الكونت وارجيه أن يجيء اليّ •

أقبل الكونت على امرأته مترنحا ، وقد عبر وجهه عن شيء من معنى ارتكاب الذنب ، على عادته دائما ، وقال :

— آ ... عزيزتي الكونتيسة ما ألدَّ الدجاج المحمَّر مع خمرة
مادير ، الذي سيكون على مائدتنا في هذا المساء يا عزيزتي ! لقد ذقته .
ان الالف روبل التي دفعتها ثمن تاراسكا لا تضعي سدى . انه يستحقها !
قال الكونت ذلك وجلس بقرب امرأته واضعا كوعيه على ركبتيه
بافتخار وقد تشعث شعره الرمادي ، ثم سأل الكونتيسة قائلاً :

— ماذا تريدن يا عزيزتي الكونتيسة الغالية ؟

— اسمع يا صديقي ... ولكن ما هذه البقعة ؟

سألته هذا السؤال وهي تريه بقعة على صديرتة . وأردفت تقول
مبتسمة :

— لا شك أنها من مرق الدجاج ! طيب ... اسمع يا كونت ، انني
في حاجة الى شيء من المال .
وبدا في وجهها حزن .

— آ ... عزيزتي الكونتيسة اللطيفة ! ...

وتحرك الكونت باحثاً عن محفظة نقوده . فقالت له الكونتيسة :

— انني محتاجة الى مبلغ كبير يا كونت ، الى خمسمائة روبل .
وتناولت منديلها المصنوع من قماش الباتيسة ، فأخذت تحك به صديرة

(١) كان من الممكن في ذلك الزمان شراء خدم اقنان من سادتهم . وتاراسكا
هو رئيس طهارة الكونت روستوف .

زوجها لازالة البقعة عنه • قال الكونت :

— حالا ! حالا !

وصاح مناديا بصوت هو صوت الواثقين بأن الناس سيهرعون ملين
النداء :

— هيه ! هل هنا أحد ؟ أرسلوا اليّ ميتنكا !

ودخل ميتنكا ، وهو ابن أسرة نبيلة تربى في منزل الكونت وأصبح
الآن يدير جميع أعماله ، دخل بخطو خفيف ليس له وقع ، فقال الكونت
للشاب المحترم :

— اسمع يا عزيزي • جئني بـ ...

وفكر لحظة ، ثم أضاف :

— نعم،جئني بسبعمائة روبل ، نعم ... واتبه ! لا أريد أوراقا ممزقة
متسخة كالتي جئتي بها آخر مرة..وانما أريدها جديدة،فهي للكوتيسة
قالت الكوتيسة وهي تنهد تنهدا حزينا :

— نعم يا ميتنكا ! لتكن أوراقا نظيفة •

قال ميتنكا يسأل :

— متى تريدها يا صاحب السعادة ؟ انك تعلم يا صاحب السعادة
أن...

لكنه وقد رأى أن الكونت أخذ يتنفس تنفسا سريعا شاقا ، وهذا
عنده علامة غضب وشيك ، استدرك يقول :

— آ... نسيت • هل تريدها فوراً ؟

— نعم ، نعم ، أريدها فوراً • انت بها وأعطها الكوتيسة •

وحين خرج الشاب أضاف الكونت يقول مبتسماً :

— ياله من كنز ميتنكا هذا ! لا شيء مستحيل ! أنا أكره أن يكون

شيء مستحيلاً • كل شيء ممكن •

قالت الكوتيسة :

— آه من المال يا كونت ! آه من المال كم يورث الناس في هذا العالم

من حزن ! لو علمت مدى حاجتي الى هذا المبلغ ...

فقال الكونت :

— انفاقك الكثير أمر معروف يا عزيزتي الكوتيسة •

ثم قبّل يد امرأته ، وعاد الى حجرة مكتبه •

فلما عادت آنا ميخائيلوفنا من عند ييزوخوف ، كان المبلغ قد أصبح

في حوزة الكوتيسة أوراقاً نقدية جديدة ، وضعتها على منضدة تحت

منديلها • وقد لاحظت آنا ميخائيلوفنا أنها نائرة الاعصاب •

سألها الكوتيسة :

— فماذا يا صديقتي ؟

— انه في حالة رهيبية ! يراه المرء فينكره ولا يعرفه • تدهورت صحته

تدهورا فظيعا ، فظيعا ... لم أبق معه الا لحظة ، ولم أستطع أن أقول
كلمتين ...

قالت الكوتتيسة فجأة وقد اصطبغت بحمرة شديدة تتعارض مع
وجهها النحيل الرصين الذي زايله كل أثر من آثار الشباب :

— آنيت ! لا ترفضى ، نا شدتك الله !

واستلت المبلغ من تحت المنديل ومدته اليها •

كانت آنا ميخائيلوفنا قد أدركت الامر على الفور ، ومالت على
الكوتتيسة لتحضنها في اللحظة المناسبة احتضانا لبقا •

قالت الكوتتيسة :

— هذا مني لبوريس ، من أجل بزه الرسمية ...

كانت آنا ميخائيلوفنا قد احتضنت الكوتتيسة بذراعيها ، وأخذت
تبكي • وبكت الكوتتيسة أيضا • بكتا لانهما طيبتان ، ولانهما ، وهما
صديقتا طفولة ، قد اضطرهما الدهر الى الاهتمام بأمر تافه هذه التفاهة
هو أمر المال ، ولان شبابهما قد ولّى ... ولكن دموعهما كليهما كانت
عذبة ... •

الفصل الخامس عشر

كانت الكونتيسة روستوف واقفة في الصالون مع بناتها وضيوف كثيرين منذ الآن • وكان الكونت قد مضى بالرجال الى حجرة مكتبه يضع تحت تصرفهم مجموعة غلايينه التركية التي تسمى باسم «شُبُق» • وكان يخرج من حين الى حين فيسأل عن الشخص المنتظر ألم يصل بعده • كان ينتظر وصول ماريا ديمتريفنا آخروسيموفا^(١) ، التي خلع عليها المجتمع الراقي لقب « التتّين الرهيب » ، وهي سيدة ذائعة الصيت لم تشتهر بثروتها ولا بأمجادها ، وانما اشتهرت بما يتصف به فكرها من استقامة ، وما تتسم به أساليبها من بساطة صريحة • حتى لقد كانت تعرفها الاسرة الامبراطورية، وكانت تعرفها موسكو كلها وبطرسبرج كلها، وكانت المدينتان على اعجابهما بها تتندران على خشوتتها خفية وترويان نكات عنها ، ولكن هذا لا ينفي أن الناس جميعا كانوا يحترمونها ويخشونها •

(١) ان شخصية ماريا ديمتريفنا آخروسيموفا هذه تعكس صفات ماريا ديمتريفنا آفروسيموفا ، السيدة التي اشتهرت كثيرا في موسكو بطبعها الخشن ورايها المستقل ؛ وقد استوحاها جربويدوف حين صور شخصية ماريا خلستوف في مسرحية « كثير من الفكر ضرر » (١٨٢٣) •

ان الرجال الذين يجتمعون الآن في غرفة المكتب يتحدثون عن الحرب التي تمّ اعلانها منذ قليل في بيان ، ويتكلمون عن التجنيد • لم يكن أحد قد قرأ البيان بعد ، ولكنهم جميعا يعرفون أنه صدر •

الكونت جالس على كنبه ، والى جانبيه مدخّنان يتحدثان • كان الكونت لا يدخن هو نفسه ولا يتكلم ، ولكنه يميل برأسه تارة الى يمين وتارة الى شمال ناظرا الى الرجلين المدخنين ، مغتبطا بذلك اغتباطا واضحا ، مصفيا الى الحديث الذي يدور بين جاريه ، والذي حرّضهما هو عليه ، وورطهما فيه •

ان أحد المتحادثين مدني له وجه نحيل متغضن أجرد صفراوي ، قد دلف الى الشيخوخة ولكنه يرتدي ثيابا لا يرتدي مثلها الا أكثر الشباب عناية بحسن الهندام وجمال الاناقة • كان جالسا على الكنبه وقد جعل ساقيه تحته كما يفعل شخص من رواد المنزل الذين يترددون اليه كثيرا فكأنهم من أهله ، وكان قد أغطس غليونه المصنوع من خشب العنبر عميقا في طرف من فمه ، وأخذ ينشق دخانه نشقا متقطعا وهو يفضّض عينيّه • انه شنشين^(١) ، ابن عم الكونتيسة ، وهو عازب مسن كان يوصف في صالونات موسكو بأنه سليط اللسان • وكان يبدو عليه أنه يتواضع اذ ينزل الى محدثه ويكلمه • أما محدثه فهو ضابط من

(١) شخصية من صنع خيال المؤلف جعل لها اسما على غرار اسم الاسرة النبيلة شانشين التي ينتمي اليها الشاعر فيت ، صديق ليون تولستوي •

الحرس نضر الهيئة ، متورد الوجه ، شديد العناية بهندامه ، متمنطق بحزام ، معتمر بقلنسوة ، كان مطبقا على غليونه في وسط فمه الجميل ، ينشق دخانه نشقا خفيفا ثم ينفضه من بين شفثيه المتوردتين دوائر دوائر . انه الليوتنان برج ، من فوج سيمينوفسكي الذي سيرافقه بوريس للالتحاق بفوجه ، والذي كانت ناتاشا تغيظ بذكره فيرا كبرى بنات الكوتيسية ، وتسميه خطيها . ان الكونت جالس بين الرجلين يصغي الى حديثهما بانتباه . ان أحب المشاغل الى قلب الكونت ، باستثناء لعب البوستون الذي كان يهواه هوى شديدا ، هو أن يصغي الى مناقشة بين شخصين، ولاسيما اذا كان هو الذي حرضهما عليها وورطهما فيها ، فأوقع بينهما .

قال شنشين مبتسما وهو يمزج بين أكثر التعابير الروسية شعبية ، وارقي العبارات الفرنسية تخيرا (وتلك هي الخاصة التي تتميز بها لغته) ، قال :

— فأنت اذن يا عزيزي ، يا ألفونس كارلتش المحترم جدا تنوي أن تقرض الدولة بفائدة ، وأن تحصل على ايراد من سريتك ؟

— لا يا بطرس نيقولايفتش ، وانما أنا أحرص على أن أبيض أن سلاح المشاة أعود على المرء بالنفع من سلاح الفرسان . انظر الآن الى حالتي أنا يا بطرس نيقولايفتش ...

كان ييرج يتكلم دائما بدقة شديدة ، وهدوء كبير ، وأدب جم .

ولكنه كان لا يتكلم الا عن نفسه ، فمتى كان موضوع الحديث لا يتعلق به بشخصه صمت هادئا لا ينطق بحرف ، واستطاع أن يظل صامتا هذا الصمت ساعات طوالا لا يشعر بأي ضيق ، ولا يسبب لغيرة أيّ ضيق أيضا • حتى اذا عاد الحديث يدور على شخصه راح يتكلم باسهاب كبير ولذة واضحة •

— انظر في وضعي يا بطرس نيقولايفتش : لو كنت في الفرسان ، لما قبضت الا مائتي روبل كل ثلاثة أشهر ، حتى وأنا في رتبة ليوتنان • أما الآن فأنا أقبض مائتين وثلاثين •

كذلك قال برج وهو يتسم ابتسامة فرحة لطيفة ، وينظر الى شنشين والى الكونت نظرة من يعتقد بداهة أن ما سيحققه من ضروب النجاح سيظل هو الفرض الرئيسي الذي تنصب عليه تمنياتهم • وتابع كلامه فقال :

— وعدا ذلك يا بطرس نيقولايفتش ، فاتني بانتقالي الى الحرس أصبح مرموقا ، كما أن الترقية في الحرس المشاة أسرع كثيرا • ثم احكم في الامر بنفسك : كيف استطعت أن أدبّر شئوني بمائتين وثلاثين روبلا • انني أدّخر بعضه بل وأبعث بشيء منه الى أبي •

بهذا ختم برج كلامه ونفث دائرة من دخان •

قال شنشين وهو ينقل طرف غليونه المصنوع من خشب العنبر بين شفتيه ، ويفمز الكونت بعينه :

— ميزان سليم ••• الالماني يصنع سهما من أي خشب كما يقول
المثل •

انطلق الكونت يضحك • وحين رأى مدعوون آخرون أن شنشين
يقود المحادثة أقبلوا يصغون • ولم يلاحظ برج سخرية المستمعين ولا قلة
اكترائهم ، فتابع كلامه شارحا أنه بفضل انتقاله الى الحرس قد نال
رتبة أعلى من رتب رفاقه في المدرسة الحربية ، فاذا اتفق أثناء الحرب
أن قتل قائد سرية يمكنه بسهولة ، وقد غدا أعلى أفراد السرية رتبة ،
أن يستلم قيادة السرية ، وذكر أن الجميع في فوجه يحبونه كثيرا ، وأن
أباه راض عنه أكبر الرضى •

كان واضحا أن برج متلذذ تلذذا عظيما برواية هذه الامور كلها ،
وأنه لا يخطر بباله أن هناك آخرين قد تكون لهم شئون غير شئونه
يهتمون بها • ولكن لهجته في كل ما قاله كانت لطيفة جدا ، وكانت
معتدلة جدا ، وكانت سذاجة أفانيته الشابة واضحة كل الوضوح ،
وذلك كله قد أسقط في يد سامعيه •

وقال له شنشين وهو يربت على كتفه ، وينزل قدميه من تحته
الى الارض :

— هلمَّ يا عزيزي ، لسوف تشق طريقك وتصيب النجاح سواء
أكنت في المشاة أم كنت في الفرسان •
فابتسم برج ابتسامة فرحة • وانتقل الكونت الى الصالون يتبعه
سائر المدعوين •

كان الوقت هو تلك اللحظة التي تسبق الدخول الى غرفة الطعام ، فالضيوف في هذه اللحظة لا يشرعون في أحاديث طويلة ، وانما هم ينتظرون الدعوة الى المائدة ، محاذرين مع ذلك أن يصمتوا ، حتى لا يظن فيهم أنهم يتعجلون الهجوم على « الزاكوسكى »^(١) وكان أهل الدار يلقون نظرات الى الباب من حين الى حين ويتغامزون . وكان الضيوف يحاولون أن يحزروا من رصد تلك النظرات بالذي ينتظره اصحاب البيت : اهم ينتظرون قريبا ذا شأن خطير تأخر وصوله ، أم هم ينتظرون أن يفرغ الخدم من اعداد المائدة .

وقد وصل بطرس قبيل العشاء ببرهة قصيرة ، وجلس بحركات خرقاء على أول مقعد صادفه في وسط الصالون ، فكان جلوسه هناك يسد الطريق أمام الجميع . وأرادت الاميرة أن تكلمه ، ولكنه كان ينظر فيما حوله من خلال نظارتيه بسذاجة كبيرة كأنه يبحث عن أحد ، فكان لا يجيب عن جميع أسئلتها الا بأنصاف كلمات . وقد أحدث وجوده حرجا عاما كان هو الشخص الوحيد الذي لم يلاحظه . ان أكثر المدعوين الذين كانوا على علم بما فعله بالدب ومفوض الشرطة كانوا ينظرون الى الفتى الضخم الهاديء الطيب مستطلعين مستغربين ، ويتساءلون كيف أمكن أن يدبّر هذا الغبي مكيدة كالمكيدة التي دبّرّها لمفوض الشرطة .

(١) الزاكوسكي مقبلات متنوعة توضع وافرة على مائدة مستقلة .

سألته الكوتيسية :

— هل وصلت الآن ؟

فأجابها وهو ينظر فيما حوله :

— نعم سيدتي •

— ألم تر زوجي ؟

— لا يا سيدتي •

وابتسم ابتسامة ليس لها مناسبة على حين فجأة •

— أظن أنك ذهبت في الآونة الاخيرة الى باريس ، فلا بد أن الرحلة

كانت شائعة جدا :

— شائعة جدا •

وتبادلت الكوتيسية وأنا ميخائيلوفنا نظرة سريعة • فأدركت أنا

ميخائيلوفنا أن الكوتيسية تطلب منها أن تهتم بالفتى ، فجلست بقربه

وأخذت تكلمه عن أيه • ولكنه كان لا يجيبها الا بأنصاف كلمات ،

كما كان يجيب الكوتيسية • وشغل المدعوون بعضهم ببعض • فكانت

تسمع كلمات متقطعة صادرة من كل جهة :

— آل رازوموفسكي ••• كان ذلك رائعا ••• انك طيبة جدا •••

وقامت الكوتيسية ومضت الى قاعة حفلات الرقص • وسمع صوتها

يهتف هناك سائلا :

— ماريا ديمتريننا ؟

وسمع الجواب عن سؤالها صوتا خشنا هو صوت امرأة تقول :

— هي بعينها !

وما انقضت لحظة حتى كانت ماريا ديمتريننا تدخل هي نفسها •

نهضت جميع الفتيات، وحتى السيدات، الا الطاعنات في السن منهن •
ووقفت ماريا ديمتريننا قريبة من الباب ، جالت على الحشد بنظرة شاملة
من أعلى جسمها الضخم ، شامخة برأسها الذي تغطيه خصلات شعرها
الرمادي ، مادة يدها في الوقت نفسه بغير تعجل لترتب كمّي فستانها
العريضين وكأنها تريد أن تشرها •

ان ماريا ديمتريننا تتكلم بالروسية دائما • وها هي تقول بصوتها
الضخم الذي طغى على جميع الضجات الاخرى :

— عيد سعيد لربة الدار وأولادها •

ثم أضافت تقول متجهة بكلامها الى الكونت الذي كان يقبل يدها:

— وأنت أيها الآثم الكبير ، لا بد أنك تشعر في موسكو بضجر
وسأم ، أليس كذلك ؟ لا سبيل هنا الى كلاب تركضها • ولكن ما حيلتنا
يا عزيزي ؟ حين تكبر هاته الصغيرات (قالت ذلك وهي توميء الى
البنات) فلا بد لنا ، شئنا أم أيينا ، أن نبث لهن عن يخطبونهن •

ثم قالت وهي تلاطف بيدها ناتاشا التي اقتربت منها مرحة دون
تهيب لتقبل يدها :

— هيه ! كيف حال القوزاقي ؟ (كانت ماريا دمترينا تلعب ناتاشا بالقوزاقي) • أنا أعلم أنها بنت شيطانة ، ولكنها تعجبني !

وأخرجت من حقيبة يدها — وهي حقيبة كبيرة — أخرجت قرطين للاذنين من الزرجد في شكل اجاصتين ، ومدتهما الى ناتاشا التي احمر وجهها وأشرق كما يحسن أن يحمر وأن يشرق في يوم عيدها •

ولم تلبث ماريا دمترينا أن أشاحت عن ناتاشا ، واتجهت بالكلام الى بطرس ، فقالت له بصوت يصطنع الرقة والعدوبة اصطناعا كاذبا :

— ها ••• عزيزي ! تعال قليلا الى هنا • تعال الى هنا يا عزيزي !•••

وشمرت كعبيها مزيذا من الشر ، وعبر وجهها عن التهديد والوعيد •

اقبل عليها بطرس وهو يشخص اليها ببصره من خلال نظارتيه في كثير

من السذاجة •

قالت له :

— اقرب ، اقرب يا عزيزي • لقد كنت أنا الانسانة الوحيدة التي

كلّمت أبالك عن حقيقته أيام كان ذا قوة وبأس ، وان الله نفسه ليأمرني

بأن أصارحك أنت غير متحرجة •

وأمسكت عن الكلام لحظة ، وصمت الجميع ينتظرون التتمة شاعرين

أن ذلك لم يكن الا تمهيدا • ثم استطردت تقول :

— جميل ، لا شك أنه جميل ! فتى جميل ! هذا أمر لا يستطيع أحد

أن يجحده ! ... أبوه تحضره الوفاة وهو يلهو ويتسلى : يوثق دبا
ودركيا ويرميها في الماء • هذا عار يا عزيزي ! عار ! أليس أولى بك
أن تذهب الى الحرب ؟

قالت ذلك ، وأشاحت وجهها عن الفتى ، ومدت ذراعها الى الكونت
الذي كان لا يستطيع أن يكظم ضحكه الا في كثير من العناء ... وهاهي
ذي تقول :

— طيب ! أظن أنه آن أوان الجلوس الى المائدة •

افتتح الكونت وماريا دمتريفنا المسيرة • وتبعتهما الكونتيسة وقد
تأبط ذراعها كولونيل الفرسان ، وهو رجل مفيد سيلتحق نيقولا بفوجه
في صحبته ، وكان شنشين متأبطا ذراع آنا ميخائيلوفنا • وقدّم برج
ذراعه الى فيرا • ومشت جوليا كاراجين الى المائدة مع نيقولا مبتسمة •
وتتالى المدعون الآخرون زوجين زوجين على طول الصالة كلها ، واختتمت
المسيرة بدخول الاولاد والمعلمين والمربيات ، واحدا واحدا • وهرع
الخدم • وعلت ضجة الكراسي وهي تقترب من المائدة • وفي الشرفة
اخذت الاركسترا الخاصة بالكونت تعزف • وجلس الضيوف • وأعقبت
ألحان الموسيقى قرعة السكاكين والشوكات ، وجلبة المحادثات ،
وخطوات الخدم يسرون بغير ضجة • وقد احتلت الكونتيسة الطرف
الاقصى من المائدة • وجلست على يمينها ماريا دمتريفنا ، وعلى يسارها
آنا ميخائيلوفنا والسيدات الاخريات • واحتل الكونت الطرف الآخر

من المائدة ، فكان على يمينه كولونيل الفرسان ، وعلى يساره شنشين وسائر المدعوين الرجال . وفي جهة من المائدة الطويلة كان يجلس الشبان: فيرا الى جانب برج ، وبطرس الى جانب بوريس ، وفي الجهة الاخرى جلس الاولاد والمعلمون والمرييات . وكان الكونت ينظر الى امرأته وقبعتها العالية ذات الاشرطة الزرقاء ، ينظر اليها من خلال أواني الكريستال وقناني الخمرة ولال الفاكهة ، ولا ينفك يسكب لجيرانه ما يشربونه ، ولا ينسى أن يسكب لنفسه أيضا . وكانت الكونتيسة ، من جهتها ، تلقي، من وراء ثمار الانافاس ، نظرات ذات دلالة على زوجها الذي كانت جمجمته ووجهه الاحمران يطغيان على شعره الابيض مزيدا من الطغيان شيئا بعد شيء ؛ تفعل ذلك دون أن تسهو عن القيام بواجباتها نحو من يحطن بها من الضيف طبعاً . وكانت ثرثرة تجري متصلة رتيبة في جهة السيدات . أما في جهة الرجال فكانت الاصوات تعلو ثم تعلو ، ولا سيما صوت كولونيل الفرسان الذي كان يزداد احمرارا ويأكل ويشرب كثيرا ، حتى ان الكونت كان يرجو المدعوين الآخرين أن يقتدوا به . وكان برج يقول لفيرا وهو يتسم ابتسامة رقيقة ان الحب عاطفة سماوية وليس عاطفة أرضية . وكان بوريس يسمي المدعوين لصديقه الجديد بطرس ، ويبادل ناتاشا الجالسة أمامه النظرات . وكان بطرس لا يتكلم الا قليلا ، ويتفرس في هذه الوجوه الجديدة ، ويكثر من الاكل . فمن حساء السلحفاة - الذي اختاره من حساءين عرضا عليه - الى فطائر السمك ، الى الدجاج

المحمّر ، لم يرفض طبقا واحدا من الاطباق ، لا ولا رفض خمرة واحدة من الخمور التي كان رئيس الخدم يستلها من وراء كتف جاره في قنينة تلفها منشفة ، سائلا بدمدمة هادئة وقد لاحت في وجهه معاني السر : « خمرة مادير » أم « شراب توكاي » أم « نبيذ الراين » ، فكان يتناول أول قدح تقع عليه يده من أقداح الكريستال الاربعة الموضوعة أمام كل طاعم ، والمزدانة باسم الكونت منقوشا عليها نقشا مشبكا ، فيشرب متلذذا وهو يلقي على المدعويين نظرات ما تنفك تزداد لطفلا ورقة محببة . وكانت ناتاشا ، الجالسة قبالة ، تنظر الى بوريس كما تنظر الصبايا في سن الثالثة عشرة الى الفتى الذي بادله منذ قليل أول قبلة ، وتولّهن بحبه . وكان نظرتها هذه تسقط أحيانا على بطرس ، فكان بطرس حين يرى عيني هذه الصبية الضاحكتين المتوقدتين يشتهي أن يضحك هو أيضا ، لا يدري لماذا !

وكان نيقولا يجلس بقرب جوليا كاراجين بعيدا عن صونيا ، وكان يكلمها مبتسما تلك الابتسامة نفسها على غير ارادة منه ، فكانت صونيا تبسم ابتسامة أبهة . ولكنها كانت في قرارة نفسها تشتعل غيرة : فهي تصفر تارة ، وتحمر تارة أخرى ، وتحشد جميع قواها لتسمع ما كان يدور بين نيقولا وجوليا من حديث . وكانت المربية تلقى على ما حولها نظرات قلقلة ، كأنها متأهبة لان تنقض على كل ما تسول له نفسه أن يسيء الى الاولاد . وكان المعلم الالماني يحاول أن ينقش في ذاكرته جميع ألوان الطعام وأصناف الحلوى وأنواع الخمور التي كانت تقدم

للضيوف ، حتى يستطيع أن يصف كل شيء بالتفصيل في رسالة يبعثها الى أسرته في ألمانيا ، وكان يستاء استياء شديدا حين يستنيه رئيس الخدم من ملء قلحه بخمرة القنينة الملفوفة بمنشفة • فكان يقطب حاجبيه ، محاولا مع ذلك أن يتظاهر بأنه لا يحرص على أن يشرب هذه الخمرة ، وانما هو يضايقه أشد المضايقة أن أحدا لا يريد أن يفهم أنه كان يتمنى أن يشرب منها فهما إليها ، ولا اطفاء لظمئه ، وانما هو يريد أن يتذوقها لشدة رغبته في التعلم •



الفصل السادس عشر

كان الحديث في جهة الرجال يشتد ويحتد شيئاً بعد شيء • وقد روى الكولونيل أن البيان الذي يحمل اعلان الحرب^(١) قد نشر في بطرسبرج ، وأن نسخة منه رآها بنفسه قد حملها اليوم الى الحاكم العسكري ساع من الساعة •

قال شنشين :

— ما حاجتنا الى محاربة نابوليون ؟ لقد سبق أن أخرس النمسا اخراسا ، فأخشى أن يكون دورنا قد جاء •

كان الكولونيل ألمانيا طويل القامة قوي البنية شديد الحمية ، وكان واضحاً أنه جندي قديم ووطني مخلص • فأزعجته كلمات شنشين، فردّ عليه بلكنة أجنبية يقول :

— الامبراطور يعرف ما حاجتنا الى ذلك • لقد قال في بيانه اننا لا نستطيع أن نعبأ بالاطار التي تهدد روسيا ، وان أمن الامبراطورية وسلامتها وكرامتها وقدااسة « محالفاتها » •••

(١) ان الاسكندر الاول هو الذي اصدر بيان اعلان الحرب على نابوليون في ٢٢ آب (اغسطس) سنة ١٨٠٥ •

وقد شدّد الكولونيل على كلمة « محالفاتها » هذه ، لا ندري لماذا ،
كأنها مفتاح المسألة كلها .

يتصف به من ذاكرة قوية لا تخطيء ، أخذ يردد الكلمات التي
استهلّ بها البيان فقال متابعا كلامه : « ... وان رغبة الامبراطور ،
في اعادة اقرار السلام بأوروبا على أسس راسخة ، وذلك هو هدفه
الوحيد الثابت ، قد جعلته يقرر بأن يعبر الحدود في هذا اليوم جزء من
جيشنا ، وأن يرم اليوم محالفة جديدة لتحقيق هذه الاهداف » . وختم
الكولونيل كلامه قائلاً بأبهة وجلال ، وهو يفرغ قدحا آخر ، وينظر
الى الكونت ملتصا تأييده ودعمه .

— تلك هي حاجتنا الى محاربة نابليون ، يا سيد .

فقال شنشين وهو يقطب حاجبيه ويتسم في آن واحد :

— هل تعرف المثل القائل : « لأن تبقى في دارك خير من أن تصنع
في منزل جارك » . هذا المثل يناسبنا كثيرا . لقد كان سوفوروف^(١)
رجلا باسلا شجاعا ، ومع ذلك كانت لهم عليه غلبة تامة . وأين هم اليوم

(١) هو المارشال الشهير الكسندر ف . سوفوروف (١٧٢١ - ١٨٠٠)
الذي هزم الترك والبولنديين مرارا كثيرة ، وهزم الفرنسيين سنة
١٧٩٩ ، ونال لذلك لقب « امير ايطاليا الاعظم » ، ثم مني
باخفاق كبير حين انسحابه من سويسرا ، وهو الانسحاب الذي
أوحى به « المجلس الحربي الاعلى » في فيينا ، الذي كان يقود عمليات
الحلفاء .

أمثال سوفوروف ؟ هلاء تفضلت علي بجواب عن هذا السؤال ؟
بذلك ختم كلامه منتقلا من الروسية الى الفرنسية •

قال الكولونيل وهو يضرب المائدة بيده :

— يجب علينا أن نقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا ، وأن نموت في
سبيل امبراطورنا ، فاذا فعلنا ذلك جرت جميع الامور خير مجرى •
ويجب علينا أن نقلل التفكير الى أقصى حد ممكن من التقليل (قال
ذلك وهو يمتط كلمة « ممكن ») ، نعم الى اقصى حد ممكن من
التقليل •

كرر هذه الجملة متجها بكلامه الى الكونت مرة أخرى • واستطرد
يقول :

— هكذا نرى الامور نحن معشر الفرسان •

وأضاف ملتفتا الى نيقولا يسأله :

— ما رأيك أنت أيها الشاب ، أيها الفارس الشاب ؟

وكان نيقولا حين لا حظ أن الحديث يدور على الحرب قد أعرض
عن محدثه وراح ينظر الى الكولونيل بكل عينية ، وينصت الى كلامه
بكل أذنيه ، فقال يجب الكولونيل وقد احمر وجهه ، وأخذ يدير طبقه
ويحرك أقداحه معبرا بوجهه عن شدة الحزم وقوة الجسارة حتى لكأنه
يواجه خطرا كبيرا :

— اني أوافق على رأيك كل الموافقة • ان على الروس أن ينتصروا
أو يموتوا •

وقد شعر بعد أن قذف هذه الجملة ، كما شعر بذلك الآخرون ، أن
أقواله أشد اندفاعا وحماسة ، وأكثر تنفخاً وتعاضما مما يوجبه الظرف
الراهن ، وأنها اذن خرقاء في غير محلها •

قالت جارتة جوليا وهي تبتسم :

— ان ما تقوله جميل جدا •

وكانت صونيا قد أخذت ترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها ،
واحمرت حتى بلغ احمرارها الاذنين وما بعد الاذنين ، ووصل الى العنق
والكتفين ، بينما كان نيقولا يتكلم •

وقد أصغى بطرس الى كلام الكولونيل ، فكان يهز رأسه معبرا عن
تأييده • حتى لقد قال :

— هذا هو الكلام الصحيح !

فصاح الكولونيل يجيبه وهو يضرب المائدة بيده مرة أخرى :

— انك لفارس حقا أيها الفتى •

وفجأة علا صوت في الطرف الآخر من المائدة هو صوت ماريّا
دمتريفنا الجهير ، سائلا :

— ما يحملكم على هذه الجلبة كلها ؟

وأضافت تسأل كولونيل الفرسان :

— لماذا تضرب المائدة ؟ من أغضبك وأثار حفيظتك ؟ أتراك تظن

أنك أمام فرنسيين ؟

فأجابها الكولونيل مبتسما :

— أنا أقول الحقيقة •

وصاح الكونت يقول لها من آخر المائدة :

— نحن نتحدث عن الحرب • ذلك أن ابني ذاهب الى الحرب

يا ماريا دمتريفنا ، ابني !

— وأنا ؟ أليس لي في الجيش أربعة أبناء ؟ فهل رأيتموني أبكي ؟

ان كل شيء بيد الله : قرب رجل يموت في فراشه ، ورب رجل آخر

يحميه الله من الموت في معركة ضارية •

كذلك أجابت ماريا دمتريفنا الذي كان صوتها الجهير يصل من

أحد طرفي المائدة الى طرفها الآخر بدون أي جهد تتكلفه •

— صحيح ، صحيح !

وبعد ذلك ، عادت كل فئة من الفئتين الى حديثها الخاص بها ،

فالرجال يتكلمون في طرف من المائدة ، والنساء يتحدثن في طرف آخر •

قال لئاتاشا أخوها الصغير :

— لا ، لن تجسري أن تلقي هذا السؤال • لن تجسري !

فأجابته ناتاشا :

— بل أجسر •

والتهب وجهها فجأة بحمرة شديدة ، معبرا عن قرار صامت حازم جريء فرح لا يهاب ! وانهضت جذعها ، داعية بطرس ، الجالس قبالتها ، أن يصغي الى كلامها ، ونادت أمها من أحد طرفي المائدة الى الطرف الآخر بقولها :

— ماما !

فسألتها الكونتيسة مرتاعة :

— ماذا ؟

لكن الكونتيسة سرعان ما أدركت من النظر الى وجه ابنتها أن الامر أمر « شيطنة » تهم بها الصبية ، لوحت لها بيدها مهددة ، وهزت لها رأسها متوعدة •
فخيم صمت •

ولكن صوت ناتاشا الصغير لم يلبث ان عاد ينادي بمزيد من التصميم ، ودون تفكير •

— ماما ! ما الحلوى التي سنأكلها اليوم ؟

فأرادت الكونتيسة أن تقطب حاجبيها ولكنها لم تستطع • ورفعت ماريا دمتريفنا اصبعها الضخمة تهدد بها البنية ، وتقول لها بلهجة قاسية :
— اسكت يا قوزاقي !

ونظر أكثر المدعويين الى الابوين يريدون أن يروا كيف ينهيان
الصيبة عن هذه الحماقة •

قالت الكوتتيسة :

— انتظري قليلا •

فعادت ناتاشا تصرخ سائلة :

— ماما ! ما الحلوى التي ستقدم الآن ؟

وكانت صرختها هذه المرة تشتتل على مزيد من الجسارة ، وكثير
من المرح ، لثقتها سلفا بأنها لن تعاقب على هذه النزوة الحمقاء !

وخنقت صونيا ضحكها هي وليتيا الضخم •

ودمدمت ناتاشا تقول لاختها الصغير ولبطرس الذي ألقى عليه
نظرة أخرى :

— ها قد ألقيت السؤال !

قالت ماريما دمترينا :

— الحلوى دندرمة ، ولكنك لن تذوقها !

ورأت ناتاشا أن ليس هناك ما تخشاه ، ولا خافت من ماريما دمترينا •
فقال تسأل ماريما دمترينا :

— أي نوع من الدندرمة يا ماريما دمترينا ؟ ذلك أنتي لا أحب
الدندرمة بالفانيليا !

— هي دندرمة بالجزر !

فقلت ناتاشا بما يشبه الصراخ :

— لا ، حقا ، قولي ... أي نوع من الدندرمة ؟ أريد أن أعرف .

فأخذت ماريا دمتريفنا والكوتتيسة تضحكان ، واقتدى بهما في الضحك سائر المدعوين . كانوا يضحكون لا من جواب ماريا دمتريفنا ، بل كانوا يضحكون للبراعة والجسارة النادرة لدى هذه البنية التي عرفت كيف تستعمل هذه البراعة وهذه الجسارة فاستطاعت أن تصمد لماريا دمتريفنا .

ولم تسكت ناتاشا الا حين قال لها ان الدندرمة ستكون بالآنااس . وقد صُبت الشمبانيا قبل تقديم الدندرمة . وعادت الأركسترا تعزف . وتبادل الكونت والكوتتيسة قبلة . وقام المدعوون يعبرون عن تمنياتهم للكوتتيسة ، ويقرعون كئوسهم من فوق المائدة بكأس الكونت ، وكئوس الاولاد ، وكئوسهم هم ، وعاد الخدم يتحركون مسرعين ، وأخذت الكراسي تدفع فتسمع لها قرقرة ، ورجع المدعوون الى الصالون والى مكتب الكونت متتابعين على نظام الدخول نفسه ، ولكن وجوههم الآن أشد احمرارا .

* * *

الفصل السابع عشر

نُصبت موائد « البوستون » ، وأُعدَّ اللعب ، وتوزع المدعوون في الصالونين وغرفة التدخين وحجرة المكتبة •

ولقد كان من عادة الكونت أن يُقيل بعد الغداء ، فكان وهو ممسك بأوراق اللعب على صورة مروحة ، يقاوم هذه العادة ، ويضحك لأي شيء •

ومضت الكونتيسة بالشيبية تتحلق حول البيانو والهارب • وطلب الجميع الى جوليا أن تعزف شيئاً ؛ فلبت الدعوة ، وكانت أول العازفين • عزفت على الهارب قطعة ذات تنويعات • ثم انضمت الى سائر الفتيات يتوسلن الى ناتاشا ونيقولا ، وهنَّ يعرفن أنَّهما موسيقيان مجيدان ، أن يغنيا شيئاً • فكان واضحاً أن ناتاشا التي عاملتها كما يعامل الكبار ، فخورة بذلك فخراً عظيماً ، ولكنها في الوقت نفسه خجلة بعض الخجل •

قالت تسأل :

• ماذا نغني ؟

فأجاب نيقولا :

— «الينبوع» (١) •

قالت ناتاشا :

— حسن • هلمّ بنا ! تعال هنا يا بوريس ! ولكن أين صونيا ؟

وأجالت بصرها على كل ما حولها ، فلما ثبت لها غياب صديقتها ،

أسرعت تبحث عنها •

ذهبت الى غرفتها فلم تجدها ، فهرعت الى غرفة الاطفال فلم تجدها

أيضا • فأدركت ناتاشا أن صونيا لا بد أن تكون في المر على الصندوق •

ان الصندوق الموضوع في المر كان هو المكان الذي تفزع اليه صبايا

أسرة روستوف ، فتسكب عنده شجونها وأحزانها • فلما ذهبت ناتاشا

الى ذلك المكان رأت صونيا راقدة بطنها على لحاف الخادمة ، المخطط

المتسخ ، الذي كان يغطي الصندوق ، ورأتها دافئة رأسها في يديها ،

وقد أخذت تبكي ناشجة ، وأخذت كتفها العاريتان تهتران من ذلك

اهتزازا قويا • فاذا بوجه ناتاشا الذي كان طوال ذلك اليوم يعبر عن

فرحة المرء بعيد ، اذا هو يتغير فجأة ؛ فتجمد عيناها ، ثم يرتعش عنقها

العريض ، ويهبط طرفا شفتيها •

— صونيا، ما بك؟... ما بك ؟ هلا قلت لي ما بك ؟ هو هو هو !!...

وانفرج فم ناتاشا فأصبح دميما كل الدمامة ، وأخذت تبكي ناشجة

(١) رومانسة عاطفية روسية لا يعرف مؤلفها .

كما تبكي طفلة ، دون أن تعرف لبكائها سببا غير بكاء صونيا • وأرادت صونيا أن ترفع رأسها وأن تجيب ، ولكنها لم تستطع أن تفعل، فأخفت وجهها في يديها مزيدا من الاخفاء • وكانت ناتاشا تبكي جالسة على اللحاف الازرق ، مطوقة صديقتها بذراعيها • واستجمعت صونيا قواها وشجاعته ، فانتصبت ، ومسحت دموعها ، وأخذت تتكلم :

— سيسافر نيقولا بعد ثمانية أيام ••• استلم ••• بطاقة السفر ••• قال لي ذلك هو نفسه • وما كان لي أن أبكي لهذا السبب ••• ولكن ••• قالت ذلك وأرّت ° ناتاشا ورقة كانت تقبض عليها مخبأة في يدها، هي الورقة التي كان نيقولا قد نسخ لها أشعاره عليها • وتابعت كلامها فقالت :

— ••• ولكن ••• ولكنك لا تستطيعين ••• ولا يستطيع أحد أن يدرك مدى ما تتصف به نفسه من جمال !

وعادت تبكي لان نفس نيقولا جميلة •

ثم استردت شيئا من رباطة الجأش فقالت لناتاشا :

— أمرك أنت سهل ••• لست أحسدك ••• فأنا أحبك ، وأحب بوريس أيضا • انه لطيف • أتتما ليس أمامكما حواجز وعقبات • أما نيقولا فهو « ابن عمي » ••• ولا بد أن يوافق رئيس الاساقفة نفسه ••• وهو لن يستطيع أن يوافق ••• ثم اذا نحن كاشفنا بالامر

ماما (كانت صونيا تعد الكوتتيسة أمها ، وتسميها أمها) ، فسوف تقول انني أدّمّر مستقبل نيقولا، وانتي ليس لي قلب،وانتي عقوق... ولكنني شهد الله أنتي (قالت ذلك وهي ترسم اشارة الصليب) أحبها كثيرا ، هي أيضا ، وأحبكم جميعا ... وليس هناك الا فيرا . لماذا ؟ هل أسأت اليها ؟ انتي شاكرة لكم أعظم الشكر ، مستعدة لان أضحي في سبيلكم بكل شيء راضية مغتبطة ، ولكنني لا أملك شيئا ...

لم تستطع صونيا أن تقول أكثر مما قالت ، وعادت تدفن رأسها في يديها وفي اللحاف . وأخذت ناتاشا تهدأ ، ولكن كان واضحا في وجهها أنها تدرك خطورة الحزن الذي يهصر قلب صديقتها . ثم اذا هي تقول فجأة وكأنها حزرت السبب الحقيقي للألم الذي تعانيه ابنة عمها :

— صونيا ! هل كلمتك فيرا بعد الغداء ؟ كلمتك ، أليس كذلك ؟

— كلمتني . ان هذه الاشعار قد كتبها لي نيقولا ، ونسخت عنها أنا نسخا أخرى . وقد وجدتھا فيرا على طاولتي ، فقالت انها ستطلع عليها ماما . وقالت أيضا انني عقوق ،وان ماما لن تأذن له أبدا بأن يتزوجني ، وانه سيتزوج جوليا . وقد رأيت أنت بعينيك كيف صحبھا طول النهار ... ناتاشا لماذا ؟ ...

وأغرقت في البكاء مزيدا من الاغراق . فأنهضتها ناتاشا ، وطوقتها بذراعيها ، وأخذت تواسيها مبتسمة من خلال الدموع ، فقالت لها :

— صونيا ، لا تصدّقيها يا عزيزتي ، لا تصديقها • تذكرني حديثنا نحن الثلاثة مع نيقولا في غرفة التدخين ••• هل تذكرين ••• في ذات مساء بعد العشاء ؟ لقد قررنا كل شيء • نسيت الآن التفاصيل ، ولكن كل شيء تمّ تدبيره ، ألا تذكرين ؟ ثم ان أخا العم شنشين قد استطاع أن يتزوج ابنة عمه ، ونحن أبناء عمومة • بوريس أيضا قال ان هذا ممكن • لقد حدثته بكل شيء • انه ذكي جدا ، ولطيف جدا • لا تبكي يا صونيا ، يا عزيزتي الحبيبة ، يا ملاكي صونيا •

قالت ناتاشا ذلك وقبّلت صونيا ضاحكة ، وأضافت تقول لها :

— فيرا شريرة • اتركها • سوف يجري كل شيء خير مجرى • ولن تقول فيرا لماما شيئا • سيكلمها في هذا نيقولا نفسه • وهو لم يخطر جوليا بباله في يوم من الايام •

بذلك ختمت ناتاشا كلامها وقبّلت رأس صونيا • فالتصبت صونيا ، واستردت القطعة الصغيرة الحياة ، والتمعت عيناها ، وبدا كأنها تهم أن تلوح بذيلها ، وأن تثب بقوائمها المرنة ، وأن تعود الى معابثة كبة الغزل ، أي أن تطاوع طبيعتها وتنطلق على سجيتها •

وقالت وهي ترتب فستانها وشعرها بهمة وسرعة ونشاط :

— تعتقدين ؟ حقا ؟ هل تحلفين أن ما تقولينه حق ؟

فأجابتها ناتاشا وهي تصفّف خصلة من الشعر متمرّدة ، أفلتت من ضفيرة صديقتها :

— حقا ! أحلف أن ما قلته هو الحق !

• وانفجرت الفتاتان تضحكان

— والآن هلمي بنا فنغني أغنية « الينبوع »

— هلمّي !

وقالت ناتاشا فجأة وهي تقف عن السير :

— هل تعلمين أن هذا الشاب الضخم بطرس ، ذاك الذي كان

جالسا قبالي ، غريب الاطوار مضحك ! انه يضحكني كثيرا !

ثم جرت في الممر تركض ركضا •

ونفضت صونيا الزغب عن فستانها ، وخبأت أبيات الشعر في

الصدر من فستانها تحت رقبتها ذات الترقوة الناتئة ، واندفعت تجري

بخطو خفيف فرح ، متوقدة اللون ، لاحقة بناتاشا في اتجاه غرفة

التدخين • ولبّى الشباب طلب المدعويين فغنوا أغنية الينبوع أربعة

أصوات ، فاجها جميع المدعويين كثيرا • ثم غنى نيقولا أغنية تعلمها منذ

مدة قصيرة :

ما أحلى أن يقول المرء لنفسه

في ضوء القمر ، جأش القلب مرتعشا :

• أنا من خصّني القدر بأحسن حظ

• فهناك من يذكرني طافحة بالحب نفسه •

يدان بيضاوان تضربان على الاوتار
فتخرجان من الهارب لحنا ما ينفك ينمو ويفيض
الى أن يبلغني نداؤه فأسكر •
متى نحيا اليوم السعيد
ولكن أترانا نرى ذلك اليوم كلانا ؟

وقبل أن ينهي نيقولا غناء الايات الاخيرة من القصيدة حتى كانت
الشبيبة قد اتخذت أماكنها في الصالة الكبرى للرقص ، وأخذ وقع
أقدام الموسيقيين وتنحنجهم يُسمعان صادرين عن الشرفة •
وكان بطرس في الصالون • ولأنه كان عائدا من الخارج فقد أقحمه
شنشين في حديث سياسي يبعث الضجر في نفسه ، وقد انضم الى
الحديث أشخاص آخرون • فلما بدأت الاركسترا العزف دخلت ناتاشا،
وأقبلت على بطرس رأسا ، وقالت له وهي تحمر وتضحك في آن واحد :

— أمرتني ماما أن أدعوك الى الرقص •

— أخشى أن أخط بين الرقصات ، ولكن اذا تكرمت فكنت

أستاذتي •••

بذلك أجاب بطرس ، وخفض ذراعه الضخمة يقدّمها الى البنية
النحيلة •

وبينما كان الأزواج يتخذون أماكنهم ، وكان الموسيقيون يدوزنون

آلاتهم ، جلس بطرس مع مراقصته الصغيرة • كانت ناتاشا سعيدة كل السعادة : فهي ستراقص « كبيرا » آتيا من « الخارج » ، وهي تحادثه على رأى من الناس كما يتحادث كبار • واذا كانت احدى الفتيات قد عهدت اليها بمروحتها ، فقد اصطنعت الوضع التي تصطنعه السيدات في المجتمع الراقي (الله يعلم من أين ومتى أمكنها أن تتعلم هذا) وأخذت تحركها أمام وجهها ، وتنظر من فوقها الى مراقصها وتحادثه •

قالت الكوتتيسة روستوف التي كانت تجتاز الصالة ، قالت وهي تشير الى ناتاشا :

— انظروا ، انظروا الى الصغيرة !

فاحمرت ناتاشا ، وأخذت تضحك ، وقالت معترضة على أمها :

— ماذا يا ماما ؟ لماذا تحين أن تسخري مني ؟ أين ما يبعث على هذه الدهشة كلها ؟

وفيما الرقصة « الايقوسية » في منتصفها سُمعت ضجة آتية من الصالون ، حيث كان الكونت وماريا دمترينا يقامران • ان أكثر المدعويين المرموقين ، وكذلك الاشخاص المسنين ، قد أخذوا يتمطون بعد أن لبشوا جلوسا مدة طويلة ، وشعروا بالحاجة الى فترة استرخاء وراحة ، فقاموا عن كراسيهم وهم يعيدون الى جيوبهم ما كان بين أيديهم من أكياس النقود أو محفظات الاوراق ، واتجهوا الى صالة الرقص • افتتحت ماريا دمترينا المسيرة مع الكونت، وقد تهلل وجهاهما

كليهما بشرا • ودور الكونت ذراعه كما يفعل راقص ممتاز من راقصي البالية ، ومدّها الى مراقسته بكياسة رقيقة وأدب كبير ، وأنهض جذعه ، وأضاءت وجهه ابتسامة جذلة جسور • فما ان أنهى الموسيقيون عزفهم لآخر تنويعه من تنويعات الرقصة الايقوسية ، حتى صفق بيديه منبّها الموسيقيين ، وصاح يقول متجها الى الشرفة مخاطبا كبير العازفين على الكمان :

— سيميون ! هل تعرف رقصة « دانيلو كوبر » ؟

انها الرقصة التي يحبها الكونت ، والتي كان يرقصها في ابان شبابه (وليست رقصة « دانيلو كوبر » في حقيقة أمرها الا تنويعا من تنويعات الرقصة « الانجليزية ») •

قالت ناتاشا صارخة بأعلى صوتها (ناسية نسيانا تاما أنها تراقص كبيرا) ، حانية رأسها الصغير ذا الضفيرة حتى الركبتين ، ضاحكة ضحكا رنانا مجلجلا دوسى في الصالة كلها :

— انظروا الى بابا !

فاذا بجميع الحضور ينظرون مبتسمين الى الشيخ المرح بجانب مراقسته التي تعلوه طولا برأسها كله ، وقد طفق يكوّر ذراعيه، ويساير الوزن ويرفع كتفيه ، ويدور حول نفسه ، ويقرع الارض قرعا خفيفا بقدميه ، ويهيء المشاهدين بالابتسامة التي كانت تزدهر على وجهه المدوّّر مزيدا من الازدهار ، يهيئهم لما سيلبي من رقصة ، فما ان دوت النغمات المرحّة الجارفة من لحن « دانيلو كوبر » ، وهي نغمات تشبه

كثيرا نغمات لحن « تيريك الجنى » ، حتى كانت جميع أبواب الصلاة قد ازدانت بوجوه الخدم مبتسمة جذلى ، فالرجال في جهة والنساء في جهة أخرى ، وقد جاءوا جميعا ليروا مولاهم لاهيا متسليا .

قالت المريية بصوت عال من أحد الابواب :

— مولانا ! انه نسر !

كان الكونت يرقص رقصا رائعا ، ولا يجهل أن رقصه رائع ، أما مراقبته فكانت لا تعرف من أمر الرقص شيئا ، ولا يهمها أن تحسن الرقص أو أن لا تحسنه . فكان جسمها الضخم يبقى قائما ، وكانت ذراعاها الجبارتان متدليتين (لقد عهدت بحقية يدها الى الكونتيسة) ، فكان لا يرقص منها الا وجهها الذي كان قاسيا لكنه جميل . ان كل ما كانت تعبّر عنه قامة الكونت المكورة لم يكن ينعكس لدى ماريا دمترينا الا على وجهها الذي يزداد تبسما وعلى أنفها الذي أخذ يرتعش . ولكن لئن استطاع الكونت الذي ما ينفك يزداد حماسة ، أن يفتن ألباب المشاهدين بما يجريه من وثبات متصالبة وقفزات خفيفة بساقيه المرتتين ، فان أي جهد بسيط تبذله ماريا دمترينا بحركة من كتفيها أو ذراعيها الربلتين أثناء انكفائها وقرعها الارض بكعب حذاءها كان يفتن ألباب المشاهدين أيضا لانهم يقدرون قيمته حق قدرها نظرا الى ضخامة جسمها والى ما ألفت من قسوة وشدة . وكان الرقص لا ينفك يزداد حمية ونشاطا . ولم يستطع الراقصون المتقابلون الآخرون ، بل لم يخطر ببالهم أيضا ، أن يجذبوا

انتباه أحد اليهم • فكان الجميع مستغرقين في تأمل الكونت وماريا دمترينفا • وكانت ناتاشا تشد الحضور من الاكمام أو الاثواب مهية بهم أن ينظروا الى أيها • ولكن الحضور لم يكونوا في حاجة الى هذا منها ، فقد كانت أنظارهم معلقة بأيها من تلقاء نفسها • وكان الكونت يتنفس أثناء الفواصل بمشقة كبيرة ، ولكنه يظل يلوح بيديه للموسيقين صائحا طالبا منهم أن يزيدوا سرعة العزف ؛ ويمضي يرقص بمزيد من السرعة ومزيد من القوة ، دائرا حول ماريا دمترينفا على رؤوس الاصابع تارة ، وعلى الكعبين تارة أخرى ، ثم يتجه بمراقصته أخيرا الى مكانها ، فيخطو خطوة أخيرة ، رافعا ساقه المرننة الى وراء ، حانيا رأسه الناضح عرقا ، مشرق الوجه ابتساما ، راسما بذراعه اليمنى دائرة واسعة ، فأثار بذلك عاصفة من التصفيق والضحك اندفع فيهما الحضور كافة ، وناتاشا خاصة • توقف الراقصان وقد انقطعت أنفاسهما ، وأخذا يجففان عرقهما بمنديلييهما •

وقال الكونت :

— هكذا كنا نرقص في زماننا يا عزيزتي !

فقلت ماريا دمترينفا وهي تتنفس تنفسا شاقا طويلا ، وتشمر في الوقت نفسه كمئها :

— مرحى ، « دانيلو كوبر » !

الفصل الثامن عشر

بينما كان الراقصون في منزل آل روستوف يرقصون «الانجليزية» السادسة على أنغام أركسترا أصبحت تعزف خطأ من فرط التعب ، وبينما كان الخدم والطباخون هناك يهيئون طعام العشاء ، أصيب الكونت بيزوخوف بنوبة سادسة ، وأعلن الأطباء أنه لم يبق أي رجاء . وتمت مراسم الاعتراف وتناول القربان المقدس والمريض غائب عن الوعي ، وبدأ الاستعداد للمسحة الأخيرة ، وكان الاضطراب وقلق الانتظار ، المعهودان في مثل هذه اللحظات ، يسودان المنزل . وفي خارج المنزل كان متعهدو مواكب الدفن الذين يتوقعون أن يوصوا بأعداد جنازة فخمة ذات أبهة يزدحمون عند بوابة الفناء ، ويختبئون كلما وصلت عربة . وكان الحاكم العسكري لمدينة موسكو يرسل الرسل تترى مستفسرا عن صحة الكونت من مرافقيه ، وقد جاء في هذا المساء بنفسه لوداع السيد العظيم الشهير من سادة عهد كاترين ، الكونت بيزوخوف .

صالة الاستقبال الفخمة الباذخة تعج بالناس . وقد نهضوا كلهم اجلالا حين خرج الحاكم من غرفة الكونت بعد أن خلا الى المريض قرابة نصف ساعة ، ومرء بالصالون ، فكان يرد على التحيات ردا خفيفا ،

ويستعجل الهروب من نظرات الاطباء والكهنة والاسرة التي كانت محدقة اليه معلقة به . وكان الامير فاسيلي الذي نحل جسمه وشحب لونه في هذه الايام الاخيرة ، يرافق الحاكم ، ويحييه عن عدد من الاسئلة كان الحاكم يلقيها عليه .

وشيئاً الامير فاسيلي الحاكم ، وعاد يجلس وحيدا على كرسي في الصالة ، واضعا ساق على ساق ، متكئا بكوعه على ركبتيه ، مخفيا عينيه بيده . وبعد فترة من الوقت قام من مكانه ، ومشى بخطو سريع على غير عادته ، ملقيا نظرات قلقة حوله ، ومضى الى الممر المفضي الى الغرف الخاصة ، ذاهبا الى كبرى الاميرات .

ان الاشخاص المحتشدين في الصالة المضاءة اضاءة ضعيفة يتكلمون بصوت خافت متردد ، ثم يصمتون ، ويشخصون بأبصارهم ، الملائى تساؤلا وانتظارا ، الى الباب الذي يؤدي الى غرف الكونت المحتضر ، كلما فُتح هذا الباب فتحا هادئا لا يحدث الا ضجة خفيفة ، فخرج منه أحد أو دخل أحد .

قال كاهن عجوز لسيدة كانت جالسة الى جانبه تصني الى كلامه بسداجة :

— لكل انسان أجل لا يمكنه أن يستأخره .

فقلت السيدة مضفية على صوتها النبرة الكهنوتية التي يتكلم بها محدثها ، قالت تسأله كما لو لم يكن لها رأي في هذا الشأن :

— تثرى ألم يفت أوان تناوله الاسرار الاخيرة ؟

فأجاب الكاهن وهو يمر بيده على رأسه الاصلع الذي لا تزال
تزينه بضع خصلات من شعر رمادي أحسن تصفيفه :

— هذا من الشعائر المقدسة الكبيرة يا ابنتي !

وفي الطرف الآخر من الصالة كان يتحدث أناس آخرون • فسأل
سائل منهم :

— مَنْ هذا ؟ أهو الحاكم العسكري جاء بنفسه ؟ أنه يبدو في ريعان
الشباب ! ...

— ومع ذلك تجاوز الستين ! يقال ان الكونت أصبح لا يتعرف
أحدا • هل ناولوه الاسرار الاخيرة ؟

— أعرف شخصا ناولوه الاسرار الاخيرة سبع مرات •

وخرجت صغرى الاميرات من عند الكونت • ان المرء يرى أنها بكت •
وجاءت تجلس بقرب الدكتور لوران المستند بكوعه الى طاولة على وضع
يفيض رشاقة ، تحت صورة كاترين^(١) •

قال الطبيب مجيبا عن سؤالها عن الجو :

— جو جميل جدا ، يا أميرة ، جميل جدا • ثم ان المرء بموسكو
يحس أنه في الريف •

(١) كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) •

فقلت الاميرة وهي تتنهد :

— أليس كذلك ؟ قل لي : هل نستطيع أن نسقيه الآن ؟

— هل شرب جرعة الدواء ؟

— نعم •

فنظر الطبيب في ساعته ، وقال :

— خذي كأسا من الماء الغالي ، وضعي فيها قرصة من « كريمور

تاتاري » ...

قال الطبيب ذلك للأميرة وهو يثرىها بأصابعه النحيلة ما القرصة •

وقال طبيب ألماني لضابط مرافق :

— لم يحدث أن بقي أحد حيا بعد النوبة الثالثة ...

فقال الضابط المرافق :

— ما كان أقواه رغم كبر سنه !

واضاف يسأل هامسا :

— ثرى الى مَنْ ستؤول هذه الثروة الضخمة كلها ؟

فأجاب الألماني مبتسما :

— الهواة كثير !

وشخصت الأبصار مرة أخرى الى الباب : لقد صرَّ الباب قليلا ،

وكانت صغرى الأميرات وقد حضرت الشراب الذي وصفه لوران ،

تحمله الى المريض • واقترب الطبيب الالماني من لوران ، وسأله بلغة فرنسية فيها لكنة بارزة •

— ترى هل يبقى حيا الى الغد ؟

فزم لوران شفتيه ، وجرّك اصبعه أمام أنفه معبرا عن النفي • وقال هامسا وهو يتسم ابتسامة تعبر عن اعتزازه المحتشم بأنه يجيد تشخيص حالة المريض هذه الاجادة التامة :

— سيموت هذه الليلة ، لا بعدها !

وابتعد •

في أثناء ذلك كان الأمير فاسيلي يفتح باب غرفة الأميرة •

ان السراجين اللذين كانا مشتعلين أمام الايقونات لا يضيئان الغرفة الا اضاءة ضعيفة ، فالغرفة تكاد تكون مظلمة ، وقد انتشر فيها عبق البخور وشذى الازهار ، وهي مزدحمة بقطع صغيرة من الاثاث : خزائن ذات أدراج ، خزائن لتعليق الثياب ، مناضد لها قوائم ثلاث • ووراء حاجز يثرى من السرير العالي غطاؤه الابيض المحشو بريش • ونبح كلب صغير •

— آ... هذا أنت يا ابن عمي ؟

وقامت الأميرة ، فرتبت شعرها الذي كان يبلغ من الملاسة ، حتى في هذه اللحظة ، أن المرء يحسبه ملكوكا وأنه هو ورأسها شيء واحد • وسألت قائلة :

— هل حدث شيء ؟ لقد أخفنتني •

— لا شيء • لم يحدث جديد • وانما أنا جئت ، يا كاتيش^(١) ،
لا كلمك في شئون عملية •

أجابها الأمير بذلك وهو يتهالك متعب الهيئة على المقعد الذي
قامت عنه الأميرة • وأضاف يقول :

— ما أشد الحر في غرفتك ! هيا ، اجلسي ، ولنتحدث !

قالت الأميرة :

— ظننت أن أمرا وقع •

وجلست أمام الأمير متهيئة للاصغاء اليه ، وقد لاح في وجهها
ما عُهد فيه من تعبير عن قسوة تشبه قسوة الصخر • وقالت :

— أردت أن أنام يا ابن عمي ، ولكنني لا أستطيع •

قال الأمير فاسيلي وهو يتناول يد الأميرة ويشدها الى تحت ، على
عادته :

— وبعد ، يا عزيزتي ؟ ...

كان واضحا أن كلمته هذه « وبعد » تنصرف الى أشياء كثيرة
فهمها الاثنان دون أن يسميها أحد •

كانت الأميرة ، بجذعها اليابس المنتصب ، الطويل طولا شديدا

(١) تصغير اسم كاترين ، وهو اسم إحدى الاميرات مامونتوف .

بالقياس الى طول ساقها ، تنظر الى الأمير وجها لوجه ، هادئة الهيئة بعينيها الرماديتين البارزتين • وهزّت رأسها ، وألقت على الأيقونات نظرة وهي تنتهد • ان في امكان المرء أن يفسر حركتها هذه بأنها تعبير عن حزن واخلاص ، كما أن في امكانه أن يفسرها بأنها تعبير عن اعياء شديد ، وأمل في راحة قريبة • أما الامير فقد فسرهما بأنها علامة تعب • قال :

— وأنا ؟ أظنني أنني أقل عناء ؟ انني أعاني من الضنى ما يعاينه حصان يجبر عربة البريد ! ولكنني في حاجة الى أن أكلّمك يا كاتيش ، والى أن أكلّمك جادا كل الجد •

وصمت الأمير فاسيلي ، وجعلت خدّاه تشدّان تارة الى يمين وتارة الى شمال فتضفيان على وجهه تعبيراً دميماً ما رآه أحد عليه في الصالونات • وليست عيناه الآن عينية المعهودتين فيه : فهما طورا تمان عن وقاحة مستهترّة ، وطورا تطوّفان هنا وهناك معبرتين عن الخوف والارتياح •

وكانت الأميرة قابضة بيديها الهزيلتين اليابستين على الكلب فوق ركبتيها ، تحدق في عيني الأمير بانتباه شديد • ولكن المرء يلاحظ أنها لن تقطع الصمت بسؤال ولو اضطرت أن تسكت الى الغد •

قال الامير فاسيلي كلامه ، وقد عزم أمره بعد صراع داخلي على أن يستأنف الحديث •

— يا عزيزتي وابنة عمي الأميرة^(١) كاترين سيميونوفنا ، ان على الانسان في لحظات كهذه اللحظات أن يفكر في كل شيء • يجب علينا أن نفكر في المستقبل ••• أن نفكر فيك ••• انني أحبك كحبي لأولادي، كما تعلمين •••

ظلت الأميرة تتأمله بتلك النظرة الكايبة الثابتة نفسها •

وواصل الامير فاسيلي كلامه وهو يدفع عنه منضدة صغيرة كانت أمامه ، بدون أن ينظر الى الاميرة :

— ويجب علي أيضا أن أفكر في أسرتي • انك تعلمين ، يا كاتيش ، أنكين — أتن الأخوات الثلاثة ما مومتوف ، وامرأتي — الوريثات الوحيدات اللواتي ترثن الامير رأسا • أنا أعلم • أعلم مدى ما يحدثه لك التفكير في هذه الأمور والكلام عنها من ألم • واني لأعاني هذا الألم نفسه • ولكنني يا صديقتي سأبلغ الستين من عمري بعد قليل • فيجب أن أكون متأهبا لكل شيء • هل تعلمين أنني استدعيت بطرس؟ ان الكونت هو الذي طلب ذلك مومئا الى صورته ايماء واضحا لا لبس فيه •

قال الامير فاسيلي ذلك ونظر الى الاميرة مستطلعا مستفهماً ،

(١) تختلف كلمة الاميرة في اللغة الروسية باختلاف ما تكون المرأة ابنة أمير غير متزوجة فتخاطب بقولهم « كنياجنا » ، او زوجة أمير فتخاطب بقولهم « كنياجينيا » .

ولكنه لم يستطع ان يعرف أهي تفكر فيما قاله لها أم هي تنظر اليه
لا أكثر ...

وقالت الاميرة تجيبه :

— ليس هناك الا شيء واحد أطلبه من الرب يا ابن عمي ، هو أن
يرأف به ، وان يدع روحه الجميلة تبارح بسلام هذا ال ...

فقاطعها الامير فاسيلي فافد الصبر وقد أخذ يحك جمجمته الصلعاء،
ويشد اليه المنضدة مهتاجا بعد أن أقصاها عنه منذ هنيهة :

— نعم ، هذا صحيح ... ولكن ... أخيرا ... أخيرا ... المسألة
هي أن الكونت ، في الشتاء الماضي ، قد كتب وصية كما تعلمين ،
وفيها يوصي بثروته كلها لبطرس ، ويحرمننا منها نحن الذين تثول إلينا
ثروته رأسا .

أجابت الاميرة بهدوء :

— ما أكثر ما كتب من وصايا ، ولكنه لم يستطع ان يجعل بطرس
وريثه . ان بطرس ابن غير شرعي .

فقال الامير فاسيلي فجأة ، وقد اشتعل هيجانه ، وازدادت سرعة
كلامه ، وشد المنضدة الصغيرة الى صدره :

— عزيزتي ، ما قولك اذا كان الكونت قد كتب رسالة الى
الامبراطور طالبا موافقته على الاعتراف بأبوته لبطرس ؟ ان الامبراطور

سيلبي طلبه مكافأة له على ما أسلف من خدمات ، فيصبح بطرس ابنه الشرعي .

فابتسمت الاميرة كما يتسم أولئك الذين يعتقدون أنهم يعرفون من الامر ما لا يعرفه محدثوهم .

واستأنف الامير فاسيلي كلامه وهو يمسك يد الاميرة :

— سأقول لك أكثر من هذا . ان الرسالة قد كتبت فعلا ، وان لم ترسل . والامبراطور على علم بذلك . وانما المهم ان نعرف هل أتلقت الرسالة أم هي لم تتلف . فاذا لم تكن قد أتلقت — فمتى « انتهى كل شيء » (قال الامير فاسيلي هذه الجملة وهو يتنهد إفصاحا عما يعنيه بها) ، وفُضِّت أوراق الكونت ، نقلت الرسالة والوصية الى الامبراطور ، فلبى الامبراطور طلب الكونت قطعاً ، وورث بطرس كل شيء بصفته ابنا شرعيا .

قالت الاميرة تسأل الامير فاسيلي وهي تبسم ابتسامة ساخرة كأن كل شيء يمكن أن يحدث إلا هذا .

— ونصينا نحن ؟

— ان الأمر واضح وضوح النهار يا عزيزتي المسكينة كاتيش . إن بطرس يصبح هو الوريث الشرعي ، فلا يكون لكن نصيب . يجب عليك ، يا عزيزتي ، أن تكتشفي هل كتبت الرسالة والوصية ، وهل

أتلقتا ؟ فإذا اتضح أنهما لسبب من الأسباب قد نسيتا ، كان عليك أن تعرفي أين هما ، وأن تعثري عليهما ، لأن ...

فقاطعته الاميرة وهي تبتسم ابتسامة تهكم واستهزاء ، دون أن يتغير شيء مما كانت تعبر عنه عيناها :

— لم يكن ينقص إلا هذا ! أنا امرأة • وأنتم تظنون أننا معشر النساء جميعاً حمقات ! ولكن ثق أنني مطلعة اطلاقاً يكفيني لأن أعلم أن الابن لا يرث إلا إذا كان ابناً شرعياً ...

وأضافت تقول بالفرنسية طائفة ان هذه الترجمة خليقة بأن تظهر للأمير بطلان مزاعمه ، فيقلع عنها إقلاعا حاسماً •

— إنه ابن زنا !

— ما بالك لا تفهمين يا كاتيش ؟ أنت ذكية جداً ، فكيف لاتستطيعين أن تدركي أنه اذا كان الكونت قد كتب الى الامبراطور رسالة يلتمس فيها الموافقة على اعترافه بأبوة بطرس ، فان بطرس لا يبقى اسمه بطرس ، وانما يصبح اسمه الكونت بيزوخوف ، ويؤول اليه الميراث كاملاً في هذه الحالة ؟ واذا لم تكن الرسالة والوصية قد أتلقتا ، فلن يبقى لك شيء إلا التآسي بأنك كنت فاضلة وهلم جراً • هذا ثابت محقق •

— أنا أعلم أن الوصية كتبت • لكنني أعلم أيضاً أنها لا قيمة لها • وأظن أنك تحسبني غبية كل الغباء يا ابن عمي !

قالت الاميرة ذلك وقد لاح في وجهها ما يلوح في وجه النساء حين يعتقدن أنهن قلن شيئاً فيه فكاها لاذعة .

فقال الامير فاسيلي وقد نفذ صبره :

— عزيزتي الاميرة كاترين سيميونوفنا ! أنا لم أجيء اليك لتبادل
الوخزات ، وانما جئت إليك لأكلمك في مصالحك أنت ، كما يكلم
الانسان قريته له ، قريه طيبة ممتازة ، قريه حقيقه . أعود فأقول
لك مرة عاشره : اذا كانت الرسالة الموجهة الى الامبراطور والوصية
التي توصي لبطرس بالميراث ، اذا كانت هاتان الوثيقتان ما تزالان
بين أوراق الكونت ، فلا أنت ، يا عزيزتي الصغيرة ، ولا أختاك ، سترثن
شيئاً البتة . واذا كنت لا تصدّقينني فصدّقني العارفين : لقد بحث
الأمر مع دميري أونوفرتش (محامي الأسرة) منذ قليل ، فقال ما أقوله
لك الآن .

هنا طراً تغير مفاجيء واضح على تفكير الاميرة . فاصفرت شفتها
الريققتان (أما العينان فلم تتغيرا) ، وأصبح لصوتها حين تتكلم
انفجارات لا شك انها لا تتوقعها هي نفسها . قالت :

— سيكون ذلك شيئاً عظيماً . أنا لم أرد شيئاً في يوم من الايام ،
ولا أريد شيئاً الآن .

ودفعت الكلب الصغير عن ركبتها ، وعدلت ثنيات ثوبها . واستأنفت
كلامها فقالت :

— هذا هو اعترافه بالجميل ، هذا هو امتنانه من أولئك الذين ضحوا في سبيله بكل شيء ! عظيم جدا ! أنا لست في حاجة الى شيء
يا أمير •

فأجابها الامير فاسيلي بقوله :

— نعم ، ولكنك لست وحيدة • ان لك أختين •

ولكن الاميرة كانت لا تصغي إليه • وقالت :

— نعم ، كنت أعرف منذ مدة طويلة ، ولكنني نسيت ... كنت أعرف منذ مدة طويلة أن المرء لا يجوز أن يتوقع من هذا المنزل شيئاً غير الحطة والدناءة ، والنفاق والرياء ، والحسد والغيرة ، والمؤامرات والمكائد ، وأن لا ينتظر إلا العقوق ، إلا أبشع انواع العقوق ...
سألها الامير فاسيلي وقد أخذت خداه تشدءان مزيدا من الانشداد
يمنة ويسرة :

— أتعرفين أين هي تلك الوصية أم لا تعرفين ؟

— نعم ، كنت غبية حمقاء ، كنت أثق بالناس ، وكنت أحبهم وأضحى بنفسى في سبيلهم • ولكن لا ينجح في هذه الحياة إلا الجبناء الحقيرون • أنا أعرف من دبر هذه المؤامرات والمكائد •

وأرادت الاميرة أن تنهض ، ولكن الامير فاسيلي أمسك ذراعها ومنعها من القيام • كانت هيئتها هيئة انسان فقد على حين فجأة جميع

ما كان يملأ ذهنه من أخيلة حلوة عن بني البشر قاطبة ! ... وكانت تنظر الى محدثها غاضبة ساخطة .

قال لها الامير فاسيلي :

— لم يفت الآوان يا صديقتي . تذكرني يا كاتيش أن هذا كله وقع مصادفة في لحظة اندفاع ومرض ، ثم نسي كله . وانما يقع على عاتقنا الآن واجب اصلاح الخطأ يا عزيزتي ، وأن نلطف لحظاته الاخيرة بمنعه من ارتكاب هذا الظلم ، وأن لا ندعه يموت وفي ذهنه أنه أشقى أولئك الذين ...

— أولئك الذين ضحوا بكل شيء في سبيله .

كذلك أكملت الاميرة جملة الامير فاسيلي ، وحاولت مرة أخرى أن تنهض ، ولكن الامير منعها من القيام ، بينما كانت تتابع هي كلامها قائلة :

— ... وذلك أمر لم يستطع هو أن يقدره حق قدره في يوم من الأيام .

وأضافت تقول وهي تتنهد :

— لا يا ابن عمي ، سأظل أذكر أن على المرء أن لا ينتظر في هذا العالم مكافأة على إحسانه ، وأن هذا العالم ليس فيه شرف وليس فيه عدالة . ان على الانسان في هذا العالم أن يكون مرأيا ، وأن يكون شريراً .

- هدئي روعك • إنني أعرف قلبك الزاخر نبلا وشهامة •
- بل ان قلبي زاخر خبثاً وشرأ •
- عاد الامير يكرر قوله :

— انني أعرف قلبك ، وأقدر صداقتك ، وأتمنى أن يكون رأيك فيّ كرايي فيك • هدئي روعك ، ولنسترشد العقل فيما نقوله ما دام في الوقت متسع • قد يكون أماننا أربع وعشرون ساعة ، وقد يكون أماننا ساعة واحدة • حدثيني بكل ما تعرفينه عن الوصية ، وقولي لي خاصة اين هي • لا بد انك تعرفين اين هي • وسوف نأخذها فوراً الى الكوفت ليراها ، ويكون قد نسيها ، فلا بد أن يأمر باتلافها • هأنت ذي تدركين ان رغبتى الوحيدة هي ان انفذ ارادته تنفيذاً دقيقاً امينا • انا لم اجيء اليك الا لهذا الغرض • وما جئت الى هذا المنزل إلا لأساعدكما ، انت وهو •

قالت الاميرة :

- الآن فهمت كل شيء • الآن عرفت مصدر هذه المكائد •
- ليس هذا ما يهمننا الآن يا ابنتي •

— انها تلك المرأة التي تحميها وترعاها، انها عزيزتك آنا ميخائيلوفنا التي لو شئت أن تكون لي خادمة لرفضتها ، هذه المرأة الدنيئة ، هذه المرأة الخسيصة !

— لا نضيّعن وقتنا سدى !

— آه ... لا تجيء على ذكرها أمامي • في الشتاء الماضي ، تسلت الى هنا ، وروت للكونت عنّا جميعا ، ولا سيما عن صوفيا ، أشياء تبلغ من الهول والفضاعة أنني أستحي أن أرددها على مسمع أحد ، حتى لقد مرض الكونت منها ، ولبت خمسة عشر يوما يرفض أن يرانا • وفي تلك الآونة — أنا أعلم ذلك — انما كتب تلك الورقة الدنيئة ، تلك الورقة الحقيرة • ولكنني كنت أظن أن هذه الورقة لا قيمة لها ولا شأن •

— ها قد وصلنا الى الجوهر ! لماذا لم تذكر لي شيئا من هذا قبل الآن ؟

قالت الاميرة دون أن تجيبه عن سؤاله :

— الوصية في محفظة الاوراق ، المرصعة ، التي يحتفظ بها تحت مخدته • الآن عرفت ...

وأضافت تقول بما يشبه الصراخ وقد تغيرت تغيرا تاما :

— نعم ، اذا كان هناك اثم ارتكبته ، اذا كان هناك اثم كبير ارتكبته ، فهو اثم الكره الذي أحمله لهذه المخلوقة الشقية ! ما تسألها الى هنا ؟ ولكن صبرا ، لا قولن لها كل شيء • ستحين اللحظة المناسبة •

الفصل التاسع عشر

بينما كانت هذه الاحاديث تدور في صالون الاستقبال وغرفة الاميرة ، كانت العربدة التي تقل بطرس (الذي استدعي) وأنا ميخائيلوفنا (التي رأت ضرورة مرافقته) تدخل فناء قصر الكونت بيزوخوف. وحين قرقت عجلات العربدة قرعة مخنوقة على القش المفروش تحت النوافذ ، التفتت أنا ميخائيلوفنا الى بطرس لتقول له بضع كلمات تواسيه وتشجعه ، فوجدته نائما في ركنه فأيقظته . فلما صحا بطرس وثاب اليه وعيه نزل من العربدة في اثر أنا ميخائيلوفنا ، ولم يخطر بباله الا في تلك اللحظة أن لقاء ينتظره بينه وبين أبيه المحتضر . وقد لاحظ أن العربدة لم تقف أمام الباب الرئيسي ، بل أمام باب الخدمة . ولمح عند نزوله من العربدة رجلين يرتديان ثياب بورجوازيين صغار قد أسرعوا يختبئان في ظل الجدار ، وحين وقف رأى رجلا آخرين مثلهما قد لا ذوا بالجدران في الجهتين . ولكنه وقد لاحظ أن أحدا لم يولهم أي انتباه ، لا ماريا ميخائيلوفنا ولا الخادم ولا الحوذي ، قدر أن الامور لا بد أن تكون على هذا النحو ، ومشى يتبع أنا ميخائيلوفنا . وكانت أنا ميخائيلوفنا ترتقي السلم الحجري الضيق الذي لا يضيئه الا نور ضعيف، وتنادي بطرس الذي يسير وراءها متخلفا عنها ، وهو لا يدرك

لماذا يجب عليه أن يذهب الى الكونت ، ولماذا يرتقى هذا السلم بدلا من السلم الرئيسي ، لكنه وقد رأى ما يلوح على آنا ميخائيلوفنا من ثقة واستعجال ، كان يقدر بينه وبين نفسه أن ذلك كله ضرورة لا غنى عنها وقد كادا عند منتصف السلم أن يقلبهما أناس كانوا يحملون سطول ماء ويهبطون راكضين محدثين بأحذيتهم الطويلة جلبة شديدة • ولكن هؤلاء الاشخاص التصقوا بالجدار ليفسحوا لهما ممرا ، ولم تبد عليهم أية دهشة حين رأوهما •

قالت آنا ميخائيلوفنا تسأل واحدا منهم :

— من هنا غرف الاميرات ؟

فأجابها أحد الخدم بصوت قوي جريء ، كأن كل شيء أصبح الآن مباحا :

— نعم سيدتي ، الباب الذي على اليسار !

قال بطرس حين بلغ فسحة السلم :

— من الجائز أن لا يكون الكونت قد طلبني ، فهل أمضي الى غرفتي !

فتوقفت آنا ميخائيلوفنا حتى تتيح لبطرس أن يدركها • وقالت له وهي تلمس ذراعه بحركة كالحركة التي لمست بها ذراع ابنها في الصباح :

— آه يا صديقي ! ثق أن ألمي لا يقل عن ألمك • ولكن كن رجلا •

فسألها بطرس وهو ينظر اليها من خلال نظارتيه برقة ولطف :

— حقا ان الافضل ان أذهب الى غرفتي !

فأجابته آنا ميخائيلوفنا بقولها :

— آه يا صديقي ، انس الاساءات التي ألحقوها بك ، وفكر في

أبيك ... الذي لعله يحتضر .

وتنهدت . ثم تابعت كلامها فقالت :

— لقد أحببتك فورا كما أحب ابني . ثق بي يا بطرس . لن أهمل

مصالحك .

لم يفهم بطرس مما تعنيه شيئا . ولكنه أحس مرة أخرى أن

الامور يجب أن تجري على هذا النحو . فسار وراء آنا ميخائيلوفتش

طائعا ، وكانت آنا ميخائيلوفتش قد فتحت الباب .

كان الباب يفضي الى دهليز الغرف التي تقع من المنزل في الخلف .

وكان في الدهليز خادم عجوز من خدم الاميرات قد عكف على جورب

يحيكه . لم يكن بطرس قد دخل الى هذا الجزء من المنزل قبل اليوم ،

ولا كان يخطر بباله أن يكون في هذا المكان غرف .

ومرت خادمة تحمل بيدها صينية وابريقا ، فسألتها آنا ميخائيلوفنا

عن صحة الاميرات (مخاطبة اياها بقولها : «يا عزيزتي» و «يا أبنتي»؛

وقادت بطرس في الدهليز المبلط . وكان الباب الاول الذي يقع في

الدهليز على اليسار ، يفضي الى غرف سكنى الاميرات . وشاءت

الظروف أن تكون الخادمة التي تحمل الصينية والابريق مستعجلة

أمرها (وكان كل شيء مستعجلا في المنزل آنذاك) ، فنسيت أن تغلق باب الغرفة التي كانت تحمل اليها الصينية والابريق ، فلما مر بطرس وأنا ميخائيلوفنا أمام ذلك الباب ، نظرا الى الغرفة على غير ارادة منهما ، فرأيا كبرى الاميرات والامير فاسيلي جالسين في الغرفة يتحدثان متقاربين . فحين رآهما الامير فاسيلي بدرت منه حركة تدل على الضيق والتملل ، وارتد بجسمه الى وراء . أما الاميرة فقد نهضت غاضبة بوثبة واحدة فأغلقت الباب اغلاقا عنيفا .

ان هذه الحركة التي بدرت من الاميرة لا تتفق وما عهد فيها من هدوء ، وان الذعر الذي بان في وجه الامير فاسيلي لا يتناسب مع ما عرف فيه من رصانة ورزانة ، لذلك رأى بطرس نفسه يتوقف عن السير ، وينظر الى دليله أنا ميخائيلوفنا من خلال نظارتيه مستفهما . فلم تبد أنا ميخائيلوفنا أية دهشة ، ولم تزد على أن ابتسمت ابتسامة خفيفة وتهندت كأنما لتبين أنها كانت تتوقع هذا كله . وقالت تجيب عن نظرة بطرس اليها :

— كن رجلا يا صديقي ، أنا التي سأسهر على مصالحك !

وأسرعت في خطوها بالدهليز مزيذا من الاسراع .

كان بطرس لا يفهم ما الامر ، ولا يدرك معنى قولها : « سأسهر على مصالحك » ، ولكنه أدرك أن الامور لا بد أن تكون كما تقول ماريا ميخائيلوفنا . ونفذا من الدهليز الى صالة كبيرة مضاءة اضاءة

ضعيفة ، ملاصقة لصالون الاستقبال من جناح الكونت • انها غرفة من تلك الغرف الباردة الباذخة التي كان يعرفها بطرس حين يدخل من السلم الكبير • ولكن في وسط هذه الغرفة الان مغطسا ، وقد انسكب على سجاداتها ماء • والتقيا بخادم وقندلفت يحمل مبخرة مر³ سائرين على رؤوس الاصابع دون أن يلتفتا اليهما • ودخل بطرس وأنا ميخائيلوفنا صالون الاستقبال ، وهو صالون مألوف لبطرس ، بناذتيه اللتين جعلتا على الطراز الايطالي ، وبابه الذي يفضي الى حديقة الشتاء، واللوحة التي تصور كاترين الثانية، وصورة الكونت المعلقة تحت صورة الامبراطورة العظيمة • وكان أولئك الاشخاص أنفسهم ما يزالون يتكلمون همسا لم يكادوا يغيرون أوضاعهم • فما أن رأوا أنا ميخائيلوفنا وبطرس حتى صمتوا جميعا ، وراحوا ينظرون الى أنا ميخائيلوفنا ذات الوجه الشاحب الذي أذوته الدموع ، والى بطرس الضخم الطويل الذي كان يتبعها •

وارتسم على وجه قسمات أنا ميخائيلوفنا شعورها بأن اللحظة الحاسمة قد أزفت • فدخلت بجسارة تفوق حتى جسارتها في الصباح ، دون أن تترك بطرس ، مصطنعة أوضاع سيدة بطرسبرجية كبيرة خبيرة في شئون الاعمال • كانت تحس أنها ما دامت آتية بمن طلب المحتضر أن يراه ، تستطيع أن تكون على ثقة بأنها ستستقبل أحسن استقبال • وشملت الحضور بنظرة سريعة ، فلما رأت الكاهن المعرف ، مضت اليه بخطوات صغيرة لا منحنية تماما ، بل جاعلة جسمها يصغر على

حين فجأة ، فتلفت بركة الكاهن ، ثم تلقت بركة كاهن آخر كان في الصالون • وقالت لاحدهما :

— الحمد لله على أنه لم يفت الاوان ! لشد ما كنا خائفين ، نحن أفراد الاسرة •

وأضافت تقول بصوت أخفت :

— هذا الفتى هو ابن الكونت • يا لها من لحظات رهيبة !

وبعد أن نظقت بهذه الكلمات اتجهت الى الطبيب ، فقالت له :

— عزيزي الدكتور ، ان هذا الفتى هو ابن الكونت ••• هل من أمل ؟

فرفع الطبيب عينيه وكنفيه بحركة سريعة دون أن يتكلم • فرفعت أنا ميخائيلوفنا كنفها وعينيها بتلك الحركة نفسها ، وهي تكاد تغمض عينها ، وتنهدت ، وتركت الطبيب ، ورجعت الى بطرس فكلمته وقد بان في وجهها احترام كبير وحب عظيم يخالطه حزن • قالت له :

— لا تقنط من رحمة الله •

وأشارت الى كنبه صغيرة مهية به أن يجلس عليها بانتظار رحمة الله ، ثم اتجهت صامته الى الباب الذي كان الجميع ينظرون اليه ، ففتحته برفق شديد حتى لم يكده يسمع له صرير ، وولجت الغرفة مغلقة وراءها الباب غائبة عن الانظار •

كان بطرس قد قرر أن يطيع مرشدته في كل شيء ، فاتجه الى

الكعبة التي دلته عليها • وما ان غابت آنا ميخائيلوفنا حتى رأى الانظار كلها تنصب عليه وقد ازداد ما تعبر عنه من استطلاع وتعاطف • ولاحظ أن جميع الاشخاص الحاضرين يتهايمسون مشيرين اليه بأعينهم وهم يحسون نوعا من الرهبة بل نوعا من التذلل • انهم يظهرون له احتراماً لم يعودوه على مثله من قبل : فالسيدة التي لا يعرفها والتي كانت تكلم الكهنة قامت تخلي مكانها ليجلس هو فيه ، والضابط أسرع يحمل القفاز الذي سقط منه على الارض فيناوله اياه ، والاطباء صمتوا احتراماً حين صار على مقربة منهم ، وتنحوا ليفسحوا له ممراً • كان بطرس ينوي أن يجلس في مكان آخر حتى لا يضايق السيدة ، وقد أراد أن يتناول القفاز من الارض بنفسه ، وأن يجانب الاطباء الذين لم يكونوا عقبه في طريقه • ولكنه شعر فجأة أن هذا كله لن يكون لائقاً ، وأحس أنه في هذه الليلة شخص عليه أن يقوم بطقس من الطقوس ينتظره منه الجميع ، فعليه اذن أن يقبل خدمات كل واحد • فأخذ قفازه من يدي الضابط ، وجلس في المكان الذي أخلته له السيدة ، واضعا يديه الضخمتين على ركبتيه اللتين قدمهما متناظرتين ، جامداً على وضع ساذج كأنه تمثال من تماثيل قدماء المصريين ، وقرر بينه وبين نفسه أن هذا كله يجب أن يجري على هذا النحو ، وأن عليه في هذا المساء أن لا يتصرف وفقاً لما يميله عليه هواه ، بل وفقاً لارادة الذين يقودونه ، حتى لا يتورط فيما لا يجوز أن يتورط فيه من حماقات •

وما كادت تنقضي دقيقتان حتى دخل الامير فاسيلي الى الغرفة رافعا رأسه في أبهة ، مزدان الصدر بثلاثة أوسمة • كان يبدو عليه أنه قد نحل في هذا اليوم من الصباح الى المساء • وكانت عيناه تبدوان أوسع من سعتها المألوفة حين أجال بصره في الغرفة فرأى بطرس • وها هوذا يمضي اليه ، فيتناول يده مصافحا (وذلك ما لم يفعله قبل اليوم أبدا) ويهزها هزا قويا كأنما هو يمتحن قوتها ومقاومتها • ويقول له :

— تشجع تشجع يا صديقي • لقد طلب أن يراك •••

وأراد أن ينصرف • ولكن بطرس رأى أن عليه أن يسأله :

— كيف صحته •••

ولكنه لم يكمل جملته ، وأمسك عن الكلام مترددا ، فهو لا يدري هل يليق به أن يسمي المحتضر باسم الكونت ؛ وكان من جهة أخرى لا يجروء أن يسميه « أباه » •

فأجابه الامير فاسيلي قائلا :

— وافته ضربة جديدة منذ نصف ساعة • اعترته وعكة أخرى •

تجمل بالشجاعة يا صديقي •••

كان فكر بطرس قد بلغ من الاضطراب أنه فهم كلمة الضربة على الحقيقة لا على المجاز • فارتبك ارتباكا شديدا ، واحتار حيرة قوية ، ونظر الى الامير فاسيلي ، ثم لم يفهم الا بعد ذلك ان المقصود بالضربة

إنما هو الوعكة • وقال الامير فاسيلي للطبيب لوران بضع كلمات عابرا ، واجتاز الباب الى غرفة المحتضر سائرا على رءوس الاصابع ، وكان لا يحسن السير على رءوس الاصابع ، فهو يتواثب تواثبا اخرق بجسمه كله • وتبعته كبرى الاميرات ، فالكهنة ، فالقندلفت وصحبه ، فالخدم • وقامت جلبة وراء الباب ، وأخيرا خرجت أنا ميخائيلوفنا شاحبة اللون ولكنها رابطة الجأش ثابتة الجنان في القيام بالواجب ، وأقبلت على بطرس راكضة ، فأمسكت يده وقالت له :

— رحمة الله واسعة • الآن يبدأ الاحتفال بمنح الاسرار الاخيرة •
تعال •

فاجتاز بطرس الباب الى غرفة المحتضر ، سائرا على السجادة السميقة ، ولاحظ أن الضابط والمرأة التي لا يعرفها وعددا من الخدم قد تبعوه ، كأن الدخول الى هذه الغرفة أصبح لا يحتاج الآن الى إذن •

الفصل العشرون

ان بطرس يعرف معرفة كاملة هذه الغرفة الكبيرة التي تتوسطها أعمدة وقنطرة فتشطرها شطرين ، ويغطي السجاد الفارسي أرضها كلها . فأما الشطر الذي يقع وراء الاعمدة ، والذي يضم في إحدى جهتيه سريرا عاليا من خشب الاكاجو ذا ستائر من حرير ، ويضم في جهته الاخرى خزانة كبيرة من الزجاج فيها أيقونات ، فقد كان غارقا في نور أحمر ، كما تكون الكنائس عند اقامة صلاة المساء . وتحت الأيقونات التي كان تليسها يتلأأ في الضوء ، كانت قد وضعت أريكة طويلة من طراز فولتير . وعلى هذه الأريكة التي زودَ ظهرها بوسائد وجوهها ناصعة البياض لم تتجدد بعد ، فلا شك أنها بدلت منذ قليل ، على هذه الاركة كانت قد أضجعت القامة المهيبة الفخمة، مدثرة حتى الحزام بغطاء أخضر زاه ، وهي القامة التي يعرفها بطرس معرفة تامة ، قامة أييه ، الكونت ييزوخوف ، بعرفها الذي يشبه لبدة الأسد شعرا رماديا فوق الجبين العريض ، وبغضونها الكبيرة ، غضون النبالة الزاخرة بمضاء العزيمة وصلابة الارادة ، على وجه جميل يضرب الى حمرة الآجر لونا . كان راقدا تحت الأيقونات تماما . وكانت يدها الكبيرتان الضخمتان ممتدتين على الغطاء . وقد وضعت بين الابهام

والسبابة من يده اليمنى المبسوطة شمعة يمسكها خادم عجوز منحني على الأريكة • وحول الأريكة ، كان الكهنة ، بشياهم الفخمة الزاهرة ، وشعرهم الطويل المتدلّي على الكتفين ، يقومون بشعائر الاحتفال على مهل وفي مهابة ، وقد أمسك كل منهم بيده شمعة • وراءهم ، على مسافة قريبة منهم ، كانت تقف الاميرتان الصغريان وقد أخفت كل منهما عينها بمنديل • وأمامهما كانت تقف الاميرة الكبرى ، ماثيس التي كان وجهها يعبّر عن الشر والتصميم ، وكان بصرها معلقاً باليقونات لا يتحول عنها لحظة ، كأنما هي تريد أن تقول للجميع إنها اذا حدث أن التفتت في وقت من الأوقات فلن تكون مسئولة عن نفسها • وكانت آنا ميخائيلوفنا التي ارتسم على وجهها حزن رقيق وعطف كبير واقفة بقرب الباب هي والسيدة المجهولة • وكان الامير فاسيلي قد اتخذ له مكانا أقرب الى الاريغة في الجهة الاخرى من الباب ، على كرسي مرصّع منجد بمخمل أدار إليه مسنده متكئا عليه بيده اليسرى التي تحمل الشمعة ، وأخذ يرسم اشارة الصليب باليد اليمنى رافعا أصابعه الى الجبهة • وكان وجهه يشع تقوى هادئة واذعانا لمشيئة الرب ، وكأنه يقول : « اذا كنتم لا تفهمون هذه العواطف ، فلکم ما تريدون ! » •

وراءه كان يقف الضابط المرافق ، والاطباء ، وغيرهم من الذكور • كان الرجال والنساء قد افترقوا كما يفترقون في الكنيسة • وكان الجميع صامتين ، وكانوا كلهم يرسمون اشارة الصليب • فلا يسمع المرء إلا الترتيل الملحن في غناء مكظوم عميق يصدح به صوت جهير ، وإلا

ضجة الاقدام وتنهيدات الصدور أثناء فواصل الغناء • وها هي ذي آنا ميخائيلوفنا تجتاز الغرفة من أولها الى آخرها فتند شمعاً الى بطرس ، وقد بدا على وجهها ذلك التعبير الواضح من أنها تعرف ماذا تفعل • فأشعل بطرس الشمعة ، وأخذ يرسم اشارة الصليب باليد التي تحمل الشمعة ، ذاهلاً عن نفسه بملاحظة الحضور ورصد حركاتهم وسكناتهم •

كانت صغرى الاميرات ، وهي صوفيا الضحوك المتوردة التي تزينها شامة حسن ، كانت تنظر الى بطرس • فابتسمت وأخفت وجهها بمنديلها، ولبثت على هذه الحال مدة لا تزيج عن وجهها المنديل • لكنها وقد نظرت الى بطرس مرة أخرى أخذت تضحك • كان واضحاً أنها تشعر بالعجز عن رؤيته دون أن تضحك ، ولا تستطيع أن تمنع نفسها من النظر إليه ؛ فمن أجل أن تهرب من هذه الغواية ، مضت الى أحد الاعمدة تلوذ به وتختفي وراءه دون أن تحدث أية ضجة • وفيما كان الكهنة يقومون بمراسم الاحتفال ، اذا بأصواتهم تسكت على حين فجأة ، واذا هم يتبادلون بعض الكلام همساً ، واذا بالخادم الشيخ الذي كان يسند يد الكونت ينصب جذعه ، ويلتفت الى السيدات ، فتتقدم آنا ميخائيلوفنا ، وتميل على المريض ، وتوميء من وراء ظهرها للطبيب لوران مهية به أن يجيء • كان الطبيب الفرنسي مستنداً بظهره الى عمود من الاعمدة بغير شمعة مشعلة ، متخذاً وضع المراعاة والاحترام الذي يتخذه أجنبي مشيراً به الى أنه رغم اختلاف ديانتهم عن ديانة

القوم يدرك ما للشعائر التي يقومون بها من شأن وقيمة ، بل هو يحبّها ويستحسنها ، فها هو ذا يستجيب لنداء آنا ميخائيلوفنا الصامت ، فيقترب من المريض بخطو لا صوت له ، هو خطو رجل في عنفوان قوته ، فيتناول يديه البضاوين النحيفتين يد المريض الطليقة المبسوطة على الغطاء الاخضر ، ويجلس نبضه ملتفتا الى جانب ، مصطنعا هيئة التفكير . وسقى المريض شرابا ما ، وانهمك الناس حوله ، ثم عاد كل واحد الى مكانه ، واستؤنف الاحتفال . وقد لاحظ بطرس أثناء فترة الانقطاع هذه أن الامير فاسيلي قام عن كرسيه ، ولكنه بدلا من أن يدنو من المريض ، مرّ أمامه وقد لاح في وجهه ذلك التعبير نفسه عن أنه يعرف ما يفعل ، فاذا لم يفهم الآخرون ما يفعله فلهم شأنهم ومضى الى كبرى الأميرات ، ثم اتجها كلاهما الى السرير العالي ذي الستائر الحريرية في آخر الغرفة ، ثم خرجا هناك من الباب الثاني ، ولكنهما عادا الى مكانيهما متتابعين قبل انتهاء الاحتفال . ان بطرس لم يول هذا الامر اهتماما ولا كان يولي غيره شيئا من الاهتمام أيضا ، لأنه كان قد قرر بينه وبين نفسه أن ما كان يحدث أمامه في ذلك المساء يجب أن يحدث على هذا النحو حتماً .

وصمت الترتيل الملحن ، وسمع صوت كاهن يخاطب المريض بلهجة الاحترام مهنا إياه بتلقي الاسرار الاخيرة . وكان المريض ما يزال على سكونه وجموده . وكان كل شيء حوله يضطرب ويتحرك . وسمع وقع خطى . وسمعت همسات كان يعلوها صوت آنا ميخائيلوفنا جميعاً . وسمعها بطرس تقول :

— يجب نقله الى سريره حتماً ، فلا يجوز أن يبقى هنا ••

فأحاط الاطباء والاميرات والخدم بالمريض إحاطة بلغت من الكثافة أن بطرس أصبح لا يرى ذلك الرأس الضارب لونه الى حمرة الآجر ، المزدان بعرف كلبدة الاسد ، الذي لم يغب عن بصر بطرس لحظة واحدة طوال مدة الاحتفال ، رغم أن بطرس كان ينظر الى سائر الوجوه أيضا • وحزر من رؤية الحركات المحاذرة التي يقوم بها أولئك الذين احتشدوا حول الاريكة أنهم ينهضون المحتضر لينقلوه الى سريره • وسمع أحد الخدم يقول مدممداً بلهجة مذعورة :

— استند الى ذراعي ، سوف يسقط منك •

وقالت أصوات أخرى ملحة :

— من تحت ••• واحدا آخر •••

واشتد اللهاث وكثر وقع الخطوات على الارض ، كأن الحمل الذي ينقل يفوق ثقله طاقة حاملين •

ومرّ الحاملون ، ومنهم آنا ميخائيلوفنا ، أمام بطرس ، فرأى من وراء الظهور والاعناق ، خلال لحظة ، ذلك الصدر الممتليء المكشوف ، ودينك المنكبين القويين ، منكبي المريض الذي كان حاملوه يسنده تحت الإبطين ، ورأى ذلك الرأس الذي له عرف كلبدة الاسد ، وشعر أبيض معقّف • ان دنو الموت لم يشوّه هذا الرأس ذا الجبهة العريضة عرضا كبيرا ، والوجنتين الواسعتين سعة عظيمة ، والفم الشهواني

والنظرة الباردة المهيبة الفخمة • ان رأس الكونت لا يختلف الآن عن الرأس الذي رآه له قبل ثلاثة أشهر ، حين أرسله الكونت الى بطرسبرج • كل ما هنالك من فرق هو أنه يرتج الآن من تعثر خطى الحاملين عاجزا عن الدفاع عن نفسه ، وأن نظرتة الباردة التي تنم عن قلة الاكتراث لا تستطيع الآن أن تتجه الى شيء بعينه فتثبت عليه •

وقام هرج ومرج حول السرير خلال بضع لحظات ، ثم انفض حاملون وتفرقوا • ولمست آنا ميخائيلوفنا ذراع بطرس وقالت له : « تعال » • فتبعها بطرس الى السرير الذي كان المريض قد أضجع فيه على وضع فيه أبهة تتفق وجلال المراسم الدينية التي قام بها الكهنة • لقد أرقد مستندا برأسه عاليا الى عدد من الوسائد ، وأسبلت يداها مبسوطتين على الغطاء الحريري الاخضر • فلما دنا بطرس نظر إليه المريض وجها لوجه ، ولكن نظرتة كانت تلك النظرة التي لا يستطيع المرء أن يعرف معناها وأن يدرك دلالتها • فاما أن هذه النظرة لا تريد أن تقول شيئاً على الاطلاق ، اذ أن الانسان ما دامت عيناه مفتوحتين فلا بد أن تنظرا الى شيء من الاشياء ، وإما أن تلك النظرة كانت مثقلة بالمعاني تريد أن تقول أشياء كثيرة مفرطة في الكثرة • وقف بطرس وهو لا يعرف ماذا يجب أن يعمل ، وألقى نظرة على دليلته آنا ميخائيلوفنا ، فأومأت آنا ميخائيلوفنا بحركة سريعة من عينيها الى يد المريض ، ورسمت على شفيتها قبلة • فأدرك بطرس أنها تأمره بأن يقبل يد أبيه ، فمدّ عنقه طويلا حتى لا يشتبك رأسه بالغطاء ، وأطبق بشفتيه على اليد السمينة

ذات العظام القوية يقبّلها ، ملبيا طلب آنا ميخائيلوفنا • ولكن لا اليد تحركت أيسر تحرك ، ولا اختلجت في الوجه أية عضلة • وألقى بطرس نظرة أخرى على آنا ميخائيلوفنا يسألها بعينه عما يجب عليه أن يفعله • فدلّته آنا ميخائيلوفنا بنظرة من عينيها على كرسي بقرب السرير مهية به أن يجلس عليه • فجلس بطرس على الكرسي طائعا ، مع بقائه شاخصا ببصره الى آنا ميخائيلوفنا يسألها هل فعل ما كان يجب عليه أن يفعله • ثم عاد يجلس جلسته الساذجة التي يصطنع فيها من التناظر ما يذكر بتماثيل قدماء المصريين، أسفا أسفا واضحا لان جسمه الضخم احتل مكانا كبيرا الى هذا الحد ، جاهدا أقصى الجهد لجعل جسمه أصغر ما يمكن أن يكون • وكان ينظر الى الكونت وكان الكونت ينظر الى المكان الذي كان فيه وجه بطرس حين كان واقفا قبل أن يجلس • وكان وجه آنا ميخائيلوفنا يعبر عن شعورها بما لهذه اللحظات الاخيرة التي يلتقي فيها الاب وابنه من شأن خطير • ودام ذلك دقيقتين أحسّهما بطرس ساعة كاملة • وفجأة سرت رعشة في العضلات الضخمة والعضون من وجه الكونت • ثم اشتدت الرعشة ، والتوى الفم الجميل (في تلك اللحظة انما أدرك بطرس مدى دنو أبيه من الموت) ، وأفلت من الفم المتلوي المعقوب صوت أجش أبج لا يميز السامع فيه شيئا • فهبّت آنا ميخائيلوفنا تنظر الى عيني المريض محاولة أن تحزر رغبته : فكانت تشير له الى بطرس تارة ، والى الوراء تارة أخرى، والى الغطاء تارة ثالثة ، حتى انها سمّت له الامير فاسيلي بصوت خافت • فكانت عينا المريض وسحنته تعبر عن التملل والتبرم • وبذل جهد من أجل أن ينظر

الى الخادم الذي يقف الى جانب سريره ولا يبارحه لحظة ، فقدم الخادم يقول :

- صاحب السعادة يريد أن يقلب على الجنب الآخر .
- وقام الخادم ليقب الجسم الثقيل الى جهة الجدار .
- وقام بطرس يعاون الخادم .

وفيما كان الكونت يقلب ، إذا باحدى ذراعيه ترمي هامة الى وراء ، فيحاول الكونت جاهداً أن يردّها اليه فلا يفلح • ترى ألاحظ الكونت نظرة الذعر التي ألقاها بطرس على تلك الذراع التي فارقتها الحياة ، أم أن فكرة أخرى قد برقت في ذهن المريض المحتضر ؟ لا أحد يدري • ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن الكونت نظر الى ذراعه المتردة ، ثم الى الذعر الذي عبّر عنه وجه بطرس ، ثم الى ذراعه مرة أخرى ، ثم ارتسمت على شفّتيه ابتسامة ألم ضعيفة لا تناسب قسّمات وجهه ، كأنما هو يسخر بها من عجزه • فما رأى بطرس هذه الابتسامة حتى أحس فجأة بطعنة في صدره ، ونخز في أنفه ، ثم ضربت الدموع غشاوة على عينيه فأظلم بصره • لقد وضع المريض على الجنب الآخر • وتهد •

قالت آنا ميخائيلوفنا وهي ترى احدى الاميرات مقبلة عليها لتنهضها :

- لقد غفا • لتركه •
- وخرج بطرس •

الفصل الحادي والعشرون

لم يبق في صالون الاستقبال الا الامير فاسيلي وكبرى الاميرات، وقد جلسا تحت صورة كاترين يتحدثان بحرارة ونشاط . فما ان رأيا بطرس ومرشدته حتى صمتا عن الكلام . ولاح لبطرس أن الاميرة كان يدها شيء فأسرعت تخبئه .

وقالت الاميرة للأمير فاسيلي :

— لا أطيق أن أرى هذه المرأة .

فقال الامير فاسيلي لآنا ميخائيلوفنا :

— ان كاتيش قد أمرت بتقديم شاي للحضور في الصالون الصغير، فاذهبي الى هناك يا عزيزتي آنا ميخائيلوفنا ، وأصيبي شيئاً من الشاي، وإلا فلن تقوى على الاحتمال .

ولم يقل الامير فاسيلي شيئاً لبطرس ، واكتفى بأن شدة على ذراعه تحت الكتف بتأثر قوي . ومضى بطرس وآنا ميخائيلوفنا الى الصالون الصغير .

كان لوران يقول هناك باندفاع مكبوح وهو يشرب الشاي بفنجان من الخزف الصيني غير ذي مقبض :

— لا شيء يجدد القوى كفنجان من هذا الشاي الروسي الممتاز
بعد سهر ليلة كاملة •

كان لوران واقفا في الصالون الصغير المدور أمام مائدة عليها
فناجين شاي وأطباق حساء بارد • وقد احتشد حول المائدة جميع الذين
قضوا ليلتهم في منزل الكونت بيزوخوف ليجددوا قواهم • ان بطرس
يتذكر هذا الصالون الصغير المدور تذكره واضحا بمرآياه ومناضده •
لقد كان بطرس ، أثناء حفلات الرقص التي كانت تقام في قصر الكونت ،
يجب أن يلجأ الى هذا الصالون لجهله بالرقص ، فيلاحظ هناك
السيدات اللاتي يلبسن ثياب الرقص ، ويرى أكتافهن العارية التي تسيل
عليها جداول من ماس ولؤلؤ ، حين يمرون بهذه الغرفة فينظرون الى
أنفسهن في المرايا التي تتلألأ من شدة الاضاءة ، وتنعكس لهن فيها
صور عدة • ان هذه الغرفة لا تكاد تضيئها الآن الا شمعتان • وفناجين
الشاي وأطباق الحساء قد ألقيت في وسط ظلامها فوضى على واحدة
من تلك المناضد • وأشتات من الناس بثياب النهار تتكلم وتتهامس ،
دالة بكل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها على أن أحدا لم ينس
ما يحدث الآن في غرفة النوم ، وما سوف يحدث أيضا •

أكل بطرس كثيرا رغم أنه لم يكن به جوع شديد • وألقى على
مرشدته نظرة سائلة ، فرآها ترجع الى صالة الاستقبال سائرة على رؤوس
الاصابع ، وكان الامير فاسيلي وكبرى الاميرات قد بقيا هناك • فافترض
بطرس أن هذا أيضا أمر لا بد منه ، ومضى يتبع مرشدته بعد لحظة من

تردد • كانت آنا ميخائيلوفنا واقفة أمام كبرى الاميرات ، وكانت كلتاهما تتكلمان في آن واحد بدمدمة مضطربة •

قالت الاميرة الشابه التي كان واضحا أنها الآن مضطربة كاضطرابها حين صفقت باب غرفتها غاضبة :

— اسمحي لي يا أميرة • أظن أنني أعرف ما يليق وما لا يليق •

فأجابتها آنا ميخائيلوفنا بلهجة ثابتة وهي تحجب عنها باب غرفة النوم ، وتسد طريقها اليه :

— ولكن ألا ترين أيتها الاميرة العزيزة أن ذلك سوف يشق على عمي المسكين في هذه اللحظة التي يحتاج فيها الى الراحة ؟ وهل يجوز في مثل هذه اللحظات حديث في أشياء أرضية بعد أن تأهبت روحه •••

كان الامير فاسيلي جالسا في مقعد ، وقد صالبا ساقيه عاليتين • وكانت اهتزازات شديدة تحرك خديه تحريكا قويا وقد خسفتا وازداد عرضهما في أسفل • ولكن لم يكن يبدو عليه أنه يولي الحديث الذي يجري بين السيدتين اهتماما كبيرا • قال مخاطبا آنا ميخائيلوفنا :

— كفائك يا عزيزتي الطيبة آنا ميخائيلوفنا • دعي لكاتيش أن تتصرف • انك تعرفين مدى ما يحمله لها الكونت من حب •

وقالت الاميرة الشابة متجهة بكلامها الى الامير فاسيلي ، مظهرة المحفظة المرصعة التي كانت تمسكها بيدها :

— حتى انني لا أعرف ما تظمه هذه الورقة • ولكنني أعلم أن

الوصية الحقيقية موجودة في مكتبه ، أما هذه فليست الا ورقة منسية • •
وأرادت أن تلتفت حول آنا ميخائيلوفنا لتصل الى الباب ، ولكن آنا
ميخائيلوفنا سدت طريقها اليه بوثبة واحدة من جديد • وقالت وهي
تقبض على محفظة الاوراق قبضاً يبلغ من القوة أنه أصبح واضحاً أنها
لن تتخلى عنها :

— أعلم يا عزيزتي الاميرة الطيبة • لكنني أرجوك يا عزيزتي الاميرة،
بل أضرع اليك أن ترحميه ، أن تأخذك به شفقة • أتوسل اليك !

صمتت الاميرة الشابة • وأصبح لا يسمع شيء الا ضجة الصراع
على المحفظة • كان واضحاً أنها اذا فتحت فاهها فسوف تقول أشياء تسوء
آنا ميخائيلوفنا • وكانت آنا ميخائيلوفنا متشبثة بالمحفظة تشبثاً قوياً ،
ولكن ذلك لم يفقد صوتها عذوبته ورقته • قالت منادية بطرس :

— بطرس ، تعال الى هنا يا صديقي !

ثم أضافت تسأل الامير :

— أظن أن بطرس ليس غريباً عن مجلس الاسرة ، أليس كذلك
يا أمير ؟

فاذا بالاميرة الشابة تهتف فجأة بصوت بلغ من العلو أنه سمع
في الصالون وأحدث ارتياحاً ، فتقول :

— لماذا لا تقول شيئاً يا ابن عمي ؟ لماذا تسكت حين يبيح أحد من
الناس لنفسه أن يتدخل في أمورنا ، وأن يحدث فضائح على العتبة من

غرفة انسان يحتضر ؟

ثم دمدت تقول لآنا ميخائيلوفنا حانقة ساخطة :

— متآمرة !

وشدت المحفظة شدا بلغ من القوة أن آنا ميخائيلوفنا اضطرت أن تتقدم الى أمام بضع خطوات وأن تمسك ذراع الاميرة الشابة حتى لا ترخي المحفظة •

فما كان من الامير الا أن قام وقال بلهجة تعبر عن الدهشة والتقريع :

— ما هذا السخف ؟ اتركا المحفظة !

فأذعنت كاتيش لامر الامير وأرخت المحفظة وهي تقول :

— أنت أيضا !

أما آنا ميخائيلوفنا فلم تطع وبقيت متمسكة بالمحفظة ، فقال لها الامير :

— أقول لك اتركها • سأخذ كل شيء على عاتقي • سأمضي اليه بنفسي فأسأله • انني ... حسبك هذا !

فاعترضت آنا ميخائيلوفنا قائلة :

— ولكن دع له لحظة من راحة بعد تناول السر المقدس الكبير ، يا عزيزي الامير •

ثم التفتت الى بطرس وقالت تسأله :

— ما رأيك أنت يا بطرس ؟

كان بطرس قد اقترب منهم ، وراح يتأمل في كثير من الدهشة وجه

الاميرة الشابة الذي احتاج احتياجا شديدا وفقد كل احتشام ، كما يتأمل خدي الامير فاسيلي اللتين ترتعشان ارتعاشا قويا •

قال الامير فاسيلي مهددا آنا ميخائيلوفنا :

— تذكري أنك ستكونين مسؤولة عن جميع النتائج • انك لا

تدركين ماذا تفعلين •

وصاحت الاميرة الشابة تقول وهي تهجم على آنا ميخائيلوفنا بغتة

وتختطف من بين يديها المحفظة :

— امرأة دنيئة !

فخفض الامير فاسيلي رأسه ، وباعد ذراعيه معبرا بذلك عن عجزه •

وانهم لفي هذا ، اذا بذلك الباب ، ذلك الباب الرهيب المخوف

الذي طالما تأمله بطرس ، والذي لم يفتح قبل الآن الا بكثير من المحاذرة

والرفق ، اذا هو يفتح بقوة شديدة حتى ليصدم الحائط فيحدث ضجة

قوية ، واذا بصغرى الاميرات تخرج منه راكضة رافعة يديها الى السماء ،

وتصيح قائلة لهم :

— ماذا تصنعون ؟ أيفارق وتركوني وحدي ؟

فرمت كبرى الاميرات المحفظة • فبادرت ميخائيلوفنا تنحني الى الارض فتتناولها ، ثم تدخل غرفة النوم بسرعة وهي تقبض على المحفظة التي احتدم التنازع عليها • ولم يلبث الامير فاسيلي والاميرة الشابة استرداد وعيها وثابا الى رشدتهما فتبعها • ولم تنقض بضع دقائق حتى رجعت كبرى الاميرات شاحبة اللون ، متييسة الوجه ، عاضة على شفتها السفلى • فلما رأت بطرس عبرت قسماتها عن حقد لا سبيل الى مغالته ، وقالت :

— نعم ! ابتهج الآن ! هذا ما كنت تتمناه !

وانفجرت تبكي ناحبة ناشجة، وأخفت وجهها بمنديلها، وولت هاربة • ورجع الامير فاسيلي هو أيضا ، واتجه مترنح الجسم مهتز الخطو ، الى الديوان الذي كان يجلس عليه بطرس ، فتهالك عليه مغطيا وجهه بيده • ولاحظ بطرس أنه كان أصفر اللون ، وأن فكه الاسفل كان يضطرب ويرتجف كما يحدث للمرء حين تعثره رعدة حمى •

قال وهو يمسك كوع بطرس :

— آه يا صديقي ! ما أكثر الآثام التي نرتكبها ! ما أكثر أنواع الخداع التي نسترسل فيها ! وعلام هذا كله ؟ لقد تجاوزت الستين من عمري يا صديقي ••• واني ••• كل شيء صائر الى الموت ، كل شيء ! ••• الموت رهيب •

كان في صوت الامير فاسيلي وهو يقول هذا الكلام صدق وانطلاق لهم ير مثلها فيه من قبل •

وطفق الامير فاسيلي ييكي •

وخرجت آنا ميخائيلوفنا من غرفة النوم آخر الخارجين فأقبلت على بطرس بخطوات بطيئة ساكنة ، وقالت له :

— بطرس !

فنظر اليها بطرس مستفهما • فطبعت على جبين الفتى قبلة وبللته بدموعها ولبثت صامته لحظة • ثم قالت :

— فارق ...

فشخص بطرس ببصره اليها من خلال نظارتيه •

قالت له :

— هيا • سأوصلك • حاول أن تبكي • لا شيء يخفف عن الانسان كما تخفف عنه الدموع •

وقادته الى صالون مظلم ، فسر من أن أحدا لن يرى في هذا الصالون وجهه • وتركته آنا ميخائيلوفنا في الصالون المظلم ، فلما رجعت كان قد غرق في نوم عميق ، واضعا رأسه فوق ذراعه •

وفي الغد قالت آنا ميخائيلوفنا لبطرس :

— نعم يا عزيزي ، هذه خسارة كبرى لنا جميعا • لست أقصدك أنت • فأنت سيسندك الله ، وأنت شاب ، وأنت أصبحت تملك ثروة

طائلة فيما آمل • ان الوصية لم تفض بعد • وأنا أعرفك معرفة كافية
لأعلم أن هذا لن يذهب بصوابك ، وانما هو يفرض عليك واجبات ،
وينبغي لك أن تكون رجلا •

وكان بطرس صامتا • وتابعت آنا ميخائيلوفنا كلامها فقالت :

— قد أحكي لك في المستقبل يا عزيزي ماذا كان يمكن أن يحدث
لولا أن كنت أنا هنا • ولكنني أريد أن أذكر لك الآن أن عمي قد
وعدني أمس الاول بأن لا ينسى بوريس • ولكن الاجل لم يمهل ليوصي
له بشيء • فأمل يا صديقي أن لا تهمل تحقيق رغبة أبيك •

كان بطرس لا يفهم ، وكان ينظر الى الاميرة آنا ميخائيلوفنا صامتا
وقد احمر وجهه خجلا • حتى اذا فرغت من كلامها رجعت الى منزل
آل روستوف ونامت • وحين استيقظت من نومها أطلعت آل روستوف
وجميع من تعرفهم على تفاصيل عن موت الكونت ييزوخوف • وقالت
ان الكونت مات كما تمنى أن تموت هي نفسها ، وان نهايته ليست
مؤثرة فحسب ، وانما هي درس وعبرة أيضا ، أما عن
اللقاء الاخير الذي تم بين الاب وابنه فقد قالت عنه
انه يبلغ من قوة التأثير في النفس أنها لا تستطيع أن تتذكره الا
وتسكب الدموع غزيرة من عينيها ، وانها لا تدري أيهما كان أحسن
تصرفا من الآخر في تلك اللحظات الرهيبة : أهو الاب الذي تذكر
الجميع وتذكر كل شيء في لحظاته الاخيرة ، أم هو بطرس الذي كان

منظره يدمي القلب شفقة عليه من شدة تأثيره ، ولكنه حاول مع ذلك أن يخفي ألمه حتى لا يفاقم به عذاب أبيه المحتضر . « منظر مؤلم ، ولكنه مفيد . انه لما يسمو في نفس المرء أن يرى رجلا مثل الكونت الشيخ ، وابنه الوقور » . كذلك قالت آنا ميخائيلوفنا . وتكلمت أيضا في السر بصوت خافت عن الافعال المشينة التي صدرت عن كبرى الاميرات والامير فاسيلي .

الفصل الثاني والعشرون

في قرية ليسيه جوري^(١) ، التي يملكها الامير نيقولا آندريفتش بولكونسكي ، كان ينتظر وصول الأمير آندره والأميرة من يوم الى آخر . ولكن الانتظار لم يشوش النظام الدقيق الصارم الذي يحكم الحياة في منزل الامير الشيخ . ان الجنرال الرئيس ، الامير نيقولا آندريفتش ، الملقَّب « ملك بروسيا » قد ظل يعيش في قريته ليسيه جوري مع ابنته الأميرة ماري^(٢) ووصيفتها مدموازيل بوريان^(٣) ، منذ أن نفي الى أراضي هذه في عهد بطرس الاول . ورغم أنه قد أجاز له دخول العاصمتين في العهد الجديد ، فانه لبث يحيا في الريف دون أن يخطر بباله أن يغيب عنه في يوم من الايام ، قائلا انه اذا احتاج اليه أحد ففي وسعه أن يقطع اليه المائة والخمسين فرسخا التي تفصل ليسيه جوري عن موسكو ، وانه من جهته ليس في حاجة الى شيء ولا الى أحد . وكان يقول ان الرذائل البشرية ليس لها الا منبعان : الفراغ

(١) تعني كلمتا ليسيه جوري « الجبال الصلعاء » ، وقد أحب المؤلف ان يطابق هذا الاسم مازحاً على قرية ياسنايا بوليانا ، التي يملكها آل فولكونسكي .

(٢) تعكس الأميرة ماري ملامح وصفات ماري فولكونسكي ، أم المؤلف .

(٣) يستوحي الكاتب شخصية الأنسة بوريان من شخصية الأنسة هينسيان ، وصيفة امه . أما بوريان فهو اسم سكرتيرة نابوليون .

والاعتقاد بالخرافات • وليس هناك الا فضيلتان : النشاط والذكاء • وكان يتولى بنفسه تربية ابنته ، فمن أجل ينمي فيها هاتين الفضيلتين الكبيرين ظل يعطيها حتى العشرين من عمرها دروسا في الجبر والهندسة، مع استمراره في توزيع وقته على مشاغل لا تنقطع • كان يشغل نفسه دائما اما بكتابة مذكراته ، واما بحل مسائل في الرياضيات العالية ، واما بخراطة علب تبغ ، واما بالعمل في البساتين والاشراف على المباني التي كانت تشاد دائما في أراضيهِ • ولما كان النظام هو الشرط الاول لكل نشاط ، فقد جعل النظام في حياته يبلغ أقصى درجة من درجات الدقة • فكان يجلس الى المائدة في ظروف ثابتة لا تتغير ، لا في ساعة معينة من الوقت بل في دقيقة معينة لا يستقدمها ولا يستأخرها • وكان الامير شديد الخشونة دائم التشدد في معاملة بيئته التي تحيط به ، من ابنته الى الخدم ، دون أن يكون مع ذلك قاسيا • ولكنه كان يوقظ في النفوس من الرهبة والاحترام ما لا يوقظه فيها أقسى القساة • ورغم أنه الآن محال على التقاعد وليس له أي نفوذ أو سلطان في شؤون الدولة ، فقد كان كل حاكم جديد يأتي الى المقاطعة التي تقع فيها أطيانه يرى أن من واجبه أن يجيء اليه فيعرفه بنفسه ، فاذا وصل للقيام بهذا الواجب أدخل الى صالة الاستقبال العالية ، ولبث ينتظر الى أن يحين الوقت الذي يظهر فيه الامير ، شأنه في ذلك شأن المهندس أو البستاني أو الاميرة ماريا • وكان كل واحد يشعر في هذه الصالة بذلك الشعور الواحد نفسه ، أعني الاحترام وحتى الخشية ، متى فتح

الباب الضخم العالي ، باب مكتب الامير ، وطلع منه الشيخ بقامته الضئيلة وباروكته المرشوشة بالذرور، ويديه الصغيرتين اليابستين وحاجبيه الالبيضين المشعثين اللذين اذا قطبهما حجبا بریق عينيه المتلألأتين الفئيتين الذكيتين •

في يوم وصول الزوجين الشابين ، دخلت ماريا الى صالة الاستقبال صباحا على عادتها ، في ساعة تحيات الصباح وهي ترسم اشارة الصليب وتشعر برهبة وخشية ، وتردد في ذهنها دعاء • لقد كانت تدخل صالة الاستقبال هذه كل يوم ، وكل يوم كانت تتلو هذا الدعاء سائلة الله أن يمر هذا اللقاء اليومي بسلام •

قام الخادم العجوز المرشوش شعره بالذرور ، قام دون أن يحدث قيامه ضجة ، وقال للاميرة مدمدا : « تفضلي فادخلي » •

وكان يسمع من وراء الباب صوت مطرد منتظم هو صوت خراطة • فشدت الاميرة الباب وجلة فانفتح الباب في رفق وبغير جهد ، ووقفت على العتبة • كان الامير عاكفا على عمله في خراطة علبة للتبغ ، فلما سمع فتح الباب التفت الى الورااء فألقى نظرة عجلى وعاد يتابع عمله •

كانت الحجرة الواسعة ملأى بأشياء يراها المرء فيدرك ادراكا واضحا أنها تستعمل دائما : فالطاولة الكبيرة المثقلة بكتب ومخططات ، وخزائن الكتب العالية ، ذات الالواح الزجاجية والمفاتيح المغمودة في أقفالها ، والمنضدة المرتفعة التي يكتب عليها المرء واقفا وفوقها دفتر مفتوح ،

والمخرطة وما حولها من أدوات شتى ونشارة منشورة ، كل ذلك كان يدل على نشاط لا يهدأ ، نشاط منوع ومنظم في آن واحد . وحركة القدم الصغيرة المنتعلة حذاء تتريا مطرزا بالفضة ، والضغط الشديد الذي تقوم به اليد الجافة ذات العضلات ، يكشفان لدى الامير عن قوة صلبة أحسن الاحتفاظ بها في شيخوخة نضره .

أدار الامير العجلة عدة دورات ، ثم رفع قدمه عن الدواسة ، ومسح المقص ، وألقاه في جيب من الجلد مثبت في المخرطة ، ثم اقترب من الطاولة ونادى ابنته . ان الامير لا يبارك أولاده أبدا . وقد مد لابنته خده الذي لما يحلق شعره المنفوش بعد ، واكتفى بأن قال لها بعد أن تفرس فيها تفرسا يشتمل على قسوة ، ولكنه يشتمل في الوقت نفسه على اهتمام حنون :

— صحتك حسنة ؟ ... فاجلسي اذن !

وتناول دفتر الهندسة المكتوب بخط يده ، وقرب مقعده بركلة من رجله ، وقال وهو يقلب صفحات الدفتر بحركة سريعة ثم يشير بظفره القاسي الى الصفحة التي يجب عليها أن تدرسها :

— هذا للغد !

فمالت الاميرة على الدفتر .

ولكن الشيخ لم يلبث أن قال فجأة وهو يستل من جيب مثبت على الطاولة ظرفا موشى بخط نسوي ، ويلقيه على الطاولة !

— انتظري • هذه رسالة لك •

فتخضب وجه الاميرة بيقع حمر حين رأت الرسالة ، وأسرت
تتناولها وتحني عليها •

سألها الامير وهو يتسم ابتسامة فاترة فيكشف عن أسنان صفر
ما تزال قوية :

— من هيلوئيز ؟

فأجابته الاميرة وهي تنظر نظرة خجلة ، وتبتسم ابتسامة وجلة :

— نعم ، من جوليا •

فقال الامير بلهجة قاسية :

— سوف أمتنع عن قراءة رسالتين أخريين ، ولكنني سأقرأ الثالثة •

أخشى أن تكون رسائلكم سفاسف وترهات • سأقرأ الثالثة •

فأجابته الاميرة مادة اليه الرسالة وقد اشتدت حمرة وجهها :

— اقرأ هذه ان شئت يا أبي •

فصاح الامير يقول مقتضبا وهو يدفع عنه الرسالة ، ويتكي بكوعيه

على الطاولة ، ويجذب اليه الدفتر وأشكاله الهندسية :

— قلت سأقرأ الثالثة •

ثم بدأ الشيخ الدرس :

— والآن يا آنسة ...

قال ذلك وهو يميل على الدفتر مقتربا من ابنته اقترابا شديدا ، واضعا يده على مسند المقعد الذي تجلس فيه ، فكانت الاميرة تحس أنها محاطة من كل جهة برائحة التبغ وعفونة الشيخوخة التي تعرفها منذ مدة طويلة . ومضى الامير الشيخ يكمل كلامه :

— ... الآن يا آنسة ، هذان المثلثان متساويان : فالزاوية بجد ،

كما ترين ...

نظرت الاميرة مرتاعة الى عيني أبيها الملتصتين بقربها ، وغزت البقع الحمر وجهها . كان واضحا أنها لا تفهم شيئا ، وأنها قد بلغت من الخوف أن الخوف سيمنعها من فهم الشروح التي سيقدمها أبوها مهما تكن هذه الشروح واضحة . كان هذا المشهد يتكرر كل يوم ، سواء أكان الذنب في ذلك ذنب الاستاذ أم ذنب التلميذة : يضطرب بصر الاميرة فلا ترى شيئا ، ولا تسمع شيئا ، ولا تشعر بشيء سوى أن أباه القاسي قريب وجهه من وجهها كل القرب ، ولا تحس الا أنفاسه ورائحته ، ولا تفكر الا في الهروب من حجرته بأقصى سرعة ممكنة لتستطيع أن تفهم المسألة في غرفتها على مهل . وينفذ صبر الشيخ فيدفع مقعده ثم يقربه مجددا ضجة شديدة ، ويحاول جاهدا أن لا يغضب ، ولكنه ينتهي الى الغضب والصياح في كل مرة تقريبا ، وربما ألقى بالدفتر الى الارض أيضا .

أجابت الاميرة جوابا خطأ .

فصرخ الامير قائلا وهو يدفع الدفتر ، ويشيح عنها بحركة عنيفة :

— هل يمكن أن يكون أحد غيبا الى هذا الحد من الغباء ؟

ولكنه لم يلبث أن قام ، فسار في الغرفة بضع خطوات ، وعاد يلامس يديه شعر الاميرة ويجلس بقربها ، ويقول لها بينا هي تأخذ الدفتر مع واجبات الغد ، وتطويه متأهة للمغادرة :

— لا يسير الامر سيرا حسنا يا أميرة • ان الرياضيات شيء عظيم •
لا أحب لك أن تكوني شبيهة بسيداتنا هؤلاء الحمقاوات التافهات •
بالصبر الطويل لا بد أن تحببها أخيرا ، فتخرج السخافات من رأسك •
قال الامير لابنته ذلك ، ولامس خدها ملاعبا •

وأرادت الاميرة أن تنصرف ، ولكنه استوقفها بإشارة من يده ، وتناول من على المنضدة العالية كتابا جديدا لم يقص بعد ، وقال لها :

— هذا كتاب بعثته اليك هيلوئيز ، وعنوانه : « مفتاح السر » •
هو كتاب ديني • أنا لا أتدخل في ايمان أحد من الناس ••• وقد قلبت صفحات الكتاب • خذي والآن انصرفي •

قال الامير الشيخ ذلك وهو يرتب على كتف ابنته ، ويفلق الباب بنفسه وراءها •

رجعت الاميرة ماريا الى غرفتها وفي هيئتها ذلك الحزن وذلك الارتياح اللذان لا يفارقانها الا نادرا ، ويزيدان دمامة وجهها الذي يشبه

أن يكون وجه مريض ، وليس فيه شيء من اغراء •

وجلست الى مكتبها الذي تتراكم عليه أشتات من كتب ودفاتر وصور ، فالاميرة تميل الى الفوضى على قدر ميل أيها الى النظام الدقيق الصارم ، وألقت دفتر الهندسة جانبا ، وأسرت تفض الرسالة نافذة الصبر • ان الرسالة آتية اليها من أعز صديقات طفولتها ، من جوليا كاراجين تلك نفسها التي كانت عند آل روستوف يوم الحفلة •

واليكم ما كتبه جوليا الى صديقتها الاميرة ماريا :

صديقتي الغالية الممتازة ، ان الغياب شيء رهيب مريع ! عبثا أقول لنفسي ان نصف حياتي وسعادي هو فيك ، وان قلبينا رغم المسافة التي تفصل بيننا متحدان بروابط لا تنفصم • ان قلبي يثور على القدر ، ولا أستطيع ، رغم المرات والتسليلات التي تحيط بي ، أن أتغلب على شيء من حزن دفين أحسه في قرارة قلبي منذ فراقنا • لماذا لا نكون مجتمعين في غرفتك الكبيرة على الكنبه الزرقاء ، كنبه المسارات كما اجتمعنا في الصيف ؟ لماذا لا أستطيع كما كنت أستطيع قبل ثلاثة أشهر أن أستمد قوى روحية جديدة من نظرتك العذبة الرقيقة ، الهادئة الساجية ، العميقة النافذة ، تلك النظرة التي أحببتها كثيرا ، والتي أحسبني أراها وأنا أكتب اليك هذه الاسطر •

تهددت الاميرة ماريا حين بلغت هذه الفقرة من رسالة صديقتها ، ونظرت في المرأة المعلقة بالحائط بين النافذتين على يمينها ، فعكست لها

المرأة صورة جسمها الهزيل القميء ، ووجهها النحيل الدميم • ان عينيها اللتين لا يفارقهما الحزن تنظران الان الى المرأة وقد ازداد ما يعبر عنه وجهها من شجن وأسى • وقالت لنفسها وهي تتحول عن المرأة وتستأنف القراءة : « انها تمدحني نفاقا » • ولكن الحق أن جوليا لم تكن تمدح صديقتها نفاقا : ان عيني الاميرة الواسعتين العميقتين المضيئتين (حتى لكأنهما في بعض اللحظات تشعان وترسلان حزما من نور دافئ) تبلغان من الجمال أنهما في كثير من الاحيان تضيفان على وجهها الدميم جاذبية لا يضفي مثلها الجمال نفسه • ولكن الاميرة لم يتفق لها أن رأت في عينيها هذا التعبير الذي لا يظهر فيهما الا حين لا تفكر في نفسها • ذلك أنها كانت ، كسائر الناس ، لا تنظر الى نفسها في المرأة الا مصطنعة هيئة التجميل على غير ارادة منها ، فكان ذلك نفسه يجعل وجهها دميما •

وتابعت الاميرة قراءة الرسالة :

موسكو كلها لا تتكلم الا عن الحرب • أحد أخوي صار في الخارج ، والثاني في الحرس الذي يتحرك نحو الحدود • امبراطورنا الغالي ترك بطرسبرج ، وينتوي هو نفسه ، فيما يقال أن يعرض حياته الثمينة لمخاطر الحرب • نسأل الله أن يتم سحق الشيطان الكورسيكي الذي هدم راحة أوروبا ، على يد الملاك الذي شاءت رحمة الله العلي الجبار أن يهبه لنا عاهلا • ولقد حرمتني هذه الحرب ، عدا أخوي ، من صلة هي من أعز الصلات على قلبي ، أقصد الشاب نيقولا روستوف الذي أبت عليه حماسه أن يطبق القعود عن العمل ، فترك الجامعة ومضى

يتجند في الجيش • فيا عزيزتي ماري ، يجب أن أعترف لك بأن رحيله الى الجيش قد أورثني حزنا كبيرا ، رغم أنه صغير السن جدا • ان هذا الشاب الذي حدثتك عنه كثيرا في الصيف يملك من النبالة والفتوة الحققة ما لا يرى المرء مثله الا نادرا في هذا العصر الذي نعيش فيه بين شيوخ في العشرين من أعمارهم • وهو يملك خاصة من صراحة النفس ورقة القلب ومن الصفاء والشاعرية ما جعل صلاتي به ، مهما تكن عابرة ، بهجة من أحلى مباحج قلبي المسكين الذي طالما عانى من ألوان العذاب • آه يا صديقتي ، أنت سعيدة ، لانك لا تعرفين هذه المسرات وهذه الآلام الكاوية ! أنت سعيدة لان الآلام هي الاقوى في العادة • انني أعرف حق المعرفة أن الكونت نيقولا أصغر سنا من أن يستطيع في يوم من الايام أن يكون لي أكثر من صديق • ولكن هذه الصداقة العذبة، وهذه العلاقات الشعرية النقية كانت لتبلي حاجة ماسة ملحة • ولكن دعيني من الكلام عن هذا الآن • ان النبأ الكبير الذي يشغل اليوم موسكو كلها هو وفاة الكونت بيزوخوف الشيخ، وميراثه • تصوري أن الاميرات الثلاث لم يرثن الا قدرا يسيرا من الثروة، وأن الامير فاسيلي لم يرث شيئا البتة ، وأن السيد بطرس هو الذي ورث كل شيء ، وأنه فوق ذلك قد اعترف به ابناً شرعياً ، فأصبح اسمه الكونت بيزوخوف ، وأصبح ما لكا لاكبر ثروة في روسيا • ويقال أن الامير فاسيلي قد لعب دورا دنيئا في هذه القصة كلها ، ورجع الى بطرسبرج مذهبولا مشدوها •

اعترف لك بأن حظي من المعرفة في هذه الشؤون التي تتصل بالميراث والوصية حظ ضئيل جدا . ولكن الشيء الذي أعلمه هو أنني منذ أصبح الشاب الذي كنا نعرفه جميعا باسم السيد بطرس فحسب ، منذ أصبح اسمه الكونت ييزوخوف ، ومنذ أصبح يملك واحدة من أكبر الثروات في روسيا ، صرت أتسلى أنا كثيرا في ملاحظة تغير الامهات اللواتي يرهقهن أمر تزويج بناتهن ، وتغير الانسات أنفسهن لهجة وسلوكا في معاملة هذا الشخص الذي ما عدته في يوم من الايام الا فتى مسكينا (أقول هذا مستطردة) . ولما كان الناس يتسلون منذ سنتين بجعلي خطيبة لاشخاص لا أعرفهم في أكثر الاحيان ، فان أخبار الزواج بموسكو تسميني الآن باسم الكوتيسة ييزوخوف . ولكن لا شك أنك تحسين أنني لا يهمني البتة أن أصبح كذلك . وبمناسبة الحديث عن الزواج ، هل تعلمين أن « عمة الكل » ، أنا ميخائيلوفنا قد حدثتني بأمر قالت أنه سر مكتوم ، وهو مشروع زواج لك . انه آنا تول . ابن الامير فاسيلي لا أكثر ولا أقل ، يريدون أن يعقلوه بتزويجه من فتاة غنية مرموقة . لا أدري ما عسى يكون رأيك في الامر . ولكنني رأيت من واجبي أن أعلمك به . يقال أن الشاب جميل جدا ، فاسد جدا . هذا كل ما استطعت أن أعرفه عنه .

ولكن حسبي هذا ثثرة . لقد ملأت ورقتي الثانية كتابة ، وأمي تستدعيني لنذهب الى العشاء عند آل أبراسكين . اقرئي هذا الكتاب الصوفي الذي أرسله اليك ، والذي ذاع عندنا ذيوعا كبيرا . ان هذا

الكتاب رغم ما يشتمل عليه من أمور يصعب على عقلنا البشري أن يفهمها ، كتاب رائع تهدىء قراءته النفس وتسمو بها • استودعك الله • احترامى للسيد أليك ، وتحيتى للآنسة بوريان • أقبلك وأحبك •

جوليا

حاشية : وافينى بأبناء عن أخيك وزوجته اللطيفة الرائعة •

فكرت الاميرة ، وابتسمت شاردة الذهن ، فاذا بوجهها الذي أضاءه اشعاع عينيها يتبدل تبديلا كبيرا ، ثم اذا هي تنهض فجأة ، فتسير الى مكتبها بخطو ثقيل ، وتتناول ورقا ، وتأخذ يدها تجري بالقلم على الورق سريعة ، فتجيب صديقتها بالرسالة التالية :

صديقتى العزيزة الممتازة • ان رسالتك التي كتبتها لي في اليوم الثالث عشر من هذا الشهر قد أفرحتني فرحا عظيما • أنت اذن ما تزالين تحبينني يا عزيزتي جوليا الشاعرية ، ولم يستطع الغياب ، الذي تدمينه دما كبيرا ، أن يحدث في نفسك ما يحدثه في النفوس عادة من تأثير ؟ انك تشكين من الغياب ، فماذا يجب أن أقول أنا — اذا تجرأت فشكوت — أنا المحرومة من جميع الاعزة في قلبي؟ آه ... لولا أن لنا الدين يعزينا، اذن لكانت الحياة حزينة جدا • لماذا تتصورين لي نظرة قاسية وأنت تكلمينني عن العاطفة التي تحملينها للشاب ؟ ما أنا من هذه الناحية بالمتصلبة المتجمدة • انني أفهم هذه العواطف التي يحسها الآخرون ، واذا كنت لا أستطيع أن أشيد بها لانني ما أحسستها في يوم من الايام ، فاني لا أدينها • ولكن يبدو لي أن الحب المسيحي ، حب الانسان

لاخيه الانسان ، حب الانسان لاعدائه ، أولى بالاعتبار والتمجيد ، وأكثر عذوبة وأعظم جمالا من العواطف التي يمكن أن يوقظها جمال عيني شاب في نفس فتاة شاعرية محبة مثلك .

وقد بلغنا نبأ موت الكونت ييزوخوف قبل وصول رسالتك ، وتأثر أبي بهذا النبأ تأثرا شديدا ، وقال ان الراحل - رحمه الله - هو ثاني اثنين من ممثلي العصر العظيم ، وأن قد جاء الان دوره هو ، ولكنه سيبدل قصارى جهده حتى لا يأتي دوره الا متأخرا أكبر تأخر ممكن . أسأل الله أن يحفظنا من مصيبة كهذه المصيبة ! لا أستطيع أن أشاطرك رأيك في بطرس الذي عرفته طفلا . لقد رأيت دائما أن له قلبا ممتازا رائعا ، وهذه هي الخصلة التي أقدرها في الناس فوق كل خصلة أخرى . أما ميراثه والدور الذي لعبه الامير فاسيلي فيه ، فثيء يثير الحزن عليهما كليهما . آه يا صديقتي العزيزة، ان قول مخلصنا الرب بأن دخول الجمل في سم الخياط أسهل من دخول غني الى ملكوت الله لهو قول صادق صدقا رهيبا . انني أرثي لحال الامير فاسيلي ، ولكنني أرثي لحال بطرس مزيدا من الرثاء . ما أكثر الاغراءات والغوايات التي سيتعرض لها ويمتحن بها وهو شاب يملك هذه الثروة الطائلة ؟ لو سئلت ما ذا أتمنى لنفسى أكثر مما أتمنى لها أي شيء آخر في هذا العالم ، لقلت : أن أكون أفقر من أفقر الشحاذين . ألف شكر لك يا صديقتي العزيزة على الكتاب الذي أرسلته الي ، والذي ذاع عندهم ذيوعا كبيرا . ومع ذلك ، ما دمت تقولين انه يشتمل ، الى جانب

الاشياء الحسنة الكثيرة ، على أشياء أخرى لا يبلغها العقل الانساني الضعيف ، فأنا أرى أنه لا فائدة من العناية بقراءة تعز على الفهم فلا يجني منها المرء لذلك أية ثمرة . انني لم أستطع أن أفهم في يوم من الايام كيف يستبد ببعض الناس هذا الهوى الجارف الذي يدفعهم الى ارباك عقولهم بالتعلق بكتب صوفية لا توقظ في نفوسهم الا الشكوك ثم هي تلهب خيالهم وتخلق فيهم صفة المبالغة التي تنافي البساطة المسيحية كل المنافاة . فلنقرأ كتب الحوارين والانجيل . ولا نحاولن أن ننفذ الى ما تضمه هذه الكتب من سر ، والا فكيف نجروء، نحن الآثمين الاشقياء ، أن نتطلع الى معرفة الاسرار الرهية المقدسة، أسرار العناية الالهية ، ما دمنا نحمل هذا الجثمان الذي يقيم بيننا وبين حجابا لا يستطيع البصر أن يتجاوزه ؟ فلتكف اذن بدرس المبادئ السامية التي تركها لنا مخلصنا الرباني لتتبعها في هذه الحياة الدنيا ، لنحاول أن نلتزم بها وأن نجعل سلوكنا مطابقا لها ، ولننقع أنفسنا بأنه كلما لجمنا عقلنا الانساني الضعيف عن الاندفاع كان ذلك أدعى الى رضى الرب الذي يرفض كل علم غير صادر عنه ، وأتأ كلما قللنا محاولة التعمق فيما شاءت ارادته أن تخفيه عنا ، وهب لنا القدرة على اكتشافه بفكره الرباني .

لم يكلمني أبي عن خطيب . ولكنه قال لي انه تلقى رسالة وانه ينتظر زيارة الامير فاسيلي . أما عن مشروع الزواج الذي يتعلق بي ، فاتني أقول لك يا صديقتي العزيزة الممتازة ان الزواج في رأيي نظام

الهي يجب على الانسان أن يلتزم به • فاذا فرض علي الله ، الكلي القدرة ، أن أنهض بأعباء زوجة وأم ، فاتي ، وان يكن ذلك يحز في نفسي ، سوف أحاول أن أقوم بهذه الواجبات وفيه لها أمانة عليها بمقدار ما أستطيع ، دون أن تهمني معرفة عواطفني نحو الشخص الذي سيجعله الرب زوجا لي •

تلقيت رسالة من أخي يعلمني بها أنه واصل الي ليسيه جوري مع امرأته • سوف يكون هذا فرصة قصيرة لنا ، لانه يتركنا للمشاركة في هذه الحرب الشقية التي نجر اليها جرا لا يدري الا الله كيف ولماذا ! ان أحاديث الناس تدور كلها على الحرب لا عندكم في مركز الاعمال المالية والمجتمع الراقي فحسب ، فهنا أيضا ، وسط شغل الحقول وهدوء الطبيعة اللذين يتصورهما سكان المدن عن الريف تصورا ، يسمع الناس أحاديث الحرب ويحسونها احساسا أليما • ان أبي لا يتكلم الا عن زحف وتراجع ، وكر وفر ، وهي أمور لا أفهم منها شيئا • وفي أمس الاول ، بينا كنت أقوم بنزهتي المعتادة في شارع القرية رأيت بعيني مشهدا يمزق القلب : قافلة من الرجال جندوا عندنا ، وأرسلوا الى الجيش ••• يجب على المرء أن يرى حالة أمهات الرجال الراحلين ، وحالة زوجاتهم وأولادهم ، وأن يسمع هؤلاء وأولئك باكين منتجين • لكان الانسانية نسيت قوانين مخلصها الرباني الذي دعا الى المحبة وبشر بالعفو عن الاساءة ، ولكنها تعد فن قتل البشر بعضهم بعضا أعظم ميزة وأكبر تفوق •

استودعك الله يا صديقتي العزيزة الطيبة ، وأسأل مخلصنا الرباني
وأمه العذراء القدسية أن يظلاك برعايتهما العظيمة المقدسة •

ماري

قالت مدموازيل بوريان البسامة ، لاثغة بالراء ، مرنة صوتها
العذب ، حاملة الى الجو الثقيل الحزين الكالح الذي يجثم على صدر
الاميرة ماريا عالما آخر مختلفا كل الاختلاف ، عالما فيه فرح ومرح ،
وخفة وطيش ، وغرور واكتفاء :

— آ ... ترسلين بريدك يا أميرة ؟ أما أنا فقد أرسلت بريدي
وانتهيت • كتبت الى أمي المسكينة •
ثم أضافت تقول بصوت خافت :

— أميرة ، يجب أن أبلغك أن الامير قد قامت بينه وبين ميشيل
ايفانوف^(١) مشاجرة •

قالت ذلك لاثغة براء « المشاجرة » لثغا قويا متلذذة بسماع نفسها •
وأردفت تكمل كلامها فقالت :

— ... فالامير معتكر المزاج جدا ، متجهم الهيئة كثيرا... فكوني
حذرة ...

(١) هو المهندس المعماري في هذه الاراضي ، وسرد اسمه فيما بعد
ميشيل ايفانوفتش •

فأجابتها الاميرة ماريا بقولها :

— آه يا صديقتي العزيزة • ألم أتوسل اليك أن لا تذكر لي شيئاً
عن حالة مزاج أبي • انني لا أبيع لنفسي أن أحكم عليه وأن اقضي
فيه برأي ، ولا احب ان يفعل أحد ذلك •

وألقت الاميرة نظرة سريعة على ساعة الحائط، فلما رأت أنها متأخرة
خمس دقائق عن الوقت الذي يجب أن تقفه على العزف على البيانو
قامت تمضي الى الصالون بسرعة مرتاعة • فبين الساعة الثانية عشرة
ظهرا والثانية بعد الظهر ، وفقا للبرنامج المرسوم ، يستريح الامير في
غرفته ، وتعزف الاميرة على البيانو •

الفصل الثالث والعشرون

الخدام الشائب ألم به نعاس فغفا على كرسيه مع استمراره في الاصاخة بسمعه الى شخير الامير النائم في مكتبه الواسع • ومن الطرف الآخر في المنزل تصل اليه ، عبر الابواب المغلقة، أصوات الاجزاء الصعبة من سوناتة للموسيقى دوسيك^(١) ، تكرر الاميرة عزفها عشرين مرة •

وفي ذلك الوقت كانت تقف أمام درج الباب مركبة وعربة صغيرة، فينزل الامير آندره من المركبة ، ويساعد امرأته اللطيفة في النزول، ثم يسير وراءها • فقام تيخون العجوز وأطلع من باب حجرة المدخل رأسه المغطى بباروكة ، وأبلغ القادمين مدمدا أن الامير نائم ، وعاد يغلق الباب بسرعة • كان تيخون يعلم أنه لا وصول ابن الامير ولا وقوع أي حادث خارق يوجب تشويش النظام اليومي المتبع • وكان واضحا أن الامير آندره يعلم هذا كما يعلمه تيخون • فنظر في ساعته كمن يريد أن يتثبت من أن عادات أبيه لم يطرأ عليها تبدل منذ أن رآه آخر

(١) يوهان دوسيك ، مؤلف موسيقي تشيكي (١٧٦١ - ١٨١٢) ، راجت مؤلفاته في ذلك الزمان ، وعفى عليه النسيان الان .

مرة ، فلما تحقق من أن هذه العادات باقية على حالها ، التفت الى امرأته وقال لها :

— سيقوم بعد عشرين دقيقة • فلنذهب الآن الى الاميرة ماريا •

قالت ليزا لزوجها وهي تجيل بصرها حول المنزل ، ويعبر وجهها عما يعبر عنه وجه ضيف حين يريد أن يمدح رب المنزل الذي دعاه الى حفلة رقص :

— هذا قصر !

وأضافت قائلة :

— هيا بنا ! أسرع ! أسرع !

وفيما هي تنظر حولها ابتسمت لتيخون ، ولزوجها ، وللخادم الذي قادهما •

وسمعت صوت الموسيقى فقالت :

— أهذه ماري تتمرن ؟ فلنسر اذن سيرا هادئا رفيقا ، فنفاجئها مفاجأة •

وسارت ، فكان الامير آندره يتبعها مهذبا مؤدبا ، وقد لاح في وجهه حزن •

وقال للشيخ الذي انكب يقبل يده :

— دببت اليك الشيخوخة يا تيخون •

وقبل أن يبلغا الغرفة التي كانت تصدر عنها أصوات البيانو ،
انبعجت الفرنسية الحلوة الشقراء من باب في جانب ، فكان يبدو عليها
حين رأتهما أنها جنت فرحا • انها الفرنسية الحلوة الشقراء ، مدموازيل
بوريان • قالت :

— يا لها من سعادة كبيرة للأميرة ! أخيرا وصلتما ! يجب أن أبلغها !
فقلت لها الاميرة وهي تقبلها :

— لا ، لا ، أرجوك ! أنت مدموازيل بوريان ! أعرفك من المصادقة
التي تحملها لك أخت زوجي • انها لا تنتظرنا ! واقتربا من باب
الصالون الذي ما تزال تصدر عنه نغمات ذلك الجزء الصعب نفسه
من السوناتة متكررة مرة بعد مرة • ووقف الامير آندره مقبلا
حاجبيه كمن يتوقع شيئا مزعجا •

ودخلت الاميرة فانقطع العزف في منتصفه ، وسمعت صيحة تنطلق
من صدر الاميرة ماريا ، وسمع وقع خطاها الثقيلة، وسمع صوت قبلات •
وحين دخل الامير آندره كانت الاميرتان اللتان لم تلتقيا من قبل الا لقاء
قصيرا واحدا يوم الزواج ، قد طوقت كل منهما الاخرى بذراعيها ،
وأخذتا تتبادلان القبل • وكانت مدموازيل بوريان واقفة الى جانب ،
باضعة يدها على قلبها ، مبتسمة في خشوع ، اذا رآها راء لم يعرف أهى
تهم أن تبكي أم هي تهم أن تضحك • وقطب الامير آندره حاجبيه ، كما
يفعل هواة الموسيقى حين يسمعون لحنا نشازا • وأرخت المرأتان أخيرا

أذرعهما • ولكن لم تلبث كل منهما أن أمسكت يدي الأخرى محاولة أن تقبلهما قبل أن تفوت الفرصة ، فلما عارضت كل منهما أن تقبل الأخرى يديها ، عادتا تتبادلان القبل من جديد ، ثم اذا هما تجهشان باكيتين ، وذلك ما لم يكن يخطر ببال الامير آندره أن يقع ، ثم ثوبان الى تبادل القبل • وأخذت مدموازيل بوريان تبكي هي أيضا • وكان واضحاً أن الامير آندره قد ضاق ذرعاً بهذا المنظر • ولكن المرأتين كاتتا تعدان بكاءهما أمراً طبيعياً جداً ، حتى لكأنهما لا تتصوران أن يتم اللقاء بينهما على غير هذه الصورة •

— آه ••• عزيزتي ! آه ••• ماري ! •••

كذلك قالتا فجأة ، وانفجرتا تضحكان •

— حلمت الليلة أن •••

— أكنت لا تتوقعين أن ••• آه ماري ••• أرى أنك نحلت •••

— وأنت استرددت •••

وانبرت مدموازيل بوريان تقحم نفسها في الحديث فقالت :

— تعرفت الاميرة فوراً •

قالت ماري :

— لم أكن أتصور •••

ثم صاحت تقول وقد رأت أنها :

— آه ... آندره ! ما رأيتك ! ...

فقبل الأمير آندره أخته وقد تماسكت يدها ، وقال لها انها ما تزال بكفاءة على عهده بها . وشخصت الاميرة ماريابصرها الى وجه أخيها من خلال الدموع ، فكانت نظرتها زاخرة بالعاطفة مفعمة بالحرارة والعدوبة ، وكانت عيناها الواسعتين تشعان ضياء ، وكانت في تلك اللحظة رائعتين .

وأخذت الاميرة ليزا تتكلم بغير انقطاع . فكانت شفها العليا القصيرة التي يظللها زغب ما تنفك تعلو وتنخفض ملازمة شفها السفلى القرمزية ، وعاد الابتسام يشع من أسنانها وعينيها جميعا . روت الاميرة ليزا الحادث الذي وقع لهما في جبل سباك فتعرضت في مجلسها للخطر . ثم ذكرت أنها تركت جميع فساتينها ببطرسبرج ، وأنها ستلبس هنا ما لا يعلمه الا الله ، وأن آندره قد تغير تغيرا كبيرا ، وأن كيتي أودتنزوف قد تزوجت شيخا طاعنا في السن ، وأنهم عثروا للاميرة ماريابصر على خطيب نهائيا ، ولكنهم سيتحدثون في هذا الامر من بعد .

كانت الاميرة ماريابصر تنظر الى أخيها صامتة ، وكانت عيناها الجميلتان تفيضان حبا وحزنا . كان واضحا لمن يراها أن فكرها قد شرد في مجرى آخر من الافكار لا علاقة له بما كانت تقوله زوجة أخيها . وفيما كانت هذه تصف الحفلة الاخيرة التي شهدتها ببطرسبرج التفتت ماريابصر الى أخيها ، وقالت تسأله متتهدة :

— أ أنت مصر على الذهاب الى الحرب ؟

فتنهت ليزا أيضا • وأجاب الاخ أخته قائلا :

— من الغد •

قالت ليزا :

— يتركني هنا لا يعلم الا الله لماذا ، على حين أنه يمكن أن يحصل

على ترقية اذا هو ...

لكن الاميرة ماريا لم تتح لها أن تكمل جملتها ، وقالت تسألها

متابعة مجرى خواطرها وأفكارها ، مشيرة لها الى بطنها بنظرة فيها عاطفة :

— مؤكد ؟

فتغير وجه الاميرة ليزا وتنهت ، ثم قالت :

— نعم ، مؤكد • آه ... شيء رهيب !

وانخفضت شفتها العليا الجميلة ، وقربت ليزا وجهها من وجه أخت

زوجها ، وطفقت تبكي على غير توقع •

قال الامير وهو يقطب حاجبيه :

— انها في حاجة الى راحة • أليس كذلك يا ليزا ؟ اصطحبها الى

غرفتك يا ماريا ، وأذهب أنا الى أيننا • كيف حاله الآن ؟ ألا يزال كما

كان ؟

فأجابت الاميرة ماريا بلهجة مرحة :

— كما كان • لا أدري على أية حال ستجده الآن • فسألها الامير آندره وهو يبتسم ابتسامة خفيفة تدل على أنه رغم ما يحمله لاييه من محبة واحترام ، يعرف نقاط الضعف فيه ، قال :

— نفس المواقيت الدقيقة ؟ ونفس النزعات في المرات بين الاشجار ونفس العمل على المخرطة ؟

— نعم ، نفس المواقيت ، ونفس العمل على المخرطة ، اضافة الى الرياضيات والى دروس الهندسة التي يأخذني بها •

كذلك قالت الاميرة ماريا فرحة ، كأن دروس الهندسة هذه هي احدى كبرى مسراتها في حياتها •

وحين انقضت عشرون دقيقة ، أي حين استيقظ الامير من نومه جاء تيونون يبلغ الامير الشاب ان أباه يدعوه اليه • لقد أخل الاب الشيخ بنظامه تكريما لوصول ابنه ، فأمر بادخاله عليه في جناحه أثناء ارتدائه ثيابه تهيؤاً للغداء • وكان الامير الشيخ ما يزال يتخذ القفطان زياً له ، وكان يزين شعره بالذرور على ما كان يفعله ابناء الجيل الماضي • فلما دخل عليه الامير آندره في حجرة زينته (لا متجههم الوجه متصنع الحركات كما يفعل حين يدخل الصالونات ، بل منتعش الهيئة كما يكون حين يتحدث مع بطرس) ، كان الشيخ جالسا في مقعد عريض منجد بالجلد ، عاهدا برأسه الى يدي تيونون الذي يمشط له شعره •

قال الشيخ وهو يهز رأسه ، المرشوش بالذرور ، بمقدار ما تتيح

له الضفيرة التي كان يجدها تيخون أن يهزه :

— آ ... مرحبا بالمحارب ! تريد أن تغلب نابليون ؟ عليك اذن به
أنت وغيرك ، والا أدرجنا قريبا في عداد رعاياه •

كذلك رحَّب الامير الشيخ بابنه ، ومد اليه وجنته ليقبِّلها •

كان الشيخ رائق المزاج بعد نومه الذي يسبق الغداء • (من
مأثور كلامه أن النوم بعد الغداء فضة ، وقبل الغداء ذهب) • وأجرى
على ابنه نظرة فرحة من تحت حاجبيه الكثيفين البارزين •

اقرب الامير آندره من أبيه ، وقبله في الموضع الذي حدده له ،
ولكنه لم يلتقط الموضوع الاثير لدى أبيه ، وهو ذم عسكري المدرسة
الجديدة ، وذم بونابرت خاصة •

قال الامير آندره وهو يتابع ببصره الممتليء نشاطا واحتراما كل
حركة من حركات هيئة أبيه :

— هأنذا أجيئكم بامرأة حامل • كيف صحتك ؟

فأجابه الاب قائلا :

— لا يمرض الا الاغبياء والدعَّار • وأنت تعرفني • فأنا امرؤ
زاهد ، يعمل من الصباح الى المساء • لذلك كانت صحتي جيدة •

قال الابن مبتسما :

— الحمد لله •

— لا شأن لله بهذا •

قال الامير الشيخ ذلك ، وأردف يقول عائدا الى هوسه الثابت :

— هيه ! قل لي كيف علمكم الالمان أن تقاتلوا بونابرت وفقا لعلمكم

الحديث الذي يسمى بالاستراتيجية •

قال الامير آندره وهو يتسم ابتسامة زاخرة بالمحبة تدل على أن

عيوب الشيخ لا تمنعه من احترامه :

— دع لي أن أتنفس يا أبي • انني لك استقر بالمنزل بعد!

صاح الامير يقول وهو يهز ضفيرته ليتثبت من متانتها ويمسك

ذراع ابنه :

— سخافات ! سخافات ! ان شقة امرأتك مهياة • وسوف تتودها

الاميرة ماريا اليها ، وترىها اياها ، وسوف تثثر معها الى غير نهاية •

النساء لا تجيد الا هذا • انني مسرور بسكناها معنا • اجلس وحدتي •

فيما يتعلق بجيش ميكلسون ، أفهم • وفيما يتعلق بجيش تولستوي

أيضا^(١) ... انزال في آن واحد ، ولكن ماذا عن جيش الجنوب ؟

(١) كان الجنرال الشيخ ايفان ميكلسون (١٧٤٠ - ١٨٠٧) يقود

جيشا في بروسيا سنة ١٨٠٥ ، وكان الجنرال بطرس آ . تولستوي

(١٧٦٩ - ١٨٤٤) ، وهو ابن عم جد الكاتب يقود جيشا آخر في

المانيا الشمالية . وقد كان سفيرا لروسيا في باريس من سنة ١٨٠٧

الى سنة ١٨٠٨ •

ما الذي سيفعله جيش الجنوب ؟ بروسيا ستبقى محايدة طبعاً
 ...أعلم هذا • والنمسا ؟

قال الامير الشيخ ذلك وقد قام عن مقعده وأخذ يتجول في الغرفة
 يتبعه تيخون ماذا اليه ثيابه • وتابع كلامه فقال :

— والسويد ؟ كيف يتم اجتياز بوميرانيا ؟

فلم يسع الامير آندره ، تجاه الحاح أيه ، الا أن يشرع في عرض
 خطة الحملة التي يُستوى القيام بها ، وقد أخذ الامير آندره يشرح هذه
 الخطة على كره منه في البداية ، ولكنه أخذ يتحمس شيئاً فشيئاً ،
 وانتقل من الكلام بالروسية الى الكلام بالفرنسية دون أن يقصد ذلك .
 فقال ان جيشاً مؤلفاً من تسعين ألف رجل سيهدد بروسيا لاجراجها
 من حيادها وجرها الى الحرب ، وان جزءاً من هذا الجيش سوف ينضم
 الى الجيش السويدي في سترالسوند^(١) ، وان مائتين وعشرين ألفاً
 من النمساويين سينزلون في نابولي مع مائة ألف من الروس
 سيقاتلون في ايطاليا وعلى نهر الراين ، وان خمسين ألف روسي
 وخمسين ألف انجليزي سينزلون في نابولي ، أي أن جيشاً مؤلفاً من
 خمسمائة ألف مقاتل سيهاجم الفرنسيين من جهات عدة •

لم يظهر الامير الشيخ أي اهتمام أثناء هذا الشرح ، حتى لقد لاح
 عليه أنه لا يصغي الى كلام ابنه الامير آندره • وفيما كان مستمرا في
 ارتداء ثيابه وهو يمشي ، قاطع ابنه عدة مرات على حين بفتة • ففي

(١) مرفأ في بوريمانيا البروسية على بحر البلطيق .

المرّة الأولى قاطعه لا لشيء الا أن يقول :

— البيضاء ! البيضاء !

وكان معنى ذلك أن تيخون لا يناوله الصديرة التي يريدّها • وفي

مرّة أخرى وقف ليسأل :

— هل الولادة قريبة ؟

ولم يلبث أن هزّ رأسه لائما :

— أف أف ••• أكمل حديثك ، أكمل حديثك !

وفي المرّة الثالثة ، بينما كان الأمير آندره يختم شرحه ، أخذ الشيخ

يعني بصوت أفسدته الشيخوخة : « مالبروغ مضى يحارب ، الله يعلم

متى يرجع » •

فلم يزد الأمير آندره على أن ابتسم • وقال :

— أنا لا أقول ان هذه الخطة هي التي أويدّها ، وانما أنا عرضتها

لك عرضا • ولا شك أن نابليون أيضا له خطته التي ليست أسوأ من

هذه •

— هيا ! انك لم تطلعني على جديد •

بذلك ختم الأمير الشيخ الحديث • ثم قال بينه وبين نفسه : « الله

يعلم متى يقود » • وأضاف مخاطبا ابنه :

— اذهب الى غرفة الطعام •

الفصل الرابع والعشرون

في الوقت المحدد الثابت ، دخل الامير غرفة الطعام محلوق الذقن مرشوش الشعر ، وكان ينتظره هنالك امرأة ابنه ، والاميرة ماريا ، و مدموازيل بوريان ، والمهندس المعمار الذي شاءت نزوة من الامير أن يطعم مع أعضاء الاسرة ، رغم أن هذا الرجل الذي لا قيمة له ما كان له أن يطعم في مثل هذا الشرف بحال من الاحوال . ان الامير الذي كان في حياته يحرص أشد الحرص على التفريق بين الطبقات ، ولا يقبل أن يؤاكلة على مائدته حتى كبار موظفي المقاطعة الا في القليل النادر ، قد شاءت نزوة له على حين فجأة ، أن يبرهن بشخص المهندس المعمار ميخائيل ايفانوفتش ، الذي كان يمخط خلصة في منديل من نسيج ذي مربعات ، على أن البشر جميعا سواسية ، وشرح لابنته مرارا أن ميخائيل ايفانوفتش ليس دونهم في شيء من الاشياء . والى هذا الرجل الصموت انما كان الامير يوجه كلامه حين يكونون جالسين الى المائدة .

في صالة الطعام الرحبة الواسعة ، العالي سقفا ، كسائر غرف المنزل ، كان أهل الدار وخلصاء الامير ينتظرون وصوله . وكان يقف خادم وراء كل كرسي ، وكان رئيس الخدم يفتش المائدة حاملا على

ذراعه منشفة ، مصدرا الى الخدم أوامره بنظرات من عينيه ، منقلا بصره في كل لحظة بين ساعة الجدار وبين الباب الذي سيدخل منه الامير . وكان الامير آندره يتأمل اطارا ضخما مذهبا ، جديدا عليه ، لم يسبق له أن رآه من قبل ، وهو اطار يضم شجرة نسب الاميرة بولكونسكي ويقابله اطار لا يقل عنه ضخامة يضم صورة لامير حاكم على رأسه تاجه ، يفترض أنه سليل آل روريك ومؤسس أسرة بولكونسكي^(١) . ان الصورة رديئة ، ولا بد أنها من بنات أفكار الرسام الذي صنعها . وقف الامير آندره أمام شجرة النسب يهز رأسه ويضحك كما يضحك المرء حين يرى صورة كاريكاتورية . واقتربت منه أخته فقال لها :

— انتي أراه في هذه الصورة !

فنظرت الاميرة ماريا الى أخيها مدهوشة . انها لاتفهم لماذا هو يضحك . ان كل ما يفعله أبوها يوقظ في نفسها نوعا من احترام ديني يستبعد كل انتقاد .

وتابع الامير آندره كلامه فقال :

(١) ان آل فولكونسكي ينحدرون من صلب القديس ميخائيل ، دوق تيرنيخوف ، الذي عذبه التتر سنة ١٢٤٦ ، وأعلن قديسا . وهم يصعدون بأصولهم الى القديس فلاديمير والى روريك مؤسس السلالة الروسية في نحو سنة ٨٦٠ .

— لكل امرئ عقب كعقب آخيل • يدهشني أن يكون على هذا الجانب العظيم من الذكاء ثم هو ينصرف الى هذه الامور المضحكة !

لم تستطع ماريا أن تفهم هذه الجرأة المتmadية في أحكام أخيها ، وينا هي تهم أن ترد عليه اذ سمع وقع الخطى المنتظرة ، آتية من مكتب الامير الشيخ • وما هي الا لحظة حتى دخل الامير مسرعا فرحا طلقا على عادته في السير دائما ، فكأنه يعتمد بحركاته النشطة أن يظهر التضاد بينها وبين النظام القاسي الذي يلتزمه هذا المنزل . وفي تلك اللحظة نفسها دقت ساعة الحائط الكبيرة مؤذنة بالثانية بعد الظهر ، وردت على دقاتها ساعة أخرى نحيلة الصوت في الصالون • ووقف الامير الشيخ • ومن تحت حاجبيه الكثيفين ، طافت عيناه المتوقدتان الملتفعتان القاسيتان بالحضور ، وتلبثتا على امرأة ابنه • كانت الكنة تشعر في تلك اللحظة بتلك العاطفة نفسها التي يشعر بها جلساء القصر في حضرته ، وهو شعور رهبة واحترام يعثما هذا الشيخ في نفوس جميع من يحيطون به • وأقبل الامير على كنته الاميرة فلاعب شعرها ، وبحركة خرقاء ربت بعد ذلك على قذالها • ونظر اليها مرة أخرى محدقا في عينيها ، فقال لها ،

— سعيد جدا ، سعيد جدا •

• ثم تركها بغتة ، وجلس الى المائدة وهو يقول :

— اجلسوا • اجلس يا ميخائيل ايفانوفتش •

وأوماً لكننته مهيباً بها أن تجلس الى جانبه • وقدم لها خادم كرسياً •
قال الشيخ وهو ينظر الى بطنها المكور :

— هوه ! هوه ! تعجلتما ! ليس هذا بالمستحسن !

وضحك ضحكة جافة باردة خشنة مزعجة ، مثلما يضحك دائماً
بنفه وحده دون عينيه • وأضاف يقول :

— يجب عليك أن تمشي ، أن تمشي ، ما وسعك أن تمشي •

فلم تسمعه الاميرة ، أو لم تشأ أن تسمعه ، فهي قد صمتت وبان
عليها ، ضيق وانبرم • وسألها الامير أبناء عن أيها فابتسمت وأخذت
تتكلم ، وسألها عن أصدقاء للاسرتين ، فازدادت انتعاشاً ، وطفقت تحكي ،
فنقلت اليه تحيات ، وقصت عليه ما يتداوله الناس في المدينة من أقاويل •
فأنت وقد اشتدت حماستها :

— الاميرة أبراسكين ، المسكينة ، مات زوجها ، وذرفت عليه كل
دموع عينيها •

وعلى قدر انتعاشها واشتداد حماسها في الحديث ، كان الامير ينظر
اليها بمزيد من القسوة ، ثم اذا هو يشيح وجهه عنها فجأة ويلتفت
الى ميخائيل ايفانوفتش ، كأنما هو درسها دراسة كافية ، وكون لنفسه
عنها فكرة واضحة •

— هيه ميخائيل ايفانوفتش ! يظهر أن بونا برت تسوء أحواله •
ما أكثر القوى التي تتجمع ضده وتتألب عليه فيما يروي الامير آندره •
وكنا كلانا نعهده رجلاً تافهاً لا قيمة له •

ان ميخائيل ايفانوفتش يجهل كل الجهل أن يكون الامير قد حدثه عن بونابرت هذا الحديث ، ولكنه أدرك أن الامير يتعلل به ليشعر في المناقشة ، فنظر الى الامير الشاب مدهوشا وهو لا يعرف ما عسى ينجم عن هذا الامر كله .

قال الامير لابنه مشيرا الى المهندس المعمار :

— هو رجل عظيم الخبرة في شئون التكتيك .

وعاد الحديث يدور على الحرب وعلى بونابرت وعلى الجزرالات ، وعلى رجال الدولة اليوم . فكان يبدو على الامير العجوز أنه مقتنع بأن جميع الرجال الذين يحتلون المناصب الكبرى انما هم صبية يجهلون حتى ألفباء فن الحرب ، وان بونابرت فرنسي صغير لا قيمة له ، وأن ما يحققه من انتصار ليس له من سبب الا عدم وجود رجل مثل بولتمكين أو سوفوروف ، بل هو مقتنع كذلك بأن ليس في أوروبا أزمة سياسية، وأن ليس ثمة حرب أينما ، وانما هي مهزلة دمي تحركها أسلاك ، يمثلها رجال هذا الزمان متظاهرين بأنهم يفعلون شيئا ذا بال . فكان الامير أندره يستقبل تهكم أبيه على الرجال الجدد ضاحكا ، ويحضه على الكلام بفرح واضح ، ويضفي اليه . ثم ها هوذا يقول له :

. — كل ما هو من الماضي يبدو في الحاضر حسنا . ولكن ألم يقع سوفوروف نفسه في الفخ الذي نصبه له مورو ، ثم لم يعرف كيف يتخلص منه ؟

صرخ الامير يسأل :

— من قال لك هذا ؟ من ؟ سوفوروف !

ورمى الامير صحنه فتلقفه تيخون بحركة سريعة، وتابع الامير الشيخ كلامه يقول :

— سوفوروف ! ... فكر يا أمير آندره . هما اثنان لا ثالث لهما :
فريدريك^(١) وسوفوروف^(٢) . أما مورو^(٣) . أما مورو فقد كان يمكن
أن يؤسر لو أطلقت يدا سوفوروف . ولكن «المجلس الاعلى للنقاتق
والخمر» كان يوثق ذراعيه . لسوف ترى من هم أعضاء هذا
«المجلس الاعلى للنقاتق والخمر»^(٤) متى صرت هناك ! ان سوفوروف

-
- (١) فريدريك الثاني الاكبر (١٧٤٠ - ١٨٨٦) ملك بروسيا ، وهو قائد عسكري يملك موهبة كبيرة .
 - (٢) المارشال الشهير الكسندر ف . سوفوروف (١٧٢١ - ١٨٠٠) الذي انتصر مرارا كثيرة على الترك ، وعلى البولنديين ، وعلى الفرنسيين سنة ١٧٩٩ ، فخلع عليه لذلك لقب « أمير ايطاليا صاحب السمو » . وقد اخفق اخفاقا كبيرا اثناء انسحابه من سويسرا ، ذلك الانسحاب الذي «المجلس الاعلى للحرب» في فيينا ، وهو المجلس الذي كان يدير عمليات الحلفاء .
 - (٣) كان الجنرال جان فكتور مورو (١٧٦٣ - ١٨١٣) يقود الجيش الفرنسي في ايطاليا ، وقد انتصر عليه سوفوروف . وقد نافس نابليون واقحم في قضية الجنرال بيشيجرو فنفي سنة ١٨٠٤ . والتحق بخدمة روسيا ، فقتل في معركة درسدن .
 - (٤) ان الامير الشيخ يخلع هذا الاسم على « المجلس الاعلى للحرب في النمسا » ، اذرداء واحتقارا . وكان هذا المجلس يدير من فيينا عمليات سوفوروف في ايطاليا وسويسرا فيعرقها .

لم يستطع أن يتفاهم معهم فكيف يستطيع ذلك ميخائيل كوتوزوف •
لا يا صديقي انكم بجنرالاتكم هؤلاء لن تقدرُوا أن تصنعوا بنابليون
شيئا • ومن أجل أن تقاتلوه لا بد لكم من « فرنسيين يتكرون لذويهم ،
وينقضون على ذويهم »^(١) •

وتابع يقول مشيرا الى ما عرض على مورو في تلك السنة
نفسها من الدخول في خدمة روسيا :

— لقد أرسلوا الالمانى بالن^(٢) الى «يورك الجديدة» بأمرىكا ليأتيهم
بالفرنسي مورو • شيء عظيم ! هل كان أمثال بوتمكن ،
وسوفوروف ، وأرولوف^(٣) ألمانا ؟ لا يا صديقي ، أما أنكم جنتم وأما أني
خرفت • كان الله في عونكم • سوف نرى • ان بونايرت في نظره
قائد عظيم ! هم ...

عقب الامير آندره على كلام أبيه فقال :

— أنا لا أزعم أن جميع الاجراءات التي اتخذت حسنة ، ولكنني

(١) تعبير مستمد من لغة « وقائع القرون الوسطى الروسية » .

(٢) هو الكونت تيودور بافلوفتش بالن (١٧٨٠ — ١٨٦٣) ، الدبلوماسي
الذي أصبح بعد ذلك سفيرا لروسيا في واشنطن ، ثم في ريدودو
جانيرو .

(٣) هو الكسي أورولوف (١٧٣٧ — ١٨٠٨) الذي انتصر على الترك
في معركة تشسيمي البحرية سنة ١٧٧٧ ، فخلع عليه لقب « كونت
تشسمنسكي » .

لا أفهم كيف يكون رأيك في بونايرت هذا الرأي • اضحك اذا شئت ،
ولكن بونايرت قائد كبير مع ذلك •

فصرخ الامير الشيخ مناديا المهندس المعمار الذي كان مشغولا
بشريحة اللحم التي يأكلها ، وكان يأمل أن يكون قد نسي :

— يا ميخائيل ايفانوفتش ! ألم أقل لك حقا ان بونايرت خبير كبير
في التكتيك ؟ اليك شخصا آخر يقول هذا الكلام نفسه •

أجاب المهندس المعمار :

— طبعا ، يا صاحب السعادة •

فانطلق الامير الشيخ يضحك ضحكه الجاف مرة أخرى •

— ان بونايرت قد واتاه الحظ • هو أولا يقود جنودا ممتازين •
وهو ثانيا هاجم الالمان قبل كل شيء • والالمان أناس لم يعجز عن
الانتصار عليهم الا الكسالى • ان الالمان مغلوبون منذ أن وجد
العالم ، ولم يتفق أن غلبوا أحدا في يوم من الايام ، ولم يقاتلوا الا
بعضهم بعضا • وبانتصاره على هؤلاء انما بنى بونايرت مجده •

وراح الامير الشيخ يستعرض الاخطاء التي يرى أن بونايرت
ارتكبها في جميع حملاته ، وحتى في شئون الدولة • فكان ابنه لا
يعترض ، ولكن كان واضحا أنه مهما تكن الحجة التي يقرع بها ، لا
يستطيع أن يتزحزح عن موقفه ، مثلما كان أبوه عاجزا عن تغيير رأيه •

كان الامير آندره يصغي ممتعا عن الاعتراض ، متسائلا رغم ارادته كيف يستطيع هذا الشيخ الذي لم يترك الريف منذ أعوام كثيرة أن يعرف الوضع العسكري والسياسي في أوروبا هذه السنين الاخيرة معرفة تبلغ هذا المبلغ من السعة ، وأن يبحثه بحثا يلم بهذه التفاصيل كلها ، وأن يقضي فيه بآراء تتصف بهذا القدر كله من قوة الذكاء ودقة الادراك .

وختم الامير الشيخ حديثه بقوله :

— أظن أن شيئا مثلي لا يستطيع أن يدرك الاوضاع الراهنة على حقيقتها ؟ انك اذن لمخطيء . ان الاوضاع لا تبرح تشغل بالي وتقض مضجعي وتحرمني من النوم . قل لي بالله : بأي شيء تميز هذا الرجل الذي تصفه بأنه قائد كبير ؟

أجاب الابن قائلا :

— هذا أمر يطول الحديث فيه .

— هياَ التحق به ، صاحبك بونابرت هذا . يا مدموازيل بوريان، هذا معجب آخر بامبراطوركم الوغد !

كذلك صاح الامير الشيخ بلغة فرنسية رائعة .

فقلت الفتاة :

— تعلمون أنني لست من أنصار بونابرت ...

وظفق الامير الشيخ يدندن بصوت ناشز : « الله يعلم متى يعود » .

ثم أخذ يضحك بصوت فيه نثاز أكبر ، ونهض عن المائدة •

وقد لظمت الاميرة ليزا الصمت طوال هذه المناقشة ، وكانت تلقي نظرات مرتاعة على ماريا تارة ، وعلى حميها تارة أخرى • وبعد الغداء ، أمسكت ذراع أخت زوجها ، وسارت بها الى الغرفة المجاورة .

قالت ليزا :

— ما أذكى أباك من رجل ! لعل هذا هو السبب في أنني أخاف منه •

فأجابتها ماريا قائلة :

— وهو الى ذلك طيب جدا •

الفصل الخامس والعشرون

سيسافر الامير آندره في مساء الغد • ولم يخل الامير الشيخ بنظام حياته فانسحب الى غرفته بعد الغداء • وكانت الاميرة ليزا عند أخت زوجها •

ها هو ذا الامير آندره يهيء حقائبه بمعاونة خادمه في الجناح الذي خص به • انه مرتد ردنجات السفر بغير كتفيات • فبعد أن تولى بنفسه تفتيش العربة واطمأن الى وضع الحقائب فيها ، أمر بكدن الخيل •

لم يبق في الغرفة الا الاشياء التي يحملها بنفسه دائما : وهي علبة توضع فيها النقود ، وصندوق كبير من فضة ، ومسدسان تركيان ، وسيف هو هدية من أبيه الذي جاء بها من أوتشاكوف • كان الامير آندره يعنى بهذه الاشياء عناية كبيرة ، ويحافظ عليها محافظة شديدة • ان كل واحد منها جديد نظيف مكسو بأغطية من جوخ تربطها شرائط ربطا محكما •

حين يكون الانسان على وشك سفر وتغير في حياته ، فان أفكاره ، اذا هو كان من أولئك الذين يقدرّون على تحليل أفعالهم ، تجري في العادة مجرى يشتمل على كثير من الجد • ففي تلك اللحظة يستعرض

هذا الانسان ماضيه وبينى لمستقبله مشاريع • ولقد كان وجه الامير
آندره في أثناء ذلك ينم عن تفكير عميق ، ويعبر عن عاطفة حنون • كان
عاقدا ذراعيه وراء ظهره ، يذرع الغرفة بخطوات سريعة ، محدقا بنظره
الى امام ، يهز رأسه مسترسلا في تفكيره • ترى أكان خائفا من الذهاب
الى الحرب ؟ أكان حزينا لفراق زوجته ؟ لعله كان هذا وذلك في آن
واحد • ولكنه كان لا يجب أن يراه أحد على هذه الحال ، فما أن سمع
وقع خطوات في حجرة المدخل حتى أسبل ذراعيه ، ووقف بقرب الطاولة
متظاهرا بأنه يعقد الشريط الذي يربط غلاف علبة النقود ، مستردا معهد
في وجهه من تعبير عن الهدوء والغموض • ان الاميرة ماريا هي التي
كانت آتية اليها سائرة بخطاها الثقيلة قالت لا هثة (كان واضحا أنها
ركضت) :

— قيل لي انك أمرت بكدن الخيل • ان هناك أشياء كثيرة أريد أن
أقولها لك في خلوة • الله يعلم الى متى سنبقى مفترقين • ألسنت مستاء
من مجيئي اليك الآن ؟

ثم أضافت تقول كأنها تريد أن تشرح سؤالها :

— تغيرت كثيرا يا آندريوشا •

وابتسمت حين سمته آندريوشا • لا شك أنها تستغرب أن يكون
هذا الرجل الجميل القاسي هو آندريوشا نفسه ، الصبي النحيل
العفريت الذي كان رفيق طفولتها •

سألها دون أن يجيب عن سؤالها هي بغير ابتسامة :

— أين ليزا ؟

— كانت متعبة جدا فنامت على الديوان في غرفتي • آه يا آندره !

ان لك امرأة هي كنز ثمين !

قالت الاميرة ماريا ذلك وهي تجلس على الكنبه أمام أخيها •

وأردفت تقول :

— انها طفلة حقا ! طفلة لطيفة أكبر اللطف ، فرحة أعظم الفرح •

ما أكثر ما أحبها !

سكت الامير آندره ، ولكن الاميرة ماريا لا حظت ما بدا في قسما

وجهه من تعبير عن السخرية والازدراء •

قالت ماريا :

— ينبغي للانسان أن يكون متسامحا فيما يتصل بالعيوب الصغيرة

التي قد يراها في الآخرين • من المعصوم من الاخطاء يا آندره ؟ من المبرأ

من العيوب ؟ لا تنس أنها نشأت وترعرعت في المجتمع الراقى • ثم

ان وضعها الآن ليس وردا وريحانا • على المرء أن يضع نفسه في موضع

غيره • متى فهم الانسان كل شيء غفر كل شيء • فكر في الحالة التي

ستصير اليها هذه المسكينة حين يغيب عنها زوجها بعد الحياة التي عاشتها،

وتبقى وحيدة في الريف لا سيما وهي حامل • ذلك أمر شاق •

كان الامير آندره يبتسم وهو ينظر الى أخته ، كما فبتسم حين نصغي الى كلام أناس نعتقد أننا نعرفهم على ظهر القلب • وقال لاخته :

— ألا تعيشين أنت في الريف ؟ فهل تجددين الحياة فيه رهيبة لا تطاق ؟

— شأني أنا شأن آخر • لا نتحدثن عني أنا • أنا لا أرغب في حياة أخرى ، ولا يمكن أن أرغب في حياة أخرى،لاني لم أعرف حياة أخرى • ولكن فكر ، يا آندره ،فيما تكون عليه حالة امرأة شابة من المجتمع الراقي حين تدفن في الريف وهي في زهرة العمر وتترك وحيدة • ذلك أن بابا مشغول دائما • أما أنا فانك تعرف مدى فقري في الامور التي تهتم امرأة ألفت أن تعيش في أرقى مجتمع • مدموازيل بوريان وحدها •••

قال الامير آندره مقاطعا أخته :

— لا تعجبني صاحبك بوريان هذه البتة •

— لماذا ؟ انها فتاة لطيفة جدا ، طيبة جدا وهي فوق ذلك تستحق الشفقة • ليس لها أحد ، ليس لها أحد على الاطلاق • الحق أنني لست في غير حاجة اليها فحسب ، بل انني أضيق بها أيضا • أنت تعلم أنني كنت طوال حياتي متوحشة ميالة الى الخلوة والعزلة ، وأنا الآن أنصف بهذه الصفة أكثر مما كنت أنصف بها في أي وقت مضى • انني أحب أن أخلو الى نفسي ! ••• أبي يحبها كثيرا • انها وميخائيل ايفانوفتش الشخصان الوحيدان اللذان يعاملهما دائما معاملة لطيفة لانهما كليهما مدينان

له بالفضل • صدق شترن حين قال : « نحن لا نحب الناس بسبب ما صنعوا لنا من خير ، بقدر ما نحبهم بسبب ما صنعنا لهم من خير » • ولقد التقطها أبي يتيمة بلا مأوى ولا عمل • وهي طيبة القلب جدا • ويجب أبي طريقته في القراءة ، فهي تقرأ له في المساء • انها تجيد القراءة اجادة رائعة •

قال الامير آندره فجأة يسأل أخته :

— بصراحة يا ماري ، ألا تتألمين أحيانا من طبع أينا ؟

فدهشت الاميرة ماريا من هذا السؤال في أول الامر ، ثم ارتاعت منه بعد ذلك ارتياعا • وهتفت تقول :

— أنا ؟ ... أنا ؟ ... أنا أتألم منه ؟ ...

— انه لم يكن دمث الطبع لين المعاملة في يوم من ايام حياته ، ولا بد أن احتماله اليوم صار أصعب وأشق • هذا ما أتخيله •

كذلك قال الامير آندره ، وكان واضحا أنه تعمد أن يقول هذا الكلام تعمدا بغية ارباك أخته أو امتحانها بالتحدث عن أبيها في مثل هذه الخفة •

قالت الاميرة ماريا وهي تتابع مجرى خواطرها أكثر مما تتابع مجرى الحديث بينها وبين أخيها :

— اسمع يا آندره ! ان لك مزايا كثيرة • ولكنك مغتر بذكاكك ، مزهو بأرائك ، وذلك اثم كبير • هل يجوز لامرء أن يحكم على

أبيه ؟ وهب هذا جائزاً، فهل يوقظ رجل مثل أبي في نفس المرء من شعور غير شعور الاجلال ؟ واعلم بعد ذلك أنني مبتهجة جداً بصحبته ، سعيدة جداً معه • وكل ما أتمناه هو أن تكونوا كلكم في مثل ما أنا فيه من سعادة •

هز الامير آندره رأسه معبراً بوجهه عن أنه لا يصدق ما تزعمه له أخته •

واستطردت الاميرة ماريا فقالت :

— سأقول لك الحقيقة يا آندره • ان الشيء الوحيد الذي يؤلمني ويحز في نفسي هو أفكار أبي في شأن الدين • لست أفهم كيف يستطيع انسان له مثل هذا الذكاء المتوقد والعقل الكبير أن لا يرى ما هو واضح وضوح النهار ، وأن يضل هذا الضلال • ذلك ما يشقيني • ولكن مما يعزيني ويبعث الامل في نفسي أنني ألاحظ أنه يحقق بعض التقدم في هذا المجال أيضاً • فسخرياته أصبحت أقل وخزا ، حتى لقد استقبل منذ مدة راهبا من الرهبان وحادثه طويلاً •

قال الامير بسخرية ، ولكن بعاطفة أيضاً :

— دعيك من هذا يا صديقتي ! انني أخشى أن تكونا أنت والراهب ممن يبدون جهودهم في غير طائل !

فقالت الاميرة ماريا خجلى بعد لحظة من صمت :

— يا صديقي ، انني لا أبرح أدعو الله ، وآمل أن يسمعي • وهناك رجاء كبير أريد أن أتقدم به اليك •

— ما هو يا صديقتي ؟

— عدني بأن تلبيه • لن تكلفك تلبية رجائي أي جهد ، وليس فيها ما يسيء الى أنفك وشممك • ولكنها ستدخل العزاء الى قلبي أنا •
عدني يا آندريوشا •••

قالت ذلك وهي تدس يدها في حقيبتها الصغيرة ، وتقبض بها على شيء ما ولكنها لا تظهره بعد ، وكان واضحا أن هذا الشيء الذي تقبض عليه بيدها في حقيبتها الصغيرة هو بعينه موضوع رجائها ، وأنها لا تستطيع اخراجه قبل أن يقطع آندره لها على نفسه وعدا بتلبية الرجاء •
قال الامير آندره وقد بدا عليه أنه حزر الامر :

— سألبي رجاءك ، ولو كلفني كثيرا •••

— قل عني ما شئت • فأنا أعلم أنك مثل أبي • قل ما شئت ، ولكن لب رجائي اكراما لي • ان أبا أبي ، أعني جدنا ، كان يحملها في جميع المعارك التي خاضها • هل تعدني ؟

ولم تخرج الاميرة ماريا يدها من الحقيبة •

— طبعا أعدك •

— آندره ، أريد أن أعلق بعنقك هذه الميدالية فتباركك • عدني بأن لا تنتزعها أبدا • هل تعدني ؟

— أعدك اذا هي لم تكن ثقيلة ، ولم تشدد رقبتني ••• وأفعل ذلك اكراما لك •

كذلك قال الامير آندره مازحا ، ولكنه ندم فورا حين رأى وجه
أخته يعبر عن حزن شديد ردا على هذه المزاحه •

فأسرع يضيف قوله :

— بل انني لسعيد بهاجدا، سعيد بها أكبر السعادة حقا يا صديقتي •

— لسوف ينقذك الرب رغم ارادتك ، ولسوف يغدق عليك نعمته ،
فيردك اليه ، لان الحقيقة والسلام هما فيه وحده •

كذلك قالت الاميرة ماريا بصوت مختلج من الانفعال ، وقدمت
الى أخيها بكلتا يديها ، في أبهة وجلال ، مدالية قديمة مسودة ، هي
صورة للمسيح موضوعة في اطار بيضوي من فضة ، ومربوطة بسلسلة
فضية دقيقة الصنع •

— أرجوك ، آندره • علقها بعنقك اكراما لي ...

وكانت عيناها الواسعتان ترسلان أشعة ذات ضياء خجل مفعم
طيبة ، وكانت هاتان العينان تضيئان كل وجهها المهزول النحيل ،
فتضفيان عليه جمالا • وأراد أخوها أن يأخذ المدالية • ولكنها أوقفته
فأدرك آندره ما تريد ، فرسم اشارة الصليب ، ولثم الايقونة • وكان
متأثرا ، فكان وجهه يعبر عن حنان وسخر معا •

قالت الاخت :

— شكرا يا صديقي !

ثم قبلت جبينه وعادت تجلس على الديوان • وصمت الاثنان ، كلاهما فلا يتكلمان • وتكلمت الاميرة ماريا أخيرا فقالت ل أخيها الامير آندره :

— قلت لك يا آندره ان عليك أن تكون طيبا سمحا كما كنت دائما ، فلا تحكم على ليزا حكما قاسيا • انها لطيفة جدا ، طيبة جدا • وهي الآن في حالة صعبة شاقة أليمة •

— ما أظن أنني زعمت لك يا ماشا أنني ألوم امرأتي على شيء ، أو أنني مستاء منها • فلماذا تقولين لي هذا الكلام ؟

ظهرت على وجه الاميرة ماريا بقع حمراء ، وصمتت صمت من يشعر أنه ارتكب اثما • وأردف الامير يقول :

— أنا لم أقل لك شيئا ولكن « قيل » لك شيء • وان هذا ليؤلمني • اشتدت البقع الحمراء على جبهة الاميرة وعنقها وخديها • وأرادت أن تتكلم ، ولكنها لم تستطع أن تنطق • لقد صدق حزر أخيها : ان الاميرة ليزا قد بكت بعد الغداء وقالت انها تحس أن مخاضها سيكون عسيرا ، وانها خائفة • وندبت حظها العاثر ، وشكت حماها وزوجها • ثم نامت بعد أن بكت بكاء غزيرا •

شعر الامير آندره بشفقة على أخته • وقال لها :

— اعلمي يا ماشا أنني لا آخذ على امرأتي شيئا ، ولم آخذ عليها شيئا ، ولن آخذ عليها شيئا • وأنتي كذلك لا آخذ على نفسي شيئا في معاملتي لها • وسأبقى هكذا أيا كان الظرف الذي أجد نفسي فيه •

ولكن اذا أردت أن تعرفي الحقيقة ، فسألتني هل أنا سعيد ؟ قلت لك :
لا ! - وهل هي سعيدة ؟ لا ! لماذا ؟ لا أدري !

قال الامير آندره ذلك وقام من مكانه فاقترب من أخته ، وطبع على
جبينها قبله . وكانت عيناه الجميلتان تسطعان ببريق غير معهود فيهما ،
بريق مفعم بالطيبة والحكمة . ولكن عينيه كانتا لا تنظران الى أخته ،
بل تسرحان البصر في ظلمات الباب المفتوح وراءها . ثم قال :

- هلمي بنا اليها ، فيجب أن أودعها . بل اذهبي اليها وحدك ،
فأيقظيها من نومها ، ثم أتبعك .
وصاح يقول لخادمه :

- تعال هنا . احمل هذه الاشياء ، وضع هذا على المقعد ، وذاك
في اليمين .

نهضت الاميرة ماريا ، وسارت متجهة الى الباب . ولكنها لم تلبث
أن توقفت وقالت مخاطبة أخاها :

- آندره ، لو كنت مؤمنا لا توجهت الى الرب تدعوه أن يهب لك
الحب الذي لا تشعر به ، ولا ستجيب الرب لدعائك .

فقال الامير آندره :

- نعم ، جائز . هيا يا ماشا . أنا آت حالا .

وفيما كان الامير آندره ذاهبا الى أخته التقى ، في الرواق الذي

يربط شطري المبنى ، بمدموازيل بوريان البسامة • انها يجدها الآن
في طريقه للمرة الثالثة في هذا اليوم ، في مواضع خالية ، مبتسمة تلك
الابتسامة المتحمسة الساذجة •

قالت وهي تحمر وتخفص عينيها لا يدري المرء لماذا :

— آآآ • كنت أظن أنك في غرفتك •

فرشقها الامير آندره بنظرة قاسية ، وعبر وجهه فجأة عن حق •
لم يقل لها شيئاً • ولكنه دون أن ينظر في عينيها ألقى على جبينها
وشعرها نظرة تبلغ من الازدراء أن الفرنسية احمرت وابتعدت صامته
لم تقل كلمة واحدة • وحين اقترب من غرفة أخته كانت امرأته قد
استيقظت من نومها ، وكان صوتها الصغير الفرح أخذ يتدفق كلاما
سمعه الامير من خلال الباب المشقوق ، مثلها كمثل امرئ سكت زمنا
طويلا ، فهو يريد الآن أن يتدارك ما فاتته من وقت •

— لا ، ولكن تصوري الكوتيسة العجوز زوبوف^(١) بخصلات

شعر مستعارة ، وفم ممتليء بأسنان مصطنعة ، كأنها تريد أن تتحدى
السنين ••• ها ها ها ! ماري !

ان الامير آندره يسمع الآن امرأته تقول هذه الجملة بالفاظها نفسها

(١) هي اليزابت زوبوف (١٧٤٢ - ١٨١٣) ، أرملة الكونت الكسندر ،
وأم آخر اثير لدى كاتربين الثانية ، وهو بلاتون زوبوف
(١٧٦٧ - ١٨٢٢) •

أمام آخرين في حق الكونتيسة زوبوف ، وتتبعها بهذه الضحكة ذاتها •
 دخل بدون ضجة • كانت الاميرة ليزا المتلثة المتوردة جالسة في
 مقعد ، ممسكة شغلها بيدها ، تتكلم بغير توقف ، فتروي ذكرياتها عن
 بطرسبرج ، وتردد عبارات سبق للامير آندره أن سمعها ترددها بألفاظها
 نفسها •

دنا الامير آندره منها ، ولعب لها شعرها ، وسألها هل ارتاحت
 من عناء السفر • فأجابته اجابة مقتضبة وعادت الى ما كانت فيه من لغو •
 ان مركبة تجرها ستة أفراس ، تنتظر أمام درج الباب • والمساء مساء
 مظلم من أماسي الخريف ، فلا يستطيع الحوذي أن يرى عريش العربة من
 شدة العتمة • وعلى درج الباب أفراد منهمكون يحملون مصاييح •
 وجميع نوافذ المنزل الكبيرة مضاءة اضاءة ساطعة • والخدم يتزاحمون في
 الدهليز يريدون أن يودعوا الامير الشاب • وأهل الدار قد اجتمعوا
 في الصالون : ميخائيل ايفانوفتش ، مدموازيل بوريان ، الاميرة ماريا ،
 الاميرة ليزا •

وكان الامير آندره قد استدعاه أبوه الى حجرة عمله مرة أخرى يريد
 أن يودعه في خلوة • فالجميع ينتظرون أوبته •

حين دخل الامير آندره الى حجرة عمل أبيه كان الامير الشيخ
 واضعا نظارتيه على أنفه ، لابساً ثوب المنزل ، الابيض ، الذي لا يستقبل
 به أحدا الا ابنه ، جالسا الى مكتبه يكتب • فلما دخل عليه الامير
 آندره ، التفت اليه وقال يسأله :

— مسافر ؟

وعاد يكتب • ثم قال وهو يشير له الى خده :

— قبلني هنا • شكرا ، شكرا •

— لم الشكر ؟

— لانك تلتحق بالجيش في الوقت المحدد دون تلكؤ ، غير متشبث

بفستان امرأة • ان الخدمة أولى بالاهتمام من أي شيء • شكرا
شكرا •

وتابع الامير العجوز كتابته ، فكانت ريشته التي يسمع لها أثناء
الكتابة صريف تبلغ من سرعة الجري أنها تلتطخ الورق بالحبر الذي
ترشه رشا •

وقال لابنه :

— اذا كان لديك ما تريد أن تقوله فتكلم • انني أستطيع أن أفعل
الامرین معا: أكتب وأصغي في آن واحد •

— أريد أن أقول كلمة في موضوع امرأتي ••• ولكنني أشعر
بخجل شديد منك لانني أتركها عبئا على ذراعيك •

— ما هذا الكلام السخيف ؟ قل ما تريد أن تقوله •

— اذا حان وقت المخاض ، فاستدعوا مولدا من موسكو •••
احتياطا •

وقف الامير وحدث بعينه القاسيتين الى ابنه كأنه لم يفهم • وأردف
الامير آندره يقول وقد شعر بحرج واضح :

— أنا أعلم أن أحدا لا يستطيع شيئا اذا لم تساعد الطبيعة نفسها
بنفسها • وأعترف بأنه لا يقع مكروه الا في حالة من مليون حالة •
ولكن هذا رأيها ورأيي • لقد شحنوا رأسها بالرهبة ، فهي ترى أحلاما
مرعبة ، وتشعر بجزع •

قال الامير مكلما نفسه وقد أنهى كتابته :

— هم ••• هم •••

ثم أضاف قوله •

— سنفعل

وذيل رسالته بتوقيع عريض • ثم التفت الى ابنه فجأة ، وأخذ
يضحك مقهقهها ، وقال يسأل :

— مشكلة ، هه ؟

— ما هي ؟

— امرأتك !

كذلك أجاب الامير الشيخ مقتضبا ، بلهجة تعبر عن أشياء كثيرة •
قال الامير آندره :

— لا أفهم •

فأجابه الامير :

— وأنكى ما في الامر يا صديقي أننا لا نملك أن نغير شيئا • النساء كلهن سواء • ولا يستطيع المرء أن يتحلل من الزواج • لا تخش شيئا • لن أقول هذا لاحد • ولكنك تعرفه أنت نفسك •

وتناول الامير الشيخ بيده الصغيرة المعروقة يد ابنه فhezها مصافحا ، وحقق اليه بعينه المتوقدتين اللتين كأنهما تخترقانك اختراقا وتريان كل ما يعتمل في أعماق نفسك • وعاد يضحك ضحكه البارد من جديد •

تنهد الابن ، فكان تنهده اعترافا منه بأن أباه قد حزر ما به ، وأن ما قاله حق •

واستمر الشيخ في طي رسالته ووضعها في غلافها وختمها بالشمع ، مقلبا بين يديه الشمع والختم والظرف بحركاته النشطة المعهودة فيه •

وقال بلهجة منقطعة وهو يختم الظرف بالشمع :

— ما حيلتنا ؟ انها جميلة ! سأفعل اللازم !

كان آندره صامتا • وقد سره وساءه في آن واحد أن أباه فهم عنه وعرف ما به • ونهض الاب ، ومد الرسالة الى ابنه • وقال له :

— اسمع • اطمئن بالا على امرأتك • ما يمكن عمله سنعمله • والآن اصغ الي : سلم هذه الرسالة الى ميخائيل ايلياريونوفتش • لقد كتبت اليه طالبا منه أن يستخدمك في أعمال نافعة ، وأن لا يحتفظ بك

مرافقا مدة طويلة ، فهذه وظيفة حقيرة ! وقل له انني أذكره ، واتسي أحبه كثيرا . واكتب الي لتذكر لي كيف استقبلك . ولا تبق معه الا اذا استقبلك استقبالا لائقا بك . ان ابن نيقولا آندرييتش بولكونسكي لا يطلب الحظوة لدى انسان أيا كان . والآن تعال الى هنا .

كان كلامه يبلغ من سرعة التدفق أنه كان لا ينهي نصف كلماته . ولكن ابنه كان قد ألف أن يتابع كلامه السريع وأن يفهم عنه . وقاد الامير الشيخ ابنه الى مكتبه ، ففتح درجه ، وأخرج منه دفترا تغطي صفحاته كتابة الامير بخطه الكبير المتراص . وقال :

— أغلب الظن أنني سأموت قبلك . فاعلم أن هذا الدفتر يضم مذكرات لي أريد أن تصل الى الامبراطور بعد مماتي . والآن اليك رسالة وسندا على « بنك التسليف » هو جائزة لمن يكتب أحسن كتاب يؤرخ فيه حملات سوفوروف . يجب ايصال الرسالة والسند الى الاكاديمية . وهذه أخيرا ملاحظات لي : اقرأها بعد وفاتي ، فسوف تجني من قراءتها فائدة .

لم يقل آندره لايه انه سيعيش سنين طويلة أخرى . لقد أدرك أنه لا يحسن به أن يقول مثل هذا الكلام قال :

— سأفعل كل ما تطلبه مني يا أبت !

— والآن ، أستودعك الله !

وترك لابنه أن يقبل يده ، وشد على ذراعيه . وأضاف يقول له :

— ليكن ماثلا في ذهنك يا أمير آندره ، أنتي سأحزن طبعاً اذا قتلت ... ولكن ...

وصمت فجأة ثم تابع كلامه قائلاً بما يشبه الزئير :

— ولكن اذا بلغني أنك سلكت سلوكاً لا يليق بابن نيقولا بولكونسكي ، فسوف أشعر بخزي وعار !

قال الابن وهويتسم :

— كنت في غنى عن قول هذا ، لانني أدركه من تلقاء نفسي •
فصمت الشيخ •

وتابع الامير آندره حديثه فقال :

— كنت أريد أن أطلب منك شيئاً آخر : اذا قتلت ، ورزقت ابناً ، فاحفظ به عندك ، كما قلت أمس ، حتى يكبر ويشب قريباً منك ...
أرجوك •

فقال الشيخ الامير وهو يضحك :

— تعني أن لا أتركه لامرأتك ؟

ووقفا صامتين متقابلين • فكانت عينا الشيخ الحادتين غارقتين في عيني ابنه • وسرت في الجزء الاسفل من وجه الامير الشيخ رعشة •
وصرخ فجأة بصوت حائق قوي وهو يفتح لابنه الباب :

— لقد ودع كل منا الآخر • فامض ! ...

— ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟

كذلك سألت الاميرتان حين جاء اليها الامير آندره ، وكانتا قد لمحتا الشيخ يظهر في الباب لحظة بثوب المنزل ، الالبيض ، وبغير باروكة على رأسه ، وبنظارتين على أنفه •

فتنهذ الامير آندره ولم يجب بشيء • ثم اتجه بالكلام الى امرأته فقال بلهجة فيها سخرية فاترة وكأنه يريد أن يقول لها : « والآن استرسلني فيما تريدان أن تسترسلني فيه من تصنع ! » :

— وبعد !

فقلت الاميرة ليزا وقد اصفر وجهها ونظرت الى زوجها في رعب :
— آندره ! أراحل أنت منذ الآن ؟

فضمها بذراعيها • فأطلقت صرخة ، وتهادت على صدره مغشياً عليها • فتخلص منها متأنيا محتاطا ، وتفرس في وجهها ، ثم حملها الى مقعد فأجلسها عليه في رفق •

وقال لاخته بصوت خافت :

— استودعك الله يا ماري •

وتبادل الاخ والاخت قبلة وقد أمسك كل منهما بيد الآخر • ثم خرج الامير آندره من الغرفة بخطو سريع •

كانت الاميرة ليزا ممددة على المقعد • وكانت مدموازيل بوريان

تفرك لها صدغيها • وكانت الاميرة ماريا ، مع استمرارها في سند زوجة أخيها ، تنظر بعينيها الجميلتين الفائضتين بالدموع ، الى الباب الذي خرج منه آندره وترسم له اشارة الصليب •

ومن مكتب الامير الشيخ كانت تصل ضجات كأنها طلقات رصاص ، تتكرر كثيرا ، وتدل على أن الامير الشيخ يتمخط غاضبا ساخطا • وما ان خرج الامير آندره حتى فتح باب المكتب بسرعة ، وأطلت منه قامة الشيخ القاسية بثوبه الابيض •

قال الامير الشيخ وهو ينظر الى الاميرة ليزا المغشي عليها حانقا :

— هل سافر؟ عظيم !

وهز رأسه معبرا عن لوم وتقريع ، ودخل غرفته وهو يصفق الباب غضبا •

— انجمن الشیانی —

الفصل الأول

في شهر تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٨٠٥ ، كانت القطعات الروسية تحتل قصبات أرشدوقية النمسا ومدنها ، وكانت تصل من روسيا أفواج جديدة مستمرة ، فتستقر بقرب قلعة براوناو^(١) ، فيضيق بها السكان ضيقا شديدا •

وفي اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاول من عام ١٨٠٥ ، رابط فوج من أفواج المشاة التي وصلت منذ قليل ، رابط على مسافة نصف ميل من المدينة ، منتظرا وصول القائد العام الذي كان يريد أن يستعرضه • ورغم أن منظر الطبيعة وظروف الحياة ليس فيها شيء روسي (البساتين ، الحواجز المبنية بحجر ، الاسطح المشيدة بقرميد ، الجبال الممتدة الى أن تتلاشى في الاقاصي ، السكان الاجانب الذين ينظرون الى الجنود مستطلعين مستغربين) ، فان مظهر الفوج كان لا يختلف عن مظهر أي فوج روسي يستعد للاستعراض بمكان من الامكنة في قلب روسيا •

(١) مدينة نمسوية محصنة على نهر اين الذي يرفد نهر الدانوب من الجنوب ، وهي تقع على الحدود بين النمسا وبافاريا •

كان الفوج قد أبلغ مساء أمس ، في آخر مرحلة ، ان القائد العام سيفتش فوج الميدان • ورغم أن نص برنامج الاستعراض قد بدا لقائد الفوج غامضا غير واضح ، ورغم أن تفسيره كان محل مناقشة ، فتساءل الضباط أيحسن أم لا يحسن أن يبقى أفراد الفوج بملابس الميدان ، فقد تقرر في اجتماع لقادة الكتائب ، أن يستعرض الفوج مرتديا بزرة الاحتفالات ، عملا بالمبدأ القائل : لان يجيء عملك زائدا على المطلوب خير من أن يجيء مقصرا عنه • لذلك لم ينم الجنود لحظة واحدة ، بعد مرحلة طالت ثلاثين فرسخا ، بل سهروا ليلتهم كلها يرفأون بزاتهم ويصقلونها ، وكان الضباط المرافقون وقادة السرايا يعدون الرجال ويجمعونهم ، فما ان طلع الصبح على هذا الفوج الذي كان بالامس في المرحلة الاخيرة جمهرة مبعثرة ممتدة ، حتى كان كتلة متراصة منظمة قوامها ألفا رجل يعرف كل واحد منهم مكانه ويعرف الاعمال المسندة اليه ، وتنتظر الى كل واحد منهم فلا ترى زرا أو سيرا وضع في غير مكانه أو كان غير مجلو فلا يلمع • ولم ينصب الاهتمام على الثياب الخارجية فحسب ، بل تناول الملابس الداخلية أيضا : فلو بدا للقائد العام أن ينظر فيما تحت البزات لرأى على كل واحد قميصا نظيفا ، ولو بدا له أن ينظر في الاكياس لرأى في كل كيس جميع الاشياء التي يوجب النظام أن يضمها الكيس ، وهي « العدة » كما يسميها الجنود • أمر واحد كان يقلق بال الجميع ولا يدع لهم شيئا من راحة أو طمأنينة • ذلك هو أمر الاحذية • ان أكثر من نصف الجنود كانت أحذيتهم مهترئة

ممزقة • وليس الذنب في هذا ذنب قائد الفوج • فان المعتمدية النمساوية لم تزوده بشيء رغم مطالباته المتكررة ، مع أن الفوج قد قطع ألف فرسخ •

كان قائد الفوج جنرالاً^(١) مسنا قد وخط الشيب حاجبيه وعارضيه ، بدين الجسم محمر اللون ، عريضا من الصدر الى الظهر لا من الكتف الى الكتف • وكان يرتدي بزة جديدة واضحة الثنيات ، وكانت كتفياته المذهبة لا تخفض منكبيه بثقلها بل تبدو كأنها ترفعهما وتعليهما • ولو رأيته حينذاك لجعلك تحس أنه يقوم بعمل من أكثر اعمال حياته أبهة وفخامة ، وأنه ينجح في القيام بهذا العمل أيما نجاح • كان يتمشى أمام قطعاته مختال الخطو حائيا ظهره بعض الحني • وكان واضحا أنه معجب بفوجه ، وأنه سعيد به ، وأنه قد نذر له نفسه كلها ، ولكن مشيته المتبخترة تدل مع ذلك على أنه الى جانب اهتماماته العسكرية ليس ممن لا يكثرثون بمباهج حياة المجتمع ومفاتيح الجنس اللطيف •

قال لقائد كتيبة سرعان ما تقدم منه خطوة وهو يبتسم كابتسامة الجنرال ، فكلاهما ظاهر السعادة :

— هيه عزيزي ميخائيل مترتش ! أظن أن كلا منا يبدو جديرا برتبته الليلة ، هه ؟ ولكن مظهر الفوج عظيم أيضا ، هه ؟

(١) يندر أن يكون قائد فوج جنرالاً ، ومن الجائز أن يكون تولستوي على خطأ •

وقد أدرك قائد الكتيبة ما يشتمل عليه قول الجنرال من فرح وسخرية ، فضحك وقال :

— ما كنا لنطرد حتى من « ميدان مارس »^(١) ونحن على ما نحن عليه من أبهة !

قال الجنرال :

— هه ؟

وفي تلك اللحظة ظهر فارسان في الطريق الآتي من المدينة ، الذي يرصده مراقبون • ان واحدا من الفارسين ضابط مرافق ، والثاني قوزاقي • ولقد جاء الضابط المرافق موفداً من القائد العام ليوضح لقائد الفوج ما كان مبهما في أوامر الامس ، فقال له أن القائد العام يجب أن يرى أفراد الفوج على الحالة التي كانوا عليها أثناء المسيرة ، أي بمعاطفهم ووقاياهم ، دون أي تهيؤ أو تحضير •

كان كوتوزوف قد استقبل بالامس عضوا من أعضاء « المجلس الحربي الاعلى » آتيا من فيينا ، ليقتراح عليه وليطلب منه أن يتم انضمامه الى جيش الارشيدوق فرديناند ، والجنرال شارل ماك^(٢) بأقصى

(١) « ميدان مارس » ميدان كبير على شاطئ نهر نيفا شرق « قصر الشتاء » ، فيه كانت تتم التدريبات ، وتجري الاستعراضات .

(٢) ان الارشيدوق فرديناند « هابسبورج » (١٧٨١ - ١٨٥٠) ، وهو أخو الامبراطور فرنسوا الثاني ، قد استلم قيادة جيش بافاريا سنة ١٨٠٥ ، يعاونه الجنرال شارل ماك (١٧٥٢ - ١٨٢٨) . وكان الجنرال شارك قد هزم سنة ١٧٩٧ ، وبقي اسيرا بباريس الى سنة ١٨٠٠ ، وفي شهر تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٨٠٥ حوصر في « أولم » وسلم هذا الموقع الى الفرنسيين .

سرعة ، فلما كان كوتوزوف يرى أن هذا الانضمام ليس بالمستحسن فقد أراد أن يدعم الحجج الكثيرة الذي ساقها بحجة أخرى ، فيطلع الجنرال النمسوي على حالة القطعات الواصلة من روسيا وهي حالة محزنة • فلهذا السبب انما أراد أن يقبل على الفوج متفقدًا ، فكلما كانت حالة الفوج أسوأ كان ذلك يرضيه رضى أكبر ، ويسره سرورا أعظم • ورغم أن الضابط المرافق كان يجهل هذه التفاصيل فقد أبلغ الجنرال أن القائد العام يحرص أشد الحرص على رؤية الجنود بمعاطفهم ووقاياهم ، وأنه سيستاء اذا لم يرههم على هذه الحالة •

سمع الجنرال هذا الكلام فخفض رأسه ، ورفع منكبيه صامتًا ، وباعد ذراعيه بحركة قوية • ثم قال :

— ما أشد ما لقينا من عناء !

ثم أردف يقول لائما قائد الكتيبة :

— قلت لك يا ميخائيل مترتش ان على الجنود أن يكونوا بملابس

الميدان ما دمنا في الميدان •

وأضاف يقول متأوها :

— آه ... فما العمل الآن يارب !

ثم لم يلبث أن تقدم الى أمام وقد بدا في وجهه معنى العزم والثبات،

وصاح مناديا بصوت مألوف فيه :

— أيها السادة ضباط السرايا ! أيها الرقباء !

ولكنه قبل أن يتم ندائه ، التفت الى الضابط المرافق يسأله معبرا
بوجهه عن معنى الاحترام للشخص الذي يقصده في سؤاله :

— أهو واصل قريبا ؟

فأجابه الضابط المرافق بقوله :

— بعد ساعة فيما أظن •

وعندئذ أكمل الجنرال ندائه فقال سائلا :

— هل يمكننا تبديل الثياب في ساعة ؟

فأجابه أحدهم :

— لا أدري سيدي الجنرال •

فما كان من الجنرال الا أن تقدم بنفسه من الصفوف ، مصدرا أمره
بالعودة الى ارتداء المعاطف • فهرع قادة السرايا كل الى سريته ، وأخذ
الرقباء يسعون ويتحركون هنا وهناك (لم تكن المعاطف في حالة حسنة)،
واضطربت التشكيلات المربعة وتفرقت بعد أن كانت منظمة منسقة ،
وأخذت الاصوات تهدر مدممة بعد أن كانت ساكنة صامتة • وجعل
الجنود يذهبون ويحيئون في كل جهة من الجهات ، وطفقت الايدي
تحمل الاكياس وتتناقلها فوق الاكتاف والرءوس فتخرج منها المعاطف
وتنشرها ، وراحت الاذرع ترتفع عالية لتدس في الاكمام • فما انقضى
نصف ساعة حتى كان كل شيء قد عاد الى حاله الاولى ، واصطفت
التشكيلات مربعة كما كانت ، ولكنها أصبحت رمادية بعد أن كانت

سوداء • وتقدم الجنرال من فوجه مختال الخطو من جديد ، وأخذ يفتشه ناظرا اليه من بعيد • ثم اذا هو يتوقف صارخا على حين فجأة :

— ما هذا أيضا ؟ ما معنى هذا ؟ جيئوني بقائد السرية الثالثة •

فارتفعت أصوات في الصفوف تنادي :

— قائد السرية الثالثة يذهب الى الجنرال ! الى الجنرال قائد السرية الثالثة ! قائد السرية الثالثة ، الجنرال !

وركض ضابط مرافق يبحث عن قائد السرية الثالثة الذي تأخر عن المجيء •

وحين وصلت هذه الاصوات الى المنادى مشوهة الاوامر ، صائحة في بعض الاحيان : « الجنرال ، الى السرية الثالثة » ، فان الضابط المنادى أسرع يفصل عن سريته ، ورغم أنه مسن وأنه لم يتعود الركض، فقد طفق يركض متجها الى الجنرال متعثرا أثناء ركضه برأسي حذاءيه • كان وجه الضابط ، وهو برتبة كابتن ، يعبر عن قلق أشبه بقلق تلميذ يسأله المعلم في درس لم يحفظه • وتخضب أنفه الاحمر ببقع قانية (ربما كان مرد احمرار أنفه الى افراطه في الشراب) ، وأخذ فمه يرتعش ولا يجد سبيلا الى استرداد سكونه وهدوئه •

تفرس الجنرال في الكابتن من قمة رأسه الى أخمص قدميه بينما كان يقبل عليه لاهثا مخففا سرعة ركضه شيئا بعد شيء ، ثم صرخ يقول

له مقدما فكه الاسفل ، مشيرا بين صفوف السرية الثالثة الى جندي كان معطفه زاهي اللون مختلفا عن معاطف سائر الجنود :

— لم يبق الا أن تلبس الجنود ققاطين مزركشة ! ما هذا ؟ أين كنت ؟
 هه ؟ ... سوف أعلمك كيف تلبس الجنود صدرات في يوم استعراض !
 هه ؟ ! ...

كانت عينا الكابتن عالقتين برئيسه ، وكان يشد أصابعه الى مقدم خوذته بمزيد من القوة ، كأنه لا يتوقع السلامة الا من هذه الحركة .
 — وبعد ! ما لي أراك صامتا لا تجيب ؟ من هذا المتكرر بملابس مجرية ؟^(١)

كذلك سأل قائد الفوج مازحا بقسوة .

— صاحب السعادة ...

— ما ذا ؟ « صاحب السعادة ! » ، « صاحب السعادة ! » ، ما معنى « صاحب السعادة » ؟ هلا تكلمت أخيرا ، فشرحت ...

قال الكابتن بصوت خافت :

— صاحب السعادة ، هذا دولوخوف ، الضابط الذي جرد من رتبته وجعل جنديا ...

(١) كان الجنود المجريون يرتدون معاطف زرقاء ، اما معاطف الجنود الروس فكانت سوداء .

— أهو رقي الى رتبة فلدمارشال أم هو رد جنديا ؟ ان على الجندي أن يرتدي ما يرتديه سائر الجنود وفقا للنظام •

— صاحب السعادة ! أنت أذنت له بهذا أثناء السير !

فقال قائد الفوج وقد هدأ قليلا :

— أذنت له ؟ أذنت له ؟ هكذا أنتم دائما أيها الشبان ! يقال لكم

شيء ، فاذا أنتم ...

وصمت الجنرال لحظة ، ثم أردف :

— يقال لكم شيء ، فاذا أنتم ... ماذا ؟

كذلك ردد مرة أخرى وقد عاوده الغضب والحق ، وقال يأمر

الكابتن :

— هيا ألبس رجالك لباسا محتشما ، من فضلك ...

وبعد أن ألقى نظرة على الضابط المرافق مضى يتفقد الفوج متبخر الخطو • كان واضحا أن غضبه قد أعجبه كثيرا ، وانه كان بطوافه على الفوج يريد أن يقع على حجة جديدة للغضب • فبعد أن قرع ضابطا لان شعاره لم يكن مجلوا جلاء كافيا ، وبعد أن أنب ضابطا آخر لان اصطفاة جنوده لم يكن مستقيما ، وصل الى السرية الثالثة • وصرخ يسأل دولوخوف ، مع أنه ما يزال يفصل بينه وبينه خمسة جنود :

— ما هذه الوقفة التي تقفها ؟ أين ساقك ؟ أين هي ؟

كان دولوخوف يرتدي معطفا يضرب لونه الى زرقة •

صحح دولوخوف وضع ساقه التي كانت شبه مشية ، صححه بحركة
بطيئة ليس فيها شيء من مسارعة ، ووجد الجنرال بنظرة صافية
وقحة • قال له الجنرال :

— ما هذا المعطف الازرق ؟ يجب خلعه !

والتفت الى الرقيب يأمره قائلاً:

— فليغير ملبسه ، هذا الثا

ولكن دولوخوف لم يتح له أن يتم النطق بكلمة الشتم التي هم
بها ، اذ قاطعه قائلاً له :

— جنرال ، انني ملزم بتنفيذ الاوامر ، ولكن لست ملزماً بتحمل

ال ...

— اسكت ! ... لا يجوز للجندي أن يتكلم وهو في الصف ،

لا يجوز ، لا يجوز ...

ولكن دولوخوف أكمل كلامه بصوت ثابت قوي :

— لست ملزماً بتحمل الشتائم ...

والتقت عينا الجنرال بعيني الجندي • فغضب الجنرال وأخذ

يشد حمالة سرواله التي كانت تضايقه بضغطها على كتفيه ، ولكنه لم
يجد ما يجب به دولوخوف فصمت لا ينطق بكلمة •

وقال أخيراً وهو ينصرف عنه :

— غير ملبسك ، من فضلك ... أرجوك !

الفصل الثاني

— وصلوا !

كذلك صاح واحد من الذين كانوا يرصدون الطريق • فاحمر وجه قائد الفوج فجأة ، ومضى الى حصانه ركضا ، فأمسك الركاب بيد مرتعشة ، ووثب الى السرج فصار على صهوة الجواد ، واستل سيفه من قرابه ، وتأهب لاصدار الاوامر بالصراخ وقد لاحت في وجهه معاني السعادة والعزيمة ، وفغر فمه في أحد جانبيه • وانتعش الفوج ، كطائر هز ريشه ثم جمد لا يتحرك •

صرخ الجنرال بصوت يوقظ الموتى من فرط قوته :

— تهيه ١٠٠٠ !

وكانت صرخته تشتمل على فرح في نفسه ، وقسوة على فوجه ، وترحيب بالرئيس الذي يقبل •

على الطريق الواسعة الممهدة التي لا حجارة فيها ، والتي تحف بها الأشجار من الجانبين، ظهرت مركبة سامقة فييناوية، زرقاء زرقة وضاحة، من طراز « دي أوموف » ، كانت تجري خيبا سريعا ، ولا يسمع

لنوابضها الا صريف خفيف^(١) . ووراء المركبة يجري ضباط الحاشية على صهوات خيولهم ويواكبهم حرس كرواتيون^(٢) .

كان يجلس في المركبة الى جانب كوتوزوف ، جنرال نمسوي يرتدي بزة بيضاء تبدو غريبة غير مألوفة في وسط الروس الذين يرتدون بزات سودا . وتوقفت العربّة على مقربة من الفوج . وكان كوتوزوف والجنرال النمسوي يتحادثان بصوت خافت . وقد ابتسم كوتوزوف ابتسامة خفيفة حين نزل عن مرقاة المركبة متباطئا متثاقلا ، كأن هؤلاء الرجال الذين يبلغ عددهم ألفين ، والذين يرنون اليه بأبصارهم حاسين أنفاسهم لا وجود لهم ، لا هم ولا قائد الفوج .

ودوّنت صيحة تصدر أمرا جديدا، فإذا الفوج يتحرك مقرّعا بأسلحته . وفي وسط صمت كصمت الموت سمع صوت القائد العام ضعيفا واهنا . وزأر أفراد الفوج محيين : «عاش صاحب السعادة ! عاش عاش عاش !» . ثم عاد كل شيء جامدا لا حراك فيه . وبعد أن بقي كوتوزوف ساكنا بينما كان موكب الفوج يمر أمامه ، أخذ يطوف بالصفوف ماشيا الى جانب الجنرال الابيض لتفقد الجنود في صحبة حاشيته .

(١) هي مركبة تجرها أربعة أحصنة متتالية ، ويقودها حوذيان اثنان . ويخطيء تولستوي اذ يتحدث عن هذه المركبة في عام ١٨٠٥ ، ذلك لأنها لم يبدأ استعمالها الا في عهد عودة ال بوربون الى العرش ، وقد أدخلها دوق أومون ، ومن هنا جاء اسمها .

(٢) كان شعب كرواتيا السلافي خاضعا في ذلك الوقت للمجر ، وكانت تشكل منه أفواج فرسان ودرك في الجيش النمسوي - المجري .

كان واضحا من طريقة قائد الفوج في تحية الجنرال الاكبر بسيفه شاخص البصر ، منتصب القامة ، متصلب الجسم ، ومن طريقته في السير وراء الجنرالين أثناء تفقد الصفوف ، مائلا الى أمام كابحا مشيته المتبخترة بجهد وعناء ، ومن انتفاضة لدى كل كلمة يقولها القائد العام ولدى كل اشارة يقوم بها ، كان واضحا من ذلك كله أنه يتلذذ بالقيام بواجبات المرؤوسين كتلذذه بالقيام بواجبات الرئيس بل أكثر •

ولقد كان الفوج في حالة حسنة بفضل ما يتصف به قائده من قسوة وهمة ونشاط ، بالقياس الى حالة الافواج التي كانت تصل في الوقت نفسه الى براوانا • فلم يكن الفوج كله يضم أكثر من ما عتين وسبعة عشر رجلا بين مريض ومجرور • وكان كل شيء فيه على ما يرام ، الا الاحذية •

طاف كوتوزوف بالصفوف متوقفا من حين الى حين ليقول بضع كلمات لطيفة للضباط الذين يعرفهم منذ حملة تركيا ، ولبعض الجنود أحيانا • وقد هز رأسه عدة مرات حزنا حين كان يرى الاحذية ، وكان يشير للجنرال النمسوي اليها وكأنه يريد أن يقول انه لا يؤاخذ أحدا ولكنه لا يستطيع الا أن يلاحظ أن الامر يؤسف له • وكان قائد الفوج يتقدم في كل مرة الى أمام ، خشية أن تفوته كلمة مما قد يقوله الجنرال الاكبر عن فوجه • ووراء كوتوزوف كانت تسير حاشيته قريبة منه لتسمع كل كلمة يقولها بصوت خافت ، وكان عدد أفراد الحاشية نحو عشرين رجلا • وكان هؤلاء السادة من أفراد الحاشية يكلم بعضهم بعضا

ويضحكون أحيانا • وكان واحد منهم هو أقربهم الى القائد العام في السير وراءه ، مرافقا وسيم الطلعة • انه الامير بولكونسكي • والى جانبه كان يسير رفيقه نسفتزكي^(١) ، وهو ضابط طويل القامة بدين الجسم ، جميل الوجه ، له ابتسامة طيبة وعينان مخضلتان • وكان نسفتزكي يبذل جهدا شاقا من أجل أن يجلس الضحك الذي كان يثيره في نفسه ضابط من سلاح الفرسان أسمر اللون يسير بقربه : كان هذا الضابط ينظر الى ظهر قائد الفوج برصانة ، ويقلد كل حركة من حركاته دون أن يضطرب أي اضطراب ، ودون أن يتغير شيء مما تعبر عنه عيناه الثابتتان من جد ووقار • فكلما تبختر قائد الفوج ومال الى أمام ، تبختر بعده ضابط سلاح الفرسان ومال الى أمام مقلدا حركاته تقليدا محكما دقيقا • فكان نسفتزكي يضحك ويلكز الآخرين بكوعه ليلفت انتباههم الى الضابط المزاح •

كان كوتوزف يسير الهوينى بخطو متراخ أمام ألوف الاعين التي كانت تخرج من حجاجها لتتابعه ببصرها • فلما وصل الى السرية الثالثة ، توقف فجأة • ولم تكن الحاشية تتوقع هذا التوقف المفاجيء ، فتقدمت منه بدون أن تريد ذلك •

قال القائد العام وقد تعرف النقيب ذا الانف الاحمر الذي كان المعطف الازرق سببا في الهجوم عليه منذ قليل :

(١) شخصية من ابتداع خيال تولستوي • غير أن هناك أسرة أمراء مطموسة كانت تحمل اسم نسفتزكي • وكان الامير سرجي الكسندر تروبتزكوي ، ابن اخت جدة تولستوي ، متزوجا بامرأة من أسرة نسفتزكي هذه •

— آ ... تيموخين !

يخيل للمرء أنه لا يمكن أن يتصلب انسان كما تصلب تيموخين حين كان قائد الفوج يؤنبه • ولكن حين خاطبه القائد العام فقد بلغ من التصلب حدا اذا رآه الرائي أيقن أن الرجل لا يستطيع أن يصمد عليه • ولا شك أن القائد العام كوتوزوف قد أدرك الوضع وكان لا يريد للكابتن الا الخير ، فأسرع يتحول عنه ، وارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه الممتليء المشوه بجرح • وقال لقائد الفوج :

— هذا رفيق من أيام اسماعيل^(١) • ضابط شجاع • أنت راض

عنه ؟

فاتنفض قائد الفوج وتصلب جسمه كتصلب جسم ضابط سلاح الفرسان ، حتى لكأنه صورته في مرآة ، وقال يجيب القائد العام :

— كل الرضى يا صاحب السعادة !

قال كوتوزوف وهو يترك تيموخين مبتسما ويتابع تفقده للفوج :

— ان لكل منا عيوبه ، وعيب تيموخين أنه مسرف قليلا في حب

باخوس^(٢) •

فتساءل قائد الفوج بينه وبين نفسه مذعورا ألا يتحمل هو تبعة

(١) أي منذ الاستيلاء على تلك القلعة من الاتراك في شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٧٩٠ •

(٢) باخوس هو اله الخمرة، والاشارة هنا الى افراط الكابتن في الشراب.

هذا ، ولم يجروا أن يجب بشيء • وقد لاحظ ضابط سلاح الفرسان وضع الكابتن ذي الأنف الأحمر والبطن الخاسف من فرط التصلب ، فقلده تقليدا بلغ من قوة الشبه أن نفسزكي لم يستطع أن يحبس نفسه عن الضحك • فالتفت كوتوزوف • ولكن ضابط سلاح كان واضح السيطرة على وجهه ، فسرعان ماردته الى حاله المألوفة قبل أن يراه كوتوزوف ، وأن يضفي عليه كل علائم الرصانة والاحترام والبراءة التي يمكن أن ترى في وجه أحد من الناس •

وكانت السرية الثالثة هي الأخيرة ، وظهرت على وجه كوتوزوف امارات التفكير ، كأنه كان يحاول يتذكر أمرا من الامور • فأسرع الامير آندره ينفصل عن أفراد الحاشية ، وجاء اليه يقول له بصوت خافت باللغة الفرنسية :

— أمرتني أن أذكرك بحالة دولوخوف الذي جرد من رتبته ورد جنديا في هذا الفوج •

فقال كوتوزوف يسأل :

— أين دولوخوف ؟

وكان دولوخوف الذي يرتدي الآن معطفا رماديا وفق النظام ، لا يتوقع أن ينادى • وخرج من بين الصفوف جندي أشقر مشوق القامة أزرق العينين • وتقدم من القائد العام ، ووقف أمامه وقفة التهيؤ •

سأله كوتوزوف وهو يقطب حاجبيه قليلا :

— شكوى ؟

فقال الامير آندره :

— هذا دولو خوف •

فاستدرك كوتوزوف قائلاً :

— آ... أرجو أن يكون في هذا الدرس صلاح لك • قم بواجبك

خير قيام • والامبراطور رءوف • وأنا أيضا لن أنساك اذا برهنت على

انك تستحق ذلك •

فكانت العينان الصافيتان ترمقان القائد العام بتلك النظرة الوقحة

نفسها التي كانتا تلقياها منذ قليل على قائد الفوج ، كأنهما تريدان بهذا

الاستخفاف الذي تعبران عنه أن تمزقا حجاب الموصفات التي تجعل

بين القائد العام وبين جندي من الجنود مسافة كبيرة •

قال هادئاً بصوت جهير قوي :

— ليس لي الا مطلب واحد يا صاحب السعادة ، هو أن تتاح لي

فرصة اصلاح خطئي وتقديم البراهين على ولائي للامبراطور، واخلصي

للوطن •

تحول عنه كوتوزوف • وارتسمت في عينيه تلك الابتسامة نفسها

التي ألت بشفتيه حين تحول عن الكابتن تيموخين ، تحول عنه وقد

جعد وجهه قليلا كأنه يريد أن يبين بذلك أن كل ما قاله دولو خوف، وكل

ما قد يقوله أيضا معروف له منذ زمن طويل ، منذ زمن طويل جدا ،
وأن هذا كله يضجره ويضايقه ، وأنه ليس ما ينبغي أن يقال • واستدار
على كعبيه ، ورجع الى مركبته •

وتفرق الفوج سرايا ، وأخذ يسير الى المعسكرات المعينة له على
مقربة من براوناو ، حيث يأمل الحصول على أحذية وملابس بعد أن
قطع تلك المراحل الصعبة القاسية كلها •

وحين سارت السرية الثالثة يتقدمها تيموخوف ، اقترب قائد الفوج
بحصانه من تيموخوف وقال له :

لست زعلانا مني يا بروخور اجناتش ، أليس كذلك ؟

كان فرح كبير يشع من وجه الجنرال في أعقاب هذا الاستعراض
الموفق ، وأردف يقول :

— انك تعلم يا بروخور اجناتش ... المرء في خدمة القيصر لا
يستطيع الا أن ... يتفق للمرء أن يفقد صوابه في القطعات ، فلا يزن
كلماته ... ولكنني أعتذر لك ، وأنت تعرفني ... شكرا جزيلا •
قال له ذلك ومد اليه يده مصافحا •

فأجابه الكابتن وقد احمر أنفه مزيدا من الاحمرار وابتسم كاشفا
عن افتقاده سنين من أسنانه كسرتها ضربة هراوة في أيام اسماعيل :

— عفوك سيدي الجنرال ! كيف اجرؤ أن أزعل منك !

قال قائد الفوج :

— وقل لدولوخوف انني لن أنساه ، فليطمئن باله • وقل لي ، من فضلك ••• انني أريد أن ألقى هذا السؤال منذ مدة طويلة : كيف حاله ؟ كيف سلوكه ؟ قل لي كل شيء •••

قال تيموخين :

— هو في الخدمة مثل يحتذى يا صاحب السعادة ••• ولكن طبعه •••
فقال الجنرال يسأل :
— ما سوء طبعه ؟ ما سوء طبعه ؟

قال الكابتن :

— تعثره حالات عجيبة في بعض الايام يا صاحب السعادة ، فطورا تراه ذكيا حصييفا طيبا ، وطورا يصبح وحشا كاسرا • في بولنده ، أو شك أن يقتل يهوديا •••

قال قائد الفوج :

— نعم ••• نعم ••• ولكن يجب على المرء أن يرثي لحال شاب أصابه هذا الخطب • وان له علاقات قوية ••• لذلك يجب عليك أن •••
قال تيموخين وهو يتسم ابتسامة من يريد أن يفهم الجنرال أنه أدرك رغبته :

— أنا رهن أوامرك يا صاحب السعادة •

— نعم ••• نعم •••

وسار قائد الفوج محاذيا السرية الى أن بلغ دولوخوف فقال له :

— سترد اليك شاراتك في أول فرصة • •

فنظر اليه دولوخوف دون أن يقول شيئا ، ودون أن يتغير شيء مما

كان يعبر عنه فمه المبتسم من سخرية •

قال قائد الفوج :

— طيب ! عظيم ! •••

ثم أضاف يقول بصوت عال أراد له أن يسمعه الجنود :

— اسقوا الرجال ربعا من الفودكا تكريما لهم منى • شكرا للجميع!

الحمد لله ! •••

وتجاوز السرية واقترب من أخرى •

قال تيموخين لضابط مرءوس كان يسير الى جانبه :

— هو رجل شهم على كل حال ، يستطيع الانسان أن يخدم في

في امرته •

فقال الضابط المرءوس ضاحكا :

— انه في طيبة القلب « ملك » ••• لا كلام !

وكان هذا هو اللقب الذي لقب به قائد الفوج •

واتتقلت سعادة الرؤساء بعد الاستعراض الى الجنود • فكانت السرية تسير فرحة جذلى • وأخذ الجنود يتبادلون الاحاديث في كل جهة •

— لماذا قالوا عن بوتوزوف انه أعور ، وانه ليس له الا عين واحدة ؟

— هذا صحيح • انه أعور ، ليس له الا عين واحدة •

— لا ، يا صاحبي • انه يرى خيرا منك • الاحذية والجوارب رآها • ما فاتته رؤية شيء !

— وحين نظر الى قدمي ، يا صاحبي ••• قلت لنفسي ، وبعد ؟•••

هه ؟ •••

— وما قولك في ذلك النمسي ، الذي كان معه ••• لكأنه قد

لطخ بالطباشير • انه أبيض كالطحين • يخيل الي جلوه وصلوه كما تجلى العدة وتصل (١) !

— قل لي يا فيديا ! هل قالوا شيئا عن الحرب متى بدأ ؟ كنت أنت

أقرب اليهم مني ! ••• يقال ان بونابرت نفسه يربط في برونوف (٢) •

— بونابرت ! ما هذه السخافات ، انك حقلا بله ! حتى هذا لاتعرفه ؟

(١) كان الجيش النمسي في ذلك العهد سترات بيضا تجلى بالطباشير فعلا ، وكان ما يجعلها نظيفة دائما •

(٢) هي مدينة براوناو محرفة في السن الجنود الروس •

ان البروسيين هم الذين يشقون عصا الطاعة الآن ... فيضربهم النمسيون ... فمتى عاد البروسيون الى صوابهم ، بدئت الحرب مع بونابرت • يا للابله ! يقول ان بونابرت في بروتوف ! واضح أنه معتوه ! لو فتحوا له أذنيه قليلا ...

— ما أحسن محاسبي التجهيزات ! لا بد أن السرية الخامسة قد انعطفت متجهة الى القرية • فتطبخ الحساء ولا نكون نحن قد وصلنا بعد !

— أعطني بسكوتيه يا حيوان !
— هل أعطيتني أنت بالامس تبغا ؟ أرأيت يا صاحبي ؟ ولكن خذ •
سامحك الله •

— ليتنا نقف وقفة لنستريح على الاقل ، والا فان علينا أن نسير خمسة فراسخ وبطوننا خاوية •

— لعاك تريد أن يقدم الينا الالمان عربات فخمة ، هه ؟ لا شك أن هذا يكون شيئا جميلا ! نركب ويقودنا الحوذيون الى حيث نريد !
— الناس هنا يا بني مختلفون تماما • هناك لم يكن الا بولنديون ، رعايا للتاج الروسي • والآ يا صاحبي ، لا يوجد الا ألمان ...

ودوى صوت يقول آمرا :

— المغنون الى الامام !

كذلك صرخ الكابتن •

فخرج من الصفوف زهاء عشرين رجلا ، وركضوا يصطفون في طليعة السرية • والتفت كبير الطباين الى المغنين ، وأجرى اشارة بيده،

وأخذ صوته يصدح بطيئا بأغنية المشي التي مطلعها : « أليس هذا هو الفجر ؟ أليس هو الفجر يطلع ؟ » ، والتي ختامها : « ما أعظمه مجدا ، يا صحابي ، مجدنا مع أيننا كامنسكي ! »^(١) . هي أغنية ألفت في تركيا وتغنى الآن في النمسا مع فرق واحد هو أن قول المغنين « مع أيننا كامنسكي » يحل محله الآن قولهم « مع أيننا كوتوزوف » .

فبعد أن أنهى كبير الطبالين - وهو جندي جميل في نحو الأربعين من عمره - هذا الختام بنبرة الفخار كما يفعل المغنون في الجيش، محركا يديه تحريك من يلقي شيئا على الأرض، شمل المغنين بنظرة قاسية، وأغمض عينيه . حتى اذا تأكد له أن جميع الاعين صارت محدقة اليه، بدا كمن يحمل يديه الى مافوق رأسه شيئا ثميلا لا يرى ، ولبت على هذه الحال بضع ثوان ، ثم اذا هو يندفع مغنيا بصوت قوي : « أواه يا كوخى ، يا كوخى الجديد ! » .

وردت الاصوات العشرون : « يا كوخى الجديد » . وتقدم العازف على الصنجات الى أمام ، وراح يسير القهقري أمام السرية رغم ثقل عدته ، هازا كتفيه ملوحا بآلته كأنه يهدد بها أحدا ، فكان الجنود يرجحون أذرعهم على ايقاع الاغنية ، ويمشون مشية نشطة ، ويزنون خطاهم على السجية بغير ارادة .

(١) ان الفلدمارشال العجوز، الكونت ميخائيل كامنسكي (١٧٣٨-١٨٠٩) قد تميز في حروبه ضد الاتراك في عهد كاترين الثانية . وكان خلال مدة قصيرة قائدا عاما للجيش الروسي سنة ١٨٠٦ .

وانهم لذلك اذ سمعت وراء السرية قرعة عجلات، وصرير نوابض، ووقع حوافر خيل • كان كوتوزوف وحاشيته عائدین الى المدينة • فلو ح القائد العام للجنود بيده ، مهيبا بهم أن يستمروا في مشيتهم أحرارا بغير حرج ، وظهر في وجهه وفي وجوه ضباط حاشيته ابتهاجهم بسماع الاغنية ، ورؤية الجندي الذي يرقص ، ومنظر السرية التي تمشي فرحة بخطوات رشيقة • وفي الصف الثاني على الجنب الايمن ، حيث تخطت مركبة القائد العام رتل الجنود ، كان يسير جندي تخطف عيناه الزرقاوان البصر • انه دولوخوف يمشي على اي قاع الاغنية بخطو تميزه جسارة واضحة ورشاقة بارزة ، وينظر الى أولئك الذين مروا نظرة من يرثي لحال جميع من لا يمشون مع السرية • وهذا هو ضابط الفرسان الذي ينتمي الى حاشية كوتوزوف والذي كان يقلد حركات قائد الفوج ، يدع لمركبة القائد العام أن تمر ، ويتخلى عن الحاشية ويقرب من دولوخوف •

ان ضابط الفرسان هذا جركوف قد كان في ذات يوم أحد أفراد العصابة المشاغبة التي كان دولوخوف رئيسها بيطرسبرج وكان جركوف قد رأى دولوخوف قبل اليوم في الخارج جنديا مجردا من رتبته ، فرأى أن ليس من المفيد أن يتعرفه ، أما الآن ، بعد الحديث الذي جرى بين كوتوزوف والضابط المجرد من رتبته ، فقد أقبل عليه فرحا فرح صديق قديم ، وقال له مسائرا أصوات الاغنية ، جاعلا خطوات حصانه تماشي خطوات أفراد السرية :

— كيف حالك يا صديقي ؟

فأجابه دولوخوف بقوله :

— حالي ؟ كما ترى !

وكانت الاغنية النشيطة تسبغ دلالة خاصة على لهجة الفرح الطلق

في كلام جركوف ، وعلى البرودة المقصودة في أجوبة دولوخوف •

قال جركوف سائلا :

— كيف علاقتك برؤسائك ؟

— لا أشكو من شيء • انهم رجال طيبون • كيف استطعت أن

تسلل الى رئاسة الاركان ؟ ...

— فرزت لها ضابط اتصال •

وصمت الشابان لحظة •

وكانت الاغنية تقول عندئذ : « وأفرج عن الصقر ، فطار من

الكم اليمين » ، فكان هذا الكلام يوقظ في النفس فرحا وحماسة بغير

ارادة • فأغلب الظن أن الحديث كان سيجري مجرى آخر لولا أنه

كان يساير أصوات الاغنية • قال دولوخوف يسأل جركوف :

— هل صحيح أن النموسيين غلبوا ؟

— يقال هذا • ولكن لا يعلم الحقيقة أحد •

فقال دولوخوف باقتضاب ووضوح ، وفق ما تقتضيه الاغنية :

— يسعدني أن يثُلبوا !

قال جرکوف :

— تعال الينا في أحد الاماسي ، فنلعب بالورق لعبة « الفرعونية » •

— أمعكم اذن مال كثير ؟

— تعال •

— مستحيل • آليت على نفسي أن لا أشرب ولا أقامر قبل أن

أسترد رتبتي •

— سيتحقق هذا في أول فرصة •••

— يومئذ نرى •••

وصمنا من جديد • ثم قال جرکوف :

— تعال اذا احتجت الى شيء • كل من في الاركان سيساعدك دائما •

فابتسم دولوخوف • وقال :

— لا داعي الى أن تقلق نفسك • اذا احتجت الى شيء فلن أطلب

من أحد ، وانما سأخذه بنفسني •

— أنت تعلم ما أعني •

— وأنا أعلم ما تعني •

— استودعك الله •

— مع السلامة •

واستمرت الاغنية ، وقالت : « ... طار عاليا ، الى بعيد ، الى
الوطن الذي ولد فيه » •

همز جركوف حصانه الذي كان ثائر الحميًّا فدار في مكانه عدة
دورات لا يعرف بأي قدم يبدأ جريه ، ثم انطلق يعدو خبيا سريعا
فتجاوز السرية وأدرك المركبة وهو ما يزال يسير بخطوه ايقاع الاغنية •

الفصل الثالث

حين رجع كوتوزوف من الاستعراض في صحبة الجنرال النمسوي، مضى الى مكتبه ، ودعا اليه مرافقه ، فأمره بأن يأتيه باوراق تتعلق بحالة الجيوش التي تصل ، وبالرسائل التي بعثها اليه الارشيدوق فرديناند قائد الطليعة •

دخل الامير آندره الى مكتب القائد العام بالاوراق المطلوبة • فكان كوتوزوف وعضو « المجلس الحربي الاعلى » جالسين أمام خريطة منشورة على الطاولة •

قال كوتوزوف وهو يلفت رأسه الى بولكونسكي :

— آ...•••

وكان بهذه الكلمة كمن يدعو مرافقه الى الانتظار • وتابع أحاديثه مع عضو « المجلس الحربي الاعلى » باللغة الفرنسية •

قال كوتوزوف برشاقة جميلة في التعابير والنبرات ، تجعل سامعه يصغي اصغاء شديدا الى كل كلمة من كلماته التي يقولها على مهل بغير تعجل :

— لا أملك الا أن أقول شيئا واحدا •

وكان واضحا أن كوتوزوف يصغي الى كلامه هو نفسه مسرورا به • وتابع حديثه فقال :

— لا أملك أن أقول الا شيئا واحدا يا جنرال، هو أنه لو كان الامر رهن ارادتي وحدها لفعلته منذ زمن طويل امثالاً لرغبة صاحب الجلالة الامبراطور فرانسوا • لو كان الامر رهن ارادتي وحدها لانضمت الى الارشيدوق منذ زمن طويل • وصدقني اذا قلت لك مقسماً بشرفي ان هذا كان يخفف عني شخصياً ويريحني كثيراً ، اذ ألقى عبء قيادة الجيش العليا الى جنرال يفوقني كفاءة وحذاً — وما أغنى النمسا بأمثال هؤلاء الجنرالات — فأتحرر بذلك من تبعة ثقيلة ومسئولية ضخمة • ولكن الظروف تتجاوزنا أحياناً يا جنرال •

وابتسم كوتوزوف كأنه يريد أن يقول : « من حقك أن لا تصدقني، ويستوي عندي أن تصدقني وأن لا تصدقني • ولكنك لا تملك أي حجة تسوغ لك أن تعلن لي ذلك • وهذا هو الامر الاساسي » •

كان الجنرال النمسوي يبدو مستاءً ، ولكنه لم يستطع الا أن يجيب كوتوزوف مصطنعاً هذا اللطف نفسه • غير أن هيئته الكالحة الحانقة كانت تتعارض مع ما يضمن كلامه من مداراة ومصانعة ، قال :

— بالعكس • ان صاحب الجلالة يقدر مشاركتكم في القضية المشتركة قدراً عظيماً • ولكننا نتصور أن هذه التأجيلات تحرم الجيوش

الروسية المجيدة وقادتها من اكايليل الغار التي اعتادوا أن ينالوها في
ساحات القتال :

وكان واضحا أن هذه الجملة قد أعدها الجنرال النمسوي من قبل •
فانحنى كوتوزوف شاكرا دون أن تتغير ابتسامته • ثم قال :

— انني أعتقد — والرسالة الاخيرة التي شرفني بها صاحب السمو
الارشيديق فرديناند تؤيد اعتقادي هذا — بأن الجيوش النمسوية التي
يقودها رجل يتمتع بما يتمتع به الجنرال ماك من علم وخبرة ، قد
حققت انتصارا حاسما ، فلم تعد في حاجة الى مساعدتنا •

فقطب الجنرال النمسوي حاجبيه • ذلك أن جميع القرائن كانت
تأتي مصدقة للاشاعات الرائجة في كل مكان عن هزيمة الجيوش النمسوية،
رغم أنه لم يصل حتى ذلك الحين أي نبأ رسمي يؤكد الهزيمة • لهذا
كان افتراض كوتوزوف أن الجيوش النمسوية حققت نصرا ، أقرب
الى أن يكون سخرية واستهزاء • ولكن كوتوزوف كان يتسم ابتسامته
هادئة وديعة ، وظل وجهه يعبر عن أن من حقه أن يفترض ذلك الافتراض،
فان الرسالة الاخيرة التي تلقاها من الجنرال ماك تنقل اليه نبأ انتصار ،
وتصور له وضع الجيش الاستراتيجي في أحسن حال •

قال كوتوزوف مخاطبا الامير آندره :

— هات الرسالة •

ثم أردف يقول للجنرال النمسوي :

— انظر من فضلك ...

وأخذ يقرأ باللغة الالمانية ، وقد أملت بطرفي فمه ابتسامة ساخرة،

الرسالة التالية :

— « اتنا نملك قوات مركزة أكمل تركيز ، تبلغ زهاء سبعين

ألف مقاتل • وهذا يمكننا ، اذا اجتاز العدو نهر « ليش »^(١) ، أن نهاجمه

وأن نهزمه • ولما كنا مسيطرين على « أولم »^(٢) ، فاننا نملك ميزة كبيرة

هي سيطرتنا على ضفتي الدانوب • فاذا لم يشأ العدو أن

يقطع الدانوب ، كنا نملك في كل لحظة أن نجتاح نحن الدانوب ، فندمر

خط مواصلاته ، ونعود نجتاح الدانوب من أدنى ، فنحبط بذلك كل

محاولة قد يعمد اليها منتويا توجيه جميع قواته ضد حليفنا الوفية •

لذلك نتظر بثقة تامة أن يجهز الجيش الامبراطوري الروسي تجهيزا

تاما ، فيسهل علينا متعاونين أن نلقي بالعدو الى المصير الذي يستحقه »^(٣).

أنهى كوتوزوف قراءة هذه الرسالة الطويلة متتهدا ، ونظر الى

عضو « المجلس الحربي الاعلى » بتودد واتباه •

(١) نهر يرفد الدانوب الاعلى من الجنوب ، ويمر بمدينة أوجسبرج في بافاريا .

(٢) مدينة محصنة في فورتمبرج ، على الدانوب الاعلى .

(٣) بالالمانية في الاصل .

قال الجنرال النمساوي الذي كان واضحا أنه يريد أن يضع حدا لهذه الامازيح وأن يصل من الامر الى الجد :

— ولكنك تعرف ، يا صاحب السعادة ، تلك القاعدة الحكيمة التي توصي الانسان بأن يتوقع أسوأ الاحتمالات •

قال ذلك ونظر الى جهة المرافق مكفهر الهيئة •

فقاطعه كوتوزوف قائلا وهو يلتفت الى جهة الامير آندره أيضا :

— معذرة يا جنرال •

وقال يخاطب الامير آندره وهو يمد اليه أوراقا :

— خذ هذه يا عزيزي ، واطلب من كوزلوفسكي جميع التقارير التي وردت الينا من كشافينا • هاتان رسالتان من الكونت نوستتس ، وهذه رسالة صاحب السمو الارشيدوق فرديناند ، وهذه رسائل أخرى • وعدا ذلك ، حرر بوضوح كامل ، باللغة الفرنسية ، « مذكرة » توضح جميع المعلومات المتوفرة لدينا عن عمليات الجيش النمساوي • هل فهمت ؟ ثم قدم المذكرة الى صاحب السعادة •

فحنى الامير آندره رأسه مشيرا بذلك الى أنه فهم ما يؤمر به منذ الكلمات الاولى ، لا ما قاله كوتوزوف فحسب ، بل ما كان يمكن أن يقوله أيضا • وجمع الاوراق ، ثم حيا ، وخرج الى صالون الاستقبال بغير ضجة ماشيا على السجادة •

لقد تغير الامير آندره تغيرا كبيرا ، رغم أن المدة التي انقضت على تركه روسيا ليست بالمدة الطويلة • لم يبق الآن لا في تعبير وجهه ، ولا في اشارات يديه ، ولا في مشيته ، أي أثر تقريبا لما عهد فيه من تصنع وسأم وتراخ • فاذا رأيته أحسست أنك أمام رجل لا يتسع وقته للتفكير فيما يحدثه في الآخرين من انطباع وأنه منصرف الى القيام بمهمة تشوقه وتسره ، أن في وجهه ما يدل على أنه الآن أكثر رضى عن نفسه وعمن يحيطون به ، فابتسامته ونظراته تشتملان على فرح أكبر ، وتجذبان اليه جذبا أعظم • وقد التحق بـ كوتوزوف في بولنده ، فاستقبله كوتوزوف بمودة كبيرة ، ووعد به أن لا ينساه • وهو الآن يميزه على سائر مرافقيه ، ويصطحبه في ذهابه الى فيينا ، ويعهد اليه بأخطر المهمات شأنا • وقد كتب كوتوزوف من فيينا الى صديقه القديم أبي الامير آندره رسالة قال فيها : « ان ابنك يبشر بأن يغدو ضابطا لا نظير له فيما يملكه من قدرة على العمل ، وصلابة في العزم ، ودأب واجتهاد • فأنا أعد نفسي موقفا لانتني حظيت بمرءوس مثله » •

وكانت للامير آندره ، في رئاسة اركان كوتوزوف ، وبين زملائه ، وفي الجيش عامة ، سمعتان متعارضتان كل التعارض ، كما كانت له هاتان السمعتان في مجتمع بطرسبرج • فبعض الناس — وهؤلاء أقلية — يعدونه رجلا فذا ، مختلفا عنهم وعن جميع الآخرين ، ويتوقعون له نجاحا باهرا ، ويسمعون له ، ويعجبون به ، ويقلدونه • وكان هو في معاملة هؤلاء بسيطا لطيفا ممتعا • وبعضهم الآخر — وهؤلاء هم الاكثرية —

لا يحبونه ، ويرون أنه متعجرف وخشن ومزعج • ولكن الامير
آندره عرف كيف يفرض نفسه على هؤلاء أنفسهم ، فهم يكرهونه
ولكنهم يحترمونه ، بل ويخشونه •

غادر الامير مكتب كوتوزوف حاملا أوراقه بيده ، ودخل قاعة
الانتظار ، وتقدم من رفيقه كوزلوفسكي^(١) ، المرافق المناوب ، الذي
كان جالسا قرب النافذة ويده كتاب •

سأله كوزلوفسكي :

— هيه ؟ ما ذا يا أمير ؟

— كلفت بكتابة مذكرة توضح الاسباب التي تجعلنا لا نتقدم •

— وما هي هذه الاسباب ؟

— هز الامير آندره كتفيه •

سأله كوزلوفسكي :

— لا أنباء عن ماك^(٢)

— لا

(١) لعله ضابط الحرس نيقولا كوزلوفسكي ، ولد سنة ١٧٨٣ وتوفي من
جراح أصيب بها في معركة بيريزينا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر)
من سنة ١٨١٢ •

(٢) حوصر الجنرال ماك مع جيش قوامه ٣٣ ألف رجل في مدينة «أولم» ،
واستسلم ل نابوليون في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٠٥ •

— لو صح أنه هزم لوصل الينا النبأ •

قال الامير آندره وهو يتجه الى باب الخروج:

— ربما •

ولكن جنرالاً نمسويًا طويل القامة ، مرتدياً ردنجوتا ، معصوب الرأس بوشاح أسود ، مزدان العنق بوسام ماري تيريز ، دخل في تلك اللحظة وصفق الباب صفقا شديدا • كان واضحا أنه قد وصل الآن •

وقف الامير آندره •

قال الجنرال النمسوي سائلا بكلام سريع ولهجة ألمانية قوية وهو يجيل بصره في القاعة ثم يتجه الى باب مكتب كوتوزوف بغير توقف :

— القائد العام كوتوزوف ؟

فأجابه كوزلوفسكي وهو يهب متقدما منه بحركة سريعة ، ويسد عليه الطريق الى باب المكتب :

— القائد العام مشغول • أبلغه وصول من ؟

فألقي الجنرال النمسوي على كوزلوفسكي القصير القامة نظرة شذراء تفيض احتقارا ، وكأنه مدهوش من أن أحدا أمكن أن يجهل من هو •

فردد كوزلوفسكي قوله بهدوء :

— القائد العام مشغول •

فقطب الجنرال حاجبيه ، وتقبضت شفتاه ، وأخذتا ترتجفان • واستل من جيبه دفتر صغيراً، فخط بضع كلمات سريعة بالقلم الرصاص، وانتزع الورقة ، وناولها كوزلوفسكي ، ثم مضى نحو النافذة بخطوات سريعة فارتقى هنالك على كرسي ، وتفرس في الحضور كأنما ليسألهم لماذا ينظرون اليه • ثم رفع رأسه ، ومد عنقه كأنه يهم أن يتكلم ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك ، فلم يزد على أن أصدر صوتاً غريباً كمن أراد أن يدمدم بكلام بينه وبين نفسه ولكنه أسرع يخفق كلامه • وانفتح الباب وطلع كوتوزوف في العتبة • فاذا بالجنرال المعصوب الرأس يهب متقدماً منه بخطوات سريعة طويلة على ساقيه النحيلتين ، وقد انخفض كمن يريد أن يتقي خطراً داهمه •

قال بصوت يتحطم :

— أنا ماك الشقي !

لبث وجه كوتوزوف بضع لحظات ساكناً سكونا تاماً • وهو واقف أمام ثم ألم بهذا الوجه غضن سرى فيه سريان موجة ، وارتضى جبينه ، ثم اذا بكوتوزوف ينحني بكثير من الاحترام ، مغمضاً عينيه ، ممحياً صامتاً أمام ماك ، وتولى بنفسه اغلاق الباب بعد أن دخل ماك مكتبه • تبين أن الشائعة التي راجت عن هزيمة النمساويين واستسلام الجيش كله عند « أولم » صادقة • وبعد نصف ساعة كان مرافقو القائد يمضون في اتجاهات مختلفة وهم يحملون أوامر تقول ان

القطعات الروسية التي ظلت حتى الآن ساكنة سيكون عليها أن تواجه العدو قريبا •

وكان الامير آندره واحدا من أولئك الضباط القلائل في هيئة الاركان العامة ، الذين يهتمون بمجرى العمليات الحربية عامة • فبعد أن رأى ماك وعلم بتفاصيل كارثته ، أدرك أن الحملة قد خسر نصفها ، وأدرك ما يكتنف وضع الجيوش الروسية من حرج وصعوبة ، وتصور المصير الذي يترتب بالجيش ، والدور الذي عليه أن يقوم به ، فكان رغم ارادته يشعر بهيجان وفرح اذ يتصور المذلة التي لحقت بالنمسا المغرورة ، واذ يتصور أنه بعد ثمانية أيام قد يشهد أول معركة تدور بين الروس والفرنسيين منذ سوفوروف ، وانه قد يشارك في هذه المعركة • ولكنه كان يهرب عبقرية بوناپرت التي قد تنتصر على شجاعة الجيوش الروسية ، ويظل يستعصي على التسليم بأن بطله يمكن أن يهزم •

وعلى هذه الحالة من الهيجان والفوارق اللذين تثيرهما هذه الافكار في نفسه ، مضى الامير آندره الى غرفته ليكتب رسالة الى أبيه كما يفعل كل يوم • وفيما كان يقطع الدهليز ماضيا الى غرفته لقي نرفتسكي ، رفيقه في الغرفة ، والمزاح جركوف ، على عادتهما في كل وقت •

سأله نرفتسكي وقد رأى اصفرار وجهه والتماع عينيه :

— مالي أراك مربد الوجه ؟

فأجابه بولكونسكي :

— لا شيء يدعو الى المسرة •

وفي اللحظة التي التقى فيها أندره برفيقه نزفتسكي وصاحبه جركوف في الدهليز ، كان جنرال اسمه شتراوخ (وهو جنرال نمسوي ألحق بأركان كوتوزوف لتأمين تموين الجيش الروسي) و جنرال آخر هو عضو « المجلس الحربي الاعلى » ، قد ظهرا في الطرف الآخر من الدهليز • وكان الدهليز عريضا عرضا كافيا ، فيستطيع الجنرالان أن يمرا فيه مع بقاء الضباط الثلاثة في مكانهم • ولكن جركوف دفع نزفتسكي يديه ، وقال بصوت لاهت :

— هاهما ! ... ها هما ! تنحو ! أفسحوا لهما الطريق ! أرجوكم !

أفسحوا لهما الطريق !

وكان الجنرالان يقتربان وهما راغبان رغبة واضحة في تحاشي مراسم التكريم والتعظيم المزعجة • ولكن ابتسامة جذلى بلهاء ظهرت في وجه المزاح جركوف ، وكأنه لا يجد الى كبجها سيلا، وتقدم من الجنرال النمسوي قائلا له باللغة الالمانية :

— يشرفني يا صاحب السعادة أن أعرب عن صادق التهاني ...

قال ذلك وهو يحني رأسه محيا ، ويخبط كعبيه أحدهما بالآخر، مرة من احدى الجهتين ومرة من الجهة الثانية ، بحركات خرقاء كحركات صبية صغار يتعلمون الرقص •

فرشقه الجنرال ، عضو « المجلس الحربي الاعلى » بنظرة قاسية ، لكنه وقد رأى ما في ابتسامته من صدق وبلاهة ، لم يستطع أن يمنع عنه لحظة انتباه ، فغض عينيه اشارة الى أنه يسمع له • فتابع جركوف كلامه قائلاً :

— يشرفني أن أعرب عن خالص التهئة ، فان الجنرال ماك قد وصل سليماً معافى ، اللهم الا أن يكون قد أصيب بأذى هنا ...

قال جركوف ذلك وهو يضع اصبعه على رأسه ، ويستمر في ابتسامه المشرق •

فقطب الجنرال حاجبيه ، وأشاح عنه ، وتابع طريقه ، وقال حانقاً بعد أن ابتعد بضع خطوات :

— رباه ما هذه السذاجة ؟^(١)

وعاقق نرفتسكي الامير آندره وهو يضحك مقهقهها ، ولكن الامير آندره بولكونسكي دفعه عنه وقد اشتدت صفرته وارتسم الغضب في وجهه والتفت الى جركوف • ان حالة الهيجان النفسي والتوفز العصبي التي أحدثتها في نفسه رؤية ماك وأنباء انكساره وفكرة المصير الذي ينتظر الجيش الروسي ، قد وجدت لها متنفساً في غضبه من مزاحه جركوف التي لم تكن في محلها • قال له بصوت ثاقب وقد أخذ فكه الاسفل يرتعش قليلاً :

(١) بالالمانية في الاصل •

— اذا كنت تحرص ، يا سيد ، على أن تكون مهرجا، فأنا لا أستطيع أن أمنعك من ذلك أو ان انهاك عنه • ولكنني اعلن لك أنني سأعلمك كيف يكون سلوكك اذا أنت « تجرأت » يوما فخرجت بحضوري •

بلغت دهشة نرقتسكي وجركوف من غضبة الامير آندره بولكونسكي انهما نظرا اليه صامتين وقد فغر فماهما • ثم قال جركوف :

— ماذا ؟ أنا لم أزد على أن هنأته !

فصرخ بولكونسكي قائلا :

— لست أمزح • اسكت !

وتأبط ذراع نرقتسكي ، وترك الاثنان جركوف في مكانه مفحما لا يجد ما يجيب به •

قال نرقتسكي محاولا أن يهديء الامير آندره :

— ما بك يا عزيزي ؟

فأجابه الامير وهو يقف عن السير مهتاجا :

— ما بي ؟ اسمع يا نرقتسكي : اما اتنا ضباط في خدمة قيصرهم ووطنهم فنفرح بما نحققه من انتصارات مشتركة ونحزن لما نصاب به من هزائم مشتركة ، واما أننا خدم لا تهمهم شئون أسيادهم في قليل ولا كثير !

وأضاف يقول بالفرنسية وكأن الكلام بالفرنسية يعزز رأيه مزيداً من التعزيز :

— أيذبح أربعون ألف رجل ، ويدمر جيش حلفائنا ، ثم تضحكون •
 خليك بصبي كهذا الصبي الذي اتخذته صديقاً لك أن يضحك ، أما أنت
 فهذا الضحك ليس خليقاً بك ، ليس خليقاً بك أنت •

وأردف يقول بالروسية ، ناطقاً بكلمة « الصبية » نطقاً فيه لكنة
 فرنسية ، لأنه لاحظ أن جرکوف ما يزال يمكن أن يسمعه :

— « الصبية » الصغار وحدهم يلهون هذا اللهو •
 وانتظر قليلاً ليرى هل يرد عليه ضابط سلاح الفرسان • ولكن
 هذا استدأر على عقبيه ، ومضى لا يلوي على شيء •



الفصل الرابع

كان فوج بافلو جراد^(١) من سلاح الفرسان معسكرا على بعد ميلين من براوناو . وكانت سرية الخيالة التي كان فيها نيقولا روستوف مرشحا ، كانت هذه السرية تحتل المدينة الالمانية سالتسينيك . وكان أجمل مسكن في القرية قد خص به قائد السرية ، الكابتن دينيسوف ، الذي كانت فرقة الخيالة كلها تعرفه باسم فاسكا دينيسوف^(٢) . وكان المرشح روستوف يقيم مع قائد السرية منذ التحق بالفوج في بولنده .

في اليوم الحادي عشر من شهر اكتوبر ، في ذلك اليوم نفسه الذي اهتزت فيه القيادة العامة لنبا الهزيمة التي مني بها مالك ، كانت السرية ماضية في حياتها الريفية الهادئة الوداعة . كان دينيسوف قد قضى الليل كله لاعبا بالورق ، ولم يكن قد عاد الى مسكنه حين رجع روستوف من مهمة توزيع العلف ، فوصل الى مدخل الدار مرتديا بزته الرسمية ،

(١) ان الفوج الثاني من فرسان الجبهة هو الذي تميز وبرز في الحروب التي خاضها الروس ضد الفرنسيين . غير ان ابا تولستوي ، نيقولا ، لم يخدم في هذا الفوج ، بل خدم في فوج فرسان اكرانيا (الفوج ١٥) ، ولم يخدم في هذا الفوج الاخير نفسه الا منذ ١٩١٢ .

(٢) ان كابتن الخيالة هذا يتصف ببعض سمات الخيال الشاعر دينيس دافيدون (١٧٨٤ - ١٨٣٩) ، قائد المقاومة سنة ١٨١٢ .

هامزا حصانه ، وأنزل ساقه عن صهوة جواده بحركة مرنة رشيقة تفيض شبابا ، وتلبث على الركاب لحظة كأنه لا يترك حصانه الا على أسف ، ووثب أخيرا الى الارض مناديا تابعه •

فهرع اليه جندي من سلاح الفرسان • فهتف روستوف يقول له :

— آ ••• بوندارنكو^(١) ••• صديقي الطيب !

ثم أضاف يقول له بتلك اللهجة الاخوية الحنون الفرحة التي يغدقها الشبان على جميع الناس حين يكونون سعداء :

— نزه الحصان قليلا يا صديقي •

فأجابه الاكراني وهو يهز رأسه جذلا :

— أمرك يا صاحب السعادة^(٢) •

— انتبه ! نزهة حسنة !

وكان جندي آخر من سلاح الفرسان قد هرع الى الحصان أيضا • ولكن بوندارنكو كان قد لف الاغنة على ذراعه • كان واضحا أن المرشح يجزل العطاء ، ويغدق « البقاشيش » ، فمن يخدمه يستفد منه • ولاعب روستوف عنق الحصان ثم لاعب عرفه ، ووقف على درج الباب ، قائلا لنفسه وهو يتسم : « عظيم ! ليكونن حصانا رائعا ! » ، ثم سند

(١) : ان الاسماء التي تنتهي بهذه النهاية : « انكو » هي أسماء اكرانية .

(٢) رغم ان نيقولا روستوف هو يونكر بغير رتبة غير رتبة مرشح ، فان الجندي يخاطبه بقوله « صاحب السعادة » ، لانه يحمل لقب كونت

سيفه بيده ، وراح يصعد درجات الباب أربعا أربعا ، فيكون لمهاميه
 رنين • وظهر الالماني صاحب المسكن عند باب الاسطبل ، متسلحا
 بالمذراة التي كان يشيل بها الزبل ، فما أن رأى روستوف حتى أشرق
 وجهه ، وابتسم فرحا ، وغمز بعينه ، وقال مكررا : « صباح الخير ،
 صباح الخير »^(١) ، وكان واضحا أنه يجد في تحية الشاب مسرة وبهجة •
 فقال له روستوف وهو يبتسم تلك الابتسامة الاخوية الفرحة نفسها ،
 التي لا تفارق محياه النشاط :

— تعمل منذ الآن ؟ عاش النمسيون ! عاش الروس ! عاش القيصر
 الاسكندر !^(٢)

وكان روستوف انما يكرر بذلك الهاتفات التي كان يرددها الالماني
 أحيانا كثيرة •

فأخذ الالماني يضحك ، وخرج من الاسطبل ، ونزع طاقيته وأخذ
 يحركها فوق رأسه هاتفا :

— وعاش العالم كله^(٣)

فرد عليه روستوف بأن نزع كسكيتته فرفعها فوق رأسه ، وصاح
 يقول ضاحكا : « وعاش العالم كله »^(٣) •

(١) بالالمانية في الاصل •

(٢) بالالمانية في الاصل •

(٣) بالالمانية في الاصل •

لا الالمانى الذي كان ينظف اسطبله، ولا روستوف الذي كان عائدا من سخرة ثقيلة تتعلق بالعلف ، لا أحد منهما كان يدعو أي سبب من الاسباب الى أن يكون سعيدا ، ومع ذلك نظر كل منهما الى صاحبه بحماسة فرحة وعاطفة أخوية ، وهز كل منهما رأسه معبرا لصاحبه عن مودته وصداقته ، وانصرف كل منهما عن صاحبه وهو يتسمم ابتسامة جذلى ، فمضى الالمانى الى الاسطبل ، ودخل روستوف المسكن الذي يقيم فيه مع دينيسوف ♦

قال روستوف يسأل لافروشكا^(١) ، الخادم الماكر الذي يعرفه الفوج كله :

— أين مولاك ؟

فأجابه لافروشكا قائلا :

— لم يعد منذ مساء أمس ♦ لا بد أنه خسر ♦ انني أعرفه ♦ اذا ربح عاد مكبرا ليتباهى ♦ واذا طلع الصبح قبل أن يعود فمعنى ذلك أنه خسران ♦ وسوف يعود حائقا ساخطا ♦ هل تريد قهوة ؟

— هات ! هات !

فما هي الا دقائق عشر حتى جاء لافروشكا بالقهوة ♦

قال وهو يقدم القهوة الى روستوف :

(١) تصغير اسم « لافري » ، وهو من اليونانية (لاوروس) .

— ها هو ذا قد أقبل •

فنظر روستوف من النافذة ، فرأى دينيسوف عائدا الى الدار •
ان دينيسوف رجل قصير القامة أحمر الوجه ، عيناه سوداوان ملتومتان،
وشارباه سودان مشعثان ، وشعره فاحم منفوش • كانت سترته محلولة
الازرار وكان سرواله العريض يتهدل مثنيا ، وكانت طاقيته مجمدة
مرتدة الى قذاله •

صاح يقول بصوت قوي حاقق ، لاثغا بالراء :

— لافروشكا ، هيا اخلع عني هذا يا أبله !

فأجابه لافروشكا قائلًا :

— أليس هذا ما أفعله ؟

وقال دينيسوف مخاطبا روستوف وهو يدخل عليه :

— أقمت منذ الآن ؟

— بل منذ مدة طويلة • جمعت علفا ، ورأيت الآنسة ماتيلد •

فهتف دينيسوف يقول :

— حقا ؟ أما أنا فقد نزلت بي المصيبة تلو المصيبة ! لا يتصور المرء

حظا سيئا هذا السوء ! بدأت الرزايا بعد انصرافك فورا ... هيه !

هات شايًا !

قال دينيسوف ذلك وهو يصطنع التبسم كاشفا عن أسنان قصيرة قوية ، وينفش – يديه القصيرة أصابعهما – شعره الاسود الكثيف كغابة •

ثم أضاف وهو يلطم بكفيه جبينه ووجهه :

– حضني الشيطان على الذهاب الى الفأر (كذلك كان لقب الضابط) •
تصور : لم أأكل ورقة واحدة • لم يعطني ورقة واحدة •

وتناول دينيسوف الغليون المشتعل الذي قدم اليه ، فشده بقبضة يده ، ثم ضرب به الارض فانثرت ناره ، واستمر هو في صياحه يقول :
مرددا :

– كلما كسب البسيط ، خسر البارولي • كلما كسب البسيط خسر البارولي !^(١)

نثر نار الغليون كلها ، وكسر الغليون ورماه • ولبث صامتا لحظة ،
ثم اذا هو ينظر الى روستوف بعينه الملتعنين ، نظرة فرحة •
– لو كان هنا نساء على الاقل • ولكن لا ، لاشيء الا أن نشرب •
ليتنا نمضي الى القتال قريبا على الاقل •

وصاح يسأل ملتفتا صوب الباب اذ سمع وقع جزميتين ضخمتين
ورنين مهمازين ونحنة فيها احترام :

(١) من مصطلحات لعبة فرعون .

— هيه ! من هناك ؟

فقال لا فروشكا :

— هو الرقيب •

فتجههم وجه دينيسوف مزيدا من التجهم • وقال وهو يرمي على
المائدة كيسه الذي يضم عددا من الدنانير الذهبية :

— حظ سيء ! يا روستوف ، عزيزي ، اعدد كم بقي في الكيس ،
ثم ضع الكيس تحت المخدة •

وخرج ليرى الزائر •

فتناول روستوف الكيس ، وأخذ يسحب منه الدنانير بدون تفكير ،
ويعدها جاعلا القديمة منها في كومة والجديدة في كومة أخرى •

قال صوت دينيسوف في الغرفة المجاورة :

— آ ... سلاما تليانين ! ما كان أسوأ حظي في الليلة البارحة ؟

— عند من ؟ عند بيكوف ؟ عند الفأر ؟ ... كنت أقدر هذا !

بذلك أجاب صوت منغم • ثم لم يلبث أن دخل الليوثنان تليانين ،
وهو ضابط قصير القامة من السرية نفسها •

رمى روستوف • الكيس تحت المخدة ، وصافح اليد الصغيرة
الممدودة اليه • ان تليانين هذا كان قبل الحملة قد طرد من الحرس

لسبب لا يعرف أحد ما هو • وكان سلوكه في الفوج سلوكا ممتازا •
ولكن أفراد الفوج لا يحبونه • وكان روستوف خاصة لا يستطيع لأن
يتغلب على الكره الذي يوقظه هذا الضابط في نفسه بدون علة ظاهرة،
ولا أن يخفي هذا الكره •

قال تليانين يسأل روستوف :

— هيه أيها الفارس الشاب ، هل أنت راض عن جراتشيك ؟

(ان جراتشيك هو حصان ركوب كان روستوف قد اشتراه من
تليانين) وكان اللبوتنان لا ينظر أبدا الى محدثه وجها لوجه وانما
تنتقل عيناه من شيء الى آخر • وأضاف يقول لروستوف :

— رأيتك مارا منذ قليل ...

أجابه روستوف بقوله :

— نعم ، الحصان جواد •

رغم أن هذا الحصان الذي اشتراه روستوف بسبعمائة روبل
لا تساوي قيمته حتى نصف هذا المبلغ •

وأضاف روستوف يقول :

— ولكنه يعرج الآن بقائمه الخلفية اليسرى •

— لا بد أن السنبك انشق ! لا قيمة لهذا • سأعلمك كيف تضع
برشاما •

قال روستوف :

— نعم ، علمني ، أرجوك •

— سأعلمك طبعاً • ليس الامر سرا • وستشكر لي أنني بعثك هذا

الحصان •

وكان روستوف راغبا في التخلص من تليانين ، فقال له :

— سأمر باحضار الحصان •

وخرج •

كان دينيسوف مقرفصا في الدهليز على عتبة الباب ، ممسكا غليونه بيده ، يصغي الى ما يقوله له الرقيب • فلما رأى روستوف ، جعد وجهه ، وسدد ابهامه من فوق كتفه صوب الغرفة التي فيها الليوتنان تليانين ، وهز جسمه اشمئزازا ، وقال دون أن يتخرج في كلامه أمام الرقيب :

— أوه ! لشدما أكره هذا الشاب !

فرفع روستوف منكبيه كأنه يريد أن يقول : « أنا أيضا أكرهه ، ولكن ما حيلتنا ؟ » • وبعد أن أصدر الاوامر اللازمة ، عاد الى تليانين •

كان تليانين جالسا جلسته المسترخية نفسها التي تركه عليها روستوف ، وكان يفرك يديه الصغيرتين البضاوين •

قال روستوف محدثاً نفسه : « هناك وجوه لا يملك المرء حين يراها الا أن يتقزز » .

سأله تليانين وهو ينهض وينظر فيما حوله طلق الهيئة :

— هل أمرت باحضار الحصان ؟

— نعم .

— بل فلنذهب اليه نحن . أنا لم أجيء الى هنا الا لاسأل دينيسوف

عن أوامر الامس . هل وصلتكم الاوامر يا دينيسوف ؟

— لا ، لما تصلني بعد . انى أين تذهبان ؟

قال تليانين :

— أريد أن أعلم هذا الفتى كيف يصلح لحصان حدوته ؟

وخرجا الى درج الباب ، ومضيا الى الاسطبل . وقام الليوتنان

تليانين بتعليم روستوف كيف يضع وصلة في حدوة شقت . ثم انصرف

فلما رجع روستوف الى الغرفة كان على المائدة قنينة فودكا وشيء

من مقائق . وكان دينيسوف جالسا أمام المائدة يكتب على ورقة ،

فيسمع لقلمه على الورقة صريف . ونظ الى روستوف مظلم الوجه ،

وقال له :

— اليها أكتب .

واتكأ بكوعيه على المائدة والقلم بيده ، وأخذ يذكر لروستوف

مضمون رسالته ، فكان واضحا أنه سعيد بهذه الفرصة التي تتاح له ، وهي أن يسرد ، بصوت عال وسرعة أكبر ، ما كان يريد أن يكتبه في الرسالة • وقال :

— اسمع يا صديقي ، ان الانسان يظل غافيا الى أن يحب • وما ابشر الا غبار ، فمتى أحبوا صاروا آلهة ، فاذا هم أطهار كطهارتهم حين نلق الله هذا العالم •

وفيما كان دينيسوف يقول هذا الكلام سمع وقع أقدام فصرخ بقول للافروشكا : من هذا أيضا ؟ أرسله الى الجحيم ! ليس في وقتي متسع • ولكن لافروشكا تقدم منه غير هياب وقال له :

— ومن عساه يكون ؟ أنت نفسك أمرته أن يجيء هو الرقيب جاء بتمس مالا •

فجعد دينيسوف وجهه ، وهم أن يصرخ ، لكنه أمسك ، وقال يحدث نفسه : « الامور سيئة » • ثم قال يسأل روستوف :

— كم بقي في الكيس من مال ؟

فأجابه روستوف :

— سبعة دنائير جديدة ، وثلاثة دنائير قديمة •

قال دينيسوف :

— آه ••• الامور سيئة !

ثم صرخ يقول للافروشكا :

هيه ... ما بالك تقف متسما في مكانك ! ألا أرسلت الرقيب ؟

قال روستوف ووجهه يحمر :

— اسمع يا دينيسوف ، اذا كنت في حاجة الى مال ، فاني أستطيع

أن أقرضك • معي ما يكفي •

فأجاب دينيسوف قائلا :

— لا أحب الاقتراض من أصدقاء ، لا أحب هذا ! فعاد روستوف

يقول :

— اذا لم تعاملني معاملة رفيق أحزني ذلك • حقا ان معي من المال

ما يكفي •

قال دينيسوف :

— لا أريد •

وقام الى السرير يريد أن يأخذ الكيس من تحت المخدة •

— أين وضعت الكيس يا روستوف ؟

— تحت المخدة السفلى •

— ولكنني لا أجدها •

ورمى دينيسوف المخدات الى الارض • فلم يكن هناك كيس •

فقال :

— أمر عجيب !

قال روستوف :

— انتظر ، لعلك أسقطت الكيس مع المخدات •

وأخذ يرفع المخدات واحدة واحدة ويهزها ، ثم سحب الغطاء وهزه

أيضا • فلم يعثر على الكيس •

قال :

— أتراني نسيت ؟ ولكن لا • حتى لقد قلت لنفسي انك تضع

الكيس تحت رأسك دائما كأنه كنز •

وقال يسأل لافروشكا :

— وضعت هنا كيسا ، فأين هو ؟

أجاب لافروشكا :

— أنا لم أدخل الى هنا • فلا بد أن تجد الكيس حيث وضعته •

— لا •

— أنت هذا دأبك • ترمي أشياءك في أي مكان ثم تنسى • انظر في

جيوبك •

— صحيح • ولكنني في هذه المرة أتذكر تذكرنا واضحا أن تشبيه

الكنز قد دار في ذهني وأنا أضع الكيس تحت المخدة • لقد وضعته تحت

المخدة ، لا يراودني في هذا شك •

ونبش لافروشكا السرير كله ، ونظر تحت السرير ، ونظر تحت المائدة ، ونبش الغرفة كلها ، ثم وقف في وسطها مدهوشا . وكان دينيسوف يتابع حركاته صامتا ، فلما باعد لافروشكا ذراعيه معبرا عن دهشه ، معلنا أن الكيس لا وجود له في أي مكان ، نظر دينيسوف الى روستوف قائلا :

— روستوف ، دعنا من المزاح ...

فحين أحس روستوف بنظرة دينيسوف رفع عينيه ، ثم خفضهما في اللحظة ذاتها . ان دمه كله قد اندفع الى حلقه وازدحم في وجهه وعينه ، وأصبح روستوف كالمختق لا يستطيع أن يتنفس ،

قال لافروشكا :

— لا بد أن الكيس موجود في موضع من المواضع . لم يدخل أحد الغرفة الا أتما والليوتنان .

فصرخ دينيسوف فجأة وقد احمر وجهه احمرارا شديدا وهم على تابعه مهددا :

— فتحرك اذن يا حيوان ، وفتش ... فتش كل ركن من الاركان . اما أن يعثر على الكيس ، واما أن أظل أجلك بالسوط الى أن تموت . لاجلدن الجميع حتى الموت .

عقد روستوف أزرار سترته متحاشيا نظرة دينيسوف ، وعلق سيفه بحزامه ، ووضع كسكيتته على رأسه .

وكان دينيسوف قد أخذ يهز تابعه من كتفيه ، ويدقه بالحائط ، ويقول له :

— اما أن تجد الكيس ، واما أن ...

فقال له روستوف وهو نحو الباب دون أن يرفع عينيه :

— اتركه يا دينيسوف • أنا أعرف من أخذ الكيس • فتوقف دينيسوف مفكرا ، ولا شك أنه عرف الشخص الذي يعنيه روستوف ، فأمسك ذراع صاحبه ، وقال صارخا بزئيق شد أوردة عنقه وجبينه حتى لكأنها حبال :

— حماقة ! أنت مجنون ! لن أسمح بشيء من هذا ! الكيس هنا • سوف أسلخ جلد هذا الحيوان ، فيعثر على الكيس •

عاد روستوف يقول بصوت مختلج :

— أنا أعرف من أخذه •

واتجه نحو الباب • فأسرع دينيسوف يمسك ذراعه ليصده عن الخروج ، وصرخ يقول له وهو يحدق اليه تحديقا قاسيا :

— انني أنهاك عن هذا !

غير أن روستوف ملص ذراعه بقوة وعنف ، وقال يسأله بصوت متهدج :

— أ أنت تفهم ما تقول ؟ لم يكن في الغرفة أحد الا أنا ، فاذا لم

يكن هو الذي أخذ الكيس ، كان معنى ذلك أنني أنا الذي ...
ولم يستطع روستوف أن يكمل جملته ، وولى راكضا لا يلوي
على شيء •

— شيطان يأخذك أنت والآخرين جميعا !

كانت تلك هي آخر الكلمات التي سمعها روستوف •
ومضى روستوف الى بيت الليوتنان تليانين • فقال له تابعه •
ليس الليوتنان هنا • لقد ذهب الى الاركان •
ثم أضاف يسأل وقد أدهشه المرشح بسحته المنقلبة :

— هل حدث شيء ؟

— لا • لم يحدث شيء •

قال التابع :

— لو وصلت قبل برهة قصيرة لوجدته •

ان مقر الاركان يبعد عن سالتسنيك ثلاثة فراسخ • فما كان من
روستوف الا أن ركب حصانه ، واتجه الى مقر الاركان دون أن يعرج
على بيته • ان في القرية التي جعلت مقرا للاركان نزلا يرتاده الضباط •
فاتجه روستوف الى ذلك النزل رأسا • فما ان وصل اليه حتى رأى
حصان تليانين على بابه •

كان الليوتنان تليانين جالسا الى مائدة في الصالة الثانية ، وعلى المائدة طبق مقائق وزجاجة نبيذ • فلما رأى روستوف مقبلا عليه ، رفع حاجبيه مبتسما وقال له بلهجة التعجب :

— آ ••• أنت أيضا هنا أيها الفتى ؟

فأجابه روستوف قائلا بجهد شاق :

— نعم •

وجلس الى مائدة مجاورة •

صمت الاثنان كلاهما • وكان في الصالة ألمانان وضابط روسي • ان الجميع صامتون ، فلا تسمع الا قرقرة السكاكين على الاطباق ، وطقطقة فكي الليوتنان • حتى اذا انتهى تليانين من تناول طعامه ، استل من جيبه كيسا مزدوجا ، فزحلق حلقاته بأصابعه الصغيرة المرفوعة تغندرا ، وأخرج من الكيس دينارا ذهبيا ، ومدته الى الخادم قائلا له :

— هات الباقي بسرعة •

كان الدينار الذهبي جديدا •

نهض روستوف ، واقترب من تليانين ، وقال له بصوت خافت لا يكاد يسمع :

— اسمح لي بأن أرى كيسك •

فقال تليانين :

— كيس جميل ، أليس كذلك ؟

وأضاف يقول وقد اصفر وجهه فجأة :

— نعم ، نعم ، انظر أيها الفتى !

فتناول روستوف الكيس ، ونظر فيه ، نظر فيه وفي المال الذي يحتويه ، ثم نظر الى تليانين • وكان الليوتنان تليانين ينقل بصره فيما حوله على عادته ، وكأنه صار مرحا على حين فجأة •

— حين نصير في فيينا ، تنفق كل شيء • أما هنا ، في هذه الجحور الوسخة ، فلا شيء يستحق الاتفاق • هات كيسي أيها الفتى، فأنا ذاهب •

— لم يجب روستوف •

فتابع تليانين كلامه قائلا :

— وأنت ؟ هل جئت لتناول غدائك ؟ الطعام جيد هنا • هات الكيس •

ومد يده وأمسك الكيس ، فأرخاه روستوف ، فأخذ تليانين الكيس ، ودسه في جيب سرواله ، ووارتفع حاجباه بطلاقة ، وانفتح فمه كأنما ليقول : « نعم ، أضع كيسي في جيبي • الامر بسيط جدا ، لا يعني أحدا غيري ! » •

ثم قال وهو يتنهد ويحدق الى عيني روستوف من تحت حاجبيه المرفوعين :

— ماذا يا فتى ؟

ان تيارا سريعا كسرعة شرارة كهربائية قد أخذ ينتقل من عيني تليانين الى عيني روستوف ، ثم من عيني روستوف الى عيني تليانين ، وهكذا دواليك ، في مدى لحظة واحدة ، ثم اذا بروسستوف يمسك ذراع تليانين ويقول له مدمدا في أذنه وهو يكاد يجره الى النافذةجرا:

— تعال هنا • هذه نقود دينيسوف ، سرقتها أنت •••

فأخذ تليانين يردد مضطربا :

— ماذا ؟ كيف ؟ كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام ؟ كيف ••• ولكن هذه الكلمات خرجت من صدره صراخا كصراخ يائس يستغيث ويضرع ويتوسل • فما ان سمع روستوف هذه النبذة حتى تخلص من وطأة الشك ، وأيقن أن تليانين هو سارق الكيس ، فشرع بفرح ، وفي الوقت نفسه أخذته شفقة بهذا الرجل الشقي الواقف أمامه • ولكن كان لا بد من المضي بالامر الى نهايته •

دمدم تليانين يقول وهو يتناول كسكيتته ويتجه نحو غرفة صغيرة خالية :

— الله يعلم ما عسى يظن الناس هنا ••• يجب أن تتفاهم ••• قال روستوف :

— انني أعرف ماذا أقول ، وسوف أبرهن لك على صحته •

— أنا •••

واصفر وجه تليانين اصفرارا شديدا ، واتباه رعب قوي ، وأخذ جسمه كله يرتعش ، وطفق بصره ينتقل من شيء الى آخر على عادته ، ولكنه الآن لا ينظر الا الى تحت ، ولا يرتفع لينظر الى روستوف ، ثم اذا هو ينشج نشيجا مخنوقا ويقول :

— كونت ! ... لا تضع انسانا ... اليك الدنانير فخذها ...
ان لي أبا ، وأما ! ...

قال ذلك وهو يرمي الكيس على المائدة • فتناول روستوف الكيس ، واتجه الى الباب ، متحاشيا نظرة تليانين ، ومتجنباً أن يقول كلمة واحدة . ولكنه وقف عند عتبة الباب ، ثم قفل راجعا الى تليانين ، وقال له والدموع في عينيه :

— ولكن كيف أمكن أن تفعل هذه الفعلة ؟

فلم يزد تليانين على أن اقترب من المرشح وهو يقول له :
— كونت !

فقال له روستوف وهو يتعد عنه :

— لا تلمسني • واذا كنت في حاجة الى هذا المال ، فخذ !
قال ذلك ورمى اليه الكيس ، ثم خرج من النزول راكضا •



الفصل الخامس

في مساء ذلك اليوم نفسه نشبت مناقشة حامية عند دينيسوف بين ضباط كتيبة الفرسان •

قال كابتن طويل القامة أشيب الشعر متغضن الوجه بارز القسمات ضخم الشاربين ، قال لروستوف وقد اشتد احتياجه واحمر احمرارا قويا :

— وأنا أقول لك يا روستوف ان عليك أن تعتذر الى قائد الفوج
Régiment .

كان الكابتن كيرستن قد جرّد من رتبته العسكرية واستردها مرتين
لامور تتصل بالشرف •

هتف روستوف يقول :

— لا أسمح لاحد بأن يدعي أنني أكذب • لقد قال لي أنني أكذب ، فأجبت أنه هو الذي يكذب • ووقف الامر عند هذا الحد • ان في وسعه أن يندبني للخدمة في جميع الايام اذا شاء ، وفي وسعه أن يجسني اذا أراد ، ولكن لن يجبرني أحد على أن أعتذر اليه ، ذلك أنه اذا كان يتصور أنه لا يليق به ، وهو برتبة كولونيل ، ان يرضيني ، ف ...

قاطعه الكابتن بصوته الجهير وهو يملّس شاربه الطويل بهدوء :

— اسمع ، اسمع يا عزيزي • اصغ الي • لقد قلت لقائد الفوج أمام ضباط آخرين ان ضابطا قد سرق •••

— ليس ذنبي أن الحديث دار على هذا الامر بحضور ضباط آخرين • ربما كان لا ينبغي الكلام على هذا الامر بحضورهم ، ولكنني لست دبلوماسيا • واذا كنت قد اخترت أن أدخل في سلاح الفرسان فلاتني كنت أعتقد أن المرء في سلاح الفرسان لا يحتاج الى المصانعة والمداجاة • وقد قال لي اتني أكذب ••• فما عليه الا أن يرضيني •••

— هذا كله كلام حسن • لا أحد يعدك جبانا • ولكن المسألة ليست هذه • اسأل دنيسوف هل يحدث أن يطلب مرشح من كولونيل أن يرضيه ؟•••

وكان دنيسوف يصغي الى المناقشة مربدًا الوجه عاضا على شاربه • وكان واضحا أنه لا يجب التدخل في هذه المناقشة • فلما ألقى الكابتن سؤاله ، هز رأسه بحركة تعني النفي •

وتابع الكابتن كلامه فقال :

— لقد حدثت الكولونيل عن تلك الفعلة الدنيئة أمام ضباط • فلم يزد بوجدانتش على أن ردك الى التزام النظام (باسم بوجدانتش^(١))

(١) الكولونيل كارل بوجدانتش ثوبرت (ولعل اسم بوجدانتش ترجمة لاسم جوتليب) وهو يسمى باسم الاب وحده من باب رفع الكلفة •

• كانوا يسمون قائد الفوج) •

— لم يردني الى التزام النظام ، بل نعتني بالكذب •

— صحيح • ولكنك انطلقت تقول له كلاما أحق ، فيجب عليك

أن تعتذر اليه •

صرخ روستوف يقول :

— مستحيل !

فقال الكاتبن بلهجة رصينة قاسية :

— ما كنت أتوقع هذا منك • انك لا تريد أن تعتذر • ومع ذلك

فإنك يا عزيزي لم تخطيء في حقه وحده ، بل أخطأت في حق الفوج

كله ، في حقنا جميعا • وليتك فكرت في الامر ، وسألت في هذه

القضية نصحا ••• ولكنك لم تفعل ، وانما أطلقت كلامك صريحا

فجا ، وفعلت ذلك بحضور ضباط آخرين • فماذا بقي للكلونيل

أن يفعل ؟ هل كان عليه أن يحيل ضابطا الى مجلس حربي ، فيلطح بذلك

سمعة الفوج كله ؟ أيدنس شرف الفوج كاملا بسبب ضابط تافه حقير

لاقيمة له ؟ أهذا ما كان يجب عليه أن يفعله في رأيك ؟ ان رأينا نحن

مختلف عن هذا الرأي • نحن نقول : مرحى بوجداتتش ! لقد كان

على حق حين قال لك انك تكذب • ذلك شيء لا بد أن يسوءك طبعاً •

ولكن ما الحيلة يا عزيزي ؟ لقد سعت الى هذه المساءة بنفسك • ونحاول

نحن الآن أن نخق القضية ، فتدفعك الكبرياء الزائفة الى رفض

الاعتذار عن خطئك ، وتصبر على أن تروي كل شيء • لقد ضايقتك أن تنذب للخدمة ، ولكن ماذا يكلفك من عناء أن تعتذر الى ضابط مسن شريف ! مهما تكن عيوب بوجدانتش ، فانه كولونيل مسن شريف شجاع • يضايقك أن تعتذر اليه • أما أن يلطّخ شرف الفوج كله فأمر لا يهكم البتة ، ولا ينالك بأي سوء ، ولا يحدث لك أي ضيق !

أخذ صوت الكابتن يختلج ، وتابع كلامه يقول :

— يا عزيزي ، أنت في هذا الفوج منذ مدة قصيرة جدا • واليوم أنت هنا ، وغدا تصبح مرافق قائد في مكان من الامكنة • فلا يهملك أن يقول الناس : « ان بين ضباط بافلوجراد لصوصا ! » • أما نحن فيهما هذا كثيرا • أليس كذلك يا دنيسوف ؟ يهنا هذا كثيرا •

كان دنيسوف ما يزال صامتا لا يتكلم ، وما يزال ساكنا لا يتحرك • وكان ينظر من حين الى حين الى روستوف بعينه السوداوين الملتعنين •

وواصل الكابتن كلامه فقال :

— أنت تحرص على خيلائك الزائفة ، فلا تريد أن تعتذر ، أما نحن القدماء ، فاننا سنموت بمشيئة الله في هذا الفوج كما كبرنا فيه • لذلك نحرس على شرف الفوج ، وان بوجدانتش ليعلم ذلك • ما أشد حرصنا على شرف الفوج يا عزيزي ! لا قولن الحقيقة صريحة كل الصراحة دائما سواء أساءك هذا أم لم يسؤك ! ليس حسنا ما تفعل •

قال الكاتبن ذلك ، ونهض من مكانه وأشاح وجهه عن روستوف

فصاح دينسوف يقول وقد وثب واقفا على قدميه :

— هذا حق • هيا يا روستوف ! هيا !

فاصفر وجه روستوف ثم احمر ، وراح ينقل بصره بين الضابطين •

ثم انطلق يقول :

— لا يا سادة ••• لا ••• لا يذهبن ظنكم الى ••• اني لافهم حق

الفهم ••• انكم لتخطئون الظن اذا انصرف ذهنكم الى أنني ••• أنا

••• اعلموا أنني أحرص على شرف الفوج وان شرف الراية في نظري •••

نعم ، هذا حق ••• أنا مخطيء ! •••

كانت عينا روستوف قد اغرورقت بالدمع ، وتابع كلامه يقول :

— أنا مخطيء ••• أنا مخطيء حتما ••• ماذا تريدون فوق هذا ؟

فصاح الكاتبن يقول وهو يلتفت اليه ويربت بيده الضخمة على كتفه :

— هذا حسن يا كونت •

وصاح دينسوف مخاطبا الكاتبن :

— ألم أقل لك انه فتى شهيم ؟

وعاد الكاتبن يقول مخاطبا روستوف بقلب الكونت كأنما ليكافئه

على اعترافه بخطئه :

— هذا أفضل يا كونت • اعتذر له يا صاحب السعادة ، نعم ، اعتذر

له •

قال روستوف بصوت ضارع :

— أفعّل كل ما تأمرون به يا سادة ، ولن أبوح لأحد بشيء •••
ولكنني لا أستطيع الاعتذار ••• أحلف لكم أنني لا أستطيع الاعتذار،
لا أقدر عليه ، لا قبل لي به ! افعلوا ما تريدون ! كيف أذهب إليه
معتذرا كصبي صغير ، طالبا عفوه وصفحه •

فأخذ دينسوف يضحك •

وقال كيرستن :

— لك ما تشاء • ولكن في هذا وبالا عليك • ان بوجدانتش حقوق
ولسوف تدفع ثمن عنادك •

— يمينا ما هذا بعناد ! لا أستطيع أن أصف لكم ما أشعر به • انني
لا أقدر أن ••••

قال الكاتب :

— أنت حر •

وأضاف يسأل دينسوف :

— أين مضى ذلك الوغد ؟

— تظاهر بالمرض ، فنقل محمولا • وسوف يُمنح في الغد اجازة
على ضوء التقرير الطبي •

قال الكابتن :

— انه لمريض حقا • هذا مرض فعلا • لا يمكن تفسير الامر بغير
المرض •

فصرخ دينسوف بصوت كاسر :

— سواء أكان مرضا أم لم يكن مرضا ، فانما المهم أن لا يقع تحت
يدي ، والا قتلته •

ودخل جركوف الغرفة • فسأله الضباط :

— ما جاء بك الى هنا ؟

فأجاب !

— أمر بالمسيرة يا سادة ! استسلم ماك وجيشه !

— أهذا معقول ؟ .

— رأيته بعيني •

— ماذا ؟ رأيت ماك بلحمه وعظمه ! بذراعين ؟ بساقين ؟

— الى القتال ! الى القتال ! اسقوه قنينة جزاء النبأ الذي جاءنا

به ! ولكن أنت ، ما وجودك هنا ؟

— رددت الى الفوج من جديد بسبب ماك هذا ! شكاني جنرال

نمسوي • كنت قد هنأت الجنرال بوصول ماك ••• ماذا بك يا
روستوف ؟ لكأنك خارج من حمام ! •••

— نحن هنا في ورطة منذ يومين ، يا صديقي •

ودخل الضابط الذي يبلغ الاوامر ، فأكد الخبر الذي حمله
جركوف • لقد صدر الامر بالسير غدا •

— الى القتال يا سادة !

— الحمد لله ! لقد تحجرنا هنا !



الفصل السادس

كان كوتوزوف قد انكفأ على فيينا ، وهدم في طريقه الجسور المشيدة على نهر اين (في براوانا) وعلى نهر تراون^(١) (في لينتس) وكانت الجيوش الروسية تعبر نهر اينس^(٢) . فالقوافل والمدفعية وأرتال القطعات تجتاز مدينة اينس بعد الظهر ممتدة على جانبي الجسر . الجو جو خريف دافئ ماطر . والمنظر الرحيب الذي تطل عليه كتائب المدفعية الروسية من فوق الذروة التي احتلتها حماية للجسر ، يتحجب تارة على حين فجأة بستارة من مطر خفيف مائل كأنه غلالة ، ويتسع تارة أخرى ، فاذا بالاشياء تظهر في الاقاصي واضحة في ضوء الشمس كأنها مبرنقة . وفي أدنى تظهر المدينة الصغيرة بمنازلها البيضاء وأسقفها الحمراء ، وكاتدرائيتها ، وجسرهما الذي تجري سيول القطعات الروسية على جانبيه متزاحمة . وعند عققة الدانوب ترى مراكب وجزيرة ويقصر له حسيقة تحيط بها مياه ملتقى اينس والدانوب ، وترى الضفة اليسرى الوعرة التي تغطيها غابة من أشجار الصنوبر ، وترى

(١) إن نهري اين ولينتس رافدان من روافد الدانوب في جهته اليسرى .

(٢) هو الرافد التالي من روافد الدانوب بعد نهر تراون .

وراءها أفاص يلفها السر هي ذرى خضر وشعاب زرقاء • وهذه ابراج
دير تنبثق من غابة صنوبر تبدو بكرات متوحشة • وأمامها في بعيد ،
على تلة وراء نهر اينس تبدو دوريات العدو •

وعلى التلة ، في مقدمة كتيبة المدفعية ، أخذ الجنرال قائد المؤخرة
وضابط من حاشية الامبراطور ، يتفحصان أرض الموقع بمنظار مقرَّب •
وراءهما قليلا ، كان نرفتسكي ، مبعوث القائد العام للمؤخرة ، جالسا
على ركيزة مدفع • وكان القوزاقي الذي يرافقه يمد اليه كيسا وقارورة ،
وكان نرفتسكي يقدم للضباط فطائر صغيرة وخمرة كمون أصلية •
وكان الضباط يحدقون به فرحين ، فبعضهم جاث على ركبتيه ، وبعض
مقرفص فوق الحشيش المبتل على الطريقة التركية •
قال نرفتسكي :

— نعم ، لم يكن غيبا ذلك الامير النمساوي الذي بنى لنفسه قصرا
هنا • مكان جميل !

فأجابه أحد الضباط مفتتنا أعظم الافتتان بأنه يكلم عضوا له مثل
هذا الشأن الخطير من أعضاء هيئة اركان الحرب :

— لك أجزل الشكر يا أمير • موقع رائع • لقد لقينا ايلئين حين كنا
نقطع الحديقة • وما أفخمه من منزل !

وقال ضابط آخر كان يتمنى لو ينال فطيرة أخرى ، ولكنه كان
في حرج من أمره ، لذلك كان يتظاهر بأنه يتأمل المنظر :

— انظر يا أمير ، انظر ، هاهم أولادجنودنا المشاة يصلون الى المكان .
هؤلاء ثلاثة منهم في المرج وراء القرية يجرون شيئاً •

وأضاف يقول مجبذا تحيذا واضحا :

— سوف ينهبون القصر ، فيفرغونه من كل ما فيه •

فجأة

قال نرفتسكي :

— صحيح ، صحيح !

ثم أضاف يقول وهو يمضغ فطيرة بفمه الرطب الجميل :

— ولكن ما كنت أتمناه هو تسلق تلك الراية •

قال ذلك وهو يشير الى الدير وأبراجه المصطنعة على الراية •
وابتسم ، فتضيق عيناه والتمعتا ، وأردف يقول :

— ذلك يكون أمرا مبهجا حقا يا سادة •

فأخذ الضباط يضحكون •

— ليتنا نستطيع على الاقل أن نروّع اولئك الراهبات • يظهر
أنهن ايطاليات ، وبينهن فتيات في ريعان الصبا وغضارة الشباب • اني
لاهب خمس سنين من عمري لاظفر بهن !

فعمق على ذلك ضابط أجراً من غيره ، فقال وهو يضحك :

— لا سيما وأنهن يشعن بضجر ولا شك •

وفي أثناء ذلك كان ضابط الحاشية يدل الجنرال على شيء ، فتناول الجنرال المنظار المقرَّب وسرَّح من خلاله بصره • ثم قلل حانقا وهو يخفض المنظار ويهز كتفيه :

— فعلا ، فعلا ، سيسيرون تحت مرمى النار • ما بال رجالنا يتباطئون هذا التباطؤ !

وفي الجهة الاخرى كان يرى العدو بالعين المجردة ، وكانت ترى احدى كتائب مدفعيته وقد تصاعد فوقها دخان أبيض بلون اللبن ، ثم اذا بانفجار يدوي في بعيد ، فتغذ قطعائنا خطاها بسرعة •

نهض نرقتسكي نافخا ، ودنا من الجنرال وهو يتسهم • وقال يسأله :

— ألا تريد أن تصيب شيئا من شراب أو طعام يا صاحب السعادة؟ فقال الجنرال دون أن يجيب عن سؤاله :

— الحال سيئة • رجالنا متأخرون •

فسأله نرقتسكي :

— أ أمضي اليهم يا صاحب السعادة ؟

فقال الجنرال مكررا أوامره التي سبق أن أصدرها مفصلة :

— نعم ، امض اليهم • قل للفرسان ان يكونوا آخر العابرين ، وأن

يحرقوا الجسر كما أمرت بذلك ، وأن يتحققوا من اللواد التي لا تشتعل
في الجسر •

قال نرقتسكي :

— حسن جدا •

ونادى مرافقه القوزاقي الذي كان يمسك حصانه ، وأمره بوضع
الكيس والقارورة في موضعهما ، وبحركة خفيفة صار جسمه الثقيل
على سرج الجواد •

وقال للضباط الذين كانوا ينظرون اليه مبتسمين :

— سأقوم بجولة على الراهبات حقا •

وسار في الطريق الضيق الذي يهبط متعرجا •

وقال الجنرال مخاطبا قائد كتيبة المدفعية :

— هلم يا كابتن ! اعبث بمدافعك قليلا لمخادعة العدو •

فنادى الضابط سدة المدافع قائلا :

— السدة ! الى مدافعكم !

فما هي الا لحظة حتى هرع سدة المدافع يلقمون مدافعهم • وصدر
الامر مدويا :

— المدفع الاول ، اطلق !

فاندفعت الطلقة الاولى رشيقة سريعة • وهدر المدفع بصوت معدني يصم الآذان ، ومرت القنبلة فوق رؤوس رجالنا عند سفح الراية صافرة ، ودلت على مكان سقوطها بدخان ضئيل تصاعد وراء مواقع العدو ، وانفجرت •

فلما سمع جنودنا وضباطنا صوت انفجارها ازدادت وجوههم تهللا وبشرا، وقاموا عن أماكنهم جميعا واستفرقوا يتابعون بأبصارهم حركات قطعائنا التي يرونها تحت كأنها في راحة كف ، ويرون أمامها قطعائ العدو تقترب • وفي تلك اللحظة نفسها خرجت الشمس من بين الغيوم تامة ، فكان أن امتزج انطلاق القنبلة الجميل وتلاؤ الشمس الساطعة ، وانصهرا في احساس واحد يبعث الفرح ، ويثير النشوة •

الفصل السابع

كانت قذيفتان من قذائف العدو قد مرتا فوق الجسر ، فاشتد عليه التزاحم . وفي وسط الجسر كان الامير نرقتسكي قد ترجل ، وأصبح جسمه الضخم مضغوطة على الدرازين . فكان من حين الى حين يلتفت ضاحكا نحو صاحبه القوزاقي الذي كان ممسكا بزمامي الحصانين على مسافة بضع خطوات في وراء . وكان الامير نرقتسكي ما يكاد يحاول أن يستأنف السير حتى تصده الجنود العربات وتعود تضغطه على درازين الجسر ، فلا يبقى له الا أن يتسهم .

قال القوزاقي لجندي يقود عربة نقل ، فيصدم المشاة التي أصبحوا يتكومون حتى تحت عجلات العربة وحوافر خيلها :

— ما هذا يا صديقي ؟ اليس في امكانك أن تنتظر ؟ يجب أن ندع لجنرالي أن يمر ...

ولكن الجندي لم يعبأ بلقب الجنرال ، وظل يهيب بالرجال الذين يسدون طريقه أن يتنحوا :

— هيه ! يا رجال ! تنحوا الى اليسار ! انتظروا !

ولكن الرجال الذين كانت أكتافهم متلاصقة مترابطة ، يتشبثون

بحراهم ، ويتقدمون على الجسر كتلة واحدة كثيفة بغير انقطاع .
 وكان نرفتسكي ينظر من فوق الدرابزين فيرى أمواج نهر اينس ،
 السريعة الصخابة ، يختلط بعضها ببعض ، وترتسم عليها الغضون ،
 وتلتف حول أعمدة الجسر ، وتتلاحق موجة بعد موجة . وينظر الى
 الجسر فيرى أمواجا من البشر تتلاطم كتلاطم أمواج النهر رتبية مطردة،
 ويرى قلنسوات وأشربة وصررا وأكياسا وحرايا وبندقيات طويلة ،
 ويرى تحت القلنسوات وجوها ناثئة الوجنات ، خاسفة الخدود تعبر عن
 قلة الاكتراث وشدة التعب ، ويرى دوس الاقدام في الوحل اللزج
 الذي يفرش ألواح الخشب في أرض الجسر . وكانبثاق زبد فوق سطح
 مياه نهر اينس كان ينبثق في بعض الاحيان ضابط يرتدي معظفا ويشق
 لنفسه طريقا بين أمواج الجند المتشابهة ، مختلفا وجهه عن وجوه سائر
 الرجال . وفي أحيان أخرى يرى فارس مترجل أو تابع أحد الضباط أو
 رجل مدني وقد جرفه سيل المشاة كما يجرف تيار النهر قطعة من خشب،
 أو ترى عربة ضباط ، أو شاحنة جنود ، قد غصت بركابها وأسدل
 عليها غطاء ، وجرت على الجسر محاطة بالحشد من كل جهة ، فكأنها
 جذع شجرة يطفو على سطح مياه النهر الدافقة .

قال القوزلوقي وقد تثبّطت عزيمته :

— كأنه سد تحطم ! ... ألا يزال هناك خلق كثير سيثدقون هذا

التدفق ؟

فأجابه جندي جذل كان يمر بقرب معطفه الممزق .

— مليون الا-واحد! —

وغاب الرجل الجذل • وأعقبه جندي آخر ، شيخ في هذه المرة ، فقال لرفيقه وقد اكفهر وجهه :

— حين سيأخذ برش الجسير ، فلسوف ينسى المرء أن يحك جلده •

(ان الضمير المستتر في فعل « سيأخذ » هو العدو • فكذلك يتخاطب الجنود حين يتكلمون عن العدو • انهم حين يقولون « هيو » انما يقصدون العدو) •

ومر الجندي • ووراءه كان يجيء آخر في عربة • وقال تابع يلحق العربة بخطى سريعة ، وهو ينبش مؤخرتها :

— أين تراك وضعت جوربيك ؟

ومر هذا أيضا هو والعربة •

وفي لثزه كان يجيء جنود فرحون لا شك أنهم شربوا خمرة فثملوا • كان واحد منهم يقول جذلا • وهو يجري بيده حركة عريضة • وقد رفع ياقة معطفه حتى بلغت أذنيه :

— لو رأيته كيف هوى بعكازته على خطمه فجأة ...

— فأجاب آخر وهو يقهقه قهقهة مجلجلة :

— حللو ! الجلمبون مشهور •

ومر الجنود ، فلم يعرف نزفتسكي من الذي أصابته ضربة العكازة
على أسنانه ، ومن المقصود بالجامبون •

وقال ضابط صف بلهجة حائقة تعبر عن الاستياء والاستنكار :

— ما أشد استعجالهم ! كأن نارا تلسع أذبارهم !

فلأن العدو قذف قنبلة لا هدف لها ، تخيلوا أنه سيقتلهم جميعا •

فأجابه جندي شاب ضخم الفم وهو لا يكاد يستطيع أن يكظم
ضحكه :

— حين مرت القنبلة بجانبى يا صاحبي تسمرت في مكاني ...

حقا • أحلف لك • شعرت بخوف هائل • ياله من يؤس !

بذلك ختم الجندي كلامه كمن يتباهى بأنه خاف •

ومر هذا أيضا • وجاءت بعده عربة نقل لا تشبه أية واحدة من
سابقاتها • انها عربة ألمانية يجرها حصانان ، وكأن بيتا بكامله قد تكدس
في داخلها • كان يقود العربة رجل ألماني • وقد ربطت بها بقرة مبرقشة
كبيرة الضرع • وعلى لحاف من ريش في داخلها كانت تجلس امرأة تحمل
بين ذراعيها رضيعا ، وتجلس عجوز هرمة وامرأة ألمانية قوية الجسم
محمرة الوجه • كان واضحا أن هؤلاء اللاجئين انما سمح لهم بالمرور
بترخيص خاص • التفتت جميع الاعين الى النساء ، وبينما كانت العربة
تمر متقدمة خطوة خطوة لم تتناول ملاحظات الجنود غيرهن ، وقد أضاءت

جميع الوجوه ابتسامة تكاد تكون واحدة ، تنم عن الافكار الخيثة التي طافت براءوس الجنود عنهن •

— انظر الى هذا المنفوخ • انه يجبر نفسه أيضا •

— بعني هذه المرأة الطيبة •

كذلك قال جندي آخر مخاطبا الالماني الذي كان يسير بخطوات واسعة ، خافضا عينيه معبرا بهيئته عن الحنق والذعر •

— ما أشد تبرجها ! شيطان يأخذهم !

— ذلك هو الذي سيكون عليك أن تسكن عنده يا فيدوتوف !

— رأينا كثيرا غيره يا صاحبي !

وكان ضابط من ضباط المشاة يقضم تفاحة وينظر هو أيضا الى الفتاة الجميلة مبتسما نصف ابتسامة ، فقال يسأل :

— الى أين أتم ذاهبون ؟

فأغمض الالماني عينيه ، وعبر بإشارات عن أنه لا يفهم •

قال الضابط وهو يمد التفاحة الى الفتاة :

— تريدونها ؟ خذنها !

فابتسمت الفتاة وأخذت التفاحة • وكان نزفتسكي، كسائر الموجودين على الجسر ، لا يحول بصره عن هؤلاء النساء اللواتي كن يعبرن

الجسر • حتى اذا غبن عن الابصار مر جنود آخرون لا يختلفون عن سابقهم ، وكانوا يتبادلون تلك الاحاديث نفسها • وأخيرا توقف الجميع عن السير • ذلك أنه حدث ما يحدث في كثير من الاحيان ، وهو أن خيول عربة من عربات النقل قد توقفت عند آخر الجسر مترددة ، فاضطر الجمهور كله أن ينتظرها •

— لماذا يثقون ؟ لم يصدر أي أمر ! ما بالك توغل ؟ هذا لا يعرف الانتظار • ستسوء الحال مزيدا من السوء حين يحرق الجسر • انظر • هذا ضابط يحصر •

هذا ما كان يقال في الحشد المتوقف وقد أخذ أفرادهم ينظر بعضهم الى بعض ، وكانوا يتزاحمون على الخروج من الجسر •

وفيما كان نرفتسكي يلقي نظرة على الجسر ، وعلى مياه نهر اينس ، اذا هو يسمع ضجة لا عهد له بمثلها من قبل ، كانت تقترب سريعة ... انها ضجة شيء ضخم سقط في الماء محدثا دويا شديدا •

فقال أحد الجنود على مقربة منه وهو يلتفت الى مصدر الضجة :
— هه ! انظر الى أين يسدد !

فقال جندي آخر بلهجة فيها قلق وخوف :

— هو يفعل هذا ليشجعنا على العبور بسرعة أكبر !

واهتز الجمهور من جديد • وأدرك نرفتسكي أن ما سقط في الماء

هو قذيفة مدفع • وصاح ينادي القوزاقي :

— هيه ! يا قوزاقي ! جثني بحصاني ! وأتم هلموا ، تنحوا ،
اصطفوا ، افسحوا مجالا للمرور !

واستطاع أن يبلغ حصانه بجهد كبير ، وجعله يتقدم وهو لا يكف ،
عن الصياح ، وتراص الجنود ليسيحوا له أن يمر ، ومع ذلك صدموه
صدما بلغ من الشدة أنهم آلموا ساقه ايلاما شديدا ، ولم يكن القرييون
منه هم المسئولين عن ذلك ، لانهم كانوا هم أنفسهم يدفعون دفعا أشد ،
ويصدمون صدما أقوى •

وفي تلك اللحظة صاح وراءه صوت أبج يناديه قائلا :

— نرفتسكي ! نرفتسكي ! هيه ! يا منفوخ !

فالتفت نرفتسكي الى وراءه ، فرأى على مسافة خمس عشرة خطوة
منه تملؤها كتلة المشاة المتحركة ، رأى فاسكا دينسوف محمر الوجه
مشعث الشعر وقد رد كسكيتته الى وراءه ، وألقى فروته على
كتفه بافتخار •

كان دينيسوف يقول صائحا وقد استبد به خنق واضح ، وأخذت
عيناه السوداوان تقدحان شررا ، وأخذت يده الصغيرة التي كانت بلا
قفاز تبلوح بسيفه المغمود في قرابه ، صاح يقول :

— قل لهم ، قل لهؤلاء الشياطين ، لهؤلاء الالباسة أن يفسحوا

ممرًا ...

فأجاب نرقتسكي يقول في فرح :

— هيه ! فاسيا ؟ ما حدث لك ؟

فصرخ دينسوف يقول بغضب مكشرا عن أسنانه البيضاء :

— لا تستطيع السرية أن تمر ...

قال دينسوف ذلك وهو يهز حصانه الجميل الذي كان اسمه « البدوي » ، وهو حصان أصيل أكحل كان يهدل أذنيه حين يصطدم بالحراب ، ويحمحم فيخرج من خطمه الزبد ، ويقرع ألواح الجسر بحافريه ، وكأنه مستعد لأن يتخطى الدرايزين وثبا متى أحس أن فارسه يسمح له بأن يفعل .

— ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ أغنام ! أغنام حقا ! ارجعوا الى وراء! ... افسحوا ممرا ! قف أنت ، هناك ! وأنت ، صاحب العربة ، لأقطعك بسيفي تقطيعا !

كذلك أخذ يصيح دينسوف وقد أخرج سيفه من غمده وشهره فعلا . فكان الجنود يتراصون مرتاعين ، واستطاع دينسوف أن يصل الى نرقتسكي .

قال نرقتسكي حين اقترب منه دينسوف :

— كيف لا أراك اليوم سكرانا ؟

فأجاب فاسكا دينسوف بقوله :

— لا يدعون لك وقتا فتسكر ! مافتتوا يجرون الفوج تارة هنا وتارة هناك طول النهار • اذا كانوا يريدون القتال فليقاتلوا • والا فما هذا الذي يعملون ؟ ••• ما أعجب أمرهم !

قال نرقتسكي وهو يتأمل المعطف الجديد الملقى على كتف دينسوف ،
وينظر الى عدة حصانه :

— ما أشد أناقتك اليوم !

فابتسم دينسوف ، واستل من جعبة سيفه منديلا يضع عطرًا ،
ودسه تحت أنف نرقتسكي ، وأضاف يقول :

— يستحيل أن أفعل غير هذا • انني ماض الى القتال • لذلك حلقت
ذقني ، وتدهنت بالعطر ، وغسلت أسناني •

واستطاع نرقتسكي ودينسوف أن يشقا لنفسهما ممرا بين الحشد
الكثيف ، وأن يبلغا آخر الجسر ، بفضل قامة نرقتسكي المهيبة والقوزاقي
الذي يرافقه والسيف الذي كان يشهره دينسوف صائحا بأعلى صوته ،
وفي آخر الجسر ، وجد نرقتسكي الكولونيل الذي كان يجب عليه أن
يلبغه الاوامر ، فلما فرغ من القيام بمهمته قفل راجعا •

وبعد أن شق دينسوف طريقا لرجاله ، وقف عند مدخل الجسر ،
وأخذ ينظر الى سرته مقبلة عليه ، كابحا زمام جواده الذي كان يكدف
نافد الصبر شوقا الى الانضمام الى سائر الخيل • ودوت على ألواح
الجسر ضجة ذات رنين ، كالتي تدوي حين تعدو خيول عدة خبيبا ،

وامتدت السرية على الجسر وقد اصطفت الخيل أربعا أربعا ، وأخذت
تنتقل الى الضفة الاخرى من النهر .

فكان جنود سلاح المشاة ، الجامدون في أمكنتهم ، الدائسون في
الوحد ، الشاعرون بتلك العاطفة الخاصة التي يشعر بها جنود الاسلحة
المختلفة بعضهم تجاه بعض ، وهي عاطفة الاختلاف والبعده التي تظالمها
عداوة وسخرية ، كانوا ينظرون الى الفرسان الذين تبدو عليهم النظافة
والاناقة وهم يخطرون أمام أبصارهم على نظام دقيق وترتيب جميل .
فقال واحد منهم معلقا :

— هؤلاء فتية متبخترون ، لا يصلحون الا للاستعراض في ساحة
بودنوفنسكوي^(١) .

وقال آخر :

— ما نفع هذا ؟ انهم لا يسيرونهم الا للغش والخداع !
وأخذ أحد الافراس يتراقص فلفطخ بالوحد أحد الجنود المشاة ،
فقال راكب الفرس مازحا :

— لا تثر غبارا ، يا جندي سلاح المشاة !

فأجابه جندي سلاح المشاة قائلا :

— لو جعلوك تسير مرحلتين اثنتين حاملا على ظهر كيسك ، لرأينا

(١) هي ميدان للتدريب يقع في شمال موسكو .

كيف تهتريء اهتراء • ما هذا برجل • ما هو الا عصفور حط على
حصان ! وقال عريف يمازح جنديا هزيلا كان ينحني جسمه تحت وطأة
كيسه الثقيل :

— ينبغي أن تركب أنت حصانا يا زيكين ! لكم تكون جميلا لو
امتطيت صهوة جواد !

فقاطعه راكب الفرس قائلا :

— ما عليك الا أن تضع بين ساقيك عصا فاذا أنت فارس جميل !

الفصل الثامن

كانت أرتال المشاة تعبر الجسر بسرعة ، فيتشكل منها عند مدخله ما يشبه صورة قمع . وقد مرت العربات كلها فقل التزاحم ودخلت الجسر آخر سرية ، ولم يبق على الضفة الاخرى في مواجهة العدو الا فرسان ديسوف . وكان العدو ما يزال لا يرى من الجسر ، وانما يلمح من الراية المقابلة في بعيد ، لان المجرى الذي يسيل فيه النهر محجوب على مدى نصف فرسخ في أقل تقدير . وكانت دوريات من قوزاقنا تتجول في مكان خال هنا وهناك . ثم اذا بقطعات من الجند ذات معاطف زرقاء تظهر في أمام على حين بغتة مع مدافعها . انهم الفرنسيون . فتنزل دورية من القوزاق الى أسفل الضفة خبياً . ويحاول ضبط سرية ديسوف وجنوده أن يتكلموا في أمر غير هذا الامر ، وان ينظروا الى مكان غير ذلك المكان ، وأن لا يفكروا فيما يجري هناك على الراية ، ولكنهم لا يفلحون ، فهم ينعمون النظر في تلك البقع التي تبجس في الافق ، والتي يعرفون أنها قطعات من جيوش العدو . وكان الوقت هو الاصيل ، فالشمس الساطعة تهبط أشعتها على الدانوب وعلى الجبال الدكناء التي تحيط به ، وكان كل شيء هادئاً ساكناً ، لولا أصوات أبواق وصيحات تصل من جهته العدو في الفينة بعد الفينة . ولم يبق بين السرية وبين العدو الا دوريات

صغيرة • وأصبح لا يفصل بينهما الا مكان خال يبلغ طوله زهاء ستمائة متر • وقد كف العدو عن الرمي • غير أن هذا التوقف عن الرمي انما عزز وضوح الشعور بذلك الخط الصارم الرهيب المخيف الذي لا يمكن بلوغه ولا يمكن ادراكه ، ذلك الخط الذي يفصل بين جيشين عدوين •

« تجاوز هذا الخط الذي يذكر بالخط الفاصل بين الاحياء والاموات ، فاذا أنت قد غدوت في الافق المجهول ، أفق العذاب والموت • ما هناك ؟ من هناك ؟ بعد ذلك الحقل ، بعد تلك الشجرة ، بعد ذلك السقف الذي تنصب عليه أشعة الشمس ؟ لا أحد يعرف ذلك ؟ وكل واحد يود أن يعرفه • يخشى المرء أن يقطع ذلك الخط ، ويريد لو يقطعه ، وهو يعرف أنه سيكون عليه أن يقطعه عاجلا أو آجلا ، فيعلم ما ذا يوجد هناك وراء الخط ، كما سيعلم ما بعد الموت لا محالة • ولكن الرجال يزخرون قوة وصحة وفرحا ونشاطا ، ويحيط بهم رجال لا يقلون عنهم صحة ونشاطا وحماسة » • ذلك ما كان يفكر فيه أو قل ما كان يشعر به على الاقل ، كل رجل من هؤلاء الرجال ازاء العدو ، فكان هذ الشعور أو هذا الاحساس يهب لكل ما يحدث في ذلك الحين بروزا خاصا ، ويهب للادراك حدة شديدة وفرحا قويا •

واتشر في الراية التي يحتلها العدو دخان طلقة مدفع ، وممرت القذيفة فوق رؤوس سرية الفرسان صافرة • فأخذ الضباط يعود كل منهم الى مركزه بعد أن كانوا مجتمعين، وأخذ الفرسان ينظمون صفوفهم، وصمت في السرية كل شيء • ان الجميع ينظرون الى العدو أمامهم ،

ويلتفتون بأبصارهم الى قائد السرية ينتظرون أن يأمرهم بشيء • ومرت قذيفة ثانية فثالثة • وكان واضحا أن العدو يسدد طلقاته الى الفرسان. غير أن القذائف كانت تمر فوق رؤوسهم صافرة صفيرا رتبيا سريعا ، وتمضي تسقط في مكان وراءهم • وكان الفرسان لا يدرون رؤوسهم؛ ولكن السرية كلها ، على ما في وجوها من تنوع كثير تجمعها الوحدة، كانت متى دوت قذيفة من القذائف تنتصب قامت رجالها على الركاب كأنها أمرت بذلك أمرا ، وتجس أنفاسها أثناء مرور القذيفة فوق رؤوسها ، ثم تسقط على السروج متى سقطت القذيفة على الارض • وكان الجنود ينظر بعضهم الى بعض بأطراف الاعين دون أن يحركوا رؤوسهم ، وكان كل واحد منهم يرصد ردود رفيقه باهتمام شديد • وفي كل الوجوه ، من وجه دينسوف الى وجه نافخ البوق ، يظهر الآن تعبير مشترك عن روح التجلد ، وتوتر الاعصاب ، وتأجج الانفعال ، يظهر حول الشفتين وفي الذقن • والرقب يقطب حاجبيه وهو يتفرس في الرجال كأنما هو يهددهم بعقاب • والمرشح ميرونوف ينحني كلما مرت قذيفة • وروستوف الذي يركب على الجنب الايسر من حصانه المهيب على ما تعانیه ساقاه من ألم ، يبدو سعيدا سعادة تلميذ سوف يتقدم أمام جمهور غفير الى امتحان يعرف معرفة اليقين أنه سينجح فيه نجاحا باهرا ، فهو يحيل على ما حوله نظرة وضاعة مشعة ، كأنه يستشهد جميع الناس على ما يديه من هدوء تحت القذائف • ومع ذلك كان ذلك التفضن القاسي يظهر حول شفتيه هو أيضا على رغم ارادته •

صاح دينسوف ، وكان لا يستقر في مكان ولا ينفك يدور بحصانه في طليعة السرية ، صاح يقول :

— من ذا الذي يجي هناك ؟ با مرشح ميرونوف ! ليس هذا حسنا .
الي أنا انما يجب أن تنظر .

ان فاسكا دينيسوف ، الخانس أنفه ، المحاط وجهه بشعر أسود ، الصغيرة المتجمعة قامته ، المتعضلة يده القصيرة الشعراء أصابعه ، المسك قبضة سيفه الذي أخرج من غمده ، هو الآن على عهدنا به ، ولا سيما حين يقبل المساء ويكون قد أفرغ في جوفه زجاجتين من الخمرة . كل ما هنالك من فرق هو أنه الآن اشد حمرة . كان رافعا رأسه الاشعث ، كالطيور حين تشرب ، وكانت قدماء الصغيرتان تفرسان مهمازيه في جنبي جواده « بدوي » بغير رحمة ، فيجري به الجواد خيبا الى الطرف الآخر من السرية وكأن جسمه يهوي الى وراء ، ويصيح بصوت أجش أمرا بتأهب المسدسات . واقترب من كيرستن ، فأقبل عليه الأمر المساعد خطوا ، وكان يركب فرسا عريضة وديعة ، وكان بشاريه الطويلين رصين الهيئة على العهد به ، وكانت عيناه تلتزمان أكثر مما عهد فيهما من التماع . قال يخاطب دينسوف :

— ما الفائدة من هذا ؟ لن نصل الى حد التلاحم . سوف تتراجع .
سترى هذا بعينيك .

فجمعهم دينسوف يجيبه :

— لا يعلم الا الشيطان ماذا يفعلون •

ثم هتف ينادي المرشح وقد لاحظ ما يعبر عنه وجهه من فرح :

— هيه ! روستوف ! هأنت ذا قد نلت أخيرا ما كنت تريد •

وابتسم مستحسنا مجبذا • وكان واضحا أنه مسرور من المرشح •
وأحس روستوف بسعادة كبيرة • وفي تلك اللحظة ظهر القائد على
الجسر • فهرع دينيسوف اليه ، وقال له :

— صاحب السعادة ! اسمح لي بالهجوم • سوف أدرهم •

فقال القائد بصوت ضجر وهو يجعد وجهه تجعيد من يذب عنه
ذبابة مزعجة :

— هذا هو الامر فعلا • ما بقاؤكم هنا ؟ ها هي ذي الدوريات
تسحب • عودوا بالسرية •

فعبرت السرية الجسر ، فخرجت من منطقة النيران دون أن تفقد من
رجالها أحدا ، وتبعتها سرية أخرى كانت مصطفة ، وجلا عن هذه الضفة
أواخر القوزاق •

وبعد أن أتمت سريتا الفرسان في فوج بافلو جراد عبورهما الجسر ،
انسحبتا واحدة بعد أخرى الى الروابي ، وانضم الكولونيل كارل
بوجدانوفتش شوبرت الى سرية دينيسوف ، فكان حصانه يسير به
خطوا غير بعيد من روستوف دون أن يلتفت اليه ودون أن يوليه انتباهها،
رغم أن هذا اللقاء هو أول لقاء لهما منذ النزاع الذي قام بينهما في

أمر تليانين • ولكن روستوف الذي يحس أنه في الحرب خاضع لسلطة هذا الرجل الذي يشعر الآن أنه مذب في حقه ، كان لا يحول بصره عن الكولونيل ، ولا يني ينظر الى ظهره القوي ، وقذاله الاشقر، ورقبته الحمراء ، فتارة يبدو له أن بوجدانتش يتظاهر بعدم الاكتراث تظاهرا ، وأن غايته الوحيدة هي الآن أن يختبر شجاعة المرشح ، فاذا هو ينصب قامته ويلقى على ما حوله نظرة فرح ، وتارة يتصور أن بوجدانتش يعتمد أن يكون قريبا منه هذا القرب كله ليظهره على ما يتصف به هو من بسالة وشجاعة ، وتارة يقول لنفسه ان عدوه سيجعل السرية تنخرط في هجوم عنيف معاقبة له هو روستوف ، أو يتخيل أيضا ان الكولونيل سيجيئه بعد الهجوم مصالحا ، ماذا اليه يده في كرم وسماحة بعد أن أصيب هو بجرح •

وهاهو ذا جرکوف الذي يعرف خيالة بافلوجراد قامته ذات الكتفين العاليين (وهو لم يترك الفوج الا منذ زمن قصير) ، ها هو ذا يقبل على الكولونيل • ان جرکوف ، بعد أن طرد من القيادة العامة ، لم يبق في الفوج ، وقال انه ليس غيبا فيرضى أن يبتى في صفوف المقاتلين بينما هو يستطيع أن يرتقي ارتقاء أسرع اذا عين في هيئة الاركان • وقد تمكن ببذل المساعي من أن يعين ضابطا ملحقا بالامير باجراتيون • وهو يحمل الآن الى رئيسه القديم أمرا من قائد المؤخرة •

قال مخاطبا عدو روستوف مكفهر الوجه صارم الهيئة وهو يلقي نظرة على رفاقه :

— كولونيل ، ان الامر هو بالتوقف واحراق الجسر •

— أمر من ؟

كذلك سأله الكولونيل الكالـح السخنة • فأجابه جركوف بلهجة رصينة :

— لا أدري حقا من أصدر هذا الامر يا كولونيل • لكن الامير قال لي : « امض الى الكولونيل ، فأبلغه أن تتراجع الخيالة وان يحرق الجسر » •

وبعد جركوف حمل هذا الامر نفسه الى كولونيل الخيالة ضابط من ضباط الحاشية تبعه نـزفتسكي على ظهر فرس صغير من أفراس القوزاق ينوء بحمله وهو يعدو به خيـا •

صاح نـزفتسكي قائـلا حتى قبل أن يقف :

— ما هذا يا كولونيل ؟ قلت لكم أن تحرقوا الجسر فلم تفعلوا • انهم في هيئة الاركان العامة يشدون شعرهم غضبا ، ولا يفهمون من هذا السلوك شيئا •

فأوقف الكولونيل فوجه بغير اسراع ، وقال متجها بكلامه الى نـزفتسكي :

— لقد حدثتني عن مواد مشتعلة ، أما عن احراق الجسر فلم تذكر لي شيئا •

قال نرقتسكي وقد وقف ونزع كسكيتته وأخذ يملس يده السمينه
شعره المبتل بالعرق :

— كيف تزعم « يا عزيزي » انني لم أذكر لك شيئا عن احراق
الجسر وقد وضعت عليه مواد مشتعلة ؟

— لا تخاطبني بقولك « يا عزيزي » أيها السيد الضابط الاعلى .
أنت لم تجدثني بشيء عن احراق الجسر ! انني أعرف واجبات خدمتي ،
وقد تعودت أن أنفذ الاوامر تنفيذا دقيقا . لقد قلت ان الجسر قد
يحرق ، ولكنك لم تشر بكلمة الى من سيتولى احراقه، وما كان في وسعي
أن أعرف ذلك بوحى من روح القدوس ...

قال نرقتسكي وهو يجري يده بحركة تعبر عن التسليم والاذعان :
— طيب ، طيب . هي الحكاية نفسها تتكرر دائما ...

وأضاف يسأل جرکوف :

— ما جاء بك الى هنا ؟

— ما جاء بي أنا هو ما جاء بك أنت . ولكنك ميتل ابتلالا شديدا ،
فهل لي أن أعصرک ؟

وتابع الكولونيل كلامه قائلا بلهجة فيها امتعاض وانزعاج :

— قلت أيها السيد الضابط الاعلى ...

ولكن ضابط الحاشية قاطعه بقوله :

— يجب الاسراع يا كولونيل • والا قدم العدو مدافعه الى حيث
نصبح في متناول الرمي •

فنظر الكولونيل الى ضابط الحاشية صامتا ، ثم نظر الى الضابط
الضخم ، والى جركوف مقطبا حاجبيه • وقال بلهجة وقور كأنه يريد
أن يعبر بذلك عن أنه ، رغم جميع المضايقات التي يسببونها له ، سوف
يقوم بواجهه خير قيام :

— سأحرق الجسر •

وهمز حصانه بساقيه الطويلتين المعضلتين كأن الحصان هو سبب
كل شيء ، وانطلق الى أمام ، وأمر السرية الثانية ، وهي السرية التي
يعمل فيها روستوف تحت امرة دنيسوف ، بأن ترجع الى الجسر •

قال روستوف محدثا نفسه : « لعمرى هذا ما قدرت • انه يريد
أن يمتحني ! » • وانقبض صدره وازدحم الدم في وجهه • وأضاف
يخاطب نفسه : « لسوف يرى هل أنا جان ! » •

وعاد الى وجوه رجال السرية ، التي كانت فرحة متهللة الاسارير ،
عاد اليها ذلك التعبير نفسه الذي كان يكسوها حين كانت الرؤوس تحت
أزيز القنابل • وكان روستوف لا يحوّل بصره عن عدوه الكولونيل ،
باحثا في وجهه عن مصداق لظنونه • ولكن الكولونيل لم ينظر اليه
مرة واحدة ، وكان قاسي السحنة وقور الوجه على العهد به في القتال •
ودوى صوت يصدر أمرا • وقالت عدة أصوات بقرب روستوف :

— بسرعة ، بسرعة •

فاذا الفرسان ينزلون عن صهوات خيولهم مسرعين ، بين قرقعة المهاميز واشتباك الاسياف بالاعنة ، وهم لا يعرفون ما سيجب عليهم ان يفعلوه • ورسموا على أنفسهم اشارة • وكف روستوف عن النظر الى الكولونيل ، فان وقته غدا لا يتسع لذلك • انه الآن يشعر بخوف ، يشعر بخوف شديد من أن يتخلف عن الفرسان • كانت يده ترتعش وهو يسلم عنان حصانه الى سائس الخيل ، وكان قلبه يخفق خفقاناً شديداً • ومرةً دينسوف أمامه مرتدةً الجسم الى وراء ، صائحا ببعض الكلام • كان روستوف لا يرى شيئاً ، ولا يبصر الا هؤلاء الفرسان يركضون من حوله ، ويتعشرون بمهاميزهم ، وتقرقع أسيافهم •

وصاح صوت وراءه ينادي :

— نقالة !

فلم يتساءل روستوف ما معنى طلب النقالة • فلقد كان يجري وليس له من هم الا أن يكون في الطليعة متقدماً جميع الرجال • ولكنه حين وصل الى الجسر ، وكان لا ينظر الى موطيء قدميه ، انزلق على الوحل اللزج فسقط مكبا على يديه ، وتجاوزته الآخرون •

وكان الكولونيل قد سبق الرجال ، ووقف مع حصانه غير بعيد عن الجسر ، فعلا صوته يقول مشرق الوجه متهلل الاسارير :

— من الجهتين يا كابتن !

جفّف روستوف • يديه المتسختين بسرّواله ، وأدار وجهه الى عدوّه ، وأراد أن يستأنف ركضه ، قائلاً لنفسه انه كلما أوغل في الجري فوصل الى مكان أبعد ، كان ذلك أجدر به وأخلق • ولكن بوجوداتش وبخه صارخا في حق دون أن ينظر اليه ودون أن يعرفه :

— من ذا يركض في وسط الجسر ؟ الى اليمين ! أيها المرشح ، ارجع الى وراء •

والتفت الى دينسوف الذي كان يعرض بسالته وجسارته متقدما بحصانه على ألواح الجسر ، فقال له :

— علام المخاطرة يا كابتن ؟ الافضل أن تنزل عن حصانك •

فأجابه فاسكا دينسوف وهو يستدير على سرجه :

— القذيفة تهتدي الى من تريد أن تصيبه •

وفي أثناء ذلك كان نزفتسكي وجركوف وضابط الحاشية يقفون معاً في خارج دائرة الرمي ، ويتجهون بأبصارهم تارة الى تلك الجمهرة من الرجال الذين يرتدون معاطف صفراء وسترات قاتمة الخضرة ذات زخارف برندبورجية ، مع سراويل زرقاء ويتحركون ويضطربون بقرب الجسر ، وتارة الى الجهة الاخرى فيرون المعاطف الزرقاء ، ويرون جماعات من رجال وخيل تظهر في بعيد ، فلا يعسر على المرء أن يعرف أنها سرايا مدفعية •

« أيتهم احراق الجسر أم لا ؟ من ذا يصل قبل الآخر ؟ أيلفونه فيحرقوه أم يقترب الفرنسيون فيصبح الآخرون في متناول رميهم فيبيدوهم ؟ » • تلکم هي الاسئلة التي كان كل واحد يلقيها على نفسه مغموم القلب مرتاع النفس رغم إرادته بين أفراد القطعات الكثيرة الذين كانوا يقفون على الروابي المطلّة على النهر ، وينظرون الى الضوء الساطع ترسله الشمس الغاربة ، ويرون المعاطف الزرقاء مقبلة مع حرابها ومدافعها •

قال نرفتسكي :

— لسوف يضرب الفرسان ضربة رهية • ليسوا الآن بعيدين عن متناول الرمي •

وقال ضابط الحاشية :

— أخطأ اذ اقتاد هذا العدد الكبير من الرجال •

وعقّب نرفتسكي :

— فعلا • كان يكفي ارسال رجلين اثنين • الامران سيان • فقال جركوف ، دون أن يحوّل بصره عن الفرسان ، ولكن بلهجته الساذجة تلك التي لا تتيح للمرء ان يحزر أهو جاد أم هازل :

— ما هذا الكلام يا صاحب السعادة ؟ كيف تريد ان يرسل رجلين اثنين لا أكثر ؟ هل يمكن ان نمنح عندئذ وسام « صليب فلاديمير » ؟

أما الآن فمن الجائز ، ولو جاءت الخسائر فادحة ، ان تمنح السرية كلها
وساماً ، وان يحصل بوجوداتش نفسه على وشاح • ان صاحبنا
بوجوداتش يعرف كيف تجري الامور •

قال ضابط الحاشية :

— انظروا ! سيبدأ الرمي !

قال ذلك وهو يشير الى المدافع الفرنسية وهي تسحب من مقدم
العربات ، وتبعد عنها دوابها بسرعة •

وها هو ذا دخان ينتشر في جهة الفرنسيين حيث ترابط المدافع ،
وها هو ذا دخان ثان فثالث ينتشر في آن واحد تقريبا ؛ وما ان وصل
دوي الانفجار الاول الى الاسماع حتى انتشر دخان رابع • دوي
انفجاران واحداً بعد الآخر ، ثم دوي انفجار ثالث •

قال نرقتسكي في أنين كأن ألما حاداً قد ألم به ، قال وهو يمسك
ذراع ضابط الحاشية :

— أوه ! أوه ! انظروا ! هذه قذيفة تسقط • سقطت ! سقطت !

— هما اثنتان فيما أظن !

— لو كنت القيصر ، لما خضت حرباً قط !

كذلك قال نرقتسكي مشيحاً وجهه •

وسرعان ما ألقمت المدافع الفرنسية من جديد • وهجمت مدفعية

المعاطف الزرقاء على الجسر . وعادت الادخنة تنتشر موجة بعد موجة على غير نظام ، وفرقت القذائف تضرب الجسر . ولكن نرقتسكي لم يستطع في هذه المرة أن يرى ما ذا يحدث . ارتفع من الجسر دخان كثيف . لقد استطاع الفرسان أن يشعلوا النار في الجسر ، وأصبحت المدفعية الفرنسية ترميهم لا لتمنعهم من احراق الجسر ، بل لمجرد أن المدافع مسددة وأن ثمة هدفا يصوب اليه .

تمكن الفرنسيون من أن يرموا ثلاث مرات قبل أن يرجع الفرسان الى خيولهم ، فأخطأوا هدفهم مرتين ، وأصابوه في المرة الاخيرة اذ سقطت القذيفة في وسط جماعة من الفرسان فصرت منهم ثلاثة .

ووقف روستوف بقرب الجسر مشغول البال بعلاقاته بوجدانتش، لا يعرف ماذا يعمل . لم يكن هناك أحد يستطيع أن يضربه بسيفه (ان روستوف لا يتصور معركة من المعارك الا ضربا بالسيوف) ، وكان لا يستطيع أيضا أن يساعد في احراق الجسر ، لانه لم يحمل حزمة قش كما فعل سائر الجنود . وبينما هو ينظر فيما حوله ، اذا بفرقة تدوي على الجسر كأن جوزا قد تساقط عليه واتشر فوقه ، واذا بأقرب فارس منه يهوي على الافريز وهو يئن . فركض روستوف اليه مع الآخرين . وعلا صوت ينادي من جديد :

— نقالة !

وأمسك بالفارس أربعة رجال فأنهضوه .

صرخ الجريح :

— أووه ! اتركوني ، ناشدتكم الله !

ولكن الرجال أنهضوه وأضجعوه •

أشاح نيقولا روستوف وجهه ، وسرح بصره في بعيد كأنه يبحث عن شيء من الأشياء ، فنظر الى ماء الدانوب ، والى السماء ، والى الشمس • ما أجمل ما بدت السماء لعينيه ! ما كان أشد زرقتها ! ما كان أهدأها وأعمقها ! ما كان أسطع وأبدع أشعة الشمس في تلك الساعة من الاصيل ! وما كان أرفق التماع الماء في الدانوب البعيد ! وأجمل من ذلك أيضا كانت الجبال الزرقاء العالية وراء الدانوب ، وكان الدير ، وكانت شعاب الجبال الغائصة في السر ، وكانت غابات الصنوبر الغارقة في الضباب حتى ذراها ••• هنالك كان الهدوء ، هنالك كانت السعادة ••• قال روستوف يحدث نفسه : « يكفي أن أكون هنالك ، فلا أرغب في شيء ، ولا أطلب شيئا • ما أعظم السعادة التي في نفسي وفي هذه الشمس ! ••• أما هنا ••• فالانين ، والعذاب ، والخوف ، وهذه البلبلة وهذا الاضطراب ••• ما ان يصح صائح مرة أخرى بنداء ، حتى يركضوا جميعا متراجعين لا أدري الى أين ، واذا أنا أركض مع الراكضين ، ثم اذا هو الموت أمامي ، وفوقي ، وحولي ••• وما هي الا لحظة ، فاذا أنا لا أرى هذه الشمس وهذه المياه وهذا الوادي بعد ذلك أبدا ••• » •

وفي تلك اللحظة أخذت الشمس تحتجب وراء النجوم • ومرت

أمام روستوف نقالات أخرى • فانصهرت في نفس روستوف مشاعر شتى هي الخوف من الموت ومن هذه النقالات ، وهي محبة الشمس وهي الرغبة في الحياة ، فتكون من تلك المشاعر كلها احساس واحد اليم قلق • وددم روستوف مناجيا ربه بينه وبين نفسه : « اللهم يا رب هذه السماء ، اللهم أنقذني واغفر لي واحمني » •

وعاد الفرسان الى الخيول يأخذونها من سائسيها ، وأمست الاصوات أشد قوة وأكثر هدوءا • وكانت النقالات قد غابت عن الابصار •

هتف فاسكا ديسوف يسأله من فوق أذنه :

— هيه ! هأنت ذا يا عزيزي قد عرفت البارود أول مرة !

قال روستوف يحدث نفسه : « انتهى كل شيء • ولكنني جبان • نعم أنا جبان » • وتناول زمام حصانه من السائس وهو يتنهد تنهدا عميقا ، ووضع قدمه في الركاب ، ثم قال يسأل ديسوف :

— ما الرمي هذا ؟

فصرخ ديسوف يقول :

— رمي ! لقد أبلينا بلاء حسنا ! ولكن هذا القتال حقير ! ان الهجوم شيء جميل • ففي الهجوم يخوض المرء معركة • أما هذا الذي فعلناه فلا يعلم الا الشيطان ما معناه ! كانوا يسددون الينا كتسديدهم الى هدف •

قال دنيسوف ذلك وابتعد متجها الى جماعة كانت تقف غير بعيد من روستوف. كانت الجماعة تضم الكولونيل ونزفتسكي، وجركوف، وضابط الحاشية .

« يبدو لي مع ذلك أن أحدا لم يلاحظ شيئا » . كذلك قال روستوف لنفسه . وقد صدق ظنه . فما من أحد لاحظ شيئا بالفعل ، لأن كل واحد قد عانى الشعور الذي عاناه المرشح حين مواجهة النيران أول مرة .

قال جركوف :

— هذا ما يستحق أن يكتب عنه تقرير . من يدري ؟

قد أُرقي أنا أيضا الى رتبة ملازم ثان .

— فقال الكولونيل بلهجة فيها أبهة ومرح معا :

— أبلغ الامير أنني أحرقت الجسر !

— واذا سألني عن الخسائر ؟

أجاب الكولونيل بصوت جهير :

— الخسائر تافهة : جرح فارسان ، وسقط ثالث جثة هامة .

ولم يستطع الكولونيل أن يكظم فرحه ، وبلغ من شدة اعجابه بتعبيره « جثة هامة » ، أنه أطلقه بصوت رنان وقد ألت بشفتيه ابتسامة مشرقة .

المفصل التاسع

كان الجيش الروسي الذي يتألف من خمسة وثلاثين ألف رجل بقيادة كوتوزوف ، ويطارده الجيش الفرنسي المؤلف من مائة ألف رجل بقيادة بوناپرت ، ويستقبله الاهالي بروح العداء ، والذي فقد الثقة بحلفائه وعانى من نقص التموين واضطر أن يقاتل قتالا ليس فيه شرط من الشروط الذي يمكن التنبؤ بها في الحرب ، كان هذا الجيش يتراجع مسرعا الى سافلة الدانوب ، ويتوقف فيدركه العدو ، فيتخلص بأعمال تقوم بها مؤخرته ولا تتعدى ما هو لازم للتمكن من التراجع دون أن يتكبد خسائر في حمولاته • وقد وقعت اشتباكات بقرب لامباش وأمستتن وميلك^(١) • ولكن هذه الاشتباكات ، رغم ما اتصف به الروس في قتالهم من جسارة وقدرة على تحمل المكاره والشدائد ، وذلك ما اعترف به العدو نفسه ، لم يكن لها من نتيجة الا تعجيل الانسحاب • والقطعات النمسية التي أفلتت من الاسر في أولم ، وانضمت الى كوتوزوف بقرب بروناو ، كانت قد انفصلت الآن عن الجيش الروسي ، وتركت كوتوزوف لقواته وحدها منهكة مرهقة ، حتى ان أمر الدفاع عن فيينا لم يعد الآن محل بحث ، وبدلا من الحرب

(١) قرى نمسوية على الطريق المؤدية من لنتس الى فيينا .

الهجومية التي تصورها « المجلس الحربي الاعلى » النمسي وفقها لقوانين ذلك العلم الجديد المسمى بالاستراتيجية ، والتي سلم خطتها الى كوتوزوف أثناء اقامته في فيينا ، أصبح الهدف الوحيد الذي يمكن أن يسعى اليه كوتوزوف ، وهو هدف يكاد يستحيل الوصول اليه ، هو أن يحقق التقاء بالقطعات الوافدة من روسيا ، دون أن يخسر جيشه على غرار ما حدث للجنرال ماك في أولم .

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول (أكتوبر) ، انتقل كوتوزوف بجيشه الى الضفة اليسرى من نهر الدانوب ، فتوقف لأول مرة ، بعد أن جعل الدانوب حائلا بينه وبين القوات الفرنسية الرئيسية . وفي اليوم الثلاثين هاجم فرقة مورتية^(١) التي كانت مرابطة وحدها على الضفة اليسرى فهزمها ، وفي هذه المعركة أمكن الحصول على غنائم لأول مرة : راية ومدافع وجنرالين من قادة العدو . ولأول مرة بعد تراجع دام خمسة عشر يوما ، تمكنت القطعات الروسية أن تتوقف ، حتى أنها بعد المعركة لم تكتف بالسيطرة على الارض بل راحت تطارد الفرنسيين فلاذوا بالفرار . ورغم أن القطعات الروسية كانت منهوكة القوى رثة الثياب قد نقص ثلثها بين زاحف وقتيل وجريح ومريض ، ورغم أنها تركت في الجهة الاخرى من الدانوب مرضى وجرحى مع رسالة من كوتوزوف يوصي بها العدو

(١) أدولف مورتية (١٧٦٨ - ١٨٣٥) : جنرال فرنسي ، سُمّي بعد ذلك مارشالا ودوق تريفيز .

خيرا بهؤلاء المرضى والجرحى مناشدا انسانيته ، ورغم أن المستشفيات الكبرى والمباني الضخمة التي أحييت في مدينة كريس^(١) الى محاجر صحية أصبحت لا تستطيع ايواء جميع المرضى والجرحى ، رغم ذلك كله فان التوقف بقرب كريس والانتصار على مورتيه قد شدا عزيمة القطعات الروسية ، وراحت الاشاعات تسري في الجيش كله وفي القيادة العامة زاعمة أن الارتال القادمة من روسيا تقترب ، وأن النمسيين حققوا انتصارا ، وأن بونايرت يهزم مروعا .

وكان الامير آندره أثناء المعركة قريبا من الجنرال النمسي شميدت الذي قتل في تلك المعركة . وقد جرح حصانه تحته ، وخدش هو نفسه برصاصة أصابت ذراعه . وأنعم عليه القائد العام انعاما خاصا فأوفده رسولا يحمل نبأ هذا الانتصار الى البلاط النمسي الذي غادر فيينا التي تهددها الجيوش الفرنسية وانتقل الى برون^(٢) . وكان الامير آندره في ليلة المعركة قد وصل الى كريس يحمل تقريرا من دوختوروف^(٣) الى كوتوزوف، وكان مهتاج النفس ولكنه غير متعب الجسم (ان الامير آندره ، رغم ما يبدو في الظاهر من أنه ضعيف البنية ، كان أقدر على احتمال تعب الجسم من أقوى الاقوياء بنية) ،

(١) بلدة على نهر الدانوب ، تبعد عن فيينا ٦٠ كيلو مترا الى الغرب .

(٢) عاصمة مورافيا (ينطق اسمها باللغة التشيكية : برنو) ، وفيها انما كان الاسكندر الاول حينذاك .

(٣) دميري دوختوروف (١٧٥٦ - ١٨١٦) : جنرال منذ ١٧٩٧ ، كان قائد جيش في أوسترلتس ثم في بورودينو .

فلم يلبث أن بعث في تلك الليلة نفسها رسولا الى يرون ، فكانت هذه المهمة التي كلف بها تعني أنه سينال في القريب ترقية هامة ، عدا ما تعنيه من تمييزه على غيره •

كانت الليلة حالكة الظلام ساطعة الانجم • وكان الطريق يبرز أسود اللون في وسط الثلج الابيض الذي هبط بالامس يوما قبل المعركة • وكان الامير آندره يجري على الطريق في عربة من عربات البريد ، فتارة يتخيل الاثر الذي سيحدثه نبأ الانتصار فيمتليء فرحا ، وتارة يتذكر تحيات الوداع التي شيَّعه بها القائد العام ورفاقه ؛ وهو في الحالين يشعر شعور من سيلبغ السعادة المنشودة بعد انتظار طال أمده • وكان متى أغمض عينيه يسمع دوي " طلقات البنادق والمدافع يترجّع في أذنيه مختلطا بقرقعة العجلات وفرحة النصر • او كان يتخيّل أن الروس اندحروا ، وانه هو نفسه قتل ، فاذا هو يستيقظ منتفضا ، سعيدا بأن الامر ليس كذلك ، وبأن الفرنسيين هم الذين انهزموا وفرشوا • وكان يأخذ يتذكر جميع تفاصيل الانتصار من جديد، ويتذكر ما أظهره هو نفسه من شجاعة هائلة وجأش رابط اثناء المعركة، حتى اذا اطمأن باله وسكنت نفسه عاد يغفو • وبعد الليلة الدامسة الظلام المتلاثة النجوم ، طلع النهار صافيا رائعا فرحا • وأخذ الثلج يذوب تحت أشعة الشمس ، وطفقت الخيل تعدو خيما نشيطا سريعا ، فتجتاز حقولا وغابات وقرى جديدة على اليمين والشمال •

وفي احدى المحطات ادرك الامير آندره ركبا من الجرحى الروس •

فكان الضابط الذي يقود الركب ، وهو مسترخ في العربة التي تتقدم القافلة ، يشتم أحد الجنود شتما مقفعا • وكان في كل عربة من عربات النقل الالمانية ستة جرحى او أكثر ، يهتزون ويترجحون على الطريق الحجرية الوعرة صفر الوجوه ، متسخين ، تغطي الاضطدة اجسامهم • وكان بعضهم يتكلمون (سمع الامير آندره كلمات روسية) ، وبعضهم يأكلون خبزا ، أما الذين كانت اصاباتهم فادحة فقد نظروا الى عربة البريد التي تخطتهم ، باهتمام يملؤه ما يبذل اهتمام الطفل من حبر جميل وألم كظيم •

استوقف الامير آندره عربتهم ، وسأل احدهم في اية معركة جرحوا • فأجابه الجندي بقوله :

— أمس الاول ، على الدانوب •

فاستل الامير آندره كيسه ونفحه ثلاثة روبلات ذهبا • وأضاف يقول مخاطبا الضابط الذي كان قد اقترب :

— لتوزيعها على الجرحى كافة •

وأردف يخاطب الجنود :

— أبلثوا من جراحكم يا شباب ، فما تزال هناك أعمال كثيرة يجب أن نقوم بها •

سأله الضابط وكان واضحا انه يريد ان يجري حديثا :

— ما الانباء يا سيادة المرافق ؟

- طيبة ا

بذلك أجابه ثم صرخ يقول للحوذي :

- سر •

وتابع طريقه •

كان الليل قد خيمَ تماما حين وصل الامير آندره الى برون فرأى نفسه محاطا بالمباني العالية وأضواء الدكاكين ونوافذ المنازل ومصايح الشوارع والمركبات الجميلة كل ذلك الجو الذي تتميز به مدينة كبيرة كثيرة الحركة والنشاط ، عظيمة الفتنة والاغراء للعسكري دائما حين يخرج من المعسكر • فكان ، رغم رحلته المتعبة ورغم سهر الليل ، يشعر ، وهو يقترب من القصر ، بهمة تربو على ما شعر به أمس من همة • وكانت عيناه تسطعان بريقا محموما ، وكانت خواطره تتعاقب في ذهنه بسرعة شديدة ووضوح كبير • فرأى بخياله تفاصيل المعركة رؤية خلت الآن من الغموض والابهام وغدت نوعا من عرض دقيق يتصور أنه يقدمه للامبراطور فرانسوا ، حتى لقد كان يتخيل الاسئلة التي يمكن ان تلقى عليه والاجوبة التي سيجيب بها عن تلك الاسئلة • وكان يظن أنه سيدخل على الامبراطور حالا • ولكن موظفا هرع الى لقائه عند المدخل الرئيسي للقصر ، فلما علم أنه مبعوث يحمل رسالة قاده الى مدخل آخر ، وقال له :

- امش ، يا صاحب النبالة العالية^(١) ، في الممر الايمن ، فتلقى

(١) بالالمانية في الاصل •

هنالك المرافق المناوب ، فيدخلك على وزير الحرب •

استقبل مرافق هيئة الاركان الامير آندره ، فرجاه أن ينتظر لحظة، ودخل على وزير الحرب يسأله اوامره • ثم عاد الى الامير آندره بعد خمس دقائق ، فدعاه أن يتقدمه وهو ينحني له انحناء فيه أقصى المجاملة، وقاده عبر دهليز الى المكتب الذي يعمل فيه الوزير • وكان يبدو على المرافق انه بتأدبه الشديد هذا مع الامير آندره انما كان يريد أن يقطع الطريق على أي محاولة لرفع الكلفة من جانب المرافق الروسي • فكان شعور الفرح الذي يحسه الامير آندره يضعف ضعفا شديدا أثناء تقدمه من غرفة وزير الحرب • حتى لقد أحس بمهانة، واستحال الشعور بالمهانة في لحظة واحدة على غير علم منه الى غضب واحتقار لا مسوَّغ لهما ، ولكن فكره البارع لم يلبث ان امدَّه بالحجج التي تسوِّغ ازدراء المرافق والوزير كليهما ، فكان يقول لنفسه : « لا بد لاناس لم يشموا رائحة البارود أن يتصوروا ان تحقيق الانتصارات أمر سهل » • وتغضنت عيناه معبرتين عن الاحتقار ، ودخل على الوزير بطيء الخطو بطئا واضحا • ثم اشتد شعوره بالاحتقار حين رأى الوزير ، الجالس الى مكتب كبير ، يغفل القادم دقيقتين لا يوليه أثناءهما أي انتباه ، اذ كان الوزير مكبا على مكتبه برأسه الاصلع الذي ابيض شعر صدغيه، عاكفا على أوراق يقرؤها ويؤشر عليها بالقلم الرصاص بين شعلتي شمع ، وقد ظل يقرأ دون أن يرفع رأسه حين فتح الباب وسمع وقع أقدام •

قال لمرافقه وهو يمدُّ اليه اوراقا دون ان يلتفت حتى الآن الى
الموفد القادم عليه :

— خذ هذه الاوراق وسلّمها •

أحسن الأمير آندره ان العمليات التي يقوم بها كوتوزوف هي آخر
ما يشغل بال الوزير ، أو ان الوزير يريد أن يشعر مبعوث كوتوزوف
بذلك • قال الأمير آندره محدثا نفسه : « فيم يهمني هذا على كل حال ! » •
واخذ الوزير يجمع الاوراق الاخرى ويرتبها بعضا فوق بعض ، ثم
رفع رأسه • ان وجهه يدل على ذكاء ونبية بأنه رجل صلب الارادة ،
ولكن هذا الوجه الذي يعبر عن الذكاء والصلابة سرعان ما تبدل
بحكم عادة لا شك في أنها واعية ، فاذا بابتسامة بلهاء منافقة ترسم
عليه جامدة ثابتة ، هي ابتسامة مسئول يستقبل عددا كبيرا من
المتوسّلين والمتشفعين واحدا بعد آخر • وقال يسأل الأمير آندره :

— موفد من الفلدمارشال كوتوزوف ؟ أمل أن تكون الانباء طيبة •
حدث اشتباك مع مورتية ، أليس كذلك ؟ وانتصرتم ، هه ؟ آن
الوان !

وتناول الرسالة التي تحمل اسمه ، وأخذ يقرأها حزين الهيئة •
ثم هتف يقول بالالمانية :

— آه ! رباه ! شميدت ! يالها من فاجعة ! يالها من مصيبة !

تصفح الرسالة بسرعة ، ثم وضعها على المكتب ، ونظر الى الأمير
آندره شارد اللب حالما •

— آه ! يا لها من فاجعة ! تقول ان المعركة حاسمة ؟ ومع ذلك لم

يؤسر مورتنيه •

وفكر لحظة ثم أضاف يقول :

— يسعدني ما تحمله اليّ من أنباء طيبة ، وان يكن موت شميدت

ثمنا غاليا لهذا النصر • لا شك أن صاحب الجلالة يريد ان يراك ،

ولكن لا اليوم • شكرا لك • امض الآن لتصيب شيئا من الراحة ،

وتعال غدا بعد العرض العسكري • سأنبئك على كل حال •

وكانت الابتسامة البلهاء قد بارحتوجه وزير الحرب أثناء الحديث،

فها هي ذي تعاوده الآن ، وها هو يردد حانيا رأسه :

— الى اللقاء • ألف شكر • لا شك أن الامبراطور سيجب أن

يراك •

حين غادر الامير آندره القصر أحسّ أنه ترك عند هذين الرجلين

الذين لا يباليان شيئا ولا يكثران بأمر ، أعني وزير الحرب والمرافق

المتأدب ، ترك كل ما كان يجيش في نفسه من اهتمام بالنصر ، وكل ما

كان يزخر به قلبه من سعادة بالنصر • وسرعان ما تبدلت نظرتة كلها

الى الامور ، فاذا المعركة لا تزيد الآن على أن تكون في ذهنه ذكرى

قديمة ، ذكرى بعيدة العهد جدا •

الفصل العاشر

نزل الامير آندره في برون عند دبلوماسي من أصدقائه اسمه
• بيلين •

— آ ••• أميرى العزيز ••• ما من أحد كان يمكن ان يسرني
لقاءه كما يسرني لقاءك •

بهذه الكلمات استقبله ، ثم أضاف يقول مخاطبا خادمه الذي أدخل
عليه الامير آندره بولكونسكي :

— فرانتس ، احمل امتعة الامير الى غرفتي •

وعاد يكلم الامير آندره فقال يسأله :

— جئت رسولا يحمل نبأ النصر ؟ عظيم ! أما أنا فمريض كما ترى •

وبعد ان عني الامير آندره بزينته وارتنى ثيابه ، دخل الغرفة الفاخرة
التي كان يتخذها الدبلوماسي مكتبا له ، وجلس الى مائدة العشاء
التي كانت تنتظره • وجلس بيلين بقرب المدفأة مسترخيا مستريحا •

كان الامير آندره أثناء رحلته وأثناء الحملة محروما من جميع
ملذات الرخاء والترف ومن جميع مباهج الحياة الناعمة الرقيقة ،

فشعر بارتياح لذيذ في هذا الجو من الرفاه الذي ألفه منذ طفولته .
 هذا عدا انه بعد الاستقبال الذي لقيه عند النمساويين كان يطيّب له
 أن يكلم احدا من اهل وطنه (وان لم يكلمه بالروسية فقد جرى
 الحديث بينهما بالفرنسية) أحدا يشاركه ما افترض أنه يشاركه اياه من
 كره كان الروس عامة يحملونه للنمساويين قويا قوة خاصة في ذلك
 الحين .

كان ييليين في نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، وكان عازبا
 وكان ينتمي الى نفس المجتمع الذي ينتمي اليه الامير آندره . وكان
 الاثنان يعرف كل منهما الآخر منذ كانا في بطرسبرج ، ولكن أواصر
 الصداقة بينهما قد اشتدت أثناء اقامة الامير آندره الاخيرة في فيينا
 مع كوتوزوف . واذا كان الامير آندره شابا ييثر بمستقبل لامع
 في الحياة العسكرية فقد كان ييليين ييثر بمستقبل لامع في الحياة
 الدبلوماسية كالامير آندره أو يزيد . انه ما يزال شابا ، ولكنه دبلوماسي
 محض منذ الآن ، لانه دخل السلك الدبلوماسي وهو في السادسة
 عشرة من العمر ، فكان بباريس ، ثم كان بكوبنهاجن ، وهو يحتل
 الآن في فيينا منصبا هاما . وكان سفيرنا يقدر مزاياه ، وكذلك
 مستشار الامبراطورية . لم يكن من أولئك الدبلوماسيين الكثر الذين
 يظنون أنهم يكفيهم ، من أجل ان يلمعوا في مهنتهم ، ان يتمتعوا بمزايا
 سلبية ، اي ان يتمتعوا عن امور معينة ، وان يحسنوا الكلام باللغة
 الفرنسية ، وانما كان واحدا من أولئك الذين يجيدون العمل ويحبونه ،

وربما قضى ليالي كاملة جالسا الى مكتبه . وكان ينجز المهمة التي توكل اليه على أحسن وجه ، أية كانت تلك المهمة ، لا يعنيه ان يتساءل « لماذا » و « كيف » ، ولا يهمه أن يعرف ما الدبلوماسية ، ولكنه اذا كتب تعميما أو مذكرة أو تقريرا ، جاء ما يكتبه غاية في حسن الصنعة وسلامة الذوق ورشاقة الاسلوب ، ووجد هو في عكوفه على الكتابة لذة عظيمة . وكان ، عدا موهبته هذه في الكتابة ، يحظى بالتقدير والاعتبار لحسن أدبه ولباقة تصرفه في علاقاته بالدوائر العليا .

وكان يلبين يحب الحديث كما يحب العمل ، بشرط أن يكون في الحديث رشاقة وفكاهة . فكان في المجتمع يترقب الفرصة لبدء ملاحظة تلفت الانتباه وتخطف الابصار ، ولا يتدخل في الحديث الا سنحت فرصة كهذه الفرصة . وكانت كلماته منمقة فيها أصالة وطرافة ، وكان يصوغ جملة الموجزة صياغة محكمة دقيقة جميلة ، ويحرص على أن تتضمن أقواله أمورا تهم الناس عامة . فكانت الجمل التي يقولها كأنها تهيأ وتنضج في مخبره الداخلي عن عمد لتكون من الجمل التي يمكن حملها من مكان الى مكان ، فيستطيع هؤلاء المساكين من ابناء المجتمع أن يحفظوها بسهولة ، فيتناقلها الناس من صالون الى صالون بدون عناء . « فكانت كلمات يلبين تتجول في صالونات فيينا تجولا » على حد تعبير بعضهم ، وكانت في كثير من الاحيان تؤثر في أمور تعد هامة خطيرة .

ان وجهه النحيل الهزيل الشاحب تخذده غضون كبيرة تبدو

منظمة أحسن تنظيف كأطراف الاصابع بعد الحمام ، وكانت حركة هذه الغضون هي الحركة الرئيسية في هيئته ، فتارة يغطي جبينه بتجاعيد كبيرة حين يرتفع حاجباه ، وتارة ينخفض الحاجبان فتظهر ثنيات ضخمة على خديه • وكانت عيناه الصغيرتان الغائرتان غورا عميقا ترسلان نظرات مباشرة بغير التواء ، مرحة على الدوام •

قال يخاطب الامير آندره :

— هيه ! هات حدثنا الآن عن أعمالك الباهرة !

فحدثه الامير آندره ، بتواضع كبير ، ومن غير ان يشير الى نفسه البتة ، عن المعركة التي نشبت وعن الاستقبال الذي استقبله به وزير الحرب • وختم حديثه بقوله :

— استقبلوني أنا والنبأ الذي حملته اليهم كما يستقبل كلب في لعبة الاوتاد •

فابتسم يلبين ، وبسط غضون جلده • ثم قال وهو يحدق الى ظفره من بعيد ، ويجمّع الجلد تحت عينه اليسرى :

— مع ذلك يا عزيزي ، رغم تقديري العظيم « للجيش الارثوذكسي الروسي » ، أعترف بأن انتصاركم ليس من الانتصارات الباهرة •

وتابع كلامه بالفرنسية على هذا النحو ، لا يقول بالروسية الا الكلمات التي يريد أن يهب لها نبرة استخفاف خاصة • قال متابعا حديثه:

— طبعا • انكم بجموعكم قد وقعتم على مورتية المسكين الذي لا يملك الا فرقة واحدة ، ثم استطاع مورتية هذا أن يهرب منسلا من بين أيديكم • فأين النصر ؟

فأجابه الامير آندره بقوله :

— مع ذلك نستطيع اذا أردنا أن نتكلم جادين أن نقول بغير مبالاة ولا افتخار ان هذا كان أحسن قليلا مما حدث في أولم •

— لماذا لم تأسروا مارشالا واحدا ، مارشالا واحدا لا أكثر ؟

— لانه لا شيء يحدث دائما على نحو ما نقدر وتوقع وتنبأ ، ولا شيء يحدث دائما على نحو مطرد منتظم كما يحدث في استعراض • لقد كنا نقدر ، كما قلت لك ، أن نصل الى مؤخرة العدو في الساعة السابعة من الصباح ، فلم نستطع أن نبلغها حتى في الساعة الخامسة من المساء • قال ييلين مبتسما :

— ولماذا لم تبلغوها في الساعة السابعة من الصباح ؟ كان يجب عليكم أن تبلغوها في الساعة السابعة من الصباح ، كان ينبغي أن تكونوا هناك في ذلك الوقت •

• فأجابه الامير آندره متكلما بتلك اللهجة نفسها :

— ولماذا لم تستطيعوا بالطريق الدبلوماسي أن تقنعوا بونا بارت بأنه كان من الافضل له أن يترك جنوه ؟

فقاطعه بيليين قائلا :

— أعلم أنك تريد ان تقول انه الامر سهل على من كان جالسا يستدفيء بقرب موقد أن يأمر مارشالات • هذا ما تريد أن تقوله ، أليس كذلك ؟ وانك لعلی حق • ولكن لماذا لم تأسروه مع ذلك ؟ لا يدهشك أن لا يكون وزير الحرب ولا الامبراطور المعظم ، الملك فرانسوا ، سعيدين بنصركم سعادة كبرى • أنا أيضا ، السكرتير البسيط بسفارة روسيا ، لا أشعر بأي فرح خاص ...

قال بيليين ذلك وهو ييسط غضون جبينه محذقا الى عيني الامير آندره •

فقال الامير آندره بولكونسكي :

— يا عزيزي ، اسمح لي أنا أيضا أن ألقى عليك « لماذا » • ان الفذلكات الدبلوماسية تفوق قدرتي على الفهم في الواقع • ولكن هناك شيء لا أظفر بادراكه : ماك يفقد جيشا كاملا ، والارشيدوق فرديناند^(١) والارشيدوق شارل^(٢) لا يحركان ساكنا ، ويرتكبان الخطأ تلو الخطأ ،

(١) الارشيدوق فرديناند دو هابسبورج (١٧٨١ - ١٨٥٠) ، هو اخو الامبراطور فرانسوا ، استلم قيادة الجيش في بافاريا سنة ١٨٠٥ يساعدته الجنرال شارل ماك .

(٢) شارل دو هابسبورج (١٧٧١ - ١٨٤٧) ، هو الاخ الاصغر للامبراطور فرانسوا الثاني ؛ قائد جيش الراين منذ ١٧٩٦ ؛ وعيّن سنة ١٨٠١ رئيسا « للمجلس الحربي الاعلى » ؛ وأصبح قائد جيش سنة ١٨٠٥ ؛ جنرال بارع ، انتصر على نابوليون سنة ١٨٠٩ في آسبرن ، ولكنه انهزم في فاجرام •

ثم يحقق كوتوزوف وحده انتصارا حقا ويحطم فتنة الفرنسيين ، فلا يحرص وزير الحرب حتى على أن يعرف التفاصيل !

— هذا هو الامير بعينه يا صديقي ! اسمع يا عزيزي :مرحى للقيصر، مرحى لروسيا ، مرحى للايمان ! هذا كله جميل . ولكن ما قيمة انتصاراتكم في نظرنا نحن ، أقصد في نظر البلاط النمسا ؟ جيئونا بالنبا السعيد الذي يقول ان الارشيدوق شارل أو فرديناند ، ولا فرق بين أرشيدوق وأرشيدوق كما تعلم ، قد انتصر ولو على سرية اطفائيين من جيش بوناپارت ، فتروا منا غير ما ترون الآن ، ويكون النبا نبأ مختلفا نعلنه باطلاق نيران المدافع . أما نجاحكم أتم فكأنكم لم تحققوه الا لاغاظتنا عمدا . الارشيدوق شارل لا يفعل شيئا، والارشيدوق فرديناند يجلبه الخزي والعار . وأتم تتركون فيينا ، وتكفون عن الدفاع عنها ، فكأنكم تقولون لنا :ان الله معنا يرعانا ويحمينا ،ولا شأن لنا بعاصمتكم . ولقد كان لنا جنرال كنا نجبه جميعا هو شميدت ، فعرضتموه لرصاص العدو ، ثم طفقتم تهنئون أنفسكم بنصر ! .. اعترف بأن المرء لا يمكن أن يتصور نبأ أدعى الى الغيظ والحنق من هذا النبا الذي تحمله . لكأنكم تعمدتم هذا تعمدا ، لكأنكم تمعدتم هذ تعمدا . وفوق ذلك ، هبكم انتصرتم انتصارا باهرا حقا ، بل هب الارشيدوق شارل انتصر أيضا ، فهل يغير ذلك كله المجري العام الذي تجريه الاحداث ؟ لقد فات الاوان بعد أن أصبح الجيش الفرنسي يحتل فيينا .

— كيف ؟ احتلت فيينا ؟

— لم تحتل فحسب ، بل ان بونا برت هو الآن في شونبرون ،
والكونت ، عزيزنا الكونت فربنا^(١) ، سيأتمر بأمره •

أحس بولكونسكي أن التعب ، ومشاعر الرحلة ، والاستقبال الذي
لقيه ، والعشاء خاصة ، أحس أن ذلك كله يحول بينه وبين أن يفهم كل
الدلالة الكبيرة التي يحملها هذا الكلام الذي يسمعه •

وتابع ييليين حديثه فقال :

— كان الكونت ليشتنفلس هنا هذا الصباح ، فأراني رسالة تصف
موكب القطعات الفرنسية في فيينا وصفا مفصلا ... الامير مورا وكل
شيء ... فهأنت ذا ترى أن انتصارنا ليس نبأ سعيدا جدا ، وأنتك لا
يمكن أن تستقبل استقبال منقذ ...

فقال الامير آندره وقد بدأ يدرك أن النبأ الذي حمله عن معركة
كرمس ليس له كبير خطر حقا يالقياس الى أحداث جلييلة كالاستيلاء
على عاصمة النمسا ، قال :

— حقا أصبحت الامور في نظري سواء ! كيف أمكن الاستيلاء
على فيينا ؟ والجسر ؟ ورأس الجسر الذي طالما تكلموا عنه ، والامير
آورسبرج^(٢) ؟ كان يقال عندنا ان الامير آورسبرج يدافع عن فيينا •

(١) رودولف فربنا (١٧٦١ - ١٨٢٣) ، وزير نمسوي •

(٢) جوزيف آورسبرج فون ماترن (١٧٤٠ - ١٨٢٢) ، فيلدمارشال
نمسوي •

— الامير أورسبرج في هذه الجهة من النهر ، في جهتها نحن ،
 يحميننا • وأظن أنه لا يحميننا حماية حسنة ، ولكنه يحميننا على كل حال .
 أما فيينا ففي الجهة الاخرى ، والجسر لم يتم الاستيلاء عليه بعد ، وآمل
 أن لا يحدث هذا ، ان الجسر ملغوم ، وقد صدر الامر بنسفه • ولو قد
 استولي عليه ، لكننا منذ مدة طويلة في جبال بوهيميا ، ولقضيت أنت
 وجيشك خمس عشرة دقيقة سيئات بين نارين •
 قال الامير آندره :

— ولكن هذا لا يعني مع ذلك أن الحملة انتهت •

— أنا أعتقد أنها انتهت • وهذا ما يعتقد به الكبار هنا ، لكنهم
 لا يجرؤون أن يقولوه • سيحدث ما كنت أقوله في بداية الحملة : ان
 مناوشة دورنشتاين لن تبدل من الامر شيئا ، وعلى وجه العموم ، ليس
 البارود هو الذي سيكون له القول الفصل ، وانما القول الفصل
 لأولئك الذين اخترعوا البارود •

كذلك قال ييليين ، مرددا احدى جملة ، بينما كان ييسط غضون
 جبينه ليتوقف عن الكلام لحظة • ثم أردف يقول :

— المهم أن نعرف النتيجة التي سيسفر عنها لقاء برلين بين الامبراطور
 الاسكندر وملك بروسيا^(١) • فاذا دخلت بروسيا في الحلف ضغط على

(١) اثناء مرور الاسكندر الاول ببرلين اجتمع في ٢٥ تشرين الاول سنة
 ١٨٠٥ مع الملك فريدريك — غليوم الثالث • وأمام ضريح فريدريك
 الثاني في بوتسدام ، وبحضور الملكة لويز ، تعاهدا بالايمان على
 صداقة أبدية لا تفصم عراها الايام • ومع ذلك لم تدخل بروسيا
 الحرب حينذاك •

النمسا ، واستؤنفت الحرب • أما اذا لم تدخل بروسيا الحلف ، فلن يبقى الا الاتفاق على اختيار المكان الذي تكتب فيه البنود التمهيدية لمعاهدة جديدة من طراز معاهدة « كامبو - فورميو »^(١) •

هتف الامير آندره فجأة يقول وهو يقلص يده الصغيرة ويضرب المائدة :

— ولكن ما هذه العبقرية الخارقة ؟ وما هذا الحظ الذي أوتيته هذا الرجل ؟

فقال ييليين سائلا وهو يغضن جبينه مبشرا بأنه سيقول جملة من جملة :

— بوونابرت ؟

وعاد يكرر نطق الاسم مشددا على الواو الزائدة :

— بوونابرت ؟

ثم تابع كلامه فقال :

— انني أعتقد حقا أنه الآن من شونبرون يحكم النمسا • ويجب أن نغنيه من هذه الواو الزائدة • لقد عزمت أمري على أن أقوم بتجديد فأسميه بونابرت فحسب •

قال الامير آندره :

(١) في هذه المدينة الصغيرة من مدن ايطاليا عقدت معاهدة الصلح بين فرنسا والنمسا سنة ١٧٩٧ ، ومنحت «الجمهورية» ميزات كبيرة.

— دعنا من المزاح قليلا • هل تعتقد حقا بأن الحملة انتهت ؟

— اليك ما أعتقد به • ان النمسا هي الضحية ، وهي لم تألف ذلك ولم تعتده ، فلسوف تريد أن تتأثر لنفسها • واذا كانت هي الضحية فلأن أقاليمها قد خربت وأتلفت (يقال ان الجيش الارثوذكسي رهيب في السلب والنهب) ، ولان جيشها هُزم ، ولان عاصمتها احتُلت ، وذلك كله من أجل جمال عيني صاحب جلالة سردينيا^(١) • لهذا يا عزيزي ، أحس — واني لافضي لك بهذا سرا بيننا — بأنهم يخدعوننا، وبأن هناك مباحثات مع فرنسا ، وأن هناك مشاريع صلح ، صلح في السر يرمونه منفردين •

قال الامير آندره :

— غير ممكن • ان فعلا كهذا لهو أحقر وأدنا من أن يقع •

فقال بيليين وهو ييسط غضون جبينه من جديد ليدل على أن المحادثة انتهت :

— من يعيش ير !

وحين انسحب الامير آندره الى الغرفة التي أعدت له ، ولبس ملابس داخلية نظيفة ، واستلقى على سرير من ريش ووسائد معطرة

(١) كان ملك سردينيا فكتور إيمانويل الخامس (١٨٠٢ - ١٨١٧) ، الذي أخذت منه مقاطعة بيمون ومقاطعة سافوا يؤمّل في نصر على يد الائتلاف يردّ إليه مقاطعته •

مدفأة ، أحس أن المعركة التي حمل نبأها هي الآن بعيدة عنه ، بعيدة جدا • وكان ما يملأ ذهنه هو التحالف مع بروسيا ، وخيانة النمسا ، والاتصار الجديد الذي حققه بوناپرت ، والاستعراض في الغد ، واجتماعه مع الامبراطور في قصره بعد الاستعراض •

وأغمض عينيه ، فاذا بهدير المدافع ، وطقطقة الرصاص وقرقرة عجلات عربته ، اذا بذلك كله يترجع في أذنيه مدويا ، واذا هو يرى الرماة بالبنادق يهبطون من الجبال منتشرين ، واذا الفرنسيين يطلقون نيرانهم ، فيشعر بقلبه يخفق خفقانا قويا ، ويتقدم مقتربا من شميدت ، فيئز الرصاص سريعا من حوله ، فيحس بفرحة الحياة تشتد اشتدادا عظيما لم يشعر بمثله منذ طفولته •

ويستيقظ من غفوته

فيقول وهو يتسم لنفسه ابتسامة سعيدة كابتسامة طفل : « نعم حدث هذا كله » ، ثم ينام نوما عميقا كما ينام شاب في ريعان الصبا •

الفصل الحادي عشر

واستيقظ في الغد ضحى • فلما استعرض مشاعره تذكّر قبل كل شيء أنه سيقدّم اليوم الى الامبراطور فرانسوا ، وفكّر في وزير الحرب ، وفي المرافق النمسوي المتأدّب ، وفي بيليين والحديث الذي جرى بينهما البارحة • وارتدى للقصر لباس الاحتفالات الذي لم يلبسه منذ مدة طويلة ، ودخل الى مكتب بيليين غضّ الاهاب زاخرا بالنشاط والصحة رغم أن ذراعه معصوبة • فوجد في المكتب أربعة من اعضاء السلك الدبلوماسي كان يعرف منهم الامير هيبوليت كوراجين الذي يحتل منصب سكرتير سفارة ، وعرفه بيليين بالثلاثة الآخرين •

ان الذين يترددون على بيليين ، وهم شباب اثرياء مرحون من المجتمع الراقي ، كانوا يؤلفون ، في فيينا وهنا على السواء ، حلقة مستقلة كان بيليين ، وهو رئيسها ، يسميها الصحب • وكان واضحا ان هذه الحلقة التي لا تضم الا دبلوماسيين تقريبا ، لها اهتماماتها الخاصة التي لا شأن لها بالحرب والسياسة ، وانما هي تتناول المجتمع الراقي والعلاقات ببعض النساء ، وتتناول الجانب البورقراطي من الدبلوماسية • وقد استقبل هؤلاء السادة الامير آندره في حلقتهم

راضين مسرورين كأنه واحد منهم (وذلك شرف لا يخلعوناه الا على قلة من الافراد) ؛ ومن باب الملاطفة والمجاملة ، وعلى سبيل الدخول في الحديث ، ألقوا عليه أسئلة عن الجيش والمعركة ، ثم عاد الكلام يتبعثر مزاحات مشتتة فكهة ونمائم مفككة مرحة •

قال أحدهم راويا خيبة أمل واحد من رفاقه :

— أجمل ما في الامر ان المستشار أكد له أن تعيينه للندن هو ترقية له ، وان عليه ان يعدّ هذا التعيين ترقية • فليتكم رأيتم وجهه حين كان يسمع هذا الكلام الخداع !

فعقب ثان بقوله :

— لا بل الافدح من هذا سلوك كوراجين في مثل هذه الحالة • عليكم بكوراجين يا سادة : ان الشخص المذكور تصيبه المصيبة ، ومن المصيبة انما يستفيد هذا الدون جوان ، هذا الرجل الرهيب !

كان الامير هيوليت كوراجين مسترخيا على أريكة من طراز فولتير ، ماذا ساقه من فوق المتكأ ، فأخذ يضحك ، وقال :

— حدثني عن هذا !

فتعالت، أصوات تهتف :

— آ... آ... آ... دون جوان ! أوه... أفعوان !

قال ييليين مخاطبا الامير آندره :

— انك لا تعلم يا بولكونسكي أن جميع الفظائع التي يرتكبها الجيش الفرنسي (كدت أقول الجيش الروسي) لا تعد شيئاً مذكوراً بالقياس الى التخريب الذي يحدثه هذا الرجل في النساء •

قال الامير هيوليت :

— المرأة رفيقة الرجل •

وأخذ يتأمل ساقيه المرفوعتين ، من وراء نظارته •

وانفجر « الصبح » يضحكون محدقين الى عيني هيوليت •
ولاحظ الامير آندره أن هيوليت هذا الذي كان هو يكاد يغار منه بسبب امرأته (يجب الاعتراف بهذا) انما يقوم بدور المهرّج في هذه الجماعة •

همس يليبين يقول للامير آندره في أذنه :

— يجب حقاً أن أسلّيك بكوراجين • انه فتّان حين يتكلم في السياسة • ما أبدع هيئة العظمة التي يتخذها حينذاك •

وجلس يليبين بقرب هيوليت ، وغضّض جبينه ، وبدأ يحادثه في السياسة ، واحاط بهما الامير آندره والآخرون •

قال هيوليت وهو ينظر الى الجميع نظرة مفهومة :

— ان مجلس وزراء برلين لا يمكن أن يفصح عن عاطفة تحالف...

بدون افصاح ... فهمتم ... فهمتم ... ثم ان صاحب الجلالة
الامبراطور لا ينقض مبدأ تحالفنا ...

ثم أضاف يقول وهو يمسك ذراع الامير آندره :

— انتظر ... ما أنهيت كلامي • أنا افترض أن التدخل سيكون
أقوى من عدم التدخل ، و ...

قال ذلك وصمت لحظة ، ثم أردف :

— ولن يستطيعوا بعد الآن أن يتصلوا من المسؤولية بادعاء
أنهم لم يتلقوا رسالتنا المستعجلة التي بعثناها في اليوم الثامن
والعشرين ... على هذا النحو انما ستنتهي الامور كلها •

وأرخی ذراع بولكونسكي ليدل على انه في هذه المرة قد
أحسن الختام •

قال ييليين الذي تحركت كتلة شعره كلها على رأسه من السرور
والجور :

— ديموستين ، قد عرفتك من الحصى التي خبأتها في فمك
الذهبي !

فضحك الجميع ، وضحك هيبوليت ضحكا أشد من ضحكهم كلهم
وكان واضحا انه يتألم ، وأنه يخفق ، لكنه لا يستطيع أن يكظم هذا

الضحك الشديد الذي ييسط أسارير وجهه الساكن الجامد في العادة •

قال ييليين :

— يا سادة ، ان بولكونسكي ضيفي ، فأريد أذيقه جميع مباهج الحياة في هذه المدينة • ولو كنا نقيم في فيينا لكان الامر سهلا ، أما في هذا الركن المورافي الصغير التافه ، فالامر أصعب ، لذلك أطلب معاوتكم ومساهمتكم جميعا • ينبغي أن نعرفه بمفاخر مدينة برون • فتولوا أتم أمر المسرح ، وأتولى أنا أمر المجتمع الراقي ، أما هيبوليت فيتولى طبعا أمر النساء •

— يجب أن نريه آميليا ! انها أخاذة !

كذلك قال أحد « الصحب » وهو يلثم أطراف أصابعه تعبيراً عن اعجابه بفتنة آميليا • فقال ييليين :

— يجب علينا اجمالاً أن نردّ هذا الضابط الدموي الى عواطف أكثر انسانية •

قال بولكونسكي :

— أشك يا سادتي في أن أستطيع الانتفاع بكرم ضيافتكم •

ثم أضاف وهو ينظر في ساعته :

— ثم أنني قد آن لي أن أنصرف •

— الى أين تذهب ؟

— الى الامبراطور •

— أوه ! أوه ! أوه !

فتعال أصوات تقول :

— طيب • الى اللقاء يا بولكونسكي ، الى اللقاء يا أمير ! تعال

الى الغداء مبكرا • سنتولى أمرك •

وقال يليبين للامير آندره وهو يشيِّعه الى الدهليز :

— حاول وأنت تكلم الامبراطور أن تشيد أكبر اشادة ممكنة

بالدائرة العسكرية وبمصلحة المحطات •

فأجابه بولكونسكي وهو يتبسم :

— أتمنى أن أفعل ذلك ، لكنني لا أستطيعه فيما أعلم •

— طيب • أسهب في الكلام ما أمكنك الاسهاب على كل حال •

انه يهوى المقابلات هوى قويا ، لكنه لا يجب هو أن يتكلم ولا يقدر

أن يتكلم • سوف ترى •

الفصل الثاني عشر

اكتفى الامبراطور فرانسوا بعد الاستعراض بأن ينظر الى الامير آندره بانتباه وان يحييه بحركة من رأسه الطويل ، وكان الامير آندره في مكانه الذي عيّن له بين الضباط النمساويين ؛ ولكن المرافق الذي استقبله بالامس لم يلبث أن أبلغه بكثير من التأدب أن الامبراطور يرغب في أن يلقاه . وقد استقبله الامبراطور فرانسوا واقفا في وسط الغرفة ؛ ومما خطف بصر الامير آندره وأثار دهشته أنه رأى الامبراطور مرتبكا قبل بدء الحديث ، فهو لا يعرف ماذا يقول ، حتى لقد احمر وجهه . وها هو ذا يسأله متعجلا :

— قل لي : متى بدأت المعركة ؟

فأجابه الامير آندره . وأعقبت هذا السؤال أسئلة أخرى مبتذلة مثله : « هل صحة كوتوزوف حسنة ؟ متى غادر كرمس ؟ » ، الخ . وكان الامبراطور يتكلم كما لو كانت غايته الوحيدة هي أن يلقي عددا من الاسئلة . ولكن كان واضحا كل الوضوح ان الاجوبة عن هذه الاسئلة لا تهمه كثيرا ولا قليلا .

قال يسأل :

— متى بدأت المعركة

— لا أستطيع أن أحدد لجلالتكم ان الساعة التي نشب فيها القتال في جبهة القطعات ، ولكن الهجوم في دورشتاين التي كنت فيها قد بدأ في الساعة السادسة من الصباح •

بذلك أجاب الامير آندره بولكونسكي وقد انتعشت حماسه ، واعتقد أنه سيفلح في هذه المناسبة بأن يصف وصفا كاملا كل ما كان يعرفه وما كان رآه ، وهو مائل في ذهنه الآن • ولكن الامبراطور ابتسم وقاطعه سائلا :

— كم ألف ؟

— من أين والى أين يا صاحب الجلالة ؟

— من دورنشتاين الى كرمس •

— ثلاثة آلاف ونصف يا صاحب الجلالة •

— هل جلا الفرنسيون عن الضفة اليسرى •

— تقول تقارير كشافينا ان أواخرهم قطعوا النهر في الليل على أطواف •

— هل يتوافر في كرمس علف كاف ؟

— لم نزود بالعلف بمقدار ...

ولم يستطع الامير آندره أن يتمَّ جملته لأن الامبراطور قاطعه
سائلا :

— في أية ساعة قتل الجنرال شميدت ؟

فأجابه :

— الساعة السابعة فيما أظن .

— الساعة السابعة ؟ شيء محزن جدا ! شيء محزن جدا !

وشكره الامبراطور وانحنى له . فخرج الامير آندره ، وسرعان
ما أحدق به رجال البلاط ، فكانت الاعين الملائمة تنظر اليه من كل
جهة ، وكانت كلمات التحجب والمجاملة تنهال عليه انهيارا . وعاتبه
المرافق الذي استقبله أمس على أنه لم ينزل في القصر ، وعرض عليه
ضيافته . وتقدم منه وزير الحرب يهنئه بوسام القديسة تيريزا من
الدرجة الثالثة ، الذي أنعم به عليه الامبراطور . ودعاه حاجب
الامبراطور باسم صاحبة الجلالة الامبراطورة . وكانت الارشيدوقة
تحب أيضا أن تراه . فكان لا يعرف من يجيب ، ولبت بضغ ثوان
يستجمع شتات فكره . وأمسكه سفير روسيا من ذراعه ، ومضى به
نحو احدى النوافذ وأخذ يكلمه .

على نقيض ما تنبأ به ييليين ، استقبل النبأ الذي حملة الامير
آندره بالفرح . وأمر باقامة صلاة الشكر . ومنح كوتوزوف صليب
ماري تيريز الاكبر . وأعطى الجيش كله أوسمة ووجّهت دعوات الى

بولكونسكي من كل جهة • ففضى النهار كله في زيارات لكبار الموظفين النموسيين • حتى اذا فرغ من هذه الزيارات في نحو الساعة الخامسة من المساء ، رجع الى منزل ييليين وهو ينشئ في ذهنه الرسالة التي سيكتبها لأبيه عن المعركة وعن رحلته الى برون • فلما وصل الى منزل ييليين كانت تقف أمام درج الباب عربة قد حمل نصفها بالأمّعة ورأى فرائتس ، خادم ييليين يظهر في الباب وهو يجر حقيبة بكثير من الجهد • (كان الامير آندره قد عرّج على احدى المكتبات قبل عودته الى منزل ييليين ليتزود بكتب يقرأها في الريف فتأخر في المكتبة بعض التأخر) •

قال بولكونسكي يسأل الخادم :

— ماذا هنالك ؟

فأجابه فرائتس بالالمانية وهو يرفع الحقيبة الى العربة بكثير من العناء :

— آه يا صاحب السعادة ! نتقل مرة أخرى • ان الوغد يطاردنا من جديد^(١) •

فسأله الامير آندره :

— ماذا هنالك ؟ ماذا حدث ؟

(١) بالالمانية في الاصل •

وأقبل عليه يلبين • فكان وجهه الهاديء دائما يعبر الآن عن
اهتياج • وقال :

— لا ، لا ، اعترف بأنها حكاية ظريفة ، حكاية جسر تالور (أحد
جسور فيينا) • لقد عبروه بلا مقاومة ، بلا قتال^(١) •

فلم يفهم الامير آندره من هذا الكلام شيئا • فقال يلبين يسأله :

— فأين كنت اذن لتجهل ما أصبح يعرفه جميع الحوذيين بالمدينة ؟

— عند الارشيدوقة • لم أسمع هنالك شيئا عن هذا الامر •

— ولم تر أيضا في كل مكان أناسا يحزمون أمتعتهم ويتأهبون

للرحيل ؟

فقال الامير آندره :

— لا ...

وأضاف يسأل نافذ الصبر :

— ولكن ما الذي حدث ؟

— ما الذي حدث ؟ حدث أن الفرنسيين عبروا الجسر الذي كان

يحميه أورسبرج ، ولم ينسف الجسر ، فأصبح مورا يجري الآن على

طريق برون ، وسيكون هنا اليوم أو غدا •

(١) وقع هذا في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٥ •

— هنا ؟ ولكن لماذا لم ينسفوا الجسر وقد كان ملفوما ؟

— هذا ما أسألك أنت عنه • هذا أمر لا يعرفه أحد ، ولا يعرفه

بونابرت نفسه •

رفع بولكونسكي كتفيه • وقال :

— ولكن اذا عبروا الجسر فقد ضاع الجيش لانه سيعزل •

قال بيليين :

— هذه هي المسألة • اسمع • دخل الفرنسيون فيينا كما قلت لك

أمس • حسن • وفي اليوم التالي، أي أمس ، ركب السادة المارشالات مورا و لان و بليار^(١) أفراسهم واتجهوا نحو الجسر (لاحظ أنهم جميعا من جاسكونيا) قال أحدهم : « أتمتعون يا سادة أن جسر تابور ملفوم وملفوم لغما معاكسا ، وأنه يتقدمه « رأس جسر » رهيب وخمسة عشر ألف رجل أمروا بنسفه وبأن لا يدعوا لنا أن نمر • ولكن سوف يسر امبراطورنا نابوليون أن نستولي عليه » •

فقال الآخرون : « هيا بنا اليه » ، ومضوا الى الجسر فاستولوا

(١) يواكيم مورا (١٧٦٧ - ١٨١٥) ، جنرال مندفع من سلاح الفرسان ، أصبح بعد ملك نابولي ؛ جان لان (١٧٦٩ - ١٨٠٩) : مارشال فرنسا ، دوق مونتبلو ؛ أوجوست بليار (١٧٦٩ - ١٨٣٢) : جنرال سبق أن برز في معركة آر كول سنة ١٧٩٦ ، رئيس أركان حرب جيش مورا من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٨٠٨ •

عليه وعبروه ، وهم الآن ، في هذه الجهة من نهر الدانوب ، يتقدمون
منا ومنكم ومن مواصلاتكم بجيش كامل •

قال الامير آندره بحزن ورسانة :

— كفى أمازيح !

لقد أحزنه هذا النبأ وسره في آن واحد • فمنذ أن عرف أن الجيش
الروسي أصبح في حالة مؤسفة الى هذا الحد ، خطر بباله أنه هو بعينه
الرجل الذي هيأته الاقدار لاجراج الجيش الروسي من المأزق الصعب •
هذه « تولون » التي ستبرزه من بين صفوف الضباط النكرات وتضعه
على طريق التفوق والمجد ! كان وهو يصغي الى يليلين يتصور نفسه
منذ الآن ، وقد رجع الى الجيش ، يعرض على القيادة العامة خطته
التي ستنقذ وحدها الجيش والتي سيكلف بوضعها موضع التنفيذ •
قال مكررا :

— كفى أمازيح !

فعاد يليلين يقول :

— لست أمزح • لا شيء أصدق من كلامي ولا شيء أدعى منه
الى الحزن • وصل هؤلاء السادة وحدهم الى الجسر، ولوحوا ببناديل
بيضاء ، وأكدوا أن هدنة قد أبرمت ، وأنهم — هم المارشالات — انما
جاءوا ليفاوضوا الامير أورسبرج • وقد سمح لهم الضابط المناوب
أن يدخلوا على « رأس الجسر » ، اذ قصوا عليه ألف أكذوبة من

الأكاذيب الجاسكونية : قالوا له ان الحرب انتهت ، وان الامبراطور فرانسوا حدد موعدا لمقابلة نابوليون ، وانهم يريدون أن يلقوا الامير أورسبرج ، السخ • فبعث الضابط رسولا يستدعي أورسبرج • وأخذ المارشالات يقبلون الضباط ، وطفقوا يمزحون ، وجلسوا على المدفع • وفي أثناء ذلك دخلت كتيبة فرنسية الجسر خفية ، وألقت في الماء أكياس مواد قابلة للاشتعال ، وتقدمت من « رأس الجسر » • وأخيرا جاء الليوتنان جنرال بنفسه ، عزيزنا الامير أورسبرج فون ماورتن • فهتف المارشالات يرحبون به قائلين : « أيها العدو العزيز ، يا زهرة الجيش النمساوي يا بطل حروب الترك ! لقد انتهى القتال ، فنستطيع أن يمد بعضنا الى بعض يده مصافحا • وان الامبراطور نابوليون ليحترق شوقا الى معرفة الامير أورسبرج » • الخلاصة أنه ليس عبثا أن هؤلاء السادة جاسكونيون • لقد أغرقوا أورسبرج بالكلام المعسول اغراقا بلغ من الشدة ، وشعر هو بفرح من قيام علاقات مودة حميمة سريعة بينه وبين مارشالات بلغ من العمق ، وبهره منظر معطف مورا ومنظر ريش النعام الذي يتزين به بهرا بلغ من القوة أنه لم ير في ذلك كله الا نارا يخطف بريقتها الابصار ، ناسيا النار التي كان ينبغي أن يصبها على العدو • (لم يغفل بيلييين رغم تدفقه في الكلام أن يتوقف لحظة بعد النطق بهذه الجملة ليدع لصاحبها فرصة الاعجاب بها) • ودخلت الكتيبة الفرنسية رأس الجسر ركضا ، وسمرت المدافع ، وتم استيلاؤها على الجسر •

تابع بيليين كلامه فقال وقد هدأ انفعاله بفضل ارتياحه لجمال قصصه وحسن وصفه :

— ولكن أجمل ما في الامر هو أن المرشح الذي كان يجب أن يطلق مدفعه اشارة اشعال النار في الالغام ونسف الجسر قد أراد أن يشعل النار فعلا في ذلك الحين ، ولكن لان اوقف ذراعه ، فتقدم هذا المرشح — الذي لا شك في انه أذكى من جنراله — تقدم من آورسبرج وقال له : « انهم يخدعونك يا أمير ، ها هم أولاء الفرنسيون ! » • ورأى مورا ان حيلته تخفق اذا ترك للمرشح أن يتكلم ، فقال مخاطبا آورسبرج وهو يتظاهر بالدهشة (ألا انه لجسكوني حق) ! « أين الانضباط النمساوي الذي يمدحه ويشيد به العالم كله ؟ أتدع لمءوس ان يخاطبك بهذا الاسلوب وان يقول لك كلاما كهذا الكلام ؟ » • حيلة عبقرية • اهتزت نخوة آورسبرج واثارت عزته وكبرياؤه ، فأمر بسجن المرشح • لا ، لا ، اعترف بأن هذه الحكاية كلها ظريفة ، حكاية جسر تابور • ليس هذا لا غباء ولا جبنًا ...

قال الامير آندره وهو يتخيل المعاطف الرمادية ، والجراح ، ودخان البارود ، وطققة الرصاص ، والمجد الذي ينتظره :

— لعل الامر خيانة •

فاستأنف بيليين كلامه فقال :

— لا ، ما هو أيضا بخيانة • ان هذا يضع البلاط في ظرف سيء

جدا • ما هو بخيانة ، ولا هو بجبانة ، ولا هو بغباء • هو عين ما حدث في اولم •

وبدا يلبين كمن يفكر باحثا عن تعبير ، ثم قال :

— هذا شبيه بما فعله ماك •

وأضاف يقول وقد شعر بأنه اهتدى الى جملة ، جملة جديدة كل الجدة ، جملة يمكن ان تجري بها اللسن ، وأن يكررها الناس :

— لقد « تماكنا » (بمعنى : أصبحنا مثل ماك) •

واذا بالعضون التي كانت حتى ذلك الحين متجمعة على جبهته ، اذا بها تمحى امحاء سريعا ، دالة بذلك على رضاه عن نفسه ، وابتهاجه بما قاله ، واذا بابتسامة خفيفة ترسم على شفثيه ، واذا هو يأخذ يتأمل أظافره •

وقال للامير آندره فجأة حين رآه ينهض ليمضي الى غرفته :

— الى أين ؟

— انا ذاهب •

— الى أين ؟

— التحق بالجيش •

— ولكنك كنت تريد أن تمكث يومين •

— والآن أريد أن أرحل فورا •

ومضى الامير آندره الى غرفته بعد أن أصدر أوامره بأعداد رحيله •

قال له ييليين وهو يدخل عليه :

— اسمع يا عزيزي • لقد فكرت في وضعك • لماذا تريد أن

ترحل ؟

ومن أجل ان يبرهن على أن هذه الحجة لا يمكن دحضها ، امّحت

من وجهه تجاعيده كلها •

نظر اليه الامير آندره نظرة استفهام ، ولم يجبه بشيء •

— لماذا تذهب الى هناك ؟ انا أعلم ما يدور في ذهنك • انك

تعتقد بأن من واجبك ان تسرع الى الجيش لانه في خطر • انني أفهم

هذا يا عزيزي • هو بطولة •

قال الامير آندره :

— ليس الامر كذلك البتة •

— ولكنك فيلسوف ، فكن فيلسوفا الى النهاية ، وانظر الى الامور

من زاوية أخرى ، فترى أن الواجب الذي يقع على عاتقك هو نقيض

ما عقدت النية عليه ، أي هو أن لا تعرّض نفسك للموت • دع هذا

لأولئك الذين لا يصلحون لشيء غيره ••• انك لم تتلق أمرا بالالتحاق،

ولا جعلت هنا في حل من البقاء • ففي وسعك اذن أن تبقى ، وان تتبعنا

الى حيث يقودنا حظنا العاثر • يقال اننا ذاهبون الى بلدة أولموتس^(١) •

(١) واسمها بالتشيكية أولوموك ، وهي مدينة من مورافيا تقع في شمال شرق برون •

وان أولموتس لمدينة لطيفة جدا • وسوف نساfer معا في عربتي سفرا
هادئا مريحا •

قال بولكونسكي :

— كفى أمازيح يا بيليين •

فأجابه بيليين :

— بل انني أكلمك صادقا مخلصا كما يكلم صديق صديقه • فكّر •
أين عساك تذهب الآن ؟ وما سفرك مع أن في وسعك أن تبقى هنا ؟
ان ما ينتظرك هو أحد شيئين لا ثالث لهما (قال ذلك وهو يجمع
جلده فوق صدغه الايسر) : فاما ان لا تلتحق بالجيش الا ويكون
الصلح قد أبرم ، واما أن تشارك جيش كوتوزوف كله الهزيمة
والعار •

وبسط بيليين غضون جبينه ، شاعرا ان ما قاله من أن هناك أمرين
لا ثالث لهما رأي لا يمكن دحضه •

قال الامير آندره بهدوء بارد :

— لست أنا من يحكم في الامر •

وحدث نفسه بقوله : « انني ذاهب لانقاذ الجيش » •

وقال بيليين :

— أنت يا عزيزي بطل •

الفصل الثالث عشر

في تلك الليلة نفسها استأذن بولكونسكي وزير الحرب بالسفر ،
ورحل باحثا عن الجيش وهو لا يعرف أين يجده ، خائفا أن يأسره
الفرنسيون في طريقه الى كريمس .

وكان جميع رجال البلاط في برون . يهيئون حقائبهم ، حتى لقد
أرسلوا أمتعتهم الكبيرة منذ ذلك الحين الى أولوتس . وأدرك الامير
آندره ، بقرب مدينة اتسلسدورف ، الطريق التي كان يسلكها الجيش
الروسي متعجلا أشد التعجل ، بالغا ذروة البلبلة والفوضى . كانت
الطريق قد بلغت من شدة الازدحام بعربات النقل أنه كان يستحيل
على المرء أن يشق بمركبته ممرا له . فاستعار الامير آندره من أحد
رؤساء القوزاق حصانا ورجلا من رجاله ، ومضى يجتاز القوافل جائعا
مكدودا ، يبحث عن القائد العام ومركبته . فكانت أشأم الشائعات تصل
الى مسمعه في أثناء الطريق عن حالة الجيش ، وكانت رؤية القطعات
وهي تفرّ تآني مصدقة لتلك الشائعات .

وعادت الى ذاكرته الكلمات التي خاطب بها نابوليون جيوشه قبل
بدء الحملة : « هذا الجيش الروسي الذي نقله ذهب انجلترا الى أقاصي

العالم ، لسوف نجعله يلقي ذلك المصير نفسه (مصير جيش أولم) «
 فاذا بهذه الكلمات توقظ في نفسه عاطفة هي مزيج من اعجاب بالرجل
 العبقري ، واحساس بالكرامة الجريئة ، وأمل في الحصول على المجد .
 وقال لنفسه : « فماذا اذا لم يبق لي الا أن أموت ؟ » وسرعان ما أجاب
 بقوله : « لا خير في الموت اذا وجب الموت . سأحتمل الموت كما
 يحتمله غيري » .

ونظر الامير آندره باحتقار الى هذا العدد الذي
 لا يحصى من الوحدات المتداخلة ، والشاحنات والآليات والمدافع ،
 والى هذه العربات والعربات والعربات التي لا يتخيل المرء أنواعها
 الكثيرة والتي ما تنفك تتسابق تسابقا ، فاذا هي تملأ الطريق الموحلة
 صفوفًا ثلاثة و صفوفًا أربعة . ومن جميع الجهات في الامام وفي الخلف ،
 ومن أبعد مكان يمكن ان تصل أصواته الى اذن المرء ، كانت تترامى
 قرقرة عجلات ، وكان يتوالى صرير الصناديق في العربات ، وكان
 يتعالى اصطفاق السياط ، وكانت تتعاقب الصرخات والشتائم يطلقها
 الجنود وخدم الضباط والضباط . وعلى حافتي الطريق ما تنفك ترى
 أفراس سقطت على الارض مكشوفة أو سليمة ، وترى عربات نقل
 محطمة جلس بقربها جنود منزلون ينتظرون ولا يعلم الا الله ماذا
 ينتظرون ، وجنود آخرون تاهوا عن وحدتهم فهم يتجهون جماعات الى
 القرى المجاورة ، أو يجرون دجاجات وخرافا وعلفا وأكياسا ملأى .
 وكان الازدحام في المسالك الصاعدة والمسالك الهابطة يشتد كثافة ،

وكان خليط من الاصوات يملأ الفضاء متصلًا غير منقطع . وكان الجنود يرفعون المدافع والمقطورات غائصين في الوحل الى الركب ، وكانت السياط تصطفق ، وحوافر الخيل تنزلق ، ومجرات العربات تتكسّر ، والصيحات تمزق الصدور تمزيقًا . وكان الضباط الذين يديرون الحركة يسعون بين القوافل ذاهبين آيين ، فتضع أصواتهم في غمرة الصخب الشامل ، ويرى المرء فيما تعبر عنه وجوههم أنهم يأسون من القدرة على وقف هذه الفوضى .

قال بولكونسكي محدثًا نفسه وهو يتذكر كلمات ييليين : « هذا هو الجيش الارثوذكسي العزيز ! » .

واقترب من القوافل يريد أن يسأل أحد هؤلاء الرجال عن مكان القائد العام . فاذا بمركبة عجيبة يجرها حصان واحد تمر أمامه . لاشك هذه المركبة قد صنعها جنود من أشياء وقعوا عليها مصادفة ، فهي لا تنتمي الى نوع معين من العربات ، وانما هي خليط من عدة أنواع . وكان يقود المركبة جندي من الجنود ، وكانت تقبع تحت غطاءها الجلدي امرأة متلفعة بشال متدثرة بوقاء . اقترب الامير آندره من المركبة وهمّ أن يلقي سؤاله عن مكان القائد العام ، فاذا هو يفاجأ بصرخات حادة تطلقها المرأة . ذلك ان الضابط المسئول عن القوافل أخذ يضرب بسوطه الجندي الذي كان يقود هذه العربة الصغيرة لأن الجندي حاول أن يسبق العربات الاخرى ، فتهاتوت ضربات على الوقاء الذي يدثّر المرأة ، فطفقت المرأة تطلق صيحات حادة . فلما رأت الامير آندره

انبجست من تحت الوقاء ، وراحت تحرّك ذراعيها الهزيلتين خارج الشال وهتفت تقول :

— يا مرافق ! سيدي المرافق ! ناشدتك الله أن تحميني ... ما عسى يحدث ؟ ... أنا امرأة الطبيب الميجر في الفوج السابع من أفواج القناصة^(١) . انهم لا يدعون لي أن أمر . لقد تخلفنا فتهنا عن ذوينا .

تقدم الامير آندره من الضابط وقال له :

— دع لهذه العربة أن تمر ، من فضلك . ألا ترى أن فيها امرأة ؟
فرشقه الضابط بنظرة سريعة ، وعاد يلتفت الى الجندي دون أن يجيبه . وقال يخاطب الجندي :

— سأتقدمك ... ارجع الى وراء !

فكرر الامير آندره قوله وهو يكرز أسنانه :

— قلت لك دعه يمر !

فاذا بالضابط يصرخ قائلاً وقد أسكره الغضب :

— وأنت ، من أنت ؟ من انت ؟ هل انت الرئيس ؟

وقد خاطبه بصيغة المفرد احتقاراً ، وهو يلحّ كلمة « أنت » الحاحاً خاصاً . وتابع كلامه يقول :

(١) كان للجيش الروسي في ذلك الاوان عدد من افواج القناصة المطاردين ، وكان هؤلاء يسمون « ياغر » (من الكلمة الالمانية ييجر) .

— أنا القائد هنا لا أنت •

وكرر يخاطب الجندي :

— تخلف أنت ، والا سطحتك كما تسطح بسكوية !

وكان واضحا أن هذا التعبير في التهديد قد راق له كثيرا وأعجبه

اعجابا كبيرا •

قال صوت خلفهما :

— أثب المرافق الصغير فأحسن تأنيبه !

وأدرك الامير آندره أن الضابط قد اعترته نوبة مسكرة من ذلك

الحق المسعور الذي يصبح المرء فيه لا يعرف ماذا يقول • وأدرك ان

تدخله لنجدة امرأة الطبيب تجعله على حافة الوقوع في وضع يخشاه

أكثر مما يخشى أي شيء في هذه الحياة وهو أن يكون مضحكا •

ولكن الغلبة كانت لغريزته لا لعقله ، فما كاد الضابط ينتهي من النطق

بكلماته الاخيرة حتى كان الامير آندره يتقدم منه شاهرا سوطه وقد

انقلبت سحنه من فرط الغضب ، وقال له :

— دع ••• هذه المرأة ••• تمر ! •••

فحرك الضابط يده بإشارة تعبّر عن الغضب ، وأسرع يتعد

مجمعا بقوله :

— من هؤلاء ، من رجال الاركان العامة ، انما تجيء الفوضى كلها • افعلوا ما تشاءون •

وترك الامير آندره امرأة الطبيب التي كانت تسميه منقذها ، تركها مسرعا دون ان يرفع بصره ، وتابع طريقه وهو يستعرض بخياله تفاصيل هذا المشهد كله مشمئزا ، واتجه الى القرية التي قيل له ان القائد العام موجود فيها •

فلما وصل الى القرية ، نزل عن ظهر حصانه ، وسار الى أول منزل متويا ان يستريح ولو لحظة قصيرة ، وان يصيب شيئا من طعام ، وأن يرتب قليلا هذه الافكار الكثيرة الاليمة التي تدور في رأسه وتعذبه تعذيا • وكان يقول لنفسه وهو يقبل على أول منزل : « ما هذا بجيش ، بل هو جمهور أوغاد • » وفيما هو يقول لنفسه هذا الكلام اذا بصوت مألوف يناديه باسمه صارخا :

— بولكونسكي ! بولكونسكي ! ألا تسمع ؟ تعال حالا !

فلما دخل الامير آندره المنزل وجد نرفتسكي ومرافقا آخر يأكلان ، فرعان ما سألاه ألا يعرف شيئا جديدا • وقرأ الامير آندره في وجهيهما اللذين يعرفهما معرفة جيدة أنهما قلقان خائفان • وكان هذا الخوف وهذا القلق واضحين وضوحا خاصا في وجه نرفتسكي الذي عرف بأنه وجه ضاحك دائما •

قال الامير آندره سائلا :

— أين القائد العام ؟

فأجابه المرافق :

— هنا في منزل آخر •

وسأله نرفتسكي :

— هل صحيح أنه الصلح والاستسلام ؟

— أنا الذي ألقى عليك هذا السؤال • انني لا أعرف شيئاً عدا

أنني لقيت عناء كبيراً في الوصول اليكم والالتحاق بكم •

قال نرفتسكي :

— لو تعرف ما يجري عندنا يا عزيزي ! شيء رهيب • أعترف لك

بأننا نتهكم على ماك ، ولكن حالنا أشد نكراً وسوءاً ألا جلست فأكلت شيئاً !

وعقب المرافق الآخر فقال :

— لن تجد الآن لا عربة ولا شيئاً يا أمير • أما صاحبك بطرس فالله

وحده يعلم أين هو •

— أين القيادة العامة ؟

— اننا نبئت في تسنايم^(١) •

(١) مدينة من مدن مورافيا بين فيينا وبرنو ، وينطق اسمها بالتشبيكية تسنويمو •

وقال نرفتسكي :

— وأنا حمّلت حصانين كل ما أحتاج اليه • لقد صنعت لي بردعات
ممتازة تمكنني من الهروب في خلال جبال بوهيميا • الحال سيئة
يا صديقي • ولكن ما بالك ترتعد هذا الارتعاد ؟ لا بد أنك مريض •
كذلك سأل نرفتسكي حين رأى الامير ينتفض انتفاضا قويا كأن
لامس زجاجة من زجاجات تعذيب لايده •

قال الامير آندره :

— لا ، لا شيء !

كان الامير آندره قد تذكر لقاءه الاخير مع امرأة الطبيب وضابط
السير •

وقال يسأل :

— ماذا يعمل القائد العام هنا ؟

فأجاب نرفتسكي :

— لا أفهم من هذا الامر شيئا •

قال الامير آندره :

— وأنا لا أفهم الا شيئا واحدا هو أن هذا كله بشع ، بشع ، بشع •

واتجه الى المنزل الذي كان يقيم فيه القائد العام ، ودخل الدهليز

بعد أن مر بعربة كوتوزوف ، ورأى الافراس المنهوكة التي يركبها الحرس والقوزاق ، وسمع هؤلاء يتكلمون بأصوات عالية •

قيل له أن كوتوزوف مجتمع بالامير باجراتيون^(١) والجنرال فايروتهر • ان فايروتهر هو الجنرال النمساوي الذي حل محل شميدت بعد مقتله • وكان كوزلوفسكي القصير مقعيا في الدهليز أمام سكرتيره • وكان السكرتير يكتب بسرعة على برمبل مقلوب ، شامرا كمي بزته • وكان كوزلوفسكي يبدو متعبا أكبر التعب مرهقا أشد الارهاق ، وكان واضحا أنه هو أيضا لم يغمض له جفن طوال الليل • وقد نظر الى الامير آندره نظرة ذاهلة ولم يجبه حتى بهز رأسه هزة خفيفة • وقال متابعا املاءه على السكرتير :

— في الخط الثاني ... هل تكتب ؟ أما فوج كيف من رماة القنابل ، وكذلك فوج بولوديا ...

قال السكرتير متذمرا حانقا وهو ينظر الى كوزلوفسكي شزرا ويكلمه بلهجة ليس فيها احترام :

— لا أستطيع أن أجاريك يا صاحب السيادة ...

ومن خلال الباب كان يُسمع صوت كوتوزوف مستاء عاليا يقاطعه

(١) الامير بطرس باجراتيون (١٧٦٥ - ١٨١٢) ، سليل ملوك جورجيا ، دخل في خدمة الجيش الروسي سنة ١٧٨٢ ، وبرز في ايطاليا تحت قيادة سوزوروف ، وقاد جيشا في أوسترلتس ، وقتل في معركة بورودينو •

صوت آخر مجهول • وأحس الامير آندره من نبرة هذه الاصوات، ومن ذهول النظرة التي القاها عليه كوزلوفسكي ، ومن اللهجة التي تكلم بها السكرتير المكدود المنهوك خالية من التوقير والاحترام ، ومن كون الرجلين مقرفصين في الدهليز على هذه المسافة القريبة جدان كوتوزوف، منهمكين في الكتابة على برمبل مقلوب ، ومن منظر القوزاق الذين يحرسون الافراس وهم يضحكون هذا الضحك المقهقه تحت نافذة القائد العام ، أحس الامير آندره من هذا كله أن شيئاً خطيراً مشئوما لا بد أن يكون قد حدث •

فسأل كوزلوفسكي ملحا ، فقال له كوزلوفسكي :

— سأجيبك حالا يا أمير • هذه نصوص خطة للامير باجراتيون •
— والاستسلام ؟

— لا استسلام • وقد صدرت الاوامر بالاستعداد للمعركة •

اتجه الامير آندره الى الباب الذي كانت تصل منه الاصوات • ولكن الاصوات صمتت لحظة أراد أن يفتحه ، ثم اذا بالباب يفتح فيظهر كوتوزوف في العتبة بأفقه الاقنى في وجهه العريض ، واذا بالامير آندره يجد نفسه واقفا أمامه • ولكن كان واضحا مما تعبر عنه العين الوحيدة السليمة من عيني القائد العام أن أفكاره وهمومه كانت تشغل باله الى حد يجعل بصره غامض الرؤية ، فقد نظر الى مرافقه الامير آندره فلم يتعرفه • وقال يسأل كوزلوفسكي :

— هيه ! أنهيت ؟

فأجابه كوزلوفسكي :

— لحظة يا صاحب السعادة •

وظهر باجراتيون وراء القائد العام ، وهو رجل قصير القامة خشن
الجلد ، ما يزال شابا ، له وجه ثابت ساكن جامد شرقي الملامح •

قال الامير آندره مكررا كلامه بصوت قوي وهو يمد الى كوتوزوف
ظرفا :

— يشرفني أن أقدم نفسي •

فقال كوتوزوف :

— آ ... هذا من فيينا ؟ طيب • لحظة ... لحظة ! وخرج يشيع
باجراتيون الى درج الباب ، وقال له :

— هيا يا أمير • في حراسة الله • انني أباركك وأرجو لك عملا
كبيراً يبهر الابصار •

ورق وجه كوتوزوف فجأة ، وترقرقت دموع في
عينيه ، وجذب اليه باجراتيون بيده اليسرى ، ورسم عليه اشارة الصليب
باليد اليمنى التي يزينها خاتم ، وكان واضحا أن هذه الحركة مأنوفة
له معهودة فيه ، ومد لباجراتيون خده الممتلىء ، ولكن باجراتيون قبل
عنقه بدلا من أن يقبل خده •

وقال كوتوزوف مكررا دعاءه :

— في حراسة الله •

ثم اتجه الى عربته ، وقال للامير آندره بولكونسكي :

— اركب معي •

فقال له الامير آندره :

— صاحب السعادة ، انني أتمنى أن أكون نافعا هنا • فاسمح لي أن

أبقى في مفرزة الامير باجراتيون •

فأجابه كوتوزوف قائلا :

— اركب •

ثم أضاف يقول وقد رأى الامير آندره مترددا :

— أنا أيضا في حاجة الى ضباط ممتازين •

وركبا العربة ، وسارت بهما العربة بضع لحظات وهما صامتان

لا يتكلمان •

وكان كوتوزوف حزر ما يعتلج في نفس الفتى ببصرة الشيخ

الناقذة :

— ستحدث أمور أخرى كثيرة ، كثيرة •

وأضاف يقول كمن يحدث نفسه :

— اذا عاد من مفرزته عشرين غدا ، فسأحمد الله حمدا عظيما .

فرجع الامير آندره عينيه اليه ، فاذا بالاخايد المغسولة من الندبة التي تدفع صدغ كوتوزوف في الموضع الذي أصابته رصاصة ابان معركة اسماعيل ، تلفت انتباه الامير آندره على غير ارادة منه ، واذا بالعين الميتة في وجه كوتوزوف تخطف بصره رغم ارادته . فقال محدثا نفسه : « نعم ، من حقه أن يتكلم عن موت هؤلاء الرجال بمثل هذا الهدوء كله . » وقال مخاطبا كوتوزوف :

— من أجل ذلك انما أطلب أن ألحق بهذه المفرزة .

فلم يجبه كوتوزوف ، وغرق في أفكاره ، وكأنه نسي ما قاله . وبعد خمس دقائق ، التفت الى الامير آندره، والنوابض المرنة في العربة ترجحه ترجيحا رخوا. ان وجهه الآن لا يعبر عن أي انفعال . وأخذ يسأل الامير آندره بسخرية ناعمة عن تفاصيل مقابلته للامبراطور ، وعن التعليقات التي سمعها في البلاط على معركة كريمس ، وعن سيدات يعرفانهن كلاهما .

الفصل الرابع عشر

كان كوتوزوف قد علم من أحد كشافيه في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) نبأ يضع الجيش الذي يقوده في مأزق لا يكاد يكون له منه مخرج . لقد أبلغه الكشاف أن الفرنسيين بقواتهم الضخمة أصبحوا بعد عبور جسر فيينا يهددون طريق اتصاله بالجيش القادمة من روسيا . فاذا قرر كوتوزوف أن يبقى في كريمس ، استطاع جيش نابوليون الذي يبلغ عدده مائة وخمسين ألف رجل أن يقطع عليه جميع مواصلاته ، وحاصر جيشه المنهوك الذي يتألف من أربعين ألف رجل ، فاذا بوضعه يشبه وضع ماك في أولم . واذا قرر أن يترك طريق الاتصال بالجيش القادمة من روسيا ، كان عليه أن يسلك طرقا في منطقة مجهولة بجبال بوهيميا ، مقاتلا عدوا يفوقه عددا ، وكان عليه أن يهجر كل أمل في الاتصال بينه وبين بوكسهوفدن^(١) . واذا قرر أن يقاتل متقهقرا على الطريق المؤدي من كريمس الى أولموتس ليلتقي بالجيش القادمة من

(١) البارون البلطقي تيودور بوكسهوفدن (١٧٥٠ - ١٨١١) ، جنرال روسي ، منح لقب كونت منذ سنة ١٧٩٧ ، قاد الجناح الايسر في أوسترلتس ، عين قائدا عاما للجيش في فنلندا من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨٠٩ .

روسيا ، فقد يسبقه الفرنسيون الى هذه الطريق بعد أن عبروا جسر فيينا ، فيكون في هذه الحال مضطرا الى قبول القتال سائرا مثقلا بحمولاته ورحاله كلها ، محاطا من الجهتين بعدو يفوقه ثلاث مرات عدا .

وقد وقع اختيار كوتوزوف على هذا الحل الثالث .

واذا صدق ما قاله الكشف ، فان الفرنسيين يتجهون الآن بخطى حثيثة نحو تسنايم التي تقع على طريق انسحاب كوتوزوف ، وأنهم يسبقونه مسافة مائة وثلاثين فرسخا ، فاذا هو استطاع أن يبلغ تسنايم قبلهم كان أمله في انقاذ جيشه كبيرا . أما اذا بلغوها قبله ، فقد تعرض جيشه كله لعار كالعار الذي لحق بجيش ماك في أولم ، أو أيدي جيشه بأسره اباداة تامة . ولكن سبق الفرنسيين بالجيش كله مستحيل . وطريق الفرنسيين من فيينا الى تسنايم اقصر وأفضل من طريق الروس من كريمس الى تسنايم .

لذلك بادر كوتوزوف ، ليلة تلقى هذا النبأ ، الى ارسال طليعة مؤلفة من أربعة آلاف رجل بقيادة باجراتيون ، تعبر الجبال يمنة ، من طريق كريمس - تسنايم الى طريق فيينا - تسنايم . لقد كان على باجراتيون أن يقطع هذه المرحلة دون توقف ، وان يربط على ذلك الطريق متجها بوجهه الى فيينا ، مديرا ظهره لتسنايم ، فاذا استطاع ان يصل قبل الفرنسيين ، اخذ يناوشهم ، فأخرجهم اطول مدة ممكنة .

وفي الوقت ذاته ، سار كوتوزوف نفسه متجها الى تسنايم بحمولاته كلها .

مشى باجراتيون بجنوده الجياع الحفاة في ليلة عاصفة ، مسافة خمسة وأربعين فرسخا في جبال لا طرق فيها ، ففقد من رجاله ثلثهم تخلفوا زاحفين ، ولكنه بلغ الطريق المؤدية من فيينا الى تسنايم قبل الفرنسيين ببضع ساعات ، اذ كان الفرنسيون يقتربون من هولابرون قادمين من فيينا . وكان كوتوزوف وقوافله في حاجة الى السير أربعاً وعشرين ساعة اخرى ليلغوا تسنايم . لذلك كان على باجراتيون ، من أجل انقاذ الجيش ، أن يستطيع بجنوده المنهوكين الجياع الذين لا يتجاوز عددهم أربعة آلاف ، ان يؤخر كل جيش العدو أربعاً وعشرين ساعة حين التقى به في هولابرون . ومن الواضح أن هذا امر مستحيل . غير ان نزوة من نزوات الحظ جعلت المستحيل غير مستحيل . ذلك ان نجاح الخدعة التي مكنّت الفرنسيين من الاستيلاء على جسر فيينا بغير قتال ، قد حض مورا على محاولة تلك الخدعة نفسها مع كوتوزوف ، لانه حين لقي مفرزة باجراتيون الضعيفة على طريق تسنايم ، ظن أنه يواجه كل جيش كوتوزوف ؛ فمن أجل أن يسحق هذا الجيش كله سحقاً محققاً ، كان ينتظر اكتمال القطعات الفرنسية التي كان يتلاحق وصولها من فيينا ، فعرض هدنة مدتها ثلاثة أيام ، بشرط أن تبقى قطعات الطرفين في أماكنها لا تتحرك منها . وأكد مورا أن مباحثات صلح قد بدأت ، وانه اذا كان يقترح

هذه الهدنة فإنما يهدف الى تجنب سفك الدماء هدرا • وقد أخذ الجنرال النمسوي ، الكونت فوستتس الذي كان على رأس الطلائع الامامية ، أخذ بالتأكيدات التي حملها اليه مبعوث مورا ، وانسحب من مواقعه كاشفا مفرزة باجراتيون • ومضى مبعوث آخر الى المواقع الروسية يبلغها نبأ مباحثات الصلح ، ويعرض عليها هدنة مدتها ثلاثة أيام • فأجاب باجراتيون بأنه لا يستطيع لا ان يقبل الهدنة ولا أن يرفضها ، وأرسل مرافقه الى كوتوزوف يحمل تقريراً عن الاقتراح الذي قدمه مورا •

وكانت الهدنة في نظر كوتوزوف هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من كسب الوقت وتتيح لمفرزة باجراتيون المنهكة ان تصيب شيئاً من الراحة ، وتسمح للقوافل والحمولات (التي أخفيت حركاتها عن الفرنسيين) أن تتقدم نحو تسنايم ولو مرحلة واحدة • ان اقتراح الهدنة هذا يهيء فرصة وحيدة فريدة لاتقاذ الجيش ، فرصة لم تكن في الحسبان • فما ان وصل هذا النبأ الى كوتوزوف حتى أرسل الى معسكر العدو مرافقه العام فنتسنجروود^(١) ، وأمره بأن لا يقبل الهدنة فحسب ، بل ان يبحث شروط الاستسلام ايضا • وفي اثناء ذلك الوقت كلف كوتوزوف مرافقيه بأن يعجلّوا انتقال الجيش كله الى طريق

(١) البارون فرديناندو فنتسنجروود (١٧٧٠ - ١٨١٨) ، من مواليد هيس ، دخل في خدمة الجيش الروسي منذ سنة ١٧٩٧ ، وأصبح جنرال فرسان ، وبعث سنة ١٨٠٥ رسولا الى ملك بروسيا .

كريمس أكبر تعجيل ممكن • وكان على مفرزة باجراتيون المضناة الجائعة ، أن تحجب حركة القوافل واكثر الجيش ، بوقوفها وحيدة ساكنة أمام عدو يفوقها ثماني مرات عددا •

وتحققت نبوءات كوتوزوف • فان العرض الذي تقدم به عن الاستسلام ، وهو عرض لا يلزم بشيء ، قد أتاح لجزء من القوافل أن تمر ؛ ومن جهة اخرى لم تلبث غلطة مورا ان انكشفت • كان نابوليون في شونبرون على مسافة خمسة وعشرين فرسخا ، فما ان وصله تقرير مورا حاملا اليه مشروع الهدنة فالاحتلال ، حتى كشف الخدعة ، وكتب الى مورا الرسالة التالية :

الى الامير مورا

شونبرون ، ٢٥ برومر ، سنة ١٨٠٥ الساعة الثامنة من الصباح •

انني عاجز عن الاهتداء الى كلمات تعبر لك عن استيائي • أنت لا تقود الا طليعة جيشي وليس من حقا ان تعقد هدنة بغير أمر أصدره اليك • انك تضيّع عليّ ثمرة حملة • اقطع الهدنة فورا وسر الى العدو • وأبلغه أن الجنرال الذي يوقع هذا الاستسلام ليس من حقه أن يوقعه ، وانه لا احد يملك هذا الحق الا امبراطور روسيا •

واذا أبرم امبراطور روسيا هذا الاتفاق المزعوم فسوف أبرمه ، ولكن الامر كله خدعة • فهاجم الجيش الروسي ودمره تدميرا •••

انك في وضع يؤهلك لأخذ حمولاته والاستيلاء على مدافعه •

ان مرافق امبراطور روسيا رجل ... ! ولا قيمة للضباط حين لا تكون لهم سلطات • وهذا الضابط لم يخول أية سلطة ... لقد خدعت النمساويين حين أقاموا لك عبور جسر فيينا ، وهأنت ذايخدعك ضابط مرافق للامبراطور •

نابوليون

أرعى مرافق نابوليون العنان لحصانه ، ومضى يحمل الرسالة الرهيبة الى مورا • وكان بونابرت نفسه لا يتكل على جنرالاته ، فاتجه بحرسه كله الى ساحة المعركة ، خشية ان تفلت منه الضحية ، بينما كان الاربعة آلاف من الرجال الذين تتألف منهم مفرزة باجراتيون يشعلون نيران المعسكر فرحين ، ويجففون ثيابهم ، ويتدفأون ، ويهيئون حساءهم ، لأول مرة منذ ثلاثة ايام ، دون ان يعلم احد منهم بما ينتظرهم ، بل دون ان يخطر له ذلك على بال •

الفصل الخامس عشر

ظفر الامير آندره بموافقة كوتوزوف بعد الحاح ؛ وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وصل الى جرونت وقدّم نفسه الى باجراتيون • ولم يكن مرافق نابوليون قد بلغ مورا ، ولم تكن المعركة قد بدأت • وفي مفرزة باجراتيون لم يكن احد على علم بالمجرى العام للعمليات ، وكان الجنود يتحدثون عن الصلح ، ولكن دون أن يصدّقوا انه ممكن • وكانوا يتحدثون أيضا عن المعركة ، ولكن دون أن يصدّقوا كذلك أنها وشيكة •

كان باجراتيون يعلم أن بولكونسكي هو المرافق المفضل الاثير لدى كوتوزوف ، والمرافق الذي يحظى بثقة كوتوزوف ، فاستقبله استقبالا فيه كثير من المراعاة والمداراة والبشاشة ، وشرح له أن المعركة ستشعب في أغلب الظن اليوم أو غدا ، وترك له حرية البقاء بقربه أثناء المعركة أو المكوث في المؤخرة ليضمن حسن التقيد بالنظام عند الانسحاب ، « وذلك امر له شأنه الكبير وخطره العظيم أيضا » • وأضاف يقول كأنما ليطمئن الامير آندره :

— على كل حال ، أغلب الظن أنه لن يقع اليوم اشتباك •

وحدث باجراتيون نفسه بقوله : « اذا كان واحدا من أولئك
الفتيان الطائشين في هيئة الاركان يرسلونه من أجل ان يحصل على
وسام ، فسوف يحصل على هذا الوسام في المؤخرة أيضا ؛ واذا أراد
أن يبقى معي ... فليكن له ما يريد ، لأنه يمكن أن يكون نافعا اذا
هو كان ضابطا شجاعا . » •

لم يجبه الامير آندره بشيء بل طلب أن يؤذن له بزيارة المواقع ،
والاطلاع على ترتيب القطعات ، بغية أن يعلم اين ينبغي أن يذهب
حين يكلف بمهمة . فاذا بضابط من الاركان العامة ، وهو فتى وسيم
أنيق الهندام ، يزدان خنصره بخاتم من ماس ، يتقدم لارشاده •

كان يرى في جميع الجهات ضباط مبلكلو الثياب حزاني الوجوه
كأنهم يبحثون عن شيء فلا يجدونه ، وكان يرى جنود يجرون من القرية
أبوابا ودككا وأوتاد أسيجة •

قال ضابط هيئة الاركان وهو يشير اليهم :

— هؤلاء يا أمير ، أناس يستحيل التخلص منهم • ان الرؤساء
لا يسيطرون عليهم •

ثم دلّ يده على خيمة نصبها قيم كاتنين ، وأردف يقول :

— وهنا انما يتجمعون ويقضون وقتهم • لقد طردتهم جميعا في
هذا الصباح ، فانظر كيف امتلأ بهم المكان من جديد • يجب أن نذهب

اليهم ، يا أمير ، فنخيفهم • ولن يأخذ هذا من وقتنا الا دقيقة واحدة •

قال الامير ، ولم يكن وقته قد اتسع لتناول شيء من طعام :

— هلمّ بنا الى هناك ، وسأطعم في الوقت نفسه شيئاً من جبن وخبز •

— لماذا لم تقل هذا يا أمير ؟ كان يمكن ان أمضي بك الى بيتي أولاً ، فتصيب ما تحب من طعام •

ونزل الضابطان عن حصانيهما ، ودخلا خيمة قيّم الكاتين • فكان في الخيمة عدة ضباط جلسوا الى موائد يأكلون ويشربون وقد احمرت وجوههم •

قال الضابط بلهجة التأنيب كمن سبق له أن كرر هذا الشيء مرارا :

— ما معنى هذا يا سادة ؟ حقا ليس لكم أن تغيّبوا هذا الغياب • وأضاف يقول لضابط صغير من ضباط المدفعية ، وسخ هزيل كان قد خلع جزمته وعهد بهما الى قيّم الكاتين لتجفيفهما ولم يبق في قدميه الا على جوربيه ، وقام يستقبل القادمين مبتسما ابتسامة غير طيعية :

— أمر الامير بأن لا يبقى هنا أحد •

ثم أردف :

— ما هذا يا كابتن توشين ؟ ألا تستحي ؟ كان ينبغي لك أن تكون قدوة وأنت ضابط مدفعية ، فكيف تكون حافي القدمين ؟ ما أحلاك حين يدق النفير فتكون بغير جزميتين !

قال الضابط ذلك وابتسم . ثم أضاف يخاطب سائر الضباط بلهجة الأمر :

— ارجعوا جميعا الى مراكزكم يا سادة ، جميعا ، جميعا !

ابتسم الامير آندره على غير ارادة منه وهو ينظر الى الكابتن توشين . كان الكابتن توشين يتوائب من قدم الى قدم حافيا ، مبتسما لا يتكلم ، مصوِّبا بعينه الزكيتين الطيبتين نظرات استفهام ، تارة الى الامير آندره وتارة الى ضابط الاركان العامة . ثم قال مبتسما خجلان ، راغبا رغبة واضحة في أن يخرج من هذا المأزق المربك بالمزاح :

— يقول الجنود ان المرء يكون أكثر ارتياحا حين يخلع جزميته ويبقى حافي القدمين !

ولكنه ما كاد ينهي جملته حتى أحس أن مزاحته لم تؤت ثمارها ، فاشتد اضطرابه .

وقال ضابط الاركان العامة محاولا أن يحتفظ بجده ووقاره :

— هيا غادروا هذا المكان !

وألقى الامير آندره نظرة أخرى على تلك القامة الضئيلة ، قامة ضابط المدفعية • ان فيها شيئا خاصا ، ليس عسكريا ، شيئا مضحكا هزليا بعض الشيء ، ولكن الرجل لطيف الهيئة محب الى القلب •
وركب الامير آندره والضابط حصانيهما ، وتابعا سيرهما •

فلما خرجا من القرية كانا لا ينفكان يتجاوزان ، ويقابلان جنودا مشاة وضباطا من شتى الاسلحة ؛ وشاهدا على يسارهما مباني حمراء تبنى بصلصال يستخرج من الارض • كان المكان يزخر بزم من الجنود خلعوا ستراتهم فلا تحميهم من الريح الباردة الا قمصانهم ، حتى لكأنهم من كثرتهم جموع نمل أبيض • وكانت مجارف من صلصال ما تنفك تبجس من وراء حاجز بغير انقطاع ، ترميها يد لا ترى •

اقترب الضابطان من أشغال البناء ، وتأملها مليا ، ثم تابعا سيرهما • فما ان قطعا مسافة قصيرة حتى لقا عدة عشرات من الجنود يتناوبون العمل بلا توقف ، دالفين في تلة من الارض بسرعة • فاضطر الضابطان ان يسدا أنفيهما وأن يستحشا حصانيهما فرارا من هذا الجو الموبوء •

قال الضابط المرافق :

— هذه بهجة المعسكرات يا سيدي الامير •

وبلغا الراية التي كانت تنتصب أمامهما ، وكان الفرنسيون يرون
من على هذه الراية ، فوقف الامير وأخذ يراقب .

قال الضابط وهو يشير الى أعلى نقطة :

— هنا ترابط احدى سرايا مدفعيتنا . انها سرية ذلك الرجل
الغريب الاطوار الذي رأيناه حافي القدمين منذ قليل . ومن تلك
النقطة يرى كل شيء ، فهلمَّ بنا اليها يا أمير .

قال الامير آندره راغبا في التخلص منه :

— شكرا . سأمضي الى هناك وحدي ، لا تزعج نفسك ،
أرجوك ...

فلم يصرَّ الضابط على مصاحبته ، ومضى الامير آندره وحده .

فكان كلما اقترب من العدو يلاحظ في صفوفنا مزيدا من النظام،
ومزيدا من البشر والجدل . انه حين رأى القافلة التي تجاوزها هذا
الصباح قبيل تسنايم والتي كانت على مسافة عشرة فراسخ من
الفرنسيين ، انما لاحظ الفوضى في أشد صورها ، ولاحظ الوهن
والخور والانهار . وفي جront أيضا ، يحس المرء نوعا من قلق ،
وشيئا من هم غامض وخوف مبهم . ولكن كلما اقترب المرء من
الخطوط الفرنسية شعر بمزيد من الثقة والطمأنينة في صفوف قطعائنا .
كان جنود مرتدون معافطهم قد اصطفوا امام رقيب وكابتن يحصيان
عدد الرجال ، وقد غرس الرقيب اصبعه في صدر آخر جندي من

الصف مهيبا به أن يرفع ذراعه • وكان جنود آخرون قد انتشروا هنا وهناك يجيئون بحطب وأغصان ، وبينون أكواخا وهم يضحكون ويكلم بعضهم بعضا في مرح • وكان رجال مرتدون ثيابهم أو خالعون ملابسهم قد جلسوا بقرب النار يجففون قمصانهم وجواربهم أو يرقعون أحذيتهم البالية ومعاطفهم المتهترئة ، وكان رجال غيرهم يتزاحمون حول قدور الطهارة • وكان الحساء في إحدى السرايا قد نضج ، فالجنود ينظرون بشراهة الى القدور التي يتصاعد منها البخار ، منتظرين ان يقوم الرقيب المحاسب فيملأ بالحساء قصعة من خشب ، ويمضي بها الى الضابط الجالس على جذع شجرة أمام كوخه ، ليذوق الضابط الحساء •

وفي سرية أخرى أحسن حظا من الاولى - لان الفودكا لم تكن متوفرة لجميع الرجال - كان الجنود متجمعين حول رقيب مجدور الوجه عريض المنكبين قد مال على برميل الفودكا وأخذ يملأ الاقداح الممدودة اليه واحدة بعد أخرى • فكان الجنود يحملون الاقداح الى شفاههم كالخاشعين ، ويفرغونها في أجوافهم ، ويمسحون أفواههم بالسنتهم ، وينشفونها بأكمام معاطفهم ، ثم يمضون جذلين مبتهجين • كانت الوجوه كلها هادئة ، لا تدل على شيء من الاكتراث فكان هؤلاء الرجال ليسوا على مسافة قصيرة من عدو رهيب في عشية معركة سيقتى على أرضها نصفهم في أقل تقدير ، وانما هم معسكرون في مكان هادئ من وطنهم • وبعد أن تجاوز الامير آندره فوجا من القناصة

لقي ، بين صفوف رماة قنابل كييف^(١) ، فتية بواسل كانوا يقومون بأعمال من أعمال السلم أيضا ، على مقربة من تخشيبية عالية تمتاز على سائر التخشيبات ، هي تخشيبية قائد الفوج ، ورأى مفرزة من رماة القنابل قد استلقى امامها رجل عار كان جنديان يمسانه ، وكان جنديان آخران يشهران عصيا رخصة ويهويان بها على ظهره العاري ضربات متعاقبة موزونة • وكان الجاني يطلق صرخات لا تخلو من التصنع والافتعال ، وكان ميجر بدین يذهب ويجيء أمام الرجال ، ويقول دون أن يولى الصرخات اتبها :

— عار على جندي أن يسرق • يجب أن يكون الجندي شريفا نبلا
شهما • وقد سرق هذا رفيقا له ،

ففقد بذلك شرفه • انه رجل حقير • مزيدا من الضرب ! مزيدا
من الضرب !

فاستمرت العصي تهوي على جسمه صافرة ، واستمرت الصرخات تنطلق من صدره حادة لكنها مصطنعة • وكان الميجر ما يزال يردد قوله :
— مزيدا ، مزيدا !

ابتعد عن الجاني ضابط شاب كان وجهه يعبر عن ارتباك وحيرة ،

(١) كان للجيش الروسي حتى سنة ١٩١٨ ستة عشر فوجا من رماة القنابل هم في الجيش صفوة ممتازة .

وحزن وألم ، وألقى نظرات استفهام على المرافق الذي مر في ذلك الوقت .

وحين وصل الامير آندره الى المراكز الامامية ، سار متابعاً خط الجبهة . كان خطنا في الجنين بعيداً عن خط العدو بعداً كبيراً . ولكنه في الوسط ، أي في المكان الذي مر منه المبعثون في الصباح ، قريباً من خط العدو قرباً شديداً حتى ليتمكن أن يرى الرجال بعضهم بعضاً وأن يكلم بعضهم بعضاً من جهة الى جهة وعدا الجنود الذي كانوا يحمون الخطوط الاولى ، كانت تحتشد في الجانبين جمهرة من المستطلعين الفضوليين تنفرس ضاحكة في هؤلاء الاعداء العجيبين الذين لم يسبق لها أن رأتهم يوماً .

ومنذ الصباح الباكر ، ورغم حظر الاقتراب من المراكز الامامية لم يفلح الضباط في دفع سيل هؤلاء المستطلعين الفضوليين . وقد أصبح خفاء المراكز الامامية أشبه بأناس يقومون بشيء نادر ، فهم لا ينظرون الى الفرنسيين وانما يبدوون ملاحظات عن هؤلاء المتسكعين ، وينتظرون أن يحين وقت تبديلهم ضجرين . ووقف الامير آندره ليرى الفرنسيين .

قال جندي لرفيقه وهو يشير الى جندي روسي يحمل بندقية وقد اقترب من المخافر الامامية مع أحد الضباط ، وطلق يكلم واحداً من رماة القنابل الفرنسيين متدفقا في الحديث متحمساً :

— انظر ، انظر ! انظر ما أسرعه في الكلام ! ان الفرنسي نفسه

لا يستطيع أن يتابع حديثه من فرط سرعته • جاء دورك يا سيدروف •
فأجابه سيدوروف الذي كان يعد بين الجنود قديرا في اللغة
الفرنسية :

— بل دعني أصغي • حقا انه يحسن الكلام •

وكان الجندي الذي يشير اليه الضاحكون هو دولوخوف • فعرفه
الامير آندره ، وأخذ ينصت الى الحديث • كان دولوخوف وقائد
سريته قد جاء الى الخطوط الامامية من الجنب الايسر الذي كان
يرابط فيه فوجهما •

قال الكاتبن وهو يميل الى أمام محاولا أن لا تفوته كلمة من
الحديث الذي لا يفهمه :

— هيا ، استمر ! استمر ! أرجوك !
أسرع مزيدا من الاسراع • ماذا يقول ؟

لم يجب دولوخوف عن سؤال الكاتبن • فقد كان منخرطا في
مناقشة حامية مع رامي القنابل الفرنسي ، وكانا يتكلمان عن الحرب
طبعاً • كان الفرنسي يخلط بين الفرنسيين والروس ، فيزعم أن الروس
استسلموا وفروا منذ معركة أولم ، وكان دولوخوف يرد عليه بأن
الروس لم يستسلموا ، وأنهم قاتلوا الفرنسيين وهزموهم • وأضاف
يقول :

صدرت الينا الاوامر بطردكم من هنا ، ولسوف نطردكم •

فأجابه الفرنسي ، رامي القنابل اليدوية بقوله :

— حاولوا أن لا تؤسروا أنتم وقوزاكنم كافة ! فانفجر المستمعون الفرنسيون يضحكون ضحكا مجلجلا •

قال دولوخوف :

— لنجعلنكم ترقصون ، كما رقصتم في أيام سوفوروف •

فقال فرنسي يسأل :

— بماذا يهرف ؟

وقال فرنسي آخر وقد حزر أن دولوخوف يتكلم عن حرب سابقة :

— تاريخ قديم • لسوف يعرف الامبراطور كيف يرى صاحبكم سوفارا ، وغيره •••

فأبرى دولوخوف يقول :

— بونابرت •••

ولكن الفرنسي قاطعه صارخا في حق :

— لا تقل بونابرت ••• بل الامبراطور ! اسم مقدس •

فأجابه دولوخوف :

— شيطان يأخذه ، امبراطوركم هذا !

وقذف دولوخوف باللغة الروسية شتيمة بذئنة من الشتائم التي

يقذفها الجنود ، وسوى بندقيته على كتفه ، ومضى وهو يقول للكابتن:

— تعال يا ايفان لوكتش •

قال جنود المخافر الامامية :

— هذه لغة فرنسية ! هلم أنت يا سيدوروف !

فطرف سيدوروف بعينه ، وأخذ يدمدم كلمات لا معنى لها ، محاولا أن يجعل صوته معبرا عن أشياء ذات معنى :

— كاري ، مالا ، تافا ، موتر ، كاسكا

فأخذ الجنود يضحكون ضحكا مدويا بلغ من الصراحة والانطلاق والمرح والفرح أن عدواه سرت الى الفرنسيين فأخذوا هم أيضا يضحكون .
فاذا رأى المرء مشهد الضحك هذا تراءى له أنه لم يبق الا أن يفرغ الجنود بنادقهم من رصاصها ، وأن يفجروا ذخائرهم وأن يرجع كل منهم الى بيته بأقصى سرعة •

ولكن البنادق بقيت ملقومة ، والكوى الذي فتحت في جدران المنازل ظلت على حالها من التهديد باستئناف الرمي ، والخنادق التي حفرت تهيؤا لاستئناف القتال ما برحت في مكانها غاصة بالرجال ، والمدافع المنتصبة على قوادمها ما تزال مصوبة بعضها الى بعض •

الفصل السادس عشر

اجتاز الامير آندره خطوطنا من الجنب الايمن الى الجنب الايسر، ثم صعد الى سرية المدفعية التي قال له الضابط المرافق أن موقعها يطل على الساحة كلها ، فنزل هنالك عن صهوة حصانه ، ووقف بقرب المدفع الاخير من المدافع التي سحبت من قوادمها ، وكان أحد الرماة يحرس المدافع ، فأقبل على الامير آندره ليحييه ويريه الاسلحة ، ولكن الامير أوماً له أن يعفيه من ذلك ، فعاد يمشي مشيته الرتيبة المملة •

صدق الضابط المرافق : ان موقع سرية المدفعية يطل فعلا على جميع المواقع الروسية ، ويطل كذلك على جزء كبير من مواقع العدو • وفي مواجهة هذا المكان ، على ذروة رابية من الروابي ، كانت تصطف منازل قرية شونجراين^(١) • وعلى الشمال واليمين يستطيع الناظر أن يميّز في ثلاثة مواضع ، وسط دخان المخيمات ، كتل الجند الفرنسيين

(١) في يومي ١٥ و ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ، دافعت مفرزة باجراتيون عن نفسها في هذه القرية دفاعا بأسلا ضد قوات مورا و أودينو ، وانسحبت في مساء اليوم الثاني دون أن تترك وراءها الا اثني عشر مدفعا مخربا . وتعرف هذه المعركة أيضا باسم معركة هولابرون (شمال فيينا) .

الذي كان ظاهراً أن أكثرهم يربط في القرية نفسها وعلى السفح الآخر من الراجية • وعلى يسار القرية يلح الناظر من خلال الدخان شيئاً لا بد أن يكون سرية مدفعية ، ولكن المرء لا يستطيع أن يميزها بالعين المجردة تمييزاً واضحاً • وكان الجنب اليمين من قواتنا قد تركز على تلة عالية وعرة تتحكم بالموقع الفرنسي • كان مشاتنا يملأون التلة ، وكان الفرسان يربطون في آخرها • وكان ألين منحدر انما يقع في الوسط ، وهو المكان الذي استقرت فيه سرية توشين ، والذي منه نظر الامير آندره الى أرض الساحة مدققاً ، والذي يؤدي رأساً الى جدول الماء الفاصل بيننا وبين شونجراين • وفي الشمال كان جندنا يركنون الى غابة تتصاعد منها نيران سرية مدفيعتنا التي كان أفرادها يحطبون • وكانت الخطوط الفرنسية تضفو على خطوطنا ، فكان واضحاً أن الفرنسيين يستطيعون أن يطوقونا بسهولة • وكان وراء مواقعنا واد وعر عميق يصعب على رجال المدفعية والفرسان أن يسلكوه اذا هم أرادوا أن ينكفئوا منسحبين •

اتكأ الامير آندره بكوعه على أحد المدافع واستل دفتره وأخذ يرسم فيه ترتيب الجند • وقد سجل بالقلم الرصاص في موضعين من مواضع هذه الخريطة ملاحظات ينوي أن يكلم فيها باجراتيون • فهو يريد أولاً أن يجمع المدفعية كلها في الوسط ، وهو يريد ثانياً أن يرد الفرسان الى الخلف في الجهة الاخرى من الوادي • لقد اعتاد الامير آندره بسبب مرافقته المستمرة للقائد العام ، ولأنه مكلف

بتأريخ المعارك ، أن يعنى خاصة بمتابعة التحركات الكبرى والتوجيهات العامة ، فكان طبيعيا أن لا ينظر في هذه المعركة الا الى الخطوط العريضة من العمليات المقبلة . فكان لا يعرض لفكره الا عدد من الاحتمالات الهامة . كان يقول لنفسه : « اذا هجم العدو على الجنب الايمن كان ينبغي لرماة القنابل (كتيبة كييف) ولحملة البنادق (كتيبة بولوديا) ، أن يصدوا في أماكنهم الى حين وصول القوى الاحتياطية من الوسط . وفي هذه الحالة يستطيع الفرسان مهاجمة جنب العدو فيدحروه . أما اذا وقع الهجوم على الوسط ، وضعنا سرية مدفعية الوسط على هذه الاكمة ، وسحبنا الجنب الايسر محتمين بقصف المدفعية ، وتقهقرونا الى الوادي شيئا فشيئا .

وكان منذ أن صار في السرية بقرب المدفع لا ينفك يسمع — كما يحدث دائما — أصوات الضباط يتكلمون في الخصى ، ولكنه كان لا يفهم كلمة مما يقولون . وانه كذلك اذ سمع صوتا له نبرة تخطف الانتباه وتؤثر في النفس ، فأصاخ بسمعه رغم ارادته .

كان ذلك الصوت العذب المؤثر الذي خيّل اليه أنه يعرفه :

— لا يا عزيزي . لو كان ممكنا أن يعرف المرء ما بعد الموت ، لما خشي أحد أن يموت . ذلك هو الامر يا عزيزي .

فقاطعه صوت أفتى يقول :

— لا مهرب للانسان من الموت، سواء أكان يخشاه أم كان لا يخشاه .

وقال صوت ثالث أفعل ذكورة ، قال مقلعا الصوتين الاولين :

— ولكن الانسان يخاف دائما • طوبى للعلماء ! انكم يا رجال المدفعية ، اذا كنتم على هذا القدر الكبير من العلم ، فلا تكم تستطيعون دائما أن تحملوا ما به تشربون كأسا • وتأكلون لقمة •

فأخذ صاحب الصوت الفحل يضحك ، وكان ظاهرا أنه ضابط مشاة •

واستأنف الصوت الاول كلامه فقال :

— ان المرء يخاف الموت دائما • ومن المجهول انما هو يخاف • ذلك هو الامر • مهما يقل الناس ان الروح تصعد الى السماء ، فنحن نعلم أن ليس ثمة سماء بل فضاء لا أكثر •

فقاطع الصوت الفحل ضابط المدفعية مرة أخرى بقوله :

— هيّا يا توشين ! ألا سقيتنا شيئا من خمرتك !

قال الامير آندره لنفسه : « آ ... هذا هو الكابتن الذي كان خالعا جزمته عند قيم الكاتين » ، وقد سره أن يتعرف هذا الصوت الحلو الذي كان يتفلسف •

قال توشين :

— أما الخمرة فلكم منها ما تشاءون ، وأما فهم الحياة الآخرة ...

ولم يكمل توشين جملته • ذلك أن أزيئا قد ملا الفضاء في تلك

اللحظة ، وما انفك يقترب ويقترب ، وما انفك يسرع ويسرع ، وما انفك يتضح ويتضح ، ثم اذا بالقذيفة تغوص في الارض حائقة على مقربة من الخص ، واذا بالتراب والطين يتبعثر هنا وهناك في كل جهة من الجهات • وبدا كأن الارض تن من هذه الضربة الرهيبة أنينا •

وفي تلك اللحظة نفسها خرج توشين القصير من الخص أول الخارجين، كازا بأسنانه على الغليون في طرف فمه • وكان وجهه الجميل الذكي شاحبا بعض الشحوب • ووراءه ظهر صاحب الصوت الفحل ، وهو ضابط من سلاح المشاة تلوح في حركته اماراة الجسارة والبسالة ، وقد ركض يلحق بسريره وهو يعقد أزراره بسرعة •

الفصل السابع عشر

وقف الامير آندره بقرب سريته راكبا حصانه ، ونظر الى دخان المدفع الذي انطلقت منه القذيفة • كانت عيناه لا تعرفان كيف تثبتان على موضع من ذلك الفضاء الواسع • ولكنه رأى أن كتل الفرنسيين التي كانت ساكنة جامدة الى ذلك الحين قد أخذت تتحرك ، ولاحظ أن في الشمال سرية مدفعية فعلا ، والدخان لما يتبدد من فوقها بعد • وكان اثنان من الفرنسيين ، هما في أغلب الظن مرافقان ، قد أخذوا يصعدان الراية • واستطاع الامير آندره أن يميز في سفح الراية رتلا صغيرا كان يتقدم ، فلا شك أن هذا الرتل كان يتقدم لتعزيز الخطوط الامامية • وما كاد يتبدد دخان القذيفة الاولى حتى علا دخان آخر أعقبه انفجار جديد • لقد بدأت المعركة •

استدار الامير آندره بحصانه ، وقفل راجعا على طريق جرونت ، يعدو بالحصان قماصا ، ليلقى الامير باجراتيون • فكان يسمع قصف المدافع يشتد دويه وراءه مزيدا من الاشتداد لحظة بعد لحظة ، وكان واضحا أن جنودنا قد أخذوا يردون • وانطلق أزيز رصاص البنادق تحت ، في الموضع الذي مر منه المبعوثون •

كان لوماروا^(١) قد وصل الى مورا منذ قليل ، حاملا اليه رسالة نابوليون الرهيبة ، فشعر مورا بخزي وعار ، وأراد أن يصلح غلظته ، فأسرع يصدر أوامره بمهاجمة وسطنا وتطويق جنبينا آملا أن يفرغ من سحق مفرزتنا المسكينة قبل حلول المساء ووصول الامبراطور .

حدث الامير آندره نفسه بقوله : « بدأت ! هذه هي المعركة » ، وشعر بالدم يزدحم في قلبه بمزيد من السرعة ، وقال يسأل نفسه : « ترى أين وكيف تعرض لي فرصة كفرصة تولون »^(٢) .

وحين مرَّ أمام السرايا التي كانت قبل ربع ساعة تأكل حساءها وتشرب الفودكا ، رأى في كل مكان تلك الحركات السريعة نفسها التي يقوم بها الجنود حين يشكلون صفوفهم ويتناولون بندقياتهم ، ورأى في جميع الوجوه ذلك الاهتياج الذي يحسه هو نفسه . وكان وجه كل جندي وكل ضابط كأنه يقول : « بدأ الامر . هذه هي المعركة . شيء رهيب ومضحك في آن واحد » .

وقبل ان يصل الامير آندره الى أشغال البناء ، شاهد في غسق تلك الليلة الكالحة من ليالي الخريف كوكبة من الفرسان مقبلة عليه . وكان الفارس الذي يتقدمها ، وهو يضع على كتفيه دثارا فضفاضا ،

(١) جنرال فرنسي كان مرافق نابوليون .

(٢) لقد بدا مجد بوناپرت سنة ١٧٩٣ ، حين جلى اثناء محاصرة تولون وهو ضابط مدفعية . ان الامير آندره يحلم لنفسه هنا بفرصة كالفرصة التي سنحت لنابوليون في مدينة تولون .

ويعتمر بكسكيتة من لبّاد يزينا فراء استراكان ، كان هذا الفارس
يركب حصانا ابيض . انه الامير باجراتيون .

وقف الامير آندره ينتظره ، ووقف باجراتيون أيضا ، فلما عرفه
باجراتيون حياه بحركة من رأسه ، وأخذ يصغي الى ما يذكره له الامير
آندره ، مستمرا في النظر الى ساحة القتال وملاحظتها .

وكان هذا الخاطر : « بدأ الامر . هذه هي المعركة ! » كان هذا
الخطر يقرأ حتى في وجه الامير باجراتيون ، وهو وجه خشن المنظر
ملوَّح اللون ، وكانت عيناه أشبه بالمغمضتين حتى لكأنهما عينان ألم
بهما نعاس . تفرس الامير آندره في هذا الوجه الجامد مستظعلا
مستغربا قلقلًا ، وتساءل هل يفكر هذا الرجل في شيء وهل يحس
بشيء في هذه اللحظة ، وما عسى يكون ما يفكر فيه وما يحس به .
كان الامير آندره يتساءل وهو ينظر الى وجه الامير باجراتيون :
« هل وراء هذا الوجه المغلق شيء ؟ » . وحس الامير باجراتيون
رأسه معبِّرا عن موافقته على أقوال الامير آندره ، وقال : « حسن » ،
كأن ما يجري وكل ما يذكر له هو بعينه ما كان ينتظره ويتوقعه .
وكان الامير آندره يلهث من سرعة جريه ، وكان يتكلم عجلا . ولا
كذلك الامير باجراتيون ، فكان ينطق كل كلمة من كلماته بطيئة بلهجتها
الشرقية ، كأنما ليدل على انه لا داعي الى العجلة . ولكنه استحث
حصانه فأخذ الحصان خيبا ، ليصل الى سرية توشين . وانضم الامير
آندره الى خفره الذي كان يتألف من : ضابط ينتمي الى حاشية صاحب

الجلالة ؛ ومرافق جيركوف الشخصي ؛ وجيركوف ومرافقه ، وضابط من هيئة الاركان كان يمتطي صهوة حصان جميل مهجئن ، وموظف مدني ، ومستمع^(١) كان قد طلب أن يؤذن له بمصاحبة الحملة من باب حب الاطلاع . وكان هذا المستمع ، وهو رجل بدين ممتليء الوجه ، ينظر الى ما حوله مبتسما ابتسامة فرح ساذج ، متنظطا على حصانه . كان غريب المظهر بشملته وسرج فرسه في وسط الفرسان والقوزاق والضباط المرافقين .

قال جيركوف للامير آندره بولكونسكي وهو يشير الى المستمع:

— يريد هذا السيد أن يرى المعركة ، ولكنه يعاني من مغص في معدته منذ الآن .

فَعَقَّبَ المستمع وهو يتنسم ابتسامة مشرقة ساذجة ، مأكرة في آن واحد ، كأنما أرض غروره ان يمازحه جيركوف وكان يحاول عامدا ان يبدو اغبي مما هو غبي في الواقع :

— هيئا ! كفى !

قال ضابط الاركان العامة وقد تذكر ان لقب الامير يخاطب به الامير في اللغة الفرنسية بطريقة خاصة ، ولكنه لم يفلح في تذكر تلك الطريقة الخاصة :

(١) موظف في المحكمة العسكرية .

— شيء مضحك سيدي أمير •

وكانوا في تلك اللحظة قد اقتربوا جميعا من سرية توشين ، فسقطت
أمامهم قذيفة •

قال المستمع سائلا وهو يتسم بسداجة :

— ما هذا الذي سقط ؟

فأجابه جيركوف :

— بسكويت فرنسي •

فقال المستمع :

— أهذا هو اذن ما يرمونه ؟ يا للهول !

وتهللت أساريه لذة • وما كاد ينهي جملته حتى سمع دوي رهيب
جديد انتهى فجأة بسقوط في شيء رخو ، فاذا بالقوزاقي الذي كان
وراء المستمع قليلا ، على يمينه ، اذا به يصرع هو وحصانه • فانبطح
جيركوف والضابط على سرجيهما ، وأدارا حصانيهما راجعين • ووقف
المستمع أمام القوزاقي يتفرس فيه مستطلعا متعجبا ، وكان القوزاقي
قد مات ، وكان حصانه ما يزال يتخبط •

التفت الامير باجراتيون مغضنا عينيه ، فلما رأى سبب هذه البلبلة ،
أشاح وجهه غير مكترث ، وكأن هيئته تقول : « هل تستحق هذه
الترهات أن يشغل بها المرء نفسه ؟ » • واستوقف حصانه بحركة

لا يجيدها الا فارس مغوار ، ومال قليلا ليسل سيفه الذي اشتبك
بدثاره • انه سيف قديم يختلف عن الاسياف التي كانت تحمل في ذلك
العهد • فتذكر الامير آندره انه كان يحكى ان سوفوروف قد
أهدى سيفه الى باجراتيون في ايطاليا ، فسرّه كثيرا ان توافيه هذه
الذكرى في تلك اللحظة •

ودنوا من سرية المدفعية التي كان الامير آندره قد وقف عندها
ليتأمل ساحة المعركة •

قال الامير باجراتيون يسأل الحرقاق الذي كان يحرس صناديق
الذخيرة :

— من هو قائد السرية ؟

ولقد ألقى الامير باجراتيون هذا السؤال : « من هو قائد السرية »
ولكنه في الواقع انما كان يريد ان يقول : « أترأك خائفا هنا ؟ » •
وقد فهم الحرقاق سؤاله على هذا الوجه فعلا ، وهو فتى قوي الجسم
أحمر اللون ، أنمش الوجه • قال صائحا بصوت مجلجل وهو يقف
الوقفة العسكرية :

— هو الكابتن توشين يا صاحب السعادة •

فقال باجراتيون ذاهل الهيئة غارقا في أفكاره وهو يمر أمام قوادم
المدافع متجها صوب آخر مدفع :

— طيب • طيب •

وفيما كان يقترب من المدفع الاخير • اذا بطلقة تخرج منه ، فتصم آذان باجراتيون وحاشيته ، ورئي الرماة من خلال الدخان الذي لفتح المدفع يسكون المدفع ، ويدرجونه جاهدين ، ويردونه الى مكانه • وهب السادن الاول ، الذي كان مباعدا ما بين ساقيه ، ممسكا طمار المدفع بيديه ، هب يثب الى الجهة الاخرى من العجلة ؛ وبادر السادن الثاني الى لقم فوهة المدفع بقذيفة اخرى مرتعش اليده وانبرى رجل قصير القامة ، محدودب الظهر قليلا ، يركض متعشرا بركيزة المدفع ، دون ان يلاحظ الجنرال • انه الضابط توشين ، طفق يلاحظ ويراقب ويرصد ، واضعا يده الصغيرة امام عينيه ستارة • وصرخ يقول بصوت نحيل يحاول ان يثبت فيه قوة وشدة وهذا ما لا يتفق وشخصه :

— أضف خطين آخرين ، فتصيب الهدف •

وأردف قائلا :

— المدفع الثاني ! أطلق النار ! دمرهم يا مدفديث !

فنادى باجراتيون الضابط ، فتقدم توشين منه رافعا الى حافة قبعته ثلاث اصابع ، بحركة وجلى خرقاء ليست هي الحركة العسكرية التي يحيي بها العسكريون قادتهم ، وانما هي الحركة التي يبارك بها رجال الدين رعياهم •

كانت مهمة سرية المدفعية التي يقودها توشين هي أن تغطي الوادي بالنيران ، ولكن توشين كان يأمر باطلاق القذائف على قرية شونجرا بن التي يراها الناظر أمامه ، والتي كانت تزحف منها جموع غفيرة من الفرنسيين .

لم يكن أحد قد أصدر الى توشين أية أوامر ، لا فيما يتعلق بالهدف الذي يجب أن يصبَّ اليه ، ولا فيما يتعلق بنوع القذائف . ولكنه استشار الرقيب زاخارتشكو ، وكان يقدره قدرا عظيما ، فاستقر رأيه أخيرا على أن من الخير ان يحرق القرية .

قال باجراتيون بعد أن سمع ما ذكره له الضابط : «حسن» ؛ وجعل يسرَّح طرفه ملاحظا ساحة المعركة التي يطل عليها اطلالا تاما فيراها كلها ، فكان كأنه يهيء خطة من الخطط . وكانت الجهة اليمنى هي التي تقدم فيها الفرنسيون اكبر تقدم . وفي اسفل الراية التي كان يحتلها فوج كليف ، أي في الوادي الذي يجري فيه النهر ، كان اطلاق النار يشتد اشتدادا مسعورا ، وكان أزيز الرصاص يقبض القلب ويثقل على الصدر . وهذا ضابط الحاشية يشير لبجراتيون الى رتل فرنسي قد أخذ يطوِّق أقصى جناحنا الايمن وراء الفرسان . وكانت على اليسار غابة قرية تسد الافق . فأصدر باجراتيون امره الى كتيبتين من الوسط بأن يهبوا الى تعزيز الجناح الايمن . فسمح ضابط الحاشية لنفسه بأن ينبَّه باجراتيون الى ان انسحاب هاتين الكتيبتين سيجعل سرية المدفعية بلا غطاء . فالتفت باجراتيون نحوه ،

ونظر اليه بعينه الكايتين دون ان يجيبه • وبدأ للامير آندره أن رأى ضابط الحاشية رأي سديد ، وان ملاحظته صائبة لا يمكن الاعتراض عليها • ولكن ضابطا مرافقا قد جاء في تلك اللحظة مسرعا ليقول ان كولونيل الفوج الذي يقاتل في الوادي يبلغ الامير باجراتيون ان كتلا ضخمة من الفرنسيين تتقدم في الوادي ، وان الفوج قد دبّت فيه الفوضى ، وان عليه ان ينسحب متجها الى حيث يوجد قاذفو القنابل اليدوية من فوج كييف • فهزّ باجراتيون رأسه موافقا على هذا الرأي مؤيدا له ، وسار بخطى موزونة الى اليمين ، فأرسل المرافق الى الفرسان يأمرهم بأن يهاجموا الفرنسيين • ولكن المرافق رجع بعد نصف ساعة يقول ان قائد الفرسان قد استقبلته نيران شديدة ، وفقد كثيرا من الرجال بغير جدوى ، فانسحب من الضفة الاخرى للوادي ، وأسرع ينشر في الغابة مناوشين من القناصة •

قال باجراتيون :

— طيب !

ولحظة غادر باجراتيون سرية المدفعية ، انطلق أزيز الرصاص كثيفا على اليسار في الغابة أيضا ، ولما كان الجنب الايسر أبعد من ان يستطيع الوصول اليه بنفسه في الوقت المناسب ، فقد ارسل جيركوف ليلبغ الجنرال الذي يقود الجنب الايسر ، وهو ذلك الجنرال نفسه الذي قدّم فوجه الى كوتوزوف في براوانا ، ان عليه ان ينسحب الى ما وراء الوادي على جناح السرعة ، لان الجنب الايمن لن يكون

في أغلب الظن قادرا على أن يكبح العدو زمنا طويلا • أما الكتيبة التي كانت تحمي سرية توشين فقد نسيت ولم تخطر بالبال • وكان الامير آندره يصغي بانتباه شديد الى محادثات الامير باجراتيون مع القادة ، والى الاوامر التي كان يصدرها ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ انه ليس هناك حقا أي أمر صدر وان الامير باجراتيون لا يزيد على أن يحاول ان يوهم بأن كل ما كان يتم لضرورة او بمصادفة أو بمبادرة من قادة القطعات انما كان يجري وفقا لنواياه على الاقل ، ان لم يكن بأمر صادر عنه • ولاحظ الامير آندره ان باجراتيون ، بفضل ما أظهره من حنكة وحسن حيلة ، كان بوجوده وحده يحصل على نتائج حسنة ، رغم أن الاحداث تجري على ما تشاء لها المصادفة ، وليست رهنا بارادة القائد أبدا • كان القادة الذين يجيئون الى باجراتيون منقلبي السحنة ، يرجعون من عنده هادئين ، وكان الجنود والضباط اذا رأوه حيثوه فرحين هاتفين ، وسرّهم أن يظهرها شجاعتهم • وجسارتهم أكبر السرور •

الفصل الثامن عشر

بعد أن وصل الامير باجراتيون وخفره الى أعلى مكان من جنبنا الایمن ، أخذوا يهبطون المنحدر الذي كان يدوي في أسفله أزيز الرصاص ، وكان الدخان يحجب فيه الرؤية ، فلا يبصر الناظر شيئا فكانوا كلما تقدموا في الوادي مزيدا من التقدم ضعفت رؤيتهم مزيدا من الضعف ، ولكن ازداد احساسهم بأنهم يقتربون من ساحة القتال الحقيقية ويشارفون على بلوغها • ولم يلبثوا أن أصبحوا يلتقون بجرحى • فهذا جريح حاسر الرأس نازف الدم يسنده جنديان بأذرعهما • انه يحترج ويصق • ولا بد أن الرصاصة قد نفذت في فمه وبلغت حلقه • وهذا جريح آخر يمشي وحيدا بغير بندقية ويئن أنينا عاليا ، ويحرك ذراعه متألما من جرح ما يزال طريا كل الطراوة ، والدم يسيل من ذراعه على معطفه كأنه ينسكب انسكابا من زجاجة • ان وجه هذا الجريح يعبر عن الخوف أكثر مما يعبر عن الألم • لقد جرح منذ هنيهة •

اجتاز باجراتيون وصحبه الطريق وأخذوا يهبطون هبوطا عموديا ، فرأوا عددا من الرجال متمددین على الارض قتلى ، والتقوا بجماعة من الجنود كان بينهم رجال غير جرحى • كان الجنود يصعدون الراية

لائين مرهقين ، ويتكلمون بصوت عال ويحركون أيديهم بإشارات كثيرة دون أن يلقوا الى الجنرال بالا • وبعد ذلك رأى باجراتيون وصحبه في الدخان صفوفًا من المعاطف الرمادية منذ ذلك الوقت ، وراه ضابط من الضباط فاذا بالضابط يركض صارخا وراء جنود كانوا يفرون جمهرة كبيرة ، ويأمرهم بأن يرجعوا •

اقترب باجراتيون من الصفوف التي كانت تنطلق منها النيران مفرقة ، فيحول أريز رصاصها دون سماع الاصوات والاوامر • كان الهواء مشبعا بالدخان • وكانت وجوه الجنود شديدة الاحتياج قد صبغها البارود بالسواد • ان بعض الجنود يدخلون في بنادقهم عصيا ، وبعضهم يسكبون فيها بارودا ، وبعضهم يتناولون من أكياسهم ذخيرة ، وبعضهم يرمون • ولكن من يرمون ؟ لا يستطيع أحد أن يرى الهدف الذي يرمونه وسط ذلك الدخان الذي لم تهب ريح فتبدده • وكثيرا ما يسمع المرء دندنة وصفيرا لهما في السمع وقع ممتع •

قال الامير آندره مسائلا نفسه وهو يقترب من هذه الجمهرة من الجنود : « ما هذا ؟ لا يمكن أن يكونوا قد انتشروا حزاما مهاجما فانهم متجمعون • و لا يمكن أن يكونوا مربعا ، فما هذا ترتيبهم • » •

اتجه قائد الفوج بحصانه نحو الامير باجراتيون (ان قائد الفوج هذا شيخ قصير نحيل ، هزيل المظهر ، لطيف الابتسامة ، تضيي أجفانه ، المغمضة نصف اغماض ، تضيي على هيئته حلاوة وعذوبة) ، واستقبله

كما يستقبل رب الدار ضيفا مرموقا ، وأبلغه أن سلاح الفرسان الفرنسي قد شن هجوما على فوجه ، وأن هذا الهجوم أمكن صده ، ولكن الفوج فقد أكثر من نصف رجاله . قال ان الهجوم قد أمكن صده مستعملا ذلك التعبير العسكري لوصف ما جرى في فوجه . ولكن الواقع هو أنه كان يجهل ماذا حدث ، أثناء نصف الساعة ذاك ، للجنود الذين عهد اليه بهم ، وكان لا يمكنه أن يقول على وجه الدقة أصد الهجوم أم تفكك فوجه . كل ما يعلمه هو أن قذائف وقنابل يدوية قد أخذت في أول الامر تنهمر انهمارا غزيرا من جميع الجهات فتحصد الرجال ، وأن أحدا قال بعد ذلك : « الفرسان ! » وأن رجالنا أخذوا يطلقون النيران ، وظلوا يطلقون ، ولكنهم أصبحوا لا يطلقون على الفرسان بل على المشاة الفرنسيين الذين ظهروا في الوادي وأخذوا يردون .

حتى الامير باجراتيون رأسه كأنما ليقول ان هذا بعينه هو ما كان يرغب فيه ويتنبأ به . واتجه بالكلام الى المرافق فأمره بأن يجيء من الراية بكتيبي فوج القناصة السادس ، وهما الكتيبتان اللتان مر بهما منذ قليل . وما كان أشد دهشة الامير آندره في تلك اللحظة ، حين رأى ذلك التغير الكبير المفاجيء الذي طرأ على تعبير وجه الامير باجراتيون . ان وجه القائد يعبر الآن عن ذلك العزم الراسخ السعيد الذي يشعر به انسان ظل يهيم أن يلقي نفسه في الماء في يوم قاتظ ، ثم اذا هو يحزم أمره فيشب الى الماء فجأة . زالت تلك النظرة الكايبة النعسانة ، واختفت تلك الهيئة التي تصطنع العمق اصطناعا . ان عينيه المدورتين الثابتتين

كعيني نسر تنظران الآن الى الامام بحماسة شديدة يمازجها شيء من الازدراء ، دون أن تتلبثا على شيء ، وان تكن حركاته قد ظلت بطيئة موزونة •

تضرع الكولونيل الى الامير باجراتيون أن ينسحب من هذا المكان لانه مكان شديد الخطر ، قائلا له وهو يتفحص نظرة التأيد والتحييد في عيني ضابط الحاشية الذي أشاح وجهه متحاشيا أن يلتقي بصره ببصر باجراتيون : « رحماك يا صاحب السعادة ، ناشدتك الله ! » وأخذ يلفت انتباه باجراتيون الى الرصاص الذي لا ينفك يثر حولهما ويدوي ويصفر ، قائلا له : « انظر ! أرايت ؟ » • وكان يتكلم بلهجة الرجاء واللوم تلك التي يتكلم بها نجار البناء حين يقول لرب العمل اذا هو أمسك البلطة : « ليس هذا شأنك • نحن قد اعتدنا هذا العمل وألفناه ، أما أنت فلن تجني منه الا انتفاخات في يدك » ، فكان هذا الرصاص كان لا يمكن أن يقتله هو ، وكانت عيناه المغمضتان نصف اغماض تضيء على كلماته مزيذا من نبرة الصدق وقوة الحجّة • وضم ضابط الحاشية ضراعاته الى ضراعات الكولونيل • ولكن الامير باجراتيون لم يجبهما • وكان كل ما فعله هو أن أمر بوقف اطلاق النار ليتاح للكتيبتين اللتين ستصلان أن ترابطا أمكنتهما • وفيما كان يتكلم ، اذا بريح تهب فتطرد ستارة الدخان التي كانت تحجب الوادي ، كأن يدا لا ترى قد شدت هذه الستارة من يمين الى شمال ، واذا الراية المقابلة قد غطتها جموع الفرنسيين سائرين ، واذا الابصار كلها تحديق ، على غير ارادة ، الى

هذا الرتل الفرنسي يتقدم متموجا على ما تشاء له تضاريس الارض وتعرجات المسالك ، حتى لقد أصبحت طاقيات الجنود ، ذات الريش ، ترى منذ ذلك الوقت ، بل صار يمكن التمييز بين الضباط والجنود ، والراية تتموج على طول السارية •

قال واحد من حاشية باجراتيون :

— انهم يحسنون المشي !

ووصلت طليعة الرتل الى أول الوادي ، وكان ينبغي أن يحدث الصدام على السطح الذي نحن فيه •

أسرعت بقايا فوجنا تتجمع منسحبة الى اليمين • ووراءها كانت تتقدم كتيتا الفوج السادس منظمة الصفوف ، طاردة أمامها المتخلفين • وقبل أن تصلا الى مستوى باجراتيون ، أخذت تسمع خطاهما الثقيلة الموزونة تضرب الارض بأقدام هذه الكتلة الكبيرة كلها من الرجال • وكان يسير في جنبهما الايسر قائد سرية اقترب من باجراتيون أكثر من كل من عداه ، وكان رجلا جميل الطلعة مدور الوجه غبي الهيئة ، سعيد المنظر ، هو ذلك الرجل نفسه الذي سبق أن رأيناه يندفع خارجا من الخص • كان واضحا أنه في تلك اللحظة لا يفكر في شيء الا أن يراه القائد في هذا الاستعراض فيعجب به ويرى فيه فتى باسلا مقداما • انه عسكري بالمهنة ، فهو يمتاز على غيره بالهيئة التي يمتاز بها أمثاله، فكلان يقدم ساقيه العضلتين بخطو خفيف كأنه يسبح سباحة ، ثم يعود الى

الاتصاب بدون أي جهد يبذله ، فكان بهذه المشية الخفيفة يتميز عن سائر الجنود الذين يسرون الى جانبه بخطى موزونة لكنها ثقيلة • وكان متمنطقا بسيف غير ذي غمد ، سيف رقيق ضيق مقوس لا يشبه أن يكون سلاحا ، وكان ينظر تارة الى القائد وتارة الى خلف ، دون أن يختل وزن خطاه ، وكان يستدير بكل جسمه القوي مرنا أشد المرونة • لكأن قوى نفسه كله كانت متجهة الى اتقان السير في الموكب ، وقد أحس بأنه مفلح في ذلك ، فكان يشعر بسعادة كبيرة • وكان كأنه يردد في داخله عند كل خطوتين قوله : «شمال ••• شمال ••• شمال •••» • وعلى هذا الوزن نفسه ، كان هذا السور من الجند ، الذين تختلف وجوههم شدة وصرامة ، وتثقل على ظهورهم أكياسهم وبندياتهم ، يتقدم في سيره وكأنه كل واحد من هذه المئات من الرجال يردد في ذهنه عند كل خطوتين قوله : «شمال ••• شمال ••• شمال •••» • وهذا ميجر سمين لاهث ، ينقطع عن السير الموزون ، ويدور حول دغل في طريقه • وهذا متخلف يدرك سريره على ظهر حصانه خبيا • ثم اذا بقذيفة تشق الهواء ، وتمر فوق رأس الامير باجراتيون ورءوس حاشيته ، وتسقط فوق الرتل دون أن يختل وزن الخطى مع ذلك : « شمال ••• شمال ••• » • فصاح الصوت الجريء القوي ، صوت قائد السرية ، الكابتن الوسيم ، صاح مناديا : « نظموا صفوفكم » • فاذا بالجنود يشنون قوسا حول الموضع الذي أصابته القذيفة • ورئي واحد من السائرين في الجنب ، وهو شيخ برتبة صف ضابط ، يزدان صدره

بوسام ،رئي يتلبث قليلا بقرب الموتى ، ثم يلحق بصفه ، ويتواكب
 ليساير المشي الموزون في ايقاعه، ويلقي على ما حوله نظرة تستقر حنقا •
 وفي وسط ذلك الصمت الذي يلفه التهديد بالخطر ، وفي وسط تلك
 الضجة الرتبية التي يحدثها وقع الخطى الموزونة قارعة الارض في آن
 واحد معا ، كان يبدو للمرء أنه يسمع : « شمال ••• شمال •••
 شمال ••• » •

قال الامير باجراتيون :

— هلموا يا أولادي ! كونوا شجعانا :

فاذا بصيحة واحدة تسري في الصفوف كلها قائلة : « سوف نبذل
 كل ما في طاقتنا يا صاحب السعادة » • وكان أحد الجنود يسير في
 اليسار مقطب الوجه غابس الاسارير ، فالتفت الى باجراتيون صارخا
 كأنما ليقول : « نعرف هذا » • ومر جندي آخر صاح دون أن يلتفت ،
 خشية أن يصيبه زهول ، وكان فاغر الفم •

قال باجراتيون بصوت قوي :

— بمعونة الله •

والتفت لحظة الى الجند ، وبخطو أخرق معهود في الفرسان ، سار
 في الطريق الوعرة جاهدا ، مرجحا ذراعيه قليلا •

شعر الامير آندره بقوة لا سبيل الى مغالبتها تجره الى امام ،
وأحس بسعادة عظيمة^(١) .

وكان الفرنسيون على أتم الاستعداد منذ ذلك الحين . وكان الامير
آندره الذي يسير الى جانب باجراتيون يرى حمالات السلاح ،
والكتفيات الحمراء ، وحتى الوجوه ، رؤية واضحة (وقد أبصر ضابطا
عجوزا يهبط المنحدر في غناء ، وقد تقوست ساقاه الملفوفتان بغمدين
من جلد ، ومضى يحتمي بالادغال) . وكان الامير باجراتيون لا يصدر
أوامر أخرى ، ولا يزال يتقدم الصفوف صامتا . وفجأة قرقت بين
الفرنسيين طلقة رصاص ، ثم طلقة ثانية فثالثة ... وأخذ الرصاص
يهدر في جميع الصفوف المنتشرة التي يتألف منها جند العدو والتي غلفها
الدخان . فسقط عدد من رجالنا بينهم الضابط المدور الوجه الذي
كان يسير بكثير من الاختيال والاجتهاد . ولكن باجراتيون التفت منذ
أن دوت أول طلقة ، وصاح يقول « هورررا » . فاذا بنداء « هورررا »
هذا يسري في صفوفنا كلها ، واذا برجالنا الذين امتلأوا نشاطا
واشتعلت نفوسهم حماسة ، يهبطون المنحدر فوضى ، ويهجمون على
الفرنسيين يطاردونهم ويفرقون صفوفهم .

(١) هذا هو الهجوم الذي قال عنه تير : « كان في سلوك الروس
بسالة . لقد رثيت كتلتان من المشاة تسير كل منها الى الاخرى
بحزم وعزم ، ولا تنثنى أية منهما قبل المواجهة ، وذلك امر نادر
في الحرب » . وعن هذا الهجوم قال نابوليون في سانت هيلانه :
« اظهر عدد من الكتائب الروسية شجاعة » (حاشية المؤلف) .

الفصل التاسع عشر

استطاع الهجوم الذي قام به قناصة الفوج السادس أن يكفل انسحاب الجناح الايمن • وفي الوسط ، استطاع عمل سرية المدفعية المنسية التي يقودها توشين ، والتي ظفرت باحراق شونجرا بن أن يوقف تقدم الفرنسيين • فقد أخذ الفرنسيون يطفئون النيران التي كانت الريح تزيد انتشارها ، فأتاحوا للروس ما هم في حاجة اليه من وقت للانسحاب • وقد تم انسحاب الوسط خلال الوادي بسرعة وصخب • ومع ذلك لم يخطط الجند صفوفهم وهم ينسحبون • ولكن الجنب الايسر الذي كان يتألف من مشاة آزوف وبولوديا ومن فوج فرسان بافلوجراد ، قد هاجمته القوات الفرنسية المتفوقة بقيادة لان ، واستطاعت أن تحدد به ، فكان في فوضى شديدة فرعان ما بادر باجراتيون الى ارسال جيركوف يبلغ الجنرال الذي يقود ذلك الفوج ضرورة الانسحاب فورا •

• وضع جيركوف يده على خوذته محييا مطيعا ، وهمز حصانه ومضى • لكنه ما ان ترك باجراتيون حتى خاتته قواه ، اذ اعتراه خوف لا سبيل الى مغالته ، فلم يستطع أن يذهب الى حيث كان الخطر •

لقد مضى متجها الى قوات الجنب الايسر ، ولكنه بدلا من أن يتقدم الى أمام ، حيث كان الرصاص يثر أزيزا شديدا ، أخذ يبحث عن الجنرال والقادة في أمكنة لا يمكن أن يجدهم فيها ، فلم يقم اذن بالمهمة التي عهد بها اليه ، وهي ابلاغ الجنرال أمر باجراتيون بضرورة الانسحاب فورا •

وكانت قيادة الجنب تابعة ، بحكم القدم ، للجنرال قائد الفوج الذي قدّم الى كوتوزوف بقرب براوناو ، والذي كان يعمل فيه دولوخوف جنديا بسيطا • ولكن قيادة أقصى اليسار كانت تابعة للكلونيل قائد فوج فرسان بافلوجراد الذي يعمل فيه روستوف • وقد أدى هذا الى سوء تفاهم • كان هذان القائدان متباغضين يحقد كل منهما على الآخر ؛ ففيما كان القتال قد بدأ في الجنب الايمن منذ مدة طويلة ، وكان الفرنسيون قد انتقلوا الى الهجوم ، اندفع هذان القائدان في مباحثات لم يكن لهما من هدف الا التراشق بالالهانات • لم يكن أحد في الفوجين ، من الجندي الى الجنرال ، يتوقع نشوب معركة ، وكان الجميع منصرفين انصرافا هادئا الى أعمال من أعمال السلم : ففي سلاح الفرسان يطعم الجند خيولهم ، وفي سلاح المشاة يحملون حطبا من الغابة •

قال كولونيل الفرسان ، وهو ألماني ، قال يخاطب مرافق الجنرال الذي لحق به ، وقد أصطبغ وجهه بحمرة شديدة :

— لأنه أعلى مني رتبة ، يجب عليّ أن أتركه يفعل ما يريد ؟ أنا

لن أضحّي بفرساني • يا نافخ البوق ! أعلن الانسحاب !

ولكن الامر أصبح ملحا يتطلب الاسراع • فان قصف المدافع وأزيز الرصاص يختلطان ويهدران في اليمين والوسط ، والمعاطف الفرنسية التي يرتديها القناصة الفرنسيون بقيادة لان تجتاز سدّ الطاحونة وتنظم صفوفها في هذه الجهة على مسافة غير بعيدة • فمضى جنرال المشاة الى حصانه بخطاه المتواثبة ، وقفز الى ظهره ، واتجه الى فوج بافلوجراد ، فالتقى القائدان ، وحيّا كل منهما صاحبه بكياسة ولباقة وهو يضرر له حقدا وكرها •

قال الجنرال :

— أعود فأقول لك مرة أخرى يا كولونيل انني لا أستطيع ان أدع نصف رجالي في الغابة ، فأرجوك ثم أرجوك أن تحتل الموقع وان تهياً للهجوم •

فأجابه الكولونيل وقد غلت نفسه غضبا :

— وأنا أرجوك ان لا تتدخل فيما لا يعينك • لو كنت فارسا ••

— ان لم أكن فارسا يا كولونيل ، فأنا جنرال روسي • واذا كنت لا تعلم •••

صاح الكولونيل يقاطعه فجأة ، وقد همز حصانه ، وصار وجهه كالأرجوان احمرارا :

— بل أعلم حق العلم يا صاحب السعادة ... تعال معي الى الخط الاول اذا شئت ، فتعرف أن « هذه » الموقع لا تنفع في شيء . انني لا أحب لنصف فوجي أن يباد من أجل مسرتك .

— انك لا تراقب لسانك يا كولونيل . أنا لا ابحث عن مسرة ، ولا أسمح بأن يقال عني هذا ...

واذ أن الكولونيل قد همز حصانه ، فقد قبل الجنرال التحدي ، فنصب جذعه وقطب حاجبيه ، واتجه الرجلان كلاهما الى سرية الخطوط الاولى ، كأن خلافهم انما يجب ان يحلّ هناك تحت وابل الرصاص . وفيما كانا يقتربان من المخافر الامامية ، مرت فوق رأسيهما رصاصات ، فتوقفا دون أن يقولوا شيئا . ولم يعلّمهم فحص المكان شيئا جديدا ، فمن النقطة التي كانوا ينظرون منها قبل ذلك ، كان واضحا ان سلاح الفرسان لا يستطيع أن يقوم بهجوم في هذه الادغال وهذه الوديان ، وأن الفرنسيين كانوا يقدمون بحركة التفاف على الجناح الايسر . وظل الجنرال والكولونيل يرشق كل منهما صاحبه بنظرات قاسية ، عابس الوجه ، مكفهر الاسارير ، حتى لكأنهما ديكان يستعدان للقتال ، فكل واحد منهما ينتظر من الآخر أن تظهر عليه علائم ضعف وجبن ، ولكنه لا يظفر بما يريد . وقد صمدا كلاهما . واذا لم يجد أحد منهما ما يقوله للآخر ، واذا لم يشأ أحد منهما أن يعطي خصمه حجة عليه ، فيقول خصمه في حقه انه كان أول من غادر منطقة النيران ، فقد كان يمكن أن يمكثا في هذا المكان مدة طويلة يمتحنان شجاعتهما ، لولا

أن رميا كثيفا قويا مصحوبا بجلبة شديدة قد اندلع في الغابة على حين فجأة ، وراءهما تقريبا . لقد هجم الفرنسيون على جنود لنا كانوا يجمعون حطبا من الغابة . فأصبح الفرسان منذ هذا الوقت لا يستطيعون أن ينسحبوا مع المشاة ، لأن العدو قد احتل خط انسحابهم في اليسار ، فهم مضطرون أن يهجموا ليشقوا ، لأنفسهم طريقا على هذه الارض الصعبة .

أسرع فرسان الكتيبة التي ينتمي اليها روستوف يمتطون ظهور خيولهم ، ويقفون أمام العدو . وكما حدث في إينس ، لم يبق شيء يفصل بين العدوين ، اللهم الا هذا الخط الرهيب ، خط الغيب المجهول والرعب الرهيب ، الذي يشبه الخط الفاصل بين الاحياء والاموات أكبر الشبه . فكان كل فرد يحس بوجود ذلك الخط ، ويتساءل قلقلًا خائفا هل كتب عليه أن يعبر هذا الخط ، وكيف تراه يعبره .

هرع الكولونيل ، وأخذ يجب عن أسئلة الضباط غاضبا ، وأصدر أمرا غامضا ، كما يفعل رجل مصر على رأيه اصرارا لا يمكن ان ينثني عنه . وسرت اشاعة بين الصفوف تقول ان الهجوم سيبدأ وشيكا ، رغم أن أحدا لم يؤكد ذلك تأكيدا واضحا . ودوى أمر بتنظيم الصفوف ، وقرقت السيوف وهي تستل من أعمادها . ولكن أحدا لمّا يتحرك بعد . وشعر جند الجنب اليسر ، المشاة منهم والفرسان ، ان القادة أنفسهم لا يعرفون كثيرا ما عساهم صانعين ، فسرت عدوى هذا التردد وهذه البلبلة الى الجنود انفسهم .

أحس روستوف بأن اللحظة التي سيشر فيها بلذة الهجوم ،
والتي طالما حدثه عنها رفاقه ، قد أزفت ، فقال لنفسه : « بسرعة ، فليقع
الهجوم بسرعة • » •

وصاح صوت دينيسوف يقول :

— الله معكم يا رجال ، خبيا ، سر !

فتموجت أعراف الخيل في الصف الاول ، وشده جراتشيك الاعنة،
وسار من تلقاء نفسه •

كان روستوف يرى على اليمين صفوف الفرسان الاولى ، وكان
يبصر وراءها خطا قاتما لا يستطيع أن يميزه ، ولكنه يعتقد أنه هو
العدو • ودوَّى أمر يهيب بالجنود أن يزيدوا سرعة خبيهم :

— مزيدا من السرعة !

فأحس روستوف بأن جراتشيك قد اندفع يسرع مزيدا من
الاسراع •

كان روستوف يحزر جميع حركات حصانه ، وكان يشعر بفرح
يشد لحظة بعد لحظة • ورأى أمامه شجرة منعزلة • كانت هذه الشجرة
تتنصب اول الامر في وسط ذلك الخط الذي يبدو رهيبا هائلا •
ولكن هاهم أولاء قد اجتازوا الخط ، فلم يبق شيء يرهب ويهول ،
حتى لقد أخذ الفرع يزداد ، وأخذت الحماسة تشتد ، وأخذت

العزيمة تقوى • فكان روستوف يقول لنفسه وهو يشد يده على قبضة سيفه : « ما أكثر ما سأطعن ! » •

وتعالت أصوات تقول صارخة:

— هورررا !

فقال روستوف محدثا نفسه وهو يهمز جراتشيك ويسبق الآخرين : « فليقع احد تحت يدي الآن » ، ووصل الى المقدمة • وأصبح العدو في مرمى البصر ؛ فاذا بشيء يهوي على الفرسان كأنه ضربات سياط تسلمهم لسعا • فشهر روستوف سيفه يهثم ان يضرب ، ولكن الجندي نيكيتنكو الذي كان يتقدمه ، انفصل في تلك اللحظة عنه ، فشعر روستوف ، كما لو كان في حلم ، أنه ما يزال مندفعاً الى أمام بسرعة خارقة ، وأنه مع ذلك باق في مكانه لا يتحرك • ووصل اليه الفارس بوندراتشوك الذي كان روستوف يعرفه ، وصل اليه من خلف ، وألقى عليه نظرة فيها حنق • وقد شبَّ حصان بوندارتشوك، ثم مضى •

قال روستوف مسائلاً نفسه : « ما معنى هذا ؟ ألا أتقدم ؟ وأجاب عن سؤاله يقول في الوقت نفسه : « سقطت ! قتلت ! » • انه الآن وحيد في وسط الساحة ، لا يرى الخيول الممرعة ، ولا ظهور الفرسان ، وانما يرى من حوله الارض الساكنة والقش الذي يغطيها • وكان تحته دم فاتر • قال لنفسه : « لا بل أنا جرحت ، وجراتشيك

قتل » • ونهض جراتشيك على قائمته الاماميتين ، ولكنه لم يلبث أن سقط ثانية ، فأصاب بسقوطه ذراع الفارس ، فأحدث فيها رضا قويا • كان الدم يسيل من رأس الحصان • وكان يتخبط ولا يقدر أن ينهض • وأراد روستوف أن يقوم ، فعاد يسقط هو أيضا : كانت جعبة سيفه قد علقت بالسرج • أين رجالنا ؟ أين الفرنسيون ؟ لم يستطع روستوف أن يجيب عن هذين السؤالين • لم يكن حوله أحد • واستطاع أن يخلص ساقه فقام • وجعل يسأل نفسه دون أن يستطيع الاجابة : « أين ، في أية جهة ، يوجد الآن ذلك الخط الذي كان يفصل بين الجيشين فصلا واضحا اكبر الوضوح ؟ ترى ألم يحدث لي سوء ؟ ألم يصبني اذى ؟ ذلك يقع ، فما الذي يجب عمله في مثل هذه الحالة ؟ » ألقى على نفسه هذا السؤال وهو ينهض • فشعر في تلك اللحظة كأن شيئا ثقيلا كان معلقا بذراعه اليسرى المتخدرة • وبدأ له ان قبضة يده ليست منه • فأنعم النظر في ذراعه عسى أن يقع بصره على دم ، ولكنه لم ير دما • قال لنفسه فرحا وقد أبصر عدة أشخاص يهرعون اليه : « هلم ! هؤلاء رجال يقبلون عليك • سوف يساعدونك ! » • وكان يركض في طليعة هؤلاء الرجال رجل أسمر اللون ملوَّح الوجه ألقى الأنف ، يرتدي معطفا أزرق ويضع على رأسه عمة غريبة ، ويتبعه اثنان آخران يليهما عدد كبير من الافراد قال أحدهم كلاما عجيبا ليس روسيا • وكان وراءهم فارس روسي في وسط أولئك الرجال أنفسهم الذين يرددون تلك المعاطف نفسها •

وكانوا يجرون حصانه من لجامه .

قال روستوف لنفسه : « لا بد انه فارس من فرساتنا أسير ... نعم ... ترى هل يقبضون عليّ أنا أيضا ، ويأخذونني أسيرا ؟ من هؤلاء الناس ؟ » كذلك ظل يتساءل روستوف وهو لا يصدّق عينيه . « هل يمكن ان يكونوا فرنسيين ؟ » . وأخذ ينظر الى الفرنسيين الذين كانوا مقبلين عليه . انه منذ قليل كان لا يجري بحصانه عدوا سريعا الا ليلبغ هؤلاء الفرنسيين ويطعنهم بسيفه ، فاذا هو الآن يشعر من اقترابهم برعب يبلغ من الشدة أنه يكذب ما تراه عيناه . « من هم ؟ لماذا يركضون ركضا ؟ أهم يركضون اليّ أنا ؟ هل جائز ان اكون أنا من يركضون اليه ؟ ولماذا ؟ ليقتلونني ؟ ليقتلونني أنا الذي يحبني جميع الناس أكبر الحب ؟ » . وخطرت بباله عاطفة الحب التي تحملها له أمه وأسرته وأصدقائه ، فبدا له أنه لا يعقل ان تكون نية العدو هي أن يقتله . « ولكن من الممكن أنهم يركضون اليّ فعلا ليقتلونني ! » . لبث أكثر من عشر ثوان ساكنا جامدا لا يدرك وضعه . وبلغ الفرنسي الذي كان يتقدمهم ، وكان أقتى الانف ، بلغ من القرب أن ما يعبر عنه وجهه أصبح يرى واضحا . فلما رأى روستوف هذا الوجه الغريب المتوقد ، ورأى الرجل هارعا اليه وهو يحمل حربة حادة مسنونة ، ويحبس أنفاسه ، أحسّ بخوف شديد . فأمسك مسدّسه ، ولكنه بدلا من أن يطلق نار المسدس رمى المسدس على رأس الفرنسي ، واندفع هاربا في الادغال بسرعة شديدة . كان

لا يركض الآن ركضه على جسر اينس ، راغباً في صراع يمازجه شك ، وانما هو يركض الآن ركض ارنب تطارده كلاب . لقد استبد بكيانه كله شعور وحيد ، هو الخوف على حياته الفتية السعيدة . فكان يقفز فوق الحفر خفيفاً رشيقاً ، ويوغل في الحقول ايغالا سريعاً عارماً كما كان يفعل في حلبة سباق ، ملتفتاً برأسه من حين الى حين ، وقد شجب وجهه الجميل الشاب شحوباً قوياً . وكانت رعدة الخوف تسري في ظهره كأنها الصقيع برودة . قال لنفسه : « لا بل الافضل ان لا انظر . ولكنه حين وصل الى الادغال ، التفت مرة أخرى : كان الفرنسيون قد بقوا في الخلف ؛ حتى أن الرجل الذي يتقدمهم كان يهرول مسرعاً ، ناظراً الى الجهة الاخرى ، منادياً أحد رفاقه بصوت قوي . توقف روستوف ، وقال لنفسه : « لا بد أنني اخطأت . فمن المستحيل ان يكونوا قد أرادوا قتلي » . وكانت ذراعه اليسرى ثقيلة ثقلاً رهيباً ، فكان عشرة ارباط قد علقت بها ، وأصبح لا يستطيع الركض . توقف الفرنسي أيضاً ، وسدد اليه . ومرّت بقربه رصاصة تصفر صفيراً ، ثم تبعته رصاصة اخرى ، فاستجمع قواه ، وتناول ذراعه اليسرى بيده ، وركض الى الادغال . وكان في الادغال قتاًصة روس .

الفصل العشرون

كانت أفواج المشاة ، وقد أخذت على حين غفلة ، قد أخذت تهرب ، وكان السرايا ، وقد اختلط بعضها ببعض ، تفر جموعها فوضى . إن جنديا ممسوسا مسعورا من الفزع قد نطق بتلك الكلمة الرهيبة المرعبة الغبية التي لا تجوز في الحرب : « شطرونا » . فانتشرت هذه الكلمة في الجموع كلها وانتشر معها شعور بالهلع عم أفراد الجيش قاطبة . فكان الهاربون يصرخون قائلين : « نحن مطوقون ، نحن مشطورون ! هلكنا » .

وأدرك قائد الفوج حين سمع طلقات الرصاص والصيحات تدوي وراءه ، أن شيئا فظيعا وقع لفوجه . فاضطرب أشد الاضطراب اذ تصور أنه ، هو الضابط الذي يضرب به المثل ويعد قدوة ، والذي قضى في الخدمة بالجيش سنين كثيرة ، يمكن أن يعد مسؤولا عن اهمال أو تقاعس أو عجز عن المبادرة ، مع أنه ليس مسؤولا عن شيء من هذا البتة ، وبلغ من الاضطراب أنه لم يلبث أن نسي كولونيل المدفعية الذي عصى أمره ، ونسي في الوقت نفسه مهامته الشخصية كجنرال ، ونسي على وجه الخصوص نسيانا تاما ما يعرض له نفسه من خطر ، ونسي غريزة المحافظة على البقاء ، ومضى نحو فوجه على ظهر حصانه ،

متشبثا بقربوس السرج ، هامزا جنب الفرس ، مندفعاً تحت وإبل من الرصاص الذي شاء حسن حظه أن لا يصيبه منه شيء . • كان لا ينبغي الا شيئاً واحداً : هو أن يعرف ماذا جرى ، وإن ينقذ الموقف بأي ثمن ، وأن يصلح الخطأ المرتكب اذا كان هذا الخطأ يعزى اليه ، حتى لا يكون مذنباً ، هو الضابط الذي يثرب به المثل ويتخذ قدوة ، والذي لم يوجه اليه اللوم مرة واحدة أثناء خدمته التي دامت الى الآن اثنتين وعشرين سنة .

استطاع أن يمر بين الفرنسيين دون أن يصيبه أذى أو أن يلحق به ضرر ، ووصل الى حافة الغابة ، حيث كان جنودنا يهبطون المنحدر وقد أصموا آذانهم عن سماع الاوامر . هذه هي اللحظة الخطيرة التي فيها تقرر البلبلة النفسية مصير المعركة : ترى أسمع هذه الجموع المفككة صوت قائدها ، أم تلقى عليه نظرة خالية من الاكتراث وتتابع فرارها ؟ ان ما حدث هو أن الجنود ظلوا يركضون ويتفادون ويطلقون رصاصاً في الهواء ، ولا يلحقون بالاً الى الاوامر ، رغم الصيحات المحتدة التي يصدرها قائد الفوج والتي طالما كان يرهبا الجنود ، ورغم وجهه الحاقق المصطبغ بحمرة شديدة ، ورغم سحنه التي انقلبت فلا تكاد من شدة تغيرها أن تعرف ، ورغم السيف الذي كان يشهره ويلوح به . • كان واضحاً ان البلبلة النفسية التي تحدد مصير المعارك قد مالت بالجنود الى الذعر العام والهلع الشامل .

وأصيب الجنرال بسطل من شدة صراخه في وسط دخان البارود،

وتوقف يائسا مكروبا أشد الكرب • كان يبدو أن كل شيء قد ضاع • ولكن حدث في تلك اللحظة أن الفرنسيين الذين كانوا يتعقبون جنودنا قد تقهقروا الى الوراء فجأة بدون سبب ظاهر ، تاركين حافة الغابة ، ثم اذا بقناصة روس يظهرون • انها سرية تيموخين ، حافظت وحدها على نظامها واختبأت في خندق ، ثم هجمت على الفرنسيين غرة • وقد هجم تيموخين على الفرنسيين بكل ما يملكه السكير من جرأة مجنونة ، مسلحا بسيفه الصغير وحده ، مطلقا صرخات بلغت من الهول أن الفرنسيين ألقوا بندقياتهم على الأرض ، وأخذوا يفرون ، دون أن يتسع وقتهم لاسترداد سيطرتهم على أنفسهم ولاستعادة قدرتهم على تقدير الموقف • وكان دولوخوف يركض الى جانب تيموخين ، فقتل فرنسيا من مسافة قصيرة ، وكان أول من أمسك بياقة ضابط استسلم للأسر • فلما رأى الهاربون من جنودنا هذا كله، عادوا أدراجهم ، ونظموا صفوف سراياهم من جديد ، واستطاعوا أن يدحروا الفرنسيين لحظة بعد أن كان هؤلاء قد شطروا جناحنا الايسر شطرين • واستطاع جنود الاحتياط أن يلتقوا ، وتوقف الهاربون عن الهرب •

كان قائد الفوج واقفا بقرب الجسر في صحبة الميجر ايخونوموف ، يستعرض السرايا المنكفئة ، فاذا بجندي يقترب من حصانه ، فيمسك ركابه ، حتى ليكاد يتوكأ عليه • كان هذا الرجل الذي يرتدي معظفا مصنوعا من جوخ غريب الرسم ، ضارب اللون الى زرقة ، كان لا يحمل كيسا ولا يعتمر بخوذة ، وكان رأسه معصوبا ، وقد علقت بكتفه جعبة ٣٥/٢ تولستوي

فرنسية • وكان يمسك بيده سيف ضابط • وكان شاحب اللون ، وكانت عيناه الزرقاوان تنظران الى رئيسه بوقاحة ، وكانت عيناه تبتسمان • فلم يستطع الجنرال ، على شدة انشغاله باصدار الاوامر الى الميجر ايخونوموف ، الا أن يخطف هذا الجندي بصره وأن يجذب اليه انتباهه ، وأن يشد اليه اهتمامه •

قال دولوخوف بصوت لاهث وهو يبدي السيف والجعبة :

— هاتان غنيمتان يا صاحب السعادة • لقد أسرت ضابطا • وبفضلي انما استطاعت السرية أن تصمد •

كان دولوخوف يتنفس بكثير من المشقة بسبب التعب والارهاق • وكان كلامه متقطعا • وأردف يقول :

— السرية كلها يمكن أن تشهد بذلك • أرجوك أن تتذكر هذا يا صاحب السعادة •

قال الجنرال :

— طيب ، طيب !

والتفت الى الميجر ايخونوموف •

ولكن دولوخوف لم ينصرف • وعمد الى ضماده ففكه وانتزعه وأرى الجنرال دمه المتخثر في شعره ، وقال له :

— هذه طعنة حربة • لقد بقيت في الصفوف • تذكر هذا يا صاحب

السعادة !



كانت سرية مدفعية توشين قد نسيت • وفي نهاية المعركة ، حين لاحظ الامير باجراتيون أن قصف المدفعية ما يزال مستمرا في الوسط ، انما أرسل ضابط الاركان العامة ثم الامير آندره على جناح السرعة ليأمر الكابتن بالانسحاب على عجل • كانت سرية المدفعية ما تزال ترمي ، رغم أن غطاءها قد انسحب أثناء القتال بأمر أصدره اليه لا يدري أحد من ، واذا كان الفرنسيون لم يستولوا على هذه السرية ، فما ذلك لان العدو ما كان ليستطيع أن يفترض أن أربعة مدافع غير محمية يمكنها أن تواصل الرمي وتستمر في القصف • حتى لقد استخلص العدو من القتال الضاري الذي تخوضه هذه السرية ، أن القوات الروسية الرئيسية انما تركز هنا في الوسط • وقد حاول العدو مرتين أن يهاجم هذه النقطة ، ولكن رمي المدافع الاربعة المراقبة وحدها على تلك الراية قد صدت هجومه في المرتين •

. كان توشين قد استطاع بعد رحيل الامير باجراتيون بزمان قصير أن

يحرق شونجراين •

فكان سدنة المدافع يصيحون قائلين :

— اضطرب جلهم ! هذه السنة النيران تتصاعد ! ما أكفنه من دخان!
عظيم ! رائع ! ما أكثر الدخان ! ما أكثر الدخان !

وكانت المدافع كلها ترمي في اتجاه الحريق دون تلقي أمر بذلك •
وكان الرجال يشفعون كل رمية بصيحات تقول : « عظيم ! هذه رمية !
عليك بهم ! رائع ! » ، كأنهم يريدون بذلك أن يفرزوا الرمية ويشدوا
أزرها ويحرضوها مزيدا من التحريض ويسدوها بمزيد من القوة •
وكانت الريح تزيد النار ضراما ، فتشرها نشرا سريعا • وتراجعت
الارتال الفرنسية التي كانت تنطلق من القرية • ولكن العدو نصب
عشرة مدافع على يمين القرية ، وفتح النيران على توشين كأنما ليشار
لاخفاقه •

وفي غمرة الفرح الطفولي الذي كان يثيره الحريق في نفوس رجالنا،
وفي غمرة النشوة العارمة من حسن الرمي على الفرنسيين ، لم يلاحظ
رماتنا سرية المدفعية تلك التي نصبها الفرنسيون الا بعد أن سقطت
في وسط مدافعهم الاربعة قذيفتان ، ثم سقطت أربع قذائف أخرى ،
فقتلت احداها حصانين وبترت أخرى ساق سائق إحدى عربات الذخيرة •
ومع ذلك لم تضعف الحماسة التي كانت اشتعلت في نفوس رجالها ، غير
أنها تبدلت تبديلا طفيفا على حين فجأة •

بادر جنودنا الى احلال أفراس من الاحتياط محل الافراس التي
قتلت ، ونقلوا الجرحى ، واتجهت المدافع الاربعة صوب السرية التي

تتألف من عشرة مدافع • وكان ضابط هو رفيق من رفاق توشين قد قتل في بداية المعركة • وفي مدى ساعة واحدة أصبح سبعة عشر رجلا من السدنة الاربعين الذين يخدمون المدافع قد أصبحوا عاجزين عن العمل وخرجوا من المعركة ، ولكن الرماة ما يزالون على ما كانوا عليه من مرح ونشاط • وقد رأوا الفرنسيين يظهرن مرتين تحت ، فرشوهم بوابل من قذائفهم •

وكان الرجل القصير ذو الحركات المترددة الخرقاء ما ينفك يصيح آمرا تابعه بقوله : « غليوننا آخر ^(١) » ، من باب المكافأة على حد تعبيره، ثم ينفث الدخان ، ويركض ينظر الى الفرنسيين واضعا يده الصغيرة ستارة فوق عينيه • وكان يمسك عجلات المدافع بنفسه ، ويحكم شد براغيها ، وهو يهتف قائلا :

— هدموا يا شباب ! دمروا يا شجعان !

وكان توشين ، وقد أعماه الدخان وأصمته الانفجارات المتتالية التي كانت تجعله ينتفض في كل لحظة ، يركض من مدفع الى مدفع ، دون أن يترك غليونونه القصير ، فتارة يسدّد ، وتارة يحصى الطلقات ، وتارة يحل محلّ الخيول القتلى او الجرحى خيولا غيرها ، وما ينفك يصدر الاوامر تلو الاوامر بصوته النحيل الضعيف الرقيق المتردد • وكان وجهه يزداد تعبيرا عن النشاط والحرارة والحماسة لحظة بعد لحظة •

(١) بالفرنسية في الاصل .

وكان لا يقطب حاجبيه عابسا الا حين يقتل رجال أو يجرحون ، فيشبح وجهه عن الميت ، وتثور ثأثرته على الآخرين الذين يتأخرون في حمل الجريح أو رفع الجثة كما يحدث دائما . وكان الجنود ، ومعظمهم شبان يمتازون بالجسم الفارع العريض والوجه الوسيم الجميل (تلك هي القاعدة في سلاح المدفعية ، فالجنود أطول قامة من ضباطهم بهامتين ، وأعرض منهم مرتين) ، كانوا ينظرون جميعا الى رئيسهم نظرة أطفال استبد بهم الارتباك ، ويحاكون بتعبير وجوههم ما يقرأونه في وجهه هو من تعبير .

وبفضل الصخب الرهيب ، وكذلك بفضل الاضطراب الى مواجهة كل شيء ، ظل توشين موصل النفس دون الخوف ، فكانت فكرة أن يموت أو أن يجرح جرحا بالغا لا تخامر ذهنه ولا تخطر له على بال . حتى انه كان ما ينفك يزداد مرحا . كان يبدو له ان اللحظة التي بصر فيها بالعدو ، فرماه بأول قذيفة ، هي لحظة بعيدة موعلة في البعد ، حتى لكنها يرجع عهدا الى أمس ، وأن هذه الرقعة من الارض التي يوجد فيها مألوفا له ، معروفة عنده ، معهودة لديه منذ زمن طويل . ورغم انه تذكر كل شيء ، وحسب حساب كل شيء ، وفعل خير ما يمكن ان يفعله احسن الضباط في مثل هذا الظرف ، فقد كان في حالة قريبة من حالة الهذيان او السكر .

كانت الضجة المصمتة التي تتعالى من كل جهة من جهات السرية ، وكان صفير قذائف العدو وسقوطها ، وكان منظر سدنة المدافع الذين

ينضحون عرقا وقد احمرت وجوههم احمرارا شديدا وأخذوا يسعون ويتحركون حول المدافع ، وكان منظر الدم الذي يسيل من الرجال والخيول ، ومنظر الادخنة التي تتصاعد من مدافع العدو في الجهة الاخرى ، ويعقبها في كل مرة وصول قذيفة تضرب الارض أو رجلا أو حصانا أو مدفعا ، كان هذا كله قد أنشأ في رأس توشين عالما خائليا خاصا به يجد فيه توشين ملذات ومباهج • لم تكن مدافع العدو في خياله مدافع بل غلايين ينفث منها مدخن مجهول نفثات دخان من حين الى حين • فكان توشين يدمدم بينه وبين نفسه عندما تنبجس من على الراية سحابة دخان تجرها الرياح شمالا :

— هه ! ها هو ذا يدخن أيضا • فلنتظر الآن الكرة حتى نردّها !

سأله ضابط كان يقف غير بعيد عنه وقد سمعه يجمجم بكلام :

— ما الذي يجب أن نردّه يا حضرة الضابط ؟

فأجابه توشين :

— لا شيء ... قنبلة •

وأضاف يقول بينه وبين نفسه :

— « الآن دورك ، ما تفايفنا ! »

كان اسم ماتفايفنا في خياله اسم المدفع الكبير المنسوب في الطرف،

وهو مدفع يرجع عهده الى زمن قديم • وكان الفرنسيون المحتشدون حول مدافعهم يظهرون له جماعات من نمل • وكان السائد الاول من سدة المدفع الثاني ، وهو فتى جميل سكير ، يسمى في عالمه باسم « العلم » ، وكان توشين ينظر اليه أكثر مما ينظر الى سائر سدة المدفع ، ويسر لكل حركة من حركاته • أما أزيز الرصاص الذي ينطفيء تارة ويتضاعف تارة اخرى في سفح الراية فقد كان في نظره انفاس كائن حي ، فكان توشين يصيح بسمعه الى هذه الضججات حين تسكن وحين تشتد ، فيقول لنفسه : « ها هوذا يتنفس من جديد ، ها هو ذا يتنفس » •

وكان يتصور نفسه رجلا جبارا ضخم الجسم يلقي على الفرنسيين قذائف بكلتا يديه •

وبينا هو يخاطب المدفع وهو يغادره قائلاً له : « هيه ماتفايفنا ! لا تتركنا يا صديقي القديم » ، اذ ناداه من فوق رأسه صوت غريب مجهول يقول :

— كابتن توشين ، كابتن !

فالتفت توشين مرتاعا •

كان ذلك الصوت هو صوت الضابط المرافق الذي طرده من جرونت • وكان يصيح به قائلاً بصوت لاهث :

— أأنت مجنون ؟ لقد صدرت اليك الاوامر مرتين بالانسحاب ،

وأنت ...

فقال توشين محدثا نفسه وهو ينظر الى الضابط الذي يعلوه رتبة:

« عجيب ! ماذا يريدون مني ؟ لماذا يتجنون عليّ ؟ » ، وقال يجب

الضابط متلعثما وهو يحييه برفع اصبعين من أصابعه الى حافة
خوذته ، ويشعر بارتياح :

— أنا ... لم ...

ولكن الكولونيل لم يكمل القيام بالمهمة التي عهد بها اليه ، فان

قذيفة قد أوشكت ان تمسه فغطس على ظهر حصانه وصمت ، ثم ما ان

همّ ان يستأنف كلامه حتى أخرسته قذيفة أخرى . فأدار لجام حصانه،

وولّى مسرعا .

وصرخ يقول من بعيد :

— تراجعوا ! تراجعوا جميعا !

فانفجر الجنود يضحكون . وما هي الا دقيقة حتى جاء مرافق

يحمل ذلك الامر نفسه .

ان المرافق المبعوث في هذه المرة هو الامير آندره . فكان أول

ما رآه الامير آندره وهو يدخل منطقة المدافع حصانا سقط عنه

سرجه ، وانكسرت ساقه ، وجعل يصهل بقرب أحصنة أخرى مسرجة .

وكان الدم يسيل منه كأنه يسيل من ينبوع • وبين حوامل المدافع كان يتناثر على الارض قتلى • وكانت تمرش فوق رأسه قذائف تتوالى واحدة بعد أخرى أثناء اقترابه ، ف شعر برعدة عصبية تسري في ظهره • ولكن ما ان خطر بباله انه خائف حتى جعله ذلك يسترد رباطة جأشه وهدوء أعصابه ، قائلاً لنفسه : « انا لا يمكن ان أخاف » ، ونزل عن ظهر حصانه ببطء بين المدافع ، وأبلغ الاوامر التي عهد اليه بابلاغها ، وبقي في السرية لم يتركها • لقدقرر ان يشهد انتراع المدافع من مكانها ، والتراجع بها الى وراء • فأخذها هو وتوشين يتخطيان الجثث ، ويشرفان على سحب المدافع •

قال أحد رماة المدفعية للامير آندره :

— منذ قليل جاء الينا رئيس ، ثم لم يلبث ان ولئى هاربا • انه ليس كحضرتك !

لم يتبادل الامير آندره وتوشين كلمة واحدة • لقد بلغا من الالكاب على العمل والانشغال به أنهما كانا كمن لا يرى احدهما صاحبه • وقد اضطرا الى ترك مدفع محطم ومدفع حصار ؛ حتى اذا جعل المدفعان الآخران على مجريهما ، سار الجمع يهبط الراية ، ودفع الامير آندره حصانه مقبلا على توشين ، فقال له وهو يصفحه :

— هيئاً ! الى اللقاء !

فأجابه توشين :

— الى اللقاء يا عزيزي ، يا صديقي الشهم !

وأضاف يقول وقد أحس بالدموع تترقق في عينيه دون ان
يدري لماذا ..

— أستودعك الله يا عزيزي !

الفصل الحادي والعشرون

كانت الريح قد هبَّت ، وكانت غيوم سوداء قد أخذت تنزل منخفضة على ساحة المعركة فتختلط عند الافق بدخان البارود . وكان الظلام يهبط فيزيد توهج الحريق في مكانين . وكان قصف المدفعية قد ضعف ، ولكن الرصاص ما يزال يئز في الخلف واليمين ، وما ينفك يقترب وما ينفك يشتد . وما ان مرَّ توشين مع مدافعه بين الجرحى ، وما ان خرج من منطقة النيران ونزل الوادي حتى لقي قاداته والضباط المرافقين ، ومنهم ضابط الاركان العامة وجيركوف . لقد أرسل جيركوف الى سرية المدفعية مرتين ، ولكنها لم يبلغها مرة واحدة . كان الجميع يقاطع بعضهم بعضا في الكلام ، ويصدرون وينقلون أوامر عن الاتجاه التي يجب السير فيه ، ويتراشقون بوابل من الملامات والملاحظات . فكان توشين يسير وراء موكب مدافعه ، لا يتدخل في شيء ، ولا ينطق بحرف ، حتى لقد كان يخشى ان يفتح فمه ، اذ كان يحس أنه سينفجر باكيا وسيغرق في دموعه اذا هو قال كلمة واحدة . ورغم ان الاوامر كانت قد صدرت بترك الجرحى ، فقد كان عدد كبير من هؤلاء الجرحى يزحفون وراء القطعات ، سائلين ان يحملوا على المدافع . وكان ذلك الضابط الجميل من ضباط سلاح المشاة ،

ذلك الضابط الذي اندفع خارجا قبل المعركة من خص توشين ، كان مسجى على مسند المدفع ماتفايفنا وفي بطنه رصاصة • وفي سفح الرابية ، أخذ مرشح من سلاح الفرسان (يونكر) ، شديد الشحوب ، ساند احدى ذراعيه بالآخرى ، يضرع الى توشين ان يسمح له بالجلوس على حامل المدفع • قال خجلا وجلا :

— كابتن ، ناشدتك الله ؛ لقد أصبت برض في ذراعي • وأصبحت لا أستطيع ان أمشي • ناشدتك الله !

وكان واضحا من الصوت المتردد المؤثر الذي يضرع به هذا الفتى أن يحمل ، ان ضراعتة قد رفضت قبل هذه المرة مرارا •

— دعني أجلس ، أبتهل اليك !

قال توشين :

— اركب ، اركب !

وأضاف يأمر الرامي الاثير عنده :

— افرش انت معظفا ، يا عم •

ثم أردف يسأل :

— ولكن أين الضابط الجريح ؟

فأجاب احدهم :

— أنزلناه • مات •

— أركبوا هذا المرشح • اركب يا عزيزي ، اركب • افرش معطفك
يا أنطونوف •

كان ذلك المرشح هو روستوف • كان حاملا ذراعه بيده • وكان
شاحبا ، وكانت تسري في فكه الاسفل رعدة حمى • أركبوه على
ماتافينا ، المدفع الذي أنزل عنه الضابط ميتا • وكان على المعطف
المدود دم ، فتلطخ بالدم سروال روستوف وتلطخت به يده •

قال توشين يسأله وهو يقترب من المدفع الذي جلس عليه :

— أنت جريح يا عزيزي ؟

— بل مرضوض •

فسأله توشين :

— فمن أين هذا الدم الذي أراه على جنب الكابح ؟

فأجاب الرامي وهو يمسح الدم بكمّ معطفه كالمعتذر عن هذه
الوساخة في حامل المدفع :

— هو الضابط نرف دمه يا سيدي !

وأمكن اصعاد المدافع الى أعلى الراية في كثير من الجهد والعناء
بمساعدة المشاة ، حتى اذا وصلوا الى قرية جوتترسدورف توقفوا •
وقد بلغ الظلام الآن من شدة الحلقة ان العين لا تستطيع ان ترى
بزات الجنود على بعد عشر خطوات ؛ وهذا أزيز الرصاص بعض

الهدوء • ولكن ها هي ذي صرخات عالية وطلقات رصاص تسمع فجأة في اليمين على مسافة قصيرة • وأخذت أضواء طلقات الرصاص تشق الظلام شقا منذ الآن • انه هجوم أخير يقوم به الفرنسيون ، فيرد عليه الجنود المتحصنون بالمنازل • فاذا بالجميع يهرعون مغادرين القرية من جديد • ولكن مدافع توشين لا تستطيع ان تتقدم • فأخذ توشين ورماة المدفعية والمرشح ينظر بعضهم الى بعض صامتين ، منتظرين أن يتقرر مصيرهم • ولكن اطلاق الرصاص أخذ يهدأ شيئاً بعد شيء • وخرجت الى الشارع العام من شارع جانبي جمهرة من الجنود تتحدث بحرارة •

قال أحدهم سائلاً :

— سليم معافى ، يا بتروف ؟

وقال آخر :

— أذقناهم المرء ! لن يعودوا اليها بعد الآن !

— لم يكن يرى شيء • ما أكثر ما صوبت بعضهم الى بعض على عماوة • لم يكن يرى شيء • كان الظلام دامساً • أما من شراب نسقاه يا شباب ؟

كان الفرنسيون قد صدّوا صدا نهائياً • وفي ظلام شامل ، استأنفت مدافع توشين سيرها ، يخف بها المشاة الذين تدمدم أصواتهم بلا انقطاع •

كان الـركب يجري في هذا الظلام جريان نهر قاتم لا يرى ، مدندنا بأصوات بشر ، ووقع حوافر ، وصرير عجلات . وكانت أثاثات الجرحى تـعلو جميع هذه الضججات المبهمة . فكأنها وحدها تملأ هذه الظلمات المحدقة وتتحد بها اتحادا ، فهما شيء واحد . وحدث اضطراب في هذا الجمهور السائر ، بعد لحظة . ان رجلا يمتطي حصانا ويتبعه حرس قد مرّ بالركب ونطق ببعض الاقوال ، فرعان ما تعالت الاصوات من كل جهة تسأل نهمة : « ماذا قال ؟ هل مدحنا ؟ أين نحن ذاهبون الآن ؟ هل نبقى هنا ؟ » . ثم حدث تصادم . لقد توقفت الصفوف الامامية ، وسرت شائعة تقول ان الامر صدر بذلك . فتوقف الجميع عندئذ في وسط الطريق الموحلة .

وتلاّأت نيران ، وأصبحت الاصوات أوضح . وبعد أن اتخذ توشين الاجراءات اللازمة للمبيت ، وأرسل أحد رجاله بحثا عن عربة اسعاف أو عن طبيب يعالج المرحش المـرضوضـة ذراعه ، جلس بقرب نار أوقدها جنده على حافة الطريق . وجرّ روستوف نفسه أيضا الى حيث تحلق الرجال حول النار ، وكانت رعدة حمّى تهز جسمه كله من أثر الالم والبرد والرطوبة . واعتراه نـعاس شديد لا سبيل الى مغالـبته، غير أن ألما قويا في ذراعه التي لا تستقر على وضع ويوجعها أي شيء ، قد حال بينه وبين النوم . فكان تارة يغمض عينيه ، وتارة ينظر الى النار التي تبدو له حمراء قانية او ينظر الى قامـة توشين الهزيلة المقرفصة بقربه على الطريقة التركية . وكانت عينا توشين ، الطيبتان

الذكيّان ، تلقيان عليه نظرات زاخرة بالمودّة والشفقة • فكان روستوف يرى أن توشين يود من أعماق قلبه أن ينجده ويسعفه ولكنه لا يملك أن يصنع له شيئاً •

ومن جميع الجهات كان يسمع وقع أقدام القطعات التي تمر ، وكانت تسمع أصواتها ، وكذلك أصوات جنود المشاة الذين يقفون ويستقرون • وكانت ضجة هذه الأصوات ووقع هذه الأقدام ودوس الخيل في الوحل وطققة الخشب قريباً وبعيداً ، كان ذلك كله يتحد في جلبة واحدة متحركة •

أصبح النهر الذي لا يرى لا يجري الآن في الظلمات ، وإنما هو الآن أشبه ببحر متجههم ما يزال هائجا متلاطم الأمواج بعد العاصفة ولكنه أخذ يهدأ قليلاً قليلاً • وكان روستوف ينظر ويصغي إلى ما يجري حوله ولكنه لا يدرك شيئاً • واقترب أحد جنود سلاح المشاة من النار ، وجثا على ركبتيه ومدّ يديه إلى اللهب مشيحاً وجهه • وقال مخاطباً توشين بهيئة سائلة :

— هل تسمح سيادتكم ؟ لقد فقدت سرتي يا سيادة الضابط ، ولكنني لا أعرف أين فقدتها • هذا شقاء •

وبعد الجندي ، تقدم من النار ضابط مشاة ، معصوب الخد ، ورجا توشين أن يأمر بإبعاد مدافعه قليلاً إلى وراء ، حتى تستطيع عربة نقل أن تمر • وفي أثر قائد السرية هرع إلى النار جنديان لقد كانا

يتشاقمان تشاقما مقذعا ، ويتنازعان جزمة يشدها كل واحد منهما اليه •

صرخ أحدهما يقول بصوت أبح :

— عثرت عليها ؟ يا سلام ! انظروا الى هذا الرجل ما أمكره !

وجاء بعدهما جندي هزيل ، شاحب اللون ، يلفع رقبتة جورب ملوث

بالدم ، وطلب من رجال المدفعية بصوت غاضب حائق أن يعطوه ماء •
قال :

— ماذا ؟ هل يجب على المرء أن يفطس مثلما يفطس كلب ؟

فأمر توشين باعطائه ماء • ثم هرع جندي مرح يسأل شيئا من نار

للمشاة •

— نارا حامية للمشاة ! أتمنى لكم البهجة والسرور يا أهل بلادي !

شكرا كثيرا لما أعطيتمونا من نار • سرردها لكم مع الفوائد ...

كذلك قال وهو يحمل جمرات متوقدة الى مكان ما في ذلك الظلام •

وبعده ، مر أمام النار أربعة جنود يحملون شيئا ثقيلا في معطف •

وعثرت قدم أحدهم ، فجمعهم يقول :

— يالهؤلاء الشياطين ! وضعوا حطبهم في الطريق •

وقال آخر :

— لماذا تحملونه وقد مات ؟

— اخرس ...

• وغابوا مع حملهم في الظلمات •

قال توشين يسأل روستوف :

— هيه ! أما تزال موجعا ؟

• — نعم •

وقال حراق وهو يتقدم من توشين :

— الجنرال يطلبك يا صاحب السيادة • انه مقيم هنا في منزل •

— أنا ذاهب اليه يا صديقي •

قال توشين ذلك ، ونهض وهو يعقد أزرار معطفه ويعدل ثيابه ،

وابتعد عن النار ...

كان الامير باجراتيون يتعشى في منزل من منازل الفلاحين أعد له غير بعيد من معسكر رماة المدفعية ، متحدثا مع عدد من قادة القطعات اجتمعوا الى مائدته ، بينهم ذلك الشيخ ذو العينين المغمضتين نصف اغماض (وكان يمص عظمة خروف بشراة ونهم) وبينهم جنرال في الثانية والعشرين من عمره ، حسن الهندام عظيم الاناقة قد لون العشاء وكأس من الفودكا وجهه ، وبينهم ذلك الضابط الذي يزين اصبعه خاتم مزدان بالرقم الامبراطوري ، وبينهم جيركوف الذي كان يلقي على الجميع

نظرات قلقة ، وبينهم الامير آندره وقد شحب لونه ، واكتزت شفاته ،
وسطعت عيناه ببريق محموم .

وكانت راية فرنسية مستلبة من العدو مسندة الى جدار في ركن ،
وكان « المستمع » ذو الوجه الساذج يحس قماشها ويهز رأسه متحيرا
ربما لان منظر الـراية كان يشوقه حقا ، وربما لانه ، وهو جائع ، كان
يشق على نفسه أن يرى العشاء دون أن يكون له فيه نصيب . وفي الغرفة
المجاورة كان يوجد كولونيل فرنسي أسره الخيالة . وكان ضباطنا
يتفرسون فيه متزاحمين عليه .

كان الامير باجراتيون يشكر قادة مختلف القطعات ، ويسألهم عن
تفاصيل المعركة وعن خسائرهم فكان قائد الفوج الذي قدم اليه في
براونوا يحكي للامير أنه أجلى الغابة منذ بداية القتال ، وجمع الجنود
الذين كانوا يحطبون ، وترك الفرنسيين يمرون ، ثم انقض عليهم
بالحراب بكتيتين ، فدحهم . قال :

— حين رأيت كتيبي الاولى في اضطراب وبلبله ، يا صاحب السمو،
وقفت على الطريق وقلت لنفسي : « لندعهم يمرون ثم فلنمطرهم. بنار
متصلة » . وذلك ما فعلته يا صاحب السمو .

كان قائد الفوج يبلغ من الرغبة في أن يكون قد فعل ذلك، ويبلغ من
الحسرة والاسف على أنه لم يفلح في فعله أنه كان يبدو له أن هذا كله
قد حدث فعلا . وربما كان هذا قد وقع حقا . هل يستطيع المرء في

وسط هذا الاضطراب الذي اختلط فيه الحابل بالنابل أن يفرق بين ما حدث وما لم يحدث ؟

وتابع قائد الفوج كلامه وقد تذكر المحادثة بين كوتوزوف ودولوخوف ، ولقاءه الاخير مع دولوخوف ، فقال :

— يجب أن أذكر في هذه المناسبة يا صاحب السمو أن الضابط السابق دولوخوف قد أسر ضابطا فرنسيا على مرأى مني ، وأبلى بلاء عظيمًا •

فانبرى جيركوف يتدخل في الحديث فقال وهو يلقي على ما حوله نظرات قلقلة ، ولم يكن قد رأى في ذلك اليوم أي رجل من سلاح الفرسان ، ولكنه كان قد سمع من ضابط مشاة عما قام به الفرسان :

— وفي ذلك الحين انما رأيت هجوم فوج بافلوجراد ، يا صاحب السعادة • رأيت الفرسان يحدثون بلبلة في مربعين •

ضحك بعضهم لاقوال جيركوف متوقعين على عاداتهم أن يقول مزاحاة من مزاحاته • لكنهم وقد رأوا أن أقواله تضيف جديدا الى مجد أسلحتنا وعظمة الموقعة ، اتخذت هيئاتهم مظهر الجد ، رغم أن كثيرين منهم قد علموا حق العلم أن ما قاله جيركوف كان كذبا لا يقوم على أي أساس من الصحة •

قال الامير باجراتيون متجها بالكلام الى الكولونيل الشيخ :

— شكرا لكم يا سادة • لقد تجلت البطولة فيما قامت به جميع

الاسلحة : المشاة والفرسان والمدفعية • ولكن كيف حدث أن ترك مدفعان في الوسط ؟

ألقى هذا السؤال وهو يبحث بعينه عن أحد • (لم يسأل الامير باجراتيون عن مدافع الجنب الايسر ، لانه كان يعلم أن جميع المدافع قد تركت منذ بداية الموقعة) • وأضاف يقول لضابط الخدمة :

— أظن أنني طلبت منك الاهتمام بهذا الامر • فأجابه ضابط الاركان قائلاً :

— المدفع الاول أصيب • أما الثاني فلا أفهم من أمره شيئاً • لقد بقيت أنا الى آخر لحظة ، وقمت بواجبي كله ، ولكن ما ان انصرفت حتى ...

وأردف يقول في تواضع :

— الحق أن الوطيس كان يحمي ...

قال أحدهم ان الكابتن توشين معسكر هنا على مسافة قريبة جداً من القرية وأن أحدا مضى اليه يستدعيه •

قال الامير باجراتيون مخاطباً الامير آندره :

— ولكنك كنت أنت هناك ... وشهدت ما حدث • فقال ضابط الاركاز العامة وهو يتسم للامير آندره بولكونسكي ابتسامة رقيقة :

— طبعاً ، وقد تقابلنا ...

فقال الامير آندره بلهجة جافة وصوت متقطع :

– بل لم يحدث أن سعدت بلقائك •

وخيم صمت •

وظهر توشين في العتبة، وتسلس وراء ظهور الجنرالات تسلاخجولا • وفيما كان يدور حولهم في الغرفة الضيقة مضطربا على عادته حين يرى رؤساءه ، لم يلاحظ سارية الراية فتعثرت قدمه بها • فأخذ بعضهم يضحك مقهقهها •

قال الامير باجراتيون يسأل مقطبا حاجبيه ، ناظرا لا الى توشين بل الى الضاحكين الذين كان صوت جيركوف يطغى على أصواتهم :

– كيف حدث أن ترك المدفع ؟

في تلك اللحظة ، حين رأى توشين رئيسه الرهيب ، انما ظهر له هول ذنبه وظهرت له فظاعة عاره لانه فقد مدفعين وما يزال الى الآن حيا • لقد بلغ من الاضطراب الى ذلك الحين أن وقته لم يتسع للتفكير في هذا الامر • وقد فاقم ضحك الضباط ارتباكهم وتشوشه • فكان واقفا أمام باجراتيون وقد أخذ فكه الاسفل يرتعش ارتعاشا واضحا ، ولم يكذب يستطيع أن ينطق بالالفاظ القليلة التالية الا في كثير من الجهد والعناء :

– لا أدري ••• يا صاحب السعادة • نقص الرجال يا صاحب

السعادة •

— كان يمكنك أن تأخذ رجالا من بين جنود الغطاء !

لم يقل توشين انه لم يكن ثمة غطاء ، رغم أن هذا صحيح جداً •
كان يخشى أن يسيء الى ضابط آخر، فلم يزد على أن نظر الى باجراتيون
صامتا جامد العينين ، كتلميذ مرتبك يحدق الى عيني المعلم أثناء امتحان •

ودام الصمت مدة طويلة • وكان واضحاً أن الامير باجراتيون
لا يريد أن يظهر قسوة ، فلم يجد شيئاً يقوله • ولم يجرؤ الآخرون
أن يتدخلوا في الامر • وكان الامير آندره ينظر الى توشين خلسة ،
وكانت أصابعه تتحرك تحركاً عصيباً • ثم اذا هو يقطع الصمت ، وينبري
يقول بصوته القاطع الجازم :

— صاحب السعادة ، لقد أرسلتني الى سرية مدفعية الكابتن توشين،
فذهبت اليها ، فرأيت أن الرجال والخيول قد قتل ثلثاهم ، وأن المدفعين
قد تدمرا ، وأنه لم يكن هناك أي غطاء من الجند •

فكان الامير باجراتيون والكابتن توشين يحدقان الآن كلاهما الى
الامير آندره بولكونسكي الذي كان يتكلم باهتياج مكظوم •
وتابع الامير آندره كلامه فقال :

— واذا أذنت لي بأن أبدي رأيي يا صاحب السعادة، قلت اننا بفضل
سرية المدفعية هذه انما حققنا اليوم ما حققناه من نجاح ، وكذلك بفضل
الصمود البطولي الذي برهن عليه الكابتن توشين ورجاله •

وبدون أن ينتظر الامير آندره جوابا ، قام على الفور وقام عن

المائدة •

نظر الامير باجراتيون الى توشين • وكان واضحا أنه لا يجب أن يظهر شكاً في صحة هذا الحكم الجازم الذي يطلقه بولكونسكي ، ولا يريد في الوقت نفسه أن يصدق هذا الحكم تصديقا تاما ، فحنى رأسه وقال لتوشين ان في امكانه أن يخرج • فخرج توشين، وخرج بعده الامير آندره •

قال توشين للامير آندره :

— شكرا لك يا صديقي ! لقد أنقذتني •

فشملة الامير آندره بنظرة ، وانصرف دون أن يجيبه بكلمة • كان يحس بحزن ، وكان يشعر بانقباض في صدره وثقل في قلبه • كان هذا كله يبدو له غريبا ليس بينه وبين ما كان يتوقعه شبه •

« من هؤلاء الناس ؟ ماذا يفعلون هنا ؟ ماذا يريدون ؟ ومتى ينتهي هذا كله ؟ » • كذلك كان يفكر روستوف وهو ينظر الى الظلال التي تخطر أمامه • وكان ألم ذراعه يشتد • وكان النعاس يستبد به ويغلبه على أمره • وأخذت تتراقص أمام عينيه دوائر حمراء • واختلطت هذه الاصوات وهذه الوجوه وذلك الشعور بالوحدة والعزلة ، اختلط ذلك كله في احساس واحد بالالم • وكانوا هم ، هؤلاء الجنود ، الجرحى منهم وغير الجرحى ، هم الذين يسحقونه سحقا ، ويرهقونه من أمره عسرا ،

ويعقفون عضلاته ويلوونها ، ويحرقون لحم ذراعه المحطم وكتفه المكسر حرقا • فمن أجل أن يفلت منهم ، أغمض عينيه •

غفا روستوف لحظة ، ولكنه في خلال هذه البرهة القصيرة من فقدان الشعور ، رأى في الحلم عددا من الصور لا يحصى : رأى أمه ويده الكبيرة البيضاء ، ورأى كتفي صونيا النحيلتين ، ورأى عيني ناتاشا وضحكتها ، ورأى دينيسوف بصوته وشاربه ، ورأى تليانين ، ورأى كل قصته مع تليانين وبوجدانتش • واختلطت هذه القصة كلها بذلك الجندي ذي الصوت الحاد ، وكانت هذه القصة كلها وذلك الجندي يسكان ذراعه امساكا أليما موجعا بلا هوادة ولا رفق ، ويثقلان عليه ، وما ينفكان يشدانه في ذلك الاتجاه نفسه • ولسوف يزول عذابه ويشفى ألمه اذا هما لم يشدا كتفه هذا الشد • ولكن كان يستحيل عليه أن يتخلص منهما •

فتح عينيه ونظر في الفضاء • كان حجاب الليل الاسود يهبط الى مسافة ثلاثة أقدام فوق ضوء جمرات النار • وفي هذا الضوء كانت تتطاير سبائخ ثلج • وتوشين لم يرجع • والطبيب لم يصل • وهو وحيد • ليس أمامه الآن الا جندي عار جلس الى الجهة الاخرى من النار تدفيء جسمه الهزيل الاصفر •

قال روستوف يحدث نفسه : « لا أحد يهتم بي • لا أحد يمكن أن يساعدني ولا أن يشفق علي ويرثي لحالي • ولقد كنت مع ذلك

في منزل ذات يوم ، قويا مرحا محبوبا • « وتنهد • وحين تنهد خرج
من صدره أنين رغم ارادته •

سأله الجندي وهو يحرك قميصه فوق النار :

— هل تعاني من ألم في موضع بجسمك ؟

وأضاف يقول دون أن ينتظر جوابا :

— ما أكثر الذين تشوهوا هذا اليوم ! يا للشقاء !

كان روستوف لا يصغي الى الجندي • كان ينظر الى سبائخ الثلج
تتطاير فوق النار ، فتذكره بالشتاء الروسي ، والمنزل الدافئ المضيء ،
والفروة الطرية ، والزلاجة السريعة ، وجسمه السليم المعافى ، وكل
ما كانت تحيطه به أسرته من ألوان الحب وفنون العناية والرعاية • قال
يحدث نفسه : « ماذا صنعت بنفسي ؟ ما كان أغباها من فكرة أن جئت
الى هنا ؟ » •

لم يجدد الفرنسيون هجومهم في الغد • والتحقت بقايا مفرزة
باجراتيون بجيش كوتوزوف •

الجزء الثالث

الفصل الأول

ان الامير فاسيلي لا يضع خطته سلفا ، ولا يخطر بباله أن يؤذي الناس ليحني من ذلك نفعا . ما هو الا رجل من رجال المجتمع الراقي استطاع أن ينجح في هذا المجتمع ، فصار هذا النجاح عنده عادة . كانت المشاريع والخطط ما تنفك تولد في ذهنه وفقا لظروفه ووفقا لما له من علاقات ، دون أن يحس هو بذلك ، رغم هذه المشاريع وهذه الخطط هي أهم ما يشغله ويثير اهتمامه في حياته . وكان لا يسعى في مشروع واحد أو مشروعين ، ولا يمضي في خطة واحدة أو خطتين ، وانما كانت مشاريعه وخطته تعدد بالعشرات ، فبعضها ينبت في ذهنه في هذه اللحظة ، وبعضها يكون في سبيل التنفيذ ، وبعضها يكون قد هُجر . كان لا يقول لنفسه مثلا : « هذا رجل له الآن قيمة ، فيجب أن أكسب ثقته وصداقته ، وأن أحصل بواسطته على مساعدة مالية » ، أو : « ان بطرس هو الآن على جانب عظيم من الثراء ، فيجب أن أزوجه ابنتي وأن اقترض منه مبلغ الاربعين ألف روبل التي أنا في حاجة إليها » . ولكن يكفي أن يوجد في طريقه رجل غني حتى توحى إليه غريزته على الفور أن هذا الرجل يمكن أن ينفعه ، فاذا بالأمير فاسيلي يعقد بينه وبينه صلة ، ثم اذا هو يمدحه ويتملقه عند أول فرصة بدون

تصميم سابق ، واذا هو ينطلق في حديثه معه على السجينة بدون كلفة فيقول له ما يجب أن يقول له .

واذا كان بطرس بين يديه بموسكو ، فقد استطاع أن يسميه نبيلًا في البلاط^(١)، وهو مركز يعادل رتبة مستشار دولة^(٢)، وقد الح على الشاب أن يرافقه الى بطرسبرج وأن ينزل عنده . كان الامير فاسيلي يفعل كل ما يجب فعله من أجل أن يزوج بطرس ابنته ، دون أن يبدو عليه شيء من ذلك ، ولكنه كان مقتنعا اقتناعا مطلقا بأن الامر سوف يتم . فلو أنه وضع خطة سلفا ، لما كان في حركاته وسكناته كل ذلك الانطلاق على السجينة الذي يجري طبيعيا لا تكلف فيه ولا اصطناع ، ولما كان في علاقاته بجميع الناس كل تلك البساطة التي ترفع الكلفة وتقوم على المودة والالفة ، سواء أكان هؤلاء الناس أعلى منه منزلة أو أدنى منه مرتبة . وكان شيء ما يجذبه دائما الى من هم أقوى منه سلطة وأعظم منه ثراء ، وكان يملك تلك الغريزة النادرة التي تجعل صاحبها يعرف اللحظة المناسبة التي ينبغي عليه ويستطيع فيها أن يستخدمهم وينتفع بهم .

ولقد أصبح بطرس بين عشية وضحاها هو الكونت الثري بيزوخوف ، بعد أن عاش في المدة الاخيرة حياة اعتزال واستخفاف ،

(١) أولى درجات الشرف في بلاط الامبراطور .

(٢) ليس مستشار الدولة عضوا في مجلس الدولة ، وانما هو وفقا لجدول الرتب الصادر سنة ١٧١٤ موظف مدني من الدرجة الخامسة ، وهذه رتبة تعادل رتبة العميد في الجيش .

فاذا هو يجد نفسه محاطا بعدد كبير من الناس ، مشغولا بعدد كبير من الاعمال ، فلا يستطيع أن يخلو الى نفسه الا حين يأوي الى فراشه . أصبح مضطرا الى أن يوقع أوراقا ، وأن يعامل ادارات لم يكن في ذهنه عنها الا فكرة غامضة ، وأن يلقي أسئلة على مدير أعماله ، وأن يذهب الى أراضيه التي تقع في ضواحي موسكو ، وأن يستقبل جمهورا من الناس كانوا الى ذلك الحين يريدون أن يجهلوا وجوده ، لكنهم صاروا الآن يُجرحون ويتألمون اذا رفض أن يلقاهاهم . أصبح جميع هؤلاء الناس الاشتات من رجال الاعمال والاقارب والمعارف مجتمعين على حب الوارث الشاب ، وكان أمرا واضحا لا شك فيه أنهم مقتنعون بما يمتاز به من صفات عالية . فكان لا ينفك يسمع أحدا يقول له : « بقلبك الممتاز... » أو : « ان لك نفسا نقية طاهرة يا كونت » ، أو أيضا : « لو كان له ذكاء كذكائك » ، الخ ، حتى أخذ بطرس يؤمن صادقا بأنه طيب طيبة نادرة ، وأن له ذكاء نادرا ، لا سيما وأنه كان طول حياته يتصور في الواقع أنه طيب جدا وأنه ذكي جدا . حتى الاشخاص الذين أساءوا معاملته من قبل وناصبوه العداء صريحا ، أصبحوا الآن يحبونه ويحترمونه . فكبرى الاميرات مثلا ، أعني تلك التي كان لها جذع مسرف في الطول ، وكان لها شعر سبط كشعر لعبة ، والتي كانت شرسة حتى ذلك الحين قد جاءت الى غرفته بعد الجنازة خافضة العينين دائمة الاحمرار تبدي له أسفها على سوء التفاهم الذي وقع بينهما ، وتقول له أنها أصبحت لا تحس أن من حقها أن تطالب بشيء اللهم الا أن يأذن لها ، بعد الكارثة التي نزلت بها ، أن تعيش بضعة

أسابيع أخرى في منزل طالما أحبته كثيرا ، وطالما ارتضت أن تضحي فيه كثيرا • ولم تستطع أن تسيطر على نفسها فانفجرت تبكي بدموع غزار حين قالت هذه الكلمات • فتأثر بطرس كثيرا من رؤية هذه السيدة التي كانت صلبة عديمة الاحساس كتمثال من حجر ، فتناول يدها واستغفرها وهو لا يدري عم يستغفرها • ومن ذلك الوقت أخذت الاميرة تحيك له وشاحا مخططا ، وتبدلت معاملتها له كل التبدل •

قال له الامير فاسيلي ذات يوم :

— افعّل لها هذا ، يا عزيزي ، فلطالما تعذبت بسبب الفقيّد الرّاحل على كلّ حال •

قال له الامير فاسيلي ذلك ، وجعله يوقع على سند للاميرة بمبلغ ثلاثين ألف روبل •

كان الامير فاسيلي قد قرر أن يرمي الى الاميرة المسكينة بهذه القطعة من العظم فتتسلى بقضّمها ، حتّى لا يخطر ببالها أن تتحدّث يوما عن ضلوعه في قضية المحفظة المرصعة • وقد وقع بطرس على السند ، وأصبحت الاميرة منذ ذلك الحين تبدي له مزيدا من العاطفة والمحبة • وأصبحت اختاها كذلك أكثر مداراة وبشاشة ورقة مع بطرس ، ولا سيما الصغرى ، أي تلك التي كانت على حظ من الجمال ، وكانت لها شامة حسن ، فهي الآن كثيرا ما توقع بطرس في حالة من الارتباك بابتساماتها وبالخجل الذي يظهر عليها حين تراه •

وكان أمرا طبيعيا جدا في نظر بطرس أن يحبه جميع الناس ،

وكان أمرا شاذا في نظره أن لا يجبوه ، لذلك لم يخامره شك في صدق هؤلاء الناس الذين يحيطون به . هذا عدا أنه كان لا يملك من الوقت ما يمكنه من التساؤل عن صدق هؤلاء الناس أو عن نفاقهم . كان بطرس لا يملك شيئا من وقت أبدا ، وكان يعيش في حالة من نشوة دائمة عذبة فرحة . وكان يحس أنه مركز حركة عامة خطيرة . كان يحس أنه ينتظر منه شيء ما بغير انقطاع ، وأنه ان لم يفعل هذا الشيء ، فسوف يحزن كثيرا من الناس ، وسوف يحرمهم مما كانوا ينتظرون ، وأنه ان فعل هذا الشيء ، فسوف ينتج عن ذلك خير عظيم ، فكان يعمل ما يطلب منه ، ولكن ذلك الخير العظيم لا يحدث . وما من أحد في البرهة الاولى عني ببطرس عناية الامير فاسيلي به ، ولا رعى مصالحه رعايته لها ، . أصبح منذ وفاة الكونت ييزوخوف لا يتركه . وكان الامير فاسيلي يبدو انسانا مرهقا بكثرة الاعمال ، متعبا ، مكدودا ، ولكنه من عطفه على بطرس ، لا يرضى له ضميره أن يترك هذا الشاب الذي لا يملك عن نفسه دفاعا ، والذي هو ابن صديقه على كل حال ، والذي أصبح يملك ثروة طائلة ، أقول لا يرضى له ضميره أن يتركه للحظ يعبث به كما يشاء ، وللاوغاد يطعمون فيه ويخدعونهم عن نفسه . فكان في الايام القليلة التي قضاها بموسكو بعد موت الكونت ييزوخوف يستدعي اليه بطرس ، أو يمضي هو اليه ، لينصحه بما يجب عليه أن يعمل ، وذلك بلهجة فيها من الاعياء والتعب وفيها من الثقة والتأكيد ما يجعله يبدو كمن يضيف الى كلامه في كل مرة هذه الجملة : « انك لتعرف أنني مرهق بأعمال كثيرة ، وانتي لا أهتم بك

هذا الاهتمام كله الا بدافع العطف والاحسان ، ثم انك تعلم حق العلم
أن ما أقترحه عليك هو الشيء الوحيد الذي يمكن عمله • «

وقال له ذات يوم وهو يغمض عينيه ويربت له على كوعه كأن الامر
قد تم الاتفاق عليه بينهما منذ مدة طويلة ، ولا يمكن الا أن يكون
الاتفاق عليه قد تم :

— سنسافر في الغد يا صديقي • واذا سافرنا في الغد لا نكون قد
تعجلنا السفر • نعم ، سنسافر في الغد • تركب في عربتي • يسعدني هذا
أكبر السعادة • أنهينا هنا جميع الامور الهامة • كان علي أن أسافر
منذ مدة طويلة • اليك الرد الذي وصلني من المستشار : لقد سميت
نيلا في البلاط وملحقا بالسلك السياسي تلبية لطلبي أصبح باب السلك
الدبلوماسي مفتوحا لك •

كان بطرس قد فكر كثيرا في الطريق التي سيسلكها في حياته
فأراد أن يعترض، رغم كل ما اشتملت عليه لهجة الاعياء والثقة التي قيلت
بها كلمات الامير فاسيلي من قوة الاقتناع ، ولكن الامير فاسيلي أوقفه
عن الكلام بتلك النبرة الخفيفة الساجعة التي تنفي كل احتمال للاعتراض،
وهي نبرة كان لا يعمد الى استعمالها الا في الحالات القصوى • قال :

— لكنني يا عزيزي انما فعلت هذا لك ارضاء لضميري ، فلا داعي
الى أن تشكر لي صنيعي • ما من أحد ساءه يوما أن يحب كثيرا • ثم انك
حر تستطيع أن تهجر كل شيء منذ الغد • سوف ترى هذا متى وصلنا

بطرسبرج • وقد آن لك أن تترك هذه الذكريات الرهيبة كلها •

وتنهذ الامير فاسيلي ، ثم تابع كلامه يقول :

— هكذا يا صديقي العزيز ، ويركب خادمي عربتك •

وأضاف مسرعا يقول :

— آ ••• كدت أنسى • لقد كان بيننا ، أنا والكونت ، حساب •

لذلك قبضت مبلغا عن ايرادات اراضي ريازان • ولست في حاجة اليها ،

فسوف أحتفظ بها ، ثم تتحاسب •

ان ما كان الامير فاسيلي يسميه « مبلغا » انما هو بضعة آلاف

روبل من أكرارة أراض ، احتفظ بها لنفسه •

وأحيط بطرس في بطرسبرج بمثل ما أحيط به من جو زاهر بالعاطفة

والمودة • ولم يستطع أن يرفض المنصب الذي سماه الامير فاسيلي لها ،

أو قل المنزلة الكريمة التي حصل له عليها (ذلك أن بطرس لن يقوم بعمل)

وصارت له علاقات بلغت من الوفرة ، وصار يثدعى الى ولائم بلغت

من الكثرة ، وترتبت عليه واجبات اجتماعية بلغت من الالحاح أنه

أحس بأنه الزوبعة التي يدور في اعصارها الآن أقوى منها في موسكو ،

وهي الزوبعة التي تبشره بسعادة قريبة لكنها تبتعد •

وكان عدد كبير من رفاق لهوه القدامى غائبين عن بطرسبرج •

فالحرس في حملة ، ودولوخوف جُرد من رتبته العسكرية ، وآناتول

في الجيش ، والامير آندره في الخارج ، فلم يعد في امكان بطرس أن

يقضي لياليه كما كان يجب أن يقضيها في الماضي ، ولا أن يسترسل من حين الى حين في أحاديث ودية مع صديقه الذي يكبره سنا ويحترمه كثيرا . أصبح وقته كله ينقض في مآدب عشاء ، وحفلات رقص ، وعند الامير فاسيلي أكثر الاحيان ، في صحبة امرأته الاميرة السمينة ، وهيلين الجميلة .

وكما فعل سائر الناس ، قدمت له آنا بافلوفنا شيرير براهين على تغير رأيها فيه .

كان بطرس ، قبل ذلك ، يشعر في حضرتها دائما بأن ما يقوله ليس في محله ، وانه يفتقر الى الكياسة ، وانه ليس ما يجب أن يقال ، وأن جميع الاقوال التي تبدو له مشتملة على شيء من الحس السليم والرأي السديد أثناء نطقه بها في خياله ، تصبح غبية حمقاء متى نطقها جهارا ، على حين أن أسخف الاقوال التي يسوقها هيوليت تبدو ذكية ظريفة . أما الآن فان كل ما يقوله يوصف له بأنه ظريف . وهب آنا بافلوفنا لم تعلن ذلك ، فلقد كان بطرس يلاحظ أنها تبدو أنها تود لو تقوله ، ولا تمسك عن قوله الا مراعاة لتواضعه .

وفي مطلع شتاء سنة ١٨٠٥ - ١٨٠٦ ، تلقى بطرس من آنا بافلوفنا بطاقتها الوردية المألوفة تدعوه فيها الى حفلتها ، مضيئة الى نصها هذه العبارة : « وستجد عندي هيلين الجميلة التي لا يمل المرء من النظر اليها . »

فلما قرأ بطرس هذه العبارة شعر لأول مرة أن نوعا من رابطة يعرفها

الآخرون قد نشأت بينه وبين هيلين ، فهالته هذه الفكرة كما لو كان يفرض عليه واجب لا يقدر على القيام به ، ولكنها في الوقت نفسه راقته له افتراضا مسليا يبعث على الضحك •

وكانت سهرة آنا بافلوفنا مماثلة لحفلتها الاولى كل المماثلة ، مع فرق واحد هو أن الشيء الطريف الذي أتحت به ضيوفها في هذه المرة ليس حضور مورتمار ، بل حضور دبلوماسي وصل من برلين حاملا منها آخر التفاصيل عن اقامة الاسكندر في بوتسدام، وعن التحالف الذي لانقصاص له الذي تعاهد عليه العاهلان الصديقان دفاعا عن القضية العادلة ضد عدو النوع البشري • وقد استقبلت آنا بافلوفنا صاحبنا بطرس وعلى وجهها مسحة من حزن كان واضحا أن مردها الى فقد الشاب أباه ، أي الى موت الكونت بيزوخوف (كان جميع الناس يشعرون بأنهم مضطرون الى أن يؤكدوا لبطرس أنهم حزاني جدا لوفاة والده ، الذي لم يكن بطرس قد عرفه تقريبا) ، وهو حزن يشبه كل الشبه ذلك الحزن السامي الذي كانت تظهره كلما ذكر اسم الامبراطورة الام، ماري فيدوروفنا • وقد تعرف بطرس الى هذه المراعاة وهذا التملق • واستطاعت آنا بافلوفنا بفنها المعهود فيها أن تؤلف في صالونها حلقات • فكانت الحلقة الرئيسية التي اشتركت فيها الامير فاسيلي والجنرالات ، هي التي انتفعت بوجود الدبلوماسي الوافد من برلين • واجتمعت حلقة أخرى حول مائدة الشاي • وقد أراد بطرس أن ينضم الى الحلقة الاولى ، ولكن آنا بافلوفنا التي كانت في حالة عصبية شبيهة بالحالة العصبية

التي يكون فيها قائد في ساحة المعركة حين تنبجس في ذهنه ألف فكرة جديدة بارعة لا يكاد يتسع وقته لوضعها موضع التنفيذ ، رأت بطرس وهو يهم أن ينضم الى الحلقة الاولى ، فلمست كوعه بيدها وقالت له :
 - انتظر • عندي لك في هذا المساء مشاريع ونظرت الى هيلين وابتسمت لها قائلة :

- عزيزتي هيلين الطيبة ، يجب عليك أن تشفقي على عمتي المسكينة التي تحبك حب العباداة وأن تحسني اليها ، فتجالسها عشر دقائق •
 ومن أجل أن لا يعتربك ضجر فاليك الكونت العزيز الذي لن يرفض أن يصحبك

مضت هيلين الجميلة تلتقي العمة • ولكن آنا بافلونا أخرجت بطرس متظاهرة بأن عندها توصية أخيرة لا غنى لها عن اسدائها اليه •

قالت وهي توميء الى الجميلة الرائعة التي كانت ذاهبة الى العمة :

- فتانة ، أليس كذلك ؟ وما أعظم أدبها ! فتاة في ريعان الصبا تملك هذه الكياسة كلها ، وتحسن التصرف هذا الاحسان كله ! ذلك يصدر عن القلب ! ما أسعد من ستكون له ! ان الرجل الذي سيتزوجها يضمن أن يحتل في المجتمع الراقي ألمع منزلة ولو كان أقل الناس معرفة بهذا المجتمع • أليس كذلك ؟ كل ما أردته هو أن أعرف رأيك •

واخلت آنا بافلونا سبيل بطرس •

أجاب بطرس عن سؤال آنا بافلونا بالموافقة صادقا على رأيها فيما

تملكه هيلين من فن الكياسة وحسن التصرف • كان اذا اتفق له أن فكر في هيلين ، انما ينصرف ذهنه الى هذا الجمال ، والى هذه الموهبة الخارقة التي تملكها ، أعني قدرتها على أن تتخذ في المجتمع وضع الهدوء الساجي والوقار الصموت •

استقبلت العمة الشابين في ركنها ، ولكن لم يظهر عليها الحب الشديد الذي تحمله لهيلين مثلما ظهرت الخشية الكبيرة التي تبعثها في نفسها آنا بافلوفنا • وألقت نظرة طويلة على ابنة أختها كأنها تسألها عن السلوك الذي يجب أن تلتزمه • وحين تركتهم آنا بافلوفنا لمست كم بطرس باصبها مرة أخرى وقالت له :

— أمل أن لا تقول بعد الآن ان المرء يشعر عندي بضجر •
ونظرت الى هيلين •

فابتسمت هيلين ابتسامة من تريد أن تقول انها لا تتصور أن يراها أحد ثم لا يفتتن بها • وسعلت العمة ، وبلعت ريقها ، وقالت بالفرنسية انها سُرّت أعظم السرور برؤية هيلين • ثم التفتت الى بطرس بهذه الهيئة نفسها ، ورددت له كلمات الترحيب هذه نفسها • وفي أثناء الحديث المضجر الممل المتعثر الذي جرى بعد ذلك ، نظرت هيلين الى بطرس وابتسمت له تلك الابتسامة الجميلة المضيئة نفسها التي كانت توجهها الى الناس كافة • وكان بطرس قد بلغ من التعود على هذه الابتسامة ، وكانت هذه الابتسامة قد بلغت من قلة الدلالة في نظره ، أنه لم يلق اليها بالا ، ولم يولها انتباها • وكانت العمة تتكلم في تلك اللحظة عن مجموعة علب

التبغ التي كان يملكها المرحوم أبو بطرس ، الكونت ييزوخوف ، ثم أرت بطرس علبتها هي • فطلبت الاميرة هيلين أن ترى صورة زوج العمة ، وهي الصورة التي تزدان بها علبة التبغ •

قال بطرس مسميا اسم رسام من رسامي الصور المنمنمة :

— لا بد أن صانع هذه الصورة هو الرسام فينيس •

ومال على الطاولة يتناول علبة التبغ بيديه ، مصيخا بسمعه في الوقت نفسه الى الحديث الذي كان يجري حول الطاولة المجاورة •

وأراد أن يقوم ليجول جولة ، ولكن العمة مدت اليه علبة التبغ وراء ظهر هيلين ، وانحنت هيلين الى أمام لتسهل هذه الحركة ، والتفتت الى بطرس متبسمة ، وكانت على عادتها في السهرات ، ترتدي فستانا عريض العري في الصدر والظهر ، وفقا للموضة السائدة في ذلك الوقت • فاذا بجذعها الذي كان يبدو لبطرس دائما أنه مقدود من مرمر ، قد بلغ من الدنو من عينيه أنه استطاع بصره الحسير أن يميز ، رغم ارادته ، ما في كتفيها وجيدها من فتنة حية ، واذا بجذعها يبلغ من الدنو من شفثيه أيضا أنه كان يكفيه أن ينحني قليلا حتى يلامس هذين الكتفين وهذا الجيد • وأحسن بدفء جسدها، وتنسم ضوع عطرها، وأصبح يسمع طقطقة مشدها اذا هي تحركت • ان ما يراه الآن ليس جمالها المرمري الذي يتحد بشوبها فكأنهما شيء واحد ، وانما هو يرى الآن ويحس كل فتنة جسدها الذي لا تستره الا ملابسها • وبعد أن رأى ذلك أصبح لا

يستطيع أن يراها في غير هذه الصورة ، كما لا يمكن أن يقع المرء في خطأ بعد أن زالت عن عينيه العشاوة •

« ألم تلاحظ اذن حتى الآن روعة ما أملك من جمال ؟ ألم تلاحظ أنني امرأة ؟ نعم ، أنا امرأة يمكن أن أكون لاي رجل ، وأن أكون لك أنت أيضا » •

كذلك قالت نظرة هيلين • وأحس بطرس في تلك اللحظة نفسها أن هيلين لا يمكن أن تكون زوجته فحسب ، بل يجب أن تكون زوجته ، ولا يمكن الا أن تصبح زوجته •

وبلغ من ثقته بذلك أنه أحس منذ تلك اللحظة أنه واقف معها في الكنيسة أمام الهيكل يزوجهما الكاهن • أما كيف يتم هذا ؟ ومتى يتم هذا ؟ فقد كان بطرس يجهل ذلك ، حتى انه يجهل هل يكون في هذا خير (بل كان يحس احساسا لا يعرف مصدره أن لن يكون في هذا خير)، ولكنه يعلم أنه سيتم •

خفض بطرس عينيه ، ثم رفعهما يريد أن يراها جمالا كالذي كان يراه قبل ذلك كل يوم ، أعني جمالا بعيدا كما كان ، غريبا عنه كما كان ، ولكنه أصبح لا يستطيع ذلك • أصبح لا يستطيعه ، مثله كمثل من رأى في الضباب قشة فحسبها شجرة ، فأصبح لا يستطيع اذا انكشف له خطوّة أن يراها مرة أخرى شجرة • انها الآن قريبة منه قربا رهيبا • ان لها عليه منذ الآن سلطانا قويا • ولم يبق بينهما الآن من عوائق الا

عوائق ارادته هو •

قال صوت آنا بافلوفنا :

— طيب • سأترككم في ركنكم الصغير ، فانتني أرى أنكم فيه
مرتاحون كل الارتياح •

تساءل بطرس مرتاعا ألم يرتكب شيئا يلام عليه، وأجال بصره حوله
محمر الوجه • كان يبدو له أن جميع الناس يعرفون ما وقع له مثلما
يعرفه هو نفسه •

وحين التحق بالحلقة الرئيسية بعد برهة من الوقت ، قالت له آنا
بافلوفنا :

— يُقال انك تجمّل منزلك ببطرسبرج •

وكان هذا صحيحا • فان بطرس قد استجاب للرأي القاطع الذي
أبداه المهندس المعماري ، فأمر باصلاح حال المنزل الضخم الذي يملكه
ببطرسبرج •

فقالت آنا بافلوفنا :

— حسن هذا، ولكن لا تترك منزل الامير فاسيلي • انه لمن الخير
للمرء أن يكون له صديق كالامير •

قالت ذلك وهي تبسم للامير فاسيلي • وأردفت :

— أنا أعرف من الامر شيئا ، أليس كذلك ؟ انك ما تزال في ريعان الصبا ، فأنت في حاجة الى نصائح . لا تزعل مني اذا أنا استعملت ما لامرأة عجوز من حقوق .

وصمتت كما تصمت النساء اللواتي ينتظرن اعتراضا على ما قلنه عن سنهن . ثم عقبته قائلة :

— اما اذا تزوجت ، فيختلف الامر .

قالت ذلك وهي تشمل بطرس وهيلين بنظرة واحدة . وكان بطرس لا ينظر الى هيلين ، وكانت هيلين لا تنظر الى بطرس . ولكن هيلين ما تزال قريبة منه قربا رهيبا . وجمعهم بيضع كلمات واحمر وجهه .

رجع بطرس الى البيت ، فظل مدة طويلة لا يستطيع أن ينام ، مفكرا فيما حدث له . ولكن ما الذي حدث له ؟ لا شيء . كل ما هنالك أنه أدرك أن المرأة التي عرفها وهي طفلة ، والتي كان يقول عنها في ذمول حين كانوا يحدثونه عن جمال هيلين : « نعم، هي جميلة » ، أدرك أن هذه المرأة يمكن أن تكون له .

« ولكنها غبية . أنا نفسي كنت أقول انها غبية . ان في العاطفة التي أثارته في نفسي لشيئا دنيئا ، شيئا محرما . لقد قيل لي ان أخاها آنا تول كان مغرما بها ، وانها كانت مغرمة به ، وان قصة بكاملها قد حدثت ، وان هذا هو السبب الذي حملهم على ترحيل آنا تول . وأخوها الثاني هو هيبوليت . . . وأبوها هو الامير فاسيلي . . . ذلك كله ليس خيرا » ،

بذلك حدث الامير بطرس نفسه • وفيما كان يفكر هذا التفكير (وقد وقف تفكيره عند الحد ولم يكتمل) ، فاجأ نفسه مبتسما ، وأدرك أن تفكيراً آخر كان ينبجس وراء التفكير الاول ، وأنه أثناء تصوره تفاهة هيلين كان يحلم بأنها ستكون امرأته ، وأنها يمكن أن تحبه ، وأنها ربما كانت شيئاً آخر ، وأن كل ما خطر بباله وكل ما قيل عنها ربما كان زوراً ومرة أخرى أصبح لا يرى ابنة الامير فاسيلي ، وانما يرى جسدها الذي لا يكاد فستانها الاشهب • وقال متسائلاً : « لكن كيف أمكن أن لا تخامرني هذه الفكرة في يوم من الايام حتى الآن ؟ » • وعاد يقول لنفسه ان الامر مستحيل ، وان في هذا الزواج شيئاً دنيئاً ، شيئاً مخالفاً للطبيعة ، شيئاً منافياً للشرف فيما يبدو له • وتذكر أقوال هيلين ، وتذكر نظراتها ، وتذكر أيضاً أقوال ونظرات أولئك الذين كانوا يرونها معا • تذكر ما كان يعبر عنه وجه آنا بافلوفنا ، وتذكر نظراتها ، بينا كانت تحدثه عن منزله ، وتذكر ألف الماعة مشابهة صدرت عن الامير فاسيلي وعن آخرين ، فما كان أشد الارتياح الذي اعتراه اذ تصور أنه لعله أصبح ، بطريقة أو بأخرى ، ملزماً بتحقيق ذلك الفعل الذي لا شك في أنه فعل شيء ، وأن عليه أن يمتنع عنه • ولكن في ذلك الوقت نفسه الذي كان يُصدر فيه هذا القرار كانت صورتها تبجس من ركن آخر في نفسه ، متألفة بكل ما تملكه من جمال المرأة •

الفصل الثاني

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٨٠٥ ،، كان على الامير فاسيلي أن يقوم برحلة تفتيشية الى أربعة أقاليم . وكان قد التمس تكليفه بهذه المهمة ليستطيع أن يزور أراضيها التي ساءت حالها وكانت تقلقه ، ولير كذلك بانه آفاتول (في المدينة التي ترابط فيها حاميته) فيصطحبه في زيارة للامير نيقولا أندريفتش بولكونسكي بغية أن يزوجه ابنة هذا الشيخ الذي يملك ثراء طائلا . ولكنه قبل أن يسافر وأن يشرع في هذه الاعمال الجديدة ، كان عليه أن يفرغ من قضية بطرس الذي ان كان في الآونة الاخيرة أصبح يقضي في المنزل أياما كاملة ، وكان بحضور هيلين يتصرف تصرفات مضحكة فيها انفعال وارتباك وغباء (شأن كل عاشق موله) ، فانه لم يعزم أمره الى الآن ، ولا استطاع أن يتخذ قرارا .

قال الامير فاسيلي لنفسه ذات صباح : « هذا كله حسن ، ولكن لا بد أن ينتهي الامر » ، قال لنفسه ذلك وهو يتنهد حزينا ، لاعتقاده بأن بطرس الذي يدين له بأشياء كثيرة (سامحه الله !) لا يتصرف في هذه القضية تصرفا سليما كل السلامة . وقال لنفسه متلذذا بالاحساس بمدى طيبته : « هو الشباب ... والاستهتار ... »

غفر الله له ، ولكن لا بد أن ينتهي الامر الى نتيجة • بعد غد عيد ليوليا^(١) • سادعو عددا من الضيوف • فاذا لم يدرك ما يجب عليه أن يعمل ، كان علي أنا أن أتصرف • نعم ، أنا أتصرف • فأنا الاب ! » •

وكان بطرس ، بعد انقضاء ستة أسابيع على سهرة آنا بافلوفنا ، واليلة المضطربة التي تلتها وكانت ليلة مؤرقة مسهدة قرر فيها أن الزواج سيكون مصيبة ، وأن عليه أن يتحاشى هيلين وأن يسافر ، أقول ان بطرس ظل مقيما في منزل الامير فاسيلي كوراجين رغم اتخاذه هذا القرار ، وكان يحس مرتاعا بأنه يزداد التزاما بها في نظر الناس يوما بعد يوم، وأنه أصبح لا يستطيع أن يراها بالعين التي كان يراها بها من قبل ، وأنه أصبح لا يستطيع انتزاع نفسه منها، وان ربط مصيره بمصيرها شيء رهيب، ولكن لا بد له منه • ولعله كان لا يزال يستطيع أن يتمتع، ولكن كان لا يمضي يوم الا وقيم الامير فاسيلي •• (وهو قلما يستقبل الناس) سهرة لا مفر لبطرس من حضورها اذا كان لا يريد أن يفسد على الناس مسرتهم وأن لا يخيب ظنهم • وكان الامير فاسيلي ، في الاوقات القليلة التي يقضيها بالمنزل ، يمد اليه خده المغضنة المحلوقة ذاهلا ويقول له : «الى الغد» أو «لاتعب عن العشاء، والا فلن أراك» أو أيضا : «من أجلك انما أبقى»، الخ • ورغم أنه حين يبقى في المنزل من أجل بطرس (كما يقول) لا يبادل كلمتين، فقد كان بطرس لا يجرو أن يخالف رغبته أو أن يعصي أمره أو

(١) تصغير اسم هيلين تدليلا .

أن يخيب ظنه. وكان يقول لنفسه كلاما يردده كل يوم: «يجب علي أخيراً أن أفهمها ، وأن أعرف ما هي. أكنت من قبلُ مخطئاً أم أنا الآن مخطيء» . وكان يقول لنفسه في بعض الأحيان : « لا ، ما هي بالحقهاء . انها فتاة ممتازة . لم تخطيء يوماً في شيء ، ولا نطقت مرة بسخافة . هي قليلة الكلام ، ولكن ما تقوله يتصف دائماً بالبساطة والوضوح . فما هي اذن غبية . انها لم تضطرب في يوم من الايام ، ولا هي تضطرب أبدا . معنى هذا انها امرأة ممتازة ! » وكثيراً ما كان يسترسل معها في حديث من الاحاديث مفكراً بصوت عال كما يقال ، فكانت في كل مرة تجيبه أما بملاحظة موجزة لكنها في محلها ، دالة بذلك على قلة اهتمامها بهذه الامور ، وأما بابتسامة صامتة ونظرة هادئة تجعلانه يشعر بتفوقها عليه . انها على حق : ما قيمة البراهين كلها بالقياس الى هذه الابتسامة ؟ » .

وكانت تكلمه دائماً وهي تبسم تلك الابتسامة الجذلة الواثقة التي تخصه بها وحده دون غيره ، وتشتمل على أكثر مما تشتمل عليه ابتسامتها الجامدة التي تضيء وجهها دائماً . كان بطرس يعلم أن جميع الناس لا يتوقعون منه الا شيئاً واحداً ، هو أن يقول في آخر الامر كلمة ، أن يجتاز حاجزاً ، وكان يعلم أنه سيجتاز هذا الحاجز عاجلاً أو آجلاً . ولكن ذعراً لا يمكن فهمه كان يعتريه حين يتصور أنه سيخطو تلك الخطوة . الف مرة قال لنفسه في تلك الاسابيع الستة التي كان يشعر أثناءها أنه يوغل في هذه الهاوية مزيداً من الايغال : « ما بالي ؟ ان الامر لا يحتاج الى عزيمة ؟ أأكون خالياً من العزيمة ؟ » .

كان يريد أن يعزم أمره ، ولكنه كان يحس مرتاعا أنه يفتقر في هذه الحالة الى تلك العزيمة التي كان يظنها في نفسه وكان يملكها في الواقع . ان بطرس واحد من أولئك الناس الذين لا يكونون أقوياء الا حين يحسون أنهم أطهار طهارة مطلقة . وهو منذ اليوم الذي ثبت في نفسه الشهوة حين كان ينظر علبة التبغ في منزل آنا بافلوتنا شل ارادته وعطل عزمته احساس لا شعوري باثم تلك الشهوة .

وفي يوم عيد هيلين ، دعي الى العشاء في منزل الامير فاسيلي عدد صغير من الخلاء الاقربين ، كما قالت الاميرة ، هم اقرباء وأصدقاء ، وقد أفهموا جميعا أن مصير الفتاة التي يُحتفل بعيدها انما سيقدر في ذلك اليوم . وكانت تتصدر المائدة امرأة جسيمة مهيبة يدل مظهرها على أنها كانت في الماضي جميلة ، هي الاميرة كوراجين . وكان يحيط بها أعلى المدعوين قدرا : جنرال شيخ ، وامراته ، وآنا بافلوتنا شير . وفي آخر المائدة كان يجلس المدعوون الاصغر سنا والاقبل شأنا ، وكان بين هؤلاء سكان المنزل ، ومنهم بطرس وهيلين متجاورين . وكان الامير فاسيلي لا يشارك في العشاء ، وانما هو يدور حول المائدة ، فيجلس جذلا بقرب هذا المدعو تارة وبقرب ذلك المدعو الآخر تارة . وكان يقول لكل واحد بضع كلمات طليقة لطيفة ، باستثناء بطرس وهيلين الذين كان كمن لا يلاحظ وجودهما . وكانت شعل الشموع تتوهج توهجا قويا ، وكانت أدوات المائدة الفضية والبلورية تلمع التماعا براقا ، وكانت حلى النساء والذهب والفضة في الكتفيات

تتألق تألقاً باهراً • وكان الخدم المرتدون أزياءهم الرسمية الحمراء يسعون حول المائدة منهمكين • وكانت قرقعة السكاكين والاقداح والاطباق تختلط بجلبة الاحاديث النشطة الصاخبة • وفي طرف من المائدة كان يُسمع صوت حاجب شيخ من حجاب البلاط يعلن لبارونة عجوز عن حبه الحار ، فتضحك البارونة رداً على تصريحه لها بالغرام المشبوب • وفي الطرف الآخر من المائدة كانت تروى قصة عن خيبة الامل التي أصيبت بها فتاة اسمها ماريّا فكتوروفنا • وفي الوسط كان الامير فاسيلي مركز الانتباه ومحط الانظار • كان يقص على السيدات ، وهو يتسم ابتسامة فرحة ، ما جرى في آخر جلسة عقدها « مجلس الامبراطورية » يوم الاربعاء ، فيروي كيف قرأ سرجي كوزميتش فيازميتنيوف^(١) ، الحاكم العسكري الجديد لبطرسبرج، الامر العالي الذي أرسله الامبراطور الاسكندر من الجيش ، وفيه يخاطب سرجي كوزميتش قائلاً له أنه يتلقى من جميع الجهات ما يشهد بالاخلاص له والتفاني في حبه ، وأن ما وصله من بطرسبرج قد سره سرورا خاصا، وأنه فخور بأن يكون قائد أمة كهذه الامة ، وأنه يحاول أن يكون جديرا بها • لقد كان الامر العالي الصادر عن الامبراطور يبدأ بهذه العبارة : « سرجي كوزميتش، من جميع الانحاء تصلني اصدااء »، الخ... .

قالت احدي السيدات تسأل :

(١) سرجي كوزميتش فيازميتنيوف (١٧٤٩ - ١٨١٩) : وزير الحرب منذ سنة ١٨٠٢ ، ثم حاكم عام لمدينة سان بطرسبرج سنة ١٨٠٥ .

— هل صحيح أنه لم يستطع أن يقرأ الا كلمتي سرجي كوزمتش ؟

فأجاب الامير فاسيلي قائلاً :

— لم يزد عليهما حرفاً ••• « سرجي كوزمتش ••• من جميع الانحاء ، من جميع الانحاء ، سرجي كوزمتش ••• » لم يفلح فيازمينيتوف المسكين في أن يتقدم أكثر من ذلك • لقد أعاد القراءة عدة مرات ، ولكنه ما يكاد يقول « سرجي » حتى يبكي ناشجاً • ثم ما يكاد يقول « كوز ••• متش » حتى تهطل دموعه ••• وما يكاد يقول : « من جميع الانحاء » حتى يخنقه النشيج ، فلا يستطيع أن يواصل القراءة • ويعود يكفكف دموعه بمنديله • ويستأنف القراءة فما ان يقل « سرجي كوزمتش ، من جميع الانحاء » حتى تنسكب الدموع غزيرة من جديد • فما كان من الحضور الا أن طلبوا من شخص آخر أن يقرأ نيابة عنه •

قال أحدهم مردداً وهو يضحك :

— كوزمتش ••• من جميع الانحاء •

فقالت آنا بافلوفنا من الطرف الآخر من المائدة ، وهي تهدد باصبعها :

— لا تكونوا أشرارا ••• انه رجل شهيم ممتاز ، صاحبنا الطيب فيازمينيتوف •••

وساد الضحك حتى بلغ أقصى المائدة ، وكانت تبعث عليه

أسباب شتى متنوعة في الواقع ، وكان بطرس وهيلين وحدهما صامتين في ركنهما لا يضحكان . كانا كلاهما يكظمان ابتسامة وضاعة ليس لها أية علاقة بسرجي كوزمتش ، انها ابتسامة حياء من عواطفها ، ابتسامة خفر . ولقد تكلم الآخرون كثيرا ، وضحكوا كثيرا ، وتمازحوا كثيرا ، وطعموا اللحم المقلي بشراهة ، وشربوا خمرة الراين بنهم ، وتحاشوا النظر الى الشايين ما استطاعوا أن يتحاشوه ، وتظاهروا بأنهم لا يولونها أي انتباه ، ولكن المرء يحس من النظرات التي يلقونها عليهما من حين الى حين أن الحكاية الفكهة التي تروى عن سرجي كوزمتش والضحكات ووجبة الطعام ، أن ذلك كله لم يكن الا تظاهرا وأن انتباه الحفل كله كان متركزا كله على هذين الشايين ، بطرس وهيلين . كان الامير فاسيلي يقلد نشيج سرجي كوزمتش ، ويلف ابنته في الوقت نفسه بنظرة سريعة . وفيما كان يضحك كانت ملامح وجهه تقول : « هكذا هكذا ، كل شي يجري مجرى حسنا . اليوم سيتقرر كل شيء » . وكانت آنا بافلوفنا تهدده باصبعها دفاعا عن صاحبنا الطيب فيازمينيتوف ، فيقرأ الامير فاسيلي في عينيها اللتين ترشقان بطرس في تلك اللحظة بنظرة خاطفة مختلسة ، يقرأ أنها تهنئه بهذا الصهر ، وتغبطه على سعادة ابنته . وكانت الاميرة الام ، وهي تقدم لجارتها الخمرة متتهدة تنهدا حزينا ، وتلقى على ابنتها نظرة زاخرة بالحسرة ، كانت كمن تريد أن تقول بهذا التنهد : « نعم ، لم يبق علينا الآن الا أن نشرب النبيذ الحلو يا ابنتي . جاء دور الشبيبة تعرض على الناس سعادة جريئة هذه الجرأة

كلها ! » • وقال دبلوماسي وهو ينظر الى وجهي العاشقين السعيدين :
 « ما أسخف كل ما أحكيه • لكأن هذا الذي أقوله يهمني في قليل
 أو كثير ! السعادة هذه هي ! » •

وفي وسط هذه المشاغل التافهة المصطنعة التي كانت تجمع هذا
 الحفل كانت تتسلل عاطفة طبيعية قوامها التجاذب بين الشاب والشابة،
 الجميلين السليمين • وكانت هذه العاطفة الانسانية تسيطر على كل
 شيء ، وتحلق فوق كل تلك الثروات المفتعلة • الامازيح لم تكن
 مرحة ، والاقاصيص كانت لا تثير اهتماما ، والنشاط كله كان ظاهر
 الاصطناع • وكان يشعر بهذا لا الضيوف وحدهم ، بل الخدم الذين
 يسعون حول المائدة أيضا ، حتى لقد كانوا يغفلون أحيانا عن ضرورات
 الخدمة وهم يتأملون هيلين الجميلة بمحياها الوضاء المتألق ، ويتأملون
 بطرس ، الممتليء الوجه ، المحمر اللون ، السعيد القلق في آن واحد •
 لكأن شعل الشموع نفسها كانت لا تتجه الى هذين الوجهين السعيدين •

كان بطرس يحس أنه مركز هذا كله ، فكان ذلك يملا نفسه فرحا
 وحرجا • كانت حالته حالة انسان مستغرق في أمر من الامور • فهو
 لا يرى ولا يفهم ولا يسمع شيئا من الاشياء على نحو واضح • في
 بعض اللحظات فقط ، كانت تنف من أفكار ومشاعر ترده الى الواقع •

قال يحدث نفسه : « الامر اذن تم ! ولكن كيف حدث هذا كله ؟
 أبهذه السرعة الهائلة ؟ أنا أعلم الآن أن « الامر » أصبح لا بد أن يتم

لا من أجلها وحدها، ولا من أجلي وحدي ، بل من أجلهم كلهم أيضا .
لقد بلغوا من الثقة بأن الامر سيتم أنني أصبحت لا أستطيع ولا أريد
حقا أن أخيب ظنهم . كيف سيتم الامر ؟ لا أدري ، ولكنه سيتم ،
سيتم حتما ! » . وألقى نظرات على الكتفين المتألفتين بقرب عينيه .

ثم شعر فجأة بخجل . لقد أخرجته وأربكه أن يحتكر وحده انتباه
الجميع ، وأن يعد رجلا سعيدا ، وأن يكون بوجهه الذي لا جمال فيه
أشبه ببطل الاسطورة اليونانية « باريس » الذي استولى على الجميلة
هيلين . ثم قال لنفسه يواسيها ويعزيها : « ولكن أغلب الظن أن الامور
تجري على هذا النحو دائما ، ولا بد أن تجري على هذا النحو . ثم
ما الذي فعلته أنا من أجل هذا ؟ متى بدأ هذا ؟ لقد غادرت موسكو
مع الامير فاسيلي . ولم يكن هناك شيء بعد . فما الذي كان يمنعني
أن أنزل عنده ؟ ثم لعبت معها بالورق ، وناولتها حقيبة يدها التي
سقطت على الارض ، واشتركتنا في نزهة بالعربة . فمتى بدأ الامر ؟ متى
تم هذا كله ؟ » . وها هو ذا الآن يجلس الى جانبها خطيبا . انه
يسمعها ، ويراها ، ويحس وجودها ، ويشعر بأنفاسها ، ويبصر حركاتها ،
ويرى جمالها . ثم يبدو له فجأة أنها ليست هي الجميلة جمالا خارقا ،
بل هو ، وأن هذا هو السبب في أن جميع الناس ينظرون اليه على هذا
النحو ، فيسعدده هذا الاعجاب العام به ، فيقبَّب صدره ، ويرفع
رأسه ، ويتهيج بسعادته فخورا . وانه كذلك اذا بصوت يقول له
شيئا للمرة الثانية ، وهو صوت شخص يعرفه بطرس . ولكنه بطرس

قد بلغ من الاستغراق في أفكاره أنه لا يفهم ما يقال له •

ردد صوت الامير فاسيلي يسأله مرة ثالثة :

— أسألك متى وصلتك آخر رسالة من بولكونسكي ؟ ما أشد

ذهولك يا عزيزي !

وابتسم الامير فاسيلي • ولاحظ بطرس أن الحضور جميعا يتسمون

لهما ، هو وهيلين • قال لنفسه : « لا بأس ، ما دمت جميعا تعرفون •

ثم ان الامر حق » ، وابتسم هو أيضا ابتسامته تلك التي تشبه ابتسامة

طفل وابتسمت كذلك هيلين •

وكرر الامير فاسيلي سؤاله الذي يبدو أنه كان في حاجة الى جواب

عنه انهاءلناقشة :

— متى وصلتك آخر رسالة من بطرس؟ هل وصلتك من أولموتس؟

فقال بطرس لنفسه : « هل يمكن أن يفكر المرء في مثل هذه

الترهات ، أن يفكر فيها ؟ أن تخطر بباله ؟ » ثم أجاب وهو يتنهد :

— نعم ، من أولموتس •

وبعد العشاء اقتاد بطرس هيلين الى الصالون في اثر الآخرين •

وأخذ الضيوف ينسحبون ، وكان بعضهم ينسحبون دون أن يودعوا

هيلين • كانوا كأنهم لا يريدون أن يصرفوها عن شاغل هام ، فهم

يقتربون منها لحظة ثم يتعدون مسرعين ، حاذرين عليها أن تشيعهم •

وغادر الدبلوماسي الصالون صامتا صمتا حزينا • لقد لاح له كل ما في

حياته الدبلوماسية من بطلان وغرور بالقياس الى سعادة بطرس . وحين سألت امرأة الجنرال الشيخ عن حالة ساقه قال لنفسه مستهزئاً بها : « يا للعجوز الحمقاء ! هيلين فا سيليفنا ستظل جميلة حتى في الخمسين من عمرها . »

ودمدت أنا بافلوفنا تقول للأميرة وهي تقبلها تقييلاً شديداً :

— أظن أن في وسعي أن أهنئك . لولا أنني أعاني من صداع لبقيت .

فلم تجب الأميرة بشيء . كانت تحسد ابتها على سعادتها .

وفيما كان الضيوف يُشيعون ، خلا بطرس الى هيلين مدة طويلة في الصالون الصغير الذي جلسا فيه . لقد سبق أن اتفق له ، أثناء هذه الاسابيع الستة ، أن خلا اليها وانفرد بها ، ولكنه لم يحدثها في الحب يوماً من الايام . وهو يحس الآن أنه لا بد من كلام في الحب ، لكنه لا يستطيع أن يعزم أمره على القيام بهذه الخطوة . كان يشعر بخجل . كان يبدو له أنه بجلوسه هنا قرب هيلين انما يحتل مكان شخص آخر . كان صوت في قرارة نفسه يقول له : « هذه السعادة ليست لك . هذه السعادة هي لأولئك الذين ليس في نفوسهم ما في نفسك أنت » . ولكن كان لا بد له أن يقول شيئاً . فها هو ذا يقطع الصمت فيسألها هل سُرّت بهذه السهرة ، فتجيبه بالبساطة المعهودة فيها ان عيدها اليوم كان من أمتع أعيادها وأبهجها .

وبقي عدد من أقرب الاقرباء جلسوا في الصالون الكبير . وها هو

ذا الامير فاسيلي يقبل على بطرس بخطى متراخية • فينهض بطرس ويقول ان الوقت تقدم ، والسهرة طالت • فنظر اليه الامير فاسيلي بهيئة قاسية مستفهمة مستغربة ، كأن الكلام الذي سمعه من بطرس أعجب وأغرب من أن يُسمع • ولكن تعبير وجهه عن القسوة لم يلبث أن زال ، ثم اذا هو يشد بطرس من ذراعه ، ويجلسه ، ويتسم له ابتسامة فيها عاطفة ومحبة •

وسرعان ما اتجه الى ابنته فقال لها بلهجة الحنان المألوف المهمل ، التي يتكلم بها من الآباء من ألفوا تدليل اولادهم منذ طفولتهم ، ولكن الأمير فاسيلي لم يتمثلها الا بتقليد الآخرين ، قال :
— هيه ، ليوليا ؟

وعاد يلتفت الى بطرس • وقال وهو يحل أعلى صدرته :
— « سرجي كوزمتمش ، من جميع الانحاء » •

فابتسم بطرس ، ولكن المرء يرى من ابتسامته أن النكتة التي تروى عن سرجي كوزمتمش ليست هي التي تهم الامير فاسيلي في هذه اللحظة • وأدرك الامير فاسيلي ان بطرس يعرف هذه الحقيقة • فجمجم فجأة ببعض الكلام وخرج • فأحس بطرس ان الامير فاسيلي نفسه يشعر بحرج وارتابك • وأثر في نفسه ان يرى هذا الشيخ من شيوخ المجتمع على هذه الحال من الحرج والارتباك • ونظر الى هيلين فلاحظ أنها هي أيضا مرتبكة محرجة ، وكانت نظرتها تقول :
« هذه غلطتك » •

قال بطرس محدثا نفسه : « لا بد أن أخطو هذه الخطوة قفزة واحدة » ، ثم عاد يتكلم عن شيء آخر • تكلم عن سرجي كوزمتمش وسأل عن الحكاية التي رويت عنه ، ما هي على وجه الدقة ، لأنه لم يفهمها فهما واضحا • فأجابته هيلين ، وهي تبسم ، بأنها هي أيضا لم تفهم من تلك الحكاية • شيئا •

وحين عاد الامير فاسيلي الى الصالون كانت الاميرة تتحدث مع سيدة مسنة عن بطرس بصوت خافت • قالت هيلين :

— طبعا ، هو خطيب ممتاز ، ولكن السعادة يا عزيزتي ...

فأجابت السيدة المسنة بقولها :

— الزيجات تتم في السماوات •

مضى الامير فاسيلي يجلس في ركن بعيد على ديوان ، دون أن يظهر عليه انه سمع هذه المحادثة • وأغمض عينيه ، وبدأ انه يغفو ، اذ سقط رأسه على صدره ، ثم لم يلبث ان صحا •

قال لزوجته :

— آلين ، اذهبي فانظري ماذا يعملان !

فقامت الاميرة فمرت أمام باب الصالون برصانة وقلة اكتراث ، وألقت نظرة على داخل الصالون •

كان بطرس وهيلين ما يزالان يتكلمان كما كانا يتكلمان من قبل •

فعادت الاميرة تقول لزوجها :

— لم يتغير شيء •

فقطب الامير فاسيلي حاجبيه ، وانعقف طرف فمه ، وأخذ خداه يرتعشان فيضفيان على وجهه ذلك التعبير المقيت الغليظ الذي اختص به • ثم نهض مهتزا ، وردء رأسه الى وراء ، ودخل الى الصالون بخطو حازم أمام السيدات • فكان في وجهه من الابهة والفخامة والجلال ، ما جعل بطرس يقوم حين رآه •

قال الامير فاسيلي :

— الحمد لله ! قالت لي زوجتي كل شيء •

وخاصر بطرس بذراعيه ، وخاصر بالذراع الاخرى ابنته • وأردف يقول :

— صديقتي ليوليا ! أنا سعيد جدا ، جدا ! واختلج صوته • وواصل كلامه مخاطبا بطرس :

— كنت أحب أباك ••• ولسوف تكون لك زوجة طيبة ••• ألا فليبارككما الله ! •••

وعانق ابنته ، ثم عاتق بطرس وقبَّله بفمه ، فم الشيخ • واغرورت عيناه بدموع • وهتف ينادي امرأته :

— أميرة ! تعالي الى هنا •

فدخلت الاميرة ، وطفقت تبكي ، وأخذت السيدة المسنة تمسح عينيها بمنديلهما أيضا • وراحوا يقبلون بطرس • وقبل هو يد هيلين الجميلة مرات • وبعد برهة من الزمن ، تركوهما لخلوتهما من جديد •

قال بطرس لنفسه : « هذا كله كان يجب ان يجري هذا المجرى ، وكان لا يمكن الا أن يجري هذا المجرى • فلا فائدة من التساؤل أهو خير أم هو شر • وهو خير ، لأن فيه وضوحا ، ولأن الشك القديم المرهق المعذب قد زال » •

كان يمسك يد خطيبته صامتا ، وينظر الى عنقها الجميل يعلو ويهبط •

قال بصوت عال :

— هيلين !

ثم أمسك عن الكلام •

لقد قال لنفسه : « في مثل هذه الاحوال تقال أشياء خاصة » • ولكنه لم يفلح في تذكر ما يقال تذكرها واضحا دقيقا • ونظر اليها وجها لوجه • فاقتربت منه ، وتخضب خذاها بحمرة • وقالت له :

— انزع هاتين •• انزعهما ••• أرجوك !

وأشارت الى نظارتيه •

فخلع بطرس نظارتيه ، فبدأ في عينيّه ، عدا ما يبدو في عيني كل من يخلع نظارتيه من تعبير غريب ، بدأ شيء من التساؤل والارتياح في النظرة . وأراد ان يميل على يدها يقبّلها . ولكنها بحركة سريعة مباغتة اتجهت الى شفتيه وألقت عليهما شفتيها ، فما كان أشد الدهشة التي شعر بها بطرس من الارتباك والحيرة في سحتها التي تغيرت تغيرا كبيرا .

قال يحدث نفسه : « فات الاوان . انتهى كل شيء . ثم انسي أحبها . » .

ثم قال لها وقد تذكر ما يجب ان يقال في مثل هذه الاحوال :
— أحبك .

ولكن هذه الكلمة قيلت بصوت فيه من الضعف والفقر ما جعل بطرس يستحي من نفسه .

وتمّ الزواج بعد ستة أسابيع . وكما يفعل رجل سعيد يملك امرأة جميلة وثروة تعد بالملايين ، كما يقال ، أقام بطرس بيطرسبرج في المنزل الفخم الذي يملكه كوتات بيزوخوف ، بعد أن اعمل فيه يد الإصلاح والتزيين فصار جديدا .

الفصل الثالث

في شهر كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٨٠٥ ، تلقى الامير الشيخ نيقولا آندرئتش بولكونسكي رسالة من الامير فاسيلي يبلغه فيها أنه سيزوره مصطحبا ابنه • وقد ورد في الرسالة قوله : « اتسي مسافر في رحلة تفتيشية ، ولن يرهقني ان تزيد المسافة مائة فرسخ حيز . يكون الهدف أن أزورك ، أيها المحسن اليّ » ، المعظم جدا • وسيصحبني ابني قبل أن يلتحق بالجيش • فأمل ان تسمح له بأن يعبر لك بنفسه عن نفس الاحترام العميق الذي يحمله لك ابوه • » •

فلما سمعت الاميرة الصغيرة بذلك ، قالت متعجلة غير متبصرة بالعواقب :

— لا حاجة اذن الى اقتياد الى المجتمع ، فالراغبون في خطبتها يأتون الينا من تلقاء أنفسهم •

فقطب الامير نيقولا آندريفتش حاجبيه ولم يقل شيئا • وفي ذات مساء ، بعد انقضاء خمسة عشر يوما على تلقي الرسالة ، وصل رجال الامير فاسيلي أولا ، ثم وصل هو نفسه مع ابنه في الغد •

ان الشيخ بولكونسكي لم يكن رأيه في طبع الامير فاسيلي حسنا في يوم من الايام ، وقد ازداد سوء رأيه فيه هذه الآونة الاخيرة ، حين أوغل الامير فاسيلي في طريق الرتب والامجاد في العهدين الجديدين ، عهد بولس والاسكندر . وسرعان ما أدرك هدف الزيارة ، من اشارات الرسالة وتلميحات الاميرة الصغيرة ، فاذا بسوء رأيه في الامير فاسيلي ينقلب في نفسه الى عاطفة احتقار وشعور عدا ، واذا هو لا يجيء على ذكره الا ويصدر أصواتا تعبر عن الازدراء . وفي اليوم الذي كان ينتظر فيه وصول الامير فاسيلي كان الامير نيقولا آندريفتش مستاء استياء خاصا ، وكان معتكر المزاج . ترى أكان معتكر المزاج لوصول الامير فاسيلي ، أم كان متعضا ذلك الامتعاض الشديد من وصول الامير فاسيلي لأنه كان معتكر المزاج ؟ المهم انه كان معتكر المزاج ؛ ولذلك نصح تيوخون ، منذ الصباح ، للمهندس المعماري ، بأن لا يقدم للأمير تقريره . قال وهو يلفت انتباه المهندس المعماري الى وقع خطي الامير على الارض :

— اسمع كيف يمشي ! انه يسقط كعبه على الارض اسقاطا . ونحن نعرف ما معنى هذا .

ومع ذلك خرج الامير في نحو الساعة التاسعة يقوم بنزهته المعتادة، مرتديا معطفا من مخمل له ياقة من فراء الزبلين ، ومغطيا رأسه بقلنسوة تناسب المعطف ، كان الثلج قد هطل بالامس . ولكن الممر الذي اعتاد الامير نيقولا آندريفتش ان يسلكه للوصول الى احواض الزرع

المغطاة بالزجاج كان مكنوسا ؛ وكانت ترى على الثلج آثار مكنسة
وكانت ترى فيه مجرفة غرست في التلعة الهشة التي تحف بالمر .

طاف الامير نيقولا آندريفتش بالاحواض التي تضم غرائس
البرتقال ، ومرء بمواضع الخدمة ، ورأى المباني التي تشاد ؛ وكان
مربدء الوجه ، مقطب الاسارير ، متجهم الوجه ، صامتا لا يتكلم .
ثم قال يسأل الوكيل ، وهو رجل جسيم كان يرافقه الى القصر وكان
بوجهه وسلوكه يشبه مولاه :

— هل تستطيع العربات الزلاجة ان تمر ؟

— طبقة الثلج عميقة يا صاحب السعادة . لكنني أمرت بكنس
الطريق .

فهزء الامير رأسه مؤيدا ، ودنا من درج الباب . فقال الوكيل
محدثا نفسه : « الحمد لله ! لم تنفجر العاصفة ! » . وأضاف يقول
للأمير نيقولا آندريفتش :

— لولا أن كنسنا الطريق لكان يصعب المرور . يقال ان وزيراً
سيزور سعادتك .

فالتفت الامير الى وكيله يرشقه بنظرة عابسة ، ويقول له بصوته
الحاد الخشن :

— ماذا ؟ وزير ؟ أي وزير ؟ من أصدر اليك أوامر ؟ من أجل الاميرة

ابنتي لا تكنسون ، أما من أجل وزير ! ... لا وزراء عندي !

قال الوكيل :

— كنت أظن يا صاحب السعادة ...

فصرخ الامير يقول بمزيد من السرعة واضطراب الكلام :

— كنت تظن ... كنت تظن ... يا للصوص ! يا للأوغاد !

يا للأوباش ! لأعلمنك كيف تظن ...

قال ذلك ورفع عصاه على وكيله ألباتش ، وكان يمكن ان تسقط على الرجل ضربة العصا لولا أنه تنحى فتحاشاها . وظل الامير يصرخ مسرعا في الكلام :

— كنت تظن ... أوغاد ! أوباش !

ولكن رغم أن ألباتش قد ارتاع من تجاسره على التنحي تحاشيا للضربة ، فعاد يقترب من الامير حانيا أمامه رأسه الاصلع بخضوع ومذلة ، وربما بسبب أنه فعل ذلك ، فان الامير لم يرفع عصاه مرة أخرى ، ودخل الى المنزل مسرعا وهو ما يزال يردد صياحه : « أوغاد، أوباش ... أعيذوا الثلج الى الطريق ... اركموا الثلج في الطريق ! » .

وفي ساعة الغداء ، كانت الاميرة ماريا ومدموازيل بورين تعرفان أن الامير معتكر المزاج ، فكاتتا تنتظرانه واقفتين : فأما مدموازيل بورين ، فكان وجهها المشرق كأنه يقول : « لست أدري شيئا . أنا

ما أنا دائما » ، وأما ماريا فكانت شاحبة الوجه ، مرتاعة الهيئة ، خافضة عينيها • وكان ألم ما يؤلم الاميرة ماريا هو أنها تعلم ان عليها في مثل هذه الاحوال ان تصطنع وضع مدموازيل بورين ، ولكنها كانت عاجزة عن ذلك • كانت تقول لنفسها : « لو تظاهرت بأنتي لا ألاحظ شيئا ، لظن انني لا أعبا به ، ولو تظاهرت بأنتي أنا ايضا معتكرة المزاج فتجهمت أساري ، لقال لي مرة أخرى ، كما يحدث ذلك ، ان لي وجها طوله ذراع ! » ، الخ •

نظر الامير الى وجه ابنته المستطيل ذعرا ، فغمغم يقول :

— اما أنها نزلة ، واما أنها بلهاء !

ولاحظ غياب الاميرة الصغيرة عن غرفة الطعام فحدث نفسه قائلا :

« وتلك التي غابت عن الانظار • لا بد أنهم قالوا لها الاقاويل ! » •

وقال يسأل :

— أين الاميرة ؟ أهى مختبئة ؟

فأجابت مدموازيل بورين وهي تبتسم جذلى :

— انها تعاني بعض الآلام • لن تجيء • هذا مفهوم في مثل

وضعها •

فأصدر الامير هذه الاصوات :

— هم • هم • هم • خي ! خي !

وجلس الى المائدة • فبدا له ان الطبق ليس نظيفا نظافة تامة ،
فأشار الى البقعة التي لاحت له فيه ، ورماه ، فتناوله تيمحون ونقله الى
كبير الخدم •

الحق أن الاميرة الصغيرة لم تكن تعاني آلاما • ولكنها كانت
خائفة من الامير خوفا لا سبيل الى مغالته ، فلما علمت أنه معتكر
المزاج قررت أن لا تظهر • قالت لمدوازيل بوريين :

— أخشى على الطفل • لا يعلم الا الله ما عسى يحدث في أعقاب
رعب •

وكانت الاميرة الصغيرة تعيش بقرية ليسيا جوري في حالة رعب
دائم ، وتشعر بنفور من الامير ، وكانت لا تعي هذا النفور لأن الرعب
هو الشعور الذي كان مسيطرا على نفسها • وكان الامير من جهته
يشعر بنفور منها أيضا ، ولكن نفوره يسيطر عليه ازدراء • ومنذ أن
ألفت الاميرة ليسيا جوري ، أحبَّت مدموازيل بوريين ، فكانت تقضي
معها أياما كاملة ، وتطلب منها أن تنام بقربها ، وكثيرا ما تكلمها عن
حميها ناقدة اياه •

قالت مدموازيل بوريين وهي تفض بأصابعها الوردية فوطتها
البيضاء :

— سيجئنا زوار يا أمير • صاحب السعادة الامير كوراجين وابنه
فيما نمي اليّ •

فأجابها الامير بلهجة فيها استياء وتأذ :

— هم° ... صاحب السعادة هذا صبي تافه • أنا الذي أدخلته
الوزارة • أما ابنه فلا أدري ما مجيئه • لعل الاميرة اليزابت كارلوفنا
والاميرة ماريا تعرفان • أنا أجهل لماذا يجيئنا الى هنا بابنه • ما أنا في
حاجة اليه •

قال الامير ذلك ، ونظر الى ابنته التي احمر وجهها فجأة ،
وسألها :

— أترأك مريضة ؟ ربما خوفا من الوزير ، كما لقّبـه ذلك الغبي
آلباتش بهذا اللقب ؟
— لا يا أبي •

ورغم أن مدموازيل بورين كانت باختيار هذا الامر موضوعا
للحديث كانت خرقاء لا تحسن التصرف ، فانها لم تغلب على أمرها ،
ولم يرتج عليها ، فأخذت تتحدث عن أحواض الزرع الزجاجية ، وعن
جمال زهرة تفتحت أكمامها منذ برهة وجيزة ؛ فلما انتهى الامير من
حسـو حسائه كان قد هدأ •

حتى اذا فرغ من الغداء ذهب الى كنته •

كانت الاميرة الصغيرة جالسة أمام طاولة ذات ثلاث قوائم ، تثرثر
مع خادمتها ماشا • فلما رأت حماها شحب لونها •

لقد تغيرت الاميرة الصغيرة تغيرا كبيرا • هي الآن أقرب الى الدمامة منها الى الجمال • لقد خسف خداها ، وانكشرت شفيتها ، وظهرت جيوب تحت عينيها •

قالت تجيب الامير الذي سألها عن صحتها :

— نعم ، أحس بثقل •

— أأست في حاجة الى شيء ؟

— لا ، شكرا يا أبي •

— طيب • حسن •

وخرج ، واجتاز حجرة الانتظار • فرأى فيها آلباتش خافضا رأسه •

— هل أرجعتم الثلج الى الطريق ؟

— نعم يا صاحب السعادة • سامحني ناشدتك الله • لم يكن ذلك مني الا غباء •

فقاطعه الامير ، وجعل يضحك ضحكه الذي يحمل نفسه عليه حملا ، وقال له :

— طيب ، طيب •

ومدء الى آلباتش يده ، فقبَّلها ؛ ورجع الامير الى مكتبه •

ووصل الامير فاسيلي في المساء • فاستقبله في الشارع حوذيون وخدم جعلوا يصرخون وهم يقودون زلاجه وعربة النقل التي تصحبه على الطريق الذي ركم فيه الثلج عمدا ، الى ان بلغوا به الجناح الذي أعدّ لاقامته بالمنزل •

كانت قد هيئت للامير فاسيلي وابنه آناطول غرف منفصلة •

هذا آناطول قد خلع جاكته ، وجلس الى طاولة واضعا يديه على خصره ، يحدق بعينه النجلاوين الجميلتين الى ركن من الطاولة ذاهلا وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة • ان آناطول ينظر الى حياته نظره الى عيدمتصل زاهر باللهو ، تعهد أحد باعداده له ، لا يدري الا الله لماذا ! وعلى هذا النحو انما كان ينظر الى زيارته للشيخ الشرس والفتاة الغنية الدميمة الوارثة • كان يعتقد أن الامور يمكن أن تجري مجرى حسنا جدا ، وأن تجري مجرى مسليا مضحكا • وكان يقول لنفسه : « وعلام لا أتزوجها ما دامت على جانب عظيم من الغنى والثراء ؟ » • وحلق ذقنه وتعطر بعناية وتدقيق أصبح فيه عادة راسخة ، ثم دخل على أبيه وقد رفع رأسه الجميل عاليا ، واصطنع هيئة فيها ثقة الغازي وطيبة الطفل ، على عادته كان خادمان يسعيان حول الامير فاسيلي يساعدانه في ارتداء ثيابه • وكان الامير فاسيلي يلقي على ما حوله نظرات ملأى بالحياة والنشاط ، فلما رأى ابنه داخلا عليه هز له رأسه جذلا كأنه يريد أن يقول له : « مرحى ، مرحى ، في هذه الصورة انما أريد أن أراك » •

سأل الابن أباه بالفرنسية وكأنه يستأنف حديثا كرهه غير مرة أثناء

الرحلة :

— قل لي جادا يا أبي : أهى شديدة الدمامة حقا ؟

فأجابه الامير فاسيلي بقوله :

— دعك من هذه السخافات كلها ! وحاول خاصة أن تبدي للشيخ

احتراما ، وأن يراك عاقلا •

قال آنا تول :

— اذا طفق يعظني فلسوف أنصرف • انني لا أطيق هؤلاء الشيوخ •

هه ؟

— تذكر أن مستقبلك كله مرهون بما أقوله لك •

وفي أثناء ذلك كانت الخادومات في غرفتهن لا يعرفن أن الوزير وابنه

قد وصلا فحسب ، بل كن يصفن هيئة كل واحد منهما تفصيلا • وكانت

الاميرة ماريا وحيدة في غرفتها تحاول عبثا أن تلجم ما قام في

نفسها من اضطراب شديد ، وتتساءل وهي تنظر الى وجهها في المراة :

« لماذا كتبنا ؟ لماذا كلمتني ليزا في هذا الامر ؟ هذا لا يمكن أن يكون

ماذا يجب أن أعمل لاطهر في الصالون ؟ حتى لو أعجبني ، لن أستطيع

بعد الآن أن أكون معه ما أنا !

وكانت متى تصورت النظرة التي سيلقيها عليها أبوها تمتليء نفسها
رعباً •

وكانت الاميرة الصغيرة ومدموازيل بورين قد حصلتا من الخادمة
ماشاً على جميع المعلومات اللازمة ، فعرفتا أن ابن الوزير فتى جميل
نضر الوجه أسود الحاجبين ؛ وأن أباه لقي عناء في صعود السلم • أما
هو فقد اندفع وراء أبيه كالنسر يتخطى الدرجات ثلاثاً ثلاثاً في كل
وثبة • فما ان تزوجت الاميرة الصغيرة ومدموازيل بورين بهذه
المعلومات حتى دخلتا على الاميرة ماريا ، وكان صوتهما يسمع نشيطة
حاراً منذ ان صارتا في الدهليز الذي يفضي الى غرفة الاميرة ماريا •
قالت الاميرة الصغيرة وهي ترجح بطنها الثقيل ، وتتهالك على
مقعد :

— وصلوا يا ماري ، هل تعلمين ذلك ؟

وكانت الاميرة الصغيرة قد خلعت البلوزة التي كانت ترتديها في
الصباح ، ولبست فستاناً من أجمل فساتينها ، وكانت قد عنيت
بتصنيف شعرها عناية كبيرة ؛ وكان وجهها يعبر عن حماسة شديدة ،
ولكن ذلك كله لا يفلح في اخفاء انخساف خديها وذبول وجهها ، وما
أصابها به الحمل من دمامة • ان هذه الزينة التي كانت تترين بها
حين تحضر حفلات المجتمع الراقي بيطرسبرج لا تزيد الآن على أن
تبرز مدى ما اعتري وجهها من دمامة مزيدة من الابرار • وكانت

مدموازيل بورين • قد ادخلت على زينتها ، هي أيضا ، تحسينات خفية طفيفة جعلت وجهها الجميل النضر اشد فتنة وأعظم اغراء •

قالت تسأل الاميرة ماريا :

— هيه ! أتبقين كما أنت يا أميرتي العزيزة ؟ سيجيء الآن من يعلن أن السيدين ينتظران في الصالون ، وسيكون عليك أن تنزلي اليهما ، فما بالك لا تتزينين قليلا ؟

ونفضت الاميرة الصغيرة فقرعت الجرس تنادي الخادمة • وشرعت تؤلف زينة للاميرة ماريا وهي تشعر بحماسة شديدة وفرح كبير ، وتسرع في عملها سرعة محمومة • وكانت الاميرة ماريا تحس بجرح في كرامتها من الاهتياج الذي أثاره في نفسها وصول شاب يريد أن يخطبها ، وكانت تحس بهذا الجرح في كرامتها مضاعفا من رؤية صديقتها هاتين لا تفترضان حتى ان يجري الامر غير هذا المجرى • فلو قالت لهما انها تشعر بخجل عنهما وعن نفسها لكانت تفضح ما يملأ نفسها من احتياج ؛ ولو رفضت التزين الذي يقترح عليها لأدى ذلك الى الحاحات ، ولأثار مزاحات لا نهاية لها • فاحمر وجهها ، وانطفأت عيناها الحلوتان، وغشيت وجهها بقع ، واستسلمت لأيدي مدموازيل بورين وليزا ، معبرا وجهها ذلك التعبير الذي كثيرا ما كان يجمد عليه فيزيده دمامة ، وهو التعبير عن اذعان الضحية لمشيئة الجلاد • كانت المرأتان حريصتين حرصا صادقا على أن تجعلاهما جميلة • انها من الدمامة بحيث لا تخطر فكرة

المنافسة على بال أية واحدة منهما • لذلك أخذتا تلبسانها صادقتين كل
الصدق مخلصتين كل الاخلاص ، مقتنعتين ذلك الاقتناع الجازم
الساذج الذي نلاحظه في النساء ، اعني الاقتناع بأن الزينة يمكن ان
تجعل وجها من الوجوه جميلا •

قالت ليزا وهي تنظر الى الاميرة من جانب ، على مسافة منها ،
بعين فاحصة :

— لا ، هذا الفستان لا يناسبك حقا ، يا صديقتي العزيزة ، مري
بفستان آخر • ان عندك فستانا « مسكيا »^(١) • حقا • لعل مصيرك
هو الذي يتقرر الآن • هذا الفستان فاتح اللون جدا • غير مناسب •
لا • غير مناسب !

ان ما لم يكن مناسبا ليس هو الفستان بل وجه الاميرة ، وقامتها
كلها ، ولكن لا مدموازيل بورين ولا الاميرة الصغيرة ادركتا ذلك •
كاتتا تتخيلان انهما اذا غرستا شريطا أزرق في شعرها بعد ان ترفعا
كثيرا ، واذا وشحا فستانها البني بوشاح أزرق ، الى آخر ما هنالك ،
حسنت الاميرة ماريا ، واكتمل جمالها • ونسيتا انهما لا تستطيعان تبديل
الوجه المذعور والقامة عامة ، لذلك لم ينفع كل ما بذلتاه من جهد في
سبيل تغيير زينة هذا الوجه ، فظل الوجه نفسه دميما يرثى لحاله •

(١) بلون الباذنجان ، وهو لون كانت موضته رائجة جدا في مطلع القرن
التاسع عشر .

وبعد محاولتين أو ثلاث محاولات خضعت لهما الاميرة ماريا طيعة مذعنة ، فرفع شعرها عاليا (وتلك تسريحة تبدل وجهها تبديلا كبيرا ، وتشنعه تشنعا شديدا) وألبست ، الفستان البني • وأسدل على كتفها الوشاح الازرق اللانيق ، دارت الاميرة الصغيرة حولها مرتين ، فسوءت يدها الصغيرة ثنية في الفستان هنا ، وشدت الوشاح قليلا هناك ، وأخذت تنظر مائلة برأسها تارة الى يمين وتارة الى شمال ، ثم اذا هي تقول جازمة وقد ضمت يديها احدهما الى الاخرى :

— لا ، مستحيل ! لا يا ماري ! لا يناسبك هذا قطعا • أوثر أن أراك بفستانك الرمادي الصغير الذي تلبسينه كل يوم • لا • ارجوك • البسي ذلك الفستان • مراعاة لي ، ومجاعة لرأيي •
وأردفت تقول للخادمة :

— كاتيا ، هاتي للاميرة ثوبها الرمادي !

ثم التفتت الى مدموازيل بورين ، فقالت لها وهي تبسم متلذذة منذ الآن بفرحة ما أوتيت من موهبة الفنانة :

— وسترين يا مدموازيل بورين كيف سأرتب الامر •

ولكن حين جاءت كاتيا بالفستان المطلوب ، بقيت الاميرة ماريا جالسة جامدة أمام المرأة ، تنظر الى وجهها ، فرأت في المرأة ان عينها تفيضان دموعا ، وان شفيتها ترتجفان ، وانها توشك ان تنفجر باكية ناشجة •

قالت مدموازيل بورين :

— ما بالك يا أميرتي العزيزة • قليلا من الجهد ايضا •

وتناولت الاميرة الصغيرة الفستان من يدي الخادمة ، وتقدمت من الاميرة ماريا ، وقالت بلطف ومودة :

— لا ، في هذه المرة سنعمد الى البساطة •

واختلط صوتها وصوت مدموازيل بورين وصوت كاتيا التي كانت تضحك لسبب من الاسباب ، اختلطت هذه الاصوات كلها في زقزقة خفيفة فرحة •

قالت الاميرة ماري :

— بل اتركني !

كان صوتها مثقلا برصانة تبلغ من القوة وألم يبلغ من الشدة ان زقزقة العصفير لم تلبث ان صمتت حالا • ونظرت النساء الثلاث الى العينين الواسعتين الجميلتين اللتين امتلأتا دموعا وأفكارا ، والقت عليهن نظرة فيها توسل وضراعة ، فأدركن ان اللاحاح عقيم لا يجدي ، بل انه قاس ومؤلم •

قالت الاميرة الصغيرة :

— غيرِّي تسريحة الشعر على الأهل •

وأردفت تقول لمدموازيل بورين لائمة :

— قلت لك ان وجه ماري هو من تلك الوجوه التي لا تناسبها هذه التسيريحة البتة ! البتة ، البتة ! غيري هذه التسيريحة ، رحماك !
فأجاب صوت الاميرة ماريا التي كانت لا تستطيع ان تحبس دموعها الا في كثير من المشقة :

— اتركنني ! اتركنني ! هذه الامور كلها سواء عندي !

واضطرت مدموازيل بورين والاميرة الصغيرة ان تعترفا لنفسيهما بأن الاميرة ماريا دمية جدا في هذه الصورة ، وانها في هذه الصورة أكثر دمامة مما عهد فيها من دمامة • ولكن الاوان قد فات • وكانت تنظر اليهما معبرة بوجهها تعبيراً تعرفانه فيه هو التعبير عن الوجوم والحزن • ولم يوقظ هذا التعبير في نفسيهما خوفاً (كانت الاميرة ماريا لا توقظ هذا الشعور في نفس احد) • ولكنهما كاتتا تعرفان أنها حين يظهر في وجهها هذا التعبير ، تصمت فلا تتكلم ، وتصر على قراتها فلا تتزحزح عنها •

قالت ليزا تسألها :

— ستبدليها ، أليس كذلك ؟

فلما لم تظهر من الاميرة ماريا بجواب ، خرجت •
خلت الاميرة ماريا الى نفسها • ولم تفعل ما طلبت منها الاميرة الصغيرة ان تفعله • لم تغير تسيريحة شعرها • حتى انها لم تلق نظرة على نفسها في المرأة • وظلت جالسة ، صامتة ، خافضة العينين ، جامدة

الذراعين ، تفكر : تتصور زوجها رجلا قوي الجسم ، صاحب سيطرة وسطوة ، وصاحب قدرة على الاغواء لا تفهم ، يحملها فجأة الى عالم خاص به ، عالم مختلف عن هذا العالم كل الاختلاف ، عالم سعيد أعظم السعادة ؛ وتتحيل على صدرها طفلا « لها هي » • كطفل ابنة مريبتها ، الذي رآته بالامس • لقد كان الاب ينظر الى الام والابن كليهما نظرة مفعمة بالحب والحنان •

ثم قالت لنفسها : « ولكن لا ، هذا مستحيل • أنا دميمة دمامة كبيرة » •

وسمعت صوت الخادمة يقول من وراء الباب :

— هَيَّ الشاي ، والامير واصل حالا •

فثاب اليها شعورها ، وروعتها هذه الافكار التي كانت مسترسلة فيها • وقبل ان تنزل الى الصالون قامت الى مصلاها ، فشخصت بعينيها الى الصفحة السوداء من ايقونة كبيرة تمثل المخلص ويضيئها سراج ، ولبت امام الايقونة بضع لحظات ضامة يديها احدهما الى الاخرى • كان يعذبها شك يخامر ضميرها • هل يمكنها هي ان تنعم بأفراح الحب ، الحب الارضي الذي ينعم به الانسان في هذه الحياة الدنيا ؟ انها حين فكرت في الزواج ، كانت تحلم بالسعادة العائلية ، وبالأولاد ، ولكن حلمها الرئيسي ، حلمها الاقوى ، حلمها الاخفى ، انما كان هو الحب الارضي • وكان هذا الحلم قويا عاتيا بمقدار ما كانت

تحاول أن تخفيه عن الآخرين وعن نفسها • قالت تناجي الرب : « اللهم كيف يمكنني ان أخفق في قلبي هذه الافكار لاحقق ارادتك بسلام ؟ » •
فما ان القت هذا السؤال حتى كان الرب يجيبها في قلبها : « لا تستهي شيئاً لنفسك أنت ، لا تبخني ولا تسعي ، لا تضطربي ولا تهتزي ، لا تحسدي أحداً على شيء • يجب ان تبقى جاهلة بمستقبل البشر وبما كتب لك من مصير • ولكن عيشي عيشة من هو مستعد لكل شيء •
فاذا شئت ارادة الله ان تمتحنك بواجبات الزواج ، فكوني مهيئة للعمل بارادته والخضوع لمشيئته • » •

وتهدت الاميرة ماريا وهي تسمع في قرارة قلبها صوت هذه المعاني التي تشد الازر وتقوي العزيمة وتعزي النفس (ولكنها ظلت تأمل ان يكتب لحلمها الارضي المحرّم ان يتحقق) ، ورسمت على نفسها اشارة الصليب دون أن يخطر ببالها فستانها ودون ان تفكر في تسريحتها، ودون ان تتساءل عن الطريقة التي ستدخل بها على الضيوف ، ولا عن الكلام الذي ستقوله • ما عسى يكون وزن هذا كله بالقياس الى أهداف الرب الذي لا تسقط شعرة من رأس انسان بغير ارادته ؟

الفصل الرابع

حين دخلت الاميرة ماريا ، كان الامير فاسيلي وابنه ينتظران في الصالون ، ويتحدثان مع الاميرة الصغيرة ومدموازيل بورين . فلما أقبلت بخطوها الثقيل سائرة على الكعبين نهض الرجلان ومدموازيل بورين ، وقالت الاميرة الصغيرة للرجلين وهي توميء الى ماري : « هذه ماري ! » . رأتهم الاميرة جميعا ، ورأتهم تفصيلا . رأت الامير فاسيلي الذي ما ان أبصرها حتى تجمد وجهه معبرا عن الجد ، ثم سرعان ما ابتسم . ورأت وجه الاميرة الصغيرة التي كانت تحاول بفضول شديد أن تقرأ في ملامح الزائرين الاثر الذي تحدثه في نفسيهما ماري . ورأت كذلك مدموازيل بورين بشريطها ووجهها الجميل ونظرتها التي ازدادت توقدا وهي تحدّق « اليه » . ولكن ماريا لم تستطع ان تراه « هو » ، وانما كانت ترى شيئا عظيما ، متألقا ، جميلا ، تقدم نحوها خطوة حين دخلت . وكان الامير فاسيلي اول من أقبل عليها يحييها ، فطبعت قبلة على رأسه الاصلع الذي مال على يدها ، وأجابته عن سؤال القاء عليها بأنها تتذكره تذكرًا واضحا كل الوضوح على خلاف ما خطر بباله . ثم جاء دور آنا تول . انها ما تزال لا تراه . ولكنها أحست يدا ناعمة تتناول يدها بقوة ، ولامست بشفتيها ، ملامسة

خفيفة ، جينا ايض يعلوه شعر جميل مدهن مطيب • وحين نظرت اليه اذهلها جماله • كان آنا تول واضعا ابهام يده في عروة من عرى بزته ، محدبا صدره مقوسا ظهره ، يهز ساقا أبعداها عن أختها ، وينظر الى الاميرة صامتا مصطنعا هيئة الفرح وقد حنى رأسه قليلا ، وكان واضحا أنه لا يفكر فيها أي تفكير • لم يكن آنا تول يملك حضور البديهة ولا حرارة الحركة ، ولم يكن متحدثا فصيحاً بليغاً ، ولكنه في مقابل ذلك قد أوتي موهبة ثمينة في المجتمع الراقى ، هي الهدوء وثقة لا يمكن ان يززعها شيء • لأن يلقي الخجول أحداً أول مرة ، فتعوزه الثقة بنفسه فيصمت ويدع للآخر ان يلاحظ أنه يدرك ان صمته غير لائق ، وأنه يتمنى ان يعثر على ما يقوله ، فذلك امر مزعج • ولكن آنا تول يصمت دون أن يشعر بأي حرج • ها هو يصمت الآن مرجحاً ساقه ، ناظراً الى تسريحة شعر الاميرة نظرة فاحصة جذلة • ويلاحظ المرء أنه يستطيع أن يلزم الصمت زمناً طويلاً جداً مع احتفاظه بهذا الهدوء نفسه ، وكأن هيئته كلها تقول : « اذا كان هذا الصمت يضايقك ، فتكلم انت ، اما انا فما بي رغبة في كلام • » • ثم ان آنا تول يتخذ من النساء وضع التعالي والازدراء ، ومن شأن هذا ان يوقظ في نفوسهن حب الاطلاع ، وقوة الانفعال ، وحتى الحب • لكأنه بأوضاعه هذه يقول لهن : « أعرفكن ، أعرفكن ، فعلام أسرف على نفسي من أجلكن • لو فعلت لسركن هذا سرورا عظيما ! » • وهبه لا يفكر في شيء من ذلك البتة - وهذا جائز جداً ، لأن التفكير ليس من أبرز خصائصه -

فان هيئته وحركاته توهم بذلك . وقد احست ماري بذلك ، فمن أجل ان تفهمه انها لا تحرص على احتكاره ، شرعت تتحدث مع الامير الشيخ ، ولم يلبث هذا الحديث ان اصبح عاما يشترك فيه الحضور جميعا ، ولم يلبث ان نشط وحمي بفضل ثرثرة ليزا التي كانت شفتها ذات الزغب الخفيف ما تنفك تكشف عن اسنانها البيضاء .. كانت تصطنع في مخاطبة الامير فاسيلي تلك اللهجة المازحة التي يكثر من استعمالها أولئك الناس المرحون الثرثارون ، وقوامها الايهام أن بينهم وبين محادثتهم ذكريات بهيجة لا يعرفها احد غيرهم ، ولكنها في الواقع من صنع الخيال . وقد استجاب الامير لهذه اللعبة مسرورا . فطفقت الاميرة تلفق حوادث مضحكة تصورها على أنها وقائع ، وتقحم فيها آناطول الذي لا تكاد تعرفه . وأدخلت مدموازيل بورين نفسها في هذه الذكريات المزعومة ، وسرّ ماري نفسها أن تنجرف في هذه التذكارات الفرحة .

قالت ليزا ، بالفرنسية طبعاً :

— هنا نستطيع على الاقل يا أمير أن نستمتع بحضورك استمتاعاً كاملاً . فليس شأننا هنا كشأنا في سهراتنا عند آيت ، التي كنت تفرّ منها دائماً ، هل تتذكر آيت العزيزة تلك ؟

— ولكن لا تحمليني على الكلام في السياسة مثل آيت !

— ومائدة الشاي التي كنا نجلس اليها ؟

— آ ... نعم ...

وقالت الاميرة الصغيرة تسأل آنا تول :

— لماذا كنت لا ترى عند آيت ابدأ ؟

وأضافت تقول وهي تغمز بعينها :

— أنا أعلم • لقد روى لي اخوك هيبوليت مغامراتك •

ورفعت اصبعها تهدده قائلة :

— انتي اعرف حتى جهالاتك الباريسية •

فقال الامير فاسيلي سائلا ابنه ، ممسكا يد الاميرة كما لو كانت

تريد أن تهرب فهو يحتجزها قبل أن تفر :

— ولكن ألم يرو لك هيبوليت شيئا ؟ لا شك كنتم عنك كيف كان

يحترق هو نفسه ولها بأمرتنا العزيزة ، وكيف طرده ؟

وأضاف يقول متجها بكلامه الى الاميرة ماريا :

— هي لؤلؤة النساء يا أميرة !

ولم تدع مدموازيل بورين فرصة المشاركة في الحديث تفلت منها

حين سمعت الكلام عن باريس • فسمحت لنفسها بأن تسأل آنا تول هل

هو غادر باريس منذ مدة طويلة ، وهل اعجبته باريس • فسر آنا تول

بأن يجيب الفتاة الفرنسية وأن يحادثها عن وطنها وهو ينظر اليها مبتسما •

كان قد قال لنفسه حين رأى بورين الجميلة انه حتى هنا ، في ليساي جوري ، لن يضجر • وحين نظر اليها بعين فاحصة ، قال يحدث نفسه : « انها جميلة ، جميلة فعلا ، هذه الوصفة • آمل أن تصطبجها اذا تزوجتني • فتاة لطيفة • » •

كان الامير الشيخ يرتدي ثيابه في حجرته غير متعجل ، مقطباً حاجبيه ، مفكراً فيما يجب عليه ان يفعله • لقد أثارت هذه الزيارة حنقه وسخطه • « ما حاجتي الى الامير فاسيلي وطرحه ؟ الاب دعي متبجح ، أجوف فارغ ، ولا بد أن الابن من هذه الطينة الشريفة ! » • كذلك كان يدمدم بينه وبين نفسه • والشئ الذي كان يثير حنقه وسخطه هو أن هذه الزيارة تطرح على فكره مسألة لم يحلها ، وكان يكتبها دائماً ، مسألة كان لا ينفك يكذب على نفسه فيها • هذه المسألة هي : هل يعزم أمره في يوم من الايام على الانفصال عن الاميرة ماريا بتزويجها • كان الامير لا يجرؤ أن يلقي على نفسه هذا السؤال صريحا ، بل كان يتحاشاه مخاتلاً ، لعلمه بأنه ان أجاب عنه فلا بد أن يجيب بما يوجهه العدل والانصاف ، والعدل والانصاف لا يناقضان عواطفه الحميمة فحسب ، بل يناقضان كذلك شروط حياته نفسها • لقد كان الامير يقولون آندريفتش لا يتصور الحياة بدون الاميرة ماريا ، رغم ما كان يبيدها عليها من فتور يصطنعه اصطناعاً ، ورغم ما كان يظهره من أنه لا يحرص عليها هذا الحرص كله • كان يقول لنفسه : « علام تتزوج ؟ لا شك انها بالزواج ستشقى • هذه ليزا قد تزوجت آندره (ويبدو أنه يصعب

في هذا الزمان ان يوجد زوج خير من هذا الزوج) ، فهل هي راضية بنصيبها ، سعيدة بحظها ؟ ومن ذا الذي يتزوج ماريا بدافع الحب ؟ انها دميمة وخرقاء • واذا أقدم رجل على الزواج بها ، فانما هو يفعل ذلك للانتفاع بما لها من علاقات ، وبما تملك من ثراء • هل يستحيل على فتاة أن تحيا عازبة ؟ الا ان العزوبة أدعى الى السعادة ! » • كانت هذه المعاني تجول في ذهن الامير نيقولا آندريفتش وهو يرتدي ثيابه • ولكن السؤال الذي كان يؤجله دائما يطلب جوابا في الحال • واضح أن الامير فاسيلي قد اصطحب ابنه ليخطب ماريا ، ولا بد أنه سيطلب جوابا في هذا اليوم او في الغد • ان الاسم والرتبة مناسبان • « لا اعتراض لي من هذه الجهة • ولكن يجب أن يكون الشاب جديرا بها كفتا لها • وهذا ما سنراه » • كذلك قال الامير الشيخ لنفسه • ودخل الصالون بخطى رشيقة خفيفة على عادته ، فشمّل الجميع بنظرة سريعة ، فلاحظ تغير زينة الاميرة الصغيرة ، ولاحظ شريط مدموازيل بورين ، ولاحظ تسريحة شعر الاميرة ماريا وهي تسريحة بشعة ، ولاحظ الابتسامات التي كان يتبادلها أقاتول ومدموازيل بورين ، ولاحظ عزلة أميرته في وسط هذا الحديث الذي يجري بين الحضور • قال لنفسه وهو يلقي على ابنته نظرة غيظ وحقق : « تزينت تزين حمقاء • ليس فيها خفر او حياء • ولكنه لا يحفل بها ولا ينظر اليها ! » •

ومضى الى الامير فاسيلي :

— صباح الخير ، صباح الخير ، سعيد برؤيتك •

قال الامير فاسيلي بسرعة وثقة ودون كلفة ، كما هي عادته :

— ليس تطويل المسافة سبعة فراسخ بأمر ذي قيمة اذا كان الهدف

ان يرى المرء صديقا عزيزا • هذا ابني الاصغر • انني أوصي به ،

وأحب أن يستحق رعايتك •

فألقى الامير نيقولا آندريفتش على آنا تول نظرة متفرسة ، وقال :

— شاب شجاع ! شاب شجاع !

وأضاف وهو يمد اليه خده :

— تعال قبّلي !

قبّل آنا تول الشيخ ، ونظر اليه مستغربا بعض الاستغراب ، هادئا

كل الهدوء ، متسائلا هل تراه يعاني بعد قليل من انواع شذوذ هذا

الرجل التي حدثه عنها ابوه •

جلس الامير نيقولا آندريفتش في مكانه المعتاد على ركن من

الديوان ، وجذب اليه مقعدا للامير فاسيلي مومئا له أن يجلس عليه ،

وطفق يسأله عن الاحداث السياسية وآخر الانباء • فكان يبدو عليه

أنه يصغي اليه ، ولكنه كان في الواقع لا يكف عن اختلاس النظر

الى الاميرة ماريا •

قال مرددا آخر كلمات الامير فاسيلي :

— اذن يكتبون منذ الآن عن بوتسدام •

ثم نهض فجأة ، ومضى الى ابنته ، فقال لها :

— أمن أجل الزوار تزينت هذا التزين ؟ أنت جميلة ، جميلة جدا •
ذلك امر لا شك فيه ولا اعتراض عليه • واذا جاء زوار سرحت شعرك
تسريحة جديدة • فهأنا ذا اقول لك على مرأى ومسمع منهم جميعا اني
أحظر عليك في المستقبل أن تغيري زينتك بدون استئذاني •

فتدخلت الاميرة الصغيرة تقول :

— هذه غلطتي يا أبي !

فردَّ الامير نيقولا على كنته وهو يقرع الارض بكعبيه
غضبا :

— أنت حرة فيما تفعلين بنفسك • أما هي فليست في حاجة الى
أن تزيد دمامتها • هي دميعة دمامة كافية بغير هذا الذي فعلته
بنفسها •

وعاد يجلس دون أن يلقي بالا بعد ذلك الى ابنته التي أبكاها •

قال الامير فاسيلي :

— بالعكس : هذه التسريحة تناسب الاميرة جدا •

فقال الامير نيقولا متجها بالكلام الى آنا تول :

— هيه يا بني ، أيها الامير الصغير ! ما اسمه ؟ تعال الى هنا ؛
فلنتعارف •

قال الامير آناطول لنفسه : « بدأت الملهاة » ، وجلس بقرب الامير الشيخ وهو يتسم .

— قيل لي يا عزيزي انك نشأت في الخارج فلست اذن مثلنا ، أنا وأبيك ، اللذين تولى تعليمنا القراءة قندلفت . قل لي يا عزيزي : أنت تخدم الآن في الحرس فارسا ؟

كذلك قال الشيخ يسأل آناطول وهو يحدّق اليه من قرب . فأجاب آناطول يقول وهو لا يكاد يستطيع ان يكظم ضحكه :
— بل انتقلت الى الجيش .

— ها ... حسن جدا . فأنت تريد اذن ان تخدم القيصر والوطن؟ ونحن الآن في حرب . وخليق بفتى شجاع مثلك أن يقوم بواجبه ، أن يقوم بواجبه . اذن أنت ذاهب الى الجبهة ؟

— لا يا امير . ان فوجنا يحارب . أما أنا فانتني ملحق ب ... بماذا أنا ملحق يا أبي ؟

كذلك سأل آناطول اياه وهو يضحك .

فقال الامير نيقولا وهو ينفجر مقهقهة :

— هذا اسمه جندي ! بماذا أنا ملحق ؟ قه قه قه !

وأضاف يقول لآناطول :

— حسن . اذهب .

فمضى آتاتول ينضم الى السيدات مبتسما •

سأل الامير الشيخ الامير فاسيلي :

— نشأتهم في الخارج يا أمير فاسيلي ، هه ؟

— فعلت ما استطعت ، ولا بد ان أقول لك ان التربية هناك اعلى مستوى من التربية في بلادنا •

— نعم ، تغير اليوم كل شيء • أصبح كل شيء خاضعا للموضة الجديدة • شاب شجاع • لا شك في ذلك • شاب باسل ! لنذهب الآن الى غرفتي •

قال الامير نيقولا آندريفتش ذلك ، وأمسك ذراع الامير فاسيلي ، وقاده الى مكتبه •

فما ان خلا الامير فاسيلي الى الامير نيقولا آندريفتش حتى أطلعه على رغبته وآماله •

فقال الامير بحدة :

— أترأى تظن أنني احتجزها ؟ أنني لا أطيق الانفصال عنها ؟ تلك أخيلة يا عزيزي ! ... خذوها منذ الغد ، فليس لي على ذلك اعتراض • ولكنني أريد أن أزيد معرفتي بصهري • انك تعلم مبادئ : يجب أن يكون كل شيء واضحا أشد الوضوح ، صريحا كل الصراحة ! سألقي عليها السؤال غدا أمامك • فاذا هي قبلت ، فليبق هو هنا

قليلا • لبيب هنا ، فترى ما يكون من الامر •

وشخر الامير • ثم أضاف يقول صارخا بذلك الصوت الحاد الذي
ودّع به ابنه :

— فليزوجها ، فليزوجها • ليس لي اعتراض •

فقال الامير فاسيلي بلهجة طليقة يصطنعها الرجال المكارون حين
يرون أنه لا جدوى من المكر في مخاطبة رجل ثاقب البصيرة :

— سأكلمك بصراحة • انك تنفذ ببصيرتك الى أعماق الرجال • ليس
آنا تول بالعقري • ولكنه شاب طيب القلب ، شريف النفس ، وهو
الى ذلك ابن ممتاز ، وقريب بار •

— حسن • حسن • سوف نرى •

كما يحدث للنساء التي طالت عزلتهن ، وطال حرمانهن من صحبة
الرجال ، شعرت نساء منزل الامير نيقولا أندريفتش الثلاث ، منذ
وصول آنا تول ، ان حياتهن حتى ذلك الحين لم تكن حياة ؛ وتضاعفت
لديهن القدرة على التفكير ، وعلى الاحساس ، وعلى الملاحظة فورا ،
فكأن حياتهن قد انقضت حتى ذلك الحين في ظلمات دامسة ، فاذا
هي الآن يغمرها الضوء وتزخر بالمعنى •

أصبحت الاميرة ماريا لا تفكر البتة في وجهها وفي تسريحتها ، فقد
نسيتهما ، وأصبح الوجه الجميل الطلق ، وجه الرجل الذي قد يصبح

زوجها ، يحتكر انتباهها ويصرفه عن كل ما عداه • بدا لها الشاب طيبا ، شجاعا ، حازما ، كريما ، يفيض رجولة وفحولة • أصبحت مقتنعة بهذا • فكان ينشأ في خيالها ألف حلم عن الحياة الزوجية بغير انقطاع ، وهي ما تنفك تطرد هذه الاحلام وتحاول أن تخفيها •

وكانت تتساءل : « ولكن ألسن أسرف في الفتور معه ؟ انني احاول ان أكظم ما بقلبي وأن أسيطر على نفسي ، لأنني في أعماق أعماقي أحس منذ الآن بأنني قريبة منه قريبا شديدا • ولكنه لا يعرف ما يدور في خاطري عنه ، ولا يعرف ما أرى فيه من رأي ، فقد يتخيل أنه لا يحظى بأعجابي » •

وتحاول الاميرة ماريا ان تلاطف الضيف فلا تفلح •

ويقول آفاتول لنفسه : « مسكينة هذه الفتاة • انها دميمة دمامة شيطانية ! » •

وقد سحرت مدموازيل بورين هي أيضا بوصول آفاتول ، ولكن أفكارا أخرى كانت تتحرك في رأسها • ان هذه الفتاة الجميلة التي ليس لها مركز محدد في العالم ، وليس لها أهل ولا أصدقاء حتى ولا وطن ، كانت لا تفكر طبعا في أن تقف حياتها كلها على خدمة الامير فيقولوا آندريفتش ، والقراءة له ، وعلى صداقتها مع الاميرة ماريا • ان مدموازيل بورين تنتظر منذ مدة طويلة الامير الروسي الذي قد يدرك

فجأة تفوقتها على أميرات روسيات دميمات لا يحسن أناقة اللباس ولا كياسة التصرف ، فيتوله بحبها ويختطفها • وها هو ذا الأمير الروسي يجيء أخيراً • كانت مدموازيل بورين تحب أن تروى لنفسها قصة روتها لها عمتها ، وأكملتها هي من عندها • وهي قصة فتاة أغواها رجل فأخذت أمها المسكينة تلومها على أنها استسلمت لرجل بدون زواج • وكثيراً ما كانت مدموازيل بورين تذرف دموعاً غزيرة وهي تروي هذه القصة في خيالها « له » ، أي لمن سوف يغويها • وها « هو » ذا الآن • انه أمير روسي أصيل • سوف يختطفها ، ثم تأتي أمها المسكينة ، فيتزوجها • هكذا كانت تؤلف مدموازيل بورين قصتها في خيالها حين كانت مسترسلة في الحديث مع آنا تول عن باريس • لم يكن يقودها حساب (انها لم تفكر لحظة فيما كان يجب عليها أن تعمله) ، ولكن هذا كله كان مهياً في خيالها منذ مدة طويلة ، فليس عليه الآن الا ان يتجمع حول آنا تول الذي تأمل ان تعجبه ، وتعمل ما في وسعها من أن تظفر باعجابه •

وكفرس من أفراس المعارك يرتعش حين يسمع صوت البوق ، كانت ليزا ، وقد نسيت حالتها الصحية ، تنهياً لركض الغنج ، على غير شعور منها ، وبدون أي هدف يخامر نفسها ، وانما هي مدفوعة الى ذلك بخفة بريئة ساذجة فرحة •

ورغم أن من عادة آنا تول ان يصطنع في مجتمع الناس وضع رجل تكاثرت عليه مطارداتهن ، فقد أحس بيهجة كبيرة وغرور عظيم حين رأى

ما أحدثه في هذه النسوة الثلاث من أثر • ثم انه عدا ذلك قد أخذ يشعر نحو بورين الجميلة المستفزة بشهوة حيوانية استبدت به بسرعة ، وأخذت تدفعه الى أعمال فيها كثير من الجسارة والعنف والمغامرة •

انتقل الجمع بعد احتساء الشاي الى الصالون الصغير ، وطلب الى الاميرة ماريا أن تعزف على البيانو • وقد توكأ آناطول على كوعيه أمامها بقرب مدموازيل بورين ، وشخص بعينه الضاحكتين الفرحتين الى الاميرة ماريا ثابتتين عليها • فكانت الاميرة ماريا تحس نظرتها اليها بانفعال هو مزيج من قلق وفرح • ونقلتها سوناتتها المفضلة الى عالم سري شعري كانت تلك النظرة تزيد شعرا • ولكن الحقيقة أن نظرة آناطول ، رغم أنها ثابتة عليها ، لم تكن موجهة اليها بل الى حركات تلك القدم الصغيرة ، قدم مدموازيل بورين التي كانت قدم آناطول تلامسها في ذلك الاوان تحت البيانو • وكانت مدموازيل بورين تنظر هي أيضا الى الاميرة ماريا ، وكانت عيناها الجميلتان تعبران كذلك عن فرح قلق وأمل مشرق لم تعهدهما الاميرة ماريا فيهما من قبل يوما • فكانت الاميرة ماريا تقول لنفسها : «ما أعظم ما تحبني ! ما أسعدني الآن ، وما أكبر ما يمكن أن تكون سعادتي مع مثل هذه الصديقة ومثل هذا الزوج ! أيمكن زوجي ؟ أهذا ممكن ؟ » كذلك تساءلت الاميرة ماريا وهي لا تجرؤ أن ترفع عينيها الى وجهه ، وما تزال تحس بنظرته موجهة اليها ثابتة عليها •

وحين افترقوا في المساء بعد العشاء قبّل آناطول يد الاميرة ماريا ،

فاقترب وجهه من عينيها الحسيتين ، فنظرت الى الوجه الجميل مدهوشة هي نفسها من جرأتها • ثم قبَّل آناطول يد مدموازيل بورين (ذلك أمر غير لائق ، ولكن كان كل ما يفعله آناطول يتم ببساطة وثقة) ، فاحمرت مدموازيل بورين احمرارا شديدا ، والقت على الاميرة نظرة مرتاعة •

قالت الاميرة ماريا لنفسها : « ما أرهف احساسها ! هل يمكن ان تتخيل آميلي (وذلك هو اسم مدموازيل بورين) أن أغار منها ، وأن لا أقدر عاطفتها نحوي واخلاصها لي حق قدرهما ؟ » • وتقدمت من مدموازيل بورين وقبلتها تقبيلًا شديدا • واتجه آناطول الى الاميرة الصغيرة ، ليزا • فصدمته قائلة له :

— حين يكتب لي أبوك أن سلوكك تحسن ، أعطيك يدي لتقبلها •
أما قبل ذلك فلا •

ورفعت اصبعها تهدده ، ثم خرجت تتألق ابتساما •

الفصل الخامس

افترق انجم كله ، ولبثوا زمنا طويلا لا يعرفون الى النوم سيلا
في تلك الليلة ، الا آنا تول ، فقد نام فورا •

وكانت الاميرة ماريا تتساءل : « أيمن ان يصبح هذا زوجي ،
هذا الاجنبي بعينه ، هذا الرجل الجميل ، الطيب ، الطيب خاصة ؟ » •
واعترها رعب لم تكذ تشعر بمثله في حياتها قط • أصبحت لا تجرؤ
أن تلفت رأسها • كان يخيل اليها أن شخصا واقف هناك ، وراء الحاجز ،
في الركن المظلم ، وان هذا الشخص هو في آن واحد ، الشيطان وذلك
الرجل ذو الجبهة البيضاء والحاجبين الاسودين ، والشفنتين القرمزيتين •

فقرعت الجرس لخادمتها ، وطلبت منها أن تنام بقربها •

وفي ذلك المساء تنزهت مدموازيل بورين مدة طويلة في حديقة
الشتاء ، منتظرة في غير طائل ان يوافيها أحد • وكانت تارة تبتسم للرجل
الذي تنتظر أن يوافيها ، وتارة تذرف الدموع غزيرة من شدة الانفعال
الذي تثيره في نفسها الكلمات التي ينسبها خيالها الى أمها المسكينة
التي تلومها على سقطتها •

وكانت الاميرة الصغيرة ليزا تقرّع خادماتها لأنها وجدت ان سريرها لم يرتب ترتيبا حسنا . وكانت الاميرة الصغيرة لا تستطيع أن ترقد لا على جنبها ولا على بطنها . كان بطنها يضايقها . كان يضايقها أكثر مما ضايقها في أي وقت مضى ، كان يضايقها في هذا اليوم بذاته ، لأن وجود آنا تول قد ردها الى عهد آخر ، عهد لم تكن فيه على هذه الحال ، عهد كان كل شيء فيه سهلا فرحا . كانت جالسة على مقعد بقميص النوم وطاقية الليل ، تنظر الى كاتيا التي اختلطت ضفائرها ، وأثقل النعاس عينيها ، وأخذت تخط وتقلب سريرها الثقيل المحشو بالريش ، متدمرة متبرمة ، لأنها تفعل ذلك للمرة الثالثة .

قالت الاميرة الصغيرة مرددة :

— سبق ان قلت لك انه مليء بالجدبات والحفر . لشد ما يسرنى أن استطيع النوم ، فليس الذنب ذنبي ...

وأخذ صوتها يختلج ، كصوت طفل يهم أن يبكي .

والامير الشيخ لم ينم أيضا . كان تيقون ، وهو نائم ، يسمعه سائرا بحنق ، ناخرا بغضب وسخط . كان يبدو للأمير الشيخ أنه أهين في شخص ابنته . وكان يعد تلك الاهانة أقسى الاهانات ، لأنها لا تتناوله هو ، بل تتناول انسانا آخر هو ابنته التي يحبها أكثر مما يحب نفسه . كان قد قال لنفسه انه سيفكر في هذه القضية كلها ، وانه سيجد الحل العادل ، وانه سيهتدي الى ما يجب عليه أن يفعله .

ولكنه لا يزيد الآن على أن يوري نار غيظه وحنقه ، قائلاً لنفسه :
 « يظهر أول قادم ، فإذا هي تنسى أباه ، وتنسى كل شيء ، وتسرع
 فترفع شعرها ، وإذا هي ترتعش ارتعاشاً وتختلج اختلاجاً ، فينكرها
 المرء ولا يعرفها ! انها سعيدة بترك أبيها ! وكانت تعلم أنني سألاحظ
 هذا كله . فرررر ! فرررر ! أأست أرى ان هذا الاحق لا ينظر الا
 الى بورين (يجب طرد بورين هذه !) . كيف لا تلاحظ ماريا مكرهما
 وتآمرهما ؟ أيمن ان يبلغ المرء من فقدان الكرامة حدة العماوة ،
 فلا يرى هذا ؟ اذا لم تكن لها هي كرامة ، فلتراع كرامتي أنا على
 الاقل . يجب أن أريها ان هذا الاحق لا يفكر فيها ولا تخطر بباله ،
 وأنه لا يطمع الا في بورين . انها لا كرامة لها ، ولكن عليّ أنا ان
 أفتح عينها ... » .

واطمأن بال الامير الشيخ وهدأت نفسه حين تصور انه متى قال
 لابنته انها مخدوعة وان آنا تول ينوي ان يغازل مدموازيل بورين
 فسوف يجرح كبرياء ابنته ، فيربح القضية ويحقق هدفه ، وهو أن
 لا ينفصل عن ابنته .

عندئذ نادى تيخون ، وأخذ يخلع ثيابه .

وفيما كان تيخون يلبس جسمه الجاف العجوز المغطى صدره بزغب
 أشيب ، كان يقول لنفسه : « أي شيطان جاء بهما ؟ هل كان لا بد
 أن يجيئا ؟ أنا ما دعوتهما . لقد جاءا يقلبان حياتي رأساً على عقب .
 ولم يبق من حياتي الا القليل ... » .

وصرخ يقول وما يزال رأسه مشتبكا بالقميص :

— فليأخذهم الشيطان جميعا !

كان تيخون يعرف عادة الامير في التعبير عن خواطر فكره بصوت عال . لذلك واجه النظرة المستفهمة الغاضبة التي ظهرت من تحت القميص ، واجهها هادئا لا يبدو على وجهه شيء من قلق .

سأله الامير قائلا :

— هل ناموا ؟

كان تيخون يعرف بغريزته مجرى أفكار مولاه ، شأنه في ذلك شأن كل خادم حاذق . فأدرك ان مولاه انما يسأله عن الامير فاسيلي وابنه .

— رقدوا وأطفئوا النور يا صاحب السعادة .

— كنت في حاجة اليهم

كذلك قال الامير ثم أسرع يقول مستدركا وهو يدس قدميه في خفيه ، ويدس ذراعيه في كمّي ثوب المنزل .

— ولكن لا داعي ، لا داعي

ومضى الى الديوان فاضطجع عليه .

رغم أن آنا تول ومدموازيل بورين لم يتبادلا كلاما فقد تفاهما تفاهما تاما على الجزء الاول من الرواية التي كان يتصورها خيالها ، أي على الجزء الذي يسبق ظهور الام المسكينة . كانا قد أدركا أن

هناك أشياء كثيرة يجب أن يقولها في السر • لذلك ما ان طلع صباح الغد حتى بحثا عن فرصة تتيح لهما خلوة • وفي اللحظة التي كانت الاميرة ماريا قد اعتادت أن تذهب فيها الى أبيها ، آتاتول ومدموازيل بورين في حديقة الشتاء •

كانت الاميرة ماريا في ذلك اليوم تتقدم من باب غرفة أبيها مرتعشة ارتعاشا أشد من ارتعاشها المألوف حين تقبل على أبيها في الصباح • كان يبدو لها أن جميع الناس يعلمون أن مصيرها سيتقرر هذا اليوم ، بل كان يبدو لها أيضا أنهم يعرفون رأيها في الامر • قرأت هذا في وجه تيخون ، وقرأته في وجه خادم غرفة الامير فاسيلي الذي لقيته في المر يحمل ماء ساخنا ، فحيّاها بانحناء شديد •

استقبل الامير الشيخ ابنته في ذلك الصباح بلطف وبشاشة لا يشران بخير • ان ماريا تعرف هذا بالتجربة • لقد كان في وجهه ذلك التعبير المركّز نفسه الذي يكتسبه اثناء اعطائها دروسا في الرياضيات، فاذا أحنقه أن رآها تستعصي على فهم شروحه ، شدّ قبضتي يديه ، ونهض من مكانه ، وابتعد عنها ، وأخذ يردد شروحه نفسها عدة مرات بصوت مختنق غيظا •

وها هو يسارع الى الدخول في الموضوع على الفور ، مخاطبا ابنته بضيفة الجمع • قال وهو يتشمّ ابتسامة يكره نفسه عليها اكرها :
— عرضوا عليّ بشأنك أمرا • وما أظن الا أنك أدركت أن الامير

فاسيلي قد جاء الى هنا مصطحبا ربييه حبا بجمال عيني» (لا يعلم الا الله لماذا خلع الامير نيقولا آندريفتش على آنا تول اسم الربيب) • عرضوا علي» بشأنك أمس أمرا • واني لأضع هذا الامر بين يديك ، وأدع اتخاذ القرار فيه لك ، عملا بمبادئتي التي تعرفينها •

تمتت الاميرة ماريا تقول وهي تصفر ثم تحمر ثم تصفر :
— ما الذي يجب أن أفهمه من كلامك يا أبي ؟
فصاح الامير يقول غاضبا :

— ما الذي يجب أن تفهميه ؟ ان الامير قد راق له أن يكون حماك ، فخطبك مني زوجا لربييه • هذا ما يجب أن تفهميه • وأنا أضع الأمر بين يديك ، وأسألك رأيك ، فأنت التي يجب عليك أن تجيبي •

قالت الاميرة مدممة :

— لا أعرف ما تراه أنت من رأي يا أبي •
— أنا ؟ أنا ؟ ما شأني أنا في هذا الامر ؟ لا تقحميني فيه ! لست أنا الذي أتزوج • ما رأيك « أنت » ؟ هذا ما أريد أن أعرفه •

أدركت الاميرة ماريا أن أباهها غير راض عن زواجهما ، ولكنها أدركت في الوقت نفسه أن هذه الدقيقة هي التي ستقرر مصيرها • فخفضت عينيها تحاشيا للنظرة التي أحست انها تجعلها عاجزة عن التفكير ، وتحملها في العادة على الازعان والخضوع ، ثم قالت :

— أنا لا أرغب الا في شيء واحد هو أن أحقق ارادتك ، ولكن
إذا كان عليّ ان أقول ما هو شعوري ...

ولكنها لم تستطع أن تكمل جملتها ، لأن الامير قاطعها صارخا :

— عظيم ! سيأخذك أنت ومهرك ، وسيصطحب مدموازيل بورين
بهذه المناسبة ، فتكون هي امرأته ، أما أنت ...

وأمسك الامير عن اكمال كلامه ، لقد لاحظ الاثر الذي أحدثته
هذه الاقوال في نفس ابنته . لاحظ انها خفضت عينيها تهمّ ان
تبكي .

قال :

— انسي هذا الكلام ، انسيه . انسي أمزح . أمزح . وتذكري
شيئا يا أميرة ، تذكري ان مبدئي هو ان الفتاة لها حق الاختيار كاملا
غير منقوص . فأنا أدعك اذن حرة . لكن هناك أمرا يجب أن لاتنسيه
هو أن قرارك تتوقف عليه سعادة حياتك كلها . أما أنا فلا تحسبي
حسابي .

— ولكنني لا أعلم ... يا أبي .

— لا تحسبي حسابي أنا ! أما هو فانه يؤمر بأن يتزوجك فيخضع ،
ولو أمر بأن يتزوج أية فتاة اخرى لخضع ايضا . وأنت حرة تختارين
ما تشائين . اذهبي الى غرفتك ، وفكرّي مليا ، ثم تعالي لتقولي
بحضوره نعم أو لا . أنا أعلم أنك ستصلين . لا بأس . صلي . ولكن

التفكير في هذه الحالة أجدى من الصلاة • اذهبي •

وحين كانت الاميرة قد خرجت من غرفته مترنحة وكأنها في ضباب،
كان هو ما يزال يصيح قائلا :

— نعم أو لا ؛ نعم أو لا •

لقد تقرر مصيرها ، وتقرر على النحو الذي ترضى وتحب • ولكن
ما قاله أبوها عن مدموازيل بورين شيء رهيب • ان هذه التلميحة
فظيعة • صحيح أن تصور أبيها خطأ • ولكن هذا لا ينفي أن الامر
رهيب ، فلا تستطيع أن لا تفكر فيه •

وبينا هي تجتاز حديقة الشتاء قدما لا تلوي على شيء ، ولا ترى
شيئا ، ولا تسمع شيئا ، اذ أيقظها من ذهولها على حين فجأة همس
مألوف عندها هو همس مدموازيل بورين • فرفعت بصرها ، فاذا هي
ترى آناطول محتضا الفرنسية بذراعيه على بعد خطوتين ، هامسا في
أذنها بكلام • والتفت آناطول الى الاميرة ماريا وقد اكتسى وجهه
الجميل تعبيرا مريعا ، ولكنه في الوهلة الاولى لم يرخ جسم مدموازيل
بورين التي لم تكن قد رأت الاميرة ماريا •

كان وجه آناطول كأنه يقول : « من هنا ؟ لماذا ؟ قف ! » • ونظرت
اليهما الاميرة ماريا صامتا • كانت لا تستطيع أن تفهم ما هذا • وأخيرا
أطلقت مدموازيل بورين صرخة حادة ، وولت هاربة • وانحنى آناطول
أمام الاميرة ماريا وهو يبتسم ابتسامة مرحة كأنه يدعوها الى أن تضحك

من هذا الحادث الغريب ، ثم رفع منكبيه واجتاز الباب للجؤدي الى الجناح الذي يقيم به من القصر •

وبعد ساعة جاء تيوخون يستدعي الاميرة ماريا ، وقال لها ان الامير أباه ينتظرها ، وأضاف الى ذلك أن الامير فاسيلي معه •

حين دخل تيوخون على الاميرة كانت جالسة على الديوان تحتضن بذراعيها مدموازيل بورين التي كانت تبكي • وكانت الاميرة ماريا تلاعب شعر مدموازيل بورين في رفق ولطف • وكانت عيناها الجميلتان اللتان لم ينقص ما تتصفان به دائما من هدوء واشراق تنظران الى وجه مدموازيل بورين الجميل نظرة تفيض حنانا وعاطفة •

قالت مدموازيل بورين :

— لا يا أميرة ، لقد زلت من قلبك الى الابد •

فأجبتها الاميرة ماريا قائلة :

— لماذا ؟ انني أحبك أكثر مما أحبتك في أي وقت مضى ، وسأحاول

أن افعل كل ما أستطيع ان افعله في سبيل سعادتك •

— ولكنك تحتقريني • انك ، وأنت الطاهرة هذا الطهر كله ، لن

تفهمي أبدا ضلال الهوى هذا • آه • أمي المسكينة وحدها •••

أجابت الاميرة وهي بتسم ابتسامة حزينة :

— بل أفهم كل شيء • هدئي نفسك يا صديقتي • أنا ذاهبة

الى أبي •

• وخرجت •

حين دخلت الاميرة ماريا غرفة أبيها كان الامير فاسيلي مصالبا ساقه عاليتين ، ممسكا علبة تبغ يده ، وكانت هيئته تدل على أنه منفعل انفعالا شديدا ، وأنه في الوقت نفسه مستهزيء من هذا الانفعال ، وكانت على شفقيه ابتسامة تصطنع رقعة العاطفة • فما ان دخلت الاميرة ماريا حتى أسرع ينشق نشقة من تبغ في أنفه ، وقال وهو يقوم لها ويمسك يديها :

— آ ... عزيزتي الطيبة ! عزيزتي الطيبة !

وتنهذ ثم أضاف يقول :

— مصير ابني بين يديك • فاعزمي أمرك يا عزيزتي ماري ، يا عزيزتي ماري الرقيقة التي أحبتها دائما كما يحب أب ابنته •

وتنحى • وبدأت في عينيه دمعة حقا •

فصاح الامير الشيخ فجأة يقول :

— ان الامير يخطبك لربيه ... لابنه • فهل تريدان أن تكوني زوجة الامير آفاتول كوراجين ؟ نعم أم لا ؟ أجيبني اما بنعم واما بلا • وأحتفظ لنفسني بابداء رأيي بعد ذلك •

ثم أضاف مخاطبا الامير فاسيلي ، مجيبا عما ظهر في وجهه من تعبير عن الضراعة :

— نعم ، رأيي ، رأيي فقط •

ثم عاد يسأل ابنته :

— نعم أم لا ؟

— رغبتى يا أبى هي أن لا أتركك أبدا ، هي أن لا أفصل حياتى عن حياتك •

وأضافت تعلن بلهجة جازمة وهي ترمق بعينيها الجميلتين أباهما والامير فاسيلي :

— لا أريد ان أتزوج •

فصاح الامير نيقولا أندريفتش وهو يقطب حاجبيه :

— ترهات ! حماقات ! سفاسف ! سفاسف !

وتناول يد الفتاة ، وجذبها اليه ، لكنه بدلا من ان يقبلها ، قرَّب جبينه من جبينها ولم يزد على أن لامسه ملاسمة ، وشدَّ على يدها شدا بلغ من القوة ان جعدة ظهرت في وجهها ، وصرخة انطلقت من صدرها • نهض الامير فاسيلي ، وقال :

— أحب ان أقول لك يا عزيزتى ان هذه لحظة لن أنساها أبدا ، أبدا • ولكن ألا تهين لنا ، يا عزيزتى الطيبة ، قليلا من الامل في ان يلين قلبك الذي يتصف باكبر النبل وأعظم الكرم • قولى : ربما ... فان المستقبل واسع • قولى : ربما •

— قد قلت كل ما أشعر به يا أمير • لك ما تغمرني به من شرف

خطبتي لاينك • ولكنني لن أكون لابنك زوجة في يوم من الايام
أبدا •

فأخذ الامير الشيخ يردّد مودعا الامير فاسيلي مقبلاً اياه :

— طيب ! انتهى الامر يا عزيزي • لقد سعدت برؤيتك ، سعدت
برؤيتك •

وأضاف يخاطب ابنته :

— اذهبي الى غرفتك يا أميرة • اذهبي •

وعاد يقول للأمير فاسيلي :

— سعدت برؤيتك ، سعدت برؤيتك •

وكانت الاميرة ماريا تقول لنفسها : « رسالتي رسالة أخرى •
رسالتي أن أكون سعيدة سعادة أخرى هي سعادة المحبة والتضحية •
وسأصنع سعادة آميليا المسكينة مهما يكلفني ذلك • انها تحبها ماثوبوا
جارفا • وهي نادمة ندما شديدا عنيفا • سأفعل كل شيء لأتمّ زواجها
به • اذا لم يكن غنيا زوّدتها بمهر اطلبه من بابا ، وأطلبه من أندره •
لسوف أسعد اعظم السعادة اذا هي أصبحت امرأته • انها شقية شقاء
كبيراً • انها أجنبية ، ليس لها أحد ، ليس لها سند ! رباه ! ما أشدّ توليها
بحبه ما دامت قد ذهلت عن نفسها هذا الذهول ، فانجرفت هذا
الانجراف ! لو كنت في مكانها ، لكان جائزاً أن أفعل ما فعلت ! ... » •

الفصل السادس

ظلت أسرة روستوف لا تصلها أنباء عن نيقولا مدة طويلة • وفي منتصف الشتاء انما سلم الكونت رسالة عرف من عنوانها أن الخط خط ابنه • فركض الى غرفة مكتبه على رؤوس الاصابع ، وأغلق بابها ، وأخذ يقرأ الرسالة • لقد أهاجه تلقي هذه الرسالة كثيرا ، وأحب أن لا يلاحظ أحد أنه تلقاها ، فلذلك أسرع يجس نفسه لينفرد بقراءتها متعجلا • فلما علمت آنا ميخائيلوفنا بالنبا (وهي تعلم بكل ما يحدث في المنزل) دخلت الى الكونت ، فرأت الرسالة في يده ، ورأت الكونت يبكي ناشجا ويضحك مقهقهها في آن واحد •

ان آنا ميخائيلوفنا ماتزال تعيش في منزل آل روستوف رغم تحسن حالها •

قالت بلهجة تساؤل حزين ، متأهبة لان تشارك في كل شيء :

— صديقي الطيب ؟

• — صغيرنا نيقولا ••• رسالة ••• جريح ••• كان جريحا •••

عزيزتي ••• جريح ••• بني الغالي ••• الكونتيسة •••

رُقي ضابطا ••• الحمد لله ••• كيف أنبيء الكونتيسة بهذا ؟

جلست آنا ميخائيلوفنا بقربه ، ومسحت بمنديلها دموع عينيه والرسالة التي تقاطرت عليها الدموع ، وجفت دموعها هي ، وقرأت الرسالة ، وشدت عزيمة الامير ، وقالت انها ستهيء الكوتيسة لتلقي النبا قبل الغداء والشاي ، ثم تنقله اليها بعد الفراغ من احتساء الشاي ، بمعونة الله .

بقيت آنا ميخائيلوفنا طوال مدة الغداء تتكلم على الشائعات التي تروج بين الناس عن العمليات العسكرية ، وتتكلم على نيقولاً . وسألت مرتين متى وصلت رسالته الاخيرة ، رغم أنها كانت تعلم متى وصلت تلك الرسالة ، وقالت ان من الجائز جدا أن تصل رسالة أخرى منه في هذا اليوم نفسه . فكلما قلقت الكوتيسة من هذه التلميحات فنظرت خائفة مغمومة الى الكونت تارة ، والى آنا ميخائيلوفنا تارة أخرى ، أسرع آنا ميخائيلوفنا فصرفت الحديث الى أمور تافهة ، دون أن يبدو عليها أنها لاحظت من قلق الكوتيسة شيئا ، فانما هي تنقل الحديث الى الشؤون التافهة من تلقاء نفسها ببراءة تامة وسذاجة كاملة . وكانت ناتاشا ، وهي أشد أفراد الاسرة احساسا بالتغيرات الطفيفة في نبرات الصوت ونظرات الاعين وتعبير الوجوه ، قد أصاحت بسمعها الى الحديث منذ بداية الوجبة ، فأدركت أن ثمة سرا بين أبيها وآنا ميخائيلوفنا ، وأن هذا السر يتعلق بأخيها ، وأن آنا ميخائيلوفنا تهيء الجو لاذاعة السر . ولكنها رغم كل ما تتصف به من جرأة (وقد كانت تعرف أن كل ما يتعلق بأخبار ابنها نيقولاً يهز أمها هزا قويا) لم تجسر أن تلقي أي سؤال أثناء الغداء ، حتى انها من شدة قلقها لم تأكل

شيئا ، وكانت لا تزيد على أن تتأود على كرسيها دون أن تلقي الى ملاحظات الخادمة بالا • حتى اذا انتهى الغداء ركضت في اثر آنا ميخائيلوفنا مسرعة ، فلما أدركتها في غرفة التدخين وثبت الى عنقها ، وقالت تسألها :

— عمتي الحبيبة ، عزيزتي ، قولي ، ماذا جرى ؟

— لا شيء يا عزيزتي •

— بلى يا عمتي الحبيبة ، بلى يا عمتي الغالية ، يا ملاكي • لن أتركك •

أنا أعلم أنك تعلمين •

فهزت آنا ميخائيلوفنا رأسها ، وقالت :

— أنت يا ابنتي نحلة مرهفة الاحساس !

— رسالة من نيقولا ؟

ثم هتفت تقول وقد قرأت في وجه آنا ميخائيلوفنا ما يأتي مصدقا

لتخمينها :

— هي رسالة حتما •

قالت آنا ميخائيلوفنا :

— ولكن كوني حذرة ، ناشدتك الله • انك لتعلمين ان هذا يحدث

في نفس أمك اضطرابا شديدا •

— سأكون حذرة ، سأكون حذرة • ولكن احكي لي • ألا تريدن

أن تحكي لي ؟ اذا لم تقصي علي كل شيء ، ذهب اليها فذكرت لها النبأ

فورا •

فأوجزت أنا ميخائيلوفنا مضمون الرسالة لئاتاشا ، واشترطت عليها أن لا تذكر لأحد شيئاً مما قالته لها .

فأجابتها نئاتاشا حائلة وهي ترسم إشارة الصليب :

— أقسم لك بشرفي لن أحدثّ أحداً بشيء .

وأسرعت تركض الى صونيا ، وأخذت تقول لها بلهجة فيها أبهة وفرح :

— يقولوا ... جرح ... وصلت رسالة .

فلم تزد صونيا على أن رددت اسم يقولوا وقد شحب وجهها شحوبا شديداً :

— يقولوا !

فلما رأت نئاتاشا ما أحدثه، نبأ جرح أخيها من أثر شديد في نفسها ، أحست لأول مرة بكل ما يشتمل عليه هذا الخبر من إثارة للحزن .

فارتمت على صونيا ، واحتضنتها بذراعيها ، وأخذت تبكي . وقالت من خلال دموعها :

— جرح جرحاً طفيفاً ، ولكنه رقيق ضابطاً . صحته الآن حسنة . هو الذي كتب يقول ذلك .

قال بيتيا وكان يسير في الغرفة بخطى كبيرة ثابتة :

— واضح أنكين ، معشر النساء ، بكاءات في غير داعٍ الى البكاء .

أنا من جهتي مغتبط أكبر الاغتباط ، مغتبط أكبر الاغتباط حقا بأن أخي
تميز هذا التميز • انكن لا تكفمن عن البكاء في غير داع الى البكاء !
انكن لا تفهمن شيئا •

ابتسمت ناتاشا من خلال الدموع •

وسألنها صونيا :

— ألم تقرئي الرسالة ؟

— لا ، ولكنها قالت ان الجرح مُشفي ، وانه رُقّي ضابطا •

قالت صونيا وهي ترسم اشارة الصليب :

— الحمد لله ! ولكن لعلها لم تقل الحقيقة • هلمي بنا الى ماما •

وكان بيتيا يذرع أرض الغرفة طولا وعرضا ، وهو صامت لا يتكلم،

فقال :

— لو كنت في مكان فيقولا ، لقتلت من الفرنسيين عددا أكبر ، من

شدة ما أمقتهم وأكرههم ! لو كنت في مكانه لذبحت منهم عددا كبيرا

يشكل كومة ضخمة •

— اسكت يا بيتيا ! يا لك من أحقق !

قال بيتيا :

— لست أنا النغي ، بل الغبيات أولئك اللواتي يكنين لسخافات !

قالت ناتاشا تسأل صونيا على حين فجأة :

— هل تتذكرينه ؟

— هل أتذكر نيقولا ؟

قالت ناتاشا وهي تحرك يدها بإشارة خاصة ، محاولة بكل ما تملك من قوة أن تضيء على أقوالها أكبر الجد والرصانة :

— ما هذا الذي قصدته يا صونيا • أقصد هل تتذكرينه تذكرًا واضحًا فتتذكرني كل شيء ؟ أنا أيضًا أتذكر نيقولا ، أتذكره تذكرًا واضحًا • ولكنني لا أتذكر بوريس ، البتة ...

فسألتها صونيا مدهوثة :

— كيف ؟ لا تتذكرين بوريس ؟

— لا أعني أنني لا أتذكره • انني أعرف كيف هو • لكنني لا أتذكره كما أتذكر نيقولا • نيقولا أراه اذا أغمضت عيني ، أما بوريس فاذا لم أغمضت عيني لم أراه •

وأغمضت عينيها وأردفت تقول :

— اذا أغمضت عيني هكذا ، فلا يترأى لي ، لا أراه •

قالت صونيا وهي تنظر الى صديقتها بهيئة فيها جد وحماسة، وكأنها، لاعتقادها بأن صديقتها غير جدية بأن تسمع ما تقوله ، تتجه بكلامها الى شخص آخر لا مزاح معه :

— آه .. ناتاشا .. انني أحب أخاك ، ومهما يحدث لنا ، أنا وهو ،
فلن أكف عن حبه ما حييت .

كانت ناتاشا تنظر الى صونيا بعينين مدهوشتين ، تفيضان استطلاعاً
واستغراباً ، وكانت صامتة لا تقول شيئاً . كانت تحس ان ما تقوله
صادق ، وان الحب الذي تتكلم عنه قائم في نفسها . ولكنها لم يسبق
لها أن شعرت بشيء من هذا حتى الآن . كانت تسلم بأن هذا كله
يمكن أن يوجد ، ولكنه لا تفهمه .

— هل ستكتين اليه :

فسرحت صونيا طرفها مفكرة شاردة الذهن . كيف تكتب الى
نيقولا وهل يجب أن تكتب اليه ؟ تلك مسألة تعذبها تعذيباً . الآن
وقد صار ضابطاً ، الآن وقد أصبح بطلاً جريحا ، هل يجمل بها أن تذكره
بنفسها ، وبالوعد الذي قطعه على نفسه بشأنها ؟

قالت تجيب وقد احمر وجهها :

— لا أدري . أظن أنني سأكتب اليه ، ما دام يكتب هو نفسه .

— ولن تشعري بخجل من الكتابة اليه ؟

فابتسمت صونيا . ثم قالت :

— لا .

— أما أنا فأخجل أن أكتب الى بوريس .

— لم الخجل ؟

— هكذا ! لا أدري ! يرحمني ويخجلني أن أكتب اليه •

قال بيتيا وقد أخزته الملاحظة الاخيرة التي ساقتهأ اخته :

— أنا أعلم لماذا يخجلها أن تكتب اليه • يخجلها أن تكتب اليه

لانها كانت مولهة بحب ذلك السمين الذي يضع على أنفه نظارتين (هكذا

كان بيتيا يسمى سميّه بطرس الذي أصبح اسمه الكونت ييزوخوف) •

وهي الآن مولهة بحب هذا المغني (يقصد الايطالي الذي كان استاذ

ناتاشا يعلمها الغناء) • لذلك تخجل •

قالت ناتاشا •

— بيتيا ، أنت غبي !

فقال بيتيا بلهجة شيخ مجرب ، هو الذي يبلغ من العمر تسع سنين :

— لست أغبي منك !

كانت الكوتتيسة قد هيئت أثناء الغداء لتلقى النبأ بتلميحات آنا

ميخائيلوفنا • فلما مضت الى غرفتها جلست على مقعد ، وأخذت

تتفرس في صورة ابنها الصغيرة التي كانت تزين علبة تبغها ، وترقرقت

الدموع في عينيها • وجاءت آنا ميخائيلوفنا الى باب غرفة الكوتتيسة

سائرة على رءوس الاصابع والرسالة بيدها ، ووقفت على الباب •

وقالت للكونت الشيخ الذي تبعها :

— لا تدخل الآن • تدخل بعد قليل •

وفتحت ودخلت وأغلقت الباب وراءها •

وضع الكونت أذنه على قفل الباب وأخذ يتنصت •

فلم يسمع في أول الامر الا ضوضاء محادثة لا شأن لها بالموضوع ،
ثم سمع صوت آنا ميخائيلوفنا وحده يلقي خطابا طويلا ، ثم سمع
صرخة أعقبها صمت • ثم عاد الصوتان يتكلمان كلاهما بنبرات فرحة •
وسمع أخيرا وقع خطوات ، وفتحت له آنا ميخائيلوفنا الباب • كان
وجهها يعبر عما يعبر عنه وجه طبيب جراح فرغ من اجراء عملية بتر ،
ثم أدخل الجمهور ليتيح له أن يعجب بفنه •

قالت للكونت وهي تثرية الكونتيسة بحركة فيها أبهة :

— تم الامر !

كانت الكونتيسة تمسك باحدى يديها علبة تبغها التي تزينها صورة
ابنها ، وتمسك باليد الاخرى الرسالة ، وتضع شفيتها تارة على الصورة
وتارة على الرسالة •

فلما رأت الكونت مدت اليه كلتا يديها ، وأحاطت رأسه الاصلع
بذراعيها ، ثم نظرت الى الرسالة والصورة من فوق الرأس الاصلع ،
وحتى تستطيع أن تحملهما الى شفيتها من جديد ، دفعت عنها الرأس
دفعاً خفيفاً • ودخل أهل الدار ، فيرا وناثاشا وصونيا وبيتيا ، وبدأت

قراءة الرسالة • ان الرسالة تصف الحملة والمعركتين اللتين شارك فيهما
 نيقولا وصفا موجزا ، وتذكر ترقية نيقولا الى رتبة ضابط ، ثم يقول
 نيقولا في رسالته انه يقبل يدي ماما ويقبل يدي بابا ، طالبا منهما أن
 يباركاه ، ويقبل فيرا وناتاشا وبيتيا ، ويبحث بتحياته الى السيد شلنج ،
 والى السيدة شوس ، ويحيي مريته ، ثم يطلب أن يقبلوا عنه عزيزته
 صونيا التي ما يزال يحبها كما كان يحبها ، وما يزال يفكر فيها دائما •
 فلما سمعت صونيا هذا الكلام احمر وجهها حتى صار بلون الارجوان ،
 وترقرقت الدموع في عينيها ، وعجزت عن تحمل النظرات التي انصبت
 عليها ، فهرعت الى الصالون الكبير ، وأخذت تدور حول نفسها كأنها
 ترقص ، فلما انتفخ ثوبها من هذا الدوران حتى صار أشبه بمنطاد ،
 جلست على الارض ، مشرقة الابتسام محمرة الوجه •

وكانت الكونتيسة تبكي •

قالت فيرا تسألها :

— لماذا تبكين يا ماما ؟ في رأيي أن ما جاء في رسالته يجب أن يفرحنا
 لا أن يبكين •

إنها ملاحظة صحيحة كل الصحة • ومع ذلك نظر الكونت
 والكونتيسة وناتاشا جميعا الى فيرا عاتين لائمين ، وقالت الام تسأل
 نفسها : « ممن ورثت هذه البنت طبعها ؟ » •

وقرئت رسالة نيقولا مئات المرات • وكان على الذين يعدون

أنفسهم جديرين بسماع نصها أن يجيئوا الى الكونتيسة التي أبقته بين يديها لا تتركها • هكذا جاء المعلمون والمرييات وميتكا وأشخاص آخرون من معارف الاسرة ، فكانت الكونتيسة تعيد قراءة الرسالة كل مرة متلذذة تلذذا جديدا ، وفي كل مرة كانت تكتشف في ابنها مزايا جديدة • وكان يبدو لها أمرا عجيبا أشد العجب ، خارقا الى أبعد حد ، باعثا على أكبر الغراء والسلوى ، ان يكون ابنها ذاك الذي أحست بجسمه يتحرك في رحمها قبل عشرين عاما والذي طالما شاجرت أباه الكونت لأنه كان يسرف في تدليه ، أن يكون ابنها ذاك الذي تعلم أن ينطق بكلمة « خو • خة » وكلمة سي • مة » قبل أن ينطق بكلمة « بابا » ، أن يكون ابنها هذا موجودا الآن هناك ، ببلاد أجنبية ، في بيئة غريبة عنه ، رجلا وجنديا يقوم بالمهمة التي تقع على عاتق رجل ، يقوم بها وحده ، دون مساعدة ودون نصيحة • ان كل التجربة الانسانية الشاملة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ ، والتي تعرف كل انسان بأن الاطفال يبدؤون حياتهم في المهد ثم يكبرون يوما بعد يوم الى أن يصبحوا رجالا ، ان هذه التجربة كلها لا وجود لها الآن في ذهن الكونتيسة • لقد نسيت أن ملايين وملايين من الافراد قد انتقلوا من الطفولة الى الرجولة ، فهي ترفض أن تسلم بأن صبيها الصغير قد أصبح الآن رجلا • قبل عشرين عاما ، حين كانت تحمل هذا الكائن الصغير في رحمها ، كانت لا تتصور أنه سيرضع ثديها بعد مدة ، وأنه سيأخذ يتكلم • والآن أيضا لا تتصور أن ذلك الكائن الصغير نفسه قد أصبح حقا ، كما يتضح من رسالته مع ذلك ، رجلا قويا شجاعا ، جديرا بأن

يقتدي به جميع الابناء ، في الجنس البشري كله •

وكانت تقول لنفسها وهي تعيد قراءة الاجزاء التي تشتمل على سرد بعض الاحداث في رسالته :

— ويا له من أسلوب جميل ! ويا له من قلب كبير ! عن مآثره لا يقول كلمة واحدة ، لا يقول كلمة واحدة • انه لا يتكلم الا عن واحد اسمه دينيسوف • واني لعلی ثقة مع ذلك بأنه أشجعهم جميعا • عن الآلام التي قاساها لا يقول كذلك كلمة واحدة • ما أعظم هذا القلب ! هذا هو ابني • انني أعرفه ولشد ما حرص على ارسال تحياته الى الجميع لم ينس منهم أحدا • ما أعظم قلبه ! لطالما قلت هذا ، حتى حين كان طوله هكذا ...

نعم ، لطالما قلت هذا • كنت دائما أقوله ...

وخلال ثمانية أيام شغل المنزل كله بشيء واحد ، هو كتابة مسودات رسائل الى نيقولا ، ثم نسخها بخط جميل •

وبعناية الكونت واشراف الكوتيسة هيء له كل ما يحتاج اليه تجهيز ضابط جديد من متاع ومال • وكانت آنا ميخائيلوفنا ، المرأة العملية ، قد استطاعت أن تضمن لنفسها ولابنها سندا في الجيش حتى من أجل تبادل الرسائل بينها وبينه ، فكان في امكانها أن تبعث رسائلها بفضل الدوق الاكبر قسطنطين بافلوفتش الذي كان قائدا للحرس وكان آل روستوف يفترضون أن هذه الجملة : « الحرس الروسي في

الخارج » هي عنوان كاف كل الكفاية ، وأن الرسالة متى وصلت الى الدوق الاكبر قائد الحرس ، فليس هناك سبب يمنع وصولها الى فوج بافلو جراد الذي لا بد أن يكون معسكرا هناك على مقربة من الحرس . لذلك تقرر ارسال الرسائل والمال الى بوريس بواسطة بريد الدوق الاكبر ، ثم يتولى بوريس تسليمها الى نيقولا •

وتمت الى رسائل الكونت والكونتيسة وييتيا وفيرا وفاتاشا وصونيا ، عشرة آلاف روبل نفقات تجهيز ، وضمت اليها أشياء شتى أرسلها الكونت الى ابنه •

الفصل السابع

في اليوم الثاني عشر من شهر نوفمبر ، كان جيش كوتوزوف المقاتل الذي يعسكر بقرب أولموتس يستعد للاستعراض الذي سيتم في الغد ليشهده الامبراطوران ، امبراطور روسيا وامبراطور النمسا • وكان الحرس الذي وصل من روسيا منذ برهة وجيزة يبيت ليلته على مسافة خمسة عشر فرسخا من أولموتس ، وكان عليه أن يجيء اليها في الساعة العاشرة من صباح الغد فيدخل ساحة المناورات •

ولقد تلقى نيقولا روستوف في ذلك اليوم رسالة موجزة من بويرس يعلمه فيها أن فوج اسماعيلوفسكي يعسكر على مسافة خمسة عشر فرسخا بعد أولموتس ، وأنه ينتظره ليسلم اليه رسالة ومالا وصلا اليه من أهله •

وكان روستوف في حاجة ماسة الى المال في ذلك الوقت الذي رجعت فيه القطعات من الخملة وعسكرت بقرب أولموتس ، وأصبح أصحاب الكاتينيات الزاخرة واليهود النمسيون يحاصرون المعسكر ويعرضون على الجند جميع أنواع المغريات • وكانت الولائم تتلو الولائم عند ضباط بافلوجراد ، احتفالا بالالوسمة التي نالوها أثناء

الحملة ، وكذلك زياراتهم لاولموتس ، ترددوا على امرأة اسمها كارولين الهنغارية التي وصلت أولموتس منذ وهلة قصيرة ، وافتتحت فيها حانة عمالها نساء . وكان روستوف الذي احتفل في الآونة الاخيرة بترقيته الى رتبة ضابط قد اشترى « بدوى » ، حصان دينيسوف ، وغرق في الديون الى العنق مقترضا من رفاقه ومن أصحاب الكاتينات . فلما تلقى رسالة بوريس ، مضى مع رفيق له الى أولموتس ، فتغديا هناك ، وشربا زجاجة من نبيذ ، ثم ذهب هو منفردا الى معسكر الحرس باحثا عن رفيق طفولته . لم يكن قد استطاع أن يجهز نفسه بعد ، فهو يرتدي دراعة مرشح يزينها وسام جندي ، ويلبس سروالا للركوب مرقعا بقطع مهترئة من الجلد ، ويحمل سيفا ذا علاقة من سيوف الضباط ، ويعتمر بقلنسوة مسطحة تماما وضعها على رأسه مرتدة الى الوراء مائلة الى الجنب افتخارا ، وكان الحصان الذي يركبه حصانا من منطقة نهر الدوق اشترى من قوزاقي أثناء الحملة . فلما أقبل على معسكر فوج اسماعيلوفسكي ، خطر بباله ما سيحدثه بمظهر الفارس الجسور المحارب من أثر في نفس بوريس ونفوس رفاق بوريس من جند الحرس .

وكان الحرس قد التحقوا بالجيش كالذاهبين الى نزهة ، معتزين أشد الاعتزاز بحسن نظامهم وأناقة بزاتهم . وكانت المراحل الذي قطعوها قصيرة ، وكانت أكياسهم تحملها مقطورات ، وكانت السلطات النمسوية تقدم للضباط في جميع المحطات وجبات فاخرة . كانت

الافواج تدخل المدن وتخرج منها وفي مقدمتها الموسيقى ، وأثناء جميع المسيرات (وذلك أمر كان الحرس يعتزون به) ، كان الجنود يمشون مشية عسكرية بأمر من الدوق الأكبر ، وكان الضباط مترجلين يمشي كل منهم في مكانه من الصفوف . وكان بوريس قد سار المسافة كلها ، وسكن في كل مرحلة من مراحل الطريق مع بيرج الذي صار قائد سرية ، وكان بفضل دقته في المواعيد وتقيدته بالنظام ، يتمتع بثقة رؤسائه كاملة ، وكان ينعم الى ذلك بمزايا مادية لا يُهمل شأنها . وكان بوريس ، من جهته ، قد أنشأ علاقات مفيدة ، ولا سيما علاقته بالأمير أندره بولكونسكي الذي أوصاه به بطرس بيزوخوف خيرا ، فكان بوريس يعول على حمايته ورعايته من أجل أن يلتحق بهيئة أركان القائد العام .

ها هما بيرج وبوريس ، وقد تأنقا في ملبسهما أشد التألق، وارتاحا من مسيرة المرحلة الاخيرة في ذلك اليوم ، قد جلسا يعلبان بالشطرنج حول طاولة مستديرة في المسكن المريح الذي خصا به . ان بيرج يقبض بين ركبتيه على غليون مشتعل . وان بوريس ، على عادته في الاجتهاد ، ينشيء اهرامات من البيادق مع استمراره في ملاحظة مثلاعبه الذي كان الدور في اللعب دوره ، والذي كان وفقا لمبدئه الذي يوجب عليه أن لا يفعل إلا شيئا واحدا في آن واحد ، مستغرقا في اللعب استغراقا كاملا .

قال له بوريس :

— هيه ! كيف عساك تخرج من هذا المأزق ؟

فأجابه بيرج وهو يمسك بيدقا ثم ما يلبث أن يتركه فوراً :

— سأفعل ما يمكنني أن أفعله • سأبذل كل ما أطيع من جهد •

في تلك اللحظة فُتح الباب •

وهتف روستوف يقول :

— ها هو ذا أخيراً ... هه ! هذا بيرج أيضاً !

وأضاف يقول مرددا جملة مبتذلة كانت خادمتها العجوز تكررهما

في الماضي على مسمعيهما هو وبوريس ، فكانا يضحكان منها ضحكا

شديدا :

— هلموا الى السرير فناموا يا صغار !

قال بوريس :

— رباه ! لشدما تغيرت !

ونفض بوريس يستقبل روستوف ، لكنه لم ينس ، وهو ينفض

أن يثبت قطع الشطرنج حتى لا تسقط ، وأن يتناول السيادق التي

سقطت فيعيدها الى مكانها ، وأراد أن يقبل صديقه ، ولكن نيقولا

تنحى • ذلك أن نيقولا كان يتمنى حين يلقي صديقه ، وشأنه في هذا

شأن سائر الشبان الذين يكرهون الطرق الممهدة المألوفة ، ويريدون أن

يعبروا عن عواطفهم بأسلوب جديد خاص بهم لا يقلدون فيه أحدا

ولا يقتبسونه من أحد ، كان يتمنى أن يقرص صديقه ، وأن يصدمه

وأن يفعل أي شيء ، أما أن يقبله كما يفعل سائر الناس ، فلا . . . ثم لا !
ولكن بوريس احتضنه بهدوء ومودة وصدقه ، وقبله ثلاث قبلات .

انهما لم يلتقيا منذ قرابة ثلاثة أشهر . وفي هذه السن التي يخطو فيها الشبان خطواتهم الاولى على طريق الحياة ، يجد كل واحد منهم لدى صاحبه تغيرات كبيرة مردها في الواقع الى تأثير البيئات المختلفة التي خطوا فيها تلك الخطوات الاولى . لقد تغيرا كلاهما تغيرا كبيرا منذ آخر لقاء لهما ، وأسرع كل منهما يقول لصاحبه انه لا يجده الآن على عهده به في الماضي .

قال روستوف بصوته الجديد الذي لم يعرفه فيه بوريس ، وهو الآن صوت باريتون ، قال بالطلاقة والاستهتار اللذين يلاحظان في الجند وهو يشير الى سرواله الملطخ بالوحل :

— يا للشباب المتغندر ! ما أشد نظافتكم ، وما أعظم نصارتكم !
لأنكم عائدون من نزهة ! لستم مثلنا نحن معشر الجند المساكين
الاشقياء !

فلما سمعت المرأة الالمانية التي يقيم عندها الضابطان صيحات روستوف أطلت برأسها من الباب المشقوق ، فقال روستوف وهو يغمز بعينه :

— جميلة ! هه !

قال بوريس :

— لا تصرخ هذا الصراخ ، والا روعتهم !

ثم أضاف يقول :

— ما كنت أتوقع مجيئك اليوم • انني لم أرسل اليك رسالتي القصيرة الا أمس ، أرسلتها مع مرافق أعرفه من مرافقي كوتوزوف هو بولكونسكي • ما كنت أظن أنه سيوصلها اليك بهذه السرعة ••• هيه ؟ كيف حالك ؟ اذن قاتلت ؟

فلم يجب روستوف بكلمة ، بل حرك وسامه ، صليب القديس جورج ، على زخارف دراغته ، وكشف عن ذراعه المعصوبة ، ونظر الى بيرج مبتسما ، ثم قال :

— كما ترى !

فقال بوريس وهو يتتسم :

— نعم نعم ، فعلا ! نحن أيضا خضنا غمار حملة جميلة • تعلم أن صاحب السمو قد ظل يرافق فوجنا ، فكنا ننعيم طول الوقت بكل الرخاء وبجميع المزايا الممكنة • ما أكثر الاستقبالات التي أقيمت لنا في بولنده ، وما أحفل ولائم العشاء ، وما أجمل حفلات الرقص • يستحيل علي أن أصف لك كل شيء • ولقد كان صاحب السمو القيصر فتش^(١) لطيفا أعظم اللطف في معاملتنا نحن الضباط كافة •

(١) ان اسم قيصر فتش هو اللقب الرسمي لأكبر أبناء القيصر في روسيا ، أي لابنه الذي سوف يخلفه على العرش وينطق الاسم بالروسية تسيزارفتش ، وتختصره العامة فتقول تسارفتش •

وأخذ الصديقان يحدث كل منهما الآخر بما حدث له ، فواحد يروي مغامراته فارسا وحياته مقاتلا ، والثاني يصف المباهج والمزايا التي تهيئها الخدمة في إمرة شخصيات عالية المقام .
قال روستوف :

— آ ... الحرس . ولكن هلا أرسلت أحدا يأتينا بخمرة ! فجمع بوريس وجهه ، ثم قال :

— اذا كنت تحرص على ذلك حرصا مطلقا ، فليكن ...

ثم مضى الى سريره ، فاستل كيسه من تحت الوسائد النظيفة ، وبعث من يشتري له خمرة . ثم أضاف :

— صحيح ... سأسلمك أيضا مالك ورسائلك .

أخذ روستوف الرسائل ، وألقى بالمال على الديوان ، وأسند كوعه الى الطاولة ، وأخذ يقرأ . وما ان قرأ بضعة أسطر حتى رشق بيرج بنظرة حانقة ، فلما التقى بصره ببصره خبأ وجهه بالرسالة التي كان يقرأها .

قال بيرج وهو ينظر الى الكيس الذي غطس من فرط ثقله في الديوان :

— أرسلوا اليك مبلغا كبيرا من المال على كل حال . أما نحن ، يا كونت ، فنكتفي بالمرتب الذي تتقاضاه . وأحب أن أضيف ، فيما يتعلق بي أنا ...

فقاطعه روستوف قائلا له :

— اسمع يا بيرج ، يا عزيزي ! ... لو أنك تلقيت رسالة من أهلك ،
والتيكيت بصديق حميم لك تريد أن تلقي عليه أسئلة كثيرة ، لترككما أنا
فورا حتى لا أضايكما ولا أخرجكما • فهلم انصرف الآن ، انصرف
الى أي مكان ...

ولم يلبث أن صرخ قائلا :

— هيا انصرف الى الشيطان ! ...

ولكنه سرعان ما أمسك كتفه ، ونظر في عينيه بلطف ومودة ،
تخفيفا لقسوة كلامه ، وأضاف يقول له :

— لا تزعل يا عزيزي بيرج ، يا صديقي الطيب • أنت تعلم أنني
أكلمك بصراحة تامة كالصراحة التي نكلم بها رجلا نعرفه منذ مدة
طويلة •

فنهض بيرج وقال بصوت يخرج من حلقه :

— آ ... نعم ... طبعا ياكونت ... أنا أعلم وأنهم ... وعقب
بوريس يقول له :

— اذهب الى أصحاب الدار ... لقد دعوك الى زيارتهم •

فارتدى بيرج ردنجوتا نظيفا لا تلتطخه بقعة ، ولا توسخه ذرة غبار ،
ووقف أمام المرأة فرفع شعره على الصدين ، على طريقة الامبراطور
الاسكندر ، حتى اذا اقتنع من النظرة التي ألقاها عليه روستوف أنه

بلغ بهندامه غاية الحسن والاناقة ، خرج من الغرفة وهو يتسهم
ابتسامة بهيجة :

هتف روستوف قائلاً وهو يقرأ الرسالة :

— آه ... ما كان أغباني !

فسأله بوريس :

— ماذا هنالك ؟

— ما كان أغباني من حيوان ! لم أكتب اليهم مرة واحدة ، ثم
روعتهم ذلك الترويع ! آه ... حيوان أنا !

كذلك ردد وقد احمر وجهه على حين فجأة • وأردف يقول :

— هيا أرسل جافريلو ليجيئنا بخمرة • يجب أن نشرب كأساً ! ...

وكانت رسائل الاسرة قد ضُمت اليها رسالة توصية الى الامير
باجراتيون حصلت عليها الكونتيسة العجوز عملاً بنصيحة من آنا
ميخائيلوفنا ، فهي ترسلها الى ابنها ضارعة اليه أن يجني منها كل ما
يستطيع أن يجنيه من نفع •

قال روستوف وهو يرمي الرسالة تحت الطاولة :

— سخافة ! ما حاجتي الى مثل هذا !

فسأله بوريس :

— لماذا ترمي هذا ؟

— هي رسالة توصية ! سخف ! لست أعبا بمثل هذه الامور •

فقال بوريس وقد تناول الرسالة وقرأ عنوانها :

— لا تعبا بمثل هذه الامور ؟ هذه رسالة يمكن أن تنفع كثيرا •

— بل هي لا تنفع في شيء البتة • لن أكون مرافقا لاحد في حياتي •

— لماذا ؟

— هذه مهنة خادم •

قال بوريس وهو يهز رأسه :

— أرى أنك ما زلت ذلك الحالم الذي أعرفه •

— وأنت ما زلت ذلك « الديلوماسي » نفسه • ولكن دعنا من

هذا الآن ، وقل لي : ما أحوالك ؟

— كما ترى • حتى الآن ما يزال كل شيء حسنا • ولكنني أعترف

لك بأنني أؤثر أن أحصل على منصب ضابط مرافق وأن لا أبقى في

صف الجند •

— لماذا ؟

— لان على المرء ، متى اختار العسكرية طريقا له ، أن يحاول

التألق فيها ما استطاع الى ذلك سبيلا •

قال روستوف وكان واضحا أن ذهنه منصرف الى شيء آخر :

— نعم ، فعلا •

كان روستوف ينظر في عيني صديقه محققا مستفهما ، كأنه يلتبس
جوابا عن سؤال فلا يفلح •

وجاء جافريلو العجوز بالخمرة •

قال بوريس :

— ما رأيك في أن ندعو آلفونس كارلتش بيرج أن يعود ؟ اذا
عاد شربتما معا ، أما أنا فلست بقادر على أن أشرب •

قال روستوف وهو يتتسم ابتسامة فيها احتقار :

— طيب ، طيب ! قل لي : كيف تجد هذا الالماني الصغير ؟

— شاب شهيم جدا ، جدا ، وهو فتى شريف حلو المعاشرة •

فنظر روستوف في عينيه مرة أخرى نظرة ثابتة ، وتهدد • وعاد
بيرج ، وكان للخمرة أثرها ، فحميت المناقشة بين الضباط الثلاثة •
حكى ضابطا الحرس لروستوف عن رحلتهم ، وذكر له كيف احتفل بهم
في روسيا ، وفي بولنده^(١) ، وفي الخارج ، وحدثاه عن رئيسهم الدوق
الأكبر^(٢) ، ما وقع له وما بدر منه ، ورويا له نكات عما يتصف به من

- (١) كانت بولنده مقسمة منذ عام ١٧٩٥ بين بروسيا والنمسا . وفي
عام ١٨٠٥ كان جزء كبير من طبقة النبلاء فيها يأمل ، بوحي من
الامير آدم كزارتورينسكي ، أن يحررها الاسكندر الاول من الالمان ،
وأن يعيد بناء مملكتها . لذلك احتفل به فيها حين مر مع جيشه
بهذه الارض « الالمانية » في شهر سبتمبر ١٨٠٥ ، ولكن آمال
بولنده هدمها « عهد بوتسدام » ، فاتجهت بولنده الى نابوليون .
(٢) الدوق الأكبر قسطنطين بافلوفتش (١٧٧٩ - ١٨٣١) ، أخو
الاسكندر الاول . كان يحمل لقب « تسياسايرفتش » أو
« تسارفتش » (قيصرفتش) بصفته وريث العرش . وكان قائدا
للحرس الامبراطوري .

طيبة القلب وحدة الطبع • وكان يبرج يلزم الصمت على عادته حين لا يدور الحديث عن شخصه ، ولكنه بصدد النكات التي رويت عن اندفاعات الدوق الاكبر ، طاب له أن يحكي متلذذا تلذذا واضحا أنه قد أتيج له في جاليسيا أن يتحدث مع الدوق الاكبر حين كان يفتش الافواج فيغضب غضبا شديدا من أن الحركات غير منتظمة ، وقال يبرج وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة لطيفة ان الدوق الاكبر بلغ مبلغا كبيرا من الحق في لحظة من اللحظات ، فاندفع بحصانه نحوه صارخا بصوت حاد : « كومة من أرناوط ! »^(١) (هذه هي الشتيمة التي يفضلها القيصر فتش اذا هو غضب) ، وطلب حضور قائد السرية حالا •

وعلق برج على ذلك قائلا :

— أقسم لك يا كونت أنتي لم أخف ، لانتني كنت أعلم انتي لم أرتكب خطأ ، ولا اجترح ذنبا • لا أحب أن أفاخر وأتباهى يا كونت ، لكنني أستطيع أن أؤكد لك أنتي أحفظ أمر اليوم على ظهر القلب ، وأنتي أعرف النظام كما يعرفه « الاب » • لذلك لم يحدث أي اهمال في سرتي يوما • وأنا لهذا السبب مرتاح الضمير دائما • تقدمت من القيصر فتش وعرفته بنفسي (هنا قام يبرج ، ومثل كيف تقدم من صاحب السمو رافعا يده بالتحية الى حافة

(١) هو الاسم الذي كان الاتراك يطلقونه على الالبانيين الذين كانوا يشكلون في جيشهم قطعات غير نظامية يلقب جندها «باشبوزوق».

كسكيتته ، والحق أنه يصعب على المرء أن يتصور وضعاً فيه مزيد من الاحترام والاحلال ، وفيه مزيد من الرضى عن النفس أيضاً) • فإذا هو يأخذ يشتمني أقذع الشتم كما يقال ، إذا هو يغسلني بالسب غسلاً كما يقال • صب علي جميع أنواع الشتائم : « شياطين » ، « أرناوط » ، « باشبوزوق » ، « تستحقون النفي الى سيبيريا » •

واعترف بيرج وهو يتسم ابتسامة ناعمة بأن صاحب السمو لم يدع شيئاً من هاجر الكلام الا قاله • وأردف بيرج يقول :

– ولثقتي بأتي لم أرتكب ذنباً سكت لا أنطق بكلمة • ألم أحسن صنعا يا كونت ؟

فإذا هو يصيح قائلاً : « أتراك أخرس ؟ أتراك أبكم ؟ » • فلزمت الصمت ولم أفتح فمي بحرف • فماذا كان يا كونت ؟ صدقني أو لا تصدقني : ولكن جاء التقرير في الغد لا يشتمل على شيء : هذه رباطة الجأش فلا يطيش لب المرء ولا يذهب صوابه • هكذا ، يا كونت ... بهذا ختم بيرج كلامه وهو ينشق نفساً من غليونه ثم ينفث دخانه في الهواء دوائر دوائر •

قال روستوف ميتسما :

– نعم ، هذا ممتاز !

ولكن بوريس ، وقد لاحظ أن روستوف سوف يأخذ بالتهكم على بيرج ، غير مجرى الحديث ببراعة وحذق • فسأله أن يروي لهما

أين ومتى جرح • ولم يكن من شأن هذا أن لا يطيب لروستوف ، وأن لا يروق له ، فحدثهما عن موقعة شونجراين كما يفعل في العادة أولئك الذين شاركوا في معركة ، فهم يقصون ما كانوا يتمنون أن يجري ، ويروون ما سمعوه من آخرين ، ويذكرون ما من شأنه أن يجعل ما يحكونه ، أما الامور كما حدثت في الواقع فلا يستطيعون أن يصفوها أبدا • ان روستوف شاب صادق ، وما كان له أن يكذب عامدا بحال من الاحوال • ولقد بدأ كلامه منتويا أن يروي كل ما حدث رواية تتصف بالصدق ومطابقة الواقع ، ولكنه لم يلبث ، رغم ارادته ، وبغير شعور منه ، ان انقاد لخياله انقيادا لا مناص منه • لو انه روى الحقيقة لسامعيه الذين سمعوا مثله وصف معركة من المعارك ألف مرة ، والذين تكونت في أذهانهم فكرة واضحة كل الوضوح عن الهجوم كيف يكون ، والذين يتوقعون منه أن يحكي لهم ما سبق أن سمعوه مرارا ، لما صدقوا كلامه أو لظنوا (وهذا أسوأ) أنه اذا لم يكن قد حدث له ما يحدث عادة لأولئك الذين يصفون هجوما قام به فرسان ، فالذنب في ذلك ذنبه • كان روستوف لا يستطيع أن يقتصر على أن يقول لهم ببساطة انهم جميعا قد جروا بأفراسهم خيبا ، وانه سقط عن حصانه ، وان ذراعه انخلت ، وانه ولى هاربا الى الغابة بأقصى سرعة ليفلت من قبضة الفرنسيين • ثم ان المرء اذا أراد أن يروي كل شيء كما حدث يحتاج الى جهد يبذله ضد نفسه ، فما يقص الا ما حدث • ان رواية الحقيقة أمر صعب شاق • والشبان قلما يقدرّون

عليه • كان بوريس ويرج ينتظران منه أن يقول لهما انه كان يغلي حماسه ، وانه فقد رشده ، فانقض على مربع من الفرنسيين انقضاض اعصار ، وشق لنفسه طريقا بينهم بالطعن ذات اليمين وذات الشمال ، وان سيفه أصبح يعرف لحم البشر ، وانه سقط أخيرا من فرط الاعياء ، وهلم جرا ، فقال لهما هذه الاشياء كلها •

وفيما كان يروي ما يروي ، وبينما كان يقول : « لا تستطيع أن تتصور ذلك الاحساس الغريب بالحنق المسعور الذي يحسه المرء أثناء هجوم » ، اذ دخل الامير آندره بولكونسكي الذي كان بوريس ينتظر وصوله اليه • كان الامير آندره يحب أن يرعى الشبان وأن يكون لهم حاميا ، وقد أرضى اعجابه بنفسه أن يسأله أحد معوته ومساندته ، وأحب بوريس الذي استطاع أن ينال اعجابه بالامس ، فكان يريد أن يفي بالوعد الذي قطعه للفتى على نفسه • فلما كلفه كوتوزوف بأن يحمل أوراقا الى القيصر فتش ، جاء الى بوريس آملا أن يراه وحده • فلما رأى حين دخوله ضابطا من سلاح الفرسان يحدث عن مغامراته في الحرب (وهذا صنف من الناس كان الامير آندره لا يطيعه) ، ابتسم لبوريس ابتسامة لطيفة فيها مودة ، ثم صغر وجهه ونظر الى روستوف مغضنا عينيه ، وبعد أن حيا تحية خفيفة جلس على الديوان وقد بدا في وجهه التعب والملل والضرر • لقد ضايقه أن يجد نفسه مع أناس لا تسره صحبتهم • وقد أدرك روستوف ما يدور في نفسه فاحمر وجهه • ولكن ما قيمة هذا عنده ؟ ان الامير آندره هو بالنسبة اليه رجل غريب عنه

لا علاقة له به • غير أنه ألقى نظرة على بوريس فلاحظ أنه هو أيضا يبدو كالخجلان من وجود هذا الفارس وحديثه • فشعر روستوف ، رغم الوضع الذي اتخذته الامير آندره ، وهو وضع مزعج فيه استهزاء وتهكم ، ورغم أن روستوف كان يحتقر ، من وجهة نظره كمحارب في الجيش ، جميع المرافقين الذين يعملون في هيئة الاركان التي كان واضحا أن هذا القادم واحد منهم ، أقول شعر روستوف رغم ذلك كله بحرج شديد، واحمر وجهه ، وصمت •

واتجه بوريس بالكلام الى الامير آندره فسأله عن أبناء الاركان العامة ، وطلب منه أن يحدثه بما يقال عن مشاريعنا اذا لم يكن في هذا ما يعد افشاء لاسرار •

فأجابه الامير آندره بولكونسكي قائلا بايجاز ، وكان واضحا أنه لا يريد الافاضة أكثر من ذلك بحضور أشخاص آخرين :

— أغلب الظن أننا سوف نتقدم الى أمام •

فانتهم بيرج الفرصة فسأل بتأدب شديد هل صحيح ما يقال من أنه سيوزع على قادة السرايا قدر مضاعف من العلف ؟ فأجاب الامير آندره وهو يبتسم بأنه لا يستطيع أن يقول شيئا عن شؤون من شؤون الدولة تبلغ هذا المبلغ من الخطورة •

فضحك بيرج فرحا •

وقال الامير آندره وهو يلتفت الى بوريس ثانية ، ويلقي على روستوف نظرة أخرى :

— أما موضوعك فسوف نبثه فيما بعد. تعال الي بعد الاستعراض، وسوف نفعل كل ما يمكننا أن نفعله .

وأجال بصره في الغرفة ، ثم التفت الى روستوف فقال يسأله وهو لا يتنازل فيلاحظ ما كان عليه روستوف من اضطراب كاضطراب الاطفال انقلب الى غضب :

— أظن أنك كنت تقص موقعة شونجراين . هل كنت فيها ؟

فقال روستوف حانقا كأنه يريد أن يهين المرافق :

— نعم ، كنت فيها .

فلاحظ بولكونسكي ما اعتري الفارس من غضب ، فوجد ذلك داعيا الى الضحك ، فابتسم ابتسامة احتقار خفيفة . وقال :

— نعم ، تحكى عن تلك الموقعة أشياء كثيرة .

فقال روستوف بصوت قوي وهو يلقي تارة على بوريس وتارة على بولكونسكي نظرات أصبحت حانقة مسعورة على حين فجأة :

— فعلا ! تحكى أشياء كثيرة . ولكن حكاياتنا نحن هي حكايات أولئك الذين كانت تنصب عليهم نيران العدو ، فهي حكايات لها قيمتها ،

لا كحكايات أولئك الشجعان من شبان هيئة الاركان الذي يجنون
الايوسمة بغير حق دون أن يفعلوا شيئاً •

— والذين تفرض أنني واحد منهم ؟

كذلك أجابه الامير آندره وهو يتسم هادئاً لطيفاً كل اللطف •

فما ان رأى روستوف هذا الهدوء في هذا الرجل حتى أصبح غيظه
منه يمازجه احترام له • قال :

— لست أتكلم عنك ، فأنا لا أعرفك ، ولا أكتسك أنني لا أرغب
في أن أعرفك • وانما أنا أتكلم عن هيئة الاركان عامة •

فقاطعه الامير آندره قائلاً بصوت فيه ثبات وهدوء :

— أما أنا فإليك ما سأقوله لك : انك تنوي أن تهينني • واني لاسلم
لك بأن هذا ليس صعباً عليك اذا أنت فقدت احترامك لنفسك • ولكن
اعترف بأنك لم تحسن اختيار الزمان والمكان • فبعد بضعة أيام سنخرب
جميعاً في مبارزة كبرى مع العدو ، مبارزة لها من خطورة الشأن ما ليس
لمبارزة بين شخصين • ثم ان دروبتسكوي الذي يقول انك صديق قديم
له لا ذنب له اذا شاء سوء الحظ أن لا تعجبك هيئتي •

وأضاف يقول وهو ينهض :

— أنت تعرف اسمي على كل حال ، وتعرف أين يمكن أن تجدني •
ولكن لا تنس أنني لا أعتبر أن اهانة قد لحقت بي ، ولا أن اهانة قد

نالتك ، فأنصحك بصفتي أكبر منك سنا بأن تغفل هذا الامر فلا تكون له عواقب •

ثم اتجه الى دروبتسكوي فقال له :

— اتفقنا اذن • انتظرك يوم الجمعة ، بعد الاستعراض •

وختم الامير آندره كلامه بقوله :

— الى اللقاء •

وخرج بعد أن حيا الشابين كليهما •

لم يهتد روستوف الى ما كان ينبغي أن يرد به على كلام الامير آندره ، الا أن بعد أن كان الامير آندره قد خرج • ففاقم ذلك غضبه ، وزاد شدة خنقه • وسرعان ما أمر باحضار حصانه ، ومضى يعود الى معسكره بعد أن ودع بوريس وداعا جافا • أوجب عليه أن يذهب غدا الى القيادة العامة فيدعو الى المباراة هذا المرافق المتغطرس ، أم يجب عليه حقا أن يدع هذا الامر بغير عواقب ؟ ذلكم هو السؤال الذي ظل يعذبه طوال الطريق • فتارة كان يستبد به الغضب فيحلم باللذة التي ستهيئها له رؤية الخوف عند هذا الشاب الضئيل الصلف المزهو بنفسه حين يسدد اليه مسدسه ، وتارة يحس مدهوشا بأنه ليس بين جميع الذين يعرفهم رجل واحد يتمنى أن يتخذة صديقا كهذا المرافق الشرس اللعين •

الفصل الثامن

في غداة اللقاء بين بوريس وروستوف جرى استعراض للجيش ،
النسوية والروسية ، سواء منها القطعات التي وصلت حديثا من روسيا ،
والقطعات التي عادت من القتال مع كوتوزوف ، فاستعرض الامبراطوران ،
امبراطور روسيا يصحبه القيصر فيتش ، وامبراطور النمسا يصحبه
الارشيذوق ، جيشا حليفا عدده ثمانون ألف رجل .

منذ الصباح ، أخذت القطعات وقد عنيت بنظافة ثيابها وحسن
هندامها أكبر العناية ، تسير لتصطف على أرض الاستعراض أمام القلعة ،
فتارة ترى ألوفا من الاقدام والحرا ب تتقدم ناشرة راياتها ، أو يأمرها
الضباط فتقف ثم تنحرف ثم تندس في الفواصل بين كتل أخرى من
جند المشاة ترتدي بزات مختلفة ، وتارة تسمع وقع حوافر الخيل موزونة
الخطى ، وتسمع قرعة السيوف فتعرف أنهم الفرسان الانيقون قد أقبلوا
بأرديتهم الزرقاء والحمراء والخضراء يتقدمهم الموسيقيون المزركشون
ويركبون خيولا كحلاء وشقراء وصهباء ، وتارة ترى المدفعية تندس بين
المشاة والفرسان ، وتحتل أماكنها المحددة لها وقد أخذت المدافع الملمعة
البراقة ترن رنين النحاس ، وتتهزر على حواملها ، وتنتشر منها رائحة
فتيل الاشعال . لم يكن الجنرالات وحدهم ، بشباب الاستعراض

وأوسمتهم كافة وقاماتهم المشدودة بالاحزمة شدا قويا ، سمينه كانت أو نحيلة ، وبأعناقهم التي احتقنت واحمرت من ضيق ياقاتهما العالية تلفها الاوشحة ، ولم يكن الضباط وحدهم ، بهندامهم اللينق وأرجهم الفواح ، بل كان جندي ، بوجهه النضير المغسول المحلوق ، وعدته البراقة ، وكان كل حصان بشعره الذي أحسنت فرجنته حتى صار يلعب لمعان قماش الساتان ، وبعرفه الملمس حتى لكأنه صفف شعرة شعرة ، كان هؤلاء جميعا يشعر المرء اذا رآهم أن أمرا خطيرا عظيم الشأن ذا مهابة وأبهة هو بسبيل أن يتحقق • وكان كل فرد ، من أكبر جنرال الى أصغر جندي ، يحس بأنه لا قيمة له وحده ، ويشعر بأنه ليس الا ذرة رمل في هذا البحر من البشر ، ولكنه يعلم في الوقت نفسه أنه قوي جبار بكونه جزءا من هذا الجمع الكبير •

كان الضجيج المحموم قد بدأ منذ الفجر ، فما أزفت الساعة العاشرة حتى كان الاستعداد كله قد اكتمل : انتظمت الصفوف في الساحة الواسعة ، وامتد الجيش كله على ثلاثة خطوط ، فالفرسان في أمام ، والمدفعية في الوسط ، وفي الخلف المشاة •

وكان بين كل صفين من صفوف القطعات ما يشبه ممرا بين أشجار • وكان كل عنصر من العناصر الثلاثة التي يتألف منها هذا الجيش منفصلا عن العنصرين الآخرين : جيش كوتوزوف المقاتل (الذين كان فوج بافلو جراد يشغل جنبه الايمن في المستوى الاول) ، وأفواج الجيش

والحرس الآتية من روسيا ، والجيش النمساوي • ولكن الجند كلهم مصطفىون على خط واحد في شكل واحد تحت قيادة واحدة •

وهذه مهمة فيها انفعال تسري في الصفوف كما تسري الريح بين أوراق الاشجار : « وصلا ! وصلا ! » • فاذا بأصوات مهتاجة تتعالى ، واذا بالصفوف تضطرب من أولها الى آخرها كموجة من أمواج البحر •

كان جمع يقبل على أولموتس ، فيظهر عند أبوابها • وفي الوقت نفسه هبت نسمة خفيفة على الجيش كله ، رغم هدوء الجو ، فاهتزت شعل الحراب ، وتموجت الرايات المنشورة على طول سواريتها • فكأن الجيش نفسه يعبر بهذا الاهتزاز والتموج عن فرحته باقبال العاهلين • وسمع صوت يصرخ قائلا : « أسبل » ، فاذا بأصوات ترجعه في جميع الجهات ، كما تفعل الديكة في الفجر • ثم يسكت كل شيء ، فلا يسمع المرء في وسط هذا الصمت الذي يشبه صوت الموت الا وقع حوافر الخيل • انها حاشية الامبراطورين • ويقترب العاهلان من جنب القطعات ، فتدوي أبواق الفوج الاول من أفواج الفرسان تدق النفير العام • لكأن الابواق ليست هي التي تدق ، وانما الجيش كله هو الذي يصدر هذه الاصوات من تلقاء نفسه سعيدا بمقدم الامبراطور • وفي وسط هذه الضججات يسمع المرء صوتا واضحا متميزا شابا محببا هو صوت الامبراطور الاسكندر • انه يحيي الجند • فاذا بالفوج الاول يزأر قائلا : « هورررا ! » ، فيبلغ زفيره من فرط الشده وقوة الفرح وطول المدة أن

الرجال أنفسهم روعهم ما لهذه الكتلة التي يؤلفونها من وفرة العدد وقوة الجبروت •

وكان روستوف في الصفوف الاولى من جيش كوتوزوف الذي اتجه اليه الامبراطور أول ما اتجه ، فكان يشعر بتلك العاطفة نفسها التي شعر بها كل رجل من رجال هذا الجيش ، وهي عاطفة نكران الذات والاحساس بالقوة والقلق المشبوب بالرجل الذي هو سبب هذه العظمة وعلة هذه الابهة •

شعر روستوف بأن كلمة واحدة ينطق بها هذا الرجل يمكن أن تجعل هذه الكتلة الحية كلها (وأن تجعله هو أيضا ، وما هو بارتباطه بها الا ذرة رمل صغيرة) تلقي نفسها في النار أو الماء ، وأن تمضي الى الموت أو الجريمة أو أكبر بطولة ، ومن أجل هذا انما كان لا يمكنه الا أن يرتعش وأن ينهار عند اقبال الرجل الذي يستطيع أن ينطق بتلك الكلمة •

ورعدت الاصوات في جميع الجهات هاتفة :

— هورررا ! هورررا ! هورررا !

وأخذت الافواج تستقبل الامبراطور ، فوجا بعد فوج ، بأصوات النفير العام أولا ، ثم بهتافات « هورررا ! ... تعقبها أصوات النفير العام مرة أخرى ، ثم هتافات « هورررا » ثم أصوات النفير العام ، وهكذا دواليك ، واتحدت الاصوات والهتافات في هدير واحد تصم الآذان قوته •

وكان كل فوج ، قبل اقتراب الامبراطور ، يبدو بصمته وجموده كأنه جسم بلا حياة ، فما ان يصل الامبراطور اليه حتى ينطق وينفجر ، ضامًا هتافاته الى زئير كل الصف الذي اجتازه الامبراطور . وبين جلبة هذه الاصوات التي تصم الآذان ، في وسط تلك الكتلة من القطعات الساكنة التي تكاد تكون في مربعاتها مجمدة مسمرة ، كان مئات الفرسان من أفراد الحاشية يتقدمون بغير اكتراث ، ولكن بانتظام وتناظر ، ويسير وسهولة خاصة ، ويسير في مقدمتهم رجلاان هما الامبراطوران ، وعلى هذين الرجلين ينصب الانتباه بلا تحفظ ، زاخرا بهوى مشبوب مكظوم يضطرم في نفوس هذه الكتلة كلها من الرجال .

كان الامبراطور الشاب الجميل ، الاسكندر ، يرتدي زي الحرس الفرسان ، ويعتمر بقلنسوة مثلثة الاطراف تميل قليلا على أذنه ، وكان يأسر الانتباه كله بوجهه الحلو وصوته الرنان على تحفظ وروية .

وقد استطاع روستوف من موقعه بقرب الابواق أن يتعرف الامبراطور بعينه الحادثين ، فكان يتابع سيره وتقدمه . حتى اذا أصبح الامبراطور لا يبعد عن روستوف الا قرابة عشرين خطوة ، فرأى روستوف ، رؤية واضحة ، أدق تفاصيل هذا الوجه الفتى الوسيم السعيد ، شعر بعاطفة حب وحماسة لم يشعر بمثلها يوما في حياته . كان كل شيء في الامبراطور يفتن له ، كانت كل قسمة من قسماته وكل اشارة من اشاراته تخطف بصره وتأسر قلبه .

وحين وقف الامبراطور أمام فوج بافلو جراد ، قال بالفرنسية بضع

كلمات لامبراطور النمسا ، وابتسم •

فلما رأى روستوف هذه الابتسامة وجد نفسه يتسم هو أيضا بدون ارادة منه ، وشعر بعاطفة الحب التي يحملها قلبه لعاهله يزداد دفعها قوة وعرامة • وتمنى لو يبرهن له على حبه بوسيلة من الوسائل ، وكان يعلم أن ذلك مستحيل ، فاشتهى أن ييكي • واستدعى الامبراطور قائد الفوج وقال له بضع كلمات •

حدث روستوف نفسه قائلا : « رباه ! ما عسى يقع لي لو كلمني أنا • لا أظن الا أنني أموت عندئذ من فرط السعادة ! » •

وخاطب الامبراطور الضباط أيضا فقال لهم :

— أشكركم جميعا أيها السادة من أعماق القلب •

فكان روستوف يسمع كل كلمة من هذه الكلمات كأنها موسيقى سماوية •

ما أعظم ما تكون سعادة روستوف لو استطاع أن يموت في سبيل قيصره في هذه اللحظة !

— استحققتهم رايات سان جورج^(١) ، ولسوف تبرهنون على أنكم بها جديرون •

(١) كانت تمنح لافواج الجيش التي قامت بأعمال فيها جسارة وبسالة ، رايات عليها الصليب الابيض والاشرطة السوداء والذهبية التي يتألف منها وسام سان جورج •

قال روستوف لنفسه : « أموت في سبيله ! ليتني أستطيع على الأقل أن أموت في سبيله ! » •

ونطق الامبراطور بكلمات أخرى لم يسمعها روستوف ، وانطلق الجنود يصيحون : « هورررا » ، حتى تكاد تنشق صدورهم من شدة الصياح •

وكان روستوف مائلا على سرجه يصيح هو أيضا بكل ما أوتي من قوة ، وتمنى أن يناله من هذا الصياح أذى في حلقه وصدرة ليعبر بذلك عما يشيره الامبراطور في نفسه من حماسة دافقة •

ووقف الامبراطور أمام الفرسان بضع ثوان وكأنه متردد • فقال روستوف يسأل نفسه : « كيف يمكن أن يكون الامبراطور مترددا ؟ » ثم بدا له هذا التردد نفسه مشتملا على فخامة وجلال ، وبدا له شيئا ساعرا فاتنا ، ككل ما يصدر عن الامبراطور •

ولم يدم هذا التردد الا لحظة • فها هو ذا الامبراطور يلمس بجزمته المدببة الرأس التي كانت تنتعل في ذلك الاوان، ها هو ذا يلمس بها جنب الحصان الكميت الذي كان يركبه ، وها هي ذي يده المغمودة في قفاز أبيض تجمع أعنة الحصان ، ثم هو يستأنف سيره ووراءه سيل من المرافقين يتحركون فوضى • وأخذ الامبراطور ينأى لحظة بعد لحظة ، فيقف أمام أفواج أخرى ، ثم أصبح روستوف لا يرى الا الريش الابيض من قبعته ، يعلو هامات الحرس الذين يحيطون بالامبراطورين •

لاحظ روستوف ، بين أفراد الحاشية ، الامير آندره بولكونسكي الذي كان يجلس على سرجه جلسة فيها تراخ واهمال • فتذكر المشاجرة التي قامت بينهما أمس ، وتساءل أيليق أم لا يليق أن يدعوه الى المبارزة، وسرعان ما رأى نفسه يجيب الآن عن هذا السؤال اجابة حاسمة قاطعة : « طبعا لا يليق ... هل يجوز التفكير في هذا الامر في ساعة كهذه الساعة ؟ هل يستحق هذا الامر من الانسان أن يتكلم عنه في وقت كهذا الوقت ؟ ما قيمة جميع مشاجرتنا واهاناتنا في لحظة حب وحماسة ونسيان للذات ، كهذه اللحظة ؟ انني الآن أحب الناس جميعا ، وأغفر لهم كلهم قاطبة ! » •

وحين فرغ الامبراطور من الطواف على جميع الافواج تقريبا ، مرت القطعات أمامه تخطو خطو الاستعراض ، ومروستوف راكبا حصانه « بدوي » الذي اشتراه في الآونة الاخيرة من دينيسوف ، مر في ذيل سريته ، أي مر وحيدا يستطيع الامبراطور أن يلاحظه وأن يتلبث عليه ببصره • حتى اذا صار على مرأى من الامبراطور همز حصانه « بدوي » همزتين ، (وكان روستوف فارسا ممتازا) ، فاستطاع أن يحمل الحصان على أن يمشي تلك المشية الحانقة التي يمشيها حين تتقد حماسته ، فكان فمه المزبد مائلا على لبانه ، وكان ذيله منتصبا ، وكان يرفع قوائمه عالية رشيقة اثنتين بعد اثنتين ، وكان يحس بنظرة الامبراطور منصبة عليه هو أيضا ، فمر في الاستعراض مورا فيه كثير من الروعة والجلال •

وكان روستوف نفسه قد رد ساقيه وخسف بطنه شاعرا بأنه متحد بحصانه اتحادا ، وكان مقطب الحاجبين ولكنه مبتهج الهيئة ، فمر أمام الامبراطور مرور « شيطان مارد » على حد تعبير دينيسوف .

قال الامبراطور :

— مرحى فرسان بافلوجراد !

فحدث روستوف نفسه بقوله : « رباه ! لكم كان يسعدني أن يصدر الي الآن أمره بالقاء نفسي في النار ! » . حتى اذا انتهى الاستعراض أخذ ضباطنا ، ضباط كوتوزوف وضباط الجيش الوافد على السواء ، يلتقون جماعات جماعات ، وأخذت تدور بينهم الاحاديث ، فهم يتكلمون عن الاوسمة التي يتوقعون أن تمنح ، وهم يتكلمون عن النمسين وبزاتهم العسكرية ، وهم يتكلمون عن بونايرت الذين يعتقدون أن أموره ستجري الآن مجرى سيئا ، ولا سيما بعد أن يصل جيش ايسن ، وتنضم بروسيا الى صفوفنا .

ولكن الحديث في جميع الحلقات انما كان يدور خاصة على الامبراطور الاسكندر ، فهم يعلقون على كل كلمة من كلماته ، وكل اشارة من اشاراته ، فما تنفك حماستهم في تأجيج .

كانوا كلهم لا يرغبون الا في شيء واحد : هو أن يسيروا الى العدو في أقرب وقت وراء الامبراطور . فاذا كان هو الذي يصدر الاوامر ، فلا

يمكن الا أن يتحقق النصر على أي عدو • كذلك كان يفكر روستوف
وأكثر الضباط بعد الاستعراض •

كانوا جميعا ، بعد الاستعراض ، مؤمنين بالنصر أكثر مما يمكن أن
يؤمنوا به بعد الانتصار في معركتين •

الفصل التاسع

في غداة يوم الاستعراض ارتدى بورييس أجمل بزة ، وسافر الى أولموتس تشييعه تمنيات رفيقه بيرج ، وذلك سعيا الى لقاء الامير آندره ، لانه يريد الالتفاف ببشاشته وكرمه وسماحته ليضمن لنفسه أحسن منصب ممكن ، ولا سيما منصب ضابط مرافق عند شخصية كبيرة ، وهذا هو المنصب الذي كان يعده خير منصب يتطلع اليه المرء في الجيش . كان يحدث نفسه بقوله : « يحق لروستوف الذي يرسل اليه أبوه عشرة آلاف روبل دفعة واحدة أن يدعي أنه لا يريد الانحناء لاحد ، وأنه لا يريد أن يكون لاحد خادما ، أما أنا الذي لا أملك شيئا آخر غير دماغي ، فيجب علي أن أشق لنفسي طريقا ، وأن لا أدع الفرص تعرض لي فلا أنتهزها ولا أستفيد منها » .

ولم يجد الامير آندره في أولموتس ذلك اليوم ، ولكن مظهر أولموتس التي كانت مقر القيادة العامة ومقر الهيئة الدبلوماسية والامبراطورين وحاشيتيهما من جلساء وخلصاء ، لم يزد رغبته في الانتماء الى هذا المجتمع الاعلى الا قوة وتأججا .

كان لا يعرف أحدا . ورغم البزة الانيقة التي كان يرتديها ، وهي

بزة ضابط من سلاح الحرس ، فان هذه الشخصيات العالية من جلساء الامبراطور ورجال الجيش ، بريش قبعاتها وأوسمة صدورها وأشرطة أكتافها ، كانت تبدو له ، وهي تطوف الشوارع بعربات فخمة ، متفوقة عليه ، هو الضابط الصغير من ضباط الحرس ، تفوقا يبلغ من الكبر أنها لا تريد بل ولا تستطيع أن تلاحظه . وقد سأل عن بولكونسكي في مقر هيئة اركان كوتوزوف ، فكان أولئك الضباط المرافقون وحتى التابعون كافة ينظرون اليه نظرة من يريد ان يفهمه أن ضباطا كثيرين مثله يقفون هنا على الابواب طويلا وأن الجميع سئموا منهم وضاقوا بهم . ورغم ذلك أو قل بسبب ذلك رجع بوريس الى أولموتس في الغد (أي يوم ١٤) بعد الغداء ، ودخل المنزل الذي كان يشغله كوتوزوف وطلب بولكونسكي . وكان الامير آندره بولكونسكي هناك ، فأدخلوا بوريس الى صالة كبيرة لا بد أنها كانت من قبل صالة للرقص ، ثم أصبحت تضم الآن خمسة أسرة وأثاثا متفرقا : طاولة ، وكراسي ، ويانوس .

وكان بقرب الباب ضابط مرافق يلبس ثوبا للمنزل فارسيا ، قد جلس الى الطاولة يكتب رسالة . وكان ضابط آخر ، أحمر اللون بدين الجسم ، هو نرفتسكي ، راقدا على سرير ، واضعا يديه تحت رأسه ، يضحك مع ضابط جالس بقربه . وكان ضابط ثالث يعزف على البيانو لحننا من فيينا لرقص الفالس ، بينما كان ضابط رابع مسترخيا على البيانو يرافق العزف بدندنة . ولم يكن بولكونسكي في تلك الصالة .

ولم يغير أحد من هؤلاء السادة وضعه حين رأى بوريس • وقد اتجه بوريس الى الضابط الذي كان يكتب فسأله عن بولكونسكي ، فالتفت اليه الضابط متبرما وقال له ان بولكونسكي يعمل ، فاذا كان في حاجة الى لقائه فسوف يجده في صالة الاستقبال التي يقع بابها يسرة • فشكر له بوريس جوابه ، ومضى الى صالة الاستقبال التي دله عليها • فكان في صالة الاستقبال عشرة ضباط وجنرالات ينتظرون •

حين دخل بوريس صالة الاستقبال كان الامير آندره يطرف بعينه احتقارا (وقد ظهر في وجهه ذلك النوع من الكلل المذهب الذي يشبه أن يقول للناس انكم لولا وظائفكم لما أضعت دقيقة واحدة في الكلام معكم) ويصفي الى جنرال روسي شيخ تغطي الاوسمة صدره ، قد وقف أمامه وقفة التهيؤ العسكرية على رءوس الاصابع تقريبا ، وعبر وجهه المحمر عن تذلل جندي ، لا عن كبرياء جنرال ، ومضى يشرح للامير آندره أمرا ، أو يقدم له تقريراً • فقال له الامير آندره بالروسية مصطنعا تلك اللهجة الفرنسية التي يصطنعها حين يريد اظهار ازدرائه :

— حسن جدا ، انتظر من فضلك !

فلما لمح بوريس كف عن الالتباه الى الجنرال الذي أخذ يركض وراءه ضارعا اليه أن يسمع بقية كلامه ، والتفت نحو بوريس يحييه بحركة من رأسه مع ابتسامة مرحة •

فأدرك بوريس عندئذ ادراكا واضحا ما سبق أن أحسه من قبل

احساسا ، وهو أن في الجيش ، عدا التبعية والانضباط اللذين تعرفهما الافواج ويعرفهما هو نفسه ، نوعا آخر من التبعية أهم شأنًا ، هو تلك التبعية التي تجبر الجنرال ذا الوجه القرمزي والبزة المحزومة أن يخضع للامير آندره ، وينصاع لامره ويحترم ارادته فينتظر لان الامير آندره يجد متعة أكبر في التحدث مع الملازم دروبتسكوي • فلما أدرك بوريس هذه الحقيقة ذلك الادراك الواضح قرر أكثر من أي وقت مضى أن يخضع بعد الآن في عمله بالجيش لهذه التبعية غير المكتوبة ، لا لتلك التبعية المنصوص عليها في الانظمة المدونة • وأحسن أن كون الامير آندره موصى به قد جعل منزلته على الفور فوق منزلة ذلك الجنرال الذي يستطيع في ظروف غير هذه الظروف ، أن يسحقه سحقا وأن يعدمه اعداما ، هو الملازم في الحرس •

مضى الامير آندره الى بوريس فصافحه وقال له :

— يؤسفني أنك لم تجدني أمس • لقد توليت امر الالمان طول النهار • ذهبنا مع فايروتهر^(١) نتأكد من الترتيب • ان هؤلاء الالمان يسرفون في التدقيق ، فلا ينتهون •

فابتسم بوريس ابتسامة من أدرك ما يلعب اليه الامير آندره من شيء يعرفه الناس كافة • ولكنه كان يسمع لأول مرة اسم فايروتهر

(١) كان الجنرال فايروتهر (١٧٥٤ - ١٨٠٧) رئيس الاركان النموية منذ معركة ريفولي المنكودة سنة ١٧٩٧ ، وقد وضع لمعركة أوسترلتس خطة معقدة هي التي ادت الى الكارثة .

وحتى كلمة « ترتيب » •

وقال الامير آندره يسأله :

— هيه يا عزيزي ! أما تزال تحب ان تكون ضابطا مرافقا ؟ لقد

ظلمت أفكر فيك منذ ذلك اليوم •

فأجابه بوريس وقد احمر وجهه رغم ارادته :

— نعم • وقد فكرت في تقديم طلب الى القائد العام الذي

وصلته رسالة من الامير كوراجين توصيه بي خيرا •

ثم أضاف يقول كالمعتذر :

— ولم أشأ أن أقدم هذا الطلب الا لخوفي من أن لا يشترك

الحرس في القتال •

قال الامير آندره :

— طيب ، طيب • سنتكلم في هذا كله • دعني أبلغ القائد

العام عن رغبة هذا السيد في مقابلته ، ثم أعود اليك فأفرغ لك •

وأثناء غياب الامير آندره الذي ذهب يبلغ القائد العام رغبة الجنرال

ذي الوجه القرمزي في مقابلته أخذ الجنرال الذي لا شك في أنه

لا يشاطر بوريس آراءه في التبعية غير المنصوص عنها في النظام ،

يحدد تحديدا عنيدا الى الملازم الوقح الذي حال بينه وبين اكمال

حديثه مع الضابط المرافق ، حتى لقد بلغ من عناد التحديق أن بوريس

أحس بضيق وخرج ، فأشاح وجهه ولبث ينتظر عودة الامير آندره

نافد الصبر •

قال له الامير آندره وهو يقوده الى الصالة الكبرى التي فيها
البيانو :

— اسمع يا عزيزي ! اليك الفكرة التي وافتني في شأنك • لا داعي
الى أن تقابل القائد العام ، فسوف يقول لك أشياء كثيرة لطيفة ، وسوف
يدعك الى الغداء (هنا قال بوريس لنفسه : « ليس هذا أمرا سيئا
بمقياس التبعية الاخرى) ، ثم يقف الامر عند هذا الحد ولا يتعداه •
سنكون بعد قليل كتيبة كاملة من الضباط المرافقين والتابعين • ولكن
اليك ما سوف نفعله : لي صديق من خيرة اصدقائي هو الامير
دولجوروكوف^(١) • انه شاب ممتاز ، وضابط مرافق برتبة جنرال •

ربما كنت تجهل ما سأقوله لك ، ولكن الحقيقة هي أن كوتوزوف
نفسه وهيئة أركانه ونحن جميعا لم يبق لنا من شأن • فكل شيء قد
تركز الآن بين يدي الامبراطور • فلنذهب الى دولجوروكوف • وأنا
في حاجة الى أن ألقاه • وقد سبق ان كلمته عنك • فاصحبي اليه ،
فترى ألا يستطيع ان يعينك قريبا منه ، او ان يجد لك مكانا هناك
بقرب الشمس •

ان الامير آندره يتحمس دائما حين يكون عليه ان يوجه شابا وان
يساعده على النجاح • وبهجة ان يقدم لشخص آخر هذه المساعدة التي

(١) فاسيلي يوريفتش دولجوروكوف (١٧٧٦ - ١٨١٠) ، جنرال
شاب كان مرافق الاسكندر الاول •

ما كان له أن يرضاها لنفسه من شدة كبريائه ، انما كان يقترب من البيئة التي تكفل النجاح والتي كانت تجتذبه وتستهويه • لذلك سره ان يتولّى امر بوريس ، واقتاده الى الامير دولجوروكوف •

كان المساء قد تقدم حين دخل الشابان قصر اولوتس ، الذي يقيم فيه الامبراطوران ، وخلصاؤهما •

وفي ذلك اليوم نفسه كان قد عقد مجلس حرب اشترك فيه جميع أعضاء « المجلس الحربي الاعلى » والامبراطوران • وقد تقرر في ذلك الاجتماع ، على خلاف آراء الشيخين ، كوتوزوف وشفارتزبرج^(١) ، أن يشنّ الهجوم فوراً ، وان يواجه نابوليون بمعركة شاملة •

كان الاجتماع قد انتهى منذ برهة قصيرة حين وصل الامير أندره الى القصر في صحبة بوريس سعياً الى الامير دولجوروكوف • وكان جميع ضباط الاركاف العليا ما يزالون مفتونين بسحر ذلك الاجتماع الذي انتصر فيه جانب الشباب على جانب الشيوخ ان أصوات المترشحين الذين كانوا ينصحون بانتظار شيء لا يعلم الا الله ما هو ، قبل الانتقال الى الهجوم ، قد أخرسها اجماع كامل ، ودحضت اعتراضاتها بحجج تبلغ من الاستعصاء على النقض فيما يتعلق بفوائد الهجوم ومزاياه ، أن

(١) شارل فيليب شفارتسبرج (١٧٧١ - ١٨٢٠) : جنرال نمسوي أصبح بعد ذلك فيلدمارشال . قاد القوات الحليفة سنة ١٨١٣ وسنة ١٨١٤ . والحق انه لم يكن « شيخاً » سنة ١٨٠٥ حين عارض خطة فايروتهر •

موضوع المناقشات ، أعني المعركة القريبة والنصر المؤزر أصبحا لا يبدوان من الاحداث التي ستقع في المستقبل ، بل من الاحداث الواقعة منذ الآن .

اعتبرت جميع المزايا متوفرة لنا نحن : فقواتنا الضخمة التي لا شك أنها تفوق قوات العدو متمركزة ، وقطعاتنا ملتهبة حماسة بوجود العاهلين ، ومحرقة شوقا الى القتال ، والوضع الاستراتيجي التي يجب التحرك في اطاره يعرف الجنرال النمسي الذي سيقود توزيع الجيوش ، وهو الجنرال فايروتهر ، أدق تفصيله (لقد شاء حسن المصادفة ان كانت القطعات النمسية تجري في العام الماضي مناورات على الارض التي سيتم فيها الهجوم على الفرنسيين) ؛ والمنطقة معروفة معرفة دقيقة بجميع أجزائها وقد حددت هذه الاجزاء على الخريطة تحديدا كاملا ، ولا شك أن بونابرت الذي ضعف ضعفا واضحا ظاهرا لن يستطيع أن يفعل شيئا .

ان دولجوروكوف ، وكان من أشد الضباط حماسة للهجوم ، قد عاد من اجتماع المجلس منذ برهة قصيرة منهوك القوى مكدودا ، ولكنه يفيض تحمسا واعتزازا بالنصر الذي تحقق .

قدم اليه الامير آندره صاحبه بوريس الذي يريد أن يتوسط له ، ولكن دولجوروكوف الذي صافح الامير آندره بأدب وحرارة لم يخاطب بوريس بكلمة ، وانما اتجه بالكلام الى الامير آندره بالفرنسية ، وكان واضحا أنه لا يستطيع ان يمنع نفسه من الافصاح عن الافكار

التي كانت تشغل باله في تلك اللحظة اكثر من أي شيء آخر •

— آه يا عزيزي ... ليتك رأيت المعركة الضارية التي خضناها !
ولكننا نسأل الله ان تكون المعركة التي ستسفر عنها هذه المعركة
مظفرة منتصرة هي أيضا •

وواصل كلامه يقول بلهجة حية متقطعة :

— هل تعلم يا عزيزي ؟ يجب عليّ ان أعترف بأخطائي في حق
النسويين ، ولا سيما في حق فايروتهر • ما أعظم هذه الدقة ، وهذا
الضبط ، وما أوسع هذه المعرفة بالارض ، وما أبعد هذا التنبؤ بجميع
الاحتمالات ، وبجميع الظروف ، وبأسر التفاصيل شأنًا !حقا يا عزيزي،
لا يستطيع المرء أن يتخيل ظروفًا أكثر مواتاة للهجوم من الظروف
التي نحن فيها • التحالف بين الدقة النمساوية والشجاعة الروسية ،
ماذا تريد أكثر من هذا ؟

سأله بولكونسكي :

— هل اتخذ اذن قرار حاسم بالهجوم ؟

فأجاب دولجوروكوف وهو يتسم ابتسامة ساخرة :

— ويبدو لي يا عزيزي أن بونابرت لا يفقه من الامر شيئًا • هل
تعلم أن الامبراطور تلقى اليوم رسالة منه ؟
— حقا ؟ ماذا قال في الرسالة ؟

— ما عساه يقول ؟ خلط ملط ! ... كل ما يريده هو كسب

الوقت • أقول لك انا الآن قابضون عليه متحكمون به • لا شك في هذا •

وأضاف دولجوروكوف يقول ضاحكا ببراءة وطنية :

— لكن أظرف ما في الامر ان أحدا لم يعرف كيف يجب ان يبعث اليه الرد ، وما هي الصفة التي ينبغي ان يخاطب بها • ولما كان لايجوز ان يلقب بالقنصل ولا بالامبراطور طبعاً ، فقد كان رأيي أن يصدّر الجواب بهذه الجملة : الى الجنرال بونايرت •

قال بولكونسكي :

— في الامكان ان لا يعترف به امبراطورا ، ولكن شتان بين هذا وبين أن يسمى الجنرال بوونايرت ...

فسرعان ما قاطعه دولجوروكوف قائلاً وهو يضحك :

— تماما • وهذا ما جعل الامر مضحكا • هل تعرف ييليين ؟ انه شاب ذكي جدا • وقد اقترح ان يخاطب نابوليون كما يلي : « الى المعتصب وعدو النوع الانساني » • فقط ؟

— ولكن ييليين هو الذي وجد مع ذلك صيغة لا يتصور المرء صيغة أخرى تفوقها في الجدة • انه فتى يحب المزاح ولكنه في الوقت نفسه على حظ كبير من الذكاء •

— ما الصيغة التي وجدها ؟

قال دولجوروكوف بلهجة تتم عن الجد والارتياح :

— الى رئيس الحكومة الفرنسية •

قال بولكونسكي :

— نعم ، ولكن هذه المخاطبة ستسوؤه كثيرا •

— طبعا • ستسوؤه جدا • ان أخي يعرفه حق معرفته ، هذا

الامبراطور المرتجل : تغدئى معه بباريس غير مرة ، فهو يقول عنه انه لم يلق في حياته دبلوماسيا يضارعه دهاء وحذقا • مزيج من الحذق الفرنسي والتظارف الايطالي • هل تعرف النكات التي تروج عن علاقاته بالكونت موركوف ؟ يجب أن نشير هنا الى أن الكونت موركوف هو الرجل الوحيد الذي عرف كيف يعامله • هل تعرف حكاية المنديل ، مثلا ؟ حكاية رائعة ...

وأخذ دولجوروكوف المكثار ، وهو يتجه بالحديث تارة الى بوليس وتارة الى الامير آندره ، يروي أن بونابرت أراد ان يمتحن سفيرنا موركوف^(١) ، فتعمد أن يسقط منديله أمامه على الارض ، وتوقف عن الكلام ناظرا الى المنديل آملا ان يناوله اياه موركوف • فما كان من موركوف الا ان أسرع يسقط منديله بقرب منديل نابوليون ، ثم انحنى يتناوله دون أن يمس منديل بونابرت •

(١) الدبلوماسي آرКАДي موركوف (١٧٤٧ - ١٨٢٧) ، خضع عليه لقب كونت سنة ١٧٩٦ ، وعين سفيرا لروسيا في باريس من سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٠٣ •

قال بولكونسكي :

— رائع ! ولكنني أريد ان أحدثك في أمر يا أمير ؛ لقد جئت اليك وسيطا لهذا الفتى • انه •••

ولكن ضابطا مرافقا وصل يستدعي دولجوروكوف الى الامبراطور، قبل أن ينهي الامير آندره جملته • فقال دولجوروكوف وهو ينهض مسرعا ويصافح الامير آندره وبوريس :

— يؤسفني أن أستدعي وأنت هنا • ولكنك تعلم انه سيسعدني جدا ان أفعل كل ما يتعلق بي من أجلك ومن أجل هذا الشاب اللطيف •

وصافح بوريس مرة أخرى وقد لاح في وجهه تعبير عن الطيبة ، زاهر بالصدق والحماسة لكنه سطحي ، وأضاف يقول :

— فالى مرة أخرى !

ما كان أشد انفعال بوريس اذ أحسّ في تلك اللحظة بأنه قريب من السلطة العليا هذا القرب كله • لقد شعر بأنه هنا على اتصال بالنوابض المحركة لتلك الكتل الضخمة التي يحس في فوجه أنه ليس منها الا جزءا صغيرا طيعا تافها !

وسار الامير آندره وبوريس في الدهليز خلف الامير دولجوروكوف، فرأيا هنالك رجلا بثياب مدنية خارجا من عند الامبراطور ، (من الباب الذي دخله دولجوروكوف) ، قصير القامة ، ذكيّ الوجه ، له فك

ناتيء حاد يهب لهيئته قدرة على الحركة السريعة في التعبير • وقد
حيًا هذا الرجل القصير صاحبنا دولجوروكوف بحركة من رأسه كما
يحيي صديق حميم صديقًا حميمًا ، وألقى على الامير آندره نظرة
ثابتة باردة ، وتقدم نحوه وهو يعتقد في أغلب الظن أن الامير آندره
سيحييه وسيستحي عن طريقه • ولكن الامير آندره لم يفعل لا هذا
ولا ذاك • فعبّر وجه الشاب عن غضب ، وأشاح رأسه ، وابتعد في
الدلهيز •

قال بوريس يسأل :

— من هذا ؟

— رجل من أبرز الرجال ، ولكنه من أبغضهم الى نفسي • انه
وزير الشؤون الخارجية الامير كزارتوريسكي^(١) •

(١) الامير آدم كزارتوريسكي، امير بولندي طائل الشراء (١٧٧٠ - ١٨٦١)
وجد ببطرسبرج منذ سنة ١٧٩٥ وأصبح فيها الصديق الحميم للاسكندر
الاول ، وعينه الاسكندر وزيراً للشؤون الخارجية من سنة
١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٥ ، وكان من أنصار السلافية ، وكانت له
آمال سلافية عريضة ، فكان يقول بثورة الصرب على تركيا ويحلم
بإعادة بناء بولنده تحت صولجان الاسكندر الاول . فلما خيبت ظنه
سياسة الاسكندر المصادقة لبروسيا ، أحال نفسه على التقاعد ،
وأصبح قيما على جامعة فيلنا . وفي عام ١٨٣١ انضم الى ثورة
بولنده على نيقولا الاول ، وانتخب رئيسا للحكومة المؤقتة . ثم هاجر
الى باريس ، وظل سنين طويلة يدير العمل الدبلوماسي للهجرة
البولندية .

وأضاف بولكونسكي وهو يتنهد تنهدا لم يستطع أن يكبحه وهما
يخرجان من القصر :

— أمثال هؤلاء الناس يقررون مصير الشعوب •

وفي الغد تحركت القطعات • واذ لم يستطع بوريس قبل معركة
أوسترلتس ان يرى الامير آندره بولكونسكي ولا الامير
دولجوروكوف ، فقد بقي في فوج اسماعيلوفسكي •

الفصل العاشر

في فجر اليوم السادس عشر تركت كتيبة دينيسوف التي كان يعمل فيها نيقولا روستوف والتي كانت جزءا من مفرزة الامير باجراتيون ، تركت مخيماتها لتشرع في القتال ، أو ذلك ما كان يدعى على الاقل . ولكنها ما ان قطعت قرابة فرسخ واحد وراء سائر الارتال حتى استوقفت على الطريق الكبير . فاستعرض روستوف مرور القوزاق ، و مرور السرية الاولى والسرية الثانية من سرايا الفرسان ، وكتائب المشاة مع المدفعية ، ثم رأى مرور الجنرال باجراتيون والجنرال دولجوروكوف مع مرافقيهما . كان روستوف ، وقد شعر بالخوف ، يجتاحه في هذه المرة أيضا ، قام بجهود كبيرة للتغلب على هذا الخوف ، وفي هذه المرة أيضا كان قد حلم بأن يكون سلوكه سلوك بطل ، سلوك فارس حقا . فاذا بذلك كله يتبدد ، لان كتيبته قد جعلت كتيبة احتياط . فقضى روستوف نهاره كله في ضجر وحزن .

وفي الساعة التاسعة من الصباح سمع طلقات رصاص وصيحات « هورررا » أمامه ، ورأى جرحى يقادون الى خلف (وكان عددهم قليلا) ، ورأى في النهاية كوكبة كاملة من الفرسان الفرنسيين تمر بين سرية قوزاق . واضح اذن ان معركة قد انتهت ، وهي معركة

ليست ضخمة لكنها موفقة • ولقد كان الجنود والضباط الذين عادوا منها يتحدثون عن انتصار باهر ، وعن احتلال مدينة فيشاو^(١) ، وعن أسر سرية كاملة من الفرنسيين •

كان الجو صافيا مشمساً بعد التجلد الشديد الذي كان في الليل ؛ فكان الضياء الفرح في ذلك اليوم من أيام الخريف يتفق والنصر الجديد الذي كانت تؤكد له لا روايات أولئك الذين شاركوا فيه فحسب ، بل يؤكد كذلك ما يلوح من آيات الابتهاج والاعتباط في وجوه الجنود والضباط والجنرالات والضباط المرافقين ، الذين كانوا يمرون بروستوف في الاتجاهين • فكان من شأن ذلك ان قلب نيقولا روستوف الذي غناه ، في غير طائل ، ما يسبق المعركة من خوف وقلق والذي كان قد قضى النهار كله عاطلاً عن العمل ، قد ازداد انقباضاً أليماً •

صاح دينيسوف يناديه وهو جالس على حافة الطريق أمام قارورة وأطعمة :

— روستوف ، تعال هنا • فلنشرّب لنغرق حزننا !

تحلق الضباط حول مطعم روستوف يأكلون ويثرثرون •

وقال واحد منهم وهو يشير الى خيَّال فرنسي أسير كان يسير على قدميه ويخفّره اثنان من القوزاق :

(١) تسمى بالتشيكية فيسينوفا ، وهي مدينة صغيرة على الطريق من زونيمو الى برنو •

— وهذا واحد آخر يقتادونه !

وكان أحد القوزاق يجر حصانا فرنسيا ضخما جميلا انتزعه من

الاسير •

صاح دينيسوف يقول للقوزاقي :

— بعني هذا الحصان !

— اذا شئت يا صاحب السعادة !

فقام الضباط وأحاطوا بالقوزاق والاسير • ان الخيَّال الفرنسي فتى ألزاسي يتكلم اللغة الفرنسية بلهجة ألمانية • وكان يلهث من شدة الانفعال ، وكان شديد الاحمرار ، فلما سمع كلاما بالفرنسية ، أخذ يشرح للضباط ، متدفقا في الكلام ، متجها الى هذا تارة والى ذاك تارة أخرى ، انه ما كان ليؤسر كما أسر لولا « الكابورال » ، فالغلطة ليست غلطته ان هو أسر ، بل هي غلطة الكابورال الذي بعثه في طلب أغطية ، وانه قد قال للكابورال ان الروس بلغوا هذا المكان ، فليس من الحكمة في شيء أن يرسله في طلب أغطية ، وكان يضيف في كل مرة قوله : ولكن لا تسيئوا الى حصاني العزيز • يقول ذلك وهو يلامس يديه حصانه ملاطفا • وكان يعتذر في بعض الاحيان عن أنه استسلم للاسر ، ويتصور في أحيان أخرى أنه أمام رؤسائه فيأخذ يؤكد أنه كان جنديا متحمسا أشد الحماسة ، مندفا في القتال أكبر الاندفاع • فبفضل هذا الخيَّال الاسير استطاعت مؤخرة جيشنا أن تعرف كل ما يشيع في جو الجيش الفرنسي من نضارة لم تكن تتخيلها •

باع القوزاقيان حصان الفرنسي بدينارين • باعاه لروستوف ، أغنى ضباطنا منذ أن وصل اليه المال من أهله •

فقال الالزاسي لروستوف حين تسلم روستوف الحصان :

— ولكن لا يسيئن أحد الى حصاني العزيز •

فطمأن روستوف الخيَّال الفرنسي مبتسما ، ونفحه مالا •

قال القوزاقي وهو يمسك ذراع الاسير ليحمله على متابعة السير :

— امش ، امش !

وتعالى الصياح بين الفرسان على حين فجأة قائلا :

— الامبراطور ! الامبراطور !

فاضطرب كل شيء ، وركض جميع الجند ، ورأى روستوف وراءه على الطريق بضعة فرسان مقبلين ، ورأى قنزعات بيضا على القبعات •
فما هي لحظة كان صار كل رجل من الرجال في مكانه من الصفوف ينتظر •

وكان روستوف قد رجع الى مكانه راكضا وهو لا يعرف ماذا يفعل كل المعرفة ، وزايله أسفه على أنه لم يشارك في القتال ، وزايله الضجر الذي كان يشعر به بين هذه الوجوه التي يعرفها كثيرا ، زايله ذلك كله في طرفة عين ، وبارحته كل فكرة شخصية ، اذ غمره وأغرقه سيل السعادة التي أيقظها في نفسه اقبال الامبراطور • كان هذا الحضور وحده يعوضه كل الخسارة التي مني بها ذلك النهار الذي ضاع في غير طائل • كان

سعيدا سعادة عاشق ظفر أخيرا بالموعد الذي طالما انتظره • وكان لا يجرؤ أن يدير رأسه وهو في مكانه من الصفوف ، ولكنه كان دون أن يدير رأسه يحس اقبال الامبراطور بغريزته فتشتعل نفسه حماسة • ولئن كان يحس اقتراب الامبراطور ، فليس سبب ذلك ما يحدثه دنو الموكب من ضجة ما تنفك تقوى فحسب ، بل أيضا أن كل شيء حوله كان يصبح أشد ضياء ، وأعظم فرحا ، وأبلغ دلالة ، وأحفل بمعنى العيد • كانت الشمس ، (أي الامبراطور في نظر روستوف) تقترب مزيدا من الاقتراب ، فتتشر فيما حولها أشعة ضياء لطيف مهيب جليل ، فهذا هو روستوف يشعر بتلك الاشعة تغمره ، وهاهو ذا يسمع صوت الامبراطور ، ذلك الصوت الودود ، الهادى ، الذي يتصف بالشموخ ولكنه يتصف في الوقت نفسه بأعظم البساطة •

وكما كان يتوقع روستوف فقد خيم صمت كصمت الموت ، وسمع صوت الامبراطور من وسط هذا الصمت يقول سائلا :
— أفرسان بافلوجراد ؟

فأجابه صوت من أصوات البشر بعد صوته الذي يفوق أصوات البشر : « أفرسان بافلوجراد ؟ » أجابه يقول :
— هو الاحتياط ياسيدي •

ووصل الامبراطور الى مستوى روستوف وتوقف • كان وجه الامبراطور أعظم جمالا وأروع فتنة مما كان يوم الاستعراض قبل ثلاثة أيام • كان يشع فرحا عظيما وكان يفيض شابا ، شابا يمتاز بأعظم

البراء ويذكر بساطة فتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره وكان هذا الوجه نفسه مع ذلك وجه امبراطور مهيب فخم جليل . وفي ما كان يجيل طرفه عرضا على السرية وقعت عيناه على عيني روستوف ، قتلبتا عليهما ثائيتين لا أكثر . هل أدرك الامبراطور ما كان يحدث في نفس روستوف ؟ لقد بدا لروستوف أن الامبراطور أدرك كل ما كان يجيش في نفسه ؟ نظر اليه بعينه الزرقاوين ثائيتين . كانتا تشعان هدوءا ساجيا وضياء رقيقا . وفجأة رفع الامبراطور حاجبيه ، وهمز حصانه بحركة مفاجئة من ساقه اليسرى ، وأسرع يعدو عدوا .

كأن الامبراطور لم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يشهد المعركة فرغم ما صورته له رجاله وحاشيته ، انفصل عن الرتل الثالث الذي كان يتبعه ، فما كان الظهر حتى وصل الطليعة ، وما ان بلغ الفرسان حتى أنبأه الضباط المرافقون بالنتيجة الموفقة التي انتهت اليها المعركة .

ان تلك المعركة التي لم تسفر في حقيقة الامر الا عن أسر سرية فرنسية قد صورها الضباط المرافقون على أنها نصر باهر . لذلك اعتقد الامبراطور الجيش كله ، لا سيما وأن دخان البارود لم يكن قد تبدد من فوق ساحة المعركة ، ان الفرنسيين قد هزموا وأنهم يتراجعون مندحرين . وبعد بضعة لحظات من مرور الامبراطور صدر الامر بالتقدم الى الفرقة التي تنتمي الى فوج بافلو جراد . وقد اتيح لروستوف أن يرى الامبراطور مرة أخرى في مدينة فيشاو . وفي ميدان المدينة الذي جرى فيه تبادل كثيف لاطلاق النار قبل وصول الامبراطور كان يرقد على

الارض عدد من الموتى والجرحى لما يتسع الوقت لنقلهم بعد . كان الامبراطور هذه المرة يركب حصانا هجيناً ، غير الحصان الذي ركبته في الاستعراض ، فمال الى جانب وقد أحاطت به حاشيته من العسكرين والمدنيين حاملاً ، بحركة تفيض رشاقة ، نظارة من ذهب ، ونظر الى جندي كان راقدًا مكبا بوجهه على الارض غارقا في الدماء لا يغطيه معطف ، وكان ذلك الجندي يبلغ من الوساعة ومن الدمامة ومن الغلظة أن وجوده على مقربة من الامبراطور قد ساء روستوف . ورأى روستوف كتفي الامبراطور المقوستين قليلا ترتعشان كأنما سرت فيهما رعدة ، ورأى قدمه اليسرى تحرك المهاز ضاربتين بطن الحصان ضربا فيه تشنج ، ولكن الحصان الذي كان منتصب القامة ينظر في ما حوله بغير اكتراث دون أن يتحرك ، ظل واقفا في مكانه لا يتقدم . فنزل ضابط مرافق عن حصانه فحمل الجندي من تحت ابطيه وأخذه يسجيه على محفة جيء بها . كان الجندي يئن أنينا موجعا . قال الامبراطور الذي كان واضحا أنه يتألم أكثر من الجندي المحتضر :

— برفق ، برفق ، ألا يمكن حمله برفق أكبر ؟
ومضى الى أمام .

ورأى روستوف الدموع تملأ عيني الامبراطور ، وسمعه يقول بالفرنسية وهو يمضي :

— الحرب شيء فظيع ! الحرب شيء فظيع !

كانت قطعات الطليعة قد رابطت أمام فيشاو ، يراها العدو الذي

ظل طول النهار يتراجع لنا عن أرض متى اطلقنا عليه شيئا من نيران
بنادقنا وعبر الامبراطور للطليعة عن شكره وتقديره ، ووعدت الجند
بمكافآت ، ووزع على كل فرد من الافراد ضعف ما يوزع عليه عادة من
فودكا . وكانت طقطقة نيران المعسكرات ، وأصوات أغاني الجنود
تنطلق أشد فرحا وأعظم تهليلا من الليلة البارحة . واحتفل ديسوف
تلك الليلة بترقيته الى رتبة ميجر . وفي ختام الحفلة نهض روستوف ،
وكان قد أسرف في الشراب قليلا ، فحمل كأسه الى شفتيه وهو يقول :
« نخب الامبراطور » وأضاف يقول يوضح : « لا نخب صاحب الجلالة
الامبراطور التي يشربه الناس في الولايم ، بل نخب صحة عاهل طيب
عظيم يأخذ بمجامع القلوب ، فلنشرب نخب صحته ، ونخب انتصاره
المحقق على الفرنسيين ! » .

وأضاف يقول :

— اذا كنا قاتلنا حتى الآن ولم ننقد للفرنسيين كما في شونجراين ؟
فما عسى تكون الحال الآن وهو على رأسنا ؟ لنموتن جميعا ، لنموتن
جميعا فرحين في سبيله . أليس كذلك يا سادة ؟ لعلي لا أحسن التعبير،
فقد أسرفت في الشراب . ولكن هذا هو ما أشعر به ، وما تشعرون به
أنتم أيضا . نخب الاسكندر الاول . هورررا ! ...

فرددت أصوات الضباط متحمسة تهتف :

— هورررا ! ...

وكان الكابتن الشيخ كيرستن يهتف بحماسة وصدق لا يقلان عن

حماسة وصدق روستوف الشاب الذي عمره عشرون عاما •

وحين أفرغ الضباط أكؤسهم وحطموها ، ملأ كيرستن أكؤسا أخرى • وحمل كأسه يلوحها بحركة عريضة ، وأقبل على معسكر الجنود يستره قميصه ذو الكمين وسرواله ، سروال الفارس ، ووقف أمام الجنود وقفة مهية جليلة ، وقد برز صدره الشائب الذي كان يرى من خلال تجويف قميصه المفتوح ، وبرز شارباه الطويلان الاشبيان في ضوء النيران ، وقال :

— هيا أيها الاولاد الشجعان ! لنشرب نخب صحة صاحب الجلالة الامبراطور ، ولنشرب نخب النصر على العدو •

وصرخ هاتفا بصوته الجهير الذي يظهر فيه أنه صوت فارس شيخ له قيمته :

— هورررا !

فأحرق به الفرسان ، وأخذوا يجيبونه بهتافات صاحبة مجلجلة يطلقونها صوتا واحدا •

وفي ساعة متأخرة من الليل ، حين انسحب جميع الضباط ، ربت دينيسوف بيده الصغيرة القصيرة على كتف صاحبه الاثير روستوف ، وقال له :

— لا يجد المرء هنا من يعشقه ويتوله بحبه ، فيهم بحب الامبراطور! فصاح روستوف يقول :

— لا تمزح في هذا • هذه عاطفة تبلغ غاية السمو ، وغاية الجمال ،

وغاية ...

فقاطعه دينيسوف يقول له :

— أصدقك ، أصدقك يا صديقي الصغير ، واني لا شاطرك هذه

العاطفة وأحبذها وأؤيدها ...

— بل أنت لا تفهم !

ونفض روستوف ، ومضى يطوف بين نيران المعسكر ، حالما بالسعادة العظيمة التي ستغمره لا ان هو مات لا انقاذا لحياة الامبراطور (فهو لا يجرؤ حتى أن يحلم بهذا) ، بل ان هو مات على مرأى من الامبراطور • كان مولها بحب القيصر فعلا ، وكان مؤمنا بمجد الجيوش الروسية ، وكان لا يراوده شك في أن النصر قريب • ولم يكن وحده يشعر بهذه العواطف في تلك الايام المذكورة التي سبقت معركة أوسترلتس^(١) ، بل كانت تسعة أعشار الجيش الروسي في ذلك الاوان هائمة بحب قيصرها ، موقنة بمجد الجيوش الروسية ، ولو بحماسة لا تضارع حماسة روستوف في حرارتها وحميائها •

(١) وتسمى بالتشيكية سلافكوف ، وهي قرية تقع على مسافة ١٣ كم من برنو شرقا . في ذلك المكان انما قامت المعركة المشهودة ، معركة اليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ، وهو يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) بحسب التقويم الروسي .

الفصل الحادي عشر

في الغد استقر الامبراطور بمدينة فيشاو . وقد استدعى اليه طبيب البلاط فيلييه^(١) عدة مرات في ذلك اليوم . وانتشر في القيادة العامة وبين أقرب القطعات أن الامبراطور مريض . وقال المقربون منه أنه لم يصب طعاما ، وأنه لم ينم في تلك الليلة . وكان سبب هذا المرض ما أحدثه منظر الجرحى والموتى من أثر في نفس الامبراطور الحساسة .

وفي فجر اليوم السابع عشر^(٢) ، تقدم نحو طلائعنا ضابط فرنسي يحمل الراية البيضاء التي يحملها المفاوضون ، وطلب أن يقابل ملك روسيا ، فاقبده الى فيشاو . كان هذا الضابط هو سافاري^(٣) وكان الامبراطور قد نام منذ مدة قصيرة ، فاضطر سافاري أن ينتظر . حتى اذا كان الظهر أدخل على الامبراطور ، وبعد ساعة عاد متجها الى المخافر الامامية من الجيش الفرنسي يصحبه الامير دولجوروكوف .

(١) جيمس فيلييه (١٧٦٥ - ١٨٥٤) ، بارون صغير ايقوسي كان في روسيا منذ سنة ١٧٩٠ ، وقد أصبح الطبيب الاثير عند الاسكندر الاول ، وهو الذي انشأ الاكاديمية الطبية بسان بطرسبرج .

(٢) أي في فجر ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) .

(٣) رونه سافاري (١٧٧٤ - ١٨٣٣) ، جنرال فرنسي ، كان وزير الشرطة في عهد نابوليون ، وقد خلع لقب دوق روفيجو .

وراحت شائعة تقول ان الغرض من مجيء سافاري هو أن يقترح لقاء بين الامبراطور الاسكندر و نابوليون . وقد رفض الاسكندر أن يتم لقاء شخصي ، ففرح الجيش كله بذلك واعتز به . ومضى دولجوروكوف ، منتصر فيشاو ، يصحب سافاري ، نائبا عن الامبراطور ، لياحث نابوليون ، اذا صح أن نابوليون يريد السلم حقا ، على خلاف ما يتوقع منه .

وعاد دولجوروكوف في المساء ، ومضى الى الامبراطور رأسا ، وخلا اليه زمنا طويلا .

وفي اليومين الثامن عشر والتاسع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تقدمت القطعات مرحلتين أخريين ، وانسحبت طلائع العدو بعد تبادل اطلاق الرصاص قليلا . وابتداء من ظهر اليوم التاسع عشر شب فوران كبير في الدوائر العليا من الجيش دام حتى صباح اليوم العشرين من شهر تشرين الثاني ، وهو اليوم الذي نشبت فيه معركة أوسترلس التي لا تنسى ذكرها .

حتى ظهر اليوم التاسع عشر كان الغليان والاحاديث المشبوبة والذهاب والاياب وارسال الضباط المرافقين ، كان ذلك كله مقتصرأ على المقر العام للامبراطورين . حتى اذا كان الظهر من ذلك اليوم نفسه سرت هذه الحركة الى مقر القيادة العامة التي يرأسها كوتوزوف ، والى هيئات الاركان لرؤساء الجيوش . وفي المساء امتدت هذه الحركة بواسطة ضباط مرافقين الى الجيش كله ، من أوله

الى آخره • وفي الليلة التي تصل اليوم التاسع عشر باليوم العشرين كانت كتلة العشرين ألفا من الرجال الذين يتألف جيش الحلفاء قد خرجت من المعسكرات ، وامتلات بصخب الاصوات ، وتحركت جبهة ضخمة هائلة مسافة تسعة فراسخ •

ان الحركة المركزة التي انطلقت في الصباح من مقر الاباطرة، وولدت تلك الاندفاع العامة ، تشبه الحركة الاولى التي ينطلق بها الدولار. المحرك لمجموع دوايب ساعة ضخمة من ساعات الحائط ، فيتحرك أحد الدوايب ببطء ، ثم يتحرك دولار آخر ، فدولاب ثالث ، وبسرعة ما تنفك تزداد، تتحرك المسننات والبكرات والدوايب الصغيرة المتشابكة، ثم يرن الجرس حين يجب أن يرن ، وتظهر الدمى في الوقت الذي ينبغي أن تظهر فيه متعاقبة متتالية ، وتتقدم عقارب الساعة تقدما منتظما ، مشيرة الى ثمرة الحركة •

ان الآلة الحربية كجهاز ساعة ضخمة من ساعات الحائط ، متى ثبتت فيها الحركة مضت الى النهاية مضيا لا سبيل الى مقاومته ، وبقي كل جزء من أجزاء الجهاز الذي لم يحن حينه بعد ، بقي ساكنا الى أن تبلغه الحركة فيتحرك • ان الدوايب تصر فوق محاورها وتشابك أسنانها ، وان الدوران يجعل المسننات تئن ، ولكن الدولار المجاور يبقى ساكنا جامدا حتى لكأنه مستعد لان يبقى على هذا السكون والجمود مئات السنين • ولكن يحين الحين ، فاذا بجزء من أجزاء الجهاز يمسك به ، واذا هو ينخرط في مجموع الحركة، فيأخذ يدور صارا، واذا هو يندمج في

فعل واحد لا يفهم نهايته ولا يفهم الهدف منه •

وكما أن تلك الحركة المعقدة في الدوايب التي لا نهاية لعددها في الساعة الضخمة ليس لها من نتيجة الا تحرك عقرب الساعة تحركا بطيئا منتظما يشير الى الوقت ، فكذلك لم يكن لتلك الحركات الانسانية المعقدة التي تحركها أولئك المائة والستون ألف رجل من الروس والفرنسيين ، ولم يكن لجميع تلك الاهواء التي عصفت بهم ، والرغبات التي شبت في نفوسهم ، وأنواع الحسرة التي ملأت جوانحهم ، وألوان الاذلال التي ذاقوها ، وفنون العذاب التي عانوها ، واندفاعات الكبرياء التي شبت في قلوبهم ، ومشاعر الخوف والحماسة التي اعترتهم ، لم يكن لهذا كله الا نتيجة واحدة هي خسران معركة أوسترلتس التي تسمى معركة الاباطرة الثلاثة ، أي تحرك « عقرب » التاريخ العام تحركا بطيئا على وجه ساعة تاريخ الانسانية •

كان الامير آندره ذلك اليوم مناوبا ، فلم يترك رئاسة القيادة العامة .
ووصل كوتوزوف الى مقر القيادة العليا في نحو الساعة السادسة من المساء ، فبعد أن لقي الامبراطور لقاء قصيرا ، ذهب الى مارشال البلاط الاكبر ، الكونت تولستوي^(١) •

فاتتهز بولكونسكي هذه الفرصة ليمضي يلمس تفاصيل أنباء الوضع

(١) نيقولا الكسندروفتش تولستوي (١٧٦١ - ١٨١٦) ، ابن عم جد الكاتب ليون تولستوي •

من دولجوروكوف . كان الامير آندره بولكونسكي يحس أن كوتوزوف قلق مشوش ومستاء متمعض ، وأن القيادة العليا مستاءة منه أيضا ، وأن الجميع يخاطبونه بلهجة أناس يعرفون شيئا يجهله الآخرون . لذلك كان يريد أن يتحدث مع دولجوروكوف .

قال له دولجوروكوف وكان يشرب الشاي مع بيبلين :

— ها . . . يومك سعيد يا عزيزي . العيد غدا . ما رأى صاحبك الشيخ ؟ أهو متمعض ؟

— لا أقول انه متمعض ، لكنني أعتقد أنه كان يتمنى أن يصغى اليه .

— ولكنهم أصغوا اليه في مجلس الحرب ، وسيصغون اليه أيضا حين يقول كلاما فيه عقل . أما التأخير وانتظار ما لا يعلمه الا الله ، بينما لا يخشى نابوليون الآن شيئا كما يخشى قيام معركة شاملة فهذا مستحيل .

قال الامير آندره :

— بالمناسبة ، أنت رأيت بونابرت . فما رأيك فيه ؟ ما الاثر الذي تركه في نفسك ؟

— نعم رأيت ، فأيقنت أنه لا يخشى شيئا في العالم أكثر مما يخشى قيام معركة شاملة .

كذلك ردد دولجوروكوف الذي كان واضحا انه يحرص حرصا

شديدا على هذا الرأي الذي استخلصه من مقابلته نابوليون • وأردف يقول :

— لو كان لا يخشى قيام المعركة ، فهل كان يطلب هذا اللقاء بينه وبين الامبراطور ، وهل كان يجري هذه المباحثات ، وهل كان ينكفيء هذا الانكفاء ، مع أن هذا التقهقر ينافي جميع أساليب الحرب ومناهجه ؟ صدق أنه يخشى قيام معركة ، قيام معركة شاملة • لقد دقت ساعته • لقد حان حينه • أنا أقول لك هذا •

عاد الامير آندره يسأل دولجوروكوف :

— ولكن حدثني كيف هو • صفه لي •

— هو رجل يرتدي ردنجات رمادي ، وكان يحرص حرصا شديدا على أن أخطبه بقولي « صاحب الجلالة » ، وما كان أشد حزنه وأسفه لاني رفضت أن أهب له أي لقب !

بذلك أجاب دولجوروكوف وهو يلقي نظرة سريعة على يليلين مبتسما • وواصل كلامه فقال :

— رغم احترامي العميق للشيخ كوتوزوف ، فان من حماقة أن نتظر مزيدا من الانتظار ، فذهب له فرصة الافلات ، وتتيح له أن يخدعنا ، بينا هو بين أيدينا حتما • يجب أن لا تنسى سوفوروف ومبدأه : لا تضع نفسك في موضع المهاجم ، بل بادر أنت الى الهجوم • صدقني اذا قلت لك أن طاقة الشباب تحسن

اكتشاف الطريق في غالب الاحيان أكثر من تجربة أشيخ
الكونكتاتورين^(١) .

قال الامير آندره :

— ولكن في أي وضع نهاجم ؟ لقد ذهبت اليوم الى الطلائع ، فرأيت
أن من المستحيل على المرء أن يعرف أين توجد قواته الرئيسية على وجه
التحديد .

وود لو يحدث دولجوروكوف عن خطة الهجوم التي كان قد
تصورها . ولكن دولجوروكوف انبرى يقول بحرارة وهو ينهض ويلقى
خريطة على الطاولة :

— لقد تم تصور جميع الحالات : فان كان في برون ... وطفق
يشرح ، بسرعة وغموض ، حركة الالتفاف التي يتصورها فايروتهر .

وقد أبدى الامير آندره اعتراضات ، وعرض خطته التي يمكن
أن تكون صالحة صلاح خطة فايروتهر ، وانما يعيها أنها جاءت
بعد حطة فايروتهر التي فازت بالتأييد . وما أن
شرع في بيان مساوئ الخطة الاخرى ومحاسن خطته هو ، حتى
كف الامير دولجوروكوف عن الاصغاء اليه . وبدلا من أن ينظر الى
الخريطة أخذ ينظر في عيني الامير آندره ذاهلا وقال :

(١) الكونكتاتور كلمة لاتينية معناها « المؤجل » ، وقد أطلقت هذه الكلمة
لقبا للركناتور الروماني فايوس ، الخصم المتاني المتريث تجاههانيبال
الشديد الحمية والاندفاع .

— على كل حال ، سينعقد اليوم مجلس حرب عند
كوتوزوف ، فيكون في وسعك أن تبسط هذه الآراء كلها فيه .
قال الامير آندره وهو يتعد عن الخريطة :
— هذا ما سأفعله .

قال ييلين الذي أصفى الى المحادثة حتى ذلك الوقت مبتسما
ابتسامة مرحة ، وكان واضحا أنه ينتوي الآن أن يمزح :

— ولكن علام تشغلان بالكما أيها السيدان ! سواء أحققنا في غد
نصرا أم منينا بهزيمة ، فان مجد الجيوش الروسية مضمون مؤكد .
فليس بين جميع قادة الجيوش قائد واحد روسي عدا صاحبك كوتوزوف .
ان القيادة هم : هر جنرال فيمغن^(١) ، والكونت دولانجرون^(٢)
والامير دو ليشتنشتاين^(٣) ، والامير دو هوهنلووه^(٤) ، وأخيرا برش ...

(١) جنرال نمسوي الحق بهيئة اركان حرب كوتوزوف سنة ١٨٠٥ .
(٢) الكسندر دو لانجرون (١٧٦٣ - ١٨٣١) : خدم في الجيش الفرنسي ،
وقاتل بأمريكا سنة ١٨٣١ . لقد هاجر حين قيام الثورة ودخل في
خدمة روسيا سنة ١٧٩٠ ، نال رتبة جنرال منذ ١٨٠٥ وتميز في
الحملات التي شنت على تركيا وفرنسا . في ٣٠ آذار (مارس) ١٨١٤
كان على رأس جيشه في مونمارتر ودخل باريس . عين حاكما عاما
لروسيا الجديدة (بأوديسا) من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٢٨ ، وقد
كتب « مذكرات » شائعة .

(٣) جان — جوزيف دو ليشتنشتاين (١٧٦٠ - ١٨٣٦) ، فلدمارشال
نمسوي . بعد هزيمة أوستراлис ترأس المفاوضات التي ادت الى
معاهدة برسبورج في كانون الاول (ديسمبر) ١٨٠٥ . وشارك بعد
ذلك في معارك ايسلنج وفاجرام سنة ١٨٠٩ .

(٤) فريدريك لويس دو هوهنلووه (١٧٤٦ - ١٨١٨) ، جنرال نمسوي .

برشه...^(١) ، وهلم جرا ، كسائر الاسماء البولندية •

قال دولجوروكوف :

— اسكت يا سليط اللسان • ليس ما تقوله صحيحا • ان بين القادة الآن قائدين روسيين هما ميلودرادوفتش^(٢) ودوختوروف ، وسوف يكون بينهم قائد ثالث هو آراكشيف^(٣) ولكن أعصابه ضعيفة •

قال الامير آندره :

— لا بد أن اجتماع ميخائيل ايلاريونوفتش قد انتهى •

وأضاف يقول :

— أتمنى لكم التوفيق يا سادة •

(١) هو الجنرال الروسي اجناس برزيسرفسكي ، اصله بولندي ، قاد احدى فصائل الجيش في او سترلتس وجرد من رتبته بعد أن استسلم للفرنسيين •

(٢) ميشيل ميلودرادوفتش (١٧٧١-١٨٢٥) ، له أصول صربية بعيدة جنرال في سلاح الفرسان يتصف ببسالة عظيمة • تميز في جميع الحروب منذ ١٧٨٧ الى ١٨١٤ • وقد وهب لقب كونت سنة ١٨١٦ ، وأصبح قائدا للحرس وحاكما عاما لمدينة بطرسبرج • وقد مات متأثرا بجراح أصابته في ثورة ١٤ كانون الاول (ديسمبر) •

(٣) ألكس آراكشيف (١٧٦٩ - ١٨٣٤) ، اثير بطرس الاول ، خلع عليه لقب بارون وكونت سنة ١٧٨٩ • جنرال كان لا يهتم الا بتمارين الاستعراضات العسكرية • وقد عين للحرب من ١٨٠٨ الى ١٨١٠ ، وهو منشيء المستعمرات العسكرية منذ سنة ١٨١٧ • رجعي محدود الفكر ، كان له تأثير سيء على الاسكندر الاول في النصف الثاني من عهد حكمه •

وخرج بعد أن صافح دولجوروكوف وييليين •

وفيما كان عائدا الى مقر القيادة العامة بصحبة كوتوزوف الذي كان صامتا لا ينطق بكلمة ، لم يملك الا أن يسأله رأييه في معركة الغد •
فألقي كوتوزوف على مرافقه نظرة قاسية ، ثم قال يجيبه بعد صمت:
— أعتقد أننا سنخسر المعركة ، وهذا ما قلته للكونت تولستوي
وطلبت منه أن يوصله الى الامبراطور • فهل تعلم بماذا أجابني ؟ قال لي:
عزيزي الجنرال ، أنا أهتم بالارز وشرائح اللحم ، فاهتم أنت بشئون
الحرب » • نعم ، ذلك هو الجواب ظفرت به !

الفصل الثاني عشر

في الساعة العاشرة من المساء ، وصل فايروتهر مع خطته الى مقر قيادة كوتوزوف، حيث دعى مجلس الحرب الى الاجتماع . لقد استدعي جميع قادة الجيوش الى مقر القائد العام ، فجاءوا كلهم في الساعة المحددة، الا الامير باجراتيون الذي رفض أن يأتي .

ان فايروتهر هو الموحى بفكرة شن الهجوم ، فكان بشدة حماسه وشدة اضطرابه نقيض كوتوزوف المستاء الممتعض الذي ألم به الملل والنعاس وترأس الاجتماع على مضض . كان واضحا أن فايروتهر يحس أنه على رأس حركة أصبحت لا تقاوم . فكان مثله كمثل حصان مقرون الى عربة، والعربة تهبط منحدرًا ، فلا يدري أهو الذي يجر العربة ، أم أنه مدفوع دفعا . انه يجري بسرعة شديدة ، لا يتسع وقته لان يفكر في النتائج التي يمكن أن تنجم عن هذه الحركة . لقد ذهب في ذلك المساء مرتين ينظر بنفسه الى طلائع العدو ، وكتب للامبراطورين ، امبراطور روسيا وامبراطور النمسا تقريرين يقدم لهما فيهما ايضا حات شتى ، وذهب كذلك الى مكتبه يملئ نص خطته باللغة الالمانية . فلما وصل الى مقر قيادة كوتوزوف كان قد أنهكه التعب .

وكان واضحا أنه بلغ من انشغال البال واضطراب الفكر أنه كان يغفل حتى عن الاحترام الذي يجب أن يعامل به القائد العام : فكان يقاطعه في الحديث ، وكان يتكلم مسرعا فلا يكاد يفصح أو يبين ، وكان لا ينظر الى من يحدثه وكان لا يجيب عن الاسئلة التي تلقى عليه •

وكان ملطخا بالوحل ، وكان منهوك الهيئة ، مشعث الوجه ، زائف النظرة ، طائش اللب ، ولكنه كان في الوقت نفسه زاخرا بالغرور والكبرياء والصلف •

ان كوتوزوف يقيم في قصر صغير بضواحي أوسترالتس فقي الصالون الكبير الذي يتخذة الآن مكتبا له ، يجتمع كوتوزوف نفسه ، وفايروتھر وأعضاء مجلس الحرب • انهم يحسون الشاي ، ولا ينتظرون الا أن يصل الامير باجراتيون حتى يفتتحوا الجلسة • ولكن أحد الضباط المرافقين للامير باجراتيون وصل في الساعة الثامنة يقول ان الامير لا يستطيع أن يجيء • فمضى الامير آندره الى القائد العام يبلغه ذلك ، واستفاد من الاذن الذي سبق لكوتوزوف أن اذن له به ، فبقي في الغرفة •

قال فايروتھر وهو ينهض مسرعا ويمضي الى المائدة التي كانت قد بسطت عليها خريطة كبيرة تصور ضواحي برون :

— نستطيع أن نبدأ ما دام الامير باجراتيون لن يجيء •

وكان كوتوزوف ، برقبته الشخينة الخارجة خروج التحرر من بزته التي حلت أززارها ، وكان جالسا على كرسي من طراز فولتير متكئا

على مسنديه اتكاء متناظرا بيديه ، يدي الشيخ السمينين، كان كوتوزوف قد ألم به وسن فهو غاف ، فلما سمع صوت فايروتھر ، فتح عينه الوحيدة بغير قليل من الجهد . وقال :

— نعم نعم ، أرجوكم ، لقد تأخرنا ...

وحرك يده بإشارة ، ثم عاد يخفض رأسه ويغمض عينيه . ولئن ظن أعضاء المجلس في البداية أن كوتوزوف كان يتظاهر بالنوم تظاهرا ، فإن الشخير الذي صدر من أنفه أثناء قراءة النص بعد ذلك ، قد برهنت لهم أن القائد العام كان في تلك اللحظة يبرهن على شيء أخطر شأنا من الرغبة في اظهار احتقاره للخطة ، أو احتقاره لأي شيء آخر ، ألا وهو النوم . لقد كان نائما بالفعل . فألقى عليه فايروتھر نظرة سريعة ، وحرك يده بإشارة خاصة معناها أنه أكثر انشغالا من أن يضع من وقته لحظة واحدة ، ولما تحقق أن القائد العام نائم ، استل ورقة ، وأخذ يقرأ نص خطة المعركة التي كان عنوانها هو العنوان التالي الذي قرأه أيضا :

« خطة هجوم على مواقع العدو من خلف كوبلنتس وسوكولنتس ،

في العشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٠٥ » •

كان النص معقدا كل التعقيد ، غامضا أشد الغموض . واليكم النص الاصيلي الذي كتب بالالمانية :

« لما كان العدو يعتمد في جناحه الايسر على رواب فيها غابات ، ويمتد بجناحه الايمن على طول كوبلنتس وسوكولنتس وراء المستنقعات

التي توجد فيهما ، على حين أننا نضفو نحن كثيرا على جناحه الايمن بجناحنا الايسر ، فمن الخير أن نهاجم هذا الجناح من جناحي العدو ، ولا سيما اذا احتلنا قريتي سو كولنتس وكوبلنتس^(١) ، فهذا يتيح لنا أن نقع على جنب العدو ، وأن نظارده في السهل بين شلاياتس وغابة توراسا ، مع تحاشينا فجاج جبال شلاياتس وبللوفتش التي تغطي جبهة العدو . ومن أجل تحقيق هذا الهدف، يجب . . . يسير الرتل الاول . . . يسير الرتل الثاني . . . يسير الرتل الثالث . . . الخ . . . الخ .

كان يبدو على الجنرالات أنهم يسمعون هذه الجمل الملتوية غير مرتاحين اليها ، فهم يصغون على مضمض . وكان يبدو على بوكسهوفدن، وهو جنرال طويل أشقر ، واقف تجاه الجدار ، شاخص ببصره الى شمعة مشتعلة أنه لا يصغي بل وأنه لا يريد أن يظن أحد أنه يصغي . وأمام فايروتهر كان ميلورادوفتش ، المزهرة البشرية ، العالي الشاربين ، المرتفع المنكبين ، يحدق الى فايروتهر بعينه الساطعتين المحمقتين . كان صامتا في عناد ، يتفرس في فايروتهر ، ولم يحول عنه بصره الا حين أنهى رئيس الاركان العامة النمسوي قراءة نصه ، فألقى ميلورادوفتش عندئذ على الجنرالات الآخرين نظرة تفيض وقارا ، ولكن معنى هذه النظرة التي تفيض وقارا يجعل صعبا على المرء أن يعرف أهو راض عن هذا النص

(١) كوبلنتس وسوكولنتس وشلابانتس وبللوفتش . . . هذه كلها قرى تقع جنوب برنو ، باسمائها التشيكية . والفرنسيين ينطقون اسمها كوبلينس ، سوكولنيس ، سلابانيس ، بيلوفيس .

أم هو مستاء منه • وكان الكونت لانجروف أقرب جار الى فايروتهر ، وهو رجل له ابتسامة رقيقة لا تفارق وجهه الفرنسي الجنوبي ، لم يكف خلال قراءة النص عن تأمل اصابعه النحيلة التي كان يقلب بينها علبة للتبغ ذهبية مزدانة بصورة شخص • وفيما كان فايروتهر يقرأ جملة من أطول جمل النص ، توقف الكونت لا نجرون عن تقليب علبة التبغ بين أصابعه ، ورفع رأسه ، وظهر في طرفي شفثيه الرقيقتين تعبير عن تأدب مصطنع مزعج ، وقاطع فايروتهر ، وأراد أن يقول شيئا ولكن الجنرال النمسوي لم يقف قراءته ، بل قطب حاجبيه في غضب ، وحرك كوعيه حركة من يريد أن يقول : « ستعرض لي رأيك بعد قليل ، بعد قليل ، أما الآن فتابع النظر في الخريطة والاصغاء الى نص الخطبة » • فرفع لانجرون عينيه معبرا عن الارتباك والحيرة ، واتجه بهما الى ميلورادوفتش كأنه يريد أن يسأله ايضاحات ، لكنه حين وقع بصره على تلك النظرة الوقور التي لا تعبر عن شيء ، خفض عينيه حزينا ، وعاد الى تقليب علبة التبغ بين أصابعه وقال كمن يحدث نفسه ، ولكن بصوت مسموع ، قال بالفرنسية :

— درس في الجغرافيا !

وكان برزوليزفسكي قد جعل يديه وراء أذنيه متجها بهما الى فايروتهر ليزيد احكام اصغائه الى النص ، وكان وجهه يعبر عن احترام ولكنه يعبر كذلك عن وقار ورصانة ، وكانت هيئته كلها هيئة رجل مستغرق في الانصات الى ما يسمع • وأمام فايروتهر تماما كان

دوختوتروف القصير مائلا على الخريطة الممدودة يدرس الخطة والارض التي لا يعرفها دراسة فيها كثير من الجهد والاجتهاد . حتى لقد طلب من فايروتھر عدة مرات أن يعيد قراءة فقرات من النص لم يسمعها سماعا واضحا ، وأن يعيد قراءة اسماء بعض القرى التي يصعب النطق بها . فكان فايروتھر يلبي طلبه ، وكان دوختوتروف يسجل بعض الملاحظات . فلما انتهت قراءة النص التي دامت أكثر من ساعة ، توقف لانجرون عن قلب علبه التبغ بين أصابعه من جديد ، وأخذ يتكلم بدون أن ينظر الى فايروتھر ، وبدون أن ينظر الى أحد بذاته ، فتحدث عن صعوبة تنفيذ مثل هذه الخطة التي تفترض معرفة وضع العدو ، على حين أن من الممكن أن نكون جاهلين بوضع العدو هذا ، لان العدو يتحرك وليس ساكنا . ولقد كان اعتراض لانجرون يقوم على أساس وطيء ، ولكن كان واضحا أن هدفه الرئيسي هو أن يجعل فايروتھر الذي قرأ خطته واثقا بنفسه تلك الثقة كلها كأنه يخاطب تلاميذ ، هو أن يجعله يشعر أنه لا يتجه بكلامه الى أناس بلهاء بل الى أناس قادرين على أن يبروه في الفن العسكري . وحين صمت صوت فايروتھر الرتيب،فتح كوتوزوف عينيه وقد أيقظه توقف رحي طاحونة ذلك الصوت عن ضجيجها الذي يبعث على الناس ويؤدي الى الغفو . وأصاخ بسمعه الى ما كان يقوله لانجرون ، ثم عاد يغمض عينيه ويخفض رأسه مزيدا من الخفض كأنه يريد أن يقول : « أما تزالون تتكلمون في هذه الحماقات نفسها ؟ » .

وجهد لانجرون أن يجرح شعور فايروتھر أقصى جرح من حيث هو

مؤلف في الشؤون العسكرية ، فأخذ يبرهن على أن بونابرت يستطيع بسهولة أن يبادر الى الهجوم فلا يدع لعدوه أن يهاجمه ، فاذا بهذه الخطة كلها تغدو عقيمة لا فائدة منها • فكان فايروتهر يرد على جميع الانتقادات بابتسامة فيها ثقة بالنفس وازدراء للآخرين ، وكان واضحا أنه قد تهيأ سلفا للرد على كل اعتراض أيا كان هذا الاعتراض • قال :

— لو كان يستطيع أن يهاجمنا لهاجمنا اليوم •

فأجاب لانجرون يقول :

— أظنه اذن عاجزا عن مهاجمتنا ؟

فرد عليه فايروتهر يقول بابتسامة هي ابتسامة طيب تريد امرأة عامية من اللواتي يداوين الامراض بالاعشاب أن تدله على وصفة :

— لا يكاد يبلغ عدد جنده أربعين ألفا^(١) •

قال لانجرون وهو يبتسم ابتسامة سخرية ناعمة ، ملتصقا بنظرته التأييد مرة أخرى من جاره وهو ميلورادوفتش :

— اذا صح هذا فهو بانتظاره هجومنا يعرض نفسه للدمار •

ولكن يبدو أن ميلورادوفتش كان يفكر في موضوع المناقشة التي تجري بين الجنرالات أقل مما كان يفكر فيها في أي وقت مضى ، فقال :

(١) الواقع ان نابليون حشد ثلاثة وسبعين الف مقاتل ، وكان جنده عدوه يبلغ عددهم خمسة وثمانين الفا •

— والله ، سنرى ذلك كله غدا في ساحة المعركة •

فابتسم فايروتهر مرة أخرى تلك الابتسامة التي تعني أنه يبدو له أن من الامور المضحكة والعجيبة أن يلقي « هو » اعتراضات من جنرالات روس ، وأن يكون عليه أن يبرهن على أشياء ليس وحده موقنا بها كل اليقين ، وانما هو أقنع بها الاباطرة أيضا • قال :

— ان العدو أطفأ نيرانه ، وان جلبة تسمع في معسكره • فما معنى هذا ؟ اما أنه ينسحب ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي علينا أن نخشاه ، واما أنه يغير موقعه •

قال فايروتهر ذلك وهو يبتسم ، ثم واصل كلامه فقال :

— ولكنه حتى لو احتل موقع توراس ، لا يزيد على أن يجنبنا متاعب كثيرة ، ثم تبقى جميع الخطط الموضوعة ثابتة لا تتغير حتى في أيسر تفاصيلها •

وكان الامير آندره يترب منذ مدة طويلة أن تتاح له فرصة التعبير عن شكوكه ومخاوفه ، فقال يسأل :

— كيف هذا ؟

وفي تلك اللحظة استيقظ كوتوزوف ، وتنحنح منظفا صوته ، وأجال بصره على الجنرالات ، وقال :

— ياسادة ، ان خطة الغد ، أو قولوا خطة اليوم (فقد تجاوزنا

منتصف الليل) لا يمكن تغييره • لقد سمعتم نصها يقرأ عليكم ، وسنقوم جميعا بواجبنا • ولكن لا شيء قبل المعركة أهم من ... وتمهل هنا قليلا ، ثم أتم جملته فقال :

— لا شيء قبل المعركة أهم من النوم •

وهم أن ينهض • فحياء الجنرالات وخرجوا ، وكانت الساعة قد شارفت على الواحدة • وخرج الامير آندره •

ان مجلس الحرب الذي لم يستطع الامير آندره أن ييسط له رأيه كما كان يأمل ، قد خلف في نفسه أثرا هو مزيج من تشوش واضطراب وقلق • من هو المحق المصيب : أ دولجوروكوف وفايروتھر اللذان يناديان بالهجوم ، أم كوتوزوف ولانجرون وغيرهما ممن يشجبون هذا الرأي ؟ انه لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال • وأخذ يحدث نفسه متسائلا : « ولكن أما كان في وسع كوتوزوف أن يبلغ الامبراطور رأيه صريحا ؟ ألا يمكن أن تجري الامور بالفعل مجرى آخر ؟ هل يعقل أن تتعرض للهلاك حياة عشرات الالوف من البشر ، وحياتي أنا ، « حياتي أنا أيضا » مراعاة لآراء تقول بها حاشية ؟ » •

وعاد يقول لنفسه : « نعم ، من الجائز جدا أن أقتل غدا » • فاذا بفكرة الموت هذه تجعل سيلا دافقا من الذكريات يجتاح خياله على حين فجأة ، وهي ذكريات بعيدة حميمة • تذكر وداعه الاخير لاييه وزوجته • وتذكر الاوقات الاولى من توله بحبها • وتذكر حملها ، فاستيقظت في

قلبه شفقة عليها وعلى نفسه • ثم اذا هو يخرج ثائر الاعصاب فائر
الانفعال من البيت الذي كان يسكن فيه مع نرقتسكي ، وأخذ يسير
أمام البيت ذاهبا آيا •

كانت الليلة يلفّعها الضباب ، وكان شعاع من القمر يتسلل من خلال
الضباب تسلا مستسرا • قال الامير آندره يحدث نفسه : « نعم ، غدا ،
غدا • قد ينتهي أمري كله غدا ، فلا يبقى لهذه الذكريات كلها وجود ،
ولا يبقى لهذه الذكريات كلها أي معنى لي • ربما غدا ، بل غدا حتما
انتي أحس هذا منذ الآن • سيكون علي في الغد أن أظهر كل ما أنا عليه
قادر • » • وتصور المعركة والهزيمة ، وتصور تركز القتال على نقطة
واحدة ، وتخيل البلبلة التي ستصيب القادة ، فاذا لحظة الحظ التي
طالما انتظرها توافيه اذا « تولون » الذي طالما ارتقبه يعرض له • ها هوذا
يعرض آراءه على كوتوزوف وفايروتير والاباطرة عرضا جازما قاطعا
وواضحا جليا • فاذا هم جميعا يدهشون بصحتها وصوابها ، ولكن
لا يرضى أحد أن يأخذ على عاتقه أن يضعها موضع التنفيذ ، فيحصل
على اذن بأن لا يتدخل أحد فيما وضع من خطط ، فيفقد فرقته الى
النقطة الحرجة ، ويحقق النصر وحده • ويهتف صوت قائلا : « والموت
والعذاب ؟ » ، ولكن الامير آندره لا يجيب هذا الصوت ، ويواصل
النجاح متتاليا متتابعا • وينفرد بوضع خطة المعركة التالية • وهو لا
يحمل من الالقاب الا أنه ملحق بكوتوزوف • ولكنه هو الذي يفعل
كل شيء • ويتم النصر في المعركة التالية بفضل هو وحده • ويزاح

كوتوزوف عن القيادة • ويعين هو قائدا ••• هتف الصوت الآخر مرة أخرى يقول : لنفرض انك لم تخرج عشر مرات ، ولم تقتل ، ولم يخونوك ••• فماذا بعد ذلك ؟ ويجب الامير آندره نفسه بقوله : « ماذا بعد ذلك ؟ أعرف ما عسى يحدث بعد ذلك ، ولا أريد أن أعرفه ولا أستطيع أن أعرفه • ولكنني اذا أردت هذا ، اذا أردت المجد ، اذا أردت أن أكون ذائع الصيت ، وأن يجني الناس ، فليس ذنبي أن أريد ذلك ، وأن لا أريد الا ذلك ، وأن لا أحيا الا في سبيل هذا • نعم ، أن لا أحيا في سبيل أي شيء الا هذا • لن أقول هذه الحقيقة لاحد في يوم من الايام ، ولكن ما حيلتي اذا كنت لأحب شيئا غير المجد ، واعجاب الناس • الموت لا يفزعني ، الجراح لا تخيفني ، فقدان أسرتي لا أخشاه • لا شيء يدخل الجزع الى نفسي • ومهما يكن عدد من الاشخاص أعزاء في نفسي ، مهما يكن أبي وأختي وزوجتي أعزاء في نفسي ، وهم الذين أوثرهم على كل من عداهم ، وأحرص عليهم أكثر من حرصي على أي انسان آخر ، فأنني — ولو بدا ذلك رهيبا فظيعا منافيا للطبيعة — مستعد بلا تردد لان أضحي بهم الآن جميعا ، في سبيل لحظة من مجد وانتصار ، في سبيل الظفر بحب أناس لا أعرفهم ولن أعرفهم في يوم من الايام ••• في سبيل نيل حب هؤلاء الناس » • بذلك ختم الامير آندره مناجاته لنفسه وهو يصيح بسمعه الى ضجة أصوات في فناء مقر كوتوزوف • هي أصوات الخدم يحزمون الامتعة • وهذا صوت واحد منهم ، أغلب الظن أنه صوت الحوذي يناكد ويفيظ طباخ كوتوزوف ، وهو طباخ طاعن في السن يعرفه الامير

آندره ، هذا هو صوته ينادي الطباخ قائلا :

— تيته ، هيه ، تيته !

فيجيبه الطباخ سائلا :

— ماذا تريد !

فيقول له الرجل الممازح :

— ألا ذهبت تدرس القمح !

فأجابه الصوت الآخر وقد غشته ضحكات الجنود والخدم :

— شيطان يأخذك !

وقال الامير آندره لنفسه : « رغم كل شيء ، فاني لا أحب إلا أن

انتصر عليهم جميعا ، انني لا أحرص الا على هذا ، أحرص على تلك

القوة الغيبية السرية ، على ذلك المجد الذي أحس أنه يحلق فوقني في هذا

الخياب » ♦

الفصل الثالث عشر

في تلك الليلة ، كان روستوف يقوم بدورية استطلاع مع فصيلة جنوده في طليعة مفرزة باجراتيون . كان فرسانه مقسمين اثنين اثنين على صورة جبل ، فكان يطوف هو بهذا الجبل على حصانه ، مقاوما للناس الذي كان يجتاحه اجتياحا لا سبيل الى مقاومته . ووراءه على مساحة واسعة كانت نيران معسكر جيشنا تشتعل هنا وهناك ملفعة بالضباب فلا ترى الا غامضة . أما أمامه فلا شيء الا ظلمات فوق ظلمات . فكان روستوف لا يستطيع أن يرى شيئا مهما يبذل من جهد في سبيل أن يخترق ببصره هذا الفضاء المظلم الذي يملؤه الضباب : وكان يخيل اليه أنه يلمح أشكالا رمادية تارة ، سوداء تارة أخرى . وربما تصور في بعض اللحظات أن لالاء نيران يتراقص في المكان الذي لا بد أن العدو مرابط فيه، ثم لا يلبث في لحظات أخرى أن يحس أن هذا البصيص هو في عينيه وليس في أي مكان . لقد كانت عيناه تغمضان ، فاذا هو يرى بخیاله الامبراطور تارة ، ودينيسوف تارة أخرى ، وذكریات موسكو تارة.ثالثة . ويسرع يفتح عينيه ، فيرى كل ما هو قريب أمامه : رأس حصانه وأذنيه ، وربما رأى في بعض الاحيان قامات فرسان اذا هو صار منهم على مسافة ستة أقدام ، أما أمامه فلا شيء الا تلك الظلمات التي

يملؤها الضباب • وكان يحدث نفسه قائلا : « من يدري ! انه لمن الجائز جدا أن يلقاني الامبراطور فاذا هو يكلفني بمهمة من المهمات كأي ضابط من الضباط ، فيقول لي : اذهب الى هناك لترى ما يحدث ! وكثيرا ما رووا عنه كيف كان يتعرف ضابطا من الضباط مصادفة ، فاذا هو يلحقه بشخصه • آه ••• ليت هذا يحدث لي ! لاسهرن عليه اذن سهرا متصلا ، لاحافظن عليه محافظة لا تهن دقيقة واحدة ، ولاقولن له الحقيقة كلها ، ولازيحن له القناع عن وجوه أولئك الذين يغشونه ويخدعونه ! » •ومن أجل أن يرى روستوف حبه للامبراطور واخلاصه له في صورة أملا بالحياة ، كان يتخيل عدوا أو ألمانيا خائنا لا يهب روستوف الى قتله مبتهجا فحسب ، وانما يتلذذ كذلك بصفعه أمام الامبراطور • وفيما كان روستوف مسترسلا في هذه الاحلام، اذا بصرخة بعيدة توقظه ، فينتفض ، ويفتح عينيه • قال يسأل نفسه :

« أين أنا ؟ آ ••• نعم ••• في الطليعة • ان كلمة التعارف هي : تيمون ، أولموتس • يحزنني أن كتيبتنا ستكون غدا في الاحتياط • لسوف أطلب أن أشارك في القتال غدا • لعل هذه فرصتي الوحيدة لرؤية الامبراطور • ليست ساعة تبديل الدورية بعيدة • سأجول جولة أخرى • حتى اذا انتهت مدة دوريتي ذهبت أتقدم الى الجنرال بهذا الطلب • » • ونصب جذعه على السرج ، ووخز حصانه ليقوم بأخر جولة على فرسانه • وأحس أن الظلام أصبح أقل حلكة • فعلى الشمال رأى منحدرنا لينا مضاء ، وفي الجهة الاخرى رأى أكمة سوداء تبدو

قائمة كأنها سور • ورأى على الاكمة بقعة بيضاء لم يستطع روستوف أن يدرك أهى فسحة في الغابة يضيئها نور القمر أم هي بقايا ثلج أم هي منازل بيضاء • حتى لقد تصور أنه يرى شيئا يتحرك على هذه البقعة البيضاء • فقال يحدث نفسه : « لا بد أن هذه البقعة ثلج ، بقعة ، يالها للبقعة ! » •

« ناتاشا ، أختي ، عيناها السوداءوان ، نا •• تاشا ! (هل يصيها الدهش حين أقول لها اني رأيت الامبراطور !) • فاتاشا ••• اليك السيف والحزام ••• » •

قال صوت فارس مر روستوف أمامه غافيا : « سر يمنة يا صاحب السعادة • ههنا أدغال • فرفع روستوف رأسه الذي كان قد بلغ في انخفاضه عرف الحصان ، ووقف بقرب الفارس • ان نوما كنوم الاطفال كان يجتاحه اجتياحا لا يثالب • وجعل يقول لنفسه : « هم ••• في أي شيء كنت أفكر ؟ يجب أن لا أنس ما كنت أفكر فيه • أهو ما يجب أن أقوله للامبراطور ؟ لا ، ليس هو هذا • هذا موعده الغد • آ ••• نعم نعم ••• حزام السيف ••• امش على حزام السيف ••• اجعلهم يشون على حزام السيف ••• امش ! من ؟ الفرسان • الفرسان والشوارب • الفارس ذو الشاربين الذي كان يقطع شارع تفير • حتى انني كنت قد فكرت فيه • تماما أمام منزل جوريف ••• جوريف الشيخ ••• ايه ! ياله من فتى شجاع باسل ، دينيسوف ! ولكن هذا كله حماقات ! الامر الاساسي الآن هو أن الامبراطور هنا • يا للنظرة التي رمقني بها ، ولقد

أراد أن يقول لي شيئاً ، لكنه لم يجزؤ • ولكن هذه أيضاً حماقات • ان ما يجب هو أن لا أنسى أنني كنت أفكر في أمر هام ، نعم • ناتاشا ، نحن نسير ، ن • • • سير ، نعم ، نعم ، نعم • هذا حسن • » •

وعاد رأسه يهوى على غارب الحصان • ولكنه لم يلبث أن بدا له فجأة أن رصاصاً يُطلق عليه • « كيف ؟ كيف ؟ ماذا حدث ؟ كذلك قال وقد ثاب الى نفسه ، وارتد اليه وعيه • وفي اللحظة التي كان يفتح فيها عينيه سمع أمامه صيحات طويلة تطلقها آلاف الحناجر آتية من جهة العدو • ونصب حصانه وحصان جاره الفارس آذانهما • وفي الجهة التي كانت ترد منها هذه الصيحات اشتعل نور صغير لحظة ، ثم اشتعل نور آخر ، ثم سطعت نيران على طول خط القطعات الفرنسية في الاكمة ، وأخذت الصيحات تكبر وتتسع • وتعرف روستوف أنهم يتكلمون الفرنسية ، لكنه لم يستطع تمييز شيء من كلامهم • فقد كانت الاصوات التي تدندن في آن واحد أكثر عدداً من أن يتقدر المرء على فهم شيء منها • غير أن الكلام فرنسي ، ليس في ذلك ريب •

اتجه روستوف الى النارس الذي كان على مقربة منه يسأله :

— ما معنى هذا ؟ انه آت من جهة العدو ، أليس كذلك ؟

فلم يجب الفارس بشيء •

فعاد روستوف يسأله بعد انتظار طويل :

— ماذا ؟ أنت لا تسمع ؟

فأجاب الفارس على مضض يقول :

— اين لي أن أعرف يا صاحب السعادة !

وعاد روستوف يقول مرة أخرى :

— الاتجاه يدل على أن الرصاص آت من جهة العدو •

قال الفارس :

— قد يكون هو العدو ، وقد لا يكون هو العدو • نحن في الليل •

وصرخ يؤنب حصانه الذي كان يتواثب تحته :

— هلاًّ ركنت !

وكان حصان روستوف نافذ الصبر أيضا ، يضرب بحافره الارض المتجلدة ، ويوجه أذنه الى الجلبة الصاخبة ، وينظر بعينه صوب الاضواء الملتمة • وكانت الصيحات ما تنفك تقوى وتنصر في هدير هتاف واحد لا يمكن أن يصدره الا جيش مؤلف من عدة آلاف من الرجال • وتكاثرت النيران ، على طول خط المعسكر الفرنسي في أغلب الظن •

ذهب النعاس عن روستوف • ان الصيحات الفرحة الظافرة في جيش العدو تكهر به • وأصبح يسمع الآن بوضوح هذا الهتاف بالفرنسية : عاش الامبراطور ، عاش الامبراطور !

قال للفارس :

— لا بد أنهم قريبون ، على الضفة الاخرى من جدول الماء ، أليس كذلك ؟

فاقتصر الفارس على أن تنهد دون أن يجيب بشيء ، وسعل غاضبا بعض الغضب • وهذا خبب حصان يقرقع على طول خط الطلائع ، ثم اذا بقامة ضخمة كأنها قامة فيل ، وهي قامة ضابط صف من سلاح الفرسان تنبجس من الضباب الدامس •

قال ضابط الصف وهو يوجه حصانه نحو روستوف :

— صاحب السعادة ، ها هم أولاء الجنرالات !

خفف روستوف — دون أن يكف عن الالتفات نحو الاضواء والصيحات — خف الى لقاء طائفة من الخيالة كانت تتقدم على طول خط الطلائع • كان أحدهم يركب حصانا أبيض • انه الامير باجراتيون ، يصحبه الامير دولجوروكوف ومرافقوه ، قد جاء يرصد هذه الظاهرة الغريبة ، ظاهرة الصيحات والاضواء والهتافات في جيش العدو • دنا روستوف من باجراتيون ، يروي له ما سمع وما رأى ، ثم انضم الى المرافقين ، مصغيا الى ما كان يقوله الجنرالات •

قال الامير دولجوروكوف للامير باجراتيون :

— صدقني • ما هذا الا حيلة لقد انسحب ، وأمر جند المؤخرة بأن يشعلوا النيران ، وأن يحدثوا صخباً ليضللونا ويخدعونا •

قال باجراتيون :

— هذا بعيد عن الاحتمال • لقد رأيتهم هذا المساء على هذه الاكمة •
فلو أنهم رحلوا لكانوا جلوا عن الاكمة أيضا •

وأضاف باجراتيون يسأل روستوف :

— سيادة الضابط ، ألا يزال جنود الجنب على الاكمة ؟

— كانوا عليها في المساء ، أما الآن فلا أستطيع أن أؤكد ذلك ولا أن
أنفيه • فاذا أصدرت الي أمرك مضيت الى هناك مع فرساني نستطلع
لم يجب باجراتيون ، وانما توقف محاولا أن يميز وجه روستوف
في الضباب • ثم قال بعد صمت قصير :

— لم لا ؟ اذهب فانظر ماذا يحدث !

— أمرك مطاع •

ولكن روستوف حصانه ، ونادى فدتشكو وفارسين آخرين ،
وأمرهم بأن يتبعوه ، وجرى يقطع الراية خبا في اتجاه الصيحات التسي
ما تزال تدوي • كان يشعر بقلق وفرح في آن واحد من ذهابه وحده مع
ثلاثة جنود فرسان الى ذلك المكان الخطر المظلم المحاط بالسر ، الذي لم
يذهب اليه أحد قبله • وقد صاح به باجراتيون من أعلى أن لا يتجاوز
جدول الماء • ولكن روستوف أصم أذنيه عن سماع هذا الكلام ، وتابع
جريه دون توقف موعلا أبعد فأبعد ، وكان يخطيء بغير انقطاع ، فيحسب

بعض الادغال أشجارا ، ويظن بعض الجحور رجالا ، ولا ينفك ينتحل
 لخطائه أعدارا • وبعد أن هبط المنحدر خيبا ، أصبح لا يرى لا نيرانا
 ولا نيران العدو ، ولكنه أصبح يسمع صيحات الفرنسيين أقوى وأوضح •
 حتى اذا صار في قاع الوادي الصغير أبصر أمامه شيئا بدا له نهرا ، ولكنه
 حين بلغه عرف أنه ليس الا طريقا • فلما صار في هذا الطريق كبح حصانه
 متسائلا أيجب عليه أن يسير في هذا الطريق أم أن يقطعه صاعدا خلال
 الحقول السوداء التي يراها أمامه • ان السير في الطريق الذي يبرز في
 الضباب واضحا أقل تعريضا للخطر ، لان المرء يستطيع أن يميز فيه وجود
 ناس بسرعة أكبر • وصاح روستوف بفرسانه يقول : « اتبعوني » ،
 وقطع الطريق وحاول أن يصعد في الاكمة الى المكان الذي كان فيه
 بالامس رهط من الفرنسيين •

قال أحد الفرسان وراءه :

— هو ذا يا صاحب السعادة !

فما كاد روستوف يبصر بشيء أسود ينبثق من الضباب فجأة ، حتى
 سطعت شعلة ، وأزت طلقة رصاص ، وصنرت رصاصة في الضباب عالية
 كأن صوتها صوت شكاة أو أنين ، ثم انطلق الصوت • ولم تنطلق رصاصة
 ثانية ، ولكن شعلة قد انبجست • فأدار روستوف حصانه وعاد أدراجه
 خيبا سريعا ، وانطلقت أربع طلقات أخرى تفصل بينها فترات مختلفة
 ولكل منها صوت خاص ، فكانت الرصاصات تصفر في مكان مجهول
 من الضباب • ولجئ روستوف حصانه ، فرحا مثله بهذه الانفجارات ،

وأخذ يسير بالحصان خطوا لا عدوا • وقال في نفسه صوت جذلان :
« هيا ، هيا ، مزيدا ، مزيدا ! » • ولكن لم تنطلق رصاصات أخرى •

ولم يعد روستوف الى الجري بحصانه خبيا الا حين صار قريبا من
باجراتيون ، فلما وصل اليه توقف أمامه رافعا يده بالتحية الى حافة
عمرته •

كان دولجوروكوف ما يزال مصرا على رأيه ، وهو أن الفرنسيين ،
انسحبوا ولم يشعلوا النيران الا ليخدعونا • وفي اللحظة التي وصل
روستوف كان دولجوروكوف يقول مجيبا عن سؤال ألقى عليه :

— على أي شيء تدل طلقات الرصاص هذه ؟ لعلهم انسحبوا وتركوا
رهطا من الجنود •

قال باجراتيون :

— يجب أن لا نظن أنهم رحلوا جميعا يا أمير • فلننتظر الى صباح
الغد ، فنعرف في غد كل شيء •

قال روستوف منبئا ، وهو ينحني الى أمام ، رافعا يده بالتحية الى
حافة عمرته ، عاجزا عن كبح ابتسامة يسطع فيها الفرح الذي أيقظه فيه
أزيز الرصاص :

— ان على الاكمة رهطا من الجنود •

فقال باجراتيون :

— طيب طيب • شكرًا سيادة الضابط •

قال روستوف :

— هل لي أن أتقدم بطلب يا صاحب المعالي ؟

— ما الذي تريده ؟

— ان كتيبتنا ستكون غدا في الاحتياط • فاسمح أن أرجوك أن

تلحقني بالكتيبة الاولى •

— ما سمك ؟

— الكونت روستوف •

— ها ... حسن ! فابق معي ضابطا مرافقا •

قال دولجوروكوف :

— أنت ابن ايليا آندرتش ؟

ولكن روستوف لم يجب • وعاد يسأل :

— هل يمكنني أن آمل يا صاحب المعالي ؟

— سأصدر أوامري •

قال روستوف محدثا نفسه : « جائز جدا أن يبعثوني غدا برسالة

الى الامبراطور • الحمد لله ! » •

ان الصيحات والنيران في جيش العدو كان سببها حضورنا بوليون

الذي كان يطوف بالمخيمات على صهوة جواده، بينما كانت كلمة نابوليون تقرأ على قطعات الجيش • فكان الجنود اذا رأوه يوقدون مشاعل من قش ، ويهتفون صارخين : عاش الامبراطور ! ويركضون وراءه • وكانت كلمة نابوليون هي التالية :

« أيها الجنود ! ان الجيش الروسي مائل أمامنا من أجل أن يشار لهزيمة الجيش النمساوي في أولم • انها تلك الكتائب نفسها التي غلبتموها في هولابرون^(١)، والتي ظلمتم تطاردونها منذ ذلك الحين مطاردة مستمرة حتى وصلتكم الى هنا • ان المواقع التي نحتلها هائلة • فحين سيسيرون ليلتفوا حول جناحي اليمين ، سيعرضون لي جنبهم • فيا أيها الجنود ! لسوف أقود معارككم بنفسي • وسأبقى بعيدا عن النار اذا أتمت بيسالتكم المعهودة أدخلتم الفوضى والاضطراب الى صفوف العدو • أما اذا كان النصر لحظة مشكوكا فيها ، فلترون امبراطوركم يعرض نفسه لاولى طلقات رصاص العدو ، لان النصر لا يعرف التردد، ولا سيما في هذا اليوم الذي يتوقف عليه مجد سلاح المشاة الفرنسي، هذا المجد الذي يهيم مجد الامة الى أقصى حد •

(١) هي معركة شونجراين التي كان نابوليون ينسب الى نفسه فيها نصرا • وقد وقعت المعركة في ١٥ و ١٦ تشرين الثاني ، فصمدت مفرزة باجراتيون صمودا باسلا ضد قوات مورا واودينو، وانسحبت في مساء اليوم التالي دون أن تخلف وراءها الا اثني عشر مدفعا مخربا • وتعرف هذه المعركة أيضا باسم معركة هولابرون (شمال) فيينا •

« ألا لا يتعللن أحد بنقل الجرحى فيترك الصفوف ، ألا فلتكن نفس كل منكم ممثلة أعق الامتلاء بهذه الفكرة : ان علينا أن نهزم مأجوري انجلترا هؤلاء الذين يكرهون أمتنا كرها شديدا كل هذه الشدة • ان هذا الانتصار سينهي حملتنا ، فنستطيع أن نعود الى ثكناتنا الشتوية حيث ستنضم اليها الجيوش الجديدة التي تتشكل في فرنسا • وسوف يكون السلام الذي أحققه حينئذ جديرا بشعبي وبكم وبى •

• « نابوليون »

الفصل الرابع عشر

في الساعة الخامسة من الصباح، كان الظلام ما يزال حالكا • وكانت قوات الوسط والاحتياط والجنب الايمن من جند باجراتيون ما تزال ساكنة لم تتحرك • أما الجنب الايسر فقد كانت أرتال المشاة والخيالة والمدفعية فيه ، وكان عليها أن تهبط المرتفعات أول الهاطين لتهاجم الجنب الايمن من الفرنسيين فتدحرهم الى جبال بوهيميا وفقا للخطة، فقد أخذت تضطرب وتسعى وتترك مخيماتهما • وكان دخان نيران المعسكر التي يلقي فيها كل ما هو زائد لا فائدة منه ، كان هذا الدخان يلسع الاعين لسعا • وكان الجو باردا ودامس الظلمة • الضباط يشربون الشاي ويأكلون على عجل ، والجنود يقضمون بسكويتا ويضربون الارض بنعالهم استنفاء ، ويتجمعون أمام النيران يلقون فيها بقايا الخصاص والكراسي والموائد والعجلات والصحاف وسائر ما لا يستطيعون نقله • وكان أدلاء الرتل النمسيون يذهبون ويحيئون بين القطعات الروسية، فكان حضورهم يؤذن بالمسير • ومتى ظهر واحد من أولئك الضباط في مركز قيادة كولونيل قامت بلبلة في الفوج : فالجنود يبارحون النيران راكضين ، ويخفون غلايينهم في سيقان جزماتهم ، ويضعون أكياسهم على عربات النقل ، ويحملون بندقياتهم ، وينتظمون في صفوفهم ، والضباط

يعقدون أزرار بزاتهم ، ويتمنطقون بأسيافهم ، ويضعون خرجهم على ظهور خيولهم ، ويطوفون بالصفوف يصدرون أوامرهم صياحا ، وحمالو المؤن والجنود الخدم يسرجون الدواب ، ويحملون الامتعة ، ويحزمون العربات • والضباط المرافقون وقادة الكتائب أو الافواج يشبون الى ظهور أفراسهم ، ويرسمون اشارة الصليب على أنفسهم ، ويصدرون أواخر أوامرهم ، ويلقون تعليماتهم الى حمالى المؤن الذين سيقون في الاحتياط • ثم اذا بالآلاف الاقدام يُسمع سيرها يقرع الارض • لقد مشت الارتال دون أن تعرف الى أين هي ماضية ، ودون أن ترى — بسبب هؤلاء الذين يحيطون بها ، وبسبب الدخان والضباب الذي كان يتكاثف — لا الارض التي تغادرها ولا الارض التي راحت تسير فيها •

ان الجندي السائر يحيط به فوجه احاطة ، ويحديق به احداقا ، ويجري به كما تجري السفينة بالبحار • فمهما يوغل في سيره ، ومهما يكن الافق الذي يلجه غريبا وخطرا ، فان بصره يقع دائما على نفس القادة ، ونفس الرفاق ، ونفس الرقيب ايفان متريتش ، ونفس الكلب جوتشكا ، تماما كما يقع بصر البحار دائما على نفس الجسور ونفس الصواري ونفس الجبال أو الاسلاك • وقلما يحرص الجنود على أن يعرف خط الطول الذي تبحر عليه الباخرة التي تحملهم على ظهرها، ولكن متى حان يوم المعركة فانهم جميعا ، بغير استثناء ، يشعرون بنغمة قوية تدوي في قرارة نفوسهم ، نغمة هي نوع من نداء لا يدري الا الله من

أين يجيء، ولكنه نداء يوقظ ما كان نائما فيهم من حب الاطلاع ،
ويبلغهم أن شيئا حاسما خطيرا يوشك أن يحدث . فاذا هم يجهدون أن
يخترقوا أفقهم المحدود ، واذا هم يصغون ويلاحظون ويسألون وقد
تأججت نيران شراحتهم الى معرفة ما يجري حولهم .

وكان الضباب قد بلغ من الكثافة أن المرء لا يبصر شيئا على بعد
عشر خطوات ، رغم أن النهار قد طلع . فقد يحسب دغلا من أدغال
الشجيرات الصغيرة أشجارا ضخمة ، وقد يظن الارض المنبسطة هوة
عميقة أو منحدرًا وعرا . كان يمكن في كل مكان ومن جميع الجهات
أن يبدأ الاصطدام بالعدو الذي لا يثرى على مسافة عشر خطوات .
ولكن الارتال ظلت تسير زمنا طويلا خلال ذلك الضباب نفسه ، هابطة
تارة ، صاعدة تارة أخرى ، محاذية بساتين وأسيجة في ذلك البلد الجديد
المجهول ، دون أن تلقى العدو في أي مكان ، ولكنها ترى من جميع
الجهات ، في الامام تارة وفي الخلف تارة أخرى ، ترى أرتالنا الروسية
سائرة كلها في اتجاه واحد ، فكان كل جندي يشعر بلذة حين يلاحظ
أن اعدادا كبيرة كبيرة من جندنا ذاهبون الى حيث هو ذاهب ، أي
الى حيث لا يدري .

وكانت أصوات في الصفوف تقول :

— هه ! هؤلاء فتیان كورسك^(١) أيضا !

— نحن آلاف وآلاف يا أخ ! جموع رهيبية ! نظرت أمس مساء

(١) فوج المشاة من خط كورسك .

حين أشعلت النيران فكان عددا لا نهاية له • لكنها موسكو ، حقا !
 رغم أن أي واحد من قادة الارتال لم يقترب من الصفوف ولم يكلم
 الجنود (ذلك أن قادة الارتال ، كما رأينا في مجلس الحرب ، كانوا
 منقبضي النفس معتكري المزاج متعصين مستائين من هذا القتال الذي
 يشرع فيه الجيش مهاجما ، فكانوا لا يزيدون على تنفيذ الاوامر دون
 أن يهتموا بما عليه الجنود من حالة معنوية) فقد كان الجنود يسرون
 مرحين جذلي ، كما يحدث دائما حين يسرون الى القتال ، ولا سيما في
 الهجوم • ولكن ما ان انقضت على سيرهم ساعة في ذلك الضباب الكثيف
 نفسه ، حتى كان أكثر الجند قد توقفوا ، وحتى شاع في الصفوف
 احساس شاق أليم بالفوضى والبلبله والحيرة والاضطراب • انه ليصعب
 على المرء أن يعرف كيف يسرى هذا الاحساس وينتقل من فرد الى فرد،
 ولكن مما لا شك فيه هو أنه يسري قويا قوة خارقة لا يخامرها ريب،
 وينتشر انتشارا سريعا لا يحس المرء بسرعه ، ويذيع ذبوعا لا سبيل
 الى مقاومته ، كأنه الماء يجري في وهد أو يتساقط في هوة •
 ولو قد كان الجيش الروسي وحيدا بغير حلفاء ، فلربما مضى
 وقت طويل قبل أن يصبح هذا الاحساس بالفوضى والبلبله والاضطراب
 يقينا عاما في جميع النفوس • ولكن السبب في أن هذا الاحساس غزا
 جميع النفوس يقينا راسخا هو أن كل واحد كان يشعر بتلك اللذة
 الانسانية الخبيثة اذ يلتقي تبعة هذه الفوضى والبلبله والاضطراب على
 عاتق هؤلاء « الالمان العجيب أمرهم » ، هؤلاء الناس « الذين يأكلون
 النفاق » •

— لماذا هذا الوقوف ؟ هل الطريق مسدود ؟ أم هل وقعنا على
الفرنسيين ؟

— لا ، لسنا نسمعهم • والا لبدأوا اطلاق الرصاص •

— ما أشد ما استعجلونا لنسير جريا ، ثم هاهم أولئك يقفون في
وسط الحقول لغير سبب ، وما علة هذا كله الا هؤلاء الالمان المناحيس
المناحيس الذين يدخلون البلبلة والارتباك في كل شيء • يا لهم من حمقى
بلهاء !

— لو كان الامر بيدي لجعلتهم في المقدمة • لا شك أنهم مرتاحون
في المؤخرة كل الارتياح ، بينا نحن لا نجد لقمة نضعها في أفواهنا •
قال أحد الضباط :

— متى تنتهي من هذا ؟ يقولون ان سلاح الفرسان هو الذي يسد
الطريق •

وقال ضابط آخر :

— تعسا لهؤلاء الالمان المناحيس ! حتى بلدهم لا يعرفونها !

فصاح ضابط مرافق يسأل مقبلا :

— من أية فرقة أنتم ؟؟

— من الفرقة الثامنة عشرة •

— فماذا تفعلون هنا ؟ كان ينبغي لكم أن تكونوا في المقدمة منذ زمن طويل • أما الآن فقد تضطرون الى الانتظار حتى المساء •

قال الضابط :

— انظروا الى هذه الاوامر الغبية • انهم لا يعرفون هم أنفسهم ماذا يفعلون •
وابتعد •

ثم مر جنرال ، وصرخ غاضبا حائقا يقول شيئا بلغة ليست هي الروسية •

فقال جندي وهو يحاكي الجنرال ساخرا بينا كان الجنرال يبتعد •
— تافا — لافا ••• لا سبيل الى فهم ما يرطنون به • لو كنت صاحب الامر والنهي ، لامرت باعدام هؤلاء الاوغاد كلهم رميا بالرصاص !
— توجب الاوامر أن تكون قد اتخذنا مواقعنا في الساعة التاسعة ،
وها نحن أولاء لم نقطع حتى نصف الطريق • يا لها من أوامر !
كذلك كانت تردد أصوات شتى في جهات مختلفة •

وشيئا فشيئا كان يحل محل الحماسة والطاقة اللتين كانتا تتأججان في صدور القطعات حين سارت تبغي القتال ، غضب وحنق على الاوامر السخيفة وعلى الالمان •

وكان سبب البلبلة هو أن القيادة العليا قد ارتأت أثناء تقدم سلاح الفرسان النمساوي الذي كان يسير على الجنب الايسر ، أن وسطنا كان بعيدا مسرفا في البعد عن الجنب الايمن ، فتلقى سلاح الفرسان أمرا بالانتقال الى اليمين . فأخذ آلاف الفرسان يمرون أمام المشاة ، فكان على هؤلاء أن ينتظروا .

ونشب في المقدمة نزاع بين دليل نمساوي وجنرال روسي . كان الجنرال الروسي يصرخ مطالبا بوقف الفرسان . وكان النمساوي يؤكد له أن الخطأ في هذا ليس خطأه بل خطأ القيادة العليا . وبقيت القطعات أثناء ذلك الوقت في مكانها قد دب فيها الضجر ، وأخذت تفقد عنيمتها وشجاعتها . وبعد توقف طلل ساعة ، استأنفت القطعات سيرها ، وأخذت تهبط . وكان الضباب الذي أخذ ينقشع عن المرتفعات يزداد كثافة في الوهاد التي نزلت إليها .

وانطلقت في الامام وسط الضباط رصاصتان تبعتهما رصاصات كانت في البداية غير مطردة ، ثم ازدادت كثافتها . وبدأ قتال على شطآن جولدباخ^(١) .

كان الجنود لا يتوقعون أن يلقوا العدو على شطآن النهر تحت ، فاذا هم يصطدمون به فجأة على انتظار في الضباب ، دون أن يسمعوا من قادتهم كلمة تشجيع ، وخاصة دون أن يروا أمامهم ولا حولهم شيئا في

(١) نهر صغير يجتاز سهل أوسترلتس .

الضباب الكثيف • فكانوا يبادلون العدو طلقات من الرصاص برخاوة وبطء ، ويتقدمون ويتوقفون ، ولا يتلقون أي أمر من القادة أو الضباط المرافقين الذين كانوا يطوفون في الضباب هنا وهناك على أرض مجهولة باحثين عن وحداتهم • هكذا بدأت المعركة بالنسبة للأرتال الثلاثة التي نزلت من المرتفعات : الرتل الاول ، فالرتل الثاني ، فالرتل الثالث • أما الرتل الرابع الذي كان بجانبه كوتوزوف نفسه فقد كان على روابي براتسن •

وكان الضباب ما يزال كثيفا في الوهاد التي بدأ فيها القتال • أما على الروابي فقد صفا الجو قليلا ، ولكن المرء ما يزال عاجزا عن رؤية شيء مما يجري أمامه • أكانت جميع قوى العدو على مسافة عشرة فراسخ من ذلك المكان ، كما افترضنا ذلك ، أم كان ينتظرنا وراء خط الضباب هذا ؟ ذلك ما لم يستطع أن يعرفه أحد حتى الساعة التاسعة • أزفت الساعة التاسعة • ان بحرا من الضباب يمتد تحت • ولكن الجو صاف كل الصفاء قرب قرية شلابانتس على الراية التي كان يقف عليها نابليون محاطا بمارشالاته • كانت تعلوه سماء صافية زرقاء ، وكان قرص الشمس يتموج يتموج عوامة ضخمة بلون الارجوان على سطح هذا البحر الذي يشبه لونه لون اللبن • كان الجيش الفرنسي كله ونابليون نفسه مع هيئة أركان حربه ، مرابطين لا في الجهة الاخرى من الانهار والغدران في قريتي سوكولنتس وشلابانتس ، وهي الاماكن التي كنا نتوي أن نتخذ مواقعنا بعدها ونبدأ المعركة ، بل كانوا في هذه

الجهة نفسها ، وكانوا يبلغون من القرب من قطعاتنا أن نابليون كان يستطيع بالعين المجردة أن يفرق بين جندي من الفرسان وجندي من المشاة . كان نابليون واقفا أمام مارشالاته متقدما عليهم بضع خطوات، متمطيا صهوة جواد عربي ضامر أشهب ، مرتديا معطفه الازرق الذي كان يرتديه في حملة ايطاليا . انه صامت يتأمل الروابي التي تبدو منبجسة من بحر الضباب ، والتي تتقدم عليها القطعات الروسية ، ويصيح بسمعه الى ضجة اطلاق الرصاص في الوادي . ما من عضلة تتحرك في وجهه الذي كان لا يزال نحिला . وكانت عيناه المتألقان ثابتتين جامدتين على نقطة . لقد صدقت تنبؤاته . ان جزءا من القطعات الروسية كانت منذ ذلك الوقت قد نزلت الوادي متجهة صوب المستنقعات والبحيرات، بينما كان جزء آخر يتهيأ لمغادرة رواابي براتسن التي كان في نيته أن يهاجمها والتي كان يعدّها مفتاح الموقع . وكان يرى الارتال الروسية من خلال الضباب قد جعلت حرايبها في بنادقها وما انفكت تسير متعاقبة متلاحقة فتغيب رتلا بعد رتل في بحر الضباب المتجمع في قرارة الفج الذي يفصل رايبتين متجاورتين من رواابي قرية براتسن . ان المعلومات التي تلقاها أمس ، وضجات وقع الاقدام وقرقرة العربات التي لمحتها طلّاعه أثناء الليل ، والاضطراب الذي ظهر في حركات العدو ، ان هذه العلائم كلها قد أبانت له ابانة واضحة ان الحلفاء يظنونهم بعيدا كل البعد، وأن الارتال السائرة قرب براتسن هي وسط الجيش الروسي ، وأن هذا الوسط قد صار منذ الآن أوهن وأضعف من أن ينجح في مهاجمته . ومع ذلك لم يبادر الى الشروع في بدء القتال .

وكان ذلك اليوم عنده يوما جليلا • ان عيد تنويجه • وقد استطاع ان يصيب حظه من الراحة وافيا كاملا بنوم بضعة ساعات في الصباح • فهو الآن منتعش نشيط جذل ، بل كان في تلك الحالة النفسية السعيدة التي يبدو له فيها كل شيء ممكنا ويبدو له فيها أن كل شيء سيتكلل بالنجاح • • وقد ركب حصانه للذهاب الى أرض المعركة • انه الآن في جموده وثبات بصره على تلك التلال التي تبدو وراء الضباب ، يعبر وجهه الساكن الذي لا حرارة فيه عن سعادة هو بها جدير ولها مستحق ، سعادة مفعمة بالطمأنينة ، سعادة فيها من الثقة ما يراه المرء في عاشقين مولهين سعيدين •

وكان الجنرالات واقفين وراء لا يجسرون أن يذهلوه عن اتبائه وتيقظه • انه ينظر تارة الى روايي براتسن ، وينظر تارة أخرى الى الشمس التي تنبجس من الضباب •

حتى اذا خرجت الشمس من الضباب خروجاً تاماً ، وأغرقت البرية بضياؤها الذي يبهز الاعين (وكأنه كان لا ينتظر الا هذا لشن الحرب) نضاً ققازره عن يده يده الجميلة وحرك ققازره بإشارة لمارشالاته ، وأصدر أمره ببدء المعركة • فهرع المارشالات مع مرافقيهم يطوون الأرض طياً على صهوات الجياد في جميع الاتجاهات ، فما انقضت خمس دقائق حتى كانت القوات الرئيسية من الجيش الفرنسي تصعد بسرعة الى روايي براتسن التي كانت القطعات الروسية تجلو عنها أكثر فأكثر لتنزل الى الوادي شمالاً •

المفصل الخامس عشر

في الساعة الثامنة اتجه كوتوزوف على صهوة حصانه نحو براتسن ، حتى بلغ الرتل الرابع ، وهو رتل ميلورادوفتش الذي كان عليه أن يأخذ مكان رتل برزيسزفسكي ورتل لانجرون اللذين نزلا الوادي . وهناك حيا رجال الفوج بحركة من رأسه ، وأصدر أمره بالسير ، مشيرا بذلك الى أنه يتوي أن يتولى قيادة هذا الرتل بنفسه لقتال العدو . فلما بلغ قرية براتسن توقف . وكان الامير آندره ، من بين الاشخاص الكثر الذين تتألف منهم حاشية القائد العام ، يقف وراءه . كان يحس أنه مهتاج ، متوتر الاعصاب ، ولكنه في الوقت نفسه متحفظ هاديء ، كما يكون المرء عند دنو لحظة طالما تمنّاها . كان مقتنعا اقتناعا جازما بأن هذا اليوم هو له يوم تولون ، أو يوم جسر آر كول^(١) . صحيح أنه كان لا يعرف كيف سيتم الامر ، ولكنه كان لا يخافه فيه شك . ولقد كان يعرف الارض ووضع قطعاتنا كما لا يعرفهما أي رجل في الجيش كله ، لذلك نسي خطته الاستراتيجية الخاصة التي أصبح

(١) في سنة ١٧٩٦ انتزع نابوليون هذا الجسر من النمساويين سائرا في طليعة جنوده من حملة القنابل ، حاملا الراية بيده . أن الامير آندره يريد ان يقلده .

يستحيل تنفيذها طبعاً ، وتبنى خطة فايروتهر ، فهو يتصور الآن مفاجآت قد تحدث ويتخيل افتراضات جديدة ، هي أن من الممكن أن يحتاجوا بديهيته الحاضرة ونظرته السريعة وما يتصف به من القدرة على اتخاذ القرار الحازم .

وكانت تسمع على الشمال ، تحت ، أصوات اطلاق رصاص بين قطعات يغشاها الضباب فلا تراها الا عين . فكان الامير آندره يفترض أن المعركة ستركز في ذلك المكان ، وأن الاصطدام بعقبة من العقبات سيكون في ذلك المكان ، فكان يقول لنفسه : « الى هناك سأرسل مع لواء أو فرقة ، وهناك سأسير في طليعة جنودي حاملا الراية بيدي ، وأحطم كل ما يقف في وجهي » .

وكان لا يستطيع أن ينظر بغير اهتمام الى رايات الكتائب التي كانت تمر . فكان حين يراها لا ينفك يقول لنفسه : « لعل هذه الراية هي التي سأرفعها بيدي سائرا في طليعة جندي » .

لم يترك ضباب الليل على الروابي الا صقيعا كان يستحيل الى ندى ، أما في الوهاد فكان لا يزال يمتد بحرا بلون اللبن . كان لا يثرى شيء على الشمال في الوادي الذي نزلت اليه قطعاتنا والذي تترامى منه أصوات اطلاق الرصاص . وكانت الشمس فوق التلال زرقاء زرقاء غامقة صافية ، وكان قرص الشمس يثرى على اليمين كبيرا ضخما . وكان المرء يرى في بعيد أمامه ، على الشاطئ الآخر من بحر الضباب ، تلالا مكسوة بالغابات ، لا بد ان العدو كان يحتلها لأن المرء يلاحظ ملاحظة

غامضة ان فيها شيئا ليس مألوفا • وكان الحرس في اليمين يدخل منطقة الضباب وسط وقع حوافر الخيل ، وقرقة سير العربات ، والتماعات نصال الحراب ، وبعد القرية في الشمال ، كانت تتقدم كتل من الخيالة ، وتغيب في بحر الضباب ، وفي الامام وفي الخلف يسير جنود سلاح المشاة • وكان القائد العام واقفا عند مخرج القرية يستعرض القطعات مارة امامه • كان كوتوزوف يبدو في ذلك الصباح مكدودا مرهقا سريع الاهتياج • فلما توقف المشاة لعقبة من العقبات في أغلب الظن ، دون ان يصدر اليهم امر بالتوقف ، ثارت ثائرة كوتوزوف على الجنرال الذي كان يقودهم ، وصرخ يقول له :

— ماذا تنتظرون من أجل ان تنظموا ارتالككم ، وتلفوا حول المدينة؟ اسمع ايها السيد العزيز ، أقصد يا صاحب السعادة : أهكذا يسير الجند ممتدين على طول شارع اذا كانوا ماضين الى قتال العدو ؟ فأجاب الجنرال يقول :

— معذرة صاحب السعادة السامية ، لقد كنت أنوي أن أشكل جندي في نهاية القرية •

فضحك كوتوزوف ضحكة ساخرة وقال :

— حقا ؟ تريد ان تنشر جبهتك على مرأى العدو ؟ شيء جميل !

— ما يزال العدو بعيدا يا صاحب السعادة • ان نص الخطة يقول ••

فصرخ كوتوزوف ساخطا :

— نص الخطة ... من قال لك هذا ؟ ... افعل ما تؤمر به ، من فضلك ! ...

— أمرك سيدي •

تمتم نرفتسكي يقول للامير آندره بالفرنسية :

— مزاج الشيخ معتكر جدا يا عزيزي !

وهذا ضابط نمسوي يرتدي بزة بيضاء ، يندفع بحصانه نحو كوتوزوف ، ويسأله بلسان الامبراطور هل دخل الرتل الرابع •

فأشاح كوتوزوف عنه دون ان يجيبه ، ووقع بصره مصادفة على الامير آندره الذي كان بقربه • فلما رآه تلطف ما كانت تعبر عيناه عنه من سوء وشر ومرارة ، كأنه يدرك ان مرافقه لا شأن له بجميع هذه الحماقات التي ترتكب • وقال للامير آندره بولكونسكي دون ان يجيب الضابط النمسوي :

— اذهب فانظر هل تجاوز الرتل الثالث القرية ، وقل له ان يقف وان ينتظر اوامري •

فما كان الامير آندره ينصرف حتى استوقفه وأضاف يقول له :

— واسأله هل اتخذ الرماة اماكنهم •

وأردف يقول لنفسه وهو لا يزال مشيحاً عن الضابط النمسوي لا يجيبه :

— ما هذا الذي يفعلونه ! ما هذا الذي يفعلونه !

ومضى الامير آندره على حصانه عدوا ليقوم بالمهمة التي كلف بها .

حتى اذا تجاوز جميع الافواج التي كانت تواصل سيرها ، استوقف الفرقة الثالثة فلاحظ ان ارتالنا لا يتقدمها أي خط رماة فعلا . حتى لقد دهش قائد الفوج دهشا كبيرا من الامر الصادر اليه بشر خط من الرماة في طليعة الارتال . لقد كان على يقين مطلق من أن قطعات أخرى تتقدمه ، وان العدو ما تزال تفصله عنا عشرة فراسخ في اقل تقدير . والواقع أن المرء كان لا يرى امامه الا مساحة خالية مقفرة تهبط غارقة في الظلام الكثيف .

ورجع الامير آندره بعد ان نقل امر القائد العام باصلاح الخطأ فرأى كوتوزوف ما يزال في ذلك المكان نفسه ، متهاككا بجسمه الضخم على السرج من وهن الشيخوخة ، يتثائب تثاؤبا ثقيلا وقد أغمض عينيه . وكانت القطعات قد كفت عن التقدم ، فهي تنتظر وقد نضا الجنود أسلحتهم عن اكتافهم يستريحون من حملها .

قال كوتوزوف للامير آندره :

— طيب ، طيب .

ثم التفت الى الجنرال الذي كان يقول له ، وهو حامل بيده ساعة ، ان أوان استئناف السير قد آن ، لان جميع ارتال الجنب

الايسر قد انتهت من نزول الوادي ، وقال له وهو يتشاءب مكررا :
 - في الوقت متسع ، في الوقت متسع •

وفي تلك اللحظة سمعت من بعيد وراء كوتوزوف هتافات جيوش
 تصيح محيية ، وسمعت أصوات تقترب اقترابا سريعا على طول الارताल
 الروسية الممتدة السائرة • ان المرء يحس ان الشخص الذي يعلو
 الهتاف تحية له يجري سريعا جدا • فلما أخذ جنود الفوج الذي كان
 بقرب كوتوزوف يهتفون هم أيضا ، تنحى كوتوزوف قليلا ، والقى
 نظرة الى ما وراءه مصعرا وجهه • فرأى على طريق براتسن ما يمكن
 أن يعد سرية من الفرسان المبرقشين • وكان في طليعتهم اثنان يجري
 احدهما الى جانب الآخر عدوا سريعا • فأما الاول فهو يرتدي بزة
 سوداء ويضع على رأسه قبعة ذات ريشة بيضاء ، ويمتطي صهوة
 حصان هجين ، واما الثاني فهو يرتدي بزة بيضاء ويركب حصانا
 أسود • هؤلاء هم الامبراطوران وحاشيتهما • فأسرع كوتوزوف يصطنع
 مسلك ضابط عجوز في السلاح ، فصاح يهيب بالقطعات المرباطة :
 « تهيأ » ، ورفع سيفه محييا ، وأقبل على الامبراطور • لقد تغير
 وضعه كله فجأة ، وتغيرت حركاته كلها فجأة • انه الآن مأمور ليس عليه
 أن يفكر • وبتوقير مصطنع ضاق به الامبراطور الاسكندر ، انما
 تقدم كوتوزوف منه وحياء • ولكن شعور الانزعاج هذا الذي الم
 بالامبراطور كان أشبه ببقية ضباب في سماء صافية ، فلم يزد على ان
 مرء مرورا عابرا بهذا الوجه الشاب السعيد ، وجه الامبراطور • كان

في ذلك اليوم بعد الوعكة التي أصابته انحل قليلا مما كان في ساحة مناورات اولموتس ، حيث رآه روستوف اول مرة منذ ان خرج من روسيا . ولكن كان لا يزال يوجد ذلك المزيج الساحر نفسه من الابهة والجلال والركة والعذوبة في عينيه الجميلتين الشهابوين ، وكانت شفتاه الرقيقتان ما تزالان تملكان تلك القدرة على التعبير السريع التي ترين على كل ما له من هيئة الشباب الباشة السمحة البريئة .

كان في استعراض اولموتس افخم ابهة وأعظم جلالا ، أما هنا فهو أكثر جذلا وانسراحا ، وأمضى عزيمة واقوى نشاطا . كانت تلك الفراسخ الثلاثة التي قطعها على ظهر حصانه عدوا سريعا قد نضّرت بشرة وجهه . فلما توقف عن الجري تنفس تنفسا عميقا ، والتفت الى ضباط حاشيته يتفرس في وجوههم التي كانت لا تقل فتوة ونضارة عن وجهه . هم كزارتورسكي ونوفوسلتزيف والامير فولكونسكي^(١) وستروجانوف^(٢) وغيرهم . انهم جميعا يرتدون ثيابا ثرية ، وانهم جميعا جذلون مبتهجون ، يركبون خيولا رائعة غضة لم ينل منها التعب ، او نضح منها شيء من عرق في أكثر تقدير ، وقد وقفوا وراءهم يتحدثون

(١) بطرس ميخائيلوفتش فولكونسكي (١٧٧٦ - ١٨٥٢) ، جنرال ، ضابط مرافق منذ سنة ١٨٠١ ، رئيس اركان الحرب منذ ١٨١٥ ، وزير البلاط عام ١٨٢٦ .

(٢) الكونت بولس ستروجانوف (١٧٧٤ - ١٨١٧) صديق طفولة الاسكندر الاول ، عضو « لجنة الخلاص العام » ، معاون وزير الداخلية منذ سنة ١٨٠٣ .

ويتسمون • وكان الامبراطور فرانسوا ، وهو شاب طويل الوجه زاهي البشرة ، يقف في أقصى اليمين راكبا فحله الاسود ، ويجيل بصره على ما حوله وقد لاح في وجهه الهم • وهاهوذا ينادي احد الضباط من مرافقيه ويلقي عليه سؤالا • فقال الامير آندره لنفسه وهو يلاحظ صاحبه القديم مبتسما ابتسامة لم يستطع ان يكبحها حين تذكر اللقاء الذي تم بينهما : « لا بد انه يريد ان يعرف في اي ساعة مضوا » • وكانت حاشية الامبراطورين تتألف من ضباط مختارين من أفواج الحرس والجيش روسيين ونمساويين • وكان سائسون يجرون بالاعنة خيولا جميلة للتبديل أخذت • من الاسطبلات الامبراطورية وغطيت أسرجتها بسجادات مطرزة •

وكنسمة طرية من هواء الحقول هبت من النافذة على غرفة خائفة كذلك أشاعت هذه الفئة المتألقة من الشبيبة في أركان حرب كوتوزوف الذين كان المرح قد زایلهم ، اشاعت فيهم نسمة من عزيمة وطاقة وثقة بالنجاح خليفة بالشباب •

قال الامبراطور الاسكندر يسأل كوتوزوف وهو يلقي نظرة مهذبة على الامبراطور فرانسوا :

— لماذا لا تبدأون يا ميشيل لاريونوفتش فأجابه كوتوزوف وهو ينحني احتراماً :

— انني انتظر يا مولاي •

فقطب الامبراطور حاجيه قليلا ، ووضع راحتي يديه وراء صيواني
اذنيه ليدل بذلك على أنه لم يسمع •

فعاد كوتوزوف يقول :

— انتي انتظر يا مولاي • لما تتجمع الارتال كلها بعد يا مولاي •
(وقد لاحظ الامير آندره ان شفته العليا قد اختلجت اختلاجا غير
طبيعي حين كان ينطق بهذه الكلمات) •

ففهم الامبراطور ، ولكن كان واضحا هذا الجواب لم يحظ برضاه ،
فرفع كتفيه المقبيين ، ونظر الى نوفو سلتزيف الذي كان بجانبه ، كأنه
بهذه النظرة يشكو من كوتوزوف •

وقال الامبراطور وهو ينظر من جديد الى عيني الامبراطور فرنسوا
يسعوه الى سماع ما يقوله ان لم يكن الى المشاركة في الحديث :

— لسنا في « ساحة مارس » يا مشيل لاريونوفتش ، فلا نبدأ
الاستعراض الا حين تصل الافواج جميعها • ولكن الامبراطور فرانسوا
الذي كان لا يزال يجيل بصره على ما حوله لم يصنع الى كلام
الاسكندر •

وقال كوتوزوف بصوت قوي كأنه يخشى أن لا يسمع كلامه ،
وسرت في وجهه اختلاجة مرة أخرى :

— ذلك هو بعينه ما يحملني على أن لا أبدأ يا مولاي • انتي لا أبدأ
يا مولاي لاتنا لسنا في استعراض ولسنا في « ساحة مارس » • وقد

نطق كوتوزوف بهذه الكلمات واضحة جلية متميزة •

فسرعان ما تبادل جميع الضباط نظرات تدل على الاستياء والامتعاض واللوم • وكانت وجوههم كلها تعبر عن هذا المعنى • « مهما يكن شيئا ، فلا يجوز له ، لا يجوز له بحال من الاحوال أن يتكلم بهذا الاسلوب ! » • ونظر الامبراطور الى كوتوزوف مليا ، مثبتا نظراته على عينيه ، منتظرا أن يضيف كوتوزوف شيئا • ولكن كان يبدو على كوتوزوف ، وقد حنى رأسه احتراما ، أنه هو أيضا ينتظر أن يقول الامبراطور شيئا • ودام الصمت قرابة دقيقة •

وقال كوتوزوف أخيرا وهو يرفع رأسه ويعود الى لهجة جنرال محدود الفكر يطبع بغير مناقشة :

— على كل حال ، اذا كنت جلالتك تأمر ...

وهمز حصانه ، ونادى قائد الرتل ميلورادفتش ، ونقل اليه الامر بالهجوم •

فتحركت القطعات من جديد ، ومرت أمام الامبراطور كتيبتان من فوج نوفجورود ، وكتيبة من فوج آبشرون^(١) •

وحين مر فوج آبشرون ، فان ميلورادوفتش ، الزاهي لونه ،

(١) فوج مشاة شكله في القوقاز بطرس الاكبر اثناء حملته على فارس سنة ١٧٢٣ • وقد برز وجلى في الاستيلاء على برلين سنة ١٧٦٠ وفي ايطاليا عام ١٧٩٩ بقيادة سوفوروف •

المستغني عن ارتداء معطف ، المزدان باللاوسمة منشورة على بزته ، المعتمر بقبعة ذات ريشة ضخمة موضوعة فوق الاذن افتخارا ، اندفع بحصانه نحو الامبراطور بأقصى سرعة ، ثم وقف أمامه يحييه تحية عريضة زاخرة بمعنى الاجلال • فقال له الامبراطور :

— الرب في عونكم يا جنرال •

فأجاب ميلورادوفتش بلغة فرنسية ركيكة :

— والله ••• يا مولاي ••• سنفعل ما سيكون في امكاننا •••

فكان من شأن ركافة لغته الفرنسية أن أشاعت في ضباط حاشية الامبراطور ابتساما •

وأدار ميلورادوفتش لجام حصانه بحركة سريعة مباغتة حتى وقف وراء الامبراطور قريبا منه •

أما جنود فوج آبشرون فان وجود عاهلهم قد أثار همهم وأيقظ حماسهم ، فمروا أمام الامبراطورين وحاشيتهما بخطى عسكرية محكمة الوزن نشيطة الحركة •

وبلغ ميلورادوفتش من الاهتياج من سماع ضجة اطلاق الرصاص ، وانتظار بدء المعركة ، ورؤية شجعان آبشرون ، رفاقه في عهد سوفوروف ، الذين كانوا يسيرون بخطى عسكرية رائعة أمام الامبراطورين ، أنه نسي وجود امبراطوره ، فصرخ يقول بصوت قوي :

— أبنائي ، ما هذه أول قرية تحتلونها • ما أكثر ما أبلتكم بلاء حسنا
من قبل • ألا فلتجثوا مرة أخرى !

فصرخ الجنود يجيبونه :

— سنبدل قصارى جهدنا •

فلما سمع حصان الامبراطور هذه الصرخات التي لم تكن متوقعة
ترشح من مكانه قليلا • ان هذا الحصان الذي كان الامبراطور يركبه
في الاستعراضات التي تجري في روسيا ، ما يزال يحمل فارسه هنا في
ميدان معركة أوترلنس ، ويتحمل اللكزات التي يوقعها على جنبه
لقدمه اليسرى ذاهلا ، وينصب أذنيه حين يسمع أزيز الرصاص ، وذلك
كما كان يفعل في « ساحة مارس » تماما ، دون أن يفهم ما معنى طلقات
الرصاص هذه ، وما معنى مجاورة فحل الامبراطور فرانسوا له ، ودون
أن يفهم شيئا مما قد يقول راكبه أو قد يفكر فيه أو قد يحسه •

والتفت الامبراطور الى أحد خلائه مبتسما ، وهو يشير الى
شجعان آبشرون ، وقال له شيئا •

الفصل السادس عشر

سار كوتوزوف بحصانه خطوا يتبع حملة البنادق • حتى اذا قطع زهاء نصف فرسخ ، توقف بقرب منزل منعزل مهجور (لا بد أنه نزل قديم) عند تقاطع طريقين • وكان الطريقان هابطين ، وكانت القطعات تسير فيهما كليهما •

أخذ الضباب ينقشع ، حتى لقد أصبح يمكن المرء أن يرى قطعات العدو على التلال المقابلة منذ الآن •

وعلى الشمال ، تحت ، أصبح إطلاق الرصاص أوضح وأبين • فتوقف كوتوزوف يتحدث مع جنرال نمسوي • وكان الامير وراءهم قليلا ، فكان يلاحظهم ، والتفت الى ضابط مرافق يسأله أن يعيره منظاره المقرب •

قال له الضابط المرافق وهو لا يحدق الى بعيد بل ينظر الى سفح الراية نفسها :

— انظر ! انظر ! هؤلاء هم الفرنسيون •

وأخذ جنرالان وضباط مرافقون يتخاطفون المنظار المقرب • فسرعان

ما انقلبت سحتهم وارسم الرعب على قسماٲ وجوهم : انه العدو الذي كانوا يظنون أنه على مسافة فرسخين منا ، فاذا هو ينبجس أمامنا فجأة على غير توقع •

وأخذت أصوات تقول :

— أهو العدو ؟ ... مستحيل ! بلى ! انظر ! انه هو • ما معنى هذا؟

وبصر الامير آندره من غير منظار برتل من الفرنسيين على اليمين تحت ، مقبلا على فوج آبشرون ، لا يبعد عن مكان كوتوزوف أكثر من خمسمائة خطوة في أكثر تقدير • فقال الامير آندره لنفسه : « هي ذي اللحظة الحاسمة قد وافت • جاء دوري • » • وهمز حصانه وأسرع الى كوتوزوف • وصرخ يقول :

— يجب ايقاف فوج آبشرون يا صاحب السعادة !

ولكن كل شيء تغطى بالدخان في تلك اللحظة نفسها ، وأخذ اطلاق الرصاص يثز قريبا غير بعيد ، وعلى مسافة خطوتين من الامير آندره صاح صوت مرتاع مذعور يقول : « هلكنا يا شباب ! » • فكان هذا الصوت أشبه بأمر صادر عن قائد ، فما ان سُمع حتى أخذ الجميع يركضون هارين • واذا جموع خليطة ما تنفك تكبر ، تنكص على أعقابها مرتدة الى المكان الذي كانت القطعات فيها تمر أمام الامبراطورين قبل خمس دقائق • لم يكن ايقاف هذه الجموع وحده أمرا مستحيلا ، بل كان مستحيلا كذلك أن لا ينساق المرء معها وأن لا ينقاد لها وأن

لا يجري وراءها • ان بولكونسكي وحده حاول أن لا يبقى في الخلف ، وكان يلقي على ما حوله نظرات حائرة ، وكان يعجز عن فهم ما يحدث • وصرخ نرفتسكي حاقق الهيئة ، محمر اللون ، منقلب السحنة فلا يكاد يُعرف ، صرخ يقول لكوتوزوف انه اذا لم ينصرف حالا ، فسوف يؤسر حتما • وبقي كوتوزوف في مكانه ، وأخرج منديله من جيبه دون أن يجيب • كان يسيل على خده دم • وشق الامير آندره لنفسه طريقا اليه ، وسأله وهو يسيطر بكثير من المشقة على اختلاج فكاه الاسفل :

— هل جُرحت ؟

فأجابه كوتوزوف وهو يضغط بمنديله على خده الجريح ، ويشير الى الهارين :

— ليس الجرح هنا بل هناك !

وصاح في الوقت نفسه يقول :

— أوقفوهم !

لكنه سرعان ما اقتنع بعقم هذا الامر الذي يصدره ، فمهزح صانه ، ومضى الى اليمين •

فاذا بموجة جديدة من الهارين تحيط به وترده الى الوراء •

كان الهاربون يفرون كتلة تبلغ من الكثافة أن المرء اذا أحاطت به جموعهم يصعب عليه كثيرا أن يتخلص منهم أو أن ينسل من بينهم • وكان منهم من يصيح مؤنبا رفيقه : « أسرع ! ما بالك تبطيء هذا

البطء كله ! » وكان واحد آخر يطلق رصاص بندقيته في الهواء وهو هارب • حتى ان أحدهم أخذ يضرب حصان كوتوزوف •

فلما استطاع كوتوزوف وحاشيته التي نقص أكثر من نصفها أن يتصلصوا من الجموع الكثيفة الهاربة ، ساروا مستهدين أصوات مدافع كانت تقذف قنابلها على شمالهم قريبة منهم كل القرب • وحين تخلص الامير آندره من جموع الفارين ، وكان لا يريد أن يتخلف عن كوتوزوف ، رأى عند الوسط من انحدار الراية سرية مدفعية روسية ما تزال ترمي قذائفها ، ورأى الفرنسيين مسرعين اليها للانقضاض عليها • وكان جنود المشاة الذين يرابطون فوقها على الراية لا يتحركون من أماكنهم ، ولا يهبون الى أمام لنجدة سرية المدفعية ، ولا ينكصون على أعقابهم فينضمون الى جموع الفارين • واتجه الجنرال قائدهم نحو كوتوزوف • ولم يكن قد بقي من حاشية كوتوزوف الا أربعة رجال كانوا كلهم صفر الوجوه وكان ينظر بعضهم الى بعض صامتين •

قال كوتوزوف لاهثا يخاطب قائد الفوج وهو يشير الى الفارين :

— أوقفوا هؤلاء الاشقياء !

ولكن رصاصات تنهال في تلك اللحظة نفسها صافرة على الفوج وعلى حاشية كوتوزوف كسرب عصفير صغيرة ، كأنما لتعاقب كوتوزوف على كلماته •

كان الفرنسيون يهاجمون سرية المدفعية ، فلما بصروا بكوتوزوف أخذوا يرمون نحوه • فلما تساقط الرصاص هذا التساقط الغزير

وضع قائد الفوج يده على ساقه ، وهوى على الارض عدد من الجنود ، وأرخى حامل الراية رايته ، فترنحت الراية وسقطت مشتبكة ببنادق الجنود المجاورين • وبدون أن يصدر أي أمر ، أخذ الجنود يرمون من بنادقهم بعض الرصاص •

قال كوتوزوف بصوت أنين ولهجة يأس :

— أووه !

ودمدم يقول بصوت جعله الشعور بعجزه ، عجز الشيخوخة ، يختلج اختلاجاً ، دمدم يقول لبولكونسكي وهو يشير الى الكتيبة المبعثرة والعدو المقاتل :

— بولكونسكي ، ما هذا ؟

ولكن ما ان أنهى كوتوزوف جملة حتى شعر الامير الأندره بدموع العار والغضب تخنق حلقه خنقا ، فوثب عن حصانه الى الارض بحركة نشيطة سريعة ، وركض الى الراية ، وصاح يقول بصوت حاد كصوت طفل :

الى الامام يا شباب !

وقال لنفسه وهو يمسك عصا الراية ، ويسمع أزيز الرصاص متلذذاً ، وكان الرصاص مسدداً اليه من غير ريب : « ها قد أزفت اللحظة ! » • صرخ الامير آندره وهو يحمل الراية الثقيلة بيديه في كثير من المشقة :

— هورررا ! ...

واندفع الى الامام موقنا بأن الكتيبة كلها ستتبعه • وصدق ظنه • فانه لم يسر وحيدا الا بضع خطوات ، اذ تبعه جندي ، فجندي آخر ، وما ان تعالت صيحات « هورررا » حتى كانت الكتيبة كلها تركض الى الامام وتتجاوزوه • وهب ضابط الصف فتناول الراية التي كان ثقلها يرنح الامير آندره ، ولكن ضابط الصف لم يلبث أن قتل • فعاد الامير آندره يمسك الراية من جديد ، وظل يركض مع الكتيبة وهو يجر الراية من عصاها جرا • كان يرى أمامه رماة مدافعنا الذين كان بعضهم ما يزال يقاتل ، وكان بعضهم الآخر يترك مدافعه ويهرع الى لقاءه • وكان يرى كذلك المشاة الفرنسيين يستولون على خيول المدفعية ، ويدبرون المدافع • وأصبح لا يبعد هو وكتيبته عن سرية المدفعية الا عشرين خطوة • وكان يسمع صفير الرصاص فوقه متصلا لا ينقطع ، وكان يسمع أصوات جنود يئنون ثم يسقطون مجندين على يمينه وعلى شماله • ولكنه كان لا ينظر اليهم • وانما هو يتفحص ببصره ما كان يحدث أمامه عند سرية المدفعية، انه يميز الآن راميا أحمر لون الشعر قد ارتد معطفه الى جانب ، وراح يشد اليه مدك مدفع كان جندي فرنسي يشده اليه من طرفه الآخر • انه يرى الآن رؤية واضحة ما كان يعبر عنه وجها هذين الرجلين من الشرود والحق في آن واحد ، وكان جليا أنهما لا يعرفان ماذا يفعلان •

سأل الامير آندره نفسه وهو ينظر اليهما : « ماذا يفعلان ؟ لماذا

لا يهرب الرامي ما دام لا يملك سلاحا ؟ لماذا لا يطعنه الفرنسي بحربته ؟
يكفي أن يتذكر الفرنسي حربته حتى لا يتسع وقت الروسي
للهرب » •

وها هو ذا فرنسي آخر يهرع الى الخصمين المشتجرين مشرعا
حربته • ان مصير الرامي ذي الشعر الاحمر ، الذي كان لا يزال غير
مدرك ما ينتظره ، وكان شاهرا مدك المدفع الذي استطاع ان ينتزعه
من خصمه سيتقرر الآن • ولكن الامير آندره لم ير كيف انتهى
الامر • لقد بدا له أن أحد الجنود الذين يحيطون به قد هوى على
رأسه بضربة عصا قوية • لم يكن الالم شديدا جدا ، غير أن ما ضاق
الامير آندره خاصة هو ان هذا الالم قد صرف انتباهه عن المشهد
الذي كان يراه •

وسأل الامير آندره نفسه : « ماذا ؟ أأسقط ؟ أتصطك ساقاي ؟ » ،
وسقط منقلبا على ظهره • وفتح عينيه آملا أن يرى نهاية الصراع بين
الفرنسيين وبين رجال المدفعية ، راغبا في أن يعرف أقتل الرامي ذو الشعر
الاحمر أم ، وهل أخذت المدافع ام هي أنقذت ؟ ولكنه لم ير شيئا •
وأصبح لا يبصر الا سماء فوقه ، سماء محجبة ، ولكنها عالية علوا
كبيرا ، تتهادى فيها غيوم رمادية تهاديا بطيئا • قال الامير آندره يحدث
نفسه : « ما أروعه من صمت ! ما أبدها من سكينة ! وما اعظمه من
جلال ! ما أكبر الفرق بين ركضنا المسعور بين الصياح والقتال ، ما
أكبر الفرق بين الحق الغبي يستعر في رجلين يتنازعان مدك مدفع ... »

وبين تهادي هذه السحب تهاديا هادئا بطيئا في هذه السماء العميقة
 التي لا نهاية لها ؟ كيف لم ألاحظ ذلك حتى الآن ؟ ما أسعدني
 باكتشاف هذا الامر اخيرا ! نعم ، كل شيء باطل ، كل شيء كذب الا
 هذه السماء التي ليس لها حدود ... وربما كان هذا نفسه ضلالا
 ووهما . ربما لم يكن هناك شيء عدا الصمت ، عدا الراحة . الحمد
 لله ! ... » •

الفصل السابع عشر

في الجنب الايمن من جند باجراتيون لم يكن القتال في الساعة التاسعة قد بدأ بعد • لقد أبى باجراتيون ان يأخذ بآراء دولجوروكوف الذي كان يريد بدء القتال ، ورغب في أن لا يتحمل تبعة هذه الآراء ، فاقترح على دولجوروف أن يرسل أحدا لتلقي الاوامر من القائد العام • وكان باجراتيون يعلم أن المبعوث الذي سيوفده لا يمكن ان يرجع قبل حلول المساء (هذا اذا لم يقتل ، وذلك جائز جدا) وذلك لأن المسافة التي تفصل احد الجنين عن الآخر تبلغ عشرة فراسخ ، عدا أن العثور على القائد العام أمر صعب جدا •

أجال باجراتيون عينيه الكبيرتين اللتين غلبهما النعاس واللتين لا تعبران عن شيء على أفراد حاشيته فاذا بوجه روستوف الذي يشبه وجه طفل ، والذي أضناه الانفعال والامل رغم ارادته ، يلفت نظره أكثر من سائر ضباط الحاشية ، فيقع عليه اختياره مبعوثا الى القائد العام •

قال روستوف وقد رفع يده الى عمرته بالتحية :

— فاذا لقيت صاحب الجلالة قبل أن ألقى القائد العام يا صاحب

السعادة ؟

فانبرى دولجوروكوف يجيبه مسرعا دون ان يدع لباجراتيون وقتا
للإجابة :

— في امكانك أن تتلقى الاوامر من صاحب الجلالة •

كان روستوف ، بعد انفكاكه عن الحراسة ، قد استطاع أن ينام
بضع ساعات في الفجر ، فكان يشعر بفرح وجذل وجسارة وعزم ،
وكان يمتاز بتلك المرونة في الحركات ، وكان يحس تلك الثقة
بحسن حظه ، وكان في تلك الحالة النفسية التي تجعل المرء يرى كل
شيء سهلا فرحا ممكنا •

لقد تحققت في ذلك الصباح جميع رغباته • نشبت معركة شاملة
وهو يشارك فيها • وهو عدا ذلك ضابط يرافق أشجع الجنرالات
طرا • وأكثر من هذا أنه يوفد بمهمة الى كوتوزوف ، وربما الى
الامبراطور نفسه •

وكان الجو صحوا جميلا ، وكان الحصان الذي يركبه من جياد
الخيال • وكانت نفسه جذلى مبهجة ، وكان يشعر بأنه سعيد • فما
ان تلقى الامر حتى اندفع بحصانه يعدو عدوا سريعا وسار محاذيا
جند باجراتيون الذين لم يدخلوا المعركة بعد ، وما يزالون ساكنين
جامدين ، ثم وصل الى الارض التي يربط عليها فرسان أوفاروف^(١) ،

(١) الجنرال فيدور أوفاروف (١٧٧٣ - ١٨٢٤) ، قائد فوج من
« الفرسان - الحرس » ، قاد سلاح الفرسان الروسي في
أوسترلتس سنة ١٨٠٥ وفي بورودنير سنة ١٨١٢ •

فلاحظ هنالك حركة وعلائم تأهب لدخول المعركة والشروع في القتال .
حتى اذا تجاوز فرسان أوفاروف ، سمع سماعا واضحا ضجيج قنابل
المدفعية ينطلق في أمام ، ولاحظ ان القصف يشتد مزيدا من الاشتداد
لحظة بعد لحظة .

ليس الامر في هذا الصباح الطري كما كان من قبل ، أي انفجارين
او ثلاثة انفجارات تنطلق معا على غير نظام ولا اطراد ، ثم قذيفة أو
قذيفتان من مدفع في وقت من الاوقات . ان اطلاق الرصاص يهدر
الآن على طول المنحدرات أمام براتسن وتتخلله قذائف المدافع غزيرة غزارة
تجعل المرء لا يميز بين رصاص وقنابل ، وانما تنصهر الطلقات كلها في
هزيم واحد متصل غير منقطع .

وكان الادخنة الصغيرة التي ترافق طلقات الرصاص تتابع نازلة
الى تحت ، بينما الادخنة الضخمة التي تنطلق مع قذائف المدافع
تتموج وتمتد ويختلط بعضها ببعض .

ويتصور المرء من التمايع الحراب في وسط الدخان تحرك كتل
ضخمة من جنود المشاة ، وأشرطة ضيقة من المدفعية مع صناديقها
الخضراء .

أوقف روستوف حصانه لحظة على تلة صغيرة ليفهم ما يحدث .
ولكنه رغم كل ما بذل من جهد الانتباه لم يستطع أن يفهم شيئا ولا
يستبين شيئا : ان أناسا يمشون هناك في الدخان ، وان جموعا من

الجند تتحرك الى أمام والى وراء • ولكن من هم هؤلاء الجنود ؟ والى أين يذهبون ؟ وماذا ينتوون ؟ ذلك كله لم يستطع ان يفهم منه روستوف شيئا • ويجب أن نذكر أن هذا المشهد وهذا الضجيج لم يفقده شجاعته ولا أيقظا فيه شيئا من الخوف بل بثا في نفسه مزيدا من مضاء العزم وتدفق الطاقة وروح التصميم •

وكان يخاطب هذه الانفجارات في ذهنه قائلا لها : « هلمي ! ازدادي ! اشتدي ! » • ولكز حصانه ، واستأنف جريه خبيا ، فسرعان ما بلغ ذلك الجزء من الجبهة الذي كانت فيه القطعات تقتتل • وتساءل : « ترى ما الذي سيحدث هناك ؟ لا أدري • لكنني واثق بأن كل شيء سيجري مجرى حسنا وسينتهي نهاية طيبة » •

حتى اذا تجاوز وحدة من وحدات الجيش النمسوي ، وصل الى المواقع التي يحتلها الحرس • ولكن الحرس كانوا قد دخلوا المعركة • حدث نفسه يقول : « هذا أفضل • سأرى الامر من كذب » •

وأوشك أن يصاقب الخط الاول • فاذا ببضعة فرسان يظهرون له • انهم فرسان من حرسنا راجعون من الهجوم غير مصطفين • وحين مروا مروا على مقربة منه رأى بعين ذاهلة أن واحدا منهم كان مضرجا بالدم • فقال لنفسه : « لا يهمني هذا » • وقطع بضع مئات من الخطوات ، فاذا هو يرى على شماله كتلة ضخمة من الفرسان يسدون الافق على امتداد الحقل كله • انهم يرتدون بزات بيضاء لامعة ،

ويركبون أحصنة سوداء ، ويجرون في اتجاهه خفافا .

فأرخی روستوف العنان لحصانه من اجل ان يفسح لهم الطريق ، وكان يمكن ان يتحاشى لقاءهم لو انهم حافظوا على سرعتهم ، ولكنهم كانوا لا يفتأون يزيدونها ، حتى ان بعض الخيول اخذت تعدو قماسا . اصبح يسمع وقع حوافر الخيل وقرقة السلاح سمعا مايفك يزداد وضوحا ، وأصبح يرى قامات الرجال بل يرى وجوههم رؤية ما تنفك تزداد جلاء . انهم رجالنا من « الفرسان الحرس » يكرون على الفرسان الفرنسيين الذين كانوا سائرين اليهم .

ان الفرسان الحرس يتقدمون ، ولكنهم ما يزالون يشدون أعنة أفراسهم . وان روستوف ليرى الآن وجوههم . وها هو ذا يسمع احد الضباط يهتف أمرا « أسرعوا » ، ويعدو بحصانه الجواد أسرع العدو . وخشي روستوف ان يداس او أن يجرفه الكر فكان يجري شادا لجام حصانه ، ولكنه لم يستطع رغم كل شيء ان يتحاشاهم .

صعّر آخر « الفرسان الحرس » وجهه وقطب حاجبيه غضبا ، حين رأى امامه روستوف الذي كان لا بد ان يلتقي به . انه رجل عملاق مجدور الوجه . ولا شك انه كان سيقبله عن ظهر حصانه « بدوي » (ولقد كان روستوف يحس انه صغير جدا ضعيف جدا تجاه هؤلاء الرجال وهذه الخيول الضخمة) لولا ان كانت بديهة

روستوف سريعة ، فلطم بسوطه مطية المجدور على عينيها ، فاذا هي تشب متنجحة وقد أنامت أذنيها فنجا روستوف . ولكن « فارس الحرس » المجدور الوجه أسرع يلكز جنبها بمهمازيه لكزا قويا حتى لكأنه يفرس المهمازين فيهما غرسا ، فاذا هي تزيد عدوها سرعة، رافعة ذيلها مادة عنقها .

وما ان تجاوز « الفرسان الحرس » روستوف حتى سمعهم يصيحون هاتفين : « هورررا » ، فالتفت فاذا هو يرى صخوفهم الاولى تختلط بفرسان آخرين لهم كتنيات حمراء فلا بد انهم فرنسيون . ثم لم يستطع بعد ذلك ان يرى أي شيء آخر ، لان المدفع لم يلبث ان أخذ يقصف في مكان من الامكنة فاذا كل شيء يتلفع بالدخان .

وحين كان « الفرسان الحرس » الذين تجاوزوه يغيبون في الدخان تردد روستوف متسائلا هل يجب عليه ان ينضم اليهم أم يجب عليه أن يمضي الى حيث كان عليه ان يمضي . ان هذا الهجوم الرائع الذي قام به « الفرسان الحرس » هو الذي اثار اعجاب الفرنسيين أنفسهم .

وما أشد الشعور بالهول الذي هتَز روستوف هذا قويا حين عرف بعد ذلك ان هذه الكتلة من الرجال الشجعان الرائعين ، ان هؤلاء الشبان الاثرياء المتألقين الراكبين أفراسا يساوي ثمن الفرس منها ألوف الروبلات ، ان هؤلاء الضباط والمرشحين الذين مروا أمامه ،

لم يبق منهم على قيد الحياة الا ثمانية عشر فارسا رجعوا من هذا الهجوم سالمين •

قال روستوف لنفسه : « لماذا أحسدهم ؟ سيحين وقتي وسيجيء دوري ، وربما اتيح لي الآن أن أرى الامبراطور ! » •
وتابع طريقه •

حتى اذا أقبل على المشاة من الحرس ، لاحظ أن القذائف كانت تنهمر عليهم انهمار المطر ، لاحظ ذلك لا من سماع اصوات القذائف وهي تنثر ، بل من رؤية القلق على وجوه الجنود ، ورؤية اصطناع التجلد والجسارة على وجوه الضباط •

ومرّ وراء أحد الارتال ، فسمع صوتا يناديه باسمه :
— روستوف !

فأجاب يقول دون ان يتعرف مناديه بوريس :
— ماذا ؟

فقال بوريس وهو يتسم تلك الابتسامة السعيدة التي تضيء وجوه الشبان حين يشتركون في قتال اول مرة :

— هيه ! نحن في الخط الاول ! وقد مضى فوجنا يهاجم •
فتوقف روستوف ، وقال :

— حقا ؟ فماذا حدث ؟

فأجاب بوريس بحماسة وقد أصبح ثرثارا :

— دحرفاهم ! تخيل !

وأخذ بوريس يقص على روستوف كيف ان الحرس حين وصل الى موقعه ورأى قطعات أمامه ، ظنها قطعات نمسوية ، فلما رأى هذه القطعات تقذفه فجأة بوابل من القنابل ، أدرك انه في الخط الاول واضطر ان يشرع في القتال على حين غرة •

فلم يصنع روستوف الى نهاية كلام بوريس بل تركه وسار •
فسأله بوريس :

— الى أين ؟

فأجاب روستوف :

— الى صاحب الجلالة ، موفد بمهمة •

فقال بوريس وقد ظن ان روستوف يبحث عن « صاحب السمو »
لا « صاحب الجلالة » :

— هوذا •

وأشار له الى الدوق الاكبر^(١) ، على مسافة مائة خطوة من هناك •

كان الدوق الاكبر يضع على رأسه خوذة ويرتدي سترة «الفرسان

(١) قسطنطين بافلوفتش ، قائد الحرس ، اخو الاسكندر الاول •

الحرس » ، وكان رافعا كتفيه مقطباً حاجبيه ، صارخاً ينهر ضابطاً
نمسوياً ممتقع اللون يرتدي بزة بيضاء •

قال روستوف :

— ولكن هذا هو الدوق الأكبر ، وأنا انشد القائد العام أو
الامبراطور •

وهمز حصانه •

صاح بيرج الذي كان لا يقل تحمسا عن بوريس ، صاح وقد
هرع من جهة أخرى :

— كونت ، كونت ، كونت ! لقد جرحت يدي اليمنى ...

قال ذلك وهو يرى قبضة يده المدمّاة مضمدة بمنديل ،
وأردف :

— جرحت يدي اليمنى وبقيت في الصف أقاتل ، حاملاً سيفي
باليد اليسرى يا كونت • ان جميع افراد اسرتنا ، ان جميع آل بيرج،
كانوا شجعاناً •

وظل بيرج يتكلم ، ولكن روستوف لم يصنع اليه اكثر من ذلك ،
وعاد يسير •

فلما تخطى الحرس واجتاز مساحة خالية ، حاذى في سيره
جهة الاحتياط حتى لا يجد نفسه في الخط الاول كما حدث له

ذلك حين قيام « الفرسان الحرس » بهجومهم ، واضطر من أجل هذا أن يدور دورة طويلة متجنباً المكان الذي كان فيه إطلاق الرصاص وقصف المدافع على أشد حال من العنف . وأنه كذلك إذا هو يسمع على حين فجأة صوت إطلاق رصاص على مقربة منه ، في موضع لم يستطع لحظة أن يفترض وجود العدو فيه . فقال لنفسه : « ما معنى هذا ؟ أيكون العدو قد التف على قطعائنا ؟ مستحيل ! » واعتراه جزع على نفسه ، وراوده خوف على نتيجة المعركة . قال محدثاً نفسه : « مهما يكن الامر ، فليس يفيدني الآن أن أدور هذه الدورة . وإنما يجب أن أبحث عن القائد العام هنا . وإذا ضاع كل شيء ، فمن واجبي أن أموت مع سائر من يموتون » .

وقد أخذت نذر الشؤم التي أحسها فجأة تصدق مزيداً من الصدق كلما أوغل مزيداً من الايغال في المنطقة التي تحتلها طوائف جند ينتمون الى شتى الاسلحة وراء قرية براتسن .

كان روستوف يسأل الجنود الروس والنمساويين الذين يركضون جماهير مختلطة تسد عليه الطريق :

— ماذا حدث ؟ على من يطلقون النار ؟ من الذي يطلق ؟

فكان الفارون ، وهم لا يعرفون عمّا حدث أكثر مما يعرف هو ، يجيبونه بالروسية والالمانية والتشيكية .

— الشيطان وحده يعلم ! ذبح الناس جميعا ! ضاع كل

شيء !

وكان أحدهم يصرخ قائلاً :

— سحقاً للألمان •

وكان ثان يقول :

— لعنة الله على الخونة !

وكان ألماني يجمجم باللغة الألمانية :

— شيطان يأخذ هؤلاء الروس •

وكان عدد من الجرحى يسرون على الطريق • وكانت الشتائم والصرخات وأنات الشكوى تختلط كلها في جلبة واحدة عامة • وقد هدأ إطلاق الرصاص • وكما علم روستوف فيما بعد ، كان جنود روس ونمسيويون هم الذين اطلقوا الرصاص بعضهم على بعض •

قال روستوف محدثاً نفسه : « يا رب ! ما هذا ؟

وكيف يحدث هذا هنا ، حيث يمكن ان يراهم الامبراطور في كل لحظة ؟ ... ولكن لا ... فأغلب ان هؤلاء ليسوا الا نفرا من الاشقياء • سينقضي هذا كله • ليس هذا هو الامر • مستحيل • فلا تسرع • فلاتجاوزهم بسرعة ! » •

لم يكن من الممكن ان تخامر فكرة الهزيمة او الانكسار ذهن روستوف • ورغم انه رأى سرايا المدفعية الفرنسية وقطعات الجيش الفرنسي على روابي براتسن هذه نفسها التي صدر الامر اليه بأن يبحث عن القائد العام فيها ، فانه كان لا يستطيع ولا يريد ان يصدق ما رآته عيناه •

الفصل الثامن عشر

لقد أمر روستوف بأن يسعى الى كوتوزوف والى الامبراطور بقرب قرية براتسن . ولكنهما لم يكونا هناك ، بل لم يكن أي قائد هناك ، وانما هي جماهير متفرقة شتى من الجند تبعثرت جفوفها ودبت فيها الفوضى ، ولكز حصانه المكدود الذي أصبح عاجزا عن السير ليتجاوز هذه الجماهير الهاربة المبرقشة بأقصى سرعة ، ولكن كان كلما تقدم مزيدا من التقدم . وجد الفوضى أشد والفرار اكبر . وكانت الطريق الواسعة التي سار فيها مزدحمة بمركبات وعربات من جميع الانواع ، وجنود روس ونمساويين من جميع الاسلحة ، جرحى وسالمين . وكان ذلك كله يهدر ويغزر مع الهزيم المشنوم الحزين الذي ينطلق مع قذائف سرايا المدفعية الفرنسية المستقرة على روابي براتسن .

كان روستوف يسأل جميع الذين يستطيع ان يستوقفهم :

— أين الامبراطور ؟ أين كوتوزوف ؟

ولكنه لم يظفر بجواب من أحد .

وأخيرا أمسك بياقة احد الجنود واجبره على الاجابة اجبارا .

فقال الجندي وهو يضحك محاولا ان يخلص نفسه من
روستوف :

— ايه يا صديقي ! لقد ذهبوا جميعا الى هناك منذ مدة طويلة !
هربوا ! ...

فترك روستوف هذا الرجل الذي كان واضحا أنه سكران ، وأوقف
حصان جندي خادم أو سائس لا بد انه يعمل في خدمة كبير من الكبراء ،
وسأل راكب الحصان ، فأجابه هذا بأن الامبراطور قد أركب عربة
وسير به على هذه الطريق نفسها بأقصى سرعة ، وكان قد أصيب بجرح
بليغ .

قال روستوف :

— مستحيل . لا بد ان الذي تتكلم عنه شخص آخر غير
الامبراطور .

فقال الخادم وهو يتسم ابتسامة فيها مباهاة :

— رأيته بعيني . لكأني اذن لا أعرف الامبراطور . لقد رأيته
كثيرا جدا في بطرسبرج . وكان في المركبة شاحب اللون ... شحوبا
فظيحا . لا يتصور كيف كانوا يستحشون الافراس السوداء الاربعة .
ومررت العربة مقرقة قرقة شديدة . أظن انني قد آن لي أن أعرف
خيول الامبراطور ، وايليا ايفاتش . ان الحوذي ايليا لا يقود عربة
ليس فيها الامبراطور ابدا .

أرخی روستوف زمام الحصان وأراد أن يتابع سيره • فتقدم منه ضابط جريح كان يسير على قدميه وسأله :

— عمّن تبحث ؟ عن القائد العام ؟ قتل بقنبلة سقطت على صدره
بينما هو يتقدم فوجنا في الطليعة •

فقال ضابط آخر مصححا :

— لم يقتل بل جرح •

فسأل روستوف :

— من ؟ كوتوزوف ؟

— لا ، ليس كوتوزوف ، بل ذلك الآخر ... والامور كلها سواء
على كل حال ... قليلون هم الذين ما يزالون أحياء • اذهب الى
هناك ، نحو تلك القرية ، فالقادة كلهم مجتمعون فيها •

قال له الضابط ذلك وهو يشير بيده الى قرية جوستيرادك •
وانصرف •

فأخذ روستوف يسير بحصانه خطأ وهو لا يدري من الذي
يسعى اليه ولا لماذا يسعى اليه ، بعد ان جرح الامبراطور وهزمتنا في
المعركة • لقد أصبح يستحيل عليه أن لا يصدق هذا الآن •

مضى في الاتجاه الذي دلوه عليه ، فكان يرى امامه من بعيد
برجا وكنيسة • وسأل نفسه قائلا : « علام العجلة ؟ ما عياني أقول^(١) »

الآن للامبراطور أو لكوتوزوف ، هذا اذا كانا سليمين لم يصبهما سوء ولم يمسهما أذى ؟

وصاح جندي يقول له :

— سر في الطريق الاخرى يا صاحب السعادة • هذه الطريق
خطرة • هنا تقتل حتما •

فتدخل جندي آخر يقول :

— أوه ! ما هذا الذي تقوله • الى أين عسى يفضي به ذلك
الطريق ؟ من هنا المسافة أقصر !

وبعد لحظة من تفكير تعمد روستوف ان يسلك الطريق التي
وصفت له بأنها خطرة وقيل له أنه سيقتل فيها •

وقال محدثا نفسه : « لا تهمني الآن حياتي • اذا كان الامبراطور
قد جرح فما حرصى على نفسي ؟ » • وتوغل في المنطقة التي كان
فيها اكبر عدد من الضحايا بين هاربي براتسن • ان الفرنسيين لما
يحتلوا هذه المنطقة بعد ، وقد جلا عنها الروس الذين نجوا من الموت
والذين أصيبوا بجراح ، جلوا عنها منذ مدة طويلة • وكانت الارض
قد تناثرت عليها الجثث او الجرحى تناثر رزم القمح في حقل خصب ،
بنسبة عشرة أو خمسة عشر في كل أربانت^(١) • وكان الجرحى يجرون

(١) مساحة قدرها مائة قصبة مربعة اي نحو خمسة آلاف متر
مربع •

أنفسهم مجتمعين اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة . وكانت تسمع صرخاتهم وأثلاثهم الحادة التي بدا بعضها لروستوف تظاهرا مصنوعا . فأسرع يجري بحصانه خبيا حتى لا يرى هؤلاء الرجال الذين يتألمون ويتعذبون ، واعتراه خوف . انه لا يخشى على حياته ، وانما يخشى أن يفقد شجاعته التي هو في حاجة اليها والتي كان يعلم انها لا تصمد لنظر هؤلاء المساكين التعساء .

لقد كفّ الفرنسيون عن ذلك هذا الحقل التي تناثر عليه القتلى والجرحى ، لعلمهم بأن احدا لم يبق فيه على قيد الحياة ، واقتصروا على ان سدّدوا اليه مدفعا وقذفوه بعدد من القنابل . فكان الاحساس الذي ملأ جوانح روستوف من سماع هذا الازيز المشؤم الحزين ومنظر هؤلاء الموتى الذين يحيطون به ينصهر فيه شعورا واحدا هو الرعب والاشفاق على نفسه . تذكر آخر رسالة تلقاها من أمه .

فتساءل : « بماذا عساها تحس لو رأيتي هنا في هذه الساحة وقد سددت اليّ المدافع ؟ » .

حتى اذا وصل الى قرية جوستيرادك وجد قطعات روسية احسن نظاما ، وان تكن خليطة ، ترجع من ساحة المعركة . كانت القنابل الفرنسية لا تبلغ هذا المكان ، وكان هزيم انفجاراتها يبدو للسامع بعيدا . وكان جميع الناس هنا يرون رؤية واضحة ويقولون بصراحة ان المعركة قد خسرت . ولم يستطع أحد من بين الذين اتجه اليهم

روستوف بالسؤال ان يقول له أين الامبراطور ولا اين كوتوزوف • وكان بعضهم يقول له ان شائعة جرح الامبراطور صحيحة ، وكان بعض آخر يقول له بل انها كاذبة ، ويفسرون شائعة جرحه الكاذبة بأن الكونت تولستوي ، مارشال البلاط الاعظم كان بين اعضاء الحاشية التي صحبت الامبراطور الى ساحة المعركة ، وانه مرّ شاحب اللون أصفر الوجه مرتاعا مذعورا في مركبة الامبراطور • وقال أحد الضباط لروستوف انه رأى احد كبار القادة وراء القرية شمالا ، فاتجه روستوف قاصدا ذلك المكان رغم انه كان لا يأمل ان يجد أحدا ، ولكنه اتجه قاصدا ذلك المكان اراحة لضميره • فلما قطع نحو ثلاثة فراسخ وتجاوز أواخر القطعات الروسية ، رأى فارسين واقفين بقرب بستان تحده حفرة • فأحس روستوف — دون أن يعرف لهذا الاحساس سببا — انه يعرف منهما الضابط الذي تزين قبعته ريشة • واما الضابط الآخر ، وهو شخص لا يعرفه روستوف وكان يمتطي صهوة جواد رائع (وقد اعتقد روستوف انه سبق أن رآه) فها هو ذا يقترب من الحفرة ، فيهمز حصانه مرخيا له العنان فاذا الحصان يقفز الحفرة بغير عناء ولا يزيد على ان يثير بحافريه ترابا من حافتها الاولى • ثم لم يلبث الضابط ان استدار فجأة ، فقفز الحفرة مرة أخرى ، واتجه الى ذي الريشة باحترام يدعوه في أغلب الظن الى أن يفعل مثلما فعل • ولكن الضابط الذي أحس روستوف أنه يعرفه والذي أسر انتباهه أسرا رغم ارادته ، حرك يده بإشارة رفض ، فلم يلبث روستوف ان أدرك

من هذه الإشارة فورا ان الرجل هو امبراطوره المعبود الذي كان روستوف يبكي حظه العاثر السيء • وقال يحدث نفسه : « ولكن لا يمكن ان يكون هو الامبراطور وحيدا في وسط هذا الحقل الخالي المقفر •• » • وفي تلك اللحظة لفت الاسكندر رأسه ، فرأى روستوف الملامح التي كانت عزيزة في قلبه ، والتي نقشت نقشا عميقا في ذاكرته • كان الامبراطور شاحب الوجه ، خاسف الخدين ، غائر العينين • ولكن ذلك كله كان يضفي على وجهه مزيدا من الفتنة والركة • وقد أسعد روستوف ان يرى ان شائعة اصابة الامبراطور بجرح كانت شائعة كاذبة • وأسعده أن يراه • وكان يعلم أنه يستطيع بل يجب عليه أن يتقدم منه وأن ينقل اليه رسالة دولجوروكوف •

ولكنه كالعاشق الشاب الذي يرتجف وتخور عزمته ، فلا يجزؤ أن يقول ما يحلم به في الليل ، ويلقي على ما حوله نظرات مرتاعة بحشا عن معين يعينه ، والتماسا لوسيلة تؤخر الاعتراف او تسمح بالهروب حين توافي اللحظة المنشودة فيجد نفسه منفردا بالحيية ، كان روستوف ، وقد تحققت له أعلى أمنيته ، لا يعرف كيف يواجه الامبراطور ، وأخذ يتصور الف حجة تبرهن له على ان مواجهة الامبراطور امر محرج مخالف للادب مستحيل •

حدث نفسه يقول : « ماذا ؟ سأكون اذن كمن يسره انتهاز فرصة وجوده وحيدا مهدما محطما ! ان رؤية وجهه لا يعرفه في هذه اللحظة من الحزن الشديد قد تكون مقبلة لديه أليمة في نفسه • وماذا أقدر

أن أقول له اذا كانت النظرة اليه تستطيع وحدها ان تحطم قلبي وأن تبيّس فمي ؟ » . ما من حديث واحد من الاحاديث التي أنشأها في خياله ليخاطب به الامبراطور اذا أتيح له أن يخاطبه ، يوافي الآن ذاكرته . وكانت تلك الاحاديث يناسب اكثرها ظروفًا غير هذه الظروف ، ويصلح للحظات اقتصار وظفر ، وتصلح خاصة للحظة يكون هو فيها جريحًا يعاني سكرات الموت فيأتيه الامبراطور ليحمد له بطولته ويشكر له بلاءه الحسن في القتال ، فيعبر له روستوف ، وهو يموت ، عن حبه كله مؤيدا صدق كلامه بالافعال . ثم ... علام يسأل الامبراطور أوامر تتعلق بالجانب الايمن ، بينا الساعة الآن هي الرابعة بعد الظهر وقد خسرت المعركة وتمت الهزيمة ؟ لا ... يجب أن لا اتقدم اليه حتما ! يجب ان لا أعكر عليه تأمله ! لان اموت فذلك خير الف مرة من أن ينظر اليّ نظرة شزراء ، وان يرى في رأيا سيئا . » . ذلك كان قرار روستوف . وعادممّتي القلب حزنا ويأسا وكمدا ، وابتعد وهو ما ينفك يلتفت يلتفت صوب الامبراطور الذي لا يزال على وضعه ، ولا يزال على حاله من التردد والجمود .

وفيما كان روستوف يفكر هذا التفكير ، ويتعد حزينا أشدّ الحزن ، مر الكابتن فون تول^(١) هناك مصادفة ، فلما رأى الامبراطور

(١) كارل فون تول (١٧٧٧ - ١٨٤٢) ، من اسرة بلطيقية ، كان لا يزال سنة ١٨٠٥ برتبة كابتن ، برهن على أنه استراتيجي قدير ، ونال رتبة جنرال وعين رئيسا لهيئة الاركان العامة الروسية سنة ١٨١٢ ، ومنح لقب كونت سنة ١٨٢٩ بعد حملة تركيا .

وجّه حصانه اليه ، وعرض عليه خدماته ، وأعانه في اجتياز الحفرة سيرا على قدميه . وكان الامبراطور يريد ان يرتاح ، وكان يحس بأنه مريض ، فجلس في ظل شجرة تفاح ، وبقي تول بجانبه . فما كان أشد الحسد والاسف للذين شعر بهما روستوف حين رأى تول يكلم الامبراطور طويلا ، ويحدثه بحماسة وحرارة ، بينما كان الامبراطور الذي لا شك أنه كان يبكي ، يغطي عينيه باحدى يديه ويمسك يد تول باليد الاخرى .

قال روستوف لنفسه : « كان يمكنني أن أكون في مكانه ! » . ولم يستطع ان يحبس دموع الحنان على الامبراطور ، والحزن لمصيره الا في كثير من الغناء . وتابع سيره يائسا كل اليأس ، لا يدري الى أين يذهب ، ولا لماذا يذهب الى حين يذهب .

وكان كمدته وكربه ويأسه اشد واقوى لشعوره بأن سبب حزنه انما هو ضعفه .

كان يمكنه ... بل لم يمكنه فحسب ، وانما كان يجب عليه أيضا أن يتقدم من الامبراطور كانت تلك هي الفرصة الوحيدة التي تتاح له ، فيستطيع ان يعبر فيها للامبراطور عن ولائه واخلاصه وتفانيه . ثم هو لم يحسن الانتفاع بهذه الفرصة ... قال لنفسه : « ما هذا الذي فعلت ؟ » . ثم اذا هو يدير حصانه ، ويرجع مسرعا الى المكان الذي رأى فيه الامبراطور . ولكن الجهة الاخرى من الحفرة كانت قد خلت . وليس هناك الا عربات نقل وعربات ركوب تمر متزاحمة .

وعلم من أحد الرجال ان اركان حرب كوتوزوف ليست بعيدة ، فهي في القرية التي تتجه اليها القوافل • فانضم روستوف اليهم •

كان في طليعة القافلة سائس خيل كوتوزوف يقود أحصنة في أحسن حلة من الزينة • وكانت تسير بعده عربة نقل ، ويسير وراء عربة النقل خادم عجوز مقوس الساقين ، يضع على رأسه كسكيتة ويتدثر بفروة قصيرة •

قال السائس :

— تيت ! هيه ! تيت !

فأجابه الخادم العجوز ذاهلا :

— ماذا ؟

— امض فانظر الى البنات !

فأجاب العجوز وهو يبصق غضبا :

— أهبل !

وانقضى وقت في حركة صامتة ، ثم تجدد هذا المزاح نفسه •

وفي نحو الساعة الخامسة من المساء كانت المعركة قد خسرت في جميع النقاط ، وكان الفرنسيون قد استولوا على أكثر من مائة مدفع •

كان برزيسزفسكي قد ألقى السلاح • وكانت الارتال الاخرى التي مات زهاء نصف رجالها تنكفي جماعات متفرقة خليطة قد دبت فيها الفوضى •

وكانت بقايا جيوش لانجرون ودوختوروف التي اختلط بعضها ببعض تسرع الى السدود وشواطئ الغدران قرب قرية آوجست • حتى اذا كانت الساعة السادسة أخذ قصف المدافع الشديد لا يهدر الا قرب سده آوجست • كان الفرنسيون قد نصبوا عددا كبيرا من سرايا المدفعية على منحدرات رايبه براتسن ، فكانوا يضربون قطعاتنا المتراجعة •

وقد استطاع دوختوروف وآخرون أن يعيدوا جميع بعض الكتائب في المؤخرة ، وأخذوا يطلقون النار على الفرسان الفرنسيين الذين كانوا يطاردون جنودنا • وحلّ الليل •

على سده آوجست الضيق ، الذي كان الطحان العجوز الذي يضع على رأسه طاقيّة من قطن يصطاد السمك بالصنارة خلال عدد كبير من السنين هاديء البال مطمئن النفس بينا كان حفيده المشمور الاكمام يضع في المسقاة ما يكون الجد قد اصطاده من أسماك بلون الفضة مرتعصّة ، على ذلك السد الذي كان أناس من أهل مورافيا الذين يضعون على رؤوسهم طاقيات ذات ريش ، ويرتدون سترات زرقاء ، يملأون عليه مع عربات النقل التي يجز كلا منها حصانان ، والتي

تحمل قمحا ، ليعودوا بها بعد ذلك بيضاء من ذرات الطحين ، وليعودوا هم أنفسهم مرشوشين بالطحين رشا ، على ذلك السد الضيق انما يتزاحم الآن خلال عربات النقل وحاملات المدافع ، وتحت سنابك الخيل وبين العجلات ، انما يتزاحم رجال قد انقلبت سحنهم هلعا من الموت الذي كان يسحقهم بعضا وراء بعض ، وكانوا يموتون ، وكانوا يدوسون جثث الموتى ، وكان يسحق بعضهم بعضا ثم لا تكون الثمرة التي يجنونها الا أن يلقوا هذا الموت نفسه بعد بضع خطوات ••

وكلما انقضت ثوان عشر شقت الهواء قبلة اطلقها مدفع أو قذفتها يد ، فاذا هي تنفجر في وسط هذا الجمهور الكثيف ، فتقتل البعض ، أو تخرج بالدماء أولئك الذين يكونون قريبين من المكان الذي انفجرت فيه • وقد جرح دولوخوف في ذراعه ، وفي قدمه ، مع زهاء عشرة من كتيبته (لقد رد ضابطا) ، فكان هو وهؤلاء الرجال العشرة والجنرال الراكب حصانا كل من بقي من أفراد الفوج حيا • وقد جرفهم الجمهور فكانوا يتزاحمون عند مدخل السد ، وحوصروا من جميع الجهات ، واضطروا ان يتوقفوا لان حصانا كان قد سقط تحت مدفع فكان الرجال يخرجونه من تحت المدفع • وسقطت قذيفة فقتلت رجلا وراءهم ، ثم هوى رجل آخر فلطخ دولوخوف بالدم • وهرع الجمهور الى الامام يتكوم تكوما ثم يقف من جديد •

كان كل واحد يقول لنفسه : « هي مائة خطوة ثم أنجو • ولكن اذا بقيت هنا دقيقتين آخرين فقد هلكت لا محالة » •

واستطاع « دولوخوف الذي جرفه الجمهور وحصره ، استطاع بحركة عنيفة أن يبلغ ضفة السد ، فيقلب جنديين ويلقي بنفسه على الجليد الزلق الذي يغطي ماء الغدير .

وصاح يقول لسائقي مدفع من المدافع ، وهو يقفز على الجليد الذي قرع تحته :

— هاتوا المدفع الى هنا ! الجليد متين ! ...

كان الجليد يحمله ولكنه يعنو ويقرع ، وكان واضحا أنه سيتهم من ثقله هو ، فكيف لا يتهم من ثقل مدفع أو جمهور . فكان الناس ينظرون اليه ويتدافعون الى الضفة متراسين ، ولكنهم لا يجسرون أن ينزلوا الى الجليد بعد . وهذا هو الجنرال الذي كان واقفا بحصانه عند مدخل السد ، هذا هو يرفع يده ويفتح فمه يريد ان يقول له شيئا ، فاذا بقنبلة تنز فوق رؤوس الجمهور واطئة جدا ، فيخفض الرجال قاماتهم ، ويسمع صوت اصطدام رخو ، فاذا الجنرال وحصانه يسقطان في بركة من دم ، ولكن أحدا لا يوليه نظرة ، ولا يحاول ان يرفعه .

وبعد مرور القذيفة التي أصابت الجنرال ، صاحت أصوات كثيرة لا تعرف هي نفسها لماذا تصيح ، صاحت تقول :

— امضوا الى الجليد ! الى الجليد ! تعالوا ! ما بالكم لا تجيئون؟

أأتم صم لا تسمعون ؟

وكان مدفع يسير على السد ، فحرف اتجاهه سائرا نحو الغدير الذي كان الجنود الواقفون على السد يهرعون اليه جمهورا كبيرا انكسر الجليد تحت قدمي واحد من أوائل الهاربين فغاصت ساقه ، فأراد ان يخلصها ، فلم يفلح الا في ان يغوص هو نفسه حتى الخصر . فتمهل الجنود القريبون من الغدير ، وأوقف سائق المدفع حصانه ، ولكن الاصوات في الخلف كانت لا تزال تصيح : « الى الجليد ! لماذا الوقوف ؟ هلموا ! هلموا ! » • وانبعثت من الجمهور صرخات فزع شديد • وكان الجنود الذين يحدقون بالمدفع يضربون الخيل لتدور وتقفل راجعة • فغادرت الخيل الضفة • ثم اذا بالجليد الذي حمل عددا من المشاة حتى ذلك الحين ، يتحطم منه جزء كبير ، فيأخذ الرجال الاربعون الذين يسيرون عليه يسعون مسرعين ، فمنهم من يتقدم الى أمام ومنهم من يرجع الى خلف ، يريدون أن يتمسكوا ببعضهم ببعض ، فيفترقون جميعا •

وتستمر القنابل في صفيها وسقوطها على الجليد وفي الماء مطردة بغير انقطاع ، وكثيرا ما تسقط في وسط الجمهور الذي يغطي السد والغدير والشطآن جميعا •

الفصل التاسع عشر

على راية براتسن ، كان يرقد الامير آندره في ذلك الموضع نفسه الذي سقط فيه حاملا الراية ، وكان ينزف دمه ، وكان يطلق من صدره اصوات شكاة واهنة محزنة طفولية .

حتى اذا كان المساء كف عن الالين وصمت صمتا تاما . انه لا يدري كم دامت غيبوبته ، ولكنه أحس بأنه حي من جديد على حين فجأة ، وأحسن بالهم كاو يثقب رأسه ثقبا . وكانت أول فكرة خطرت بباله هي هذا التساؤل : « أين تلك السماء العالية التي كنت أجهلها حتى الآن ، ثم اكتشفتها اليوم ؟ . وهذا الالم ايضا كنت أجهله . نعم . كنت أجهل كل شيء حقا حتى الآن ، كل شيء ... ولكن أين أنا ؟ » .

وأصاخ فسمع ضجة خيول مقبلة ، وأصوات رجال يتكلمون بالفرنسية . ففتح عينيه . فرأى فوقه تلك السماء العالية . نفسها ما تزال تمتد فوقه ، ورأى فيها تلك السحب نفسها تتهادى متموجة ، ولكنها ارتفعت الآن مزيدا من الارتفاع ، ومن خلالها يرى المرء زرقة لازوردية لا نهاية لها . لم يلفت الامير آندره رأسه ولم ير أولئك الذين تدل ضجة سنابك الخيول وتدل اصوات الرجال على أنهم أقبلوا عليه وتوقفوا عنده .

ان هؤلاء الفرسان هم نابوليون واثنان من مرافقيه . كان نابوليون ، وهو يطوف بساحة المعركة يصدر أواخر أوامره لتعزيز

سرايا المدفعية التي كانت تطل بنيرانها على سد آوجست ، وينظر الى الجرحى والقتلى الذين ما يزالون راقدين على أرض القتال .
قال وهو يرى قتيلا روسيا من رماة القنابل اليدوية ، وكان وجهه مدفونا في التراب وكان رقبته مسودة ، وكان راقدا على بطنه وكانت احدى ذراعيه ممتدة امتدادا عريضا وقد تصلبت الآن ، قال :

— ما أجملهم رجالا !

وفي تلك اللحظة وصل ضابط مرافق من سرايا المدفعية التي كانت تقصف آوجست ، وقال :

— نفدت ذخيرة مدافع الموقع يا سيدي الامبراطور !

فأجابه نابوليون يقول :

— جيئوها بذخيرة الاحتياط .

وبعد أن سار بضع خطوات توقف عند الامير آندره ، الرائد على ظهره ، ورأى عصا الراية متروكة الى جانبه (كان الفرنسيون قد أخذوا الراية كما تؤخذ الغنائم) ، فقال وهو ينظر الى الامير آندره بولكونسكي .

— هذه ميتة جميلة !

أدرك الامير آندره أنه هو المقصود بهذا الكلام ، وان المتكلم هو نابوليون . كان قد سمع الضابط المرافق يخاطب قائل هذه الكلمات بقوله « سيدي الامبراطور » . ولكنه سمع هذه الجملة كما يسمع

دندنة ذبابة • ان هذه الجملة لا تهمة ولا تعنيه ، بل انه لم يولها أي "اتباه ، وسرعان ما نسيها • كان رأسه يحترق احتراقا • كان يحس ان دمه ينزف • وكان يرى فوقه السماء البعيدة العالية الابدية • انه يعلم ان الرجل هو بطله نابوليون ولكن نابوليون يبدو له في هذه اللحظة صغيرا كل الصغر ، حقيرا كل الحقارة ، بالقياس الى ما يحدث بين نفسه وبين هذه السماء العالية التي تطوف فيها سحب خفيفة متموجة • كان لا يهमे اطلاقا في هذه اللحظة ان يعلم من هذا الرجل الواقف عليه الناظر اليه المتكلم عنه ، وكان لا يهमे اطلاقا ان يعرف ما يقوله هذا الرجل • وانما كان يسره أن رجالا قد تلبثوا عنده وكانت رغبته الوحيدة هي ان يعيشوه وان يردوه الى الحياة التي تبدو له جميلة رائعة الجمال ، لأنه أصبح يفهمها الآن فهما مختلفا عن فهمه لها من قبل كل" الاختلاف • واستجمع قواه كلها ليقوم بحركة وليصدر صوتا ، فاستطاع ان يحرك احدى ساقيه تحريكا خفيفا ، وأخرج من صدره صوت شكاة ضعيفة اليمة اثارت شفقتة هو نفسه •

قال نابوليون :

— آه ... انه حي • ارفعوا هذا الفتى ولينقل الى مركز الاسعاف •

نطق نابوليون بهذا الكلام ومضى يستقبل المارشال لان الذي أقبل على الامبراطور مبتسما خافضا قبعتة ليهنئه بالنصر •

لم يعرف الامير آندره بعد ذلك شيئاً : ان الالم الرهيب الذي أحس به حين وضعوه على النعش وحين أخذ النعش يهتز اهتزازات شديدة أثناء نقله الى مركز الاسعاف ، وحين سبروا الجرح في مركز الاسعاف ، قد أفقده وعيه ، ثم لم يفق من اغمائه الا في آخر النهار حين نقل الى المستشفى مع عدد آخر من جرحى الضباط الروس . وقد شعر في طريقه الى المستشفى بأنه احسن حالا ، واستطاع ان ينظر الى ما حوله ، واستطاع حتى أن يتكلم .

وكانت الكلمات الاولى التي سمعها حين صحا من غيبوبته هي كلمات ضابط فرنسي كان يخفر القافلة ويقول متعجلاً :

— يجب التوقف هنا ، فسوف يمر الامبراطور ، وسوف يسره ويفرح قلبه أن يرى هؤلاء السادة أسرى .

فيجيبه ضابط آخر قائلاً :

— ما أكثر الذين تمّ اليوم أسرهم ! لكنّهم الجيش الروسي كله ! فلا بد ان الامبراطور شبع من رؤية الاسرى .

فأجاب الضابط الاول وهو يشير الى ضابط روسي يرتدي بزة بيضاء من بزات « الفرسان الحرس » :

— مع ذلك ! ان هذا يبدو أنه كان يقود كل حرس الامبراطور الاسكندر .

فنظر الامير آندره بولكونسكي فتعرف الامير رينين^(١) الذي كان قد قابله في مجتمع بطرسبرج . وكان الى جانبه جريح آخر من « الفرسان الحرس » وهو فتى في نحو التاسعة عشرة من العمر . فلما وصل بونايرت على صهوة جواده الذي كان يعدو قمصا ، توقف وقال يسأل حين رأى الاسرى :

— من أعلاهم رتبة ؟

فسمي له الكولونيل الامير رينين . فسأله نابوليون : — أنت قائد فوج « الفرسان الحرس » عند الامبراطور الاسكندر ؟

فأجابه رينين قائلا :

— بل أنا قائد كتيبة .

قال نابوليون :

— ان فوجكم قام بواجبه كاملا .

قال رينين :

— ان مديح قائد كبير لهو أجمل مكافأة ينالها جندي .

(١) الامير نيقولا جريجورييفتش فولكونسكي (١٧٧٨ - ١٨٤٥) ، هو ابن عم ام الكاتب ، ورث عن جده لأمه ، الفلدمارشال الامير رينين ، هذا الاسم الشهير لتلك الاسرة التي اندثرت ، فصار يعرف باسم رينين - فولكونسكي . كان قائد الكتيبة الرابعة من كتائب الفرسان الحرس في أوسترلتس . وقد جرح جرحا بالغا وأسر . وكان يقود الفرقة التاسعة من فرق الفرسان سنة ١٨١٢ ، وسمى نائب ملك ساكس سنة ١٨١٣ ، وكان أبو تولستوي مرافقه في ذلك الحين .

— انه ليسرني ان أمدحكم هذا المديح • من هذا الشاب بجانبك ؟

فسمّاه له ريّنين قائلاً انه اللبوتنان سوختيلن •
فنظر نابوليون الى الشاب مبتسماً وقال :
— جاء يحثك بنا وهو فتى يافع !
فقال سوختيلن بصوت متقطع :

— لأن يكون المرء فتى يافعا ، فهذا لا يمنع ان يكون شجاعا
باسلا •
قال نابوليون :

— رد بديع • أيها الفتى ، سيكون لك شأن !
وكان الامير آندره قد وضع في الصف الاول اكمالا للغنيمة من
الاسرى ، ليكون تحت بصر نابوليون ، فكان لا بد ان يلتفت اتبناه
نابوليون • لا شك ان نابوليون تذكر أنه سبق ان رآه في ساحة
المعركة ، وانه حين خاطبه قد ناداه باسم « الفتى » ، وان بولكونسكي
نقش في ذاكرة نابوليون بهذا الاسم • فها هو ذا يقول له سائلا :

— وأنت أيها الفتى ؟ كيف حالك الآن يا صاحبي الشجاع ؟
ولكن الامير آندره ، رغم أنه منذ خمس دقائق قال بضع كلمات
للجنود الذين كانوا ينقلونه ، لم ينطق الآن بحرف ، وصمت صمتا
كاملا وهو يحدّق الى نابوليون بنظرة ثابتة • ان الامور التي تهم
نابوليون وتشغل باله كانت تبدو له بالقياس الى هذه السماء الملأى

عدالة وخيرا ، هذه السماء التي رآها وفهمها ، كانت تبدو له تافهة كل التافهة ، وكان نابوليون نفسه يبدو له صغيرا كل الصغير ، هو وهذا الغرور المسكين الذي يملأ نفسه وهذا الفرح بالنصر الذي يغمر قلبه ، فلم يستطع الامير آندره ان يجيبه •

وكان كل شيء كذلك يبدو له تافها لا جدوى منه ، باطلا لا قيمة له ، بالقياس الى ما كان يتصف به مسير فكرة من زهد وعظمة ولئدهما نضوب قواه من فرط النزف والالام وانتظار موت قريب • كان الامير آندره وهو ينظر الى نابوليون يفكر في غرور العظمة ، وفي غرور الحياة التي لا يفهم أحد معناها ، وكذلك في غرور الموت الذي لا يستطيع أي حي أن ينفذ الى سره وان يفسّر دلالاته •

فلما لم يسمع الامبراطور جوابا اشاح وجهه ، وقال لأحد قادته وهو ينصرف :

— ليعتن بهؤلاء السادة ، ولينقلوا الى مخيّمي : ان طبيبي الدكتور لاري هو الذي سيتولى فحص جراحهم • الى اللقاء يا أمير رينين •

وهمز حصانه وتابع جريه قماصا •

كان وجهه يشع زهوا بنفسه وسعادة •

وحين رأى الجنود الذين كانوا ينقلون الامير آندره والذين انتزعوا من عنقه المدالية الذهبية التي كانت الاميرة ماريا قد وضعتها في عنق أخيه ،

حين رأوا اهتمام الامبراطور بالاسرى وبشاشته لهم وحسن احتفائه بهم ، أسرعوا يردون الى الامير آندره وسامه •

لم ير الامير آندره من ذلك الذي رده المداية الى عنقه ، ولا كيف ردها ، ولكن المداية وسلسلتها الذهبية عادت فجأة الى صدره فوق بزرته •

قال لنفسه وهو ينظر الى هذه المداية التي علقتها أخته بعنقه متفددة العاطفة الدينية : ما أحسن ان يكون كل شيء واضحا وضوحه في نظر ماريا ، بسيطا بساطته في ظن ماريا • ما أحسن ان يعلم المرء أين يجد عوناً في هذه الحياة ، وما الذي ينتظره بعد أن يسجى في القبر ويهال عليه التراب ! لشد ما أكون سعيد النفس هاديء البال مطمئن القلب لو كنت أستطيع أن أقول : اللهم رحمتك ! ولكن لمن عساي أقول هذا ؟ لمن عساي أتوجه بهذا الدعاء ؟ هذه القوة التي لا نستطيع تحديدها ، ولا نقدر أن نتصورها ، ولا نملك أن نخاطبها ، ولا يمكننا حتى أن نعبر عنها بالفاظ ، أهي الكل الأكبر أم هي العدم ؟ أم تراها تكون هذا الاله الذي آراه موضوعاً هنا في هذا الكيس بيد ماريا ؟ لا شيء محقق ، لا شيء أكيد الا أن ما استطيع ان أفهمه ، ليس له قيمة ، وان ما أعجز عن فهمه ولكنه أهم كل شيء له قيمة عظيمة وشأن كبير » •

وتحرك النعش ، فعاد الامير آندره يحس بألم لا يطاق عند كل اهتزازة ، وتفاقت الحمى التي اعترته ، وأخذ يهذي • فكان تصور

أييه وامراته وأخته وابنه الذي سيولد ، وتذكر عاطفة الحنان التي احسها في الليل قبل المعركة ، وتخيل وجه نابوليون الصغير التافه الحقيقير ، ومرأى السماء التي لا نهاية لها فوق ذلك كله ، كان هذا هو نسيج التهاويل التي يتألف منها هذيانه •

• كان يتخيل حياة مطمئنة وسعادة عائلية هادئة في ليسيه جوري • وفيما هو يتمتع منذ الآن بهذه السعادة ، اذا بنابوليون الصغير يظهر فجأة بنظرته الباردة التي ليس فيها اكتراث ، نظرته السعيدة بشقاء الآخرين ، فاذا هو يرتد الى شكوكه وعذابه ، فكان منظر السماء يمدده وحده بشيء من السكينة والعزاء • واختلطت هذه الاحلام كلها وصارت سديما مظلما ونسيانا تاما ، وقال الدكتور لاري نفسه ، طبيب نابوليون ان احتمال ان تؤدي هذه الحالة الى الموت أكبر من احتمال ان تؤدي الى الشفاء •

قال لاري :

— هذا شخص عصبي صفراوي • فلا نجاة له مما هو فيه •

فعهد بالامير آندره وبالجرحى الآخرين الذين كانت حالتهم ميئوسا منها ، عهد بهم الى سكان البلاد يبذلون لهم ما يقدرون على بذله من عناية •

حاشية عن نشأة رواية «الحرب والسلام»

في التقدم الذي كتبناه لقصة « الديسمبرين » (المجلد الثالث)
ذكرنا أن عودة الديسمبرين من سيبيريا سنة ١٨٥٦ قد أوجت الى
تولستوي أن يؤلف رواية تاريخية عن عصرهم . ولكن هذه الفكرة
لم تبق في نفسه زمنا طويلا الا على صورة مشروع ينتوي أن يحققه،
ولم يكتب تولستوي الفصل الاول من رواية لم تكتمل على كل حال،
الا سنة ١٨٦٢ بعد أن التقى في مدينة فلورنسة بالامير الشيخ سرجي
فولكونسكي ، زعيم الديسمبرين ؛ وهو فصل يصوّر فيه تولستوي
عودة الامير لابازوف وأسرته الى موسكو سنة ١٨٥٦ .

وفي تلك السنة نفسها كان تولستوي يحس بعد زواجه براحة كبيرة
ونشاط شديد . فاذا باطار روايته يتسع ، واذا هو يخط صياغة أولى
جعل عنوانها : « ثلاثة عصور . الجزء الاول : سنة ١٨١٢ » . وهذه
العصور الثلاثة التي كان ينبغي أن تشملها الرواية هي : حرب ١٨١٢ ،
ثورة ١٨٢٥ ، العودة من سيبيريا سنة ١٨٥٦ .

ويمضي بعض الوقت فتتسع آفاق الرواية مزيدا من الاتساع .
ويأخذ تولستوي يبحث عن الحقيقة بدلا من التبغني بالاتصار بعد
الاخفاقات والعار، فيشرع في دراسة سنة ١٨٠٥، وهي السنة التي تتميز بذلك
الاخفاق الشهير في أوترلنس . ويخط تولستوي صياغة للرواية
يجعل عنوانها الآن : « من ١٨٠٥ الى ١٨١٤ » . وتبدأ تلك

الصياغة هذه البداية : « ان أولئك الذين يعرفون بطرس كيريلوفتش ب في بداية حكم الاسكندر الاول حوالي سنة ١٨٠٠ يصعب عليهم أن يتعرفوا في بطرس كيريلوفتش الذي عاد من سيرايا وقد صار شعره بلون الثلج بياضا ، يصعب عليهم أن يتعرفوا فيه ذلك الشاب المستخف المهمل الغليظ بعض الغلظة الشاذ بعض الشذوذ ، الذي رأوه في بداية حكم الاسكندر الاول ، حين كان عائدا منذ مدة قصيرة من الخارج ، حيث أتم تحصيله وفقا لرغبة ابيه » . ثم تلى ذلك قصة شباب بطرس . الابن الذي ولد لاييه سفاحا ولما يعترف أبوه بينوته (وابوه هذا سيد كبير من اسياد الزمان الماضي) ، وكان يسمى باسم ميدنسكي نسبة الى القرية التي ولد فيها . فتلك الصياغة الاولى للرواية انما تدور اذن منذ ذلك الحين على بطرس كيريلوفتش ييزوخوف، ذلك الظاميء الى الحقيقة ، الساعي دائما الى معرفة معنى الحياة (مثل تولستوي) ، فهو البطل الرئيسي للرواية . وكان تولستوي يريد أن يصوره في ثلاث مراحل من حياته : سنة ١٨٠٥ ، وهو في العشرين من عمره ، وسنة ١٨٢٥ وهو في الاربعين ، وأخيرا سنة ١٨٥٦ ، وهو في الحادية والسبعين . وكان يريد أن يرسم هذه الشخصية في اطار تاريخي هو هذه الفترات الثلاث الحرجة المتحركة من تاريخ روسيا . وقد لخص لنا تولستوي كيف اقتيد الى تصوير سنة ١٨٠٥ ، التي بها تبدأ رواية « الحرب والسلام » فقال انه « حين كان يتأهب لوصف ديسمبري عائد من سيرايا رجع الى عهد ثورة ١٤ ديسمبر ، ثم الى طفولة

وشباب الرجال الذين شاركوا فيها ، فافتتن عندئذ بحرب ١٨١٢ ، ولما كانت هذه الحرب متصلة بحرب ١٨٠٥ ، فقد اتخذ تلك الفترة بداية لروايته كلها » • وما كان يريد تولستوي أن يصوره في روايته أول الامر انما هو شخصيات نموذجية لكنها من صنع خياله ، جاعلا الاحداث الكبرى والشخصيات التاريخية في المحل الثاني من عنايته • تشهد بذلك واحدة من مقدمات الرواية التي كانت تختمر في نفسه : « لن يكون أبطالي لا نابوليون ، ولا الاسكندر ، ولا كوتوزوف ، ولا تاليران ، سوف أكتب تاريخ الرجال الذين ينعمون بحرية أكبر من الحرية التي ينعم بها رجال الدولة سوف أكتب تاريخ الرجال الذين عاشوا في أحسن الظروف ، الرجال الذين كانوا متحررين من الفقر والجهل ، الرجال الذين كانوا لا يتصفون بالعيوب اللازمة لترك أثر في سجل الوقائع » • وكان هؤلاء الرجال ، مثل تولستوي نفسه ، ينتمون الى الطبقة النبيلة التي تملك الاراضي ، وهي طبقة حرة فعلا ، طبقة غير مكترثة ، طبقة ملأى بالنقائص ، ولكنها زاخرة أيضا بعواطف الفروسية وزاخرة بالاندفاعات الصادقة • كان ينبغي أن تكون هذه الطبقة في المحل الاول من الرواية التي هي نفسها رواية تاريخية مستمدة من رواية أسرة ، كرواية بوشكين « بنت الضابط » ، لكنها أوسع منها عشر مرات •

ان هذا الجزء الاول الذي كان عنوانه « سنة ١٨٠٥ قد ظهر في مجلة « الرسول الروسي » عام ١٨٦٤ • وهو يشتمل منذ ذلك الوقت

على أوصاف لمعارك ، و بروي وقائع تاريخية • ولكن تولستوي غير راض عنه • وهو يود الآن أن ينقل الرواية كلها الى الصعيد التاريخي • وها هو ذا يكتب في « يومياته » (١٩ آذار - مارس ١٨٦٥) : « غرت في قراءة تاريخ نابوليون والاسكندر • فاذا بفكرة تشبه أن تكون غمامة من الفرح ومن الشعور بصنع عمل عظيم ، تلفني وتغمرني ، وهي أن أكتب تاريخا سيكولوجيا ، أن أكتب رواية الاسكندر ونابوليون • فأحكي كل ما كان يتصف به الرجال الذين يحيطون بهما ، وما كانا يتصفان به هما أيضا ، من صغار ، ومن كلام منق لا معنى له ، ومن جنون ، ومن تناقض كثير • أحكي هذا كله • » • ولكن هذا المشروع لن يتحقق الا تحققا جزئيا ، فلا يزيد تولستوي على أن « يزيح النقاب » عن عظمة نابوليون المفتعلة ، ولا يزيد على أن يرسم من صورة طبع الاسكندر الاول خطوطا أولى (وقد ظلت الصورة خطوطا أولى ، ربما خوفا من قيام مشكلات بين المؤلف وبين الرقابة على المطبوعات) ، ولا يزيد على أن يرسم صورة سيرانسكي ، وزير الاسكندر الاول •

وفي سنة ١٨٦٦ يقول تولستوي كلمة سريعة عما ستكون عليه الاجزاء التالية من روايته التي يريد أن يجعل لها الآن عنوانا جديدا هو : « خير كل ما ينتهي بخير » • وفي هذا المشروع الجديد نرى الامير آندره يبقى على قيد الحياة ، ويحب ناتاشا ، ولكنه حين يرى أخته ماريامولها يحب نيقولا روستوف ، يتنازل عن سعادته في سبيل أن تستطيع ماريام تزوج نيقولا وان يتدارك بمهرها عوز آل روستوف • ويتم الاحتفال

بزفاف ماريا ونيقولا ، وزفاف بطرس وناتاشا في يوم واحد . وبعد ذلك يشارك بطرس ونيقولا في حملات ١٨١٣ و ١٨١٤ ، ويعودان من باريس الى عروسيهما في أراضي آل روستوف سالمين لم يمسهما من الحرب سوء . هنا نرى الرواية العائلية تعود الى الظهور .

ولكن تولستوي أثناء استرساله في الكتابة سنة ١٨٦٧ ، ينخرط في طريق أخرى مختلفة عن هذه الطريق اختلافا تاما . ان حرب سنة ١٨١٢ تحتل الآن منزلة الصدارة ، وتوحي الى الكاتب بنظرات فلسفية عن التاريخ ، وواقع الحرب ، والدور الذي يقوم به فيها « عظماء الرجال » من جهة ، والشعب من جهة أخرى . وتتجسد عندئذ فكرته الكبرى ، وهي أن « عظماء الرجال » الذين يتغنى بهم كارليل ويمجدهم ليسوا هم الذين يصنعون التاريخ ، وانما التاريخ من صنع سواد الشعب ، من صنع الشعب الذي يتألم ويقاسي والذي به يتحقق النصر . ان تولستوي يقترب هنا من دوستوفسكي الذي هتف يقول : « ضع من قدرك أيها الرجل المغتر ، واتعب خاصة في الارض التي ولدت عليها » ، ويقترب أيضا من دوستوفسكي الذي سيصف في تلك السنة نفسها (١٨٦٦) هزيمة « السوبرمان » ، هزيمة راسكولنيكوف ، هذا النابوليون الفاشل . لذلك نرى التعارض بين نابوليون وكوتوزوف في الرواية يشتد وضوحا وبروزا . فـ نابوليون يبدو أنه يوجه الاحداث ولكنه يتوه ويضل ضلالا كبيرا ، وكوتوزوف يكاد يدع للاحداث أن تقوده ، فتحمله ثقة جنوده ، وتحمله ثقة الشعب . ان هذا الشعب الذي يسند اليه المؤلف شأنا خطيرا

متزايدا ، ستجسده شخصية أفلاطون كاراتايف ، الجندي البسيط الذي سيكشف لبطرس ييزوخوف عن المعنى العميق للحياة في البساطة المسيحية والمذلة المسيحية .

وفي شهر آذار (مارس) انما اهتدى تولستوي الى العنوان النهائي لروايته ، العنوان الذي يناسبها أكثر من أي عنوان آخر : « الحرب والسلب » . واتم تعلمون أن تولستوي قد استمد هذا العنوان من كراسة بقلم برودون (الذي حادته تولستوي بمدينة بروكسل والذي شدت نظرياته الفوضوية اهتمام تولستوي) . وبهذا العنوان انما ظهرت في شهر كانون الاول من سنة ١٨٦٧ الكتب الثلاثة الاولى من هذه الرواية ، أعني الكتاب الاول والكتاب الثاني في الطبقات اللاحقة . وفي سنة ١٨٦٨ بدل الجزء الثاني من الرواية بتديلات كثيرة لا حصر لها . وكان موضوع حرب ١٨١٢ هو الذي يعود اليه المؤلف ويراجعه ويوسعه . ثم وقف العمل الكبير عند هذا الحد . أصبح تولستوي لا يملك القوة (أو الرغبة) اللازمة لمتابعة أبطاله ومرافقتهم مع الجيش الروسي الى باريس سنة ١٨١٤ . وليس هناك الا خاتمة قصيرة تصور بطرس وفاتاشا بعد ذلك بسبع سنين . وفي هذه الخاتمة يحس المرء سلفا أن بطرس الذي كان مستاء من نظام آراختشايف يمكن أن يصبح ديسميريا ، وأن فاتاشا قد تتبعه الى منفاه ، متفانية تفاني النساء الروسيات في ذلك العصر الذي تغنى به الشاعر نكراسوف سنة ١٨٧٠ . هكذا ظهرت الكتب الثلاثة التالية في المدة الواقعة بين شهر آذار

(مارس) وشهر كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٨٦٩ • وهي الآن الكتاب الثالث والكتاب الرابع من رواية « الحرب والسلام » •

كذلك نرى أن تولستوي يعجز بعد ست سنين قضاها في عمل تلهبه حماسة شديدة عن انجاز فكرته الكبرى : ألا وهي تصوير تاريخ العهود الثلاثة • انه لم يستطع أن يعالج الا عهدا واحدا من تلك العهود الثلاثة، أعني العهد الاول • ولكنه بلغ من التوسع والتعمق في وصف ذلك العهد ، ووضع فيه شخصيات تبلغ من الكثرة (لقد أحصيت في الرواية ٥٥٩ شخصية) ، ورسم لوحات حية تبلغ من الوفرة ، أن المرء ينسى أخيرا اغفال المشروع الاصيلي ازاء الغزارة الخارقة في الكتاب الذي أنجز •

كلمة أخيرة : في طبعة أعمال ليون تولستوي التي ظهرت سنة ١٨٧٣ في ثمانية مجلدات ، ادخل المؤلف على رواية « الحرب والسلام » تعديلات جديدة فالكتب الستة الاصلية صارت أربعة ، والنصوص المكتوبة بالفرنسية حلت محلها نصوص روسية ، والتأملات الفلسفية أودعت في ملحق • وأخيرا ، في طبعة ١٨٨٦ ، أعادت الكوتتيسة صوفيا تولستوي النصوص الفرنسية مع ابقائها على تقسيم الرواية أربعة كتب ، وأعادت الاستطرادات التاريخية والفلسفية الى مواضعها • وقد وافق تولستوي ضمنا على هذا التغيير الجديد ، وفي هذه الصورة الاخيرة انما ظهرت بعد ذلك جميع الطبعات اللاحقة لرواية « الحرب والسلام » •

ألكسندر سولوفيف

خلاصة الفصول

الكتاب الاول

الجزء الاول

الفصل الاول - سهرة في المجتمع الراقي بمنزل الوصيفة آنا بافلوفنا شيرر • ربة الدار والامير فاسيلي كوراجين • حديث عن نابوليون • آنا بافلوفنا تنتوي تزويج آنا تول ، ابن الامير فاسيلي ، بالاميرة الغنية ماريا بولكونسكي

الفصل الثاني - ضيوف مدموازيل شيرر : ابنة الامير فاسيلي الجميلة هيلين ، ابنه هيبوليت ، الاميرة الصغيرة ليزا بولكونسكي • المهاجر الفرنسي الفيكونت مورتمار ، القس موريو • طقس من الطقوس: الضيوف يذهبون الى عمة ربة الدار يحيونها • وصول بطرس ييزو خوف الى السهرة

الفصل الثالث - حديث عن اقدام نابوليون على اعدام دوق انجهين • الفيكونت يروي قصة لقاء الدوق وبونا بورت عند الممثلة مدموازيل جورج • حديث بين بطرس والقس عن التوازن السياسي وصول الامير آندره بولكونسكي • التقاؤه ببطرس انصراف الامير فاسيلي وابنته هيلين وذهابهما الى حفلة سفير انجلترا

الفصل الرابع - الاميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي تسأل الامير فاسيلي أن يحصل لها من القيصر على نقل ابنها الى الحرس • مناقشة في الصالون عن نابوليون • بطرس يدافع عن الثورة ونابوليون فيهاجمه

ضيوف آنا بافلوفنا شيرر ، ويؤيده آندره • الامير هيبوليت يحكي
نكتة عن سيدة من موسكو • • • • •

الفصل الخامس - بطرس ييزوخوف • انصراف ضيوف آنا
بافلوفنا • هيبوليت كوراجين والاميرة بولكونسكي • وصول بطرس
الى بيت بولكونسكي حديثه مع الامير آندره عن اختيار بطرس طريقا
لحياته • • • • •

الفصل السادس - بطرس عند آندره بولكونسكي وزوجته •
قيام مشادة بين الزوجين ، الاميرة الصغيرة والامير آندره بصدد سفر
الامير آندره الى الحرب • تأملات يديها الامير آندره عن نفسه وعن
الزواج وعن النساء • يذهب بطرس ييزوخوف الى سهرة عند آنا تول
كوراجين • دولوخوف ورهانه مع الانجليزي ستيفنس • • • • •

الفصل السابع - الاميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوى عند آل
روستوف • الكونت والكونتيسة روستوف يستقبلان زوارا بمناسبة
عيد ناتاليا الام وناتاليا البنت • زيارة السيدة كاراجين والآنسة كاراجين •
حديث عن النبأ الاساسي في ذلك اليوم وهو مرض الكونت الشيخ
يزوخوف ، وعن ابنه غير الشرعي بطرس الذي طرد من بطرسبرج لقيامه
بأعمال هي فضائح ، وعن مآل الثروة الضخمة الطائلة التي يملكها
الكونت الشيخ ييزوخوف ، بعد موته • • • • •

الفصل الثامن - الشبية في منزل آل روستوف ناتاشا ، نيقولا ،
بيتيا ، صونيا ، بوريس دروبتسكوي في الصالون • حكاية العروسة
ميمي •

الفصل التاسع - في الصالون • صونيا ، قرية نيقولا من جهة
أبيه • حديث الكونت مع الزائرة عن دخول نيقولا الجيش ، ومع
الكوتيسة عن التريبة • نيقولا وصونيا فيرا روستوف ••• •

الفصل العاشر - ناتاشا روستوف تختبئ في حديقة الشتاء •
مشجرة غيرة ، وقبلة يتبادلها نيقولا وصونيا • ناتاشا تنادي بوريس
الى حديقة الشتاء • وتقرح عليه أن يقبل دميته (عروستها) • ناتاشا
تقبل بوريس • حديثهما عن الحب •••••

الفصل الحادي عشر - العشاق في غرفة التدخين اثنين اثنين : صونيا
مع نيقولا ، وناتاشا مع بوريس • اشتجارهم مع فيرا • حديث بين
صديقتي الطفولة : الكوتيسة روستوف تشكو من سوء حال شئونهم
وأعمالهم ، والاميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي تقول انها أفلحت
في الحاق ابنها بوريس في الحرس ، وتشكى من أن سوء حالها المالية :
انها لا تملك من المال ما يمكنها من تجهيز بوريس • آمالها في الثروة التي
سيتركها الكونت بيزوخوف ••••

الفصل الثاني عشر - آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي وابنها يذهبان
الى الكونت بيزوخوف المريض • التقاؤهما بالامير فاسيلي • آنا
ميخائيلوفنا تقرر تولي العناية بالمريض •

الفصل الثالث عشر - بطرس بيزوخوف بموسكو في منزل أبيه •
وإصولة والتقاؤه بالاميرات بعد طرده من بطرسبرج • بوريس يأتي
بطرس • حديثهما يتصارحان • الاميرة دروبتسكوي وابنها يرجعان
الى منزل آل روستوف • حديثهم عن وصية الكونت بيزوخوف ••• •
٥٣/م - ٨٣٣ -

الفصل الرابع عشر - الكوتيسة روستوف تطلب من زوجها خمسمائة روبل ، فلما عادت آنا ميخائيلوفنا أعطتها المبلغ لتنفقه في تجهيز ابنها بوريس . الصديقتان تذرفان دموعا

الفصل الخامس عشر - في منزل آل روستوف ، قبل العشاء الفخم . انهم ينتظرون وصول عرابة ناتاشا ، ماريا دمتريفنا آخروسيموفا . حديث بين شنشين وبين بيرج في مكتب الكونت . بطرس ييزوخوف في صالون آل روستوف . وصول السيدة آخروسيموفا . المدعوون يقومون الى المائدة . العشاء ...

الفصل السادس عشر - حديث أثناء العشاء عن محاربة بونايرت . كولونيل سلاح الفرسان . جواب نيقولا روستوف . « شيطنة » ناتاشا ...

الفصل السابع عشر - الشبيبة تغني . دموع صونيا بسبب حبها نيقولا وبسبب أبيات الشعر التي كتبها لها . تتكاشف الفتاتان . ناتاشا وبوريس وصونيا ونيقولا يغنون أغنية « الينبوع » . رقصات . الكونت ايليا آندرئتش روستوف يرقص على أنغام لحن «دانيلو كوبر» مع ماريا دمتريفنا آخر وسيموفا

الفصل الثامن عشر - في منزل الكونت ييزوخوف المحتضر . الاستعداد للمسحة الاخيرة . أحاديث الحضور . الدكتور لوران . تواطؤ سري بين الامير فاسيلي والاميرة كاتيش على اخفاء وصية الكونت

الفصل التاسع عشر - بطرس ييزوخوف يرجع الى المنزل ومعه

آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي • يدخل بطرس صالون الاستقبال الخاص بأبيه المحتضر الذي طلب أن يراه • موقف الاشخاص الحاضرين منه ...

الفصل العشرون - بطرس عند أبيه المريض • الكونت ييزوخوف • المسحة الاخيرة : الاميرات ، السيدة دروبتسكوي ، الامير فاسيلي ، الكهنة ، الاطباء ، الخدم ، الخ • كبرى الاميرات تسرق الوصية ...
الفصل الحادي والعشرون - الامير فاسيلي كوراجين والاميرة كاتيش • بطرس وآنا ميخائيلوفنا • مناقشة وصراع على المحفظة التي تضم الوصية • موت ييزوخوف

الفصل الثاني والعشرون - اراضي آل بولكونسكي في ليسيه جوري • الامير الشيخ نيقولا آندرئتش بولكونسكي • ابنة الاميرة ماريا • درس هندسة • رسالة من جوليا كاراجين وجواب الاميرة ماريا ...

الفصل الثالث والعشرون - وصول الامير آندره وزوجته الى ليسيه جوري • التقاؤهما بالاميرة ماريا ووصيفتها الفرنسية مدموازيل بورين • لقاء الامير الشيخ وابنه ، وحديثهما في الحرب والسياسة •
الفصل الرابع والعشرون - عشاء في ليسيه جوري • مناقشة بين الامير الشيخ وابنه عن سوفوروف وبونابرت • المهندس المعمار ميخائيل ايفاتش

الفصل الخامس والعشرون - استعدادات لسفر الامير آندره الذهاب الى الالتحاق بالجيش • محادثته الاخيرة مع أخته • الاميرة

ماريا تهدي اليه مدالية • وداع الامير آندره لايه وامراته وأخته •
السفر

الجزء الثاني

الفصل الاول - الجيوش الروسية في شهر تشرين الاول (اكتوبر)
سنة ١٨٠٥ ، في النمسا ، بقرب براوانا • فوج من أفواج المشاة يتهيا
لان يستعرض القائد العام • قائد الفوج يصدر أمره الى الجنود
بتغيير ثيابهم • الجنرال يلوم الكابتن تيموخين لان الضابط المجرد من
رتبته العسكرية دولوخوف يرتدي معظفا أزرق ، ويأمره باصلاح
الخطأ

الفصل الثاني - كوتوزوف يستعرض الفوج • القائد العام يقف
قرب السرية الثالثة ويكلم تيموخين • ويستدعي دولوخوف • فرح
الجنرال بعد النجاح والتوفيق اللذين أصابهما الاستعراض • حديثه
مع تيموخين • أحاديث الجنود بعد الاستعراض • المغنون • حديث
جيركوف ودولوخوف

الفصل الثالث - حديث بين كوتوزوف وجنرال نمسوي عضو في
المجلس الحربي الاعلى » • الامير آندره بولكونسكي في هيئة أركان
كوتوزوف • وصول الجنرال النمسوي ماك • جيركوف يهنيء الجنرال
النمسوي شتراوخ وعضو « المجلس الحربي الاعلى » بوصول ماك •
الفصل الرابع - نيقولا روستوف ، المرشح في فوج بافلوجراد
من سلاح الفرسان ، بينما كان فوجه معسكرا بقرب براوانا ، يرجع من

قيامه بسخرة توزيع العلف • حديث طاريء بينه وبين الالمانى صاحب المسكن • وصول الضابط تليانين • وصول الرقيب ليلتمس مالا ، واختفاء كيس دينيسوف • روستوف يقنع تليانين بأن الكيس سرق...

الفصل الخامس - مناقشة حامية بين ضباط كتيبة دينيسوف عن قضية تليانين ، وقيام خلاف بين نيقولا روستوف وقائد الفوج بسبب ذلك • وصول جيركوف وابلاغه هزيمة ماك والامر بالتحرك

الفصل السادس - انسحاب الجيوش الروسية نحو فيينا • عبور نهر اينس • نزفتسكي والضباط • الجنرال يرسل نزفتسكي ليكرر على الفرسان أمره بأن يعبروا آخر العابرين ، وبأن يحرقوا الجسر

الفصل السابع - أواخر القطعات الروسية تعبر جسر اينس • تزامم وتدافع على الجسر • أقوال الجنود الذين يعبرون • عربة نقل ألمانية تحمل نساء ، وبقرة تلفت انتباه الجميع • نزفتسكي يلتقي على الجسر بدنييسوف • مرور كتيبة دينيسوف

الفصل الثامن - القطعات الفرنسية تقترب من الجسر • المدفعية الفرنسية تطلق نيرانها على الفرسان • دينيسوف بقرب كتيبته • الكتيبة تعبر الجسر وتنضم الى القطعات الاخرى • جيركوف ثم ضابط آخر من حاشية الامبراطور ونزفتسكي تحمل الى كولونيل فرسان بافلوجراد أمر قائد مؤخرة الحرس باحراق الجسر • الكولونيل يأمر كتيبة دينيسوف بأن تعود أدراجها وتفعل ما يجب • الفرسان يحرقون الجسر تحت مرمى نيران الفرنسيين • مشاعر نيقولا روستوف

الفصل التاسع — انسحاب جيش كوتوزوف الى سافلة نهر الدانوب • انتصار روسي بقرب كريمس • القائد العام يرسل الامير آندره الى بلاط امبراطور النمسا حاملا رسالة تنبيء بهذا الانتصار • الامير آندره أثناء الرحلة وفي برون • وزير الحرب يستقبل الامير آندره بدون اكرثا • تغير حالة الامير آندره النفسية ...

الفصل العاشر — الامير آندره ينزل في مدينة ضيفا على صديقه الدبلوماسي بيليين حديث الامير آندره بولكونسكي مع بيليين عن الاستيلاء على فيينا ومعركة كريمس والتحالف مع بروسيا ، وخيانة النمسا ، والانتصار الجديد الذي حققه بونايرت • •

الفصل الحادي عشر — الامير آندره عند بيليين • حلقة من الشبان الدبلوماسيين الروس • هيوليت كوراجين • الامير آندره يذهب الى قصر امبراطور النمسا • •

الفصل الثاني عشر — الامير آندره يقابل الامبراطور فرانسوا ، امبراطور النمسا • الامير آندره بولكونسكي يوشح بوسام « ماري تيريز » • احتفاء رجال البلاط جميعا به • عودة الامير آندره الى عند بيليين يحكي له قصة استيلاء مارشالات فرنسيين على جسر في فيينا • الامير آندره يقرر العودة الى الجيش فورا • • • •

الفصل الثالث عشر — الامير آندره بين القطعات الروسية المتراجعة • منظر الجيش وهو يتقهقر بسرعة وفوضى • مشادة بين الامير آندره بولكونسكي وبين ضابط مسئول عن القوافل بصدد عربة نقل كانت تقل امرأة طبيب • خوف وقلق في هيئة أركان القائد العام • كوتوزوف

يكلف باجراتيون بأن يذهب على رأس مفرزة ليناوش الفرنسيين
فيؤخرهم عن التقدم

الفصل الرابع عشر - كوتوزوف يتلقى نبأ الخطر يهدد الجيش
الروسي الذي تلاحقه قوات فرنسية ضخمة • كوتوزوف يرسل مفرزة
باجراتيون الى هولابرون ، وقوامها أربعة آلاف رجل لصد جيش العدو.
يظن مورا أن هذه المفرزة هي أكثر الجيش الروسي فيقترح عقد هدنة.
رسالة نابوليون الى مورا ، وفيها يأمره بقطع الهدنة

الفصل الخامس عشر - الامير آندره في مفرزة باجراتيون • آندره
بولكونسكي يزور الموقع مع ضابط الاركان العامة • مشهد في خيمة
قيم الكاتين • الكابتن توشين • منظر القطعات الروسية • مشهد
عقوبة جسدية يوقعها جنود من رماة القنابل اليدوية في أحد الجنود •
الجندي سيدوروف يتكلم « بالفرنسية » ضحكات الجنود الروس
والفرنسيين

الفصل السادس عشر - الامير آندره يلاحظ ، وهو في سرية
مدفعية توشين ، مواقع القوات الروسية والقوات العدو ، ويرسم
لها خريطة • يفاجيء حديثا بين ضباط في الخص عن الخوف من الموت.
أول طلقة رصاص من الجانب الفرنسي • توشين يخرج من الخص •
الفصل السابع عشر - نشوب معركة شونجراين ، الامير آندره
يعدو على حصانه قماصا نحو جرونت ، وينضم الى حاشية باجراتيون •
المستمع وجيركوف • باجراتيون في سرية مدفعية توشين • أوامر
يصدرها باجراتيون الى القادة ، ودوره في المعركة • •

الفصل الثامن عشر — باجراتيون في الجنب الايمن من مفرزته
 قرب المعركة • قائد فوج ، شيخ يبلغ باجراتيون أن هجمة الفرسان
 الفرنسيين قد صدت ، وينبئه بالخسائر التي مني بها فوجه • ويضرع
 الى باجراتيون أن لايعرض نفسه للخطر • ظهور رتل فرنسي يتقدم ،
 وكتبتين روسيتين • باجراتيون يقود الروس الى الهجوم • رأي تيير
 ونابوليون في هذا الهجوم •

الفصل التاسع عشر — انسحاب الجنب الايمن للقطعات الروسية.
 جيركوف يحمل الى الجنرال الذي يقود الجنب الايسر أمر باجراتيون
 بالانسحاب نزاع بين قائدي الجنب الايسر ، القائد العام لفوج المشاة
 الذي استعرضه كوتوزوف في براوناو وقائد فوج فرسان بافلوجراد.
 مباراة جسارة بين الجنرال والكولونيل • كتيبة فرسان دينيسوف
 تهاجم • نيقولا روستوف أثناء الهجوم • اصابته برض في ذراعه ...
 الفصل العشرون — أفواج من المشاة يباغتها الفرنسيون في الغابة.
 قائد الفوج الذي استعرضه كوتوزوف في براوناو يحاول صد الجنود
 الهارين عن الهروب • الروس يدحرون الفرنسيين لحظة • بطولة
 دولوخوف • القتال الذي قامت به سرية مدفعية توشين المنسية •
 انتعاش رماة المدفعية وفرحهم بنجاح رميهم واخفاق الهجوم الفرنسي •
 عالم خيالي ينشأ في رأس توشين ، وصول ضابط الى سرية المدفعية
 يحمل اليها أمرا بالانسحاب فورا ، وانصرافه فورا • وصول الامير
 آندره حاملا ذلك الامر نفسه

الفصل الحادي والعشرون — انسحاب سرية توشين ولقاء القادة

والضباط المرافقين • توشين يأمر براكاب نيقولا روستوف المرضوض على مدفع • القطعات تتوقف • توشين وروستوف بقرب النار • الجنرال يستدعي توشين • باجراتيون جالس الى المائدة في منزل من منازل الفلاحين • قائد فوج مشاة يحكي لباجراتيون هجوم فوجه ، ويشيد ببطولة دولوخوف • وصول توشين • اضطرابه وتشوشه لدى رؤية القادة • باجراتيون يسأل توشين عن ترك مدفعين • تدخل الامير أندره وثناؤه على توشين • نيقولا روستوف ليلا بقرب نار معسكر ••

الجزء الثالث

الفصل الاول - ماينويه الامير فاسيلي من تزويج بطرس بيزوخوف ابنته • بطرس في بطرسبرج عند آل كوراجين • تبدل موقف اسرته ومعارفه وأصدقائه والمجتمع منه ، منذ أصبح اسمه الكونت بيزوخوف وأصبح رجلا ثريا • الامير فاسيلي يقوم بدور الناصح الامين لبطرس • بطرس بيزوخوف في سهرة عند آنا بافلوفنا شير • هيلين و بطرس في ركن مع عمة ربة الدار • بطرس يقرر أن تكون هيلين زوجته •••

الفصل الثاني - بطرس يقرر أن يسافر وأن يتحاشى هيلين ، ومع ذلك يظل مقيما عند آل كوراجين ستة أسابيع ، وهو في نظر الجميع يزداد التزاما بها • سهرة عند الامير فاسيلي بمناسبة عيد ابنته هيلين • الامير فاسيلي يروي نكتة عن سرجي كوزميتش • بطرس وهيلين • خلوتهما في الصالون الصغير • تردد بطرس • الامير فاسيلي يبارك الخطيبين • بطرس يتزوج هيلين ••

الفصل الثالث - الامير العجوز يقولون آندريفتش بولكونسكي يتلقى نبأ الزيارة التي يزمع الامير فاسيلي وابنه أن يقوما بها الى ليسيه جوري . استياء وحق الامير الشيخ يوم وصول فاسيلي كوراجين وابنه . غضبه على وكيله آلياتش الذي أمر بكنس الثلج من الشارع ، واصداره أمره باعادة تغطية الشارع بالثلج . عشاء . حياة الاميرة الصغيرة في ليسيه جوري : خشيتها المستمرة حميها الامير الشيخ ، وفورها الدائم منه . الاميرة الصغيرة لا تحضر العشاء . الامير يذهب اليها في جناحها بالمنزل . وصول الزائرين . حديث بين الامير فاسيلي وابنه قبل أن ينضما الى أصحاب الدار الاميرة الصغيرة ومدموازيل بورين تحاولان أن تلبسا الاميرة ماريا أحسن الثياب وأن تمشطا شعرها أحسن تمشيطة . الحالة النفسية للاميرة ماريا قبل لقاء الزائرين ...

الفصل الرابع - الاميرة ماريا تنضم الى الضيوف . آنا تول . حديث عام : « تذكر أحداث لم تحدث في يوم من الايام » . آنا تول يهتم بمدموازيل بورين . الامير الشيخ يرتدي ثيابه . خواطره عن هذه المسألة التي لم تحل ، أعني مسألة زواج الاميرة ماريا . الامير الشيخ ينضم الى ضيوفه فيؤنب ابنته لانها تزينت وبدلت تسريحة شعرها . حديث بين الامير الشيخ وآنا تول . الامير فاسيلي يعرب للامير الشيخ عن رغبته وآماله . احتياج النساء الثلاث منذ وصول آنا تول . أحلام الاميرة ماريا ومدموازيل بورين . في حجرة التدخين . الاميرة ماريا تعزف على البيانو . آنا تول يغازل مدموازيل بورين ...

الفصل الخامس - عواطف الاميرة ماريا ، ومدموازيل بورين والاميرة الصغيرة بعد السهرة • عواطف الامير الشيخ بعد أن طلبت منه الاميرة ماريا زوجة لآنا تول • آنا تول ومدموازيل بورين يلتقيان في حديقة الشتاء • حديث الامير الشيخ مع ابنته في أمر طلبها زوجة لآنا تول • بينما كانت الاميرة ماريا تجتاز حديقة الشتاء اذ هي تباعت آنا تول معانقا وصيفتها الفرنسية مدموازيل بورين • رفضها القاطع الجازم أن تتزوج الامير آنا تول فاسيلي • فرح الامير الشيخ بهذا الرفض • أحلام تضحية وايثار في ذهن الاميرة ماريا • انها تقرر أن تدبر زواج آنا تول ومدموازيل بورين مهما يكلفها ذلك من أمر ...

الفصل السادس - آل روستوف يتلقون من نيقولا رسالة يبلغهم فيها أنه أصيب بجرح وأنه رقى الى رتبة ضابط • آنا ميخائيلوفنا تهيب الكونتيسة لتلقى النبأ • ناتاشا تحزر أن رسالة وصلت • فلما علمت مضمون الرسالة أخبرته به صونيا • رأي بيتا في أخيه وأختيه حديث بين ناتاشا وصونيا عن نيقولا • آنا ميخائيلوفنا تسلم الكونتيسة رسالة ابنها • الكونتيسة تقرأ الرسالة ، والاسرة كلها تجيب نيقولا ...

الفصل السابع - معسكر أولوتس • نيقولا روستوف يذهب الى معسكر الحرس ليلقى بوريس دروبتسكوي الذي يجب أن يسلمه رسالة ومالا وصلا اليه من أسرته • لقاء نيقولا وبوريس وبيرج • روستوف يقرأ رسائل أسرته • حديث بين بوريس ونيقولا عن وظائف الضابط المرافق • ضباط الحرس يروون حملتهم ، وروستوف يروي

هجوم فرسان بافلوجراد • دروبتسكوي يزوره الامير آندره ملاسنة بين روستوف وبولكونسكي ...

الفصل الثامن - الامبراطور ، الاسكندر الاول وفرانسوا ، يستعرضان القطعات الروسية والنمسية • نيقولا روستوف يشعر بعاطفة حب وعبادة نحو الامبراطور الاسكندر ...

الفصل التاسع - بوريس دروبتسكوي يسافر الى أولموتس سعيا الى لقاء بولكونسكي ، ويحصل على وعد بالحاقه ضابطا مرافقا لشخصية عالية المقام • مشهد في صالة الانتظار التي تفضي الى غرفة القائد العام : حديث بين الامير آندره وبين جنرال شيخ • بوريس يقرر أن لا يعمل الا وفقا للتبعية غير المكتوبة • بولكونسكي ودروبتسكوي يذهبان الى الامير دولجوروكوف • دولجوروكوف يحدثهما عن جلسة مجلس الحرب وعن انتصار حزب الشباب أنصار الهجوم ، وعن رسالة نابوليون ، ويروي لهما نكتة عن نابوليون والكونت موركوف • الامير آندره يطلب من دولجوروكوف • أن يدعم بوريس • انفعال بوريس دروبتسكوي من شعوره بأنه قريب من السلطة العليا ...

الفصل العاشر - كتيبة فرسان دينيسوف ، التي ينتمي اليها نيقولا روستوف جعلت كتيبة احتياط • انتصار الروس على الفرنسيين في مدينة فيشاو • حشرات روستوف لانه لم يشارك في القتال • روستوف يشتري من القوزاق حصان فارس فرنسي أسير • مرور الامبراطور الاسكندر • حماسة روستوف • روستوف يلح الامبراطور في فيشاو

مرة أخرى • دينيسوف يحتفل بترقيته الى رتبة ميجر • روستوف يحلم بأن يموت في سبيل القيصر ••••

الفصل الحادي عشر - توعدك صحة الامبراطور في فيشاو. وصول مفاوض فرنسي ، هو سافاري ، مقترحاً أن يتم لقاء بين الامبراطور الاسكندر ونابليون • ارسال الامير دولجوروكوف في مهمة الى نابليون • حركة في دوائر الجيش العليا يوم ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) تأييدا لبدء معركة أوسترلتس • الامير آندره عند الامير دولجوروكوف • الامير دولجوروكوف يصف مقابلته لنابليون ، ويقول ان نابليون يخشى نشوب معركة عامة شاملة • دولجوروكوف يعرض خطة حركة الالتفاف التي تصورها فايروتهر • اعتراضات الامير آندره الذي يعرض خطته هو كوتوزوف يرى أن المعركة ستخسر •

الفصل الثاني عشر - اجتماع مجلس الحرب • فايروتهر • كوتوزوف ينأى أثناء المناقشات • فايروتهر يقرأ نص خطة معركة أوسترلتس • الجنرالات أثناء الجلسة • اعتراضات لانجرون • كوتوزوف يرفع الجلسة • تأملات الامير آندره في الليلة التي سبقت معركة أوسترلتس • أحلام طموحة تغزو خيال الامير آندره عن حلول اللحظة التي بطل « تولون » جديدة ••

الفصل الثالث عشر - نيقولا روستوف في طلائع القطعات • أحلامه • صيحات في معسكر العدو • الامير باجراتيون والامير دولجوروكوف يجيئان لملاحظة هذه الظاهرة الغريبة ، ظاهرة الصيحات والنيران في جيش العدو • باجراتيون يرسل روستوف للتأكد من أن

الطلائع الفرنسية لم تنسحب • الفرنسيون يطلقون الرصاص على روستوف • باجراتيون يحتفظ بروستوف ضابطا مرافقا • الامر اليومي الذي أصدره نابوليون الى قطعات جيشه

الفصل الرابع عشر - حركة الارتال الروسية • شعور بالفوضى والبلبلة والاضطراب • استياء من النمساويين • القتال يبدأ على شطآن نهر جولدباخ • نابوليون قبل معركة أوسترليس ...

الفصل الخامس عشر - تحرك الرتل الروسي الرابع بقيادة كوتوزوف • مشاعر وأحلام الامير آندره قبل القتال • غضب كوتوزوف على جنرال • كوتوزوف يرسل الامير آندره لاييقاف الفرقة الثالثة ووضع قناصة في الامام • امبراطورا روسيا والنمسا وحاشيتهما تطوف بالقطعات • الاسكندر الاول يسأل كوتوزوف لماذا لا يشرع في القتال • كوتوزوف يصدر أمره بالسير • ميلورادوفتش يقود رتلته الى النار ...

الفصل السادس عشر - اشتباك بين الرتل الرابع والفرنسيين • فرار القطعات الروسية • جرح كوتوزوف الامير آندره يندفع هاجما بكتيبة، حاملا الراية بيده • اصابته بجرح • ما يخامر فكره تأملات عن السماء العالية الابدية ..

الفصل السابع عشر - في الجنب الايمن من القطعات الروسية عند باجراتيون • الامير باجراتيون يرسل نيقولا روستوف في مهمة الى القائد العام أو الامبراطور • روستوف يمر بجبهة القطعات الروسية • هجمة « الفرسان الحرس » • بينا كان روستوف يمر أمام المشاة الحرس،

اذ هو يلتقى بوريس دروبتسكري وييرج • روستوف يرى هاربين
روسا ونمسويين يمرون به ويجتازونه ...

الفصل الثامن عشر - روستوف في قرية براتسن • جماهير متفرقة
مبعثرة من الجند الروس • شائعات عن جرح الامبراطور والقائد العام •
ساحة القتال يتناثر عليها القتلى والجرحى • الفرنسيون يطلقون الرصاص
على روستوف • بعد قرية جوستيرادك يلحق روستوف الامبراطور ،
لكنه لا يجزؤ أن يقبل عليه ويواجهه • الكابتن فون تول يتحدث مع
القيصر • يندم روستوف على تردده ويبحث عن كوتوزوف • الجيش
الروسي خسر معركة أوسترلتس • انسحاب الارتال الروسية مفككة •
الفرنسيون يقصفون بالمدافع سد آوجست • دولوخوف على سد
آوجست ...

الفصل التاسع عشر - جرح الامير آندره على روابي براتسن •
نابوليون يطوف بساحة المعركة ، فيلاحظ أن الامير آندره ما يزال
حيا ، فيأمر بنقله الى مركز الاسعاف • الجرحى من الضباط الروس
يوضعون في الامام ليراهم نابوليون • نابوليون يتحدث مع الامير
رينين والليوتان سوختيلن • خواطر الامير آندره عن نابوليون : تفاهة
العظمة ، تفاهة الحياة والموت • استطراد عن المداية التي انتزعها الجنود
الفرنسيون من عنق الامير آندره ثم ردوها الى عنقه • الامير آندره
وعدد من الجرحى الآخرين يعهد بهم الى السكان ...

الفهرس

الصفحة

١٣	تصدير بقلم جورج هالداس
١٥	مقدمة المؤلف
٢٣	الحرب والسلم ، الكتاب الاول
٣٧	الجزء الاول
٣٢٩	الجزء الثاني
٥٧٣	الجزء الثالث
٨٢١	حاشية عن نشأة رواية « الحرب والسلم »
٨٣١	خلاصة الفصول

مطابع كلية القيادة والاركان

ليون تولستوي



الاعمال الادبية الكاملة

بإصدار هذا المجلد ، الرابع من خمسة عشر مجلداً ، تمضي وزارة الثقافة والارشاد القومي في نشر الاعمال الادبية الكاملة لتولستوي مترجمة عن النص الفرنسي لهذه الاعمال، الذي نشرته دار Rencontres في لوزان بسويسرا.

ويقوم بترجمة الاعمال الكاملة احد كبار المترجمين الى اللغة العربية الدكتور سامي الدروبي الذي اشتهر بتملكه اللغة العربية .

وامانته في الترجمة وكفاءته في نقل أروع الاعمال الادبية الى اللغة العربية ، بأسلوبه الأخاذ .